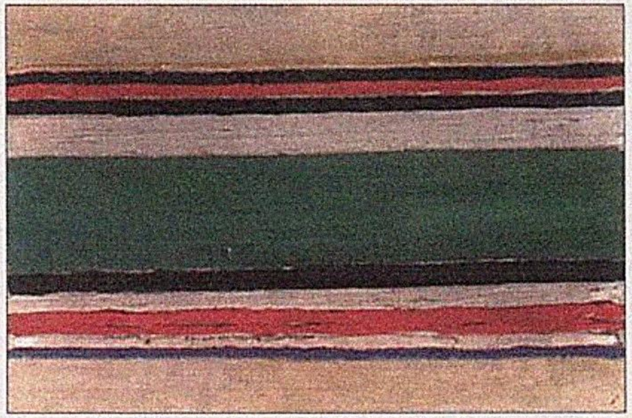
عبده خال

الموتُ يمرُّ من هنا

رواية



علي مولا
منشورات الجمل

عبده خال

الموت يمرّ من هنا

رواية

منشورات الجمل

ولد **عبده خال** عام ١٩٦٢ في منطقة جازان/السعودية. درس العلوم السياسية في جامعة الملك عبد العزيز بجدة، يقيم اليوم ويعمل هناك كمشرف على الملحق الاسبوعي الثقافي بجريدة «عكاظ». من مؤلفاته: **لا أحد**، قصص (القاهرة ١٩٩٢)؛ **ليس هناك ما يبهج**، قصص (القاهرة ١٩٩٣)؛ **الموت يمرّ من هنا**، رواية (بيروت ١٩٩٥)؛ **مدن تأكل العشب**، رواية (لندن ١٩٩٨)؛ **من يغنّي في هذا الليل**، قصص (الدمام ١٩٩٩)؛ **الأوغاد يضحكون**، قصص (بيروت ٢٠٠٣)؛ **الطين**، رواية (لندن ٢٠٠٣). صدر له عن منشورات الجمل: **الأيام لا تخبئ أحداً**، رواية ٢٠٠٢؛ **نباح**، رواية ٢٠٠٤.

عبده خال: **الموت يمرُ من هنا**، رواية،

الطبعة الأولى ، كولونيا – المانيا ٢٠٠٤

Postfach 210149 . 50527 Köln . Germany
Tel: 0221 736982 . Fax: 0221 7326763
E-Mail: KAlmaaly@aol.com

إهـداء

لحنان... ووشل... ومعد وعذب

تلك الزهرات اليانعات في حوض العمر

وللقرية البعيدة

أكتب هذه الأنين

عبـده

أرض يابسة وقف عليها غراب.. بقرها فتقيحت رجالاً ونساء، وعشش الغراب على رؤوسهم، وعندما تعب التقمهم واحداً واحداً، وطار.. حط على نبع قد شاخ وحين غنى هطلت دماؤهم من فمه وفار الماء.

من حكايات العجوز نوار

الطريق إلى قرية (السوداء) يحتاج إلى مغامرة وشجاعة متناهية فهي تقع في ركن منزو من أرض غبراء انتشرت بها الفاقة، والأمراض الفتاكة، وقبلها أحراج لا يمكن تخطيها إلاَّ لمن وضع عمره على راحة يده وأقدم على الموت مختاراً. فهي قرية ـ كما يقول كبار السن ـ اختارها السيد الصالح لتحميه من أعدائه دون سائر القرى، وآخرون يؤكدون أنها كانت أرضاً بلقاء غبراء، وحين سكنها قيض اللّه لها من الماء والشجر ما جعلها عسيرة المنال سهلة المسكن، وقد ظل الوادي يخترق جنباتها غدقاً وفيراً حتى إذا تفاقم القحط غدا المجرى ضامراً يتلوى تاركاً للريح أن يحث ترابه ويلقيه بين تلك الحقول الممتدة باستسلام. على امتداد الوادي تناثرت قرى عديدة يخترقها مجرى الوادي الكبير انحناءات واسعة تضيق مع الجهة الشمالية حتى يتعذر السير حيث تفشت بأشجار شوكية.. كثيفة تتداخل وتصبح شراكاً يصعب عبورها، وقد تقوّل الكثيرون من أن تلك الأشجار تطلق شوكاً ساماً يميت من يصيبه في الحال، وقد تبقّى طريق واحد ممهد ـ من أثر الطرق اليومي ـ يربط القرية بباقي القرى ـ وظل هذا الطريق نهباً لعينَيّ السوادي، هذه القرية آمنت بالثبات ولم تحاول الخروج أو البحث عن مخرج لعوزها فركنت للأرض، أياماً تمدها بالماء وسنوات طوالا تدعها تنعم بتجاعيدها وبؤسها حتى إذا أوشكت

على النفاد نزت السماء قطرات تعيد إليها حياة شحيحة تتوكأ على أنات وأحلام المزارعين العتاة.. نادراً ما كان أهل القرية يغادرون هذه الأرض، فهم يجزمون أنه لا يوجد مكان آخر على وجه البسيطة سواها وإن وجدت فإن السوادي حتماً ستكون هناك، وقد سرت هذه الإشاعة في وقت مبكر حتى أن كبار السن يروون أن راعي القضبة قد أقسم إنه لا يدخل القرية إلاً هالك، ولا يخرج منها إلاً هالك. لذلك فهم يوصوننا دائماً بأن نلزم ظلنا ولا نغادر هذه القرية خوفاً من نبوءة السيد، وأوصونا بتحمل شظفها، وبؤسها، وإطاعة عاملها، وقد مكثنا نجتر هذه الوصية دهراً طويلاً حتى إذا ظهر (شبرين) من غربته بدأ هاجس الرحيل يقتات الخواطر التي يئست من فيء السوادي. في السابق لم يكن هناك أحد يجرؤ على التفكير بمغادرة القرية ومن يقدم على مثل هذا الفعل يموت أينما وجد.. كان نفر معدودون يتقافزون من هذا الجحيم خوفاً من ثأر أو من السجن بداخل أسوار القلعة المرعبة، ونادراً ما يعود الهاربون، وقد يخلفون أبناءهم، وحقولهم، وأنعامهم نهباً، ويمضون فراراً بأرواحهم، وإن عادوا، وجدوا أن الحياة في هذه القرية لا تليق إلاً بالذباب فيتركونها، ويعودون من حيث أتوا بعد أن يوسوسوا للآخرين بالهرب آخذين منهم أيماناً مغلظة بعدم إفشاء سرهم، وغالباً ما كانوا يغادرون القرية بحجة التبضع من القرى المجاورة، ومن هناك يتسللون بين الأحراج، ويمضون في رحلة محفوفة بالمخاطر، وسرعان ما يغيبون خلف المجهول.

في إحدى (دفرات) الوادي طفحت عظام بالية وجرفها السيل ملقياً بها على جنبات الوادي، وقد جزم كثير ممن رآها بأنها عظام أولئك الهاربين من القرية، وقد جمعوها بكفن واحد، وصلّوا عليها، ودفنوها بمقبرة القرية، وكان درويش يتندر عليهم بصوت ساخر:

ـ وما يدريكم أنها عظام حمير ضالة جرفها السيل!

في ذاك اليوم وقف الشيخ موسى خطيباً حاثاً من حضر الصلاة على الاتزان وعدم إلقاء أنفسهم إلى التهلكة مذكراً إياهم أن في ذلك كفراً بيّناً، وقد ذكر أن من يحاول اجتياز الأحراج لا يمكن أن ينجو، فهناك الحيات

الطائرة، والذئاب الجائعة، والعقارب، والسباع، والشوك السام. . ساعتها من كانت تنازعه فكرة الرحيل ضمرت بداخله، واستسلم راضخاً لظل السوادي مفضلاً إياه على الموت بعيداً عن قبر يلم عظامه حين يداهمه الموت على حين غرة في تلك الأحراج المرعبة.

وكأي قرية يلوكها القحط والتعب، استقرت قرية السوداء في فم الزمن، يمضغها، ويستمهلها على نواجذه، ويعاود مضغها حتى إن المضغ لم يعد يذيبها، فلفظها الزمن لبرحة النسيان.

هي قرية عاقرتها الأوبئة، والجوع، والحكايات القديمة، وتناثر أهلها في أوردتها المتشعبة، وهم يحملون تعبهم بصمت، وينتظرون السماء أن تمطر، والأرض أن تلد قمحاً.

إن أقرب ما يمكن إلحاقه بهذه القرية هو الصمت. فهي قرية صامتة لا يحرك سكونها إلاَّ الحكايات، والغرباء حتى أن الغرباء غدو مطراً يستسقونهم حين يصلّون صلاة الاستسقاء، أولئك الغرباء الذين يفتحون لهم كوة يرنون من خلالها إلى أبعد من قرية السوداء، وحقولها الضامرة، وتعبها المزمن، لذلك فهم يحيطون بالغريب إحاطة السوار بالمعصم، ويسلمونه آذانهم خارجين عن تأوهاتهم لبعض الوقت، وعندما ينهي الغريب حكاياته يعاودن الاحتزام بتعبهم، وينسلون إلى مخادعهم بتثاؤب متوتر، وحلم فاتر.

في السابق كان الغرباء موطن ريبة للأهالي، فقد استطاع أحد الغرباء أن يحتل مكاناً مرموقاً في قلوبهم فأغدقوا عليه حبهم ورعايتهم، وأدخلوه منازلهم، وغادرهم ذات ليلة مع إحدى بناتهم، مخلفاً للقرية العار أمام القرى المجاورة، وأصبح لا يقوى أحد منهم على مواجهة تلك (النبزة) التي علقت بهم:

ـ (شاهين شل(*) بنتنا).

فما إن يسمعوا تلك الجملة من أحد حتى يغادروا المكان الذي هم فيه

(*) شل: أخذ.

لا يلوون على شيء. وقد استغل موقفهم هذا الكثير من رجالات القرى المجاورة. ففي الأسواق كان الآخرون يطلقون تلك (العيرة) لينطلق أصحابها مغادرين السوق دون أن يتبضعوا وهو الأمر الذي جاؤوا من أجله.

كان يمكن أن تذهب هذه التجربة دون أن تبقي هذا التحرز المتين لولا تلك الشائعة المحمومة التي انطلقت بين الأهالي:

ـ إن الغرباء جاؤوا للسرقة.. سرقة أي شيء، وبأي طريقة كانت.

وتزامنت هذه الإشاعة مع ظهور العديد من السرقات التي كان يدبرها بعض النازحين من أعالي الجبال، أو من بطون الأودية طلباً للعيش الرغيد، بدون بذل عناء يذكر سوى الخروج ليلياً إلى داخل القرية وسلب الأغنام، أو الدجاج، أو أكياس القمح، والدقيق، وكل ما خف حمله. ولذلك ظلت القرية تتخوف من الغرباء؛ فما إن يطل أحدهم على قلب القرية حتى يقفلوا وجوههم أمامه بتقطيبة عابسة، وتظل عيونهم تتربص به حتى يمل، ويغادر هذه الوجوه الميتة.. وظل هذا حالهم ـ مع الغرباء ـ إلى وقت قريب.

قبل سنين خلت كانت الأرض غدقة تمنحهم ثمارها، وتزين مراعيها بعشب وفير، وتجري المياه في قنوات الحقول دون انقطاع، وفي مواسم الحصاد تزدحم القرية بأولئك الرحل الذين يمتلكون سراً غامضاً، وقامات مديدة، ونساء جميلات.. كانوا يأتون من خلف الخلاء حاملين الأدوات الغريبة، مقايضين بها قمحاً، وسمسماً، وفولاً، وقطناً، يأتون من خلف الخلاء كالنحل لهم دوي، وجلبة تحفز المزارعين على قذف ما بأيديهم والتوجه لمشاهدة مقدمهم، ذلك المقدم الذي ترتفع فيه أهازيجهم وضرب دفوفهم مرحبين بمقدم أيام الحصاد.. كانوا ينصبون مظلاتهم بجوار الحقول، وينتشرون على امتداد الوادي، يعملون بالحصد، والخبط، والشياطة، وثلة منهم يدورون بأدواتهم، ويعرضونها للبيع متساهلين بالثمن الذي يدفع إليهم، وفي المساء يبيعون الحكايات على قرع الطبول، ورقص نسائهم الفاتنات، ولقد نصبوا لهذا الغرض عريشاً أقيمت دعائمه من أشجار السرو، والمرخ، وأحاطوا جنباته بأعواد الخيزران في تشابك متقن لا يسمح للعين باختراقه، وسقفوا جزءاً منه بصرب أخضر، غطى بالثمام والأثل، وتركوا الجزء الآخر

مشرعاً للريح والنجوم، وفي صدر العريش أقاموا متكأ واسعاً وأنيقاً، وعلى مدخله رصت (المدع) العدنية و(الشراب)(*) المبخرة بالمستكى، وكان لهذه الاستراحة وقع السحر على أهل القرية الذين كانوا يتقاطرون إلى هناك حاملين (هداياهم) وانبهارهم بما يرون، ويظلون فاغري الأفواه أمام تلك الرقصات المتثنية بدلال فاحش، وتلك المؤانسة التي كان لها الأثر في قدح هممهم بالنهوض، والتوتر لدرجة الشبق، وحينما علم الشيخ موسى بما يحدث أمر بطرد (النمالية)(**) وحذَّر الناس من مغبة الانسياق وراء الشهوات الدنيوية، ومذكِّراً الأهالي بأن الغرباء جاؤوا ليسرقوا ما تقع عليه عيونهم، وسرعان ما يتوارون بين الأحراج إلاً أن مواعظه ظلت معلقة في الهواء، ولم تثمر أمام ضحكات وتثني تلك الأجساد اللدنة الممتلئة.. وعندما جفت الأرض لم نعد نلمح (النمالية)، ولم تعد قريتنا تستقبل إلاً التعب والانتظار!!

حينما ظهر (شبرين) من غربته الطويلة لم يتعرف عليه أحد، فتهربوا منه، وعندما صرخ فيهم:

ـ ألا زلتم في عميانكم تعمهون؟!

فتداعت إلى مخيلتهم حكاية والده، فأقبلوا إليه يذرفون الأسئلة، ويهنئونه بسلامة العودة، فجلس بينهم يحكي لهم بأن ثمة جنة خلف هذا الخلاء. عندها أصبحوا يجالسونه ليلياً يستمعون لحكاياته التي تترك أفواههم فاغرة، وعيونهم تطارد كلماته التي تصف تلك الجنة الغائبة، ومع مرور الأيام عجزت أحاديث شبرين عن حملهم بعيداً عن أحلامهم الرخوة، وعجزوا عن الوصول إلى مكامن الخبث في أحاديثه، فركنوا للتثاؤب الممل المفرط بالبلادة، واهتموا بتبديد أبصارهم في الفضاء بزيغ وتخاذل. كانوا يحدقون في الخلاء بعيون منكسرة كالجياد المجروحة، المهملة في اسطبلات رثة، وإذا اشتاقوا للحياة اجتروا الحكايات القديمة لأيام طوال دونما ملل هاشين بها عبوس أيامهم القاحلة؛ بتخاذلهم هذا غدت قريتهم قرية مسكونة بالأقاويل المكررة،

(*) الشراب: آنية فاخرية يوضع بها الماء ليبرد.

(**) النمالية: جماعة متواجدة في كل العالم وتختلف تسميتهم وفق كل بلد فمرة يسمون بالغجر ومرة بالنور وهكذا.

والطموحات الأسنة.. قرية تقف بيضاء من كل شيء كشعر عجوز شمطاء ركنت لنهش السل، والقحط، والخوف، وافترش جسدها الجدري، والجذام، وانساقت باختيار لأن تكون مأدبة دسمة للأمراض تقتاتها على مهل وبتلذذ، وهي تتقلب بأوجاعها لا تملك إلاّ الأنين الخافت دافعة عن نفسها الأوبئة بالتناسل.. هي قرية تسير للهاوية باستسلام طاغ فقد جبلت على الصمت والقهقهة الخائفة.. أهلها يتندرون على تعبهم بسرية تامّة، يجلسون في الليالي المقمرة تحت سقف أحزانهم، ويبصقون تعبهم اليومي بنكات مواربة.

وفي الصباح الباكر يسابقون صوت الديكة بالنهوض، حاملين فؤوسهم لتتشعب خطواتهم في الحقول، والأسواق المقامة في القرى المجاورة، فليس أمامهم إلاّ إحراق أيامهم بالصبر ذاك الصبر الذي يطلبون من اللّه أن ينزله مدراراً لكي يروي أيامهم القادمة، أما هم فقد غرسوا قاماتهم بالحقول كالفزاعات، وأخذوا يقلبون أبصارهم صوب السماء وللوادي الذي مات.

في السوق تصطف مظلات الباعة ـ الخزفية ـ في شريطين متوازيين وما بينهما ترامت بائعات السمن اللاتي لم يجدن في ضروع أبقارهن ما يكفي لاستخلاص (الدهنة) فأقلعن عن بيع السمن واتجه بعضهن لبيع القطران، أو (الرونج)(*) وبعضهن امتهن جمع روث الأنعام وبيعه لـ (طالسات)(**) العشش، واكتفى الباعة ببيع البقول الجافة حتى إن العطارين والصباغين ضمرت تجارتهم فتركوا بضاعتهم في أكياسها، وانتظروا نهوض الحقول من سباتها الطويل، ولم يعد متوفراً بالسوق إلاّ القات تلك الشجرة الغضة التي دفعت بالكثيرين إلى رهن حاجياتهم البسيطة للحصول على أغصان خضراء يجترون بها همهم اليومي.

ها هي السنة الخامسة تمضي دون أن تخضر الأرض، أو تلوح بالسماء بارقة أمل لانقضاء هذا القحط المزمن، وأوشكت الحياة على النفاد، وغدا

(*) الرونج: البويا.

(**) طلس: لفظة شعبية تعني تغطية لبنات العشة بروث الأبقار من الداخل والتي تقوم بهذا العمل يطلق عليها طلاسة، وجمعها طلاسات وطالسات.

موتى الجوع يفوقون موتى الجدري، والجذام.. فمع شروق الشمس تجد أهل القرية يسيحون على أبواب التجار ويرهنون ما تقع عليه أيديهم مقابل (كَعة)[*] قمح، وقد بلغ الجوع بيحي عبد اللّه مبلغاً عسيراً ولم يجد بداً من رهن ابنه البكر، فقد دفع به للشيخ موسى مقابل صاعين بر، ووافق مرغماً أن يظل ابنه مرهوناً إلى حلول الموسم القادم، وتم تسخيره للعمل بدكان الشيخ موسى طوال هذه المدة بدون مقابل. وخلال الشوطة تسللت شائعة إلى «مخادر» القات، وتناقلها الناس فيما بينهم بسعادة، وقد خرجت الشائعة من بيت الشريف حسين، وسرت في البيوت كالريح.. يقولون:

ـ إن ثمة بعثة من بلاد العجم سوف تمنح المعسرين ما يسد رمقهم حتى بلوغ محاصيل السنة القادمة، أو التي تليها.

ومع تفشي هذه الشائعة انقلبت القرية، ولم يعد هناك بيت إلاً وخرج أهله إلى منتهى طريق الجمالة علهم يلمحون قافلة قادمة بهذه الهبة، ولا زالوا يخرجون يومياً دون أن تطرق طريقهم قافلة، فيئسوا، وانقلبوا إلى حياتهم الأولى، وعندما سمعوا أن هذه القافلة لن تأتي محملة على الجمال، أو البغال، بل ستأتي محملة على حديد يسير بدواليب (وهذه أول مرة نسمع فيها بالسيارات، ولا نعرف كنهها لوقت قريب أذكر أن الأهالي تناقلوا أن أبا عوف فقد بصره حين اقتفى أثرها وتناقل الناس أن من يسير على أثرها تنكسر قدمه، لذلك كنا نغمض عيوننا إذ عبرتنا إحداها خوفاً من أن تصيبنا بسوء، وقد روى أحد المسنين أنه رأى مثلها حينما تمَّ اعتقال سليمان أبو عاصي)، عندما سمعنا أن الهبات ستأتي على حديد تضاحكنا بتهكم، وجزمنا أن إحدى عجائز السادة أطلقت هذه الخرافة لكي تنسينا خيبتنا، إلاً أننا أخذنا الأمر بجد حينما قدم الجبلي إلى قريتنا طارقاً أبوابنا ومحصياً أعدادنا واحتياجاتنا، وبتنا ننتظر تلك الهبة، وقد قام بعض الأهالي الموسرين بدفن حبوبهم بحفر عميقة بداخل الأرض، وادعوا بأنهم أهل لهذه الهبة، كما قام البعض الآخر ممن يملكون بهائم بجلب أنعامهم وبيعها بالمجلاب والاحتفاظ بثمنها في صرر

(*) كعة: وحدة كيل ربما تساوي ربع الصاع.

مربوطة بإحكام وطمرها تحت الأرض، وباتت القرية برمتها تنتظر تلك الهبات الموعودة، وتحدوها أمنية رؤية الحديد الذي يسير.

كان مقدراً لنا كيس دقيق، وفول، وكرتون صلصة، وجالون زيت، هذا ما عرفته من الجبلي الذي كان يدور بجسده الفارع بين بيوت القرية، صارخاً من على عرصات العشش بلكنة جبلية جافة:

ـ يا أهل البيت.

وما إن يعلم أهل الدار بمقدمه حتى يخرجوا إليه بهدية، أو أكلة شهية متوسلين بها رضاه، ومتمنين عليه أن يضاعف حصتهم، ولم يكن ليجرؤ على مقاطعة حديثه أحد، ذلك الحديث المتعسر بين أشداقه، فقد كان نطقه عسيراً حيث (يتفتف) بالكلمة ثلاث مرات قبل أن يخرجها حية تفهم وغالباً ما يسبقها برذاذ من ريق لزج وكأنه لعاب كلب مسعور ولا أدري كيف يتخلص من هذا العيب حين يكون في حضرة السوادي، وكان يثور ويمتنع عن تسجيل أي اسم إذا أحس بسخرية تطول عثرته، والويل والثبور لمن يكدر مزاج الصخري وإذا حدث ذلك فإنه يتوقف عن أداء عمله ويتفرغ للسباب، ونعت خصمه بنعوت مقذعة، تنتهي باستصدار أمر يقضي بسجن من يتطاول على ممثل الحكومة، ولا ينتهي الأمر عند هذا الحد بل يتعداه إلى أن يغادرنا دون أن يقيد اسماً واحداً بتلك العريضة التي سوف توزع الهبة بمقتضاها، لذلك اكتسب إجلالاً يفوق الحد، فما إن يصل حتى تغدو كل الأفواه خرساء، وكل الأقوال باطلة إن لم يؤمن عليها، وكان يستقبل استقبال المحسنين المتفضلين، وتمد الوجوه تهليلها وترحيبها لمقدمه، ويقرب له الأكل والشراب، ومن لم يجد شيئاً ببيته اقترض ليكرم هذا الجبلي الصارم بجفوته. وقف بفناء دارنا فاستقبلته أمي مرحبة، ولم يكن معها شيء تقدمه له، ولم تجد بداً من ذبح دجاجتنا (القوقبية)(*) إكراماً وتبجيلاً له، وبعد أن أكلها، و(فصفص) عظامها، وشرب مرقتها، سألها بترفع عن صاحب الدار، فأخبرته أنه يسكن في قرية أخرى فما كان منه إلاَّ أن نفض مؤخرته،

(*) نوع من الدجاج يعتبر من أجود وأفضل أنواع الدجاج.

وغادرها دون أن يقيد أسماءنا، فلحقت به متوسلاً، وبعد مماطلة عسيرة، وتسخير نفسي لأن أقود حماره، وأنادي بدلاً عنه، سجل أسماءنا بتلك العريضة الطويلة بعد مئات من الأسماء.

في سيرنا بين بيوت القرية كنت أحدث نفسي عن سر هذه الهبات، ولماذا العجم بالذات، وكيف سمعوا بنا، ولماذا يقدمون لنا الطعام؟!

واستأنست بفكرة خامرتني للحظات، وقبل أن تطول شطحتها، أنست منه ليناً فسألته متودداً:

ـ هل عزم العجم الدخول في الإسلام، فوهبوا لنا طعامهم، وقاسمونا محنتنا هذه؟

وبلكنة جافة متهكمة أسكتني:

ـ (بالك بالعجم، أو بالطعام)؟

فأكملت جولتي معه صامتاً، أراقبه ـ بدون إبداء أي تذمر ـ وهو يسجل أسماء من يريد، ويعرض عمن يريد حتى إذا امتلأت القائمة ولم يعد هناك مجال لكتابة اسم واحد، واصل جولته مستمتعاً بما يقدم له من هدايا، وعندما قفل عائداً كان حماره ينوء بحمولته تلك الحمولة التي جمعها من أهل القرية على هيئة هدايا، كنت أسير أمامه أقود حماره وهو يدندن بأغنية جميلة لم أسمعها من قبل، وعندما بلغنا الطريق المؤدي للقلعة ودعته، وعدت راكضاً تاركاً خلفي شبح القلعة الحجري والذي يطل على القرية بأضوائه الرمادية الشحيحة، ومن بين لهاثي سمعته يوصيني بضرورة تواجدي ـ مع أسرتي ـ في فناء القلعة من الغبش، ساعتها راودني شك كبير في أن هذه الهبة ما هي إلا لعبة لاعتقال كل أهل القرية، واضمحل هذا الشك عندما تذكرت تلك السيارات ـ التي يطلقون عليها اللواري ـ التي تقاطرت بالأمس وأنزلت حمولتها بالقرب من أسوار القلعة.

أصيبت القرية بخيبة أمل حادة حينما علموا أن المكان المحدد لتسليم المعونة سيتم بداخل أسوار القلعة، فامتنع الأهالي من الذهاب خوفاً من شرك قد أعد لهم، وقد انطلق البعض إلى مكان يقرب من القلعة يتلصصون بعيون حذرة، وأقدام متهيئة للركض في أي لحظة، فرأينا سيارات عديدة ـ وقد

خرج البعض لمشاهدتها ـ، وأكياس مرصوصة، وتنك، وكراتين، ومن حولها تجمعت خلية من العسر وانشغلوا برص كل نوع على حدة، ووقف على رأسهم رجل ذو هيئة غريبة يرتدي بزة عجيبة، وعندما امتلأت نواظرنا عدنا إلى القرية ننقل ما رأيناه، مما حمل العجوز نوار على التهكم، وعلقت:

ـ الحنش إذا أراد ابتلاع فريسته مكّنها من فمه حتى إذا استكانت بداخل فمه ابتلعها بدون عناء.

ولم يقف على تعليقها إلاّ نفر قليل، واشتغل الآخرون بحبك الأقاويل التي انتشرت بأرجاء القرية ولم يعد ثمة مكان إلاّ وبه لسان يتحرك.

مضى أول يوم لتوزيع الهبات دون أن يصل أحد لاستلام حصته، وقد اعتصم الأهالي بداخل بيوتهم خوفاً من أن تغلق عليهم أسوار القلعة، فخرج محروس حاملاً طبلاً، ومنادياً بالناس:

ـ الحاضر يبلغ الغائب.. بأمر من السوادي.. من لم يكن حاضراً بفناء القلعة في صباح الغد لا يلومن إلاّ نفسه.. الحاضر يبلغ الغائب.. بأمر من...

وتمادى ثوته نائراً أمر السوادي بالغاً به جميع أركان وزوايا القرية، وقد تجمع حوله الصبية، وأخذوا يزفونه من مكان إلى آخر.

في هذا المساء نامت القرية على غير عادتها، ولم يذهب لمجلس الجدة نوار أي منهم، وعندما وجدنا أنفسنا وحيدين أمام حكاياتها غادرناها، وهي تحكي حكاية (علي بن الجارية).

ومن الغبش كان الكل منشغلاً بجمع أبنائه، والركض الحثيث صوب القلعة، الكل فعل ذلك دون استثناء حتى تلك القامات التي هدها المرض نهضت حاملة أناتها، وخرجت تسابق الغلس.

انسكبت القرية بالخلاء المحيط بالقلعة في مجموعات، كل بيت في مجموعة، وتركت لعيونها أن تتابع ما يحدث بحذر وتأهب.

من الغلس أيقظتنا أمي، وخلعت (مصرها)(*) وغطت به رأس صالحة،

(*) المصر: غطاء الرأس لأساسي يحبك على الرأس بوضع معين ولا توجد امرأة بالمنطقة إلاّ وتضعه على رأسها وغالباً تكون ألوانه زاهية.

واكتفت هي بضم شعرها بـ (مقلمتها)(*) المخرقة، وتناولت زنبيلاً صغيراً ووضعت به كسرة خبز بايتة، وكوزاً به قليل من اللبن، وحملتني إياه، وأمرت صالحة بحمل المظال الخزفية، وانحنت خاطفة جيلان من هندوله، وثبتته على جذعها، وسرنا صوب القلعة نحث الخطى.

هناك كانت الأجساد تموج، والعيون في المحاجر، والألسن تعاقر كلمات عارية، وأخرى مبطنة، وثمة أفواج تنداح من الخلف وتفترش هذا الفضاء الواسع، فيزداد اللغط، والهمهمات. كنا نقتعد أماكننا في الجهة (اليمانية) من القلعة، وكنت أتمنى أن يصادف جلوسنا بالقرب من عبد اللّه الشاقي والجدة نوار، وهممت بالبحث عنهما، ولكن أمي جذبتني من قميصي، وأجلستني بجوارها محذرة إن أنا تزحزحت من مكاني، لتتركن المكان وتعود بدون هذه الهبة، فاستكنت بجوارها، وعيناي تركضان في هذه الجموع بحثاً عن ابن الشاقي.

سمعت أمي تتحدث مع إحدى قريباتها بصوت تحاول جاهدة أن يصل إليها بوضوح:

ـ أيكونون هم من سرق بيت المقدس، وجاؤوا لسرقتنا.

ـ لا.. لا. الذين سرقوا بيت المقدس يهود، وهؤلاء يساعدون الفقراء من أمثالنا.

ـ ولكنني سمعت أنهم كفّار.

ـ يقول الناس إنهم كفّار ولكنهم يساعدون الفقراء.

فغمغمت أمي بدهشة:

ـ كفّار يتصدقون على المسلمين!!.. لماذا؟!

زمت فمها في نصف استدارة، محركة حواجبها، منبئة عن عدم اقتناعها، وعندما أرادت أن تواصل حديثها تزايد اللغط، وأخذت بعض

(*) المقلمة: غطاء آخر يوضع فوق المصر ويمتاز عن المصر بالطول واللون الأسود وتفرد لتغطي شعر الرأس من الخلف والأمام وكذلك لتغطية الصدر والأكتاف.

الأفواج تدفع بعضها بعضاً، فبترت دهشتها وانشغلت بتأمين مكاننا بصياح مرتفع لاعنة الهبة التي دفعت بالناس إلى هرس بعضهم بعضاً، كانت تتطلع إلى تلك الأفواج المتزاحمة، وتذود عنّا تموج الأجساد بصوتها الذي ذهب شحيحاً بوسط هذه الجلبة الهادرة، وصلنا بكاء صالحة ضعيفاً، وهي منكفئة على قدمها تمسكها بألم، وتشير إلى رجل هرسها وحشر جسده بين تلك الأجساد محاولاً اختراقها للوصول إلى الصفوف الأمامية، وتاركاً صوت أمي يتبعثر خلفه.

كان درويش هو الوحيد الذي يتنقل بين الجموع المتناثرة بفناء القلعة، ويضحك بامتلاء، ويردد بصوت مبحوح:

ـ الكفار أسلموا، والمسلمون كفروا!!

فتقذفه العيون شزراً، فيعاود رفع صوته غير عابئ بتلك الزمجرات التي تلاحقه:

ـ هذا الأعجمي الأبرص القادم مع (اللواري) أخبر الجبلي أن المطر لا يتوقف في بلادهم، وهنا السماء ناشفة.. ألم أقل لكم: ربنا يسقي بلاد الكفر ولا يسقي بلاد الحسد..!!

كان يدور ساخطاً لاعناً كل من حاول إسكاته، وعندما ارتفعت يد السوادي بالسوط، سكت، وانقلب باتجاه الوادي.

وقفت الشمس على رؤوسنا، فقامت أمي بتوزيع المظلات الخزفية علينا، ووضعت واحدة على رأسها، وصبت قليلاً من اللبن في (المغرد)(*) وغردت جيلان الذي لم يتوقف عن البكاء، من حين اشتداد الشمس. كانت أمي مترددة بين البقاء والعودة، وكلما اشتد صياح جيلان حرضتنا على البحث عن مخرج من بين تلك الأجساد المتراكبة، وقبل أن نخطو تصيح بنا:

ـ حافظوا على أماكنكم!!

(*) المغرد: عبارة عن وعاء معدني أو طيني تكون فوهته مضغوطة من أحد أطرافها ويستخدم هذا الوعاء للأطفال الرضع بحيث يملأ باللبن ويفرد به الطفل ويوضع الطرف المضغوط في فم الطفل ويسكب محتواه من اللبن أو أي مشروب آخر في جوف الطفل.

حاجتها الملحة إلى هذه الهبة تكبح رغبتها في العودة، ولا تجد مناصاً من تبديدها سوى ضم جيلان، والهدهدة عليه، ومناغاته بإشفاق:

ـ تبكي قليلاً ولا تموت من الجوع.. إصبر يا جوف أمك.

ينشج، ويعود صرير بكائه حاداً عنيداً، فتنكفئ عليه مغنية له، وتحثنا على جذبه بصفقات متقطعة من أيدينا، فلم يزده ذلك إلاً إصراراً على أن يصرخ بإفراط، فأخذت تؤرجحه بين يديها بحذر وحيرة.

فناء القلعة استحال مظلات خزفية، وأصوات متداخلة مستنكرة لهذا الوقوف المميت تحت أشعة الشمس الحارقة. في البدء كان استنكارهم على هيئة همهمات مرتفعة توحدت في النهاية في صوت واحد رددوه:

ـ سنموت قبل أن نذوق ثمر مطركم أيها الأبرص.

وقبل اشتعال جذوة هياجهم اندلق صوت ناري وحاد منادياً بالأسماء التي عليها أن تتقدم لأخذ حصتها، فسكنت الأصوات، وظلت الآذان تبحث عن مكانها بين سيل منهمر من الأسماء المتناثرة من بين شدقي الجبلي والذي تخلص فجأة من تأتأته.

لم أشهد يوماً كهذا، فالعيون بازغة، والأجساد تتأبط أرواحها بضيق، وتلفظها عبر عرق متصبب، والوجوه شعث مغبرة، تبصق الكلمات من حلوق جافة، عطشى، وثمة وميض لرعب خفي ينداح من تلك النظرات الزائغة.. إن هذا اليوم لجدير بأن يظل تاريخاً يروي للأبناء والأحفاد ليس فقط لتجمعنا في هذا الفناء ولكن لكون القرية خرجت على بكرة أبيها تاركة أعمالها معطلة، فالمزارعون لم يخرجوا لحرث حقولهم الميتة، والرعاة سرحوا أغنامهم بين أزقة القرية تأكل من (كداديفها)(*) و(سجوفها)(**) ولم يكن الحال

(*) كداديف: عبارة عن قمائم تتراكم بعضها فوق بعض وتصبح مع الأيام متماسكة بفعل الضغط.

(**) سجوف: تقوم مقام الجدران التي تسور البيت وهي عبارة عن فروع أشجار يتم غرسها في الأرض وتغطيتها بشجر الثمام وذلك لتحدد حدود البيت وتستر من بداخله.

بأفضل من تلك المراعي المشوكة فقد كانت «الكداديف» و«السجوف» أكثر فقراً من تلك المراعي المشوكة، الكل خرج من هنا، الحدادون، والنجارون، والحجامون، وبائعو الجرار، والخزفيون، والمتسولون، ولم يفتح التجار دكاكينهم، ولم يغادر أحد منا إلى الأسواق المجاورة للتسوق، وبقيت سوق القرية خاوية إلاَّ من رائحة القات، والموز، و«الشفلح»(*) تلك الروائح النفاذة الممزوجة، الكل انصب هنا وكأنه نفخ في الصور.. لم يكن يدور بخلد أحد أن يأتي يوم وننكب جميعاً برجالنا، ونسائنا، وشيبنا، وشبابنا إلى هنا.. أحقاً نحن في فناء القلعة التي لا نجرؤ على الالتفات إليها؟

في هذا الهرج المتصاعد كان السجناء يجرون قيودهم الثقيلة، وعيونهم المنكسرة، ويقتربون من الشقوق الواسعة بجدران القلعة يتطلعون إلى هذا المحشر العظيم علهم يلمحون أحداً من ذويهم، وكانت أيديهم تحاول الارتفاع لتحية من يرونه. إلاَّ أن تلك المحاولات كانت تذهب سدى أمام ثقل السلاسل القصيرة المثقلة بالرصاص والتي تلجم حركتهم وتئدها في المهد فلا يلبثون أن يركنوا إلى عيونهم في اصطياد وجوه الأحبة، فانشغل بعض أهل القرية بتفرس وجوه المساجين بالنظرات والابتسامات المرتبكة. وفي أثناء هذه الاختلاسات الجائعة نهض صوت إحدى العجائز مذعوراً فاجعاً:

ـ لا أرى ابني بينهم.. لقد قتلوه.. لقد قتلوه.

وضاع نحيبها في همهمة مدوية اعترت الصفوف، فارتبك العسكر، وبطريقة عشوائية سلّوا عصيهم الغليظة وانهالوا ضرباً على كل مَن يصرخ، وانطلق البعض منهم صوب فجوات جدران القلعة يدفعون المساجين ببنادقهم إلى داخل الزنازين، ومن أبى دق بكعوب البنادق. أطلقت إحدى النساء ـ المجاورات لنا ـ صوتها الحاد:

ـ لقد أخبرتنا العجوز نوار، وها هو الخلاء يصبح سجننا!!

فانثالت صرخات النساء من كل حدب وصوب، وهام الرجال بين تلك الصرخات فتفككت الجموع، ولم يعد أحد يعرف إلى أين يسير، أو أين

(*) الشفلح: نوع من أنواع الفاكهة يعرف في الحجاز بالقشطة.

يقف، وقد عجزت عصا محروس عن إسكات تلك الصرخات المبثوثة، ارتبك الأعجمي الأبرص، وخرجت عيناه من حدقتيهما، تبثان دهشة وحيرة غامقة. . ساعتها فقط اعتلى السوادي أكياس الدقيق ضارباً الهواء بسوطه، ومزمجراً كالرعد:

ـ من صرخ أو تحرك سيدفن في مكانه.

وفي لحظات ابتلعت النساء ألسنتهن، وتسمرت الأجساد في أماكنها تنظر لمن دهس بعين منطفئة، وعاد الانتظار أشد وطأة، ولقد همَّ السوادي بالحديث ولكن ـ على ما يبدو ـ فزع وذهول الأبرص عاقه عن ذلك، فأشار للجبلي بمواصلة سرد الأسماء. تردد اسم أبي، فتحركت أسرتنا مخترقة الصفوف، وكانت العيون ترمقنا بتعجب، قال أحدهم:

ـ لقد سجلوا أسماءهم بعدنا فكيف يتقدموننا؟

كانت الأصوات متداخلة فلم أتبين صاحب ذلك الصوت الفاجر الذي ارتفع عالياً:

ـ أوتسأل؟. . . ليلة البارحة نام الجبلي في فراشها لهذا جاء دورها متقدماً!!

صعد الدم إلى رأسي حاراً متدفقاً، فخلعت حذائي وقذفت به وجوه المجتمعين وتابعت شق الصفوف خلف أمي وإخوتي.

كان التوزيع يتم فوق منصة منخفضة، رصَّت من خلفها كراسٍ خيزرانية عتيقة، اقتعدها كل من السوادي، والرجل الأبرص، والجبلي، ورجال لسحنتهم هيئة التراب، وقد انشغل عدد من العسكر بجلب الحصص، ورصها وفق بيان معد سلفاً. من هذا المكان يظهر الرجل الأبرص أكثر وضوحاً، فله بشرة بيضاء ناصعة، وشعر ككوز الذرة، وشارب صدئ ينتهي عند أسنان صفراء قوية، يعتليها أنف دقيق حاد الاستقامة، وعينان خضراوان كحبات (الكين)(*) البسر، يرتدي ملابس غريبة، ومعلقاً على فمه

(*) الكين: النبق.

المزموم ابتسامة دائمة يعتريها الارتباك، وكانت عينا السوادي مركزتين على وجه أمي لا تحيد عنه، كان يتحدث إلى العسكر ويأمرهم بصرف مؤونتنا دون أن يلتفت إليهم، أحسست بخجل أمي فتقدمت أمامها حتى فصلت بينها وبين عينَي السوادي. . اقتسموا لنا من تلك الأكياس المكدسة، ونهض الرجل الأبرص يرطن بلكنة طاغية الشنشنة لم نفقه منها شيئاً، ومد يده مداعباً جيلان الذي فاجأ مداعبه ببكاء حاد، لتسرع أمي بإزاحة يده من على وجه جيلان، عندها أطلق الرجل الأبرص كلماته الغريبة، وظل محافظاً على فمه المنفرج بتلك الابتسامة الجامدة، ليدنو الجبلي من أمي هامساً:

ـ يقول لكم. . اشكروا بلاده فهي تحبكم.

انتفضت أمي بصوت غاضب:

ـ كفَّار يحبوننا. . لماذا؟!

تموجت سحنة الأعجمي بالدهشة، وبزغت عيناه تتساءلان عما تقول هذه القروية بنبراتها الحادة، وانفعالها الطارئ، فلم يجد جواباً، فقد ركن ترجمانه للصمت، فنثر كلماته مرة أخرى، ليردف الجبلي مترجماً ما قاله ذلك الأعجمي:

ـ يقول لكم. . بلاده تحب الفقراء، ولا يريدون منكم شيئاً سوى أن تبادلوهم الحب.

انحنت أمي تحاول زحزحة كيس الدقيق وهي تخاطب الجبلي بالنبرة نفسها:

ـ وهل خلت بلادهم من الفقراء، ولم يجدوا سوانا لكي يمنحوهم هذا الحب؟

أسندت أمي كيس الدقيق وحاولت دفعه على عاقتها، فعجزت مما جعل السوادي يسوط اثنين من العسكر صائحاً بهما:

ـ ألا تريان عجزها؟. . احملا لها حاجتها حتى دارها.

واحتواها بعينيه، فدفعتنا أمامها وهي تلعن الحاجة بصوت أقرب إلى البكاء، .واخترقت بنا تلك الصفوف المتداخلة بعد لأي، وعندما خرجنا من

بين تلك الجموع المختنقة، اقتربت منها، وشددت (كرتتها)(*) إلى أسفل:

ـ أين هذه البلد التي يتكلم عنها ذلك الأبرص؟

ـ لا أدري.. يقولون عند مطلع الشمس.

كانت الإجابة غامضة فلم أستوعبها، وهممت بذرف مزيد من الأسئلة لولا أن الحارسين الحاملين لحصتنا كانا قد ابتعدا، فحثثنا خطانا خلفهما، وتسابقنا للحاق بهما.

كانت خطواتهما أسرع من أن نلحق بهما، وقد انعطفا صوب حصن السوادي بعد أن اخترقا المجلاب، وصارا بمحاذاة مطينة عبده هادي، ولم يعد مؤملاً أن يعرجا إلى دارنا الذي أصبح خلفهما من وقت مبكر، فصاحت بهما أمي:

ـ إلى أين أنتما سائران؟!... بيتنا من هنا!!

فلم يعيرا صرخاتها التفاتاً، وواصلا سيرهما الحثيث حتى بلغا مخازن السوادي القابعة خلف أشجار كثيفة من الرديف، والقضب، والطلح ـ بالقرب من مزار راعي القضبة ـ، امتلأ صدري بالغيظ فأخذت ألعنهما بصوت مرتفع، وأردفت:

ـ هذه الهبة من نصيبنا، وليست من نصيب السوادي.

كنا نسير خلفهما، وهما لا يكترثان لشتائمنا وصراخنا.

أنزلا حمولتهما جانباً، وأمرونا بالتوجه إلى داخل المخزن حيث كان ثمة أناس آخرون يقفون أمام أحد رجال السوادي وهو يزن لهم دقيقاً، ويكتال لهم فولاً، وعندما جاء دورنا منحنا رطلين من الدقيق، و(كعة) فول، وقارورة زيت، وأمرنا بالانصراف بعد تحذيرنا من مغبة التذمر، أو الاعتراض. فبصقت والدتي أسفل قدمها، وتناولت حصتنا، وسفت الدقيق، ونثرت الفول، وأراقت الزيت، وصاحت بالذين سلبوا حصصهم:

(*) الكرتة: نوع من أنواع اللباس فهناك الوزرة والصديرية.. والكرتة هي اللباس الخارجي أو ما يعرف بالفستان.

ـ من رضي بهذا فبطن الأرض خير له من ظاهرها.

فزجرها أحد أعوان السوادي، فلم تمتنع، فامتدت يده إلى شعرها وجذبها أرضاً، وحاول أن يطأ بطنها بقدمه لولا استجارة ليلى عبدية التي أخذت تتخضع لذلك الساقط وتسترحمه حتى أرضت صلفه، فتجاوز عن أمي وحذرها متوعداً إن لم تغادر من حينها ليجعلن موضع قدمها قبراً لوجهها، فنضهت من سقطتها ساترة شعرها، ومعاودة البصاق للأمام ـ هذه المرة ـ فاجتمع حولها بعض النسوة وقدنها إلى خارج المخزن.

عادت والدتي إلى دارها ودموعها تحجب عنها الطرقات، ولم تكن قادرة على شيء سوى لعن السوادي، وكل من تزين بشارب في هذه القرية، وعدت أدراجي للقلعة حيث لا زالت الأجساد تهرس بعضها بعضاً، والأعناق مشرئبة بسذاجة بهيمة تنتظر شفرة جزار خبيث، ولا زال ذاك الجبلي يدلق الأسماء بهمة، فاخترقت تلك الصفوف غير مكترث لما قد يحصل لي، ولم أصل إلى مقدمة الصفوف إلاّ بعد أن تخلعت مفاصلي، ودهست قدماي، ولحقتني صفعات عشوائية، وقاسية في أماكن متفرقة من جسدي، وعندما أصبحت في مقدمة الصفوف رفعت مظلتي ـ التي كنت أمسك بها بكل قوة، وأستتر بها من تلك الأيدي الممدودة إليّ ـ، لوحت بها مراراً مشيراً لذلك الأبرص، ومحاولاً لفت انتباهه حتى إذا أشار لي بالتقدم، بدأت أتراجع (فماذا عساني أن أقول له.. وهل سيفهمني إذا أخبرته بما يحدث.. وما يدريني من أنه ليس شريكاً للسوادي فيما يحدث؟!). لا زال هذا الأبرص يستدعيني بإشارة من يده، ولا زلت متردداً، كان عليَّ أن أقول شيئاً ما، فها هي العيون ترقب إشاراتنا المتبادلة وتنتظر عما تسفر عليه.. تقدمت قليلاً ورفعت صوتي بقدر المستطاع:

ـ رجال السوادي بزوا نصيبنا، ووهبونا رطل دقيق، وقارورة زيت.. فهل تشتركان كلاكما في حب الفقراء؟!

امتقع وجه السوادي، وحار الرجل الأبرص أين يلقي ابتسامته المعلقة بوجهه والتي تبديه كأبله، وازداد تشتتها حينما رأى تهيج المجتمعين، وارتفاع أصواتهم بصخب ولغط حادين، وتموجت الصفوف لتدك بعضها بعضاً،

فزادت حيرته، وتوترت حركاته، ودنا من الجبلي، فكان لسانه يدلق كوماً هائلاً من الكلمات غير المفهومة، فتصلني رطنتها الثقيلة، فبادله الجبلي الحديث، لألمح الأبرص يعبس في وجهي محرضاً اثنين من الحرس على إبعادي فيما كان السوادي يضحك بعمق، وعيناه تغمزان للجبلي برضى.

أمسك الحارسان بي، وقاداني باتجاه المنصة، فتمصلت منهما، ودسست جسدي الصغير بين تلك الجموع، وعدت إلى دارنا لاهثاً ألعن الجميع.

اغمض عينيك عن الموت لترى الحياة

عبد اللّه الشاقي

الليل يجمعنا أمام وجهها الغائر بالتجاعيد، والآنات المكبوتة، وعلى ضوء الفانوس العتيق ألمح أهداب السمار معلقة بلسانها المتصبب بالحكايات، فترتفع همهماتهم مع تهدج صوتها المنداح بحرقة، مختلقة المواقف المهيجة للنفوس وفي سردها للحكايات تحافظ على تناغم أنفساها، وتلوين صوتها. كانت لها مقدرة عجيبة على جذب أسماعنا وقلما يعزف عنها سمارها، فهي في كل يوم تخرج لنا (بخرفينة)[*] مسبوكة، وإذا رأت التثاؤب يطرق أفواه سمارها تركت مجلسها إيذاناً بانتهاء السمرة، لينفض المجلس.

كان لزاماً أن تختم حكاياتها ـ في كل ليلة ـ بحكاية مرحمة تلك الحكاية التي ما فتئت ترددها ليلياً دون أن تعبر نهايتها، وكأنها تترك لنا حرية إكمالها كما نحب.. جلس السمار في أماكنهم، وشرعت بالبدء في سرد حكاياتها حين عكس ضوء الفانوس الفاتر ظلاً كبيراً على لبنات العشة، أخذ يدنو منا ليصبح المكان ظلاً له، ثم انزوى جانباً وأسند هامته بيديه، تلك اليد التي تقول عنها الجدة نوار بأنها تحمل تعب الأرض.. ولكي لا يعكر أمزجة السمار لزم الصمت، وعندما لمحته الجدة نوار على غير عادته، توقفت عن سرد حكايتها، وألقت على ظلمات وجهه ابتسامة منيرة، وأشارت له بطرف عينيها بالاقتراب، بادلها الابتسام ولم يستجب لدعوة عينيها فقد ركن عصاه

(*) خرفينة: دأبت الجدات على الجلوس ليلياً لخلق الحكايات والأساطير.. ويقال للأسطورة خرفينة أو ولادة، ويقول الشخص للجدة خرفينلي أو ولديلي.

جانباً، واقتعد آخر تلك الأجساد المتكورة في دوائر تنغلق عند قعادة العجوز نوار، كان مجيؤه باعثاً لتذمر كثير من السمار، فقد أجبرهم أن يعاودوا تقليب أبصارهم بذلك الظلام المعشعش بكثافة.

أظن أنني الوحيد الذي سعدت بهذا التوقف، فلم يكن يروقني أن أستمع إلى هذه الحكاية التي تصر جدتي على روايتها كلما كان مجلسها عامراً بالمستمعين.

في جلساتي اليومية لم أستكمل حكاية مرحمة البتة.. سمارها يعرفون تماماً تفاصيل هذه الحكاية، والتي سمعوها منها مراراً، وإصرارها العجيب على سردها كان يبعث التساؤلات المتكررة والتي لم تجد إجابة شافية من قبل الجدة نوار والتي كانت تصر أن ثمة من سيأتي ليكملها، وإصرارها هذا يجعلهم يعاودون سماعها علَّ أحدهم يستطيع إكمال هذه الحكاية المفتوحة، وإذا همَّ أحد الحضور بمغادرة المكان حين تشرع في سرد تلك الحكاية، فإنها تحذره، وتقسم بأنها ستحرمه من مجلسها إن لم يجلس لسماع هذه الحكاية، لذلك فهم يقتعدون أماكنهم على مضض، أما المتثائبون فتلكزهم بعصاها ليظلوا رغماً عنهم مبحلقين في لسانها، يحدث هذا التعسف عندما تحل سيرة مرحمة فقط، أما الحكايات الأخرى فلهم حرية المغادرة، أو البقاء، ما لم تطرأ هذه السيرة. في جلستي هذه غالباً ما كنت أتململ، وأختلق الأعذار في سبيل أن لا أبقى رهينة لهذه الحكاية، فكنت أتسلل للنوم، أو أخرج باتجاه «الدمنة»(*) بحجة أن حمارنا انفلت من وشقة، أو أن إحدى البقرات تراخى عقالها، فمدت لسانها صوب ثمام العشة، أو أن قطاً داهم الدجاج فأخرج راكضاً خوفاً على (الصيصان) من مخالبه، وكنت لا أعدم حيلة للفكاك من هذه الحكاية، وكانت جدتي تتغاضى عني، وحينما شبت الأيام في مفاصلي أصبحت محط تأنيبها إن حاولت الإفلات، أو التملص من سماع هذه الحكاية، فكنت أجلس شارد البال، وهي تروي سيرة مرحمة، ناغزة ذاكرتنا بحكاية امرأة سجنت بداخل القلعة، ومن أعياه الفهم، صاحت به:

(*) الدمنة: هي مربض البهائم.

ـ عيبنا أننا لم نستغل الوقت لنعلمكم بكل شيء قبل أن تمون فيكم النخوة!!

وتستكمل حكايتها بلهيب أنفاسها، وفي مقاطع من تلك الحكاية تتقطر عيناها بالدمع، وقبل أن تمضي بعيداً في سرد حكايتها أكون قد أمضيت شوطاً بعيداً من الأحلام، وأفيق عليها وهي ممكسة بإحدى أذني، تعاتبني برفق:

ـ أتعلم يا عبد اللّه إن مرحمة ستخيم على القرية ذات يوم.. ساعتها ستندم!!

فأحضنها بود، وأركب راحلتي، وأمضي للواردة.

نهضت، واقتربت من درويش، وهمست له:

ـ أعائد من الحقل.. لا بدَّ وأنك لم تذق طعم الأكل طوال اليوم؟

أهملني تماماً، وخاطب الجدة نوار:

ـ ألا زالت مرحمة تسكن الوادي.. يا جدة نوار؟

توقفت عن سرد حكايتها، ورفعت صوتها باتجاهنا:

ـ وستسكن قلبك في يوم ما.

ـ السيل لا يبقي أحداً، ومن الخير على الإنسان أن لا يُبقي أحداً بقلبه!

ـ هو وادي الموت يا درويش، واعتصم دائماً بالحب تنجُ.

ارتفع بكاء طفل رضيع من وسط النساء الجالسات، فنز صوت (ليلى عبدية) متذمراً:

ـ يبدو أننا لن نسمع شيئاً هذه الليلة.

والتقطت الطفل من بين يدي أخته النائمة، والتي نامت بعد محاولات يائسة لإبقاء عينيها العسليتين ناضجتين، فقد ملأتهما بالماء مراراً، وفتحت محاجرها بيديها، بالرغم من كل هذا استطاع النوم إغلاق تلك الأهداب، ولم يثر نومها حفيظة الجدة نوار، أخذت ليلى عبدية تهدهد الطفل، وتوقظ أخته بلكزات رقيقة، وهي تخالس الجدة نوار، وتستحثها على الإكمال.

يبدو أن وقائع جديدة من تلك السيرة الأزلية كانت تسرد، فالجميع

ينصتون بتلهف، ولم يقطع هذا التشوق إلاّ تنهيدة حارة للعجوز نوار، وبعدها توقفت واستدعت (درويشاً) ليجلس بجوارها، فأبى أن يترك مكانه، فتركت مجلسها، وتحركت صوب عشتنا الكبيرة، ليتمدد ملل عريض على جباه السمار، وتنبثق منهم زفرات مكروبة، وانطلقت أصواتهم تمضغ درويش القابع خلفهم:

ـ لا ليل ولا نهار (تنام).

ـ ما كان يضرك لو جلست بجوارها.

ـ كأنك إعصار تقلب كل شيء وتمضي ضاحكاً دون أدنى اكتراث... ألا تستحي؟!

ـ لعل السوادي خارج القرية هذه الليلة، وتركك (تتبرطع) هنا، وهناك.

ـ يا رجل ابيضّ شعر عانتك وأنت لا زلت كالأطفال تقول ما تشاء وقت ما تشاء!!

ـ أنت كهوام الأرض رؤيتك كفيلة بجعل الآخرين يهربون منك.

كان تذمرهم متداخلاً، ومتلاحقاً، ليقترب درويش من أذني هامساً:

ـ... وكأنني سرقت أموالهم، أو قتلت آباءهم.. فهم أينما رأوني هموا بتمزيقي وكل هذا لأني أريدهم أن يروا طريقهم!!

كنت أمسك به، وأحفزه على مغادرة هذا اللغط النابت على الألسن بفجاجة، وقبل أن أنهض به كانت الجدة نوار تقف فوق رأسينا، وتمد له بـ (فصعة)(*) عيش، وكوز لبن، وتهدهد على ظهره بحنو الأمهات.

ـ (تفصع) هذه اللبة، وارتشف عليها لبناً.

كانت هيأته رثة، ويداه متسختين بالطين، فقضم كسرة الخبز بنهم، وأخذ يلوكها بصمت، وانكسار، وتنبه أن من حوله ينظرون إليه بازدراء، فمد لعيونهم كسرة الخبز، وصاح بهم:

(*) فصعة: كسرة خبز.. والتي يتم إعدادها عادة من القمح.

ـ أعرف تماماً أنكم قوم لا يعرفون إلاّ الحسد. . اذكروا اللّه قبل أن تصيبني عيونكم الفارغة.

ضحكت الجدة نوار بعمق، وتوجهت إلى مقعدها لاستكمال سيرة مرحمة، وجذبت معها تلك العيون التي كفت عن مراقبة درويش، وانطلقت تتابع اندلاق لسانها الذلق:

ـ . . . وبعد أن اكتشف شيخ بندر التجار أن مرآة ابنته الصغرى لحقها السواد أمر خادمه بحملها، وجز رأسها، وقذفها في بئر السباع.

استجابت مرحمة لطلب أبيها بخضوع، وخرجت يجرها الخادم ـ الذي قطف شرف أختيها ـ وكان ممتطياً فرس أبيه، ومتقلداً سيفه اليماني، وسارت خلفه، ودموعها تملأ الأرض، ولا زال يسير بها مخترقاً الفيافي، والسهول، ومرتقياً الجبال، وكان في كل مرحلة يراودها عن نفسها، فتعتصم بشرفها بإباء شامخ، فيزداد حنقه عليها، ويقسم أيماناً مشددة إن لم ترضخ لما أراد، لينفذن أمر أبيها بجز رأسها المختال، فلا تملك إلاّ البكاء والإصرار على أن تبقى طاهرة.

في الليلة الثالثة من خروجهما هبت ريح عاصفة، اقتلعت الأشجار من أماكنها، وغيّرت مجرى الطرقات، وأينعت السماء بسحب قاتمة، ولم يعد الخادم يتبيّن طريقه، وأخذ يركض بالفرس في اتجاهات متعددة جاراً خلفه جسد مرحمة دون أن تأخذه شفقة لذاك الجسد الممزق. ولا زال يركض بلا هدى، حتى هدأت الريح، فترجل عن ظهر الفرس متفقداً سيدته، فإذا الدم يسيل من أطرافها، وهي تئن بفتور، وعيناها مطبقتان على ألم قاس مرير، فلم يكترث لها، وأخذ يبحث عن ملجأ يقيه تلك الغمة المتربصة في الأفق والمتهيئة لأن تسكب ماءها والذي ينذر بأنه سيكون وبالاً على من يجده أمامه. من على بعد لمح قرية بائسة تقف على رأس الوادي فشد إليها، هامزاً الفرس بعقب قدمه، وتاركاً مرحمة من خلفه تخط بجسدها طريقاً متعرجاً، وقبل أن يبلغ تلك القرية كانت السماء قد استحالت إلى قطعة من عذاب تنذر بوابل من غضب، فشد على الفرس بعد أن أردف سيدته، وانطلق يسابق تلك

الغمائم السوداء، حتى بلغ مشارف حقول الذّرة ورأى (فنية)(*) جارية، فسمح لسيدته بالاغتسال وإزالة دمائها المتلبدة، وما إن فعلت ذلك حتى عادت أكثر جمالاً، لتعاوده رغبته المجنونة، فجادلها عن نفسها، وأبدى خضوعه، فدفعته عنها بغلظة، فهاج صارخاً:

ـ استعدي للموت.

بركت على ركبتيها، ومدت عنقها للأمام، فاستل سيفه وهوى به على مقربة من رأسها، فلم تُحرك ساكناً فتهاوى بجوارها باكياً، يذرف شوقه بذل. فيما كانت تنأى عنه بعز، فجأة اسودت السماء بظلمة قاتمة، ودوى صوت رعد بفرقعة عالية أخذت تتهاوى في الأودية السحيقة محدثة جلجلة مدوية، أنهضها مستلطفاً، ومحاولاً مداخلتها للمرة الأخيرة، وكلما توغل في الانحناء ارتفعت بشرف، فداخله اليأس، وقرر أن يعذبها بالحياة، فقام بصلبها على جذع شجرة قضب عتيقة، قاطعاً يدها اليمنى، ورجلها اليسرى، ولم توقفه صرخاتها المتلاحقة المستجيرة، فتدلت جثة هامدة، فحملها، وأرقدها بجوار أحد (المشاوين)(**) وعاد من حيث أتى بعد ترك أطرافها نهباً للعراء، وأغمد سيفه الملطخ بدمائها بجرابه، ومضى يخترق الليل والمطر.

في مثل هذه الليالي الحارة الماطرة يأوي أهالي تلك القرية إلى مخادعهم، وينتظرون العذاب بخشوع، ولا يبقى أمام المطر والليل إلاَّ أشجار عتيقة نسيها الزمن في ركضه المحموم، فبقيت منتصبة تمضغ شحوبها ووجوه المارة.

تصبب المطر بعنف، وأمام طرقعاته الثقيلة غرقت تلك الأغصان البرية الملتفة حول الحقول، ولم يعد باقياً إلاَّ رؤوسها التي تحاول الهرب من الغرق المحتوم.

لم يكن يجرؤ أحد على اختراق هذه الليالي الماطرة إلاَّ هو، حيث كان

(*) فنية: مجرى مائي عادة يكون متفرعاً من الوادي.

(**) مشاوين: هي عبارة عن حزم من القصب اليابس يتم نصبها بشكل مخروطي لبيعها كعلف للمواشي في غير أيام المواسم والأمطار، ويستخدمها النمالية أو الحماة في أيام الحصاد كعشش يبيتون بها.

يخرج حاملاً عصاه، ومستظلاً بمظلته الخزفية، ويجوب الحقول بجسد مظلم ووجه مضيء، ويظل يجوب الحقول حتى يكف المطر، وتسيل الأودية ناشرة رائحة الأرض والأشجار، ساعتها فقط يعود من حيث أتى، ولا أحد يعرف منبته، ولا يتحدث عنه إلاّ أولئك الذين داهمهم السيل فجأة. . فيروون أن له وجهاً مضيئاً، وجسداً فاحماً، لا يبلله الماء، وتلمحه كطائر يحط عليك من حيث لا تعلم، ولم يقل أحد ممن روى سيرته إنه ترك مستغيثاً به قط، وآخرون يقولون إنه السيد بعينه يخرج ليتفقد قريته.

لم يعد سكون الليل الممطر قادراً على إخفاء أنات (مرحمة)، فيما كان المطر ينهمر بغزارة، ينداح من فوق رؤوس السنابل صانعاً أخاديداً يندفع من خلالها الماء هادراً، جارفاً «مشاوين» الحماة، تاركاً إياها مجندلة تتلقى صفعات المطر بتخاذل، ومقتحماً الحقول بفجاجة ومجتثاً السنابل من جذورها، تلك السنابل التي بقيت وحيدة تواجه حتفها بعد أن تركها (حماتها) ولجأوا إلى سقائفهم يمضغون الظلمة والبرد، تاركينها مغنماً سهلاً لليل، والمطر.

انتشرت أنات (مرحمة) تنبه سكون الليل الصامت، وعلى بقايا البروق الهاربة ظهر وجهها طافحاً بالملاحة، وإن عكره ألم عابس لكدمات غامقة ترامت في برحة وجهها العذب، وقد استقر مستنقع صغير من الدم اللزج أسفل ذقنها، فيما لا زال الدم يتدفق بغزارة من أطرافها المبتورة، وهي تئن بصوت واهن يكاد لا يسمع، لذلك ذهبت استغاثاتها المتلاحقة عبثاً.

يقولون إن له أذناً تسمع دبيب النملة، أصاخ السمع وتحرك باتجاه الصوت، ولا زال يسير متوكئاً على عصاه، حتى بلغها، فرفع صوته:

ـ جنية ولاّ إنسية.

وبصوت متألم واهن تهادى صوتها:

ـ بل إنسية ومن خيار الإنس.

فانكفأ عليها يجمعها من بين الأوحال، حتى إذ امتلأ حضنه بها، سلك بها منعطفات الحقول، فيما كانت السماء مظلمة تنيرها بروق خاطفة وثمة رعود تدوي وتترنح بجنبات الوادي، فجأة انفلق المدى عن شيخ يضاء البدر

من جبينه وكأنه ملك، كان يرتدي جبة خضراء، وعلى رأسه قلنسوة بيضاء، وبيده غصن أراك رطيب، أوقفهما وخاطب حامل مرحمة برفق:

ـ عليك أن تغمسها في حوض من لبن وعسل، وتربت عليها بهذا الغصن بعدها ستنبت أطرافها، وليبارك لكما الله في نسلكما.

واختفى على ضوء برق وصوت رعد، فرح حامل مرحمة، واتجه بها إلى آبار اللبن والعسل فوجد..

هنا أصدر درويش جلبة، بلعنة لإحدى العجائز التي كانت تتف عليه بقشور (الزعقي)(*) والذي بدأت بقشره من بداية السمرة، فبادلته اللعان فنهض من مجلسه، وتحرك للخارج، فقطعت الجدة نوار حكايتها، وصرخت فيه:

ـ إبقَ يا درويش لكي تسمع الحكاية.

خلف صوتها خلفه ومضى فيما انبرت (ليلى عبدية) تؤنب تلك العجوز على فعلتها ولم تستطع تلك العجوز أن تكبح لسانها فتركته يندلق بالشتائم في كل صوب، فنهضت الجدة نوار من مجلسها ووعدت الحاضرين باستكمال الحكاية في الليلة المقبلة، ليرتفع صوت (موتان) بحنق:

ـ كل مرة تحكين هذه الحكاية ولا تستكمليها!!

اقتربت منه وهي تضحك حتى كاد آخر سن لها يسقط مع ضخكتها، ومررت يدها على رأسه:

ـ أيقظ صالحة واحمل أخاك، وسوف تسمع النهاية في وقت آخر، فأنت لا زلت صغيراً!.

فأيقظ أخته، وتناول أخاه من يد (ليلى عبدية) وخرجوا ليتناسل السمار وهم يشتمون درويش وتلك العجوز، فيما بقيت مع أمي وجدتي التي اقتربت مني وبدت أكثر غلظة:

ـ إياك أن تغضب درويشاً!

(*) الزعقي: الفصفص.

حين يصبح بينك وبين من تحب خطوة واحدة وتعجز عن الوصول إليه اقطف قلبك، وسر إلى غايتك!!

درويش

ـ يا لعذاب الدنيا والآخرة!

أن تظل تسامر عظامك، وعندما تمل منك تتركك على قارعة الجنون تمضغ ما تبقى من الأسئلة، تغزلها، وتلبسها، وتفاجأ بأنها فضفاضة، فتردم ما تبقى منك في أحد شقوقها وتمضي.

هذه الحياة سؤال كبير جداً، ونحن نتفُ ضئيلة من هذا السؤال الضخم، نعبر أنفسنا دون أن نتمكن من إجابته كلما ألح علينا.

أن تتسور قامتك منذ الطفولة، وتتربص بالإجابة فأنت تتآكل حتماً، وسوف تمضغ قامتك أسئلة عديدة ومرة قبل أن تطل من على أي سور متهدم.. اللعنة على كل سؤال له أكثر من وجه، فلكما أمسكت بوجه سخرت منك بقية الأوجه الطليقة.

أين أقبر هذه الأسئلة المتراكمة؟!.. فرأسي أصبح مقبرة تضج بالأسئلة المحمومة وأنا أقف في حلق هذه القرية كعظمة ساق حمار ميت، لا يعرف عنها إلاَّ كونها عظمة لحمار مجهول.. يتساءلون عني، وأتساءل معهم:

ـ من أين جئت يا درويش؟

خير لي أن أبتلع مرارة السؤال كالعادة، قبل أن تسكرني تلك العصا اللعينة، فهناك متسع من الوقت لنبش أحشاء السؤال، فأسئلتهم المعلقة في حلقي لا زالت تتأرجح بي وتمنحني حق أن أتطلع للحياة، أو الموت.. ومن المؤسف أنك حينما تهتز، وتسايرها في تأرجحها لا تسعفك يداك الموثقتان

في ضبط إيقاع جسدك، فتموت (كذبالة) فانونس قديم، وإذا أخمدت آخر أنفاسك تركتك مدلى حياً، وميتاً معاً!!.

ـ إذاً فما معنى أن تموت، وأنت تضيء؟

الغريب أنك حينما تنطفئ يسارعون لتفقد القاز هل نضب أم لا.. أما أنت فيفترضون لك عمراً مديداً، ولا بدَّ أن تشتعل كلية، ويصرون على تصعيد قامتك من خلال مفتاح الفانوس وكلما ارتفعت، احترق منك شيء وأضأت بتوهج، وعندما تنتهي لا يكترثون بتفقد جثمانك المحروق بل يسارعون إلى استبدالك بخرقة أخرى!! ها أنا أبلل جذوري بمتاعبهم وكلما تنهدت استأنسوا باحتراقاتي الملتهبة!!

في الصباح الباكر تفور الأرض سنابل وقامات متعبة، تسير خافضة هامتها بذل، وبريق عينيها ينطفئ حتى لتظن أنهما عينا أعمى كتب عليه أن يسير حتى يعود إليه بصره!!، تلك القامات، تسلم للطرقات المتشعبة خطواتها المتخاذلة وتنصب في الوادي لا همَّ لها إلاَّ تفجير عيون الأرض الصلدة، وأفواههم تغني لها بموال قديم ذابل.

كنت كلما خرجت من (سقيفتي) المغروسة بين الحقول ولمحت تلك الأجساد المهلهلة سقط قلبي، واحتدت شتائمي حتى تطوي كل الأرض، وعبثاً تذهب صرخاتي فيهم:

ـ لن تعود الحياة مرة أخرى، فبماذا تداوون هذه النفس المتعبة، وبماذا تعللوها، اخرجوا من أنفسكم لأنفسكم!!

فيبادلون صرخاتي بسخرياتهم البليدة، ويمعنون في الغناء الذابل عله يحمل تعبهم الذي لا ينتهي.

كتب عليَّ أن أسير في رحلة معكوسة، فيها الصم والبكم، والعميان، هل هذه هي الحقيقة أم أنني الشاذ في هذا القطيع المسالم... أه.. أه لو حدثتهم عن تبادل الأدوار لاستلقوا على ظهورهم ضاحكين وأمطروني بأقذع الأوصاف.. وهل يجدي لو أخبرتهم بأننا غرس يحصدنا الآخرون، حتماً سيرجمونني بألسنتهم ـ كالعادة:

ـ ليس وقتك الآن أيها المجنون!!

أذكر وكأنه الآن أول صرخة أطلقتها على مسامعهم، فلقد دخلت عليهم «المقوات»، وكانوا متزاحمين حول أقراف القات وأصواتهم متداخلة بلغط، وهم «يكاسرون» وينثرون الاستجداء لبائعي القات كي يمنحوهم قاتاً بأسعار متدنية، أو لأجل قريب، فناديت بهم حتى لم يتبق أحد إلاّ وكان معي.. عندها صرخت بهم:

ـ السوادي يريد أن يكاتبكم على أنفسكم، وأنتم هنا تشترون علفاً تمضغونه في حظائركم النتنة أيها الـ...

لم أستطع إكمال شتمي فقد انطلقوا خلفي بعصيهم، وأحذيتهم، هؤلاء الفلاحون لا يعرفون أبعد من ظل غرسة، والعجيب أنهم يقضون طوال الموسم يرعون زرعاتهم حتى إذ أثمرت حصدوها، وقدموها للسادة بدون عناء، ويعودون على عشّشهم يتأوهون على كركرات (المدع) واجترار عصارة القات، ويحلمون بالموسم القادم على مهل.. يومياً ينثرون آمالهم في الطرقات وينحدرون معها نحو الحقول البعيدة، يثبتون قاماتهم في تلك الأرض، ويشغلون سواعدهم بالغناء. أعلم أن الغناء تاج المتعبين، فكلما ضاقت بهم الدنيا تقطروا غناء ورفعوا مواويلهم الشجية التي تسفح التأوهات بترنيمة حارقة، حتى الحمير هنا تغني بانتظام، وعندما تيأس من الانعتاق من حمولتها، أو تعبها اليومي لا تجد مناصاً من الوقوف في مواجهة السيل الذي لا يتوانى من إلقائها ـ في طريقه ـ أغنية مهدمة.

أشعر أنني نبتة قديمة، تحورت جذورها لأشواك، فجاء بها مزارع، وغرسها في حقله، وعندما يلمحها المارة يؤكدون ذكاء ذاك المزارع:

ـ هذه النبتة سياج لجذور السنابل.

وآخرون يؤكدون أن هذه الغرسة ما هي إلاّ (حرز)(*) من العين، والنبتة القديمة تبادل التراب المضغ.. من يجهز على من؟!

هذه هي الحكاية في قريتي ـ هكذا أنتمي إليها وهي لا تقبل بي كلباً في خلائها. إنهم يدفعونك لأن تظل تمضغ الجيف، ويتسع جوفك لقمائم

(*) حرز: هو عبارة عن كلمات وطلاسم تكتب وتلف بجلد وتوضع على خاصرة المحروز لصيانته من العين.

القرى، لتردم كل الاخضرار في داخلك، وتخزن الجفاف، والبؤس، ولا شيء يصطفيك سوى هذا.. إنه الموت، نعم الموت أن تعيش كمقبرة لا عمل لها إلاّ ردم الحياة!!

وعندما تصرخ بحبك فأنت مهدد بأن تجتث جذورك، وأن يُلقى بك خارج أفواههم، لتستحيل حماراً دورك ينتهي بحمل لعناتهم لقبح صوتك، ولغبائك الفادح، وإذا طرأت على ألسنتهم نفضوك من أطرافهم، وهم يحثون الخطى:

ـ من أين جئت يا درويش؟؟

من الظلام، كما تأتي كل الوجوه.. هذا جوابي الذي أحفظه عن ظهر قلب، دون أن أجرؤ على البوح به.. فكل الوجوه تعرف تلك البوابات التي قذفتها، ولا تعرف ـ بالتأكيد ـ مفاتيحها... زبالة قذفت في آخر الليل، وانتهى الأمر!!

أما أنا فمصيبتي أنني لا أعرف حتى تلك البوابة التي قذفتني، لا أعرف من تجرأ وقذفني في هذا الجحيم، وتركني وحيداً وانطلق مقهقهاً بانتهاء وطره.

كنت أدخل عليه، وهو متكئ، وأقبّل يده، وأبتعد مسافة تمكنني من الانحناء، وبعد أن يسحب يده بخفة وزهو، خفة تفضح خوفه من أن تتلوث يده الكريمة من آثار (الشمة) التي لا تبرح شفتيّ، ويزجرني بقسوة، فأبتعد قليلاً، وأخرج كلماتي مبعثرة، مرتبكة:

ـ من أين جئت بي يا سيدي؟

فيجن، ويقذفني بحذائه، ليصيب جسدي المنحني، وقبل أن أغادره أكون قد أعدت إليه حذاءه، ومنحت يده حق أن تهوي إلى صدغي بعنف وغلظة، فيبصق على ما تبقى من جسدي المنهار، وأغادره وأنا أستدر دموعاً يابسة نضبت منذ طفولتي المبكرة، وفي عشة الخدم أتناول مرآتي ذات الشروخ العديدة وأجمع تفاصيل وجهي من خلالها فيصدمني وجهاً مجزءاً، كل جزء منه يمسك ببصقة سيدي!!

صوته يزغرد في قلبي بفرح:

ـ كنت متوجهاً نحوك.

قبّلني في رأسي، وتوجهنا صوب القرية.

أضاءت وجهينا بابتسامتها.. كانت تركب حماراً أعرج، وتحاول أن تستحثه على الإسراع إلاّ أن عرجته كانت تجذبه للخلف، اقترب منها، ونادى بها ضاحكاً:

ـ استبدلي عرجته بدرويش.

مؤلم أن يبادر من يحبك إلى إيذائك، شعرت أنني أصغر وأصغر وأتلاشى بداخل أسمالي المرقعة، حينها ترجلت عن حمارها غاضبة، وصفعت عبد اللّه على وجهه، وهي تصيح به:

ـ درويش حصان يجر هذه القرية.

انتصبت قامتي قليلاً، وقبّلت يدها وأنا أتعثر في مداراة حزني:

ـ عبد اللّه يحبني فدعيه يتندر بعض الوقت.

صاحت بنبرة صارمة:

ـ التندر بالرجال كمن يغرس خنجراً بخاصرته بلا غمد.

كان عبد اللّه يتحسس صفعتها، وهيأته تقترب من البكاء، اقترب منها ورفع يده عالياً وهوى بها على صدغه:

ـ لك أن تهينيني بحذائك يا خالة.

ضمته إلى صدرها بحنان:

ـ أنا لا أهينك ولكن أعلمك أن الرجال كالقمم تنظر دائماً للسفوح على أنها موقع جذورها ومتى ما سقطت سقطوا وهانوا.

والتفتت نحوي:

ـ انتظرتك ليلة البارحة فلم تعد.

حشرت نفسي بين أسمالي البالية:

ـ كنت ملزماً بتنظيف حظيرة البقر.

غرست عينيها بوجهي، وبصوت قوي عطوف:

ـ ألا زلت تحب الأرض يا درويش، ألا زلت تحب هذه العروس المتعبة؟!

وركبت حمارها وتوجهت نحو الأفق.

فيما كنت أود أن أقول لها:

ـ وماذا يفيد هذا الحب إذا نحن نموت ومن يسموننا العذاب يتمتعون برؤيتنا مجندلين في حفر ضيقة.

كنت أود أن أقول لها ذلك لكنها مضت وهي تلكز حمارها الأعرج صوب الحقول البعيدة.

بقيتُ أنا وعبد اللّه، غرست عيني في وجهه للحظات وأشحت عنه.. كنت مشتاقاً للبكاء.. لماذا يجف بكاؤنا كلما أدمنا الحزن؟!.. كنت أريد أن أعاتبه.. أشتمه.. أقبله.. أن أفعل أي شيء يزيح هذه الغمة من داخلي.. لكني لم أفعل شيئاً سوى جر أقدامي والسير كما تسير الأحصنة الهرمة.

سرنا صامتين، يختلق الحديث فأرد عليه باقتضاب، وأنحني لالتقاط الحصى وأقذفه باتجاه القرية، وعندما طال صمتي فاتحني بدموعه:

ـ هل أنت غاضب؟

رددت بصوت مبحوح:

ـ وهل تخاف من غضب المجنون؟

ضمني مرة أخرى، وهو يبكي:

ـ أسألك هل أنت غاضب؟

كان صوتي حزيناً مراً:

ـ ومن يحزن من أجل درويش؟

وانخرطت في ضحكة جافة، محاولاً طرد دموع غزيرة همت بإغراق أهدابي.

ـ لماذا تضحك؟

ـ أهش همومي بالضحك ولولاه لمتُّ من زمن بعيد.

ألقى بوجهه في صدري، وقبّلني وحمل سيقانه في ركض محموم بعد أن ترك صوته يدوي في أعماقي:

ـ أيها المنبوذ فينا إنني أحبك.

وفيما كانت قدماه تسابقان السنابل صوب القرية، كنت أحاول نثر دموعي المتيبسة علها تفرج غمة هذا القلب.

راعي القضبة حجر ينسيكم الشجر

الجدة نوار

من مزار (أبي قضبة) اقتربت امرأة تحمل طفلاً مجذوماً، تساقطت أجزاء من أطرافه، واتسعت فجوات أخدودية بوجهه، وقد استحال لونه إلى اللون الرمادي المنطفئ، وكانت أمه حائرة من أن يتفسخ بين يديها، فجلده الرخو يجعل الإمساك به صعوبة، وأيما صعوبة، لذلك وضع فوق (خسفة) فرشت بالتراب الناعم، وتكفلت أمه بحضنه بين يديها، وساقت صوتها، وقربانها أمامها، ذلك الصوت الذي يزداد خشوعاً وارتفاعاً كلما قاربت من القبة:

ـ شيل للّه يا راعي القضبة!!.

ومن خلفها سارت امرأتان حاملتان بيارق ملونة، وعبد فاحم السواد قد انتفخت أوداجه، وأخذته النشوة، ليتراقص على ضربات طبله العنيفة، نافخاً أنفاسه بضيق، ومستغلاً ارتفاع يده لمسح عرقٍ انحدر من جبهته بغزارة، فيما كان عبد آخر يقود عجلاً ثابت القوائم، وافر السمنة، ويده تقترب من مديته كلما دنا الموكب من فناء القبة، وقد زف الموكب مجموعة من الزوار حتى أوصلوه إلى فناء القبة، وهناك أنزلت المرأة طفلها المجذوم، وتناولت البيارق ـ من المرأتين المصاحبتين لها ـ وعلقتها في فجوات بالقبة أعدت لهذا الغرض، وتهيأ العبد المكلف بذبح الثور لإتمام مهمته، فأخرج مديته وشحذها بأحد الأحجار الصلدة المقذوفة بالفناء وجندل الثور بعد أن ساعده بعض الزوار ومرر شفرته بسرعة خاطفة، فاندفع الدم شاخباً بشدة، لترتفع دقات الطبل عالياً، وعندها تناولت المرأة طفلها، وغسلته بالدم المتدفق، وهي تتمتم:

ـ شيل للّه يا راعي القضبة.

وعرضت طفلها للدماء المنسكبة حتى أن الدم ركد في تلك الفجوات الضامرة من وجه الصبي، عندها ارتفع صوت الطبل عالياً، وأخذت المرأة ترقص رقصاً عصبياً متوتراً، وتدور حول ابنها الملقى بفناء القبة، وهي تتمتم بكلمات لا يسمع منها إلاّ دمدمتها وكلما اشتدت إيقاعات الطبل نفرت المرأة وازدادت رقصتها توتراً ووحشية وبين لحظة وأخرى تنزل بجذعها داقة الأرض برأسها بينما جسدها يرتعش وكأنها ذبحت للتو، وإذا تهادت إيقاعات الطبل تسكن حتى تظن أنها تخشبت فينهضها «الزقار» بإيقاعات ثقيلة.

وقد تجمع الزائرون حول الطفل في دائرة ضيقة سرعان ما اتسعت، وأُلقِيَ بداخلها العجزة من النساء، والرجال، والأطفال وقد قرضتهم أمراض مختلفة، وظل ذووهم يرقصون من حولهم بألم ويرفعون البيارق عالياً، وينحنون لتراب القبة (خامشين) ما تصل إليه أيديهم وينثرونه على رؤوس مرضاهم.

كان درويش عائداً من الحقل، وصوت الطبل يملأ مسامعه، فعرج على القبة، فلمحهم يدورون حول مرضاهم، ويتبادلون البيارق قاطعين منها أجزاء ليحملوها معهم كي تقيهم من العين، ويغرقون أيديهم بالدم المنقع أسفل أقدامهم، «يخضبون» بها هامات مرضاهم. حمل معوله واخترق دائرتهم بجسارة، ووجهه الدقيق لا تبدو منه إلاّ شفتان مندلقتان بالسخرية، وعينان لامعتان وفمه المزموم انفرج عن ابتسامة ساخرة وهو يرفع معوله عالياً ويهم بنقر رأس القبة وقبل أن يفعل ذلك تراخت يده، وتفرسهم باستخفاف، وأطلق ضحكة طويلة مجلجلة، في حين بقيت عيونهم معلقة بيديه المرتفعتين بمعولها صوب القبة، ويرقبون قدمه وهي ترفس ذلك العجل المذبوح الذي لا زال دمه يتخثر علقاً، ويتشعب بتعرجات راكدة، فيما كانت قوائمه تنبض ببطء قبل أن تلفظ آخر أنفاسها.. وخاطبهم:

ـ أولا زلتم تظنون أن هديكم سيترك موته وينهض للدفاع عن سيدكم؟!..

ثم أطلق ضحكة جافة وأردف:

ـ من خفة عقولكم أنكم تذبحون الجزور وتتركونها للطير بينما بطونكم خاوية تنادي كسرة خبز يابسة.

عاود الضحك، وهو يرفس رأس الثور المذبوح، وينقل بصره فيهم بازدراء:

ـ لا بدَّ وأن صاحب هذا القربان قد رهن أو باع ما يملك ثمناً لهذا العجل.. فقط لينحره لحجر لا يدفع عن نفسه ضربة واحدة من معولي هذا.

همهمت الأصوات، وتدافعت الأجساد، ورجوه أن لا يسترسل في حديثه، فواصل حديثه دون أن يعبأ بتوسلاتهم:

ـ واللَّه لو خرج السيد نفسه لأحطمن رأسه دون وجل.

فتحركت أم الطفل من بين الصفوف، واقتربت منه تتوسل إليه أن يكف عن العبث بمزار طفلها، وعندما رأته مسترسلاً في شتائمه، بكت بحرقة:

ـ أيرضيك أن يموت ابني وتكون أنت السبب؟

ـ وكيف أكون السبب في موته؟

ـ ها أنت تفسد مزاره، وتتهكم على السيد، وسوف يصيب ابني العقاب معك، فما ذنب طفلي أن يموت في يوم مزاره وبسبب عبثك.

رد عليها صارخاً:

ـ لن يموت.

والتفت إلى المجتمعين وصاح:

ـ يا أهل القرية.. أراكم بلا عقول فأنا المجنون فيكم لا أخاف من حجر، وأنتم تسفكون الدماء وتهبون الهبات النفيسة لحجر أصم، وبدل أن تتركوا الناس يأكلون من هذه الجزور ويسدون فاقتهم، تتركونها للقبر، والطير، والسباع.. وإذا كنتم تخافون صاحب القبة فأنا أتكفل بتخليصكم منه.

ورفع معوله صوب القبة، فركض الجميع وحالوا بينه وبين القبة، فهددهم بفلق رأس من يقترب منه، وزاد إصراره على هدم القبة، واجتثاث جثة السيد، وتقديمها كهبة منه للكلاب.

ـ يا أهل القرية تعلمون جيداً أنني لا أملك بهيمة أقدمها للكلاب التي تجاورني في وحدتي بين الحقول واليوم قررت أن أهبها جثة راعي القضبة!!

وحاول اختراق حصارهم له، وعندما رأوا تصميمه، أحاطوا به، وطرحوه أرضاً، وانهالوا عليه بالضرب، فصاح فيهم حارس القبة زاجراً، وآمراً:

ـ ارفعوا أيديكم عن درويش، فالمجانين أحباب أبو قضبة.

فخلوا عنه، فقام وحمل معوله، وهو أكثر تصميماً على هدم القبة، فأخذوا يسترضونه عما عزم عليه، فوافق بشرط أن يكسوه، ويطعموه، فتحرك بعضهم لتلبية رغبته، وبقي أكثرهم محيطاً به، فيما كانت أم الطفل تنتحب وتدعي عليه بدعاء حارق، وقد أخذ بعض النساء يخففن عليها مصابها، وكان درويش غارقاً في ضحكاته الجافة، يتوقف ليطلق عدة كلمات ويعاود الضحك:

ـ السوادي يأكلكم، وأبو قضبة يأكلكم، وأنتم كالرعية التي ليس لها من راع!!

حافظوا على صمتهم خوفاً من أن تعاوده فكرة هدم القبة، فتركوه يشتمهم، ويتهكم بهم حتى وصل من بعثوهم لكسائه، وقد جلبوا له مئزراً يمانياً، ومدرعة، وخنجراً له رأس فضي، وطعاماً متنوعاً يكفي لثلاثة أيام، وأعطوه هبتهم وهم يسترضونه، ويقبلون هامته، فتناولها، وغادرهم صائحاً:

ـ آه يا كفرة لو قلت لكم إنني جائع لما نظر أحدكم إليَّ، ولكن من اليوم عرفت كيف أجعلكم تطعمونني.

وانطلق صوب القرية، وعيونهم تتبعه، وخوف عميق يجري في خواطرهم من أن يعود إلى هدم القبة.

عليك أن ترعى الحزن بالضحك

درويش

جميل أنِ تمارس جنونك وأنت تعلم علم اليقين أنك تسير على حد شفرة قاطع، وتعلم أنهم قادرون على ردمك حياً، ودهسك بأقدامهم، وهم يلعنون سيرتك.

كيف لو قطعوا هذا الرأس.. حتماً سيصابون بالفزع، وستندلق شفاههم بكلمات ضخمة وهم غير مصدقين أن هذا الرأس يحمل كل هذا الدهاء، أوه ما فائدة أن أموت كبهيمة أصابها الانتفاخ ورميت على إحدى (الكداديف) دون أن تثير الدهشة، أو الغضب.. إن مثل هذه الميتة لا تليق بي وكلما خطرت ببالي يصيبني الاشمئزاز، إنها ميتة تمنح الآخرين أن يتبولوا على قامتك المحنطة، والتي سرعان ما يأكلها الدود، فلا يبقى منك إلاّ عظمة عجز بالية يتناولها الصبية، ويقذفونها بالليل، وهم يرددون:

ـ (عظم ساري، وساري سرى)(*).

ساعتها لن أستطيع لعنهم، وإن استطعت فمن يبلغ لعنتي للقرى؟

إن قريتي تكتم لعناتها، وتترك للعيون حرية أن تبوح بمشاعرها الحبيسة، ولذلك أظن أن سبب تحاسدهم جاء من هذا الباب، فلا أحد هنا إلاّ وقلبه يغش بحسد أسود.

(*) عظم ساري، وساري سري: هي لعبة تلعب في الليالي المقمرة حيث تتكون اللعبة من مجموعة واحدة يقوم شخص واحد منهم بقذف عظم ويصيح وساري سري لينطلق البقية في البحث عن العظم ومن يحصل عليه يقوم بتخبئته ويسير حتى يصل إلى المكان الذي تمّ قذف العظم منه ليصبح له الحق في قذفه بينما ينطلق البقية من البحث من جديد عن العظم.

آه ها أنا أعري قريتي دون أن أفضح هذه النفس التي تركض في أوردتي، لعلها طبيعة توارثناها نحن البشر، فكل ما عدانا قابل للسقوط.. نعم بي من العيوب ما أخجل من الإفصاح بها.. فهل أنا عجز خاوٍ يعلل نفسه بأهميته التي لولاها لفقدت الدنيا زينتها، أم أن الأرض اقتاتها السوس، وتبقت فيها قامة ناحلة، نخرة تمضغ هواجسها بريبة!!

إذا كنت كذلك فلماذا تختارني الطيور دون سواي، فعندما أكون مغروساً بين الحقول، أحمي السنابل بصوتي، ومقلاعي، تأتي تلك الطيور الجميلة، وتحط على رأسي، وأكتافي، فأقذف بالمقلاع، وأتركها تملأ بطنها، ويبدو أن تلك الطيور فطنت لمقدار حمقي فاستغلته، أو أنني أمتلك ميزة دون سواي تجذب تلك الطيور ربما أكون طيباً.. ربما. ولكن الذي أذكره جيداً أن سيدي داهمني ذات مرة، وأنا أتطلع لتلك الطيور وهي تنقر حبيبات السنابل الناضجة، وأغني لها بصوت أحاول جاهداً ترقيقه، فما كان منه إلاً أن خلع لجام بغلته، وانهال عليَّ ضرباً مبرحاً، وهو يصرخ بجنون:

ـ يا ابن العاهرة.. كيف تترك الطيور تتخاطف الحبوب وأنت لاه بالغناء؟

وعبثاً ذهب اعتذاري البليد:

ـ سيدي أصبحت فزاعة مألوفة!

ثار غضبه فركلني بين فخذي لأغادر وجهه القاسي في غيبوبة طويلة، ولم أفق إلاً على وجهها الحقلي، وهي منكفئة عليَّ «تتمارى» بكدمات اسودت بأماكن متفرقة من جسدي، وأخذت تشهق بمرارة:

ـ إن له قلب حنش.. إيه واللّه له قلب حنش فمن ذا يضرب بحديد.

نضحت وجهي بماء قربتها، وناولتني كوز لبن، وحثتني على شربه، فتمنعت، وخاطبتها بحرقة:

ـ من يحب درويش؟

غصت بحديثها:

ـ لتكن الأرض.

كان جيلان يبكي حينما سكبت اللبن في جوفي:

ـ أكان لبنه؟

تطلعت نحو ابنها الصغير، وغرست رأسه بصدرها:

ـ له ثدي يشبعه يا درويش.

ـ (أيتها الشاهقة كالغيث.. ثديك قلبك).

هل أقول لها ذلك؟.. سوف تصفعني حتماً، خير لي أن أصمت.

كانت تحاول إسكات جيلان الذي انفجر باكياً فجأة، وكلما غرست رأسه بصدرها، تشبث بثديها، ففكت صديريتها، وأخرجت له ثدياً رخواً، أخذ يمصه بلهفة، ويبتلع ريقه الجاف، ويعاود البكاء، وهي تهدهد عليه ضاحكة:

ـ سبقك موتان، ولم يُبقِ لك شيئاً.. سبع سنوات يرضع بدون انقطاع ولم يشبع!!

لا أدري لماذا قفز إلى خاطري أن أسألها:

ـ أين زوجك؟

لم تجب، وحملت علفها بيد، والأخرى احتزمت جيلان ومضت، وهي توصيني:

ـ إذا ضاقت الدنيا في وجهك تذكر أن هناك بيتاً لا زال مفتوحاً فاقصدنا في أي وقت.

حاصرني الحزن والألم، فانطلقت أعدو بدون هدى، ووجدت نفسي أقف أمام وجهه المليء بفجوات الغضب:

ـ أين كنت من البارحة؟

ـ للتو استيقظت من ركلتك.

ـ سوف أتعلم في المرة القادمة كيف أجعلك لا تفيق.

وناولني بصقة الصباح، وأتبعها بصرخة حادة:

ـ يا بغل.. عليك أن تعلم بأن (رعنا) تقودك ككلب نجس، فهي لا تحب أحداً، وإنما تعطف عليك خوفاً على نفسها من جنونك.

(ملعون أبوك.. يا ابن العاهرة.. يا بغل يا ابن البغل الكبير.. يا ساقط.. يا هين).

ألهب في داخلي هذا السيل المتدفق من الشتائم بخيزرانته التي التصقت بجلدي، وهو يصرخ:

ـ لا زالت البقر جائعة من الأمس اذهب وتفقدها، وإياك أن تنظر إليَّ هكذا مرة أخرى.. هيا اذهب.

وألقى بخيزرانته على جسدي، فتحركت وأنا أتلوى وجعاً نحو (مطارح) البهائم. في الطريق إلى المطارح أمرُّ بالسوق، يومها كنت راغباً في أن أنزل وجعي بأي شخص، كانت جروحي تؤلمني، فانحنيت لعدها.. فهل أستطيع إحصاءها؟!.. وراهنت نفسي على ذلك، فبدأت بجروح ساعدي أولاً.. كانت هناك كيتان وأربع أخرى قد غربت منذ فترة وجيزة، وعضتان واحدة لحمار مسعور كنت أحاول أن أجعله يلقح وليفته، وعندما عجز ظننت أنه قد أصبح عنيناً، فبحثت عن حمار آخر وقبل أن أتمكن من جعل الحمار الغريب يقوم بالدور الذي عجز عنه حمارنا، لم أشعر به إلاَّ وساعدي بين فكيه، ولم يخلصني منه إلاَّ أن وخزت إحدى عينيه بالميسم، لينطلق ناهقاً بحرقة، وبعدها فقد عيناً، وترك لعابه يعيث في دمي فساداً، ولم ينته الأمر هنا بل تدلى رأسي من فوق إحدى أشجار الأثل لثلاثة أيام متوالية، فعندما علم سيدي بما حدث أمر بتعليقي من قدمي، وأن أمنع من الزاد، وقد اكتفى العبد المكلف بمراقبتي بإعطائي شربة ماء مع كل غروب، وكان يقوم بهذا الدور الخسيس أحد عبيده اللقطاء، الذي كنت «أعيره» بذلك فيتعمد أن يعبث بعصاه في جروحي أو أن يحك طرف أنفي بإصبعه، لتجري رعشة خفيفة في بدني أتمنى هرشها مقابل أن أجلد مائة جلدة.. أما العضة الثانية فهي لسيدي فقد اشتكى من صعوبة طحن ما يأكل فنصحه أحد جلسائه بمضغ جلدٍ يابس، فقربني منه وقرض ساعدي، كان سيستمر هذا طويلاً لولا أن جليسه، نفى أن يقوم جلدي بمثل هذا الدور، فتركني والدم يسيل بغزارة، ونابه مغروسٌ كحافر وطأ عجيناً، والحقيقة أن ناب الحمار كان أرحم من ناب سيدي!!

وكانت هناك آثار (فصد) كبيرة لا أعلم من أخذته الشفقة بي، ليطعمني من وباءٍ عبرنا في زمن لا أعلمه، وثمة جروح متنوعة، وعديدة لا أذكر تفاصيلها:

ـ اللعنة على هذه الجروح لولاها لأكملت العد!!

يبدو أن إحصائي لجروحي قد لفت انتباه الكثيرين الذين كانوا يعبرونني وهم يصفقون كفاً بكف، ولم أكن عابئاً بهم.. وعندما توقفت عن إحصاء جروح ساعدي كان موتان ينظر إليَّ خلسة هو يقلب المطبق، وحين تلاقت عيوننا ضحك في وجهي، وقبل أن يكمل ضحكته صرخ فيه عمه:

ـ من يراقب المجانين يجن.. ها أنت أحرقت المطبق.

تلعثم قليلاً، وحاول انتشال المطبق المحروق بصنارته فأوشك أن يقلب الصاج بما حمل، ولم يعتقه من هذا الارتباك إلاَّ قدوم امرأة كانت تتثنى بدلال، حينها غمز لعمه باتجاهها، فتوجه صوبها ماسحاً قبحه بما تبقى من زيت عالق بيديه.. ضحك في وجهي، وناولني مطبقاً:

ـ أظنك لم (تتقرع)(*) بعد.

ـ لقد شربت لبن جيلان.

ـ عيبك أنك تحسب أن الماء كل شيء.

ـ لا أريد مطبقاً.. لا شك أن عمك قد أحصاه.

فرد عليَّ ضاحكاً:

ـ بوجود هذه المرأة سيقلع عن بخله قليلاً، وإن فعل فإنه سوف يقلع كما أقلعت عن عد جروحك.

ـ ليتني أستطيع غسله بهذا الزيت الحار.

ـ حسبك.. ومن أين نأكل أنا وإخوتي.. أنسيت أن رزقنا يقف على بوابة هذا الجيب الضيق.

تناولت حبات مطبق، وأخذت ألوك إحداها على مهل، وأحسست

(*) تتقرع: القروع هو وجبة الإفطار.

بأهدابه تحاصرني، فقذفت بحبات المطبق في وجهه، وانطلقت أعدو وصوته يلاحقني:

ـ هاك مطبقك.

فكنت أنثر صوتي خلف ركضي المحموم:

ـ أي جرو من أبناء القرية يحتاج لمطبقك أكثر مني.

هناك من يربطك بعينيه وعندما تغادره يوكلك لظلك!.. هذه الأعين تستحيل لهيباً يحرقك عندما تضعك في بؤبئها، وتصبح لا تقوى على شيء سوى المحاولة الدائمة للهروب منها، أو تحسين سيرك أمامها، وإيهامها أنك ناصع كأشعة الشمس.

اشتعلت ظنوني حين لمحته يتسور قامتي، ويلقي بعينيه على خطاي، تنبهت لتربصاته حين قدم «النمالية» إلى القرية، وكانوا يزفون أنعامهم، ونساءهم اللاتي ينثرن ضحكاتهن بجنبات الوادي، ليغدو الوادي لهيباً من رغبة وجنة من أنس. استقبلت القرية قدومهم هذه المرة بعبوس فاتر، فقد انتشرت حكايتهم في قرية بني حسين تلك الحكاية التي تناقلتها كل البيوت باستهجان، فقد قامت إحدى بنات «النمالية» بالدخول إلى إحدى «المساني»(*) وهناك عرضت نفسها على صاحب «المسنى» مقابل صاع بر، فوافق وعندما هم بها فاجأتهم زوجته، وخوفاً من افتضاح أمره غرس خنجره في خاصرة امرأته، وادعى أنها سقطت على وتد بينما كانت تنظف (المساني) من الحشرات التي أتت على النبتات الصغيرة، ولم يشك أحد في قوله، وكفنوا المرأة، واتجهوا بها إلى المقبرة، وهناك وجدوا بنت النمالية والتي اعترفت بما حدث، فأثارت غضب أهل المتوفية الذين لم يتوانوا عن إخماد أنفاس صهرهم، وقد نفذت بنت «النمالية» من العقاب أثناء العراك الدائر بين الأهالي.. ويقولون إن الدم لم يجف في تلك القرية إلى الآن، وقد اتسع الثأر فيما بينهم، وقد غادرهم «النمالية» دون أي خسارة تذكر سوى سيرة سيئة تسبقهم إلى أي مكان يتجهون إليه، وآخرون يقولون إن «النمالية» استغلوا تلك الخلافات،

(*) المساني: هي الأماكن التي تخصص لزراعة أنواع البقول.

فاستولوا على «عجار»(*) الطعام، والسمسم، وساقوا أمامهم كثيراً من الأنعام. . وقد التقيت بكبيرهم عند مدخل الوادي من الجهة اليمانية، والذي تربطني به صداقة قديمة تعود لعدة سنوات خلت، فعندما كنت أئن من عضة الحمار والتي تركت فجوة عميقة بساعدي أخذت تتسع وتنزف صديداً نتناً لفترة طويلة، كاد ساعدي يذهب معها، في تلك الأيام أسديت معروفاً لأحد «النمالية»، فقد أعرته حماري لبلوغ أسفل الوادي بزوجته التي كانت تُعاني من طلق وشيك وكان على زوجها أن يصل بها إلى أمها التي ادعى أن لها خبرة طويلة في توليد النساء بدون عناء، ولم أكتفِ بذلك بل صحبته وبنفسي بعد أن رأيت صعوبة نقلها على حمار أمرد، وأثناء سيرنا كنت أتأفف بضيق من جروحي المبثوثة، وبعد أن أوصلنا زوجته إلى أمها عدنا، وافترقنا على ود، فذهبت لاستكمال أعمالي، وذهب لشأنه، ولم يمضِ وقت طويل إلاّ وهو يقف فوق رأسي ومعه كبيرهم، وحملوني باتجاه موقعهم وهناك أرقدوني على «مشوان»(**) عجوز وظل (برمي) ـ وهذا هو اسم كبيرهم ـ ملازماً لي، ففي البدء قام بشطر ورم تجمع أسفل ساعدي وأخذ يضغط عليه بكل قوة حتى غادره الصديد والدم، وبقيت حفرة غائرة تفوح منها روائح نتنة، فسكبت فيها خلاً أبيض مخففاً بماء الورد فلم أتمالك نفسي وأخذت أولول كالنساء، وبعد ذلك وضع (لبخة) مكونة من تمر، وملح، وقشر الرمان، وشيء آخر لم أميزه، ولم يتركوني حتى شفيت، فكانوا يأتونني بين الحقول ويضمدون جروحي ويمضون، وفي أوقات أخرى أذهب إليهم. في تلك الفترة كنت مولعاً بواحدة منهم، وكانت تسوق في دلالها وعذوبتها، ونويت الارتباط بها، ولكنها أبت في آخر لحظة بعدما سمعت أنني أحد المجانين الخلص في هذه القرية، مع ذلك لم تنقطع صلتي ببرمي بل ازدادت قوة حينما وقف فوق رأسي مرة أخرى لمعالجة إبهامي المبتور.

جاء إلينا النمالية كعادتهم يحملون معهم فنون البهجة، من أدوات

(*) عجار: هو عبارة عن كيس يصنع من خسف الدوم خاص بتعبئة القمح.

(**) مشوان: مفرد مشاوين والمشوان عبارة عن حزمة من قصب القمح يتم تخزينه لاستخدامه كعلف في مواسم القحط أو يستخدمه كعشش يبيتون به.

غريبة، وطيب، ونساء فاتنات، وحكايات لها العجب. في هذه المرة سبقتهم حكاية ما أحدثوه في قرية بني حسين، فرجمهم الأهالي بالحجارة قبل أن يتوسطوا الوادي وهموا بأن ينكصوا من حيث أتوا إلاَّ أن قافلتهم قد هدها التعب ولم تعد جمالهم قادرة على مواصلة السير، فأناخوا بركبهم بجوار حقول الشريف حسين، ولم يأبهوا بغضب الأهالي، وأقسموا إنهم لن يغادروا أماكنهم حتى تستطيع جمالهم مواصلة السير.

وجدت نفسي بينهم أذود عنهم أذى أهل القرية، وكنت غبياً لنشري تهديدات واهية في فضاء المجتمعين حول قافلة «النمالية». في الليل أخبرني (برمي) عن خروج نسائهم باكيات وهن يحملن أبناءهن ويلقونهم في وجه الشريف علَّ قلبه يرق لهم ويجيرهم، إلاَّ أن دموعهم ذهبت سدى أمام صلف الشريف حسين، فما كان مني إلاَّ أن أخبرتهم أن ثمة حقولاً وقفاً تقع خلف حقول السوادي، وأن من يضع قدمه هناك لا يستطيع أي كائن أن يخرجه منها، ويقال إن (أبا قضبة) أوقفها للمساكين وأبناء السبيل، وهناك من يروي أن هذه الساحة وقعت بها معركة كبيرة بين الجن ورجال السيد الصالح، ولكونه انتصر فيها فقد جعلها مكاناً لتضرعه، ولا أحد يستطيع إخراج من بها، وقد استغل السوادي جزءاً منها وسوره بأشجار الأثل لتكون مخازن لحبوبه ومطارح لخيوله وبقية أنعامه، وقد بهتت القرية حينما وجدت «النمالية» يبسطون خيامهم في تلك الناحية، وأصبحوا كلما قدموا إلى قريتنا توجهوا مباشرة إلى هذه المنطقة دون أن يجرؤ أحد على مطالبتهم بمغادرتها، وقد اكتسبت ودهم وأصبحت أقضي جل وقتي معهم.. خلال هذه الأثناء لم أكن متنبهاً لوجود شخص يرقبني ويحصي سكناتي وتهوري، كنت ألمحه في أوقات متفرقة فلا أكترث له حتى نبهني برمي:

ـ هذا الرجل يلازمك كظلك.

من تلك الساعة أخذت أتنبه لوجوده، وعندما كنت أدفع أذى أهل القرية عن النمالية كان يرفع سوطه عالياً ويضرب به الهواء مكشراً عن أنياب تطحلبت بالقات والشمة، وغدت كبوابة تنفتح عن دارة ملئت بفضلات الدنيا. لمحته في إحدى المرات يقف على جرف الوادي ويضحك بازدراء،

فرفعت له إصبعي الوسطى بعد أن بللتها بريقي الدبق، فلم يزده ذلك إلاَّ ضحكاً مفرطاً، وأنهاه بتهديد من يده التي تحركت على مهل وببطء نحو الأسفل.

قال لسيدي: إنه يقاسم النمالة الأكل.

فمنع عني الأكل.

قال له: يجوب الأسواق ليلاً.

فقيد قدمَيَّ.

قال له: يهدد بهدم قبة (أبي قضبة).

فبتر إبهامي الأيسر والأيمن.

قال له: يضحك كثيراً.

فتقهقر سيدي أمام موجة الضحك، . واستل سوطه، وأسكنه جلدي، هذا الجلد الذي مات منذ زمن بعيد. . بعيد جداً منذ تلك الحادثة التي أذكرها جيداً. فقد كان عائداً من الحقول بعد تفقد محصول تلك السنة، وكان يمتطي خيلاً اشتهر بين القرى بأنه خيل لا يشق له غبار، وكان خيلاً ناصع البياض كزبد السيل، دقيق الأطراف، ضامر الخصر، طري الظهر، صلب القوائم، إذا انطلق غاب مع الغبار، وإذا أبطأ كان كغصن «عزاني»، وقد ذاع صيته بين القرى كأفضل خيل وجد على الأرض، وكان يملكه شيخ بني عيسى وعبثاً ذهبت محاولات طالبيه، حتى إن سعره بلغ مائة «جلبة»(*) عمار، لكن تلك المحاولات تكسرت على عتبات مسامع شيخ بني عيسى، وقد غالى السوادي في طلب هذا الخيل حتى إنه دفع بخمس مائة عبد، ومائة جلبة، ومائة رأس من الغنم، ومائة من الإبل، ومائة من البقر، ولكن هذا العرض المغري ذهب هباءً، فاشتاط السوادي غضباً وأقسم بأن يكون الخيل من نصيبه، وما هي إلاَّ أياماً حتى سمعنا بموت شيخ بني عيسى، فقد تلقفته البنادق حين كان عائداً من سوق الأحد ورأينا خيله في اسطبل السوادي، ولم يستطع أحد أن يسأل كيف حدث هذا.

(*) جلبة: قطعة أرض متساوية المقاييس عادة ما تكون أصغر مساحة من الحقل.

وفي إحدى عوداته من الحقول أوكلني بتجهيز حسوك لهذا الخيل، وقد كان حسوكه مكوناً من زبيب، ولوز، ولم أكن أعرف ذلك فقربت له شعيراً خلطته بقليل من القمح الدفين، وجلست أطعمه وأن ممسك بلجامه الفضي، والمنتهي بلفائف من الحرير الناعم. وعندما اكتشف أنني أطعمه شعيراً جن، وقذفني بكوز لبن كان يحمله، ففلت لجام الخيل، لينطلق يعدو بعيداً، ولم تفلح جهود الخيالة من اللحاق به. يومها تقطع جسدي، وسال منه دم غزير، وروى لي أحد العبيد أنه كان يجلدني، وأنا في إغماءتي التي لم أفق منها إلاَّ بعد مرور ليلتين، ولا أدري كيف نجوت من موت محقق.

شيئان يمنحانك الدفء: قلب الخوف، وقلب الحق، وكلاهما مكناني من مناطحة هذه القرية الصخرية، ومنحا ذاتي الدفء.. كنت أسمع الجدة نوار تحدث جلساءها دائماً بهذه المقولة:

ـ أن توزن العدل والظلم بميزان واحد فأنت ظالم، أو أن تنتظر أن تستوي كفة الميزان بهما فأنت ظالم أيضاً.. فمناصرتك للحق توجب عليك وضع نفسك في كفة العدل مهما كلفك ذلك من عنت ومشقة.

هذه العجوز تخرجني من حيرتي دائماً، وتقتل ترددي باستنارة عقلها الفذ، وتقذف بي في قلب الخوف والحق معاً، لتشرع بوابة الجسد أطرافها استقبالاً للقص، والتشذيب دونما وجل، وأنا كشجرة عتيقة بائسة لا تستطيع دفع تلك الأيدي التي تقطف أغصانها كيفما اتفق، ووفق هواها.

ملعون من منح (أبا قضبة) القداسة، وملعون من قبّل يد السوادي، وأنا ملعون بهما، فكلما غادرتهما، استبقا خطواتي وانتظراني.

اكتسبت عداء (أبي قضبة) من وقت بعيد، فقد كنت طفلاً صغيراً لا أعرف شيئاً، وكانت إحدى جواري السوادي تذهب بي معها، للزيارة، والتبرك بالسيد الصالح. وفي إحدى المرات شعرتُ برغبة في التبول، فتبولتُ بداخل فناء القبة، يومها لم يرحموا طفولتي فقد ضربوني ضرباً عنيفاً، وقد أصرّ سادن القبة، على بتر عضوي النجس الذي تجرأ ودنس حرمة المكان، وقد هم بذلك لولا أن تدخل عابر سبيل ومنعهم من ذلك، وكان يصيح بهم:

ـ إن ما تقدمون عليه لَهُو كفر بين. . أتعبدون حجارة، وتقتلون الناس من أجلها؟؟

وكادوا يقتصوا منه، ويبدو أن له من الجاه ما عصمه منهم، فتركوني له، فخرج بي من بينهم وهم يتشوقون لتقطيعي، حتى تلك الجارية التي لا تفقه شيئاً سوى أنني أهنت أمراً عظيماً يخصها، جاءت إليَّ وأنا نائم وأنزلت غضبها عليَّ، وكادت تخنقني، لولا أني ذكرت (أبا قضبة) بخير، فتراخت يدها وهي توصيني باحترامه، فوعدتها أن أبذل كل ما أستطيع كي أكسب رضاه وفي الحقيقة كنت أبغضه أشد البغض، فكنت أذهب هناك يومياً، وأنتظر حتى تخلو ساحته من الزوار، وأتبرز، أو أتبول باطمئنان، وفي أحيان كثيرة ألعنه في سري، كنت أعلم علم اليقين أن هذا الحجر لا يقوى على شيء، فقد كان يداخلني شعور عميق بأن اللّه لم يجعل الوصول إليه عبر حجارة صماء، فكيف نصل إليه عبر جماد، ونحن الذين نحمل قلوباً طرية، تحب، وتكره.

وفي إحدى المرات وبينما كنت أتبول في السر، قدم رجل للتبرك بالقبة عندما رأيته مقبلاً عليَّ، استترت عن عينيه بالاختباء خلف القبة، فظل يبكي فترة طويلة، ثم أخذ يسرد مشكلته بتضرع وخشوع قائلاً:

ـ يا مولانا لي ابنة خال أحببتها حباً جماً، وكنا نلتقي في المراعي، نقتسم أكلنا، وشربنا، وشيئاً من وجيف القلب، وكنا ننتظر أن يمتد عمري قليلاً كي أتقدم إلى خالي خاطباً لها، وفي ذات يوم لم تحضر إلى المرعى، فكدت أجن، وتركت أغنامي تسرح وحيدة، وعدت إلى دار خالي أسأل عنها، وعلمت أنها زفت كرهاً ليلة البارحة على أبي فسقط مني كل شيء، ولم أعرف ماذا أصنع، فهمت في البراري، والخبوت، وبقيت على هذا الحل زمناً طويلاً حتى ظننت أني نسيتها، فعدت إلى أهلي، فوجدت أن أمي سقطت في إحدى الآبار، عندما خرجت تبحث عني ليلاً، وظلّت البئر قبراً لها، وأن أبي أصبح عليلاً بعد أن أصابته حمى غريبة في أحد الأودية أثناء بحثه عني، ووجدت حبيبتي لا زالت تذكر أمانينا القديمة، ولا زالت تناديني وترغب فيَّ، وخشيت أن أغرق في رغبتي الحامية، فأقضي على حرمة عظيمة. . فماذا أصنع؟؟

وأخذته نوبة بكاء حادة، ولم أشعر إلاً وأنا أقاطع نشيجه:

ـ اقتل ابنة خالك.

فانتفض فجأة، وصرخ:

ـ لا.. لا أستطيع.

فأعدت إليه صوتي، محاولاً تفخيمه:

ـ هي النار التي تجري في عروقكم، ولا بدَّ من تطهير أهلك منها.

ولا أعرف لماذا صرخت به:

ـ إليك جفل بولي مرره على أطرافك واقتلها ولن يصيبك سوء من أحد.

فمد يده ووجد آثار بولي، فـ (تمرخ) به، وشهر خنجره، وانطلق يسابق الظلمة باتجاه الشرق. وعندما غادرني شعرت بالذنب فانطلقت خلفه علني ألحق به، ولكنه قد مضى بعيداً. وفي اليوم التالي أمسكني سادن القبة، وحدثني بما سمع ليلة البارحة، وساومني بأن أقوم بهذا الدور للمرضى الذين يأتون للقبة، وأن أطالبهم بوضع نقود أسفل القبة كي أشير عليهم فيما يجدون من شكوى، فوافقت ولبدت خلف القبة وعندما توافد الزوار كنت أرد عليهم فيما يطلبون، وأطالبهم بوضع النقود أسفل القبة، وكل واحد أطلب منه البقاء في مكانه حتى آذن له بالانصراف، وعندما أحسست بأنني أجبت على الكثيرين، خرجت من خلف القبة، وفضحت أمر السادن، وأمر السيد المزعوم، ولم يزدهم ذلك إلاً غضباً عليَّ لأنني انتهكت قدسية السيد، فانطلقوا في أثري يريدون قتلي، لولا أن تدخل السادن صائحاً فيهم:

ـ لقد جن الفتى.. خلوا أيديكم عنه فالمجانين أحباب السيد!!

فتركوني، وعندما أصبحت وحيداً معه، قال لي:

ـ خير لك أن تبقى في صفي لا ضدي، من الغد عد إلى مكانك وافعل كما أخبرتك.

بصقت عليه، ولم أعد للتبول في فناء القبة.

وكانت هذه بداية جزم أهل القرية بجنوني، ثم وجدت في هذا الاسم

منجىً من السوادي، فاستحببته في بادئ الأمر ثم كرهته حينما حجب عني الناس.

ولو أنني أريد مالاً لكنت أغنى الناس، فهذه العقول الخربة يمكن أن تمنحني دم قلبها، وذلك بوقوفي داخل المكان الذي هيأه لي سادن القبة، وما عليَّ إلاّ ترديد بعض الكلمات لمن يأتي متبركاً بالسيد، أنا أريد شيئاً آخر، شيئاً يكون قادراً على جعلي أقف شامخاً حينما أذكره.. هذا الانكسار الدائم يقلقني ويدفعني نحو الجنون بحق.. هل حقاً هذه هي لعنة السيد؟ هناك من يقول إن لعنة السيد تطاردني.

فقد بدأت بحادثة غريبة، فعقب تبولي في الفناء، بدأت الكلاب تطاردني أينما رأتني، فكنت أركض وهي في أثري حتى تتقطع أنفاسي ولا أجد مهرباً منها إلاّ ارتقاء الأشجار، أو النزول إلى داخل البرك، والآبار، وعندها تظل تنبح باتجاهي بقسوة وإلحاح، ولا تغادر مكانها حتى ينهرها شخص غيري. وفي إحدى المرات كنت متجهاً إلى الحقل، فهاجمتني مجموعة كبيرة لم أجد ملاذاً منها، إلاّ بالركض، فكنت أركض صارخاً دون أن ينقذني منها أحد حتى لم يعد أمامي إلاّ خلاء فسيح، وقبة السيد تتراءى لي من بعيد، فواصلت ركضي إليها، وعندما بلغت فناءها تراجعت الكلاب، وخمد نباحها فجأة، فمكثت قليلاً وفكرت بالخروج، وما أن غادرت فناء القبة حتى عادت الكلاب في أثري بضراوة ووحشية، فعدت مرة أخرى إلى داخل الفناء، ولم أعد إلى عشة الخدم إلاّ بحماية بعض الزوار الذين رجوتهم أن يوصلوني إلى اسطبل السوادي. وفي عشة الخدم أخبرت الجارية التي كانت تذهب بي إلى قبة السيد بقصة الكلاب، فأبدت اهتماماً واضحاً، وأكدت أن السيد غاضب مني ولا بدَّ من تقديم قربان له، وأمام حصار الكلاب المرهق لم أجد بداً من التضحية بدجاجتي القوقبية، كفداء يطفئ غضب السيد. والغرابة أنني عندما فعلت ذلك كفت الكلاب عن مطاردتي، وبعدها عاهدت نفسي أن لا أتعرض لأبي قضبة بأي شيء، وكبرت وشاخت حكاية الكلاب في ذاكرتي حتى إذ بتر إبهامي الأيمن، تذكرت لعنة السيد، فلقد وقفت بفناء القبة معطلاً شعائر مزار امرأة تحمل طفلاً مجذوماً. في تلك الحادثة هددت الجميع بتحطيم

القبة، وبقذف جثة السيد المبارك للكلاب الضالة، وحين حملت معولي وتوجهت إلى القبة، تراكضوا نحوي، ومنحوني مئزراً يستر عورتي.. قبلها كنت عارياً وهم يضحكون من سوءتي، وكنت جائعاً والجزور تتخاطفها الطير فلا أقوى على أخذ قطعة لحم تقيني الهلاك، وكنت ظمآن وأنا أرد الماء وأسكبه في حياضهم للبهائم.. آه لو كنت أعلم أن تحطيم رأس (أبي قضبة) يجلب السعد لقمت بذلك من زمن بعيد.. عقب تلك الحادثة مباشرة بتر السوادي إبهامي الأيمن، واستقبلتني يد في الظلام وشجّت رأسي، فتقوّلت القرية:

ـ لقد أصابته لعنة السيد!!

هذه اللعنة التي أصبحت تتلجلج في داخلي فمرّة تصيبني برعب مفرط، وتارة أضحك منها في أعماقي، ولا تثير فيَّ أدنى شعور بالخوف، وأظل أهزأ في داخلي من تلك اللعنة:

ـ ماذا يعني أن يغضب حجر؟!..

هكذا وجدت نفسي مرة أخرى في مواجهة السيد، وكلما نهرت أهل القرية عن غيهم زادوا غياً وتبجحاً، وازدراء لما أدعوهم إليه، في البدء نبذوني من حياتهم حتى من دخول المسجد حينما ساقوني إلى خارجه وهم يتصايحون:

ـ أنت مجنون، ما الذي جاء بك إلى هنا؟!

ولم أفلح في إقناعهم بأني تعبت من كل شيء، وأريد أن أغسل قلبي بالصلاة، أو أن أموت، وقد استحلفتهم أن يرحموني، وأن يقوم بهذا الدور أي واحد منهم، ساعتها تضاحكوا، وهشوني بأطراف أصابعهم:

ـ جن درويش عبد السوادي.

كم كنت أحمق حينما حاولت أن أخرج من بطش السوادي بحجة الجنون، هذا اللقب أصبح حجاباً يحول بيني وبينهم، ولم أعد قادراً على حثهم أن يحلموا بما أحلم.. أصبحت كل كلمة تخرج من فمي هي كلمة للمجنون لا يعول عليها.. كم أكره نفسي الآن.. فقد خلقت منها نفساً قبيحة، وألصقت بها اسماً متهالكاً يدعو إلى الرثاء، ولم تعد كلماتي إلاَّ حجارة لمجنون يدعى درويش.

درويش المجنون هذا هو اسمي حاولت أن أنتسب إلى أسفل جذر في قامتي، فأقف عند الاسم الأول، والآخرون يكملونه.. عبد السوادي، أو المجنون.

كنت أدخل عليه في متكئه، وأقبِّل يده:

ـ ابن من ـ أنا ـ يا سيدي؟

فيزجرني ـ ككلب ضال ـ، فأخرج أجمع ذاكرتي من أرض طفولة سبخة، إن أبعد مدى تصل إليه ذاكرتي عبارة عن حادثة بعيدة، ومشوشة.. كنت في حضن امرأة، وكانت يدها تخترق رأسي، وتداعب خصلات من شعري المنسكب على جبيني، وتغني أغنية حزينة تفوح بالشجن والرقة، تلك الأغنية التي ما إن أسمع صوتاً يدانيها حتى أنخرط في بكاء غامض ومرّ، وبينما كانت تلك المرأة تمد صوتها بأغنيتها تلك، ارتج باب قديم ـ في ليل موحش ـ وأخذ يصر بصوت مزعج، لتحضنني، وتخبئني في صدرها، وتغطي بيدها هامتي، ونصفي الأعلى، فلمحت ـ من بين يديها ـ رجلاً غائماً يطل علينا، وعلى وجهه شال مرقط يخطفني من بين يديها، ويكتم بإحدى يديه صرخة بكاء حادة نفرت من فمي، ويدفع بيده الأخرى تلك السيدة التي تعلقت به، محاولة منعه من المضي بي بعيداً عن حضنها، فتلقت دفعة قوية أسكنتها كومة من ألم تنضح بالبكاء، والعويل، صراخها خلق في داخلي رعباً لم يستطع بكائي تبديده، كانت المرأة تحرن بانكسار، وتعلق أهدابها بعيني، ثمة كلمات تفوهت بها ـ لا أذكرها الآن ـ تبعتها بصقة كبيرة أوحلت بجوارها ولم تستطع ارتقاء وجه ذلك الرجل ذي العينين الناريتين، والذي سرعان ما أغلق في وجهها بوابة لها صرير الأبواب الصدئة، ومضى يخب بي في ذاك الليل العسير.. كانت ليلة مظلمة، وكنت أسمع عواء كلاب، يتثنى من بعد، وثمة دمدمة بائسة تشخر ببطء ورتابة، فأغمضت عيني على دمع غزير، بينما كانت غصة مرة تعبر حنجرتي بتردد.. وعندما وعيت وجدت وجه السوادي في كل مكان أطأه، ونسيت وجه تلك المرأة التي أظن أنها أمي.

الجدة نوار كلما رأتني تبش في وجهي، وتخاطبني:

ـ لكل ليل نهار، ونهار هذه العتمة ديك القلعة. . أتعرف ديك القلعة يا درويش؟

في أحد أيام الحر المشتعلة، دخلت عليها في عشتها وهي تندف قطناً لفراشها المبثوث، وعندما أحست بي أزاحت عن وجهها ندف القطن العالق به، وابتسمت كما لم تبتسم من قبل، وبصوت فرح هللت:

ـ هلا بديكنا.

وكمن شعر بلذعة مباغتة، قضمت على شفتيها، وأرخت رأسها تجمع ندف القطن المتطاير على عرصة العشة، فانحنيت لها، مقبلاً رأسها في مفرق الشعر، والذي غدا نبتاً قديماً متهالكاً:

ـ أنا درويش يا جدة. . المجنون. . أظن أن ذاكرتك هرمت أيضاً.

فضحكت حتى كاد آخر سن لها يسقط:

ـ لا عليك فالسوادي يشكل الأسماء.

وغدوت أردد اسم الديك كثيراً وعنّ لي أن أردده على مسمعه كلما حانت فرصة، في أثناء تواجدي تحت قدمه ماداً له الطعام، أو الشراب، أو عندما أناوله بندقيته بعد أن يستوي على ظهر دابته. في إحدى المرات فز من متكئه:

ـ ألم تفتأ تردد هذا الاسم.

ـ وهل منعتني من ترديده.

ـ أمنعك من الآن.

ـ هل يضايقك أن أسمّي نفسي ديكاً.

صرخ غاضباً:

ـ ومن أين جئت بهذا الاسم؟

ـ سمعت الجدة نوار تردده.

ازدحم وجهه بخليط من الغضب، والهدوء الصاخب، ولكزني بعصاه:

ـ ألا زلت تجالس المخرفات، والبقر لا يجد قصباً يمضغه.

ونهض فارداً قامته، وماداً يده بصفعة قاسية على صدغي، وزاجراً إياي

كي أغادر بوجهي العكر بعيداً عن ناظريه، فغادرته باحثاً عن إبرة أرتق بها مدرعتي الممزقة، ووجهي المنتهك.

في الليل كنت عازماً على معرفة هذا الاسم، فبعد أن عدت من الحقل، كانت كلمات الجدة نوار تضيئ وتظلم في مخيلتي وكنت عازماً على فتح أبواب كلماتها المواربة ولم أشأ أن آتيها في مجسها السامر، والمكتظ بالآذان المتربصة بأدنى همسة، وارتأيت زيارتها عندما ينفض السمار، حيث تكون وحيدة في عشتها القابعة في أقصى الدار وهناك سأجاهد كي أفتح كلماتها المواربة، وسأجد وقتاً كي تحدثني عما لا أعلم..

ظللت قابعاً بعشة الخدم، ألوك أغصان قات يابسة وجدتها بمتكأ سيدي عندما قمت بتكنيسه، وقبيل انتصاف الليل بقليل حملت عصاي، وأنرت ظلمة الأزقة بكشاف صغير، وسلكت أقرب الطرق المؤدية إلى عشتها.. هناك لمحته يخرج من عشتها حاملاً شيئاً ما لم أتبينه بأشعة كشافي الضئيلة، ويقف غير بعيد، وعندما رآني ارتبك قليلاً، وأطلق ضحكته القبيحة باسترخاء، أظنه عاد ليتربص بي، فتركت له المكان، وعدت أدراجي لاعناً هذه العيون التي لا تنام، وأنا أصرخ بضراوة:

ـ سأعرف يوماً ما.. سأعرف ما تخبئونه عني أيها الكلاب.

فيما كانت ضحكته تزداد اتساعاً وقبحاً.

قذفت بجسدي المهدود على شبريتي، وأنا أتميّز من الغيظ، حتى إن غمغمتي أيقظت بعض العبيد الذين رجوني أن أخمد وساوسي في داخلي بصمت كي يستعدوا لغد متعب، فلم أرغب في مجادلتهم، فتركت شبريتي، ونمت بجوار مربط الحمير، وأنا ألوك غضباً جافاً في ذاكرتي، وأعنف نفسي تارة وألومها لنتانتها التي ما برحت تفوح كلما أعياني الصبر، وتارة أهف على جمرة حلم خابية بالفؤاد، وأعلل النفس:

ـ أيها الحلم آن لك أن تكون!!

وقبل أن أغمض عينيَّ كانت دموع غزيرة قد سكبتاها.. في الصباح تهيأت للذهاب إلى الحقول، فتزودت بزوادة جمعتها من الزنبيل المعلق بعشة

الخدم، وحملت معولي وخرجت أكثر انشراحاً من ليلة البارحة. في الطريق المؤدي إلى الحقول قاطعتني جنازة، فكدت أعبرها لولا أنني لمحت عبد اللّه بين المشيعين، يسير دامعاً، قلت:

ـ لمن هي؟

فجاءتني الإجابة فاجعة:

ـ إنها العجوز نوار.

سارت الجنازة من أمامي، فصرخت بالمشيعين:

ـ كانت البارحة تحدثكم عن هذه القرية الخبيثة.

فلم يكترث بصراخي أحد، فقفزت، واعترضت طريق الجنازة.. وأمسكت بالنعش فنهروني بغلظة، فصحت بهم:

ـ أرغب في أن أسألها كيف ماتت؟!

صرخوا في وجهي بحدة:

ـ الأموات لا يُسألون أيها المجنون!!

انكسرت، ولم يتبق إلاّ صوتي المرتفع:

ـ ومن يسأل الأحياء؟!

ساروا من أمامي، وهم ينهرونني:

ـ ابتعد أيها المجنون.

تبعتهم، وعندما أدخلوها للحدها، ارتميت بين شقي القبر صارخاً:

ـ سامحيني يا جدة نوار!

فسرت بين الحاضرين موجة عاتية من الهمس، ونسوا أن يردموا القبر، فتحركت يدي باتجاه التراب المتراكم على جنبات القبر، وحثوت، وحثوا.

قال لي عبد اللّه:

ـ بعد أن أنهت مجلسها، تحركت لعشتها، وهي بكامل عافيتها، وكانت تنوي في الصباح الباكر أن تذهب للتعليف، وقبل صياح الديكة سمعتها أمي تئن كناقة تلد، مرسلة أنفاساً ضيقة حارقة، وعندما اقتربت منها أمي،

سمعتها تسألها، وهي تتلوى بألم، وتعصر بطنها عصراً:

ـ من جلب لي هذا اللبن؟!

ولم تزد على ذلك، فقد لفظت آخر أنفاسها بتلك الجملة.

وتقول أمي إن ثمة شخصاً ما استبدل كوز لبنها بكوز آخر وقد وضع به سماً.

(هل أنبئ عبد اللّه، أن السوادي لطمني على صدغي حينما علم أنني أجالسها.. أم أخبره بذلك المتربص الذي كان يقف على باب عشتها ليلة البارحة وكان بيده شيء ما.. هل أخبره بذلك).

تحرك المشيعون باتجاه القرية، وكان بعضهم يحمل النعش فارغاً من تلك الشجرة التي أحببتها، وكنت أسير بينهم صامتاً، وهمهمات خفيضة تصل إلى مسامعي فلا أكترث بها. عندما بلغنا مشارف القرية تفرق بعض المشيعين، وتبقى بعضهم حافاً بعبد اللّه متوجهين به إلى منزله لكنه فضّل الذهاب إلى دكانه فساروا معه إلى هناك، كنت أرغب في أن أصطحبه معهم بيد أن رغبة حادة داهمتني، فتركته مع صحبه، وعدت أدراجي صوب المقبرة.

في الخلاء، وفي المقابر تدرك سر عظمتك.. كانت العظام البالية ترحب بي، وقد برزت من فجوات القبول المفجورة بفعل السيل، أو مخالب الكلاب التي لا تمل من نبش هذه القبور الرثة.. حتى الكلاب تجرؤ على مضغك، وأنت ممدد هكذا!! كانت بقايا سيقان، وأذرع وجماجم متناثرة بفناء المقبرة.. آه تلك القامات التي كانت في يوم ما شامخة ها هي اليوم نهب للأقدام، وحوافر البغال!!.. هنا تأمر فلا يطيعونك، ويأمرونك فلا تجيب.. هم يبكون من التراب الذي ران عليهم، وأنت تبكي من أسواط السادة التي تسكن جلدك في كل لحظة.

حاولت بقدر الإمكان تجنب دعس تلك العظام المبعثرة في كل مكان، وكانت محاولتي تحتاج إلى الكثير من الحرص والانتباه.. توجهت مباشرة نحو قبرها الذي لا زال طرياً، وسلمت عليها:

ـ أنا درويش يا جدة.

انفرج القبر، ورأيتها تضحك حتى كاد آخر سن يسقط، فوضعت يدي على لجج الرمل المنبعث من القبر:

ـ لا تفزعي يا جدة.. أنا درويش.

اتسعت ضحكتها، واتسع حنقي، فانكفأت ـ بهمة ـ أوسع فجوة القبر.. ثمة يد تقبضني من الخلف، فأدرت لها وجهي، ليشتعل الخوف في أوصالي.. عيناه المنطفئتان توسوسان بإخمادي، صرخت به:

ـ حتى هنا تتربص بي.. هيا تستطيع أن تردمني معها.

فضحكت عليَّ حتى كاد آخر سن يسقط، وشاركها الضحك، فاتسعت دوائر الخوف في فؤادي، ونهضت أعدو عابراً بوابة الموت لاعناً، كنت أركض بلا هدى حتى إذا وجدت نفسي بداخل السوق، هدأت من روعي وأخذت أمتص أنفاسي المترددة بعنف، ووقفت على رأس عبد اللّه الذي كان بداخل دكانه يزن رطلاً من الدقيق ويتأمل الميزان كي يستقر، قذفت بكفة الميزان من يده، وصحت فيه:

ـ جدتك يقتسمونها في القبر، وأنت تزن رطلاً من الدقيق!!

ـ هل عدت للهذيان يا درويش؟

لم أستطع أن أرد عليه إلاَّ بقذف حذائي المتآكل في وجهه:

ـ كلكم ستصبحون كلاباً مدربة.

كم يخيفني عندما يشتعل وجهه بمثل هذا الغضب، حمل حذائي الساقط بداخل دكانه، وخرج صوبي، فأخذت أعدو وهو من خلفي رافعاً حذائي، ومصمماً على اللحاق بي.

ـ (سوف يقتلني هذا الكلب السمين إن لحق بي).

كنت متعباً من ركض المقبرة إلى هنا، فبدأت أشعر بساقَيَّ تخوران، ولا سبيل إلى الفكاك من هذا الغاضب إلاَّ الركض.. أأتوجه إلى دار سيدي.. لا.. لا، فالذي كان يتربص بي لا بدَّ وأنه قد أوصل خبري إليه.. لأتوجه إلى بيت رعنا.. آه إنه يقترب.. أسمع خواره كثور يجر سمنته المثقلة.. أظنه يصرخ.. فماذا يقول هذا الثور.. لعله يلعنني.. أشعر بالمسافة تضيق بيننا،

وأنا على وشك أن أقع تحت قبضته.. أحسست بيده تلامس ظهري.. أمسكني، وانتظرت أن يمزق ما تبقى من حذائي على هامتي.. كان منظري يدعو إلى الشفقة والانكسار، كانت يدي تغطي هامتي حاضناً جسدي بين ركبتيّ.. مكثت على هذا الوضع طويلاً وأحس به واقفاً فوق رأسي.. آه ليته ينزل قبضته أو حذاءه على رأسي ويريحني.. لو علم أن الضرب أصبح عادة لا تثيرني لأمسك يده.. ماذا ينتظر.. أظنه رأى رعنا، أو موتان، فخجل وتوقف.. انتظرت.. فلم يصلني إلاّ صوت نشيج متقطع.. أين نحن؟ وما الذي يبكي هذا العجل؟!.. رفعت يدي من على رأسي وتطلعت نحوه..

فخاطبني بتودد:

ـ أأنت غاضب يا درويش؟!

انفرطت ضاحكاً.. فانكفأ يقبلني، وتحشرجت الكلمات بين شدقَيّ:

ـ من يحب درويش؟

جاء صوته محملاً بنشيج متقطع:

ـ نحن نحبك.. أنا، وموتان، والخالة رعنا، وصالحة، وأمي، و... ألا يكفيك هذا الحب؟

فرددت عليه بانكسار:

ـ أنتم رياحين هذه القرية.

ـ ما الذي رأيته في المقبرة وأغضبك؟

فأخذت أروي له ما حدث وأنا أمسح دمعي:

ـ عندما سرت في جنازة العجوز نوار، فكرت بإحراق بيت السوادي، فتركتكم وكلي تصميم على ذلك، وفي الطريق خشيت أن تقع عينه عليك من دون العالمين، فأمسكت عما نويت، وعدت إلى المقبرة علني..

كنت أستجمع شجاعتي لأبوح له بما يختمر في رأسي، وبما أضمرت عليه. كم حمدت الله لأنه لم يمكنّي من ذلك، حينما خبط على كتفي مهوناً:

ـ لا عليك.. تناسَ هذا الأمر.

فصحت به بانفعال:

ـ أأنت تقول هذا؟.. ألا يوجد من يثأر لمن يحب؟

أغلق حديثنا بأن ضمني نحو صدره، ومضينا نحو الحقول، كان من يتربص بي يتبعنا من خلف السنابل، ويشير بعصاه الموشاة بالفضة نحوي وبجواره امرأة شمطاء، لها لسان يشعل الوادي بالأقاويل، كانت تهز رأسها بين الحين والآخر.. هي نفسها التي كاد لسانها ينزلق بسيرة أبي، أو أمي لا أعرف بالتحديد أيهما، ولكن أيقنت أنها تعرف شيئاً ما، فقبل أيام مضت كنا نرد الماء، وكانت تتقدمني في الدور، تمسك بحمارها المحمل بأربع جرار، وتضع (ضلة) جديدة على رأسها، وبيدها عذقة لدخن لم يأن أوانه، وكان لسانها لا يهدأ، تتحدث في كل شيء، وفي وقت واحد، ولا تمل من القسم على أي كلمة تتفوه بها، وكنت في عجلة من أمري، حيث خرجت من دار سيدي على أن أعود بالماء في وقت وجيز، فقد تركت إحدى الأبقار تعاني من آلام «النتج»، وقد نسيت الورادة بسببها حيث كنت جالساً ومحاولاً تيسير ولادتها المتعسرة لكني عجزت فجلست أستمع لأنينها المتقطع حائراً، إلاّ أن صراخ سيدي ذكرني أنني لم أرد قطرة ماء واحدة طوال اليوم، فخرجت مسرعاً، قبل أن يحلّ عليَّ عقابه، لذلك كان لزاماً عليَّ أن أتقدم هذه العجوز الشمطاء التي لا توقف لسانها عن الكلام إلاّ عندما تنام وإذا لم أتقدمها، فإن العقاب واقع بلا شك، فهي سوف تظل ترغي مع الحاسي وتؤخرني، فتقدمتها وجذبت حماري باتجاه الحاسي حاثاً إياه على ملء جراري أولاً، فصرخت في وجهي:

ـ هل أخذت «جر»(*) أبيك؟

دأبت كل القرية على أن تنسبني عبداً للسوادي، وهي أول من يقوم بذلك، فما بالها اليوم، تنسبني لشخص آخر، بل تعرف مزاياه أيضاً.. هل تعرف أبي حقاً؟.. لو استوضحتها لصمتت مدى الدهر، فكيف أسوس هذه الرقطاء.. كيف.. أوه سأعرف كيف أستثيرها:

(*) جر: صفات أو آثار.

ـ إننا نعيش زمناً غريباً. . ماذا به أبي حتى لم يعد ينتقصه إلاّ العاهرات، والفاجرات من أمثالك.

جن لسانها:

ـ أنا عاهرة، يا ابن العاهرة، الذي لا تعلمه أن. . .

فجأة تغيّر مسار لسانها، واكتسى وجهها وداً زائفاً:

ـ. . والذي لا تعلمه أن العجائز من أمثال واجب احترامهن، وأنت تهينني في كل لحظة بدون أي سبب، مع أنني أحبك، فمحبة ابن السبيل واجبة!

أحسست بأني فشلت في استدراجها، فلم أتمالك ثورة غضب اجتاحتني فصحت بها لاعناً:

ـ يا قوادة. . . أعلم تماماً أنكِ الحية التي تنفث السم في أوصالنا، وأنكِ فاجرة. .

فاستبكت، وأشهدت عليَّ الحاضرين:

ـ يا جماعة. . يا أهل الخير اشهدوا على عبد السوادي، وعلى لسانه الزفر.

ارتبك دور الورادين، ونفرت بعض الحمير من أماكنها، وقد تسبب هذا الإرباك في تكسير بعض الجرار، مما أغضب أصحابها مني، وتأففوا مني بضيق وصاح أحدهم:

ـ متى نرتاح منك يا درويش؟!

كدت أشتبك معهم جميعاً في تبادل الشتائم، لولا أن رأيت من يظللني بعينه قادماً، كانت قدماه تتدليان من على حمار مصري، وعصاه مقرونة بإبطه، ويتطلع فيَّ بخبث، ويضحك، فعلمت ما الذي غيّر مجرى لسان تلك العاهرة عن طريقها، فاكتفيت بجذب حماري وتقديمه، وقد أبدت تلك الشمطاء تسامحاً عجيباً، وقد أعلنت عنه للملأ:

ـ وإذا كان يرضيك أن تتقدم على عجوز فافعل ولكن لا تسبني. . ارحم عجزي وضعفي.

وبهذا استمالت الحاضرين إليها حتى أن الحاسي رفض أن يملأ جراري قبلها، فأخذت تستلطفه، وترجوه أن يقدمني عليها، وبعد أن ملأت جراري، امتطيت حماري وقفلت عائداً فيما كان وجه من يراقبني يسرب ضحكة كريهة.. بعدها لم أستطع أن أجذب لسان تلك العاهرة للحديث عما تعرفه عني.

وها هما اليوم يقفان سوياً وهو لا زال يشير بعصاه نحوي، وهي تهز رأسها بعمق.. كان يقودني عبد اللّه، وهي تمط شفتيها بدهاء، كنت حزيناً ساعتها أكثر مما مضى وأوشكت على البكاء، لكنني تماسكت، وهمست لعبد اللّه:

ـ إنهما يقتسمانني.. كل القرية تتقاسم درويش!!

ضمني عبد اللّه بود:

ـ لا بدَّ من اقتسامك، فأنت ملح الأرض.

كانت إجابتي على مجاملته لي حزينة:

الملح في كل دار، وأنا لا دار لي.. لا قلب يطبق عليَّ، أو يخاف عليَّ، أو ينتظرني، أو يسألني عن أحوالي.. أنا نبتة جرفها السيل، وألقى بها في هذه القرية.. نبتة لا شكل لها، ولا لون، ويجزم الكثيرون أنها نبتة سامة لا بدَّ من اجتثاثها، أو هجرانها.. وماذا تقتسمون؟!... هل الذين تحبونهم أم أولئك الذين تسخرون منهم ـ من أمثالي ـ؟!... وماذا يعني الحب في الأساس؟.. إن هذه الكلمات التي نطلقها لم تستطع أن تتعرف على هذا المارد الذي يعيش في دمنا، إن كلماتنا أحجية أخرى نسدل بها على خبثنا وتخاذلنا وعجزنا أو حقدنا الدفين.. نعم إننا مردة على هيئة بشر نخاف من المردة الأقوى منا، فنستعيض عن ضعفنا بهذه الكلمات.. فلا تقل نقتسمك لأنك ملح الأرض، فكيف لو سلبتم هذا الملح.. أنتم يا أهل القرية ماذا صنعتم من أجل من تحبونهم، تلك الرياحين التي قطفت أمامكم وأنتم تنظرون.. أنت مثلاً.. مات أبوك.. وماتت جدتك وأنت تعرف القاتل، ومع ذلك لم تقدم شيئاً، أقَتْل الأحبة لا يثير فينا شيئاً، ألا يثير شيئاً من الغضب؟

وضع يده على كتفي مهوناً:

ـ تأكد أن الناس لا ينسون من أذى أحبتهم، فقط يحتاجون إلى بعض الوقت.

عند هذا أحسست أن حلمي لم يمت بعد، فحضنت هذا السمين، وانطلقنا بين الحقول ونحن نسير فوق «زبر»(*) يبست بفعل الطرق اليومي، ومن الجانب الآخر كان غريمي وخميسية لا يزالان يتبعهانا بالنظر وإن أبديا اهتماماً بمراقبة الأنفار المسخرين لحفر قنوات الماء التي توصل ما بين الفنية والحقول البعيدة عن الري.. كنت أحس بعينيه تخترقان رأسي، وتحيلاني إلى فلاة يتلهى في أرجائها الكلاب، سحبت عبد اللّه من فوق الزبير، وهبطنا لداخل الحقول متخطين قوائم بعض السنابل بحذر، كانت بعض الحقول قد حصدت للتو، فكنا نتنقل، وعيوننا مغروسة بتلك القوائم المجزوزة ذات الأنصال المدببة. والقاطعة، وخوفاً من أن يتسلل إلى أقدامنا (جنزي)(**) نافر في هذه الأرض المحصودة، فقد حرصنا على السير متلازمين ومنبهين بعضنا، كانت تسترنا عنهما سنابل القمح ومن فرجات تمايلها، ألمحه يدقق النظر، وعندما لم يرني ترك خميسية وانطلق في أثرنا، بعد أن دس شيئاً ما في يدها، فحثثت عبد اللّه على الركض، فكنا نسمع تقصف السنابل وحشرجتها من وقع عصاه في محاولة لإزالتها عن طريقه، وفي ركضنا تفلتت أيدينا المتماسكة، غافلين عن تلك الأعجاز المنتصبة كشرك معد من صياد عتيق، وركضنا متلمسين السنابل الوافرة كي تحجبنا عن عينه الباحثة عنا بقلق، لا أدري لماذا أمعنت في الركض، وأنا أحرض عبد اللّه عليه بطريقة جنونية، ولا أدري لماذا وافقني عبد اللّه على هذا التصرف الأحمق، كنت أركض كمن يطارده وحش كاسر، فقد سرت رعدة غريبة في أوصالي، وضاق حلقي بأنفاسي المترددة الخائرة، وبقيت قدماي مستيقظتين بتحفز عجيب، فكنت أقفز الزبر، وأغوص بين السنابل كفأر يبحث عن شقوق الأرض لتقيه دهس

(*) زبر: جمع زبير والزبير عبارة عن كومة من الرمل متماسكة تفصل فيما بين الحقول.
(**) جنزي: معها جنازى وهي بقايا قوائم سنابل القمح بعد أن تحصد.

الأقدام المجتمعة. في إحدى قفزاتي وطأت على (جنزي) فأطلقت صرخة مدوية من فمي، أظن أن مخلوقات الوادي فزعت منها، وتسمرت في مكاني أذرف تأوهات حادة، فقد اخترق (الجنزي) باطن قدمي، وتوقف بين العصب والعظم، تاركاً دماً أسود حاراً يتدفق من باطن قدمي. كان صوتي يتعالى بألم عصيب محروق جذب عبد اللّه صوبي، وعندما رأى قدمي مغروسة بذلك (الجنزي) تناول مديته وجزه من أسفل، وجلس يحاول إخراجه، وكلما ناشه تساقطت عويلاً ورجوته أن يكف عن محاولاته تلك. وبعد محاولات عصيبة انسل (الجنزي) مخضباً بدمي الأسود، تاركاً خلفه فجوة عميقة، ليحملني عبد اللّه على عاتقه، ويعود بي.

ـ ألم أقل لك. . كل شيء هنا يتقاسم درويش.

ودعته بهذه الجملة، التي لم يرد عليها إلاّ بابتسامة خاطفة كسيرة، ومضى صوب دكانه، فيما أخذت أحجل لعشة الخدمة، وقد حمدت اللّه على انشغال سيدي، فقد دأب على مطاردة النساء كلما كان الجو قارساً، ليستدفئ بهن، ويتركهن خرقاً بالية على مضجعه، ولم تكن هناك من تجرؤ على دفع رغبته متى ما عنَّ له ذلك، وهذه المرأة هي الوحيدة التي يشتاق إليها في مثل هذا الموسم من كل سنة، لا شك أنه الآن بين أحضانها يخور كثور مذبوح. على أية حال كان هذا في صالحي فعلى أقل تقدير لن ينصت في مثل هذا الوقت لتلك العين التي كانت تتربص بي منذ لحظات، . . جبت عشة الخدم بحثاً عن (التنتريوم) الذي سرقته في إحدى زيارات الحكيم للسوادي، تلك الحادثة التي جعلت السوادي يقوم بتفتيش الخدم والعبيد بنفسه، وقد أقسم أن يميت من يجد عنده قارورة (التنتريوم)، وقد دفعني لسرقة هذه القارورة رؤية دم خضرا، لقد كانت تتعرش بإحدى «العروج»، بعد أن ذهبت حجارتها دون أن تحصل على (كين) ناضج فكلما قذفت بحجر هلت عليها حبيبات كين بسرة، فصعدت (العرج)(*) دون أن ترد على تحذيراتي، وأمسكت بغصن لتنوشه، فانفلتت قدمها، وأثناء سقطها ارتطمت ساقها بغصن يابس ناتئ،

(*) العروج: جمع عرج والعرج هو شجرة النبق والكين هو حبات النبق.

فسال دمها الحلو مدراراً، فكنت ألحسه وهي تتألم وتضحك في الوقت نفسه، ووعدتها أن أعود إليها بدواء يخفف من آلامها، وكان الحكيم قد قدم إلينا منذ أيام قلائل، فتسللت إلى مخدعه، وقمت بتقليب حاجياته، وعندما عثرت على قارورة (التنتريوم) خبأتها بمدرعتي، وعندما سمعت بتهديد سيدي، ذاك التهديد الذي أقسم فيه على قتل من يجد عنده قارورة (التنتريوم) وأمام هذا التهديد الصارم قمت من حيني، وشددت القارورة برباط محكم تحت (وقالي)(*) وعندما فتشني ذهب بحثه عبثاً، وقد تبدد تهديده مع مغادرة الحكيم لقريتنا، وخوفاً من افتضاح أمري إن أنا سربت هذه القارورة لخضرا فقد ارتأيت تخبئتها بين «صرب» العشة. . ها أنا أبحث عن هذه القارورة فلا أجدها ولعل أحد الخدم وجدها فخشي أن يعم العذاب كل المستخدمين، فقام بقذفها بعيداً، ليس هناك من تفسير لاختفائها إلاً هذا. كان البحث عن هذه القارورة في مثل وضعي يعد جنوناً، فكلما وطأت بقدمي أو ضغطت عليها في سيري انبثقت أمشاج الدم الأسود بغزارة، فقررت أن أردم هذه الفجوة بأي شيء، اقتربت من الموقد وردمت تلك الفجوة برماد بارد.

ـ اللعنة حتى الرماد يتحول في جسدي ناراً متأججة.

كدت أصرخ إلاً أني سارعت بقضم لساني، وأطفأت الفانوس، وأسلمت جسدي لإحدى (الشبريات) الفارغة، والتي كان من الصعب العثور عليها بهذه الحالة لو لم تكن هذه الأيام أيام حصار حيث يذهب فيها معظم الخدم لحصد الحقول، فردت قامتي، والألم يجري في بدني كنار ضارية، وكلما أغمضت عيني فار توجعي فأنهض قافزاً، أتلوى في تلك العتمة كذبابة أصابتها يد طائشة.

ـ عبث أن تنام في الجحيم.

أوه. . ليتي أستطيع أن أتوه بعمق. . ليتني أستطيع أن أستنجد، آه. . من الجنون أن تستنجد بأحد في هذه القرية، ففي هذا الخلاء سوف يظل صوتي يتردد حتى يصل إليه، إن هؤلاء القوم خلقوا للأقاويل، فحناجرهم

(*) وقالي: الخصية.

بوق لا تكف عن الترديد، وتتبلل الحكاية في ألسنتهم سنين طوال دون أن تصدأ. ففي أحلك الأوقات تجدهم يرددون حكايات سمجة لا تنتمي إلى تعبهم أو أحلامهم، حكايات خارجة من زمن آخر، زمن أموات يتلهون بسرد تفاصيل حياة قديمة بالية، وإن علقوا على حالة فإن كلماتهم تأتي واهنة مفككة ليس لها من علاقة بما حدث، أو يحدث. . إنهم أغنام خرجوا لفلاة فوجدوا المدى يتسع لرغائهم الممجوج الممتد، فنكسوا رؤوسهم وواصلوا رغاءهم أمام هش عصا الراعي لهم. . لعنة اللّه على قرية تنام وهي تثرثر، وتستيقظ لتتابع ما قطعه النوم دون أن تقدر على هش ذبابة تمتص رحيق أعينهم. . إنها قرية بليدة كبلادة محمد عبد اللّه الذي يصرّ ـ عندما تذكر الأعمار ـ على عدم بلوغه الحلم بالرغم من أن جسده قد قطع خمس وخمسين عاماً، وكان منظره أكثر تندراً وإيلاماً حينما مات أبوه قبل أشهر قلائل، فخرج في جنازته نادباً، وارتمى على قبره صارخاً:

ـ ووه يا أبي لقد يتّمتني مبكراً فمن لي في هذه الدنيا من بعدك.

وهذه القرية تصرّ على أنها لم تبلغ الحلم بعد، وأن يتمها يحيلها إلى قرية قاصر، ولذلك تركت مهمة تسييرها للبالغين من أمثال السوادي، والشريف حسين، والشيخ موسى، وولي. . أي كارثة تقودنا إليها هذه القرية؟!

كنت أتلوى من الألم، وأكتم أنيني خوفاً من أن يطل سيدي مطالباً بسقاية البقر، أو التغريس للجمال فيلمحني في هذا الوضع، فيزيد من آلامي. . أه لم تسعدني زيارة هذه المرأة قط إلاّ الليلة، ولتكفي إغاثتها هذه لأغفر لها آثامها جميعاً. .

أعلم أن هذه المرأة فريسة مستساغة لدى السوادي كبقية هذا الوادي، فبعد رحيل زوجها لم تجد من يمد لها بكسرة خبز لأبنائها الخمسة، وحينما ضربت الأرض خرج إليها هذا المارد، وظل يفزعها حتى داخلها، وأصبحت مصابة به، لا تستطيع مقاومته ولا تستطيع ترك أبنائها للجوع:

ـ أوه. . متى أنام؟!

فلو بقيت ليلتي أتأوه ـ هكذا ـ لجعلني السوادي أتأوه ما تبقى من

الشهر، ولما تمكّنت من إنجاز الأعمال المناطة بي، تلك الأعمال التي لم تتغير منذ أن كنت طفلاً، فالغد مثل الأمس ينتظرني من أجل حلب الأبقار، ورعاية الماشية، والتعليف، والورادة، وشدّ بغلة البغل، وتكنيس الحظيرة، وحماية (الزاهيب)، و... و...، و... و.....، فهل أستطيع إنجاز كل هذا العناء، وأنا مفجور القدم؟!...... لأدفن نفسي في الظلام علّه يسرق هواجسي، ويخمد هذا الألم المبرح فأنام، لأبدأ في عد التأوهات من الآن،... حتماً سيمضي الليل أبداً، وأنا أعدها، ففي مثل هذا الليل الماطر بالوحشة والعذاب يغدو النوم نائياً، ولا يبقى بجوارك سوى جرحك الذي يشع فيك حنين الموت.. فكم جريح في هذه القرية ينتظر الموت بنفاد صبر؟!!!.. حتى الموتى لا يغادرهم وجه السوادي، حيث يبقى يظلل عظامهم إلى أن يستوثق من أن الدود بدأ «ينغش» أجساد أبنائهم!

انقشع الليل عن صباح متلعثم، فغادرت عشة الخدم بعد أن استللت من (سجف)(*) الدارة عصا غليظة لأتوكأ عليها.. بماذا أبدأ مع هذا الصباح؟.. هل أتجه مباشرة للمرعى، أم أشد الحمار وأذهب للورادة؟

ـ إلى متى ستظل فارداً ظهرك كحمار غبي؟

هتفت لنفسي بهذه الجملة، فتفاقم كربي، وقبل أن أوسوس لنفسي بأي شيء آخر، توجهت إلى حظيرة البقر، وسقت عجلاً ـ تتبعه كل الأبقار ـ وخرت قاصداً المرعى، فهناك أستطيع أن أرتاح قليلاً، بينما تنشغل الدواب بمضغ ما تصادفه من عشب وسوف أحرص على أن أبعدها عن التعمق باتجاه الحقول، وقبل أن أقطع فناء الحصن، ظهر أمامي السوادي فجأة ناشراً ابتسامة مريبة في فضاء وجهي النحيل.. ليسقط فؤادي (هل حقاً هذا هو.. أم أنني أصبحت ألمحه في كل مكان أتحرك إليه).. خطا نحوي، فتراجعت، وأسندت جسدي على عصاي المعوجة.. قالت لي العجوز نوار:

ـ عندما ترى الحنش رافعاً رأسه احترس.

(*) سجف: السجف هو عبارة عن سور لفناء الدار يسور من أشجار الأثل أو المرخ أو أي جذع للأشجار.

(وكيف لي أن أحترس من هذا الخبيث يا جدة).

تقاربت خطواته.. خطوة.. خطوتين.. لامس كتفي، وهو ما يزال مبتسماً:

ـ عقلك الآن يزن هذه القرية بما حملت!

.....!!

ـ كان لا بدَّ لك أن تقتص منها لأنها سخرت منك.

ـ...! (عجباً إنه يناصرني ضد تلك الشمطاء).

ـ إذا سألوك قل نعم.

ـ!!! (هل جن هذا الثور).

ـ لن يصيبك أي شيء فأنت قد رفع عنك القلم شرعاً.

ـ!!! (لعنة الله على أبيك.. عن ماذا تتحدث... يا الله هل أصيب الرجل بلوثة.. قسماً لو حدث هذا، لأنحرن هذا العجل الذي يتقدم البقر، وأنا أرقص، فساعتها لن أجد من يلومني، أو يحاسبني على دلق دمه).

ـ وإذا سألوك عن قدمك المفجورة قل: لقد صوب عبد الله بندقيته فأصابني في قدمي، وسوف يشهد معك بعض المتسوقين الذين كانوا بالسوق حينما لمحوه وهو يطاردك باتجاه الحقول!!

فجأة أحسست بلدغته، ففززت في وجهه بصرخة مستنكرة:

ـ ماذا.. عن ماذا تتحدث؟

ـ لماذا فتحت فمك هكذا؟.. خير لك أن تسمع، وأنت صامت!

ـ لا أعلم ـ سيدي ـ عن ماذا تتحدث؟

ـ عن العجوز..

ـ قسماً بفالق النوى.. لم أوذها بشيء، فقط حاولت استدراجها للحديث عن أبي فقد تناولته بسوء، ولم أزد على ذلك.. لا بدَّ وأنها أضافت الكثير أنا أعلم بعرقها النجس، فهي دائماً تضيف الهوايل.

ـ عمن تتحدث.

ـ عن خميسية، أحس أنها تعرف الشيء الكثير عن أبي، وأمي.

فرت عروقه من وجهه، واستل سوطه، وهوى به عليَّ، وفي محاولة لاجتناب ضربته، قفزت فتنكأت، وهطل دم قاني السواد فيما كان يرمقني وهو يضحك، بتر ضحكته فجأة وزم قسمات وجهه، فغدا أكثر قبحاً وبشاعة.

ـ كان عليَّ أن أوسع هذا الجرح كي تفهمني بدل أن أحرق دمي معك.

وحثني على النهوض برفسة على مؤخرتي:

ـ هيا انهض واجلب الماء ولا تنسَ ما أوصيتك به.

كان صراخه حاداً بحيث لم يمهلني لإعادة ربط جرحي أو سكون وخزاته، فتحاملت على نفسي، ونهضت متثاقلاً، وتوجهت إلى مطارح البهائم، وشددت الحمار وسويت الجرار فوق «الشد» الخشبي والذي يصعب معه الركوب، أو تثبيت «خياطى الشراك»(*)، وأمتطيه بعد عناء.

في مثل هذه الأوقات من كل سنة تكون (الغبرة) في أوج تهيجها، تصابحنا مع طلوع الشمس، ولا تغادر عيوننا إلاَّ مع رحيل الأصيل، بعد أن تكون قد دفنت كل شيء، وفي أوج نشاطها وحبورها تستصرخ الوادي كي يمدها بالتراب الكافي لتحثو هذه القرية، وتحيل يومها إلى غبار لا يمل، ولا ينتهر، وتظل تملأ فتحات أجسادنا برمل ناعم حارق، عندما يطبق أهل القرية على كل شيء.. الموافي و(الرهى)(**)، وبوابات العشش، وعيونهم، ويثبتون جرار الماء في حفر عميقة، ويغلقون بوابات المطارح، ويربطون (مشاوين العجور) ربطاً محكماً في رباط واحد، ولا يأكلون إلاَّ بعد أن يصبح الجو ملائماً للخبز، وفي هذا الوقت يمضون وقتاً طويلاً في البحث عن (الموافي) المردومة، ويمضون وقتاً طويلاً في إزاحة التراب المتراكم فوقها، وقد اهتدت بعض النسوة إلى اكتشاف طريقة تيسر عليهن الاهتداء إلى مواقع (الموافي) وذلك بوضع خشبة طويلة ببطن (الميفى) حتى إذا انتهت الغبرة

(*) خياطى الشراك: هي التي توضع بها الأواني الفخارية الخاصة بالماء.

(**) الموافي: جمع ميفى وهو التنور، والراهي: القمح بعد الطحن.

اتجهن مباشرة إلى تلك الشارة التي وضعنها وأزحن التراب المتراكم وخبزن عيشاً مخلوطاً بحبيبات الرمل الناعم، وفي مثل هذه الأيام ـ غالباً ـ تأكل القرية غداءها مع دخول المغرب حين تكون الغبرة قد جمعت نزقها ومضت تعربد به بعيداً هناك خلف المدى، ساعتها فقط يستنشق الناس هواء خالياً من حبيبات الرمل وإن عكرته أنفاس السوادي. في هذا الوضع يصبح الذهاب إلى البئر مغامرة غير محمودة العواقب، فكم من طفل ضل طريقه، وابتلعته (الهيج)(*)، أو أسقطه حماره وسار عليه، أو سقط أحد الورادة في تلك الآبار الجافة المهملة والمنتشرة على الطريق المؤدي إلى مكان البئر التي نرد منها. وبالرغم من هذه المخاطر إلاّ أن الأهالي ما زالوا يدفعون بأطفالهم لجلب الماء، وقلوبهم تدعو أن يحفظهم اللّه من جنون الغبرة المميت، وكان الأطفال يتسابقون للخروج ـ في مثل هذه الأيام ـ خوفاً من أن يصبح معرة بين أبناء القرية، أو أن يتهم بأنه امرأة تربيه أمه للمضاجعة، لذلك فهم يخرجون واضعين مظلاتهم على رؤوسهم بعد أن يربطوها أسفل ذقونهم، وينكسوا قاماتهم على رقاب حميرهم، والأصغر سناً يُربطون بـ (الشد) ويظلون كذلك حتى يعودوا إلى منازلهم، وغالباً ما تكون عودتهم متأخرة كثيراً، فهم يستجيرون بأشجار الأثل، والرديف، والسلام لتحميهم من اندفاع الغبرة الشرس، والاحتماء بهذه الأشجار يتطلب سلوك طريق مغاير للطريق المعتاد، ويتطلب كذلك الحرص من الانسياق خلف الأشجار خوفاً من (عراج)(**) رابض، أو ذئب جائع، أو شوكة سامة ملت من الاحتفاظ بسمها دون أن تفرغه في جسد عابر. في غدوتي قطفت غصناً رياناً من أشجار الرديف، ووضعت قطعة شاش لتغطي عيني. ففي العام الماضي ومع هبوب الغبرة سكنت حصى في عين هذا الحمار اللعين، ولم تغادرها إلاّ بعد أن نخرت بصره، وبقي بعين واحدة من ذلك العهد.. ويبدو أنه خاف على عينه الوحيدة فكلما أشبعته جلداً كلما «تقعصت» مؤخرته ورفس الهواء بقائمتيه

(*) الهيج: أشجار كثيفة متداخلة وملتفة حول بعضها.

(**) عراج: الضبع.

الخلفيتين وأمعن في عناده رافضاً أن ينقل قوائمه للأمام، إن هذا الحمار اللعين يشبه سيده، فخوفه على عينه الوحيدة جعله يسير ببطء قاتل، وعندما تشتد «الغبرة» يوجه وجهه عكس هبوبها، ويسير بمؤخرته، لأصبح عتبة تمسح الريح أقدامها بها، وكثيراً ما كانت أخشى أن يقذف بي بين هذه (الهيج) الكثيفة لأصبح في متناول الشوك السام:

ـ هذه القرية ثدي يدر اللبن السام، والشوك السام.. لعنة اللّه على السوداء، وعلى السوادي، وعلى الحمار، و...

قطعت لعناتي حينما تنبهت لامرأة تصرخ بفزع، ومرّت بموازاتي، وهي تلكز حمارها بشدة، وتتطلع نحوي بخوف وارتياب، وهي تسوم حمارها بأشد صنوف العذاب إيلاماً كي يركض بعيداً عني، قذفت ببصري في كل الاتجاهات فلم ألمح إلاّ الغبار لهارب باتجاه القرية، وبعض الورادين المنحنين على رقاب حميرهم، وعيونهم تتقافز من خلف ألثمتهم المحكمة.

(لا شك أنني أخفت هذه المسكينة.. كيف لا تخاف، وهي ترى رجلاً عارياً، يحدّث نفسه بصوت مسموع، ويركب حماراً أعور يسير بمؤخرته أحياناً كثيرة ولا يستوي إلاّ عندما أشبع رقبته جلداً مبرحاً، وعندما يخف أله يعيد مؤخرته للريح) اشتدت الغبرة وأنا لا أزال بعيداً عن (الحسى)(*)، وحماري يقطع خطوتين، ويؤخر أربعاً (ليت سيدك يسير هكذا، لو فعل لملأت الريح مؤخرته، وانشغل بحكها عنا).

ندت ابتسامة فرح على فمي لهذه الصورة التي تخيلت سيدي فيها، فز الحمار وأخذ يقذف بقائمتيه الهواء، وينهق بصوت قبيح!!

فابتسمت ومسحت بيدي ذؤابته المسترسلة بانسياب على عنقه القصير، فهدأت ثورته المفاجئة، وعاد يتلكأ في مشيته، فكدت أستل عصاي التي أتوكأ عليها، وألقي بها على هامته، ليقفز إلى مخيلتي احتمال أن تودي هذه الضربة بحياته، فأطلقت ضحكة صاخبة، وأنا أتخيل سيدي يتلقى نبأ موت حماره.. هذا الحمار الذي يحبه كثيراً لأنه أنجاه من موت محقق، ففي إحدى

(*) الحسى: البئر.

المرات غضب السوادي من أحد جماله بسبب مواقعته لناقة كان السوادي يريد لها جملاً ذا لون أبيض نادر، طلب إحضاره من قُرى وادي محيسنة، وذلك من زمن بعيد، وأخذ ينتظر مقدمه بفارغ الصبر، وقد اصطفى هذه الناقة من نوقه التي لا تحصى لأن تلقح من الجمل القادم وبينما كان ماراً لمح وليفها يواقعها فاشتاط غضباً، وترجل عن فرسه، وانهال على الجمل ضرباً باللجام، مما جعل الجمل يثور وينطلق في أثره، ولم يكن بينه وبين السوادي إلاً أن يتخطى حماراً اعترضه فجأة، وكلما حاول أن يروغ عنه، وقف في طريقه فهرسه بين قوائمه وانطلق في أثر السوادي الذي تمكّن من الاختباء في زريبة البقر بعد أن أغلق بابها، وعندما رأى أن الجمل ضمر حقداً وعزم على الاقتصاص لنفسه، أخرج بندقيته وأرداه قتيلاً، وخرج صوب الحمار يتفقده، فوجد أن قوائمه قد أصابها العطب، فأمر اثنين من عبيده بتجبير كسوره، والسهر للعناية به، وأصبح الحمار الأثير لديه، ولم يكن يأتمن أحداً عليه سواي، وفي كل مرة يوصيني به خيراً. وفي العام الماضي فعل المستحيل لإنقاذ عينه من الحصاة التي سكنت بعينه، وعندما ذهب نورها تطير منه، وأعاده إليّ وإن بقي يتلمس أخباره من بعيد.

(أوه.. لا شك أنه سوف يذبحني قرباناً لحماره العزيز إن أنا قتلته.. إذاً لأدعه يسير بمؤخرته كيف شاء).

كنت أسير وأتلهى بخواطر شتى، بعضها يفرحني، وجلها يحزنني، عبرت (الهيج) وأصبحت أسير في الخبت، فشعرت بالريح العابر لهذا الخلاء يجلدتني بقسوة، فارتديت مدرعتي، وانحنيت بقامتي بجوار رقبة الحمار، وواصلت السير.

تنبهت أن كل من يعبرني، يسير بعيداً عني، ويخبون في السير، دون أن يمازحوني، أو يسخروا مني ـ كالعادة ـ وهم يمدون ألسنتهم الحادة، الجارحة، ولاحظت أيضاً أن الأطفال يظلون يبكون حتى يغادروني بمسافة بعيدة، وعيونهم تظل مسمرة باتجاهي بتحفز، وترقب مخيف، أحدهم انفرط حبل شده فسقط وتكسرت جراره بجواره، فهرعت إليه لإنهاض دابته وتسوية (شد) بغلته، وما إن رآني قادماً صوبه حتى نهض مسرعاً تاركاً حماره،

وجراره، وأخذ يعدو باتجاه (الهيج) باكياً بصوت مرتفع، وتلك الغبرة المتوحشة تُبدد بكاءه في أماكن شتى.

ـ لعنة اللّه عليها من قرية هل علموا الآن بجنوني!!

كل يوم يسيرون بجانبي ويوجعونني بسخرياتهم اللاذعة، فماذا حدث اليوم؟.. الحمار هو نفسه... وأنا.. آه.. هل عبث ذاك اللعين بوجهي فأصبحت مخيفاً؟.

رأيتها منكبة على حمارها الأعرج، تسير ببطء، فناديت عليها، ففزت من على حمارها، وهمت بالركض، إلا أنها تراجعت، وأمسكت لجام حمارها، ووقفت مترددة بين مواصلة السير أو العودة، وظلت تنظر إلى خطواتي المقبلة صوبها بحذر متخوف، وعيناها تشيان بتهيؤ للانطلاق في أي لحظة، اقتربت منها، ومددت يدي إلى رأسها، فجفلت.

ـ ماذا بك يا صالحة؟

جاء جوابها يابساً، مستوحشاً:

ـ لا شيء.

ـ أراك خائفة.

أمنت على قولي بهزة من رأسها.

(يلعن أباه لقد غيَّر ملامح وجهي لا شك).

مررت يدي على تضاريس وجهي، ذلك الوجه الذي نسيت التحديق فيه منذ زمن طويل، فلم تتعثر يدي بأي كدمة، ولا أثر لجراح دامية، ولا زال أنفي مستقيماً كما عهدته، ولا زالت عيناي في موقعهما، ولا زالت شفتاي مطبقتين على أسناني البيضاء الدقيقة، فما الذي حدث؟

ـ أتريدين أن تهربي كما يفعل الآخرون؟

هزت رأسها، وخرجت كلماتها ثقيلة:

ـ ولكن أمي قالت لي: لو رأيتِ درويش لا تهربي منه.

ـ هل سمعتم شيئاً عني يا صالحة؟

هزت رأسها بعنف.

ـ ماذا سمعتم؟

ـ خميسية دايرة بين بيوت القرية تحدث الحريم عن موت العجوز نوار، وتؤكد في أحاديثها بأنك أنت من سقاها اللبن السام.

(ابنة الكلب، ها هي تتناول سيرتي كما تمنيت ولكن عن كوني قاتلاً، وليس عن سيرة أبي، أو أمي. . الآن فقط أستطيع معرفة سبب تواجدها مع من أوكله السوادي بمراقبتي والذي كان يتربص بي بين الحقول ليلة البارحة. . علهما كانا يريدان إطلاق النار على أحدنا، نعم لا بدَّ أن يحدث هذا كي يستطيع السوادي أن يخرس أي لسان يحاول البوح لي بشيء عن أبي، أو أمي، كما أنه بهذا يستطيع أن يبعد عني عبد اللّه، وأمه).

كانت صالحة لا تزال واقفة والخوف يلعب بها، فقد بدت مسكتها للجام حمارها أكثر تراخياً وعيناها تبتلعان الطريق المؤدي إلى القرية، ابتعدت عنها قليلاً، ومددت لها بالعذقة التي كنت أحملها للحاسي، فلم تتحرك وظلت جامدة تعلق عينيها بي، حاولت أن أزيح تخوفها:

ـ صالحة أنا أحبكم ولا شك أنك فتاة ناضجة وقادرة على فهم ما أقول.

ظلت على ما هي عليه، فمددت بالعذقة مرة أخرى:

ـ هذه العذقة ليست سامة وأريدك أن تردي بها ماءً لكم، فأنا عائد إلى القرية وليست لي بها حاجة.

طفرت على محياها ابتسامة سريعة، ومدت خطوتها صوبي، وخطفت العذقة، وعادت إلى مكانها، وجذبت حمارها ومضت إلى البئر وهي تتلفت باتجاهي، فيما كنت أسهل مهمة حماري، وذلك بأن جعلت مؤخرته تواجه الريح، وتوجهت بوجهي صوب القرية.

(الآن فهمت ماذا يقصد ذاك الثعبان حين قال لي: مرفوع عنك القلم. . ولولا تساهلي ـ ليلة مقتل العجوز نوار ـ مع ذاك اللعين لكنت الآن في منأى من هذه التهمة، فما عسى عبد اللّه يقول الآن؟ خسيس. . نعم خسيس. . كيف لا، وأنا أرى القاتل يدور حول فريسته، وأقف متفرجاً لا لشيء إلاّ لرغبة غبية تعبر مخيلتي دائماً. .

وما عسى الخالة (وادية) تقول عني.. إن الإناء المكسور لا يحفظ الماء، وكنت ذلك الإناء.. أي غباء أمضغه؟.. وأي حلم مجنون أسير صوبه بهذا التقاعس المريب) بلغت القرية في حين كانت مشتعلة بالخبر والكل يتهامس بيقين ثابت:

ـ المجنون سقى العجوز نوار لبناً ساماً.

قفزت من على حماري تاركاً إياه يمضغ سجوف القرية، ومن (قشاميش) الأرض، وأخذت أبحث عن خميسية، وبي رغبة جارفة في أن أمسك بشعرها الشائب، وأجرها من خلاله بين الطرقات.

أسرعت إلى دارها، فوجدت ابنتها التي تشبهها في كل شيء وإن زادت عليها بشيء فهو ذلك التشاجر الحاد بين عينيها، كانت منكبة تطحن كعتين ـ أو تزيد ـ من «زعر» دفين، وبجوارها استقر (مركن) طلي خارجه بقطران، وتكسر جزء طفيف من أعلاه، وقد تناصف بـ (الرهى)، وتبقت نصف كعة من قمح أبيض لم تطحن بعد، فرفستها على مؤخرتها، لتنكفئ على (المطحنة) مصدرة صرخة مفاجئة، وعندما رفعت رأسها كان دماً طفيفاً ينز من جبهتها، وبقايا من (رهى) لم يطحن جيداً علق بمعظم وجهها، نهضت تتألم، وعندما رأتني اتسعت حدقتاها بفزع، وانعقد لسانها، وابتلعت صرخة محمومة بريق ناشف، وبقيت منكمشة، تحضن جسدها بيد، وباليد الأخرى تزيح (الرهى) العالق بوجهها. فصحت بها لاعناً:

ـ أين أمك؟

فلم ترد، صرخت بها مردداً سؤالي فانفجرت باكية، مددت يدي وجذبت شعرها بعنف:

ـ أقول لك.. أين أمك؟

فأصيبت بذعر سرى بأطرافها التي أخذت ترتعد وزاد إحولال عينيها اتساعاً، فاندلق لسانها متعتعاً:

ـ ذهبت (للحسى) ترد لنا ماءً.

أفلت شعرها، وأمسكت بقصبة حلقها، وضيقت عليها بشدة مما زاد في

تباعد عينيها، وخروجها بجحوظ مخيف، فتعرشت بوجهي في محاولة ضعيفة لتخليص نفسها. . تركتها تحاول مراراً حتى إذا تباطأت محاولاتها، وركنت للاستسلام والخدر، أرخيت قبضتي، ودفعتها للخلف، فشهقت بنهم، وأخذت تستجمع أنفاسها بلهفة، وأطلقت عدة كحات متلاحقة عصبية، وقد همت بالاستنجاد، فحذرتها من مغبة ذلك:

ـ لو رفعتِ صوتك فلن يلحقك أحد.

أخذت تنشج، وتتمخط، بصوت مقزز، نافلة مخاطها بجوار القمح المقشور، وماسحة يدها «بكرتتها» المتسخة، حتى إذا نضب نشيجها، تساءلت باسترحام:

ـ ماذا صنعت لك حتى ترغب في موتي؟

ـ أخبري أمك بهذه الجملة: درويش يرغب في إماتة من لم يمت!!

وبصقت في وجهها، ونثرت التراب فوق مطحنتها، و(رهيها) وغادرتها متوجهاً إلى بيت عبد اللّه. على مدخل البيت رفعت صوتي منادياً عبد اللّه، فجاءني صوتها مهللاً ومرحباً:

ـ (درويش. . تفضل يا درويش).

مددت خطواتي إلى داخل (القبل)(*) فوجدتها تحلب غنمة دارة باللبن، وكان اللبن يشخب في قصعة صغيرة، بينما كانت النساء المعزيات قد استقررن بداخل العشة، وحينما رأوني قادماً امتدت أعناقهن وأبصارهن صوبي، وبعضهن رفعن أصواتهن بـ (قاوي)(**) داو، اتسعت ابتسامة الخالة وادية وهي ترحب بي فخاطبتها متعجباً:

ـ أظنك لم تسمعي ما يتقوله أهل القرية؟

ـ بلى سمعت وأعرف من وضع السم لأمي جيداً.

ـ ولماذا أنت صامتة؟

(*) القبل: فناء الدار.

(**) قاوي: هو صراخ النساء عند الموت.

ـ خوفاً على عبد اللّه.

هكذا انطفأ حريق خميسية، ولم يعد أحد يذكر العجوز نوار إلاّ أنا، وكلما لاح رسمها في خاطري، لعنت تلك الليلة، ولعنت رغبتي الحمقاء، وقد أتمادى في تحقير نفسي لدرجة الإقدام على دفنها حية!

بعد رحيل العجوز نوار قضيت فترة طويلة أتساءل:

ـ من يعرف درويش؟

تهرب القامات المكسورة من السؤال، وتلك القامات الفارهة التي تستمد وجاهتها من خلال جيوبها العامرة، تطيح بسقف هامتي عندما أسألها:

ـ أنت درويش عبد السوادي، وإذا لم يعجبك هذا الاسم فأنت درويش المجنون.

وأبقى متسولاً بينهم أصرخ في وجوههم:

ـ ومن هو هذا الديك الذي تتحدث عنه العجوز؟

فيتركونني على قارعة السؤال، ويمتهنون السخرية، في هذا الاحتراق العبثي، كنت أشي لنفسي بأمور كثيرة.. أولها إحراق هذه القرية، أو الانضمام إلى لصوص الجبال، وأتآمر على قتل كل فرد بداخل هذه العشش المنكبة على أصحابها وكأنها قبر لا لحد له، أو تعطيل دوابهم، أو إفساد حقولهم بجلب البهائم لترعى تلك السنابل المنتصبة.. سيل كثير من الأمنيات المرة كانت تعبر مخيلتي، وفي كل مرة أتراجع عن ذلك، عندما يقف في رأسي سؤال مدبب.. وماذا بعد ذلك؟.. من بين هذه الهواجس المرتبكة، احتلت مخيلتي فجأة، ليس لي سواها، توجهت نحوها، وارتميت أسفل قامتها، رفعتني بيدها، وقبلت رأسي:

ـ صالحة جلبت الماء، اذهب واغتسل.

ـ روث البقر ينتظرني فلا حاجة لي بالاغتسال، وقبل كل شيء أريد أن اغتسل من هذا العار الذي يلاحقني.. أريد أن أعرف من أنا؟

سكتت طويلاً، فبكيت تحت قامتها:

ـ يا درويش أنا أخاف على (موتان).

ـ وليس هناك من يخاف على درويش. . جميعكم تخافون على قلوبكم من الكسر، بينما قلبي يُكسر في كل حين، ومن أراد منكم أن يرمم قلبه جاء وهدم قلبي بالسخرية، والنكات. . لِمَ لا وأنا الطريق الممتهن لتلك الأقدام المتعجرفة، والضالة. . آه. . ليس هناك من يخاف على درويش!

ـ حسناً. . سوف أخبرك بما أعلم بشرط أن لا تخبر أحداً بما تسمع، وقبلها اذهب واغتسل، وسوف يكون خيراً إن شاء اللّٰه.

حملت جرة الماء، ودخلت إلى الدارة، وسكبتها على رأسي وعدت مسرعاً للخالة (رعنا) قبل أن تتراجع أمام خوفها على موتان، فأجلستني بجوارها وبدأت حديثها:

ـ في ليلة موحشة، ماطرة خرجت القرية تحمل فوانيسها، وتجوب جنبات الوادي، فيما كان السيل يتدفق بغزارة، ويجرف أمامه الأشجار الضخمة، والأنعام، والجثث التي كسر أغصانها في مكان ما من اندفاعه، ويدك الحقول دكاً مرعباً، ولم يجرؤ أحد منا على الوقوف بجوار حقله أو يحتضن سنابله التي أخذ يقتاتها السيل بفجاجة، فجلسنا نترقب أن يمل هذا السيل من مضغ تعبنا الذي زرعناه مع تلك السنابل التي لم تكمل نهوضها، فقد اجتاحها عنوة، وجندلها في طريقه، وخلفها قاعاً صفصفاً، كان أشبه بالموت يمسنا مساً خفيفاً، فنطفو فوق زبده كالألواح النخرة. . انتظرناه طويلاً كي يكف عن عبثه في حقولنا، ومراعينا، وأحلامنا التي شبت في أفئدتنا لجني محصول هذه السنة، وتبديده في احتياجاتنا الضرورية، وأمام طيشه، وتدفقه الهائل خشينا أن يلتهمنا كما يلتهم تلك الحجارة العنيدة ويلقي بها في طريقه كلعبة صغيرة، فعدنا إلى عششنا محتسبين، وبقي آخرون يشيعون أحلامهم العذبة، والتي صبحت نهباً للسيل.

ليلتها كان السوادي خارج القرية، فقد اعتاد أن يباغت القرى المجاورة، ويعود محملاً بالغنائم. . ويقولون إنه في تلك الليلة عاد مترجلاً يجر فرسه، وعليه امرأة مثخنة بالجروح، وعندما لمح أهل القرية يقفون على الشق الآخر من الوادي، انعطف، وسلك طريقاً آخر بيد أنه لم يفلح في اجتياز الوادي فبقي ثلاثة أيام خارج القرية لا يعرف أحد شيئاً عنه.

وفي اليوم الأول من غيابه خرج أبوه من حصنه يزبد، ويرعد، وأقسم أن يعَبِّدَ الوادي بالعبيد لتسير على هاماتهم حوافر فرس ابنه.. وقد جلب عبيده ـ بالفعل ـ، وقد كانوا مترابطين بحبل جدل بإحكام حول قاماتهم، وناسجاً بأجسادهم رقعة تمكّن ثلاث خيالة من السير بيسر على هاماتهم التي وضع عليها ألواح خشب مستوية، فقد ربط ألف عبد بشكل متواز ومتلاصق، وامتد هذا الجسر البشري مسافة ثلاثمائة ذراع، كان ينتظر أن يلمح ابنه يقدم له هذا الجسر ليعبره فظل يصرخ على ابنه حتى أعياه التعب، فأمر عبيده بالقيام بالمهمة بدلاً عنه، فرتج الوادي بتلك الأصوات المنادية، حتى قِيل إن أصواتهم سُمِعت في القرى المقابلة من الوادي، مما حمل أهاليها للخروج لرؤية ما يحدث.. كانت الأصوات تتعالى، فيما كان السيل لا يزال هائجاً معربداً، وقد تجاوز مجراه، وأطل على العشش القابعة بجوار حافتيه، وقد غادر معظم الأهالي جرف الوادي هاربين إلى منازلهم البعيدة بعض الشيء عن مجرى الوادي، وأصيب من حضر المشهد بالفزع، فهربوا باتجاه الأماكن المرتفعة من القرية والتي تبعد مسافة شدة على بغال نشطة، وظل الأب منتظراً ظهور ابنه حتى غربت الشمس، وحلَّ الليل، وهدر السيل الجارف، فعاد إلى حصنه وهو يكاد من فرط حزنه يقع مغشياً عليه، وقد أبقى ذلك الجسر البشري، وعليه حرس أشداء أمرهم بإنزال هذا الجسر إذا ظهر ابنه، وقد بقي هؤلاء مشعلين النار، وضاربين الطبول علَّ سيدهم يسمعهم ويأتي.

في صباح اليوم التالي حضر السوادي الكبير دافعاً أمامه ثلة عبيد من أمهر السباحين في القرية، والقرى المجاورة، والمتدربين على الغوص في البرك الموحلة، وعندما بلغ هو ومن معه الوادي كان السيل لا يزال يقذف حمماً من الماء ولا أثر لابنه، فهاج وماج، في هذه الأثناء انزلقت من أحد عبيده كلمة لم يسعفه سيف السوادي تذوق لحظة ندم، أو الاعتذار عنها بما يليق، فقد طار رأسه عالياً وسقط جسده يرفس بجوار دمه الشاخب، حدث له ذلك عندما قال:

ـ لا بدَّ وأن السيل قد التهمه منذ وقت مبكر.

لهذا المنظر شخصت الأبصار، وصعدت القلوب للحناجر، فلم يمنحها ـ السوادي الكبير ـ فرصة استيعاب ما حدث، فقد نادى بالسباحين وأمرهم أن يقطعوا السيل بحثاً عن ابنه الوحيد على الشط المقابل، وعندما وطأ اثنان منهم الوادي جرفهما السيل، ودفعهما أمامه كأغصان متآكلة، وظلت صرخاتهما تركض عكس اتجاه السيل دون أن تجد من يمد لها يد العون. . فتراجع السباحون وانطلقوا هاربين، مما زاد من غضب السوادي الكبير، والذي أمر بدفع العبيد الموثقين إلى مجرى السيل كي يذهب بنفسه للبحث عن ابنه، ولكن استعصى هؤلاء على الحراس، ساعتها قام الحرس المكلفون بحراستهم بفك وثاقهم ودفعهم على شكل مجموعات مما مكن بعضهم من الفرار، وانطلقوا متوارين خلف الأحراج، وقد بلغ غضب السوادي الكبير الزبى، فأمر مناديه أن ينادي بالقرية والقرى والمجاورة:

ـ من أجار عبداً آبقاً سوف يقتل، وتسبى حرائره، ومن أحضر عبداً، أو دلّ عليه فله خمسة جلب عامرة، يختارها حيث شاء، وله خمس ريالات (فرانصة).

فخرج الناس زمراً وأفراداً يبحثون عن هؤلاء الخارجين على أمر السوادي الكبير، يومها قتل خلق كثيرون، فقد اجتمع العبيد في مكان محدد، وصنعوا أدوات جارحة، من (أخواص) و(محشات) ومشانق، وحبال (تحنيب) أوقعت بالكثيرين وجعلتهم فريسة سهلة بأيدي أولئك العبيد الذين صنعوا لأنفسهم صيتاً مهاباً فكان من يأتيهم أو يقع بأيديهم يقتلونه ويرمونه للسيل عندها فقط تراجع أهل القرى عنهم، وعافوا تلك الجائزة المغرية مقابل الحفاظ على أنفاسهم من أن تخمد غيلة، أو أن تعلق أجسادهم بين أشجار الأحراج العالية، أو أن تقذف لسيل عرمرم، وعندما استشعر السوادي تقاعُس أهل القرى عن مطاردة العبيد الآبقين، أمر مناديه أن يجوب القرى منادياً:

ـ من لم يخرج لمطاردة العبيد قتل في بيته هو ومن معه.

فعاد أهل القرى لحمل فوانيسهم، وبنادقهم، وخناجرهم، وخوفهم، وتفرقوا في الخلاء، وبين الأحراج بحثاً عن أولئك الآبقين، ويقول من رجع

منهم إنهم رأوا أجساداً معلقة من أعناقها، بين أشجار الأحراج الكثيفة، ووجدوا جثثاً مبثوثة مقطعة الأطراف وبقايا من سيقان وكواحل دامية صنعت منها خطاطيف، وربطت بعصب، وأمعاء الموتى، ولم يجدوا أثراً لعبد واحد، ومع شروق الشمس عادوا إلى بيوتهم وهم يوسوسون بالأعذار، ويعدون السوادي الكبير أن يعودوا بهؤلاء الآبقين مكتفين ليشفي غليله منهم، ولكنهم بهتوا حينما وصلوا إلى منازلهم ـ تلك المنازل التي شب بها حريق هائل أودى بكثير من القتلى حرقاً، أو اختناقاً، ففي الليل حينما خرج أهالي القرى للبحث والتحري عن أولئك الآبقين، كان العبيد قد بلغهم ما عزم عليه القوم، فقاموا بهجوم معاكس، فتركوا مخابئهم، وجحورهم وأغاروا على القُرى لكي يتمكنوا من إلحاق الضرر بها دون أن يعرضوا أنفسهم للخطر، فأحرقوا العشش، وعقروا الأنعام، وسرقوا الحبوب، واختفوا كجن الأثل. . . ، مضى اليوم الثالث من هروب العبيد يخيم عليه الصمت والخوف مما سيحدث حيث بقي الناس يترقبون غضب السيل، وغضب السوادي الكبير، وقد انفلت أمر العبيد، وبلغ خطرهم حداً بات يهدد القُرى في حياتهم ومعاشهم، فهم يغيرون على القُرى، ويذبحون من يجدونه، ويتزودون بالماء، والطعام، ويعودون من حيث أتوا دون أن يستطيع أحد التعرف على مخابئهم، وفي كل غاراتهم كانوا أكثر تعقلاً فلا يصيبون إلاً من عاداهم وخرج في أثرهم وعندما خرجت القُرى بأجمعها طلباً لرأس أحدهم أصبح الوضع مختلفاً تماماً حيث كنا نصبح على دفن جثة من ضحاياهم. . في البدء كانوا يتربصون بأعوان السوادي ويتركونهم جثثاً خاوية الأمعاء، وقد يأخذون قليلاً من العظام التي تصلح لأن تكون سلاحاً فتاكاً.

في الليلة الثالثة ومع الغروب كان جسدان ـ من أعوان السوادي ـ ملقيين في سوق القرية، وهما غارقان بدمائهما، وحشرجاتهما الأخيرة، فتطوع اثنان من أهل القرية بالذهاب للسوادي، وإخباره بآخر ضحايا العبيد، وعندما أبلغاه جازاهما بقطع أذنيهما، وأمر كل منهما بحمل أذنيه وتعليقهما على مدخل المسجد وأقسم إن لم يجدها معلقة عند صلاة العشاء حيث أمرهما ليقطع لهما عضوي ذكورتهما، وأمام هذا القسم انطلقا مهرولين لتنفيذ ما أمر

وصرخ ببعض جنده بالذهاب للسوق وإنهاء أنين الجسدين الملقيين هناك.

ومع مرور الأيام قويت شوكة هؤلاء الخارجين، وتزايد بطشهم، وانضم إليهم بعض الأهالي، واجتمعوا ذات مساء وداهموا حصن السوادي، ولم يتركوه إلاّ بعد أن أوقدوا النار في جنباته، وعقروا خيله، ومواشيه. . .

ولا أذكر بالتمام كيف هدأت هذه الزوبعة ـ فقد كنت صغيرة يومها ـ إلاّ أنني سمعت أن السوادي الكبير لجأ إلى طريقة أجبرت العبيد على نبذ تمردهم، والانقياد له ليفعل بهم ما شاء، فقد جمع أولادهم، وزوجاتهم، وكل من له صلة قربى بالفارين، وأمر بإحراقهم أحياء إن لم يرضخ الخارجون، ويسلموا أنفسهم، وما اكتسبوه من السلب والنهب، وقد وعدهم بالعفو والصفح متى ما رضخوا لذلك مع وضع شرفه كأمان لما يَعد به، وقد نزل الكثيرون لهذا التهديد، وعادوا إليه، يومها جرى دم غزير من تلك الهامات التي فصلت عن أجسادها، وعلقت كل جثة على (قرعينة)(*) عشتها، وزاد على ذلك بأمر آخر يقضي بأن على كل من يمر بإحدى هذه الجثث أن يقذفها بما يستطيع من حجارة، أو أن يحثوها بالتراب كأقل استنكار يمكن أن يقوم به أهالي القرى للرد على سفاهة، وعقوق هؤلاء العبيد، ومن لم يقم بتسليم نفسه توغل بين الأحراج، ومات هناك، أو أنه استطاع اختراق تلك الأحراج إلى مكان لا يوجد به وجه السوادي.

وأثناء هذه الجلبة العظيمة نسي الناس ابن السوادي حتى إذا انتهى أمر العبيد تحدث البعض عنه، فرووا أنه عاد إلى القرية ـ في اليوم الثاني من غيابه ليلاً دون أن يعلم به أحد واختبأ بداخل القلعة ومعه فتاة ـ شبه ميتة كانت تتدلى من على حصانه التمري. . وقال من رأه إنها إحدى غنائمه التي سباها من إحدى القرى البعيدة، والتي تقع في الطرف الأسفل من الوادي. . . وآخرون يقولون بل هي إحدى جنيات الأثل كانت تتربص به وتريد أن تداخله، لكنه كان مسكوناً بجنية أخرى، وفي صراعها معه أعانته جنيته عليها، وظفر بها كأسيرة، وقد أوصته وليفته أن يسكنها مكاناً لا نور فيه،

(*) قرعينة: سارية خشبية توضع أعلى العشة.

وأن يحجب عليها الحجب، وأن يتبول عليها يومياً كي لا تؤذيه.. وآخرون يقولون بل هي ابنة أحد شيوخ شمل بني عمر صادف أباها في سوق الأحد، وقد سمع بجمال ابنته فطلبها لنفسه بتعال أحرج به شيخ بني عمر فرفض الأخير هذا الطلب، وأغلظ القول للسوادي، ونعته بالعنين، فاشتاط دم السوادي، وأقسم أن يطأ فروج بني عمر، ويختمها بفرج ابنة شيخهم، ولكي ينفذ قسمه تقارع مع شجعان بني عمر ومن هزمه ساق زوجته لمضاجعتها، ولا زال يعمل سيفه في رقابهم حتى أتى على شيخهم وسبى ابنته، وعاد بها إلى حصنه.. وبعد هذه الواقعة غاب عن الأنظار، وكدنا ننساه حتى إذا ظهر قال بعض أهل القرية.. عندما علم السوادي الكبير بأن ابنه تسكنه إحدى الجنيات، أصابه الفزع وعرضه على سادة عديدين، وقد أجمع معظم السادة على أن يضرب عليه بحجاب محكم، وأن لا يزوره أحد، وأن يكون أكله لحماً نيئاً، وشرابه دماً خالصاً وعندما كدنا ننساه لغيبته الطويلة خرج علينا ذات يوم شاحباً، يكاد يتوارى من هزاله، ومع هذا الخروج ظهرت أنت معه، وقد أوكل لإحدى جواريه بتربيتك ويقولون إن تلك السيدة التي سباها كانت تحمل وليداً، وصفه لها أحد المنجمين فقال.. ستلدين ابناً يشبه الموت، شديد السمار، ملامحه تنبئ عن نفس غنية، وروح مرة، سيمضغ القرية ويمشي وحيداً حتى يموت!

وتقول العجوز نوار.. إنك تشبهه تماماً، وربما تكون أنت، ولا أحد يعلم بالتحديد من هو ذلك الصبي.. قد تكون أنت، وقد لا تكون.

توقفت الخالة صابرة عن حكايتها، واقتربت مني وضمتني برفق:

ـ إياك أن تخبر أحداً بما سمعت، فكل هذه الحكايات لا أحد يعرف أصلها، وكل الذين يعرفونها قد التهمهم التراب، أو ظلمة القلعة.. ها أنا أحذرك أن تتفوه بها.

نهضت متوكئاً على عصاي، وخرجت راكضاً، فآلمتني قدمي المفجورة، وأعاقتني تلك العصا اللعينة، فقذفت بها جانباً، وعدوت متحاملاً على نفسي في حين كنت أشعر أن قدمي تتشقق، وتخرج سائلاً دافئاً لزجاً. دلفت مجلسه، فألفيته متربعاً مقعده كخيل جامحة، يجاوره عينه المتنقلة ـ ولي ـ، كدت

أبصق عليهما... لمحت سيدي ممسكاً بسوطه بيده اليمنى، ويفرده في الفراغ، محدثاً «شحطة» ذات صوت حاد لاذع، فابتعدت لأمكن قامتي من الانحناء:

ـ عفوك سيدي من أي القرى جلبتني؟

تجاهلني تماماً، وأكمل حديثه مع نديمه، فقاطعتهما، وأعدت السؤال فالتفت نحوي بغيظ:

ـ ألم ترد؟!.. أين الماء، وأين الحمار؟!

ـ لا تخشَ عليه فله عين لعينة سوف تعود به إلى مطرحه.

قال متهكماً:

ـ وهل للماء عين هي الأخرى؟

فأجبته بصوت قوي:

ـ سوف أجلب البئر إلى هنا، لو أنبأتني من أي القرى سبيت أمي؟!

وكمن دلق عليه بحميم، فز من متكئه، وضم سوطه نحو صدره:

ـ أي المخرفات جالستها اليوم؟!

(سقط فؤادي.. الجدة نوار لم تكمل يومها الثاني حينما تحدثت عن جزء غامض من سيرتي.. لا لن أخبره هذه المرة.. كل ما أخشاه أن تكون عينه كانت تتربص بي هناك.. يا لي من أحمق، كيف لي أن أبحث عن نسبي عند عدوي).

أعاد السؤال، بلهجة لا تخلو من التهديد:

ـ قلت لك.. أي المخرفات جالستها اليوم؟

ـ لم أجالس أحداً، وإنما كنت أزاحم على الماء فاشتد الزحام، وتشاجرت مع البعض، ونعتوني بأني ابن إحدى سباياك، وعلمت منهم أنك أغرت على إحدى القرى، وجلبت أمي إلى هنا، حيث كنت حاملاً بي وقد وضعتني عندك، وماتت.. أريد فقط أن أعرف تلك القرية.

ـ أكلُّ هذا الحديث تفوه به صبية على البئر؟

وتبادل مع نديمه الضحك حتى رغبت في قذفهما بحذائي، وليكن ما

يكون، وقبل أن أنفذ ما بخاطري كان صوت سيدي يقرع أذني بهدوء:

ـ صنعت خيراً بك، وبنفسها بما أخبرتك!!

وغمغم بصوت منخفض، محروق:

ـ هذه هي التي لا أقوى على إيذائها بالموت، فهي التي أضمر لها الحب دون سائر البشر!

لا زلت أختزل خاطري السابق، وكانت فردة حذائي على وشك أن تغادر قدمي، وقد هاجت نفسي، وبحدة ـ وعلى غير العادة ـ رفعت صوتي في وجهه:

ـ قلت لك سمعت هذا على البئر، ولم أجالس امرأة... وأرجوك أن تدع حبك مقتصراً عليَّ فقط، فأنا قبلة قلبك الأبيض!

كنت أحدثه، وأنا أرتعد غضباً، وعندما انطلقت عبارتي الأخيرة، ضغطت بعنف على مخارج حروف كلمة (الأبيض)، فرمقني بضيق:

ـ حسناً.. حسناً.. أنت منذ اليوم أجَير لولي، لقد أحلت أيامي إلى كوابيس.

وقبل أن أنطق غادراني لاستكمال ضحكتهما المبتورة.

يا الله بالليلة من اليمن
تكثر أم دخن وأم لبن

بداية أغنية شعبية تقال في مواسم الأمطار

في صباح صحو ممتلئ بشقشقات العصافير تمددت الحقول باسترخاء وقد بزغت سنابلها اليافعة متمايلة لدفعات النسيم الخارج من هذا الصباح الضاحك. وبقي ثغاء الأغنام يأتي من المراعي البعيدة بطيئاً، متكاسلاً وانساب الماء بتقطع رتيب من (الفنية) المخترقة للحقول المترامية مانحاً الأرض العافية.. وقد نهض الحماة من سقائهم المعلقة فوق أشجار الأثل ـ المطلة على «الزاهيب» ـ وعيونهم تطرد نوماً ثقيلاً.. فيما كان بعض الرعاة قد تواروا في منعطفات الأفق وهم يدفعون أغنامهم وأغنياتهم للأمام. كل شيء هادئ ينبئ بيوم دافئ، خليق بالتحليق بين الحقول (كزموح)(*) مفتون بألوانه المتعددة وزنته المحببة.. العيون تتنقل بين (الزاهيب) بفرحة غامرة وتحوك أمنيات مؤجلة ليوم الحصاد.. في هذا الصباح لم يكن هناك إلاّ شمس مراهقة تظهر وتختبئ خلف سحب هشة وديعة.. انتصف النهار وهذا الصباح لا يزال يختال بجوه المدهش.. حين كان الأفق ينسج سحابة كجناح غراب أخذت تتقدم حتى استحلت السماء فغدا الوقت قاتماً وتهيأت فيه المساء لبكاء مرّ.

لفظ المدى رعاة ومزارعين أخذوا يخبون في السير عائدين إلى القرية وصرخاتهم تتعالى وأصواتهم تتواصى:

ـ الليلة عشوى(**).

(*) زموح: حشرة متعددة الألوان وجميلة الشكل تصدر زناً أشبه بصوت النحل تظهر أيام الحصاد.

(**) عشوى: كلمة تعنى أن الجو سيكون ماطراً.

لتتزاحم أجسادهم مخترقة طرقات الوادي قبل أن يغدو عبوره موتاً محققاً فيما كنت ثمة ضحكة قديمة جافة تتسلل إلى البعيد، وتمعن في السير محدقة في السماء، حتى يغيب بصرها خلف لبد السحب الكثيفة. . حدث درويش نفسه:

ـ يبدو أنه عشوى، فالأرض مظلمة.

ومضغ خاطره، وصار وهو يوزع ضحكاته الجافة على حدود الوادي حتى إذا أوشك أن يتوغل فيه هطل الماء وابلاً جاعلاً الأرض تسعى تحت الأقدام، فاختار له مكاناً منزوياً بين أشجار الرديف، وجلس يدندن، وعندما يشق البرق المتوهج وجهه. . يرفع صوته:

ـ لا إله إلاّ اللّه.

كان الرعد ثقيلاً، يسقط له القلب إلى أسفل الصدر، ولم يكن أمامه إلاّ اختراق الوادي قبل أن يصبح طوفاناً يجرف كل ما يقع أمامه، فمد خطواته، وأرسل ضحكته الجافة أمامه، وانطلق يخوض تعرجات السيل، وما إن بلغ منتصف الوادي حتى أصبح السيل، نافراً ومتدفقاً بقوة، مقتلعاً بعض الشجيرات، وجارفاً بعض الحجارة، وكلما مضى الوقت امتلك مقدرة على اقتلاع الأشجار العظيمة، ومطوحاً بها أمامه ليمضغها في الطرقات التي سيسلكها.

كان قادماً من بين الحقول للتو بعد أن اخترق الوادي بأعجوبة. . فالليل والمطر كفيلان بإيقاف الحياة في تلك الناحية. . يستند على عصاه السلمونية، ويغطي رأسه بمظلته العريضة، الممزقة، والماء الموحل يتقاطر من ملابسه الرثة، ومن بين شفتيه تتقاطر ضحكته الجافة العنيدة.

أخذ السيل يمد رقعته، متجاوزاً مجراه، ومحدثاً دوياً هائلاً بثرثرته العميقة القاتلة، وقد استسلمت القرية لجريانه، وغدت (كمشاوين العجور) مربوطة بحبالها تسمع تقصفاتها بوضوح.

جرف السيل بعض العشش، فطفت، وتناثر (صربها) و(ثمامها) و(خياطيها) في أماكن متفرقة من مجرى السيل، وأخذ أهلها يبتعدون وهم

يتصايحون طلباً للغوث. كان يسير قفزاً، كمجنون لسعته نار حامية، حتى إذا بلغ أطراف القرية، شارك الرعد بصوته:

ـ يا اللَّه «بدفرة»(*)، تبز اليابس، وتبقي الأخضر.

كان يسير في هذا الجو الموحش، المبلل، كمارد خرج للتو من بين (الكداديف).

في الطريق إلى القرية، توقفت الحياة، فالدروب خاوية، وتلك البهائم الفارة من المرعى، أو من حظائرها تجندلت، وجرفها السيل أمامه تاركاً غثاءها الممتد يستنجد بوهن، وتلك الأشجار العالية المتباسقة، تتساقط وقد استسلمت لجريان الماء المنساب، والمندفع بقوة في كل الاتجاهات، كان الماء يعبث بكل شيء، ويداخل الحقول، والطرقات، مبتلعاً ما يصادفه، ويمضي به بعيداً، ولم يكن واقفاً أمامه سوى قبة أبي قضبة المرتفعة، وشبح القلعة الواقف خلف القرية بصلابة، وأصبحت العشش المتناثرة، والواقعة بالقرب من الوادي، والتي لم يجرفها السيل خاوية إلاَّ من طقطقات الصحون المعلقة بها والتي كان يجلدها الريح، فتصطفق بصوت مرعب.

وكان يتوكأ على عصاه، وكلما عبر إحدى هذه العشش، صاح بأصحابها، فلا يرد على صوته إلاَّ هدير رعد ثقيل، فيشاركه زمجرته بصخب:

ـ ياللَّه بدفرة تبز اليابس، وتبقي الأخضر.

وظل وقتاً طويلاً بين تلك العشش، (يحفش)(**) بعضها وهو يردد:

ـ حتى السيل لا يقدر عليك.

ويغمغم بانفعال مجنون:

ـ أنا.. أنا الوحيد سأقدر.

ويصيح بصيحات مرتفعة، وهو يلقي بـ (صربها) طعماً للسيل، وعبث بها كما يشتهي، وغادرها شامتاً بأصحابها وبمن تبقى بعيداً عن متناول السيل، وحينما بلغ المنحنى المؤدي إلى القرية كانت قامته قد ابتلع نصفها

(*) دفرة: اندفاع السيل بقوة.

(**) يحفش: يزيل صربها وثمامها على مراحل.

الماء، ولم يعد هناك مجال لأن يرى شيئاً، فتقدم قليلاً، وسكن تحت بعض الأشجار المستعصية أمام دفعات السيل، تاركاً المطر يهطل بفجاجة، ويجري في مناكب الأرض صانعاً أخاديد في جوفها، مندفعاً من خلالها صوب الوادي بقوة وغزارة، فجلس ضاماً جسده بين ذراعيه، وأسنانه تصطك ببطء، ونظره موزعاً ما بين القبة والقلعة، وكلما هدأ ارتعاده صرخ عالياً:

ـ وهذان الماردان ألا يسقطان!!

وبينما هو على هذا الحال، تهادى إليه صوت يتقطر يأساً، فنهض له مفزوعاً، وهو يصيخ السمع:

ـ وه يا خلق.. يا أهل القرية.. غيروا علينا، سأغرق أنا وأبنائي.. أليس هناك من رجل يغيثنا؟؟

حمل نفسه على ساقيه بقلق واندفاع يلاطم تلك المياه المندفعة بلا هوادة، كان يتخبط بين الأوحال، والأشجار المجندلة، والمستسلمة لدفعات السيل، وكلما اقترب من الصوت ازداد جريان الماء، وأصبحت الطريق أكثر تخاذلاً، لتتصاعد لعناته، وشتائمه العارية، وعلى بعد منه، كان شبح سمين يندلق مع الماء صوب الصوت المستغيث، حتى إذا التقيا صاح به:

ـ أيها الكبش السمين ألا تخاف من هذا الغضب؟

واستندا ببعضهما، وانطلقا لتلبية ذلك النداء.

بين صرخة الولادة وشهقة الكفن حياة بالية

موتان

الأرض يابسة.. غبراء كعجوز داخلها عطب الهجران.. تشقق جلدها، ونفرت عروقها، وتكدست الكثبان الرملية بين حقولها، وقد بدت عليها آثار قديمة من أعشاب اضمحلت، وتحورت إلى أشواك متمردة، ملأت جنبات الوادي.

وثمّة جوع عاصف مزق أحشاء الأنعام وتركها تلقي بجثثها على الطرقات مأدبة للذباب، في حين كان السوادي يمضغ أهل القرية بلذة، وعلى مهل.

الذباب والسوادي يحطان على الجراح العظيمة، ويرشفان دمها، دون أن تردعهما تلك الروائح الخارجة من فجوات الدواب، والناس!!

في الحقول تناثر الفلاحون، وفؤوسهم تنقب عن حياة جديدة لهذه الأرض الممددة كجثة قديمة بالية، وعبثاً تمضي تضرعاتهم المحمومة، والمتشوقة لقطرة ماء، فالأمطار تعبرهم دون أن تلقي عليهم بقطرة واحدة، ومع كل موسم يخرجون زرافات، ويهيئون هذه الأرض الميتة لاحتمالات ممطرة.. النساء منحنيات لاجتثاث عروق الأشواك، وتهوية الأرض، والرال يسورون الحقول بـ (زبر) منخفضة، وعلى امتداد البصر تمددت تربة ضامرة، عابسة بتشققات مزمنة.. من هناك انبعثت نية جماعية، انطلقت رتيبة، حزينة:

يـــا غـــيـــمـــة يـــا غـــافـــلـــة(*)
دوري مـــــع امـــــقـــــافـــــلـــــة

(*) للشاعر علي الأمير.

ايجـــي بـــلاد أم حـــجـــر
انـــت وطـــيـــور امـــطـــر
هـــاتي امـــعـــشـــيـــه لـــنـــا
عـــشـــيـــة تـــيجـــي امـــدنـــا
يـــا غـــيـــمـــة نـــجـــمـــك ســـهـــيـــل
امـــلي مـــعـــقـــومـــة بـــســـيـــل
واتمـــســـي فـــي أرضـــنـــا

رائحة التعب تفوح من ثنايا تلك الأصوات الرخوة القادمة من الحقول القريبة، وأنت تتحلف بطفولتك، وتتسكع بداخل هذا السوق الرطب.. تمضغك الأصوات والإهانات.. تبحث لك عن شيء تبيعه لتأكل، وعندما لا تجد تعرض ظهرك الصغير لحمل البضائع الثقيلة وتظل تئن تحت حمولتك كدابة هرمة تنتزع قوائمها انتزاعاً لتواصل كبوات لا تنتهي:

ـ أمك حتماً ـ الآن ـ تشارك بصوتها الرطيب بقية الأصوات، تغني لك وللتعب، ولقطرة ماء أبت أن تأتي.

وها أنت تتمنى أن تخلع تعبك، وتقذف بحمولتك، وتعدو تشارك الصبية لعبهم الغض.. تنهض صالحة من مخيلتك وهي منكفئة ـ على المطحنة ـ تطحن وتطحن في سبيل جلب كوب لبن لجيلان (أو لموتان الصغير كما يحلو لها أن تسميه).. يتهدم قلبك عندما تهطل مخيلتك بتلك التي تصوغ بتعبها أغنية دافئة لك ولإخوتك.. ويتضاعف شرخك حينما تلمح جيلان يتلوى من الجوع، مغتنماً الذباب النازل على مخاطه ودموعه، ليمد يده إليه ويمضغه بـ (خشرطة) مشتهاه، وقد يمعن في البكاء بصوت متقطع حتى يبلغ حدود الإغماء، لتتداركه صالحة، فتقذف بطحينها، وتضمه.. تخرج له ثدياً جبلياً، يتلمظه بلهفة.. فتكركر من فعلها «ليلى عبدية» وتلاطفها:

ـ لا زلت صغيرة يا صالحة على هذا!

فتستر جبلها الصغير بضيق وتأفف:

ـ ماذا أصنع؟!... أمي ذهبت لـ (تصرب)، ولم أجد ثم قطرة لبن، ودوابنا قرضها الجوع فماتت قبلنا.

ـ اطلبي من (شوعية علية) أن ترضعه.

ـ لقد طلبت منها ذلك لكنها رفضت بحجة أو زوجها لا يريد لأبنائه إخوة بالرضاعة.

فتتركها لبكاء جيلان الذي لا ينقطع، وعندما تشعر باليأس تضربه بقسوة، وتشاركه البكاء.

ما عليك إلاً أن تواصل أنينك تحت حمولتك الثقيلة، وتسير مع هذه الدروب المتعرجة.. الضيقة.. المسدودة.

في زوايا هذا السوق عليك بالسير المنكسر، وأن تشكر من يصفعك من التجار لأنه اختارك أنت دون سواك لنعمته! وعليك أن تمسح صفعته بابتسامة منشرحة، وتتبعه ككلب معدم.. تبرك أمام دكانه طويلاً ـ كجمل هرم ـ حتى يتململ منك المكان، وحين يتذكرك ذلك التاجر يعمد إليك بحمل ما لا تطيق، وإذا تذمرت تحت حمولتك تكون جاحداً لنعمته فلا يعود لصفعك أو البصق عليك حين يراك!!.. عندها عليك أن تختار زاوية أخرى من هذا السوق الملبد بالصراخ والبصاق.

في زاوية من المقوات(*)، أنت تحتاج إلى لسان رطب، سلس، وحركة دائبة.. حيث يطالبك المقوت بجمع أغلب المقوتين أمام مقواته، وإلاً أصبحت عبئاً عليه، وعلامة نحس لا يمحوها إلاً طردك.

تقفز بجسدك الناحل بين تلك الأجساد المكبة، والمتزاحمة على خرج القات، وتقلب لهم الأقراف، والمقوت يتربص بك بعين خبيثة، خشية أن تجتزئ تلك الأغصان النافرة من حزم القات، وتحشو بها فمك، أو أن تهربها إلى مكان خفي.. تحمل (القرف)(**) عالياً، تنوشه، وتضرب به راحتيك وتنادي:

(*) المقوات: مكان بيع القات.

(**) القرف: يتكون من ربطات متعددة من القات ويلف بشجر الموز غالباً.

ـ قطف اليوم من جبل صبر.. قطف اليوم.. تعال خزن وانشرح.

وما إن يسمع المقوتون بجبل صبر حتى يتخاطفوا حزمك ويمضوا، وقد تسعد بمقوتين ينشغلون عنك أثناء التقسيم، فتمتد يدك إلى داخل الحزمة وتنتقي أغصاناً رطيبة، حمراء، وتخبئها عن عيونهم، وعيون عمك الذي يتربص بك في كل لحظة.

في تلك الفترة بدأت التخزين.. كنت أجمع (الهلة)(*) المتساقطة من (القرف)، وأضعها تحت كوفيتي المقصبة، وبعد انقضاء بيع القات، وقبل توجهي إلى البيت، أقوم بجمع أعقاب السجاير المتناثرة في طرقات السوق، وأخبئها في (كمري) وأمضي إلى أمي سعيداً، أضع في يدها ما وهبني إياه جرفان من نقود ضئيلة، والتي لا تساوي صراخي المتواصل على قاته، وأكل أي شيء يصادفني، وأخرج للتعليف مع الجدة نوار، والتي أتركها تعلف في إحدى (الزاهيب)، وأبحث لي عن (زهب) منزوٍ، وأعتلف ما يكفي دوابنا القليلة، وأصنع مما اعتلفت متكأ، وأخرج ما جمعت من أغصان القات، لأحشو بها شدقي، ساحباً أنفاساً قصيرة من أعقاب السجائر، ومدندناً بنشوة لذيذة، وقبل احمرار الشفق (أنكب) ما في فمي من قات، وأركض باتجاه (الفنية) أتمضمض، وأزيل آثار القات من فمي، لأتلاقى بصوت الجدة نوار يتردد باحثاً عني، وعندما أقف أمامها حاملاً علفي، تقذف بـ (محشها) جانباً وتمسك بأذني، مؤنبة:

ـ «خذيلة تخذلك..»(**) أين أنت؟!

وتدفعني أمامها عائدين إلى القرية.

كان يحدث هذا في غفلة من الجميع وخاصة جرفان، حيث كنت أحرص أشد الحرص على أن لا يعلم بأنني أخزن خوفاً من حرماني من عملي لأنه سيعلم بعد ذلك أن يدي تتسلل إلى الأقراف وتبز ما يسد فمي وكنت أسرق تخزينتي أثناء تقسيم القرف فغالباً تتساقط أغصان غضة طرية ذات

(*) الهلة: البقايا.

(**) خذيلة تخذلك: دعوة تدل على أن من توجه له لا يصلح لشيء.

الأوراق الداكنة المائلة إلى الاحمرار فما إن أقوم بتقسيم (القرف) حتى أترك ليدي حرية أن تتسلل إلى باطن القرف وآخذ تلك الأوراق وأخبئها تحت كوفيتي المقصبة بعد أن أتأكد أن جرفان مشغول بزبائن آخرين. أحياناً كثيرة أنجح في تهريب هذه الأغصان من عينه وبعد أن ينتهي المقوات، أعرض ما جمعته على من لم يجد قاتاً أو ممن لا يملكون مالاً لدفعه مقابل تخزينة محترمة. .

فأخرج تلك الأغصان وأنظمها في ربطة مع إبقاء ما يكفيني وأبيعها لمن يدفع ثمناً يرضي حاجتي وبثمنها أجلب لبناً وبقلاً وحوتاً، وحين تعتقلني عين جرفان قبل أن أودع تلك الأغصان تحت الكوفية يضرب يدي بشدة فأتظاهر بحكة في أعلى رأسي وأعيد تنسيق القرف، وتكرار هذه الحركة يعني بداية الشك، ففي آخر مرة بعت الأقراف، «البايتة» بثمن بخس قبل وصول القات الطري وكنت أظن أنني كنت حاذقاً بهذا التصرف وأن جرفان سيكافئني على صنيعي.

يومها لم تصل الحمير المحملة بالقات الطري فالسيل وقف في طريقها وعندما علم جرفان ببيع الأقراف البايتة، صفعني على مؤخرة رأسي لتسقط أغصان القات المخبأة تحت كوفيتي وما إن لمحها حتى زادت ثورته وصفعني عدة صفعات متلاحقة على وجهي وبصق عليَّ ـ أيضاً ـ وطردني.

من ساعتها عدت أتسكع في السوق بحثاً عن عمل آخر أقارع به هذه الحياة الضنينة.

التسكع مهنة أجدتها منذ طفولتي الأولى لم تتغيّر وإن تغيّرت دروبها، وجدت نفسي هكذا أتنقل بين الحقول والأسواق علني أظفر بقوت يومي أو أن أعود بأي شيء إلى بيتنا الذي لا تشعل به النار منذ زمن ليس بالقصير.

في أيام الزرع يكون حظي أفضل من أي وقت آخر. ففي تلك الأيام تكثر الأعمال ويستطيع الفرد منا أن يقوم بأي عمل كي يحصل على القوت. . فقد كنت أحمل جرار الماء للمزارعين وبالمقابل أحصل على عذقة «أشوطها» وأبيع قمحها أو أقايض به ما أحتاج إليه، وقبل أيام الحصاد أشترك مع المزارعين بذري الحقول وبعد الحصد أشاركهم في حمل (العجور) والذهاب به للمجلاب مقابل أن أحصل على هللات لمحزم (لعجوز) الواحد.

وفي أيام الجفاف أعود للسوق متسكعاً، علني أجد عماً يظللني بصراخه، وإن وجدت أحرص على البقاء تحت ظله على الذهاب للحقول، فهناك تعب وفير لا يقوى عليه جسدي الناحل. كان آخر من استخدمني (عبده حسن)، وقد وجدت ميزانه ناقصاً، فأوفيته، وحينما علم بذلك، دفعني عنه دون أن يستوفيني حقي، وقد أقسم على أني قدم نحس، وأن نحسي سيطارد كل من استخدمني لديه، وقد بقيت زمناً طويلاً أحاول الفكاك مما ألصقه بي، وعبثاً تذهب محاولاتي في استدرار عطفهم، مما جعلني أثور ذات يوم، وأنطلق كعصار بين دكاكينهم قالباً كل ما تصل إليه يدي، ولولا تدخل بعض أهل الخير، لكنت حبيس القلعة.

الحياة تصبح بائسة حينما أعود، وألمح تلك العيون الحبيبة تنتظرني بانكسار فلا أجد شيئاً أقدمه لها، سوى العودة إلى السوق والتسكع بين طرقاته، علني أجد أحدهم لينعم عليَّ بصراخه!

مضى عامان، والقحط يسكن الأرض بضراوة، والسماء بكر، قد بزغت شمسها الحارقة وتطاولت، وأمعنت في صلفها.. تبدأ بزوغها مع الصباح الباكر جالدة متون الربا، وتطلقها علينا «غبرة» لا تنقطع. كنت أسمع طبلة (المطنقر)(*) ترتفع بنغماتها المتناسقة، وصوته الجهوري يتردد بخشونة في مسامعي:

ـ بأمر الشيخ موسى تقرر أداء صلاة الاستسقاء خلف «الكدمة»(**).

ويظل يذرع السوق حتى يمل منه الباعة والمشترون على حد سواء.

هي المرة العاشرة التي نخرج فيها لصلاة الاستسقاء، وفي كل مرة نفترش الخلاء بتضرعاتنا، ورجائنا، ونعود والسماء لا زالت يابسة، وليس هناك جناح غيمة يخفق.

كان درويش (يخلس) مدرعته ـ بعد كل صلاة ـ ويمد يده باتجاه المصلين، ويرفع صوته:

(*) المطنقر: الطبال.

(**) الكدمة: مرتفع رملي.

ـ هل تريدون مطراً.. اقتلوا الكلاب، اقتلوا أنفسكم، وسوف ترتوي الأرض!!

فيتغاضون عنه، ويواصلون طلب الماء بدعاء مستفيض.

في هذا الجفاف لم يعد أمام الناس إلاّ تذكر أيام الخير والأمطار.. يسترجعونها في أذهانهم ومجالسهم بنشوة وحنين متدفق حتى (دفرة الوادي الكبيرة) التي كانوا يستعيذون منها أصبحوا يذكرونها بحنين، إزاء هذه الأيام المميتة، فالأرض متشققة، والحقول مساحات واسعة من الأشواك، والجذور اليابسة، المنصودة.. الرعاة لم يعودوا يزاولون خروجهم الصباحي، فمعظم الأغنام والأبقار تقاسمها مرض لا أحد يعرف كنهه أو من أين جاء، وقد أخذ يستشري بين الدواب ويسقطها تباعاً ولم تفلح طرق العزل من حماية بقية الأنعام، كان يظهر كـ (قوبة) في بطن الدابة سرعان ما تتسع وتتورم وتظهر لها رؤوس عدة حتى إذا ما نضجت انبثت وسال منها سائل أصفر اللون ذو رائحة نفاذة، ودر لعاب البهيمة حتى تظن أن فمها يتقطر ماء عندها تنتفخ الدابة وتنفجر دفعة واحدة فلا يجد أصحابها مناصاً من قذفها على (الكداديف) المنتشرة بالقرية، والبهيمة التي استطاعت أن تنفذ من ذلك المرض، أصابها الجوع فماتت وهي ترغي. في هذه الشوطة غدا الجوع وباء إضافياً يدمر تلك الأجساد المنحنية وأصبح من يجد لقمة تملأ بطنه غنياً. وأمام طوفان الجوع أخذ الناس «يتضورون» حول بيت السوادي.. فقد كان من عادته دفن محاصيل السنوات المتعاقبة في حفر عميقة تحت الأرض ويغطيها بـ (بغة)(*) وحين امتد عمر الجفاف وأخذ الناس يتساقطون من الجوع، قام بإخراج حبوبه المدفونة، وباع صاع القمح بربع حقل هرم، واستمر في الاستحواذ على أرض أهل القرية بكل السبل، وعندما ظهرت الهبة التي بعثها العجم لقريتنا، شعر السوادي بخطر هذه الهبات على مخططه في الاستيلاء على كل الحقول التي تحيط بأرضه الشاسعة والتي يطير فيها الطير حتى يتعب، فتعاون مع الجبلي على سرقة الهبات وعندما غادرنا مبعوث العجم (ذلك الرجل

(*) بغة: بيت حبة القمح.

الأبرص). . عادت الفاقة تكتسح بيوت القرية، وعاد السوادي للاستيلاء على الحقول مقابل إطعام من لديه حقول (بابرة) أما الذين لا يملكون أرضاً فقد طواهم الموت بعيداً عن جشع السوادي وأسلموا أجسادهم للتراب دون مقاومة تذكر.

في هذه الأيام كثرت الجنازات التي تخرج إلى المقبرة لدرجة أن بعض الناس امتهن غسل الموتى ودفنهم.

في السوق كان الناس يتناقلون حكاية مضحكة يقولون:

ـ إن مجموعة من رجال القرية وكبارها اتفقوا على أن يذهبوا للسوادي مطالبينه بمساعدتهم وتوفير القمح بسعر أدنى مما يطلبه منهم وقد أوصلت عيون السوادي خبر هؤلاء الناس إليه، فأقسم على أن من يفاتحه بهذا الشأن سيكون أول من يدفن وقبل أن يجتمعوا به أخبرهم أحد الخدم بما سمع. . فأصابهم الذعر واحتاروا بماذا يحدثونه. . وماذا يقولون له عن مجيئهم، وعندما دخل عليهم المجلس وقفوا جميعاً فاستوى في مجلسه رامياً بصره في وجوههم المغبرة المتقلبة. . فطرقعوا أصابعهم، ومسحوا جباههم وتململوا في جلستهم وظلوا وقتاً طويلاً على هذه الحال. . فشعر بالضيق منهم، وساءلهم عن مجيئهم فصمتوا جميعاً إلاّ الشيخ موسى الذي تحرك كثيراً قبل أن يتحدث:

ـ يا شيخنا. . المقبرة بعيدة وموتى القرية في تزايد. . فلماذا لا نقربها؟!

فضحك السوادي طويلاً وأمر بأن تمد السفرة وأن يأكل الجميع بدون استثناء وقبل خروجهم قال لهم:

ـ اجعلوا المقبرة بجوار العين (الحالية).

فشكروه بامتنان وانصرفوا حامدين اللّه على سلامتهم.

إن أبعد ما تصل إليه ذاكرتي للأيام الممطرة لا يزال ماثلاً فقد كنا نلمح وجه السماء من خلال ثقوب عشتنا الوحيدة. . وجه مخضب بالغمام والبرق يرسم الفزع في وجوهنا الصغيرة. . قبلها كانت أمي تجمعنا من «القبل» وتصيح:

ـ (يا جهلة) الليلة عشوى. . ادخلوا العشة.

وكمن ألقى نقبة سوداء في الفضاء أظلمت الدنيا وكانت الأقدام تركض والأصوات ترتفع من أماكن قريبة:

ـ الليلة كأن الوادي (سيدفع).

يلفح وجوهنا هواء بارد يحمل رائحة الطين، كنت أسمع والدتي تصرخ فيّ:

ـ إجرِ يا موتان للعشة.

كنت أحن لأن أتجه صوب الوادي وحين هممت بذلك، أمسكت بيدي ودفعتني أمامها وهي تحتضن جيلان بضيق:

ـ لك (بحران)(*). . . أدخل العشة.

غدت السحب كسرب طيور مهاجرة بلغت نقطة التوقف تمازجت وتداخلت. . شق وجهي برق شديد اللمعان وتبعته فرقعة مدوية لرعد غاضب، لينهمر الماء فضفاضاً. . فتحركت باتجاه العشة بخوف. كان المطر يهطل بفجاجة وهي تضمنا نحو حجرها وصوتها يرن بخشوع:

ـ (سبوح قدوس رب الملائكة والروح).

وتستحثنا أن نكرر خلفها، فتخرج الكلمات متجمدة. . سب وح قد وس رب. . . فيزمجر الرعد لتنطلق أفواهنا بالذكر:

ـ لا إله إلاَّ اللَّه. . لا إله إلاَّ اللَّه. . اللَّهُمَّ حولينا ولا علينا.

تساقطت اللبينات الداخلية للعشة على أجسادنا، وظهر (الصرب) مبللاً، يتقطر بالماء، ويعرينا للسماء، التي ما فتئت تستجمع ماءها، وتلقيه علينا مدراراً. . . شعرت بموجة من البرد تسري في جسدي الصغير، فتناولت «خرقة حمراء»(**)، وغطيت بها جسدي المبلل، لتصرخ فيّ زاجرة:

ـ اقذف بها بعيداً. . . أتريد أن تميتنا!!

ـ أشعر بالبرد يا أمي.

(*) بحران: مرض يؤدي إلى خروج جزء من الأمعاء الغليظة أثناء التبرز.

(**) خرقة حمراء: هناك أسطورة تنص على أن من يحمل اللون الأحمر أثناء المطر تصيبه صاعقة.

ـ من يخرج اللون الأحمر في وجه المطر فهو يعاديه، لذلك يرسل على من يحمله (شطفة)(*) برق تحرقه ولا تتركه إلاّ بعد أن تخلفه كـ (أم تكسوس)(**).

وقبل أن أقذفها من يدي، انشق المدى عن توهج برق قوي، أغشى أبصارنا، فجذبتني إلى صدرها بهلع:

ـ ألم أقل لك؟!

لذت بحجرها، وأنا ممسك برأس صالحة، وهي تبكي:

ـ وه (يماه) لو كان أبي هنا.

تنهدت تلك الشجرة حتى هرب ثديها من فم جيلان، فبكى.. لتضمه مرة أخرى إليها وتسند رأسها على رؤوسنا.

في الخارج ليل، ومطر، وفي قلوبنا تجري غصة مرة، ونحن نتكوم فوق بعضنا اتقاء لرعشة البرد، ورجفة الخوف، وفي (قبلنا) الفسيح تناثرت حزمة حطب، و«قيروانة»، وجرار نصف مملوءة بالماء، وغنمتان، وبقرة، وحمارنا الأعرج، و«عجار» من القمح الأبيض، استقر خلف العشة، تغطيه أمي ـ دائماً ـ ببقايا القصب اليابس.

كانت الأرض تحتفل بجريان الماء في مناكبها، ورائحة الوادي تفور من جنباتها تلك الرائحة المسافرة التي ما تفتأ تذكرنا بتلك الحقول الجالسة في أسفل القرية تنتظر الماء، لا شك أنها تتهيب من ملاقاته وحيدة، كعروس تركت للتو مع عريسها، فينبثق بداخلها ذلك الخوف الغامض اللذيذ.. تلك اللحظات القصيرة السعيدة التي تنفرج بعدها الحدود والفواصل.

لا زال المطر يشتد ويبطئ وكلما اشتد اتسعت ثقوب عشتنا وأصبحت رائحة الوادي تقف على أنوفنا، فينتابنا خوف متوتر.. كانت أمي تتمتم بين لحظة وأخرى:

ـ سيفيض الوادي بلا شك.

(*) شطفة: صاعقة.

(**) أم تكسوس: هو الجذع الذي يحرق ويصبح متفحماً.

كل شيء مبلل حتى أصواتنا وذاك الفانوس المبتل غادره ضوؤه تاركاً ثماني أعين تبحث عنه في العتمة، وبين لحظة وأخرى ينقشع وجه السماء عن برق متوهج فنلمح الكون يتصبب ماء وبرد فيلح صوتها: موتان أنت قريب من الفانوس. . ناولني:

ـ (أوه يا ولداه. . أنا برد).

ترفع رؤوسنا من على صدرها، وتمد يدها، لتتخبط في عدة اتجاهات. . تمسك به ثم تتركه:

ـ نسيت. . ليس هناك أعواد كبريت.

يفرقع صوت الرعد حاداً، فنرتمي في صدرها. . يرتفع جيلان صوته بالبكاء، ليوقظ في داخلي الدفء، وأتمنى أن يواصل بكاءه، ذلك البكاء الذي يحرق السكون، ويشغلنا عن هذا الجو الماطر المخيف، لم تمهله أمي في أن يتمادى في بكائه، فسرعان ما عبأت فمه بثديها، فأخذ يتلمظه، ويتلهى به ويغرق في الصمت، وما إن يدوي الرعد حتى أتشبث بصدرها بعنف، فيأتي صوتها خاشعاً:

ـ سبوح قدوس، رب الملائكة والروح.

فجأة ارتفع صوت صالحة بالبكاء، فيخالطه صوت أمي مؤنباً:

ـ أنت مدلالة. . لماذا تبكين؟؟

لم تصغِ لإجابتها، وانشغلت بترديد بعض الأدعية، مما مكّن صالحة من مواصلة بكائَها، لينبش الوسواس صدورنا، حين سكبت خوفها.

أوه يا أماه. إنني خائفة أن تصيبنا صاعقةز ألم تسمعي بليلى إبراهيمية، وزوجها وأولادها، حينما أصابتهم صاعقة وهم متماسكون. . باعدي بيننا يماه. . فلأن أصابت الصاعقة واحد منا خير من أن تصيبنا جميعاً.

زجرتها أمي بعنف:

ـ اذكري اللّه.

ورفعت صوتها في محاولة لإبعاد تلك الحادثة عن خاطرها:

ـ سبوح قدوس رب الملائكة والروح.

كان الماء يخترق (ثمام) العشة، فتتساقط على رؤوسنا كسف من لبنات العشة، فنلوذ بحضنها، فتضمنا إليها بلهفة، وجزع.. خشخشة صالحة لا تزال طرية، ندية، تشارك المطر العاصف زلزلة طمأنينتنا الضحلة، فيورق صوت أمي ليناً، عاتباً:

ـ أنت مدلالة أكثر من اللازم.. ألا زلت تبكين؟؟

بلعت غصتها المتحشرجة، ونفرت من حجرها:

ـ وه يا أماه.. أنا خائفة أن تسقط العشة فوق رؤوسنا.

وكجمرة التصقت بنا وخبأتنا بقلبها، وانطلق لسانها فاتراً:

ـ لا زالت عشتنا قوية.. لا تخافي واقلعي عن أفكارك السوداء.

لا زالت لبنات العشة تتساقط علينا والماء يطفو، ويلامس أقدامنا المدلاة، وخوف متوحش السواد، يتمدد في قلوبنا الصغيرة.. ثغاء الغنمتين ارتفع فوق طقطقات المطر، وظل صوتها يحوم بآذاننا مبدياً حيرته لخرير الماء المنسكب بغلظة.. الرعد يدكّ تلك الطمأنينة التي نبتت من تلاحمنا، وبكاء صالحة يمتد.. ضممتها إلى حجري، فلطمتني، وتبادلنا اللطمات، والدموع، والأحضان.. جيلان لم يعد أمامه إلاَّ البكاء دون أن يحاول أحدنا إسكاته.. لامستنا بأصابعها، وأوصلت بين أيدينا، وبكت بحرقة، وهي تخبئنا في صدرها، فأقبلنا عليها نقبل أي طرف نصل إليه منها، وعندما أوغلت في نشيجها تجمعنا بحجرها نسكب خوفنا، ودموعنا.. فجأة صمتنا جميعاً لأن المطر واصل انهماره بتدفق، وأفاق صوتها بارداً واهناً:

ـ منذ سنين طويلة، في سنة (دفرة الوادي) الكبيرة.. تلك السنة التي حمل الوادي نصف أهل القرية ومضى.. في تلك الأيام كنا لا نزال عروسين لم يمضِ على زواجنا سوى أسبوع.

قدم من قرية بعيدة.. كان غريباً غامضاً، كان دائم التجوال، حذر الحركة، يحمل في مدرعته شالاً ملطخاً بالدم.. سكن في آخر القرية بالقرب من الحقول اليمانية، وظل لزمن طويل مرمياً في تلك الناحية، لا أحد يعرف شيئاً عنه، حتى ذات نهار أصبح اسمه مزروعاً على ألسنة أهل القرية، وتناقل

الأهالي حكايات عديدة عنه، فيقولون لاذ بالفرار بعد أن قتل أحد رجال قريته في شجار على البئر، وعندما طلبوه خرج ليلاً ولم يدركوه، وقد اختار قريتنا دون سائر القرى ليختبئ بها، لكونها مأمونة من طرق الغرباء، وتتظلل بصوت وبجبروت السوادي، بحيث لا يجرؤ أحد على إتيانها مطالباً بدم، فدماؤنا هنا ملك خالص له.

وآخرون يقولون عنه:

ـ إنه من جماعة النمالية، والتي (شايمت)(*) وتركته خلفها بعد أن جف صوته، وفئة أخرى تقول: بل هو الذي ترك النمالية بعد أن رأى أخته تقاد إلى داخل الحقول لتمتع أحد المزارعين فاغتاظ منها وهم بقتلها، ولكنهم كتفوه، وغادروه ليلاً، وآخرون يقولون عنه: إنه قاطع طريق استطاع أن ينفرد بقافلة، ويسلبها بالكامل، وخوفاً من زملائه دفن مسروقاته بعيداً، واختفى عن الأعين، ولم يجد أفضل من هذا المكان مأمناً من مطارديه.. وفئة أخرى تقول عنه: إنه حاد للعيس، كان له صوت رخيم، وقد تعرض للدغة حية، ففقد النطق، فاستغنت عنه القافلة ومضت تخب بلا حادٍ.. وآخرون تناقلوا.. إنه جمال فقد بعيره في إحدى (دفرات) الوادي، ولا زال يجمع المال لشراء جمل، ليعود إلى مهنته، كان قريباً من كل الألسن وينظرون له على أنه غريب مستوحش لا أحد يكلمه، ولا يكلم أحداً، يستأجره المزارعون في الحراثة، أو الحصد، أو تفريع مياه الوادي صوب حقولهم، وأحقر عين لا تلتفت إليه، ولم يدخل ذاكرة الناس ـ كرجل ناصح ـ إلاَّ في أحد الصباحات حين كان السوادي يسير بين عبيده، ومر بجوار عريشه، وكان جالساً خارج العريش، واضعاً ساقاً على ساق (يوضن)(**) حبالاً من سعف الدوم الخضراء، فاستنهضه السوادي بعنجهية، فلم ينهض، فضربه على هامته صارخاً:

ـ يا كلب ألا تعرف تبجيل السادة؟!

(*) شايمت: اتجهت باتجاه الشمال، والمشايمة يقصد بها الاتجاه إلى الحجاز.

(**) يوضن: يجدل.

فاستوى من جلسته، وجذب السوط من يد السوادي، واقتص لنفسه، فتجمهر عليه العبيد، وألقوه أرضاً، وظلوا يجلدونه حتى تفتح جسده عن ينابيع للدم، والآلام، وأمرهم أن يقذفوا به بين الأحراج ليكون مأدبة للحيات والزواحف. يومها كنت عائدة من الحقل ـ بعد أن زودت أبي بزوادته اليومية ـ حين كان الغروب يتلهى على مدار الأفق ـ فتبدو القرية من بعيد كجمرة تشع باحمرار باهت ـ، نافثاً ليلة موحشة.

وكان من عادتي أن أسير شرق الحقول حيث تنشط الحركة، فالرعاة العائدون يصدرون جلبة بهش أغنامهم، وأغنياتهم المتعبة، ويسير المزارعون واضعين عصيهم، أو فؤوسهم على عواتقهم، وقد تدلت أيديهم من عليها، ورؤوسهم منكسة، وكأنهم يحملون الأرض، ويدرون بها في كل الاتجاهات (كثور الأرض)(*)، وهناك الصبايا يحملن على رؤوسهن الحالمة علفاً، أو حطباً، وينهبن الطرقات بفتنة طاغية، وكان يداهمني شعور مبهم بأني أجملهن، وكنت غالباً ما أتعالى عليهن منطلقة من ذاك الشعور المبهم، وكنت حين أهبط للحقول من أجل الحصاد، أو الحرث أشعر بالعيون تقف على جسدي فأزداد غروراً وتيهاً، فالحماة والمزارعون يختلقون الأقاويل كي أتحدث معهم، فأتجاهلهم، وأخبئ ابتسامة نضرة تحت مظلتي التي تقيني أشعة الشمس، هو الوحيد نفر من الحديث معي، وكنت ألمح عينيه في خلسة منه تتبعني أينما ذهبت، وعندما أقترب منه يتوحش، ويغدو جواداً كريهاً سرعان ما يغادر المكان راكضاً.

في الصباح الباكر تناقل المزارعون خبره كما يتناقلون سير الأبطال، ولم يكن يبهجهم في ذاك الصباح إلاّ هذه الحادثة التي قام بها هذا المستوحش، كانوا يرددون حكاية بطشه بالسوادي كإحدى المعجزات، ويضيفون أنهم لم يتمكنوا من رؤية دم السوادي لأن عبيده أبعدوهم عنه قبل أن يتأكدوا من

(*) ثور الأرض: ثمة أسطورة تتردد في الجنوب تنص على أن الأرض تقف على قرن ثور ومع مرور مائة عام يتعب الثور فيحول الأرض على القرن الآخر وهم بهذه الأسطورة يفسرون ظاهرة الزلزال.. فإذا حدثت رجة في الأرض. قيل: نقل الثور الأرض على قرنه الآخر.. وهناك بعض الناس من يحتفل بهذه الظاهرة.

رؤية دمه، وأخذوا يتبادلون الهمز واللمز عن الجن الذين يحمون السوادي، وقد ادعى بعض الأجراء أن علاقة نسب تربطهم بهذا الغريب، ولم تدم هذه الدعوى خوفاً من العيون التي انتشرت في القرية والقُرى المجاورة، وقادت كل من يعرف هذا الغريب إلى حتفه، حيث كان يطلب منهم أن يدلوا بما يعرفونه عنه وعندما يعجزون عن ذلك تكون نهايتهم بطعنة تتغلغل بين الأحشاء.. بعض الأهالي انتابتهم حسرة على فقدان ذلك البطل بداخل القلعة، أو موته على يد أحد أعوان السوادي. كانت تمر أخباره بمسمعي، وتجري بعروقي، فأشعر بلهفة وحنين لرؤيته، وليركض بعدها كيف شاء، ولا أدري لماذا قررت - اليوم - السير من جوار عريشه المشرع للريح.

لا زال قرص الشمس معلقاً بالفضاء لم تقطفه أنامل الليل بعد، وثمة ريح منعشة عبقة برائحة (العجور) المتنامي تملأ أرجاء الوادي، وقد انعطفت بمحاذاة وادي عباس، وكان عليَّ أن أقطع هذا الوادي قبل حلول الظلام لأصبح في داخل القرية. فبعد أن قرر أبي النوم بين الحقول بجوار بقرته التي كانت تُعاني من طلق وشيك، دفعني للعودة، وأوصاني بالإسراع قبل ولوج الليل. فتلكأت في مشيي وأنا أبحث بعيني عنه، وعندما لم أجده قررت السير بمحاذاة عريشه.. خطوات.. خطوتان.. خطوة، ها أنا أقف مباشرة أمام عريشه، لا أحد هناك سوى ريح عابثة تلعب بالخصف المسدل على بوابة العريش، وقفت طويلاً عله يخرج فأرى تلك الملامح التي تسكن في داخلي عنوة، وتحرقني كلما عبر خاطري، كنت مشتاقة لأن أطفئ هذا الشوق الملتهب بدمع عينيه المترقرق في حوضها الواسع الأسود، درت بأركان العريش الأربعة، وكلما أنهيت دورة منيت النفس بأخرى علني أراه، وظللت أحوم حول عريشه حتى شعرت بالاختناق، وانتابني شعور بالعجز، فكدت أبكي، وأنّبت نفسي كثيراً على هذا التصرف الطائش، وتفاقم الضيق بداخلي، ولكي أبدد وحشة طارئة حطت على أنفاسي تناولت حجارة وقذفت عريشه مراراً، وأطلقت زفرة حادة، وأسرعت بمغادرة هذا العريش النائي فكنت أسير مخترقة مساحة شاسعة من أشجار (الحلفا) ذات السيقان الرفيقة الجارحة، وقد اخترت هذا الطريق اختصاراً للوقت، ولكي أسقط بالوادي

الكبير ثم أعرج لطريقي المعتاد. . وقد اخترت أن أقطع شريطاً ضيقاً وقصيراً من الأحراج الشرقية والتي تكون ـ عادة ـ مطروقة من قبل بعض الفلاحين العائدين إلى قراهم الواقعة على خاصرة الوادي، هذه القرى التي يقطنها أهلها من وقت مبكر دون أن يغيروا مساكنهم بالرغم من الحوادث المرعبة التي جرت لهم بين هذه الأحراج، كنت أسير وتلك الرغبة الملحة لا زالت تطاردني، وقد هممت مراراً بالعودة علني أراه، ولولا خجل اعتراني لعدت أنتظره حتى يعود لعريشه، في منعطف ضيق من تلك الجهة تغدو (الهيج) أكثر كثافة والتصاقاً، فاخترقتها متسلحة بخنجر كنت أحمله كلما جئت إلى أبي، فجأة تناهى إلى مسامعي أنين خافت مكتوم، انكمشت، وتقافزت إلى مخيلتي سيرة (النباش)(*)، فتسارعت نبضاتي، وتلعثمت خطواتي، وظللت متحفزة شاهرة (خوصي) إلى أعلى، منتظرة أن يداهمني هذا الصوت من مكان قريب، بحثت عما ألوذ به فلم أعثر على شيء يقيني أي هجوم مباغت، وكدت أنخرط في موجة بكاء حاد، ومكثت في مكاني وقتاً طويلاً دون أن تحدث أي حركة، سوى صوت يمتد بزفرات متزاحمة الثقل، تثبت قليلاً، وسرت بحذر باتجاه الأنين، وكلما اقتربت تلون الصوت، وغدا جرحاً يفور بألم، وعلى ضوء الشمس المخضب بحمرة فاقعة، رأيته مقذوفاً بين أشجار (الحلفا) كجمل منحور بفلاة قاسية الروح، والغروب يواري بعض أجزائه، وأشجار الحلفا (تحشمش) تحت تحركاته البطيئة المتألمة، اقتربت منه، ومددت يدي، وقلبته بجهد ـ لتعلق بيدي دماء حارة لزجة ـ نفس العينان التي تطاردني، ويركض صاحبها كجواد كريه، كدت أبكي، واحترت فيما أصنع، فكلما أسندته تقاطر أنيناً، وتخاذلاً، فتركته، ومضيت جزعة، كنت ألتفت إليه

(*) النباش: هو حيوان أسطوري أشبه بالضبع وتقول الأسطورة إن من يؤذيه يصبح هدفه بعد الموت. . حيث يصيح به:

حلالتي بك وبعقب عقبك

أي أن الشخص المخاطب حل له هو وذريته، فإذا مات قام النباش بنبش قبره وأكله، ولذلك يخرج أهل المتوفى الموعود للسهر على قبر المتوفى لثلاث ليال بعدها لا يقدر النباش على إتيان خصمه.

وأنا أبتعد عنه، فألمح عينيه تتبعاني بنداء ذابل، فركضت ودموعي تسابقني، عدت أعدو صوب الحقول بلا هدى، والظلام يسد أمامي الطريق، وتلك (الهيج) تغدو أشباحاً مرعبة بهذا الليل المتصابي..

كنت أصرخ بأعلى صوت:

ـ السوادي قتل الغريب.

فيعود الصوت معبأ بالتوجس والرعب، فأزداد رعباً، وركضاً....

دوّى الرعد فالتصقت بها، انهمر المطر بقسوة، وتساقطت أجزاء كبيرة من لبنات عشتنا، فهاجت أصواتنا بالبكاء، لتتوقف عن سرد حكايتها بضيق مكتوم، وتنشط لترديد جملتها التي ما زلت أحفظها:

ـ (سبوح قدوس رب الملائكة والروح..).

فنسابقها في ترديد تلك الجملة بهمة وتضرّع، حتى إذا خمد صوت الرعد وزالت وحشته من أعماقنا، وبقي انهمار المطر، وومضات خاطفة لبرق عجوز أخذ يشحذ ضوءه بالأفق بتكاسل، ساعتها عاد إلينا بعض الدفء، مما جعل صالحة تستحث أمي لإكمال حكايتها:

ـ هه يا أماه.. أكملي حكايتك.. من هو ذلك الرجل؟!

انتعش صوتها، وبدا أكثر حيوية، ضمتنا إلى حجرها، واخترقت بحديثها الظلام والبلل:

ـ ما إن وضعت الخبر في أذن أبي حتى حمل فانوسه، ومسحاته، ونادى على بعض حماة الحقول المجاورة، وسلكوا طريق الأحراج الشرقية يدمدمون في حين كان الليل يستفحل بين تلك الأحراج، ويحفز فئران الحقول، والضفادع، والجنادب لأن تتمادى، وتتقارع بأصواتها، وكنت أسير أمامهم كدليل ينتظر هبة سنية لهذا الاكتشاف، وما إن بلغوا مكانه حتى كان أقرب إلى الموت من الحياة، فدماؤه تترقرق أسفل جذعه الفارع، وقد لاح وجهه على ضوء الفانوس ذابلاً غامقاً، وأنفاسه تجاهد في مواصلتها البطيئة القصيرة في امتداد جسده الفارع بقليل من الحياة، انثنوا عليه، وحملوه على دابة، وعادوا به إلى داخل المزارع، وقد أوصى أبي اثنين من المزارعين بإيصالي

للبيت، بعد أن أوصاني بكتمان خبر الغريب.

على مدخل البيت كان الفانوس معلقاً بيد أمي، وصوتها يكاد يذوب:

ـ جالس (تتمنظر يا عويلة)(*) وأختك لم تعد بعد.. أخرج ابحث عنها.. خيرة اللّه عليك.. استحي.

من طفولته ـ كان جبريل ـ متخاذلاً حتى إن أبي لا يركن إليه بشيء، فيتركه في الدار، ويمازحني:

ـ أنتِ رجل البيت من بعدي.

كانت قد مدت خطوتها من العشة قاطعة (قبلنا) الواسع، فرأتني على ضوء الفانوس، وبصحبتي من أوصاهما أبي بإيصالي، فأقبلت تمد خطواتها نحوي، وصوتها الحانق يكاد ينفجر:

ـ يا غارة اللّة يا رعنا.. كل هذا الوقت في (الزاهيب).. ماذا حدث.. هل حدث شيء لأبيك؟!

دفعتها أمامي بعد أن شكرت من قام بإيصالي:

ـ ليس هناك ما يقلق، فقط البقرة كانت تولد وأخرتني.

ـ هه بشرى.. ماذا وضعت؟

أجبتها من طرف لساني:

ـ في الليل لا أحد يرى.

ودلفت إلى العشة، وجبريل لا يزال (يتمنظر)، شعرت بالإشفاق على هذا الذي يدعونه أخي، وتساءلت بحسرة.. كيف سيصبح حالنا لو تركنا أبي ذات يوم تحت ظل هذا الرجل؟

كان يأتزر (بحوك) أبي ونصفه الأعلى عار يظهر ثديين سمينين وشعرات قليلة تناثرت بصدره الرخو والذي لا يتناسب مع رجولته المبكرة ويزين رأسه بـ (عزاني)(**)، وعندما رأني سألني بلهفة:

(*) تتمنظر يا عويلة: تتمنظر تأكل قوائم السنابل الخضراء، وعويلة كلمة تقال للرجل إذا أريد تشبيهه بالمرأة التي يعولها أهلها.

(**) عزاني: نوع من أنواع الزهور.

ـ لم يرسل لي أبي معك بغصن قات؟!

لم أرد عليه، ولم يكن بوسعي أن أتشاجر معه، فكسله، وعدم اهتمامه بأي شيء يكاد يكون ماحقاً، جذبتني أمي لتناول (هرشتي)(*) فأبيت حيث لم تكن بي رغبة في الأكل، فالرعب يملأ كل جوانحي، كنت فقط محتاجة إلى نوم عميق، فرميت جسدي على (شبريتي) ونمت.

استيقظت مبكراً، وحاولت جاهدة إخماد تلهف أخذ يتقافز بداخلي، كنت مشتاقة لأن أقذف بنفسي بحوض تلك العينين السوداوين، ومن أجل هذا الخاطر الملح كنت أتحرك كالملدوغة لا أهدأ في مكان، فقد ذهبت إلى ركن الدجاج ونثرت لها الحبوب، ولم أسعد ـ كالعادة ـ حينما رأيت دجاجتي القوقبية قد أفقست ثمانية من الصوص والتي أخذت تنز بصوصوة ضعيفة، وتتقافز من تحت جناح أمها بشغب مبكر، وقمت بكناسة جميع أركان بيتنا، «واريت» (الميفى)، وخبزت (جمارتين) وتفقدت مطرح الغنم، وحلبت بقرتنا.. قمت بأعمال كثيرة والنهار لا زال بطيئاً لا يكاد ينفك.

كنت أنتظر أن تكلفني أمي بحمل زوادة أبي كي أنطلق إلى هناك، وأسكت هذه اللهفة المتصاعدة في أوردتي، وعندما حان وقت الذهاب، طلبت من أمي أن تحملني بالزوادة، ولكنها تمنعت:

ـ أنت متعبة.. سوف أكلف جبريل بالذهاب بها بدلاً عنك.

فكدت أنهار بالبكاء، لولا أنني تذكرت أن جبريل ذهب لـ (المطينة) (يتمغدر)(**) ولن يعود إلاّ بعد العصر، فسكنت وكل خوفي أن يأتي جبريل فجأة، وعندما تأخر حمّلتني بالزوادة على مضض، وأوصتني بالاحتراس، وأن لا أتأخر، فانطلقت للحقول وخطواتي تلتهم الطرقات قفزاً، وفي داخلي مزيج من الخوف والفرح، وما إن وصلت حتى بادرت أبي بالسؤال:

ـ أين الغريب؟

(*) الهرشة: الوجبة الرئيسية لمن يعمل إلى ما قبل الغروب حيث تقدم له بعد المغرب أو قبله بقليل.

(**) يتمغدر: يسبح.

ـ داويناه، ودفعناه لمغادرة القرية قبل أن يعلم السوادي بوجوده.

شعرت بغصة حارقة ومُرّة توقفت بحلقي دفعتني لأن ألقي بين يديه بـ (زوادته) وأعود حتى دون النظر إليه، أو إلى بقرتنا التي أنتجت والتي أوصتني أمي أن أخبرها بما وضعت، كان لا يزال هناك شعور غامض يدفعني للبحث عنه، وقد عنَّ لي أن أسير في طريق البارحة نفسه، وكنت أمني النفس أن أراه جالساً أمام عريشه، كدت أتراجع لولا أن نفسي أخذت توسوس لي بأن من يقف أمام السوادي بهذه الطريقة لا يمكن أن يغادر مخلفاً دمه وراءه، سرت بين اليأس والأمل، وعندما بلغت عريشه كان ذاك الجواد الكريه قد غادر اصطبله نهائياً، ولم أشعر إلاً وأنا بداخل عريشه، كان عريشاً وضيعاً غرزت دعائمه بأشجار السرو، وغطي بثمام أخضر في جنباته الأربع، وتنافر (صربه) وقد تواصل بعضه برباط جدل بنبات الحلفا، وبقي سقفه فاغراً عن فجوة كبيرة تتدلى منها حبال ربط في كل منها حزمة من شجر المرخ منبئة أن صاحبها كان يهم بسقفها، وبداخل هذا العريش أشياء عديدة تناثرت بدون ترتيب أو تناسق، ففي الصدر قبعت (شبرية) (حوساء) وأسفل منها استقرت (معجنة) كان مبللاً بها (مصنف) و(مدرعة) متهتكة، وفي الركن الأيمن تناثرت (حيسية) و(كوز) مشقوف، (وبلبلة) فارغة من الماء، وعلى وتد صغير ـ في صدر العشة ـ علق شال متسخ ملبد بدماء يابسة، لا أدري لماذا امتدت يدي إليه، وسحبته، وعلقته على كتفي وغادرت المكان.

بعد هذه الحادثة لم يعد يتحرك في داخلي إلاً حنين جارف، يسلبني دموعي في أحيان كثيرة، وكلما خطر ببالي ذاك الغريب أيقنت أنه غادر بجزء مني معه، وأخذت أوطن نفسي على هذه الحال، وقد اعتراني شيء من الخمول وعدم الالتفات لأمور كثيرة تشغل فتاة في مثل عمري، كما أنه لم تعد بي رغبة للذهاب إلى الحقول، أو تزويد أبي بزوادته اليومية، وقد افتعلت حادثة كي أتجنب الذهاب لأبي بزوادته.. فقد قطعت (كرتتي) في أماكن متفرقة، وخربشت صدري، وعدت لبيتنا دامعة وأخبرت أمي بأن ذئباً كاد يفترسني، مما جعل أبي يجبر جبريل على إحضار زوادته إليه، وظللت في دارتنا لا همَّ لي إلاً تفلية النساء اللاتي يأتين إلى أمي، وقد اكتسبت شهرة في

استخراج (الصيبة)(*) والقمل لا تضاهيني فيها إلاَّ عجوز في دير العباسية، وإذا مللت ذهبت لألعب (صنبا)(**) وقد كنت ماهرة في قذف (الصنب) حيث أجعل معظمه (يشرح)(**) مما أكسبني عداوة من قبل بعض اللاعبات حتى أنني تشاجرت مع إحداهن وبلغ شجارنا أن رقدت كل منا يومين متتاليين وهي تئن من آلام متفرقة بأنحاء جسدها، وفي المساء أجلس لسماع الحكايات في بيت (الشاقي) فقد كانت عمته تولد لنا الحكايات التي لا تبعث السأم إلينا، حتى إذا جاءت أيام الحصاد كان لزاماً عليّ أن أنتقل إلى سقيفة أبي لأكون بجواره، وكنت من الصباح الباكر أحمل (محشي) وأنزل للحقول أشارك الأنفار في الحصد.

غالباً ما تتقدمه جلبة طاغية، فرفعنا رؤوسنا وعيوننا من على قوائم القصب وتطلعنا إلى موكبه، ومن بعيد ظهر ممتطياً بغلته البيضاء، ومن خلفه، وأمامه تناثر العبيد، فيما كان يتأرجح على ظهر بغلته بزهو مفرط، سار في حقولنا، وقبل أن يعبرها توقف أمامي، ورماني بنظرة ـ حاول جاهداً أن تكون ودودة ـ فاحصة، ارتعدت لها، وتشاغلت بالانكباب على الحصد.. صرخ فيّ، فأهملته، فترجل عن بغلته، ليحف به العبيد من كل اتجاه، نحاهم عنه، وتقدم صوبي، ووضع وجهه بين عيني:

ـ ألا تسمعين؟

وبنفس ضيق متمرد أجبته:

ـ ماذا تريد؟

فأطلق ضحكة في الفضاء، وعبر حقلنا وعيناه معلقتان بي، تلك العينان اللتان أصبحتا تطاردانني في كل مكان، فأجدها في (الحسى) وبين المراعي، وعند التعليف، أو الاحتطاب، كنت أشعر بغبطة كلما أذللته، وكان يؤلمني بذاءته، الشيء الوحيد الذي يفرحني لرؤيته، هو تذكري لذاك الجواد الكريه

(*) دويبة أصغر من القمل تعيش في الرأس.

(**) أصداف بحرية.

(***) يشرح: تصبح فتحتها ظاهرة للعين.

الذي استطاع أن يعفر جبينه ويذيقه طعم الذل، ساعتها فقط تداعبني بسمة خفيفة، ويجتاحني حنين دافق.

في ذات صباح نادى وقد مدت الشمس أولى خيوطها الفضية الناعمة بين رؤوس السنابل، انتشرت مجموعة من المزارعين و(المكارين)(*) بين الحقول وهم يتمنطقون (محشاتهم) ويتوزعون على شكل صفوف متوازية، كل مجموعة تقوم (بصرب) حقل من الحقول وبقيت مجموعتان إحداهما مهمتها قطف أعذاق السنابل، والأخرى ربط القصب المصروب على هيئة محازم عجور، كنت منحنية أجز بمنجلي أعذاق السنابل وأجمعها في (مصرب)(**) علقته على عنقي في حين كانت ثمة مجموعة تثير فينا الحماس بأغان خلفها النمالية في قريتنا بعد أن مضوا إلى بلاد أخرى، وكلما سمعت غناءهم هب بداخلي خدر من الحنين، فأمسح تنهداتي بأواخر تلك المقاطع التي تردد، وأغرس عيني بأسفل الأرض خوفاً من افتضاح أدمعهما، أصبحت لا أشعر بلذة لتلك الأعين التي تنهب أنوثتي، وكلما تذكرت عينيه ازددت تقوساً وهروباً من تلك العيون الباحثة عن عيني.

توقف المزارعون عن الغناء، وارتفع صوت «مزمير» من أواخر الحقول، كان نغماً دافئاً مشحوناً بالشجن، فيسيل بأعماقي عذباً ويدعوني للبكاء، وكلما اقترب ندت دموعي.

كان أبي يراقب الأنفار الذين استأجرهم بعين يقظة، فكان يدور بينهم، أو يستند على (ميهره) وسطهم وتظل عينه تتابع كل يد وإذا رأى تباطؤاً من أحدهم هوى بـ (ميهره) على مؤخرة لمتخاذل دون أن يفكر في العواقب التي يمكن أن يحدثها (ميهره)، وكنت أخشى إن أنا رفعت رأسي أن يصيبني العقاب نفسه، فبقيت منحنية تتساقط من تحت يدي قوائم السنابل حتى إذا أنهيت الصف، عدت أجمع ما نصدته على شكل محازم، وأربطها بإحدى القوائم الخضراء التي تتثنى وتستحيل إلى وثاق محكم.. صوت «المزمير»

(*) المكارين: المستأجرين.

(**) مصرب: أشبه بالزنبيل لكنه يختلف عنه بكبر الحجم.

يقترب ويصبح أكثر وضوحاً، وظل يتردد وحيداً حتى ارتفع صوت مثقل بالغناء.

وما إن تسلل الصوت إلى داخلي حتى شعرت أنني أتهدم، رفعت بصري، كانت عيناه تقفان عليَّ كما مضى.. تلك العينان اللتان أحرقتاني ها هي تعود.. خشيت أن يركض كجواد كريه، فأرخيت بصري فانكسر الغناء وتبقى صوت «المزمير» يترقرق بحزن ووحدة... سمعت أبي يصرخ بفرح:

ـ محمد ماذا جاء بك؟

فتوقف صوت المزمير وتمَّ بينهما عناق حار، وخرجا من بين الحقول متعانقين باتجاه العريش، فقذفت بـ (محشي) وظللت في مكاني أواري دموعي الناضجة.

هكذا اجتاحني الفرح دفعة واحدة، وعندما عدت إلى منزلنا كانت أمي تقف لاستقبالي عند مدخل البيت، وقد تدلت من عينيها نشوة غامرة، أنزلتني من فوق الحمار بلهفة، وساعدتني على تخريط محزمي العجور وهي توصيني بالاغتسال، كانت هيئتها على غير العادة، وبعد أن أزحت شد الحمار وألقيت به بجوار جرار الماء توجهت نحو عشتنا الكبيرة، فأوقفتني بصوت خافت:

ـ هيه (عودي) عندنا ضيف.

تقافز بداخلي فرح كثيف، كنت أجزم أن ضيفنا ما هو إلاَّ ذاك الجواد الكريه، فانثنيت إلى سقيفة تجاور العشة من الخلف، وحللت (مصري) وجدلت ضفائري فيما كانت عيناي ترعيان الأحلام البكر في خاطري.

في المساء جاء أبي وهمس بأذني لتتسع عيناي بالفرح، وجلس ينتظر جوابي وعندما رأى ابتسامتي تتقافز من بين عيني، اقترب مني وقبل رأسي وخرج.

ثم توالت الأحداث سريعة عاصفة، ولم يدر بخلدي أن يحدث ما حدث، ففي يوم زواجي سرت على دم أبي، وقد كان جدي حريصاً على ارتباطي بهذا الجواد الكريه، وكنت حريصة على أن لا أجعله يركض بعيداً

عن عيني. ففي اليوم الرابع من مقتل أبي أصر جدي أن يقام (الهوب)(*) وقد اخترق معارضة جميع الأهل بإصرار غريب، وقد طالب الكثيرون بتأخير موعده إلى ما بعد انتهاء العدة كي تتمكن أمي من الحضور، وأمام صلابة رأس جدي زفوني لبيت عريسي.. كان الحزن والفرح يعتركان بفؤادي... كي أزف ودم أبي لا زال يابساً بالحقول لم يجف بعد.. ولا زالت أمي تسفح دموعها في (امربع)(**)، مضى زواجي صامتاً كصمت القبور، فلم أتحنَّ، أو أتخضب، أو يدق لي طار، وقد تبعتني أقاويل كثيرة كان أبشعها اتهامي في شرفي ولم يكن هناك من مبرر أمام نساء القرية على استعجال إقامة (الهوب) إلاَّ الخوف من الفضيحة، خاصة وأنها المرة الأولى في تاريخ القرية أن تخلع امرأة رداء الموت وتستبدله بفستان الفرح بينما أبوها لا تزال تربته خضراء، وقد ادعت (خميسية) بأنني فقدت بكارتي من وقت مبكر وأن ثمة إنساناً يتحرك بأحشائي، وقالوا إن أمي تبرأت مني وأقسمت أن لا يجتمع وجهها بوجهي، وأن تصميم هذا العجوز ـ جدي ـ على إتمام الزواج كان خوفاً من أن تصبح حفيدته وكراً للبغاء. كان زواجي عاصفة من الأقاويل وبالرغم من ذلك كان داخلي يضج بالفرح فأنا على موعد للوقوف أمام ذاك الجواد الراكض دوماً، ولم يكن يخطر ببال السوادي أن يتم زواجي بهذه السرعة، ولم يفق إلاَّ وأنا في بيت زوجي، ذاك البيت زرته ذات مرة حينما كنت أبحث عن عين صاحبه.

وكان محمد يعلم ما يضمر له السوادي لذلك بقي محترزاً منه ولذلك لم نقطن في بيت واحد لمدة طويلة، فقد دأب محمد على الانتقال من مكان إلى آخر وقد سكنا الأحراج وبطون الأودية ولم أحمل بك ـ وضربت صالحة على رأسها ـ إلاَّ بعد مرور عشر سنوات من زواجنا ثم استقر بنا الحال في قرية بعيدة حيث أنجبت موتان وعدت إلى دار أبي وجيلان لا زال ماء في بطني ولو لم يوصني محمد بذلك لما عدت.. أذكر ذلك اليوم تماماً حيث كانت

(*) الهوب: الزواج.

(**) امربع: مكان يخصص لجلوس أهل المتوفى من النساء وعادة يكون في أحد أركان العشة.

الكلمات تتحشرج في فمه وعيناه غائمتين بالدمع وقد كتم شهيقاً أخذ يهرب من بين أنفاسه:

ـ يبدو أنه كتب علينا الشقاء.

وعندما صرخت فزعة ومستفسرة عما يرمي إليه ضمني إلى صدره وهدهد على رأسي:

ـ إذا كتب لي عمر سأعود وأوصيك أن تعودي لأهلك.

في ذلك اليوم جلست دامعة أنظر إليه وهو صامت وعليه جمود الموتى، يحضن موتان وينظر إليك بانكسار وقد مضينا على هذه الحال ثلاث ليال، وفي ليل ماطر جاءه رجل وأسر في أذنه حديثاً، فحمل شاله الدموي وخرج، بعدها لم يعد.

يقولون إن السوادي. . .

فجأة توقف على صوت رعد هادر اهتزت له جنبات العشة وتساقطت أجزاء من لبناتها، ضمتنا إليها، وتنهدت بحرقة وعادت تغمغم:

ـ (سبوح قدوس رب الملائكة والروح).

فيما كان الماء يتصبب فوق رؤوسنا بغزارة، فجاء صوتها من العتمة مرتبكاً:

ـ صالحة احملي أخاك.

فردت صالحة بصلافة:

ـ وأنت إلى أين ذاهبة؟

ـ أريد أن أتفقد البهائم.

نفرت صالحة بضيق:

ـ وهل هذا وقت البهائم؟

فردت عليها برفق:

ـ البهائم منا يا صالحة!

فصرخت بها:

ـ لتذهب البهائم وليذهب كل شيء، فقط لا تعرضي نفسك للخطر في هذا المطر الهالك.

طبطبت على يدي ظانة أنها يدها:

ـ وعندما تموت من أين لنا مال نشتري بدلاً منها.. هيا.. هيا انتبهي لإخوانك.

في تلك الظلمة تناولت صالحة جيلان من بين ذراعيها وحذرتني من مغبة أن أقدم على أي حركة، وقبل أن تنزل أمي من على (شبريتها) أوصتنا ـ أيضاً ـ بعدم الإتيان بأي حركة، وألزمتنا بالبقاء في أماكننا.. كان لنزولها وقع الحجر في الوادي، أظن أن الماء التهم نصف قامتها، فأزاحت الظلمة بصوتها محذرة إيانا:

ـ الماء مرتفع فلا ينزل أحد منكم وليظل كل واحد منكم في مكانه.

كانت تتحرك فنسمع تلاطم الماء بثقل، وعلى ومضات البرق نلمحها تتهادى نحو بوابة العشة والماء يعتلي خاصرتها ـ يبدو أن رعباً ما أصابها فانطلقت صرخاتها مرتوية بالخوف.

ـ يا ناس غيروا علينا.. سنغرق!!

يدوي صوتها في ذلك الجو الماطر فلا يقابله إلاَّ سكون مرير يمتد في كل مكان بينما كانت السماء تصب الماء صباً فيسيل هادراً في كل الاتجاهات، فتعاود بث جزعها بلهفة وخوف:

ـ واا جبريل.. وا جبريل الحقني.. سنغرق.. الحقني يا جبريل.. فجأة خارت وصاحت أشبه بالبكاء:

ـ أنا نجار بوك الحقني.

وتفجر صوتها بنحيب كان يحرقني.. وفي هذا الجو الطافح بالصمت والبلل لا أحد يسمعك، ولا تسمع إلاَّ أصوات البهائم المستنجدة ـ مثلك ـ بثغاء واهن مرتعش، لا شيء يغري بالخروج لمواجهة هذا الموت، فكل شيء يتساقط ويجرفه الماء المندفع، فـ (الأسجف) تخلت عن أماكنها و(العشش) تساقطت على من يحتمي بها والدواب لم تفلح قوائمها الأربع من ترسيخها

أمام جريان الماء فجرفها بعيداً عن حظائرها، وهي لا زال صوتها يضج بالنداء، كانت حائرة تعود وتتلمسنا جميعاً، وتعاود الخروج، وكلما أبطأت علينا نستحيل ـ جميعنا ـ موجة بكاء مرتفعة، فتعود تصارع الماء والعتمة، وتجلس بجوارنا، فيسكننا الهودء للحظات، بعدها تطمئننا وتخرج. . تقلب بصوتها وبصرها كل الجهات، والمطر يغسلها من كل شيء إلاّ من الخوف، فجأة تسللت إلينا صرخة ألم أطلقتها، قفزت من مكاني ليبتلع الماء ثلاثة أرباع قامتي، ومن بين أنينها جاء صوتها ملتاعاً:

ـ من سقط يا موتان؟

ـ لا تجزعي يا أماه. . ماذا حدث لك. . ولماذا تئنين.

ـ عد إلى مكانك فليس بي شيء فقط سقطت حبة برد كبيرة على رأسي.

بينما كانت تمسكني وتحاول أن تعود بي، سمعنا صالحة تنشج، وتحث أمي على الإسراع:

إلحقي يا أمي جيلان «شرغ»(*).

حركتها في الماء تنبئ بأنها تتقافز، وصوتها يشارك المطر مجونه، كانت تتقافز بالفعل بعد أن خلت يدي وصاحت بصالحة:

ـ ماذا فعلتِ به؟!

ـ لا شيء فمع صرختك خفت عليك فتحركت لألحقك فسقط من يدي وشرب قليلاً من الماء.

صاحت بها أمي بضيق:

ـ اللّه يقصف عمرك أتريدين أن تميتي أخاك؟!

لا زلت في مكاني. . يحاصرني الماء، والعتمة، وحزني، ورغبة مشبوبة في البكاء. . تحركت للأمام واضعاً يدي أمامي وكلما أرعدت السماء أصبت بموجة رعب عاتية.

كانت لحظات البرق غاشية، فأغمض عيني، وألوذ بالتسبيح، (مطبطباً)

(*) شرغ: دخل الماء في مجرى التنفس.

بيدي علني أمسك بشيء ينجيني من هذا الخوف. وقفت على بوابة العشة، وكان مستوى الماء في الخارج أقل منه في الداخل، وكنت ألمح حبات البرد تنساب مع الماء كفقاعات تأبى أن تضمحل، فتقت أن أتناول إحداها وأطفئ بها لهفة البكاء التي تعتريني، ولمحت بهائمنا على وشك الانهيار، فقد لجأت إلى سقيفة المطبخ تستظل بها بعد أن يئست من إيجاد مكان يقيها هذا المطر المنهمر بعنف، شعرت بالضعف والرغبة لأي رجل يقف معنا، فصرخت باسترحام:

ـ وا خال واااا.

أعدتها بمرارة، في البدء ظننت أن صوتي عاجز عن الوصول لمسامع خالي، لذلك رفعته حتى أحسست ببطني كقربة، فسمعت أمي تحثني على العودة، فرفعت صوتي مرة أخرى:

ـ وه يا أهل القرية.. الحقونا... سنغرق واا يا أهل...

فجاء صوتها أكثر زجراً وحدة:

ـ قلت لك عد.. ليس هناك رجال بهذه القرية، عد ولنلتزم بحكم اللّه.

ترددت طويلاً قبل أن أجيب دعوتها.. كانت عيناي تخترقان الظلام والمطر ـ المتدفق بغزارة ـ بحثاً عن أي شخص يرفع عنا ولو قليلاً من قسوة ووحشة هذه الليلة، ولم يكن هناك سوى أصواتنا والرعود الغاضبة... استدرت، واستدرت فلم أرَ أحداً، وكانت بي رغبة في الاستغاثة، ولكن إصرار أمي حجب تلك الرغبة، فتحركت عائداً إلى داخل العشة، كانت الظلمة كثيفة، وانهمار الماء لا يمكنني من التحديق جيداً.

ـ أماه الدنيا ظلمة وأنا لا أرى شيئاً.

ـ امشي على صوتي.. هيا تعال.

دفعت قدمي في الماء بصعوبة، فهويت حتى بلَّ الماء ذقني، وانسل ضوء البرق بوجهي خاطفاً، فصرخت بفزع:

ـ أماه الحقيني.. الحقيني سأغرق.

سمعت تلاطم الماء بين قدميها ويدها تتخاطف الفراغ، وقد أمسكت بشعر رأسي وأخذت تسحبني، بينما أحسست بها تحتضن جيلان بحجرها وتستره باليد الأخرى، قادتني، وحثتني على الصعود إلى أعلى (شبرية بالبيت، ووضعت جيلان بحجري، وهي توصيني بالحذر:

ـ حسك عينك يسقط من بين يديك يكفي أن صالحة كادت تميته هذه الليلة.

وتحركت مرة أخرى باتجاه (الشبرية) التي كنا نجلس عليها مع بداية المطر، وعادت تجر صالحة التي كانت تحاول إخماد نشيجها المتقطع.

ـ أماه ما بال صالحة تبكي.

ـ لقد ضربتها لتفريطها في أخيها.

وكمن يحتاج إلى منفذ، انفجرت صالحة تبث عتبها:

ـ أنت السبب فعندما صرختِ ظننت أن صاعقة أصابتك فلم أعد أفكّر إلاَّ فيك وقذفته من يدي.

فسمعت قبلة حارة تطرقع، وصوت هدهدة:

ـ (خلاص.. أنت ست مي.. خلاص سامحيني).

وبعد أن صعدت أمي وصالحة، عدنا نتدفأ ببعضنا، بعد أن أصبحنا في أعلى مكان في عشتنا، وعادت أمي إلى التسبيح، كما عاد التصاقنا وخوفنا.. خرير الماء يركض في مسامعنا، وكل شيء يسعى ويهدر بفجاجة، أحسست ببرودة تلامس قدمي، فانتفضت، وجاء صوتي مرتعشاً:

ـ أمي.. لقد صعد الماء إلينا.

وبفزع ولولت صالحة:

ـ وه يا رب.. أظن أن السيل سيجرفنا أمامه وسنموت دون أن يعلم بنا أحد.

وانخرطنا في بكاء متعال.. كان كل شيء فيها حائراً، تمرر أناملها على رؤوسنا، في محاولة لإسكاتنا، وترجونا أن نصمت وعندما عجزت توسلاتها عن إسكاتنا، نز صوتها مندفعاً بقوة:

ـ (سبوح قدوس رب الملائكة والروح). قولوا معي يا أولادي.. سبوح قدوس...

فرددنا خلفها ونحن نخرط دموعاً فياضة، وظهر صوت صالحة واضحاً:

ـ لماذا تركنا أبي يا أمي؟!

كان في ردها شيء من الحسرة، ومن الاعتراف المبطن بالعجز.

ـ (يا غارة اللّه يا صالحة.. هل قصرت معكم؟! ها أنا أقيل في الحقول أو في البيوت أتمر بأمر العظيم والحقير وأظل معلقة طوال اليوم أطلس العشش أو أضرب «الرونج» كل هذا من أجل من؟!

فردت عليها صالحة بعنجهية:

ـ الرجل رجل يا أمي.

سكتت أمي وهي تغالب بحتها التي ظهرت في آخر كلماتها، ولم يبقَ منها إلاَّ زفرات حارة تشارك المطر اشتعالاته، فأحست صالحة بأسى أمي، وكمن يعتذر تساءلت:

ـ هل غضبت يا أماه.

فلم ترد عليها، فبكت صالحة، فخبطتها أمي على رأسها وزفرت بضيق:

ـ ألم أقل لك بأنك مدلالة؟!

فزاد بكاؤها.. سمعت صوت قبلة تطرقع في هذه العتمة لا أدري من أطلقها، وسكتنا، وثرثرت السماء فوق رؤوسنا.

كان لنا بيت صغير... وجنة صغيرة
وبسمة طفل غائب... وأغنية في الفؤاد...
وجاء الريح.. جاء السيل... ونهب الحلم الكبير
ومضينا ضائعين

أهالي قرية السوداء

ـ من هنا ينطلق الخوف إلى صدورنا.

أبو قضبة والقلعة تحملهما القرية على رأسها وتظل تدور بهما حتى تنيخ، فيتساقط من داخلنا كل شيء، ونتزوي جانباً نلوك همومنا بصمت وإذا دوى ذكرهما قمنا متوسلين أو مذعورين. أبو قضبة قوس وتره القلعة، تلك القلعة التي تهتز دوماً بأسهمها الموجهة نحونا، فيسافر الخوف في صدورنا. يخب.. يركض فينا كالريح، فتسقط أفئدتنا إلى أسافل صدورنا ولا يعود أمامنا إلاّ أن نرتعد، ونقدم دماءنا هدايا لهما.. إن لأبي قضبة قدسية نلوذ بها كل حين، فنقدم له دمنا ونتبتل أمام قبته إلى أن تجف دماء قرابيننا لنعود نذرع الطرقات بحثاً عن ركن ننثر به توسلاتنا.

يقولون: إن تحت قبته يرقد نسله الصالح ولا يدفن في فناء القبة إلاً من هُم من ذريته وإذا دفن جسد ليس نافراً من صلبه لفظته الأرض.. هكذا يقولون ويكملون:

ـ إن امرأة من أهل القرية هي آخر نسل أنثوي لهذا السيد قد دفنت بجوار قبره ويردد كبار السن ـ بإصرار ـ أنهم ضربوا بفؤوسهم كل مكان في مقبرة القرية فاستعصت الأرض وتكسرت فؤوسهم دون أن يستطيعوا حفر قبر لها وظلوا يتنقلون بها من مكان لآخر والأرض تأبى أن تفك فمها لجسدها.

يومها انتشرت في القرية حكاية المرأة وقِيل إنها خطيئة فتركوا جثمانها في العراء وأقسم خلق كثيرون أن نعشها حمله الريح حتى أوصله فناء أبي قضبة لتبتلعها حفرة فاح منها بخور لا زال يخرج من قبرها إلى الآن.

وقد حدثتني جدتي أن تحت هذه القبة تبقى قبر واحد لن يسكنه أحد إلاً رجل يتقافز من قلبه الخير وهو آخر نسل السيد المبارك.

وقبة راعي القضبة تقع في الجهة الشمالية من القلعة تسورها على مسافات بعيدة أشجار السلم و«العاريج» والأثل والرديف وفي بعض المنعطفات نبتت أشجار غريبة يتطبب بها أهل القرية، ويقولون: إنه مكان عبادة راعي القضبة.

وآخرون يقولون:

إن هذا المكان ما هو إلاً ساحة معركة، حيث خرج راعي القضبة من قبره ليمنع مجموعة من الجن قدمت لتسكن هذا الوادي ولم يكن لديه سلاح فاقتطف غصناً من هذه الأشجار وظل يسوط به الهواء وهو يدعو على الغزاة فكانوا يتساقطون صرعى وقد أبادهم في هذا المكان إلاً أصغرهم الذي فر وهو يردد أيماناً غليظة أنه سيعود بجن لا حصر لهم، فسمعه راعي القضبة ورفع يده داعياً ربه أن يبارك له في ذريته حتى يقفوا في وجه القادمين.

ويقولون:

إن نسله سيأتي مع امرأة تسكن هذا الوادي ولا زالت القرية تنتظر هذه المرأة الموعودة وكلما أصيبت أيامنا بالقحط خرج أهل القرية لصلاة الاستسقاء، وطلب المطر والغرباء علّها تأتي معهم ولا زالت القرية تنتظر نسله أن يأتي من أقطاب الأرض من خلال تلك المرأة الموعودة.

والزائر لهذا المزار يلمح القبة من بعيد، فالقبة ليست مرتفعة كثيراً إلاً أن شكلها البيضاوي الرخامي المتسع يمكن القادم من رؤيتها بوضوح، وقد اتسعت دائرتها فتقوقبت فوقها ثلاث قباب صغيرة قِيل إنها لأحفاده الذين ابتلاهم اللّه بالتيه، حيث يظلون يضربون غياهب الأرض فلا يقبل بهم إنس ولا جان حتى إذا دنت منيتهم سخر اللّه لهم ريحاً تحملهم لهذه القرية،

فيموتون بها ويدفنون بجوار جدهم الكبير، ويقولون:

إن سبب ابتلائهم أنهم خرجوا إلى أرض بلقاء يعتزمون الاعتكاف، فاستنجدت بهم امرأة من الذئب فنجدوها، وتصارعوا أيهم يفوز بها وعندما هدّهم التعب لم يجدوا المرأة ووجدوا أفعى تنفث سمها في عيونهم، فأصابهم العمى وقد استدرك أصغرهم خطأه، فاستغفر اللّه فتاب عليه، وعاد له بصره في أحد الأيام المطيرة. ويقولون إن هذا التائب سيكون أباً لتلك المرأة الموعودة.

ويقال إن قبتين يرقد تحتهما اثنان من أحفاده، أما القبة الثالثة فلا زالت تنتظر نزيلها.

وفناء المزار متسع مفروش بتراب ناعم يتداوى به زائروه من أمراض مختلفة وعديدة، وبهذا الفناء تتناثر هبات وأضاحي أهل القرية.

وقد روى خادم القبة هذه الحكاية وهو يقسم بأيمان مشددة على صحتها.. يقول:

ـ ما إن يدخل الليل حتى تخرج أفعى عظيمة، تظل تزحف وتجمع الهبات والأضاحي وتدخلها إلى جوف القبة وأن الثور الذي يحمله خمسة من أشداء أهل القرية كانت تسحبه الأفعى وكأنه خيط رفيع.

وروى أيضاً:

أنه ذات يوم سرق جزوراً نحر للتو ليعود به لأطفاله الجائعين وما إن حمله وهمَّ بالمغادرة حتى خرجت إليه أفعى ووقفت على ذيلها وطارت، لتستقر في صدره، وقبل أن تهبط كانت قد غرست نابها بقلبه، ليسقط تحت الجزور ممدداً قريباً من الموت، وظل كذلك إلى أن افتقدته زوجته وجاءت تبحث عنه ووجدته على وشك أن يلفظ آخر قطرات أنفاسه، فتركته وعادت تجر بقرته الوحيدة ونحرتها فوق صدره وظلت بجواره تبكي وتطلب العفو لزوجها من راعي القضبة، وقد بقي راقداً في مكانه لثلاث ليال حتى إذا خرج من القبة طائر أخضر وحط على الجرح ينقمه لينداح من صدره صديد أسود بعدها تشافى وحرم أن يمد يده لهبات راعي القضبة.

هذه القبة أعرفها جيداً فمنذ صغري أفقت في فنائها، فقد كنت أظل مغروساً في الفناء تقتاتني الشمس والريح وأنا متخشب في حفرتي التي أطبقت على جسدي، ولم يتبق طليقاً إلا رأسي الذي يدور في كل الاتجاهات، فلا يلمح إلا تلك البيارق الملونة المعلقة على القبة، ودماء تلك الأضاحي التي سفك دمها بمباركة سادن قبة راعي القضبة، لتهوي الحِدآنُ(*) على الأضاحي تتخطفها من كل صوب. وكثيراً ما كانت تحط حدأة على رأسي وتنقره.. كنت أمتلئ رعباً حين يخطر ببالي أن تقوم هذه الحدأة باختطافي والتحليق بي في الفضاء أو أن تنقمني كما «تنقم» رأس خروف ميت لذلك كنت كلما حطت على رأسي حدأة أو نقرته، شعرت بفزع وأعتصم براعي القضبة متذرعاً:

ـ شيلله يا راعي القضبة!!

فتحلق الحِدآن بعيداً عني ويعود إليَّ هدوئي، يومها أيقنت أنه يسمع ويجيب الدعاء!!

وبعد أن جاورتني زهرا في حفرة مجاورة أصبحت أكثر أنساً حيث نبقى في حديث متواصل يبدأ من وقت طمرنا في التراب حتى يعود أهالينا لإخراجنا من حفرنا والعودة بنا لديارنا.

في الأيام الأولى لغرسها كانت تبكي في حفرتها وتتساقط دموعها بغزارة وعندما يتعبها البكاء تصمت قليلاً لتجمع أنفاسها وتعاود البكاء الجاف.. كنت تقابلني تماماً فأظل أضحك عليها، فيزداد بكاؤها. في إحدى المرات وقفت على رأسي حدأة فبكيت وظلت هي تضحك عليَّ وتقذف لسانها باتجاهي، وأنا أهز رأسي محاولاً إبعاد هذه الحدأة والخوف يجري في دمي. بعد هذه الحادثة لم أحاول أن أضحك عليها حين تبكي وعندما غادرت حفرتي ـ سيراً على الأقدام ـ بعد الغرسة الخامسة والستين بعد الثلاثمائة وبعد أن سفكت أمي دموعها وأنفاسها ودعواتها.

(*) الحِدآنُ أو الحِداءُ أو الحِدَأُ؛ مفردها حدأة: طائر من الجوارح ينقضّ على الجرذان والدواجن والأطعمة ونحوها.

كنت أعود في كل صباح لزيارة أبا قضبة والبقاء بجوار قبته إلى ما قبل الغروب، وكنت كلما أظلمت أعماقي أجيء إلى هنا، أضع كومة تمر في فناء القبة وأعصر خوفي وأملأ يدي تراباً من حوض القبة وأغسل به وجهي وأعود فرحاً.

لا زلت هكذا حتى تلك الليلة التي غدا فيها راعي القضبة بائساً لا يملك دفع استغاثتي أو إجابتها، تلك الليلة التي تضج في داخلي كلما رأيت السوادي. ذاك الوجه البشع بالغلظة والتيبس، وما زلت أجاهد من أجل هدّ أنفه المرتفع للأعلى وأن تطأ قدماي جسده المرتج بالشحوم والعافية.

ران الليل على هامة القرية منذ وقت طويل، وأنفاس متتابعة رتيبة انطلقت من عشش القرية المتجاورة، تتابع أحلاماً سوداء، وقد اعتادت القرية على إغلاق جفونها وفتحها على أصوات الديكة المنطلقة مع الغلس، واعتدت أن أستيقظ على صوت ديكنا المبحوح ذي النغمة النشاز.

في تلك الليلة استيقظت على غير عادة، فصوت ديكنا المبحوح لم ينبه ذاك الليل بعد، وذلك السكون الممتد قد ردمته جلبة عنيفة خارج عشتنا وأصوات متداخلة تنادي وتحذر بعضها من أن يفلت من بين أيديهم. كنت مغمضاً عيني أحاول فرز تلك الأصوات.. صوته الثقيل البارد يغريني بالانغماس في النوم والهروب من كونه حقيقة تدوي خارج عشتنا. بيد أن تلك الجلبة العنيفة حفزتني لأن أفتح عيني على اتساعهما لألمح رجلاً يتطاير من عينيه شر غامض وثمة رجلان يحمل كل منهم «اتريكا» جعلا ذلك الليل يتحول إلى نهار سافر. كان يمتطي بغلته البيضاء ومن خلفه ظهر أعوانه مدججين بالسلاح، ورجل بشع يضع يده سداً أمام صرخات أمي، تلك الصرخات التي تحاول أن تهرب من فمها لتصل إلى أنحاء القرية. ركضت نحوه قاضماً يده ليتلقاني بيده الأخرى ويسقطني أرضاً حين كان أبي مربوطاً بحبال جدلت من حشائش الحلفا حول عنقه ويديه وانتهى الحبل بيد السوادي الذي لا زال يمتطي بغلته البيضاء ويتحرك ببطء وأبي يسير من خلفه مقيداً كعبد آبق.

أعلم تماماً كيف يستطيع السوادي أن يجعل الأشجار العالية تنحني لتقدم

له ثمارها وإن تطاولت وأمعنت في تطاولها اجتث جذورها أو بتر سيقانها ليتركها تكمل الحياة مشوهة.. مبتورة.

أذكر أنه ـ قبل أيام قلائل من اقتحامه لبيتنا ـ وقف خطيباً في مصلى العيد وعيون المصلين تخرج نحوه بحذر قاتل وتختفي أمام تساقط كلماته، لم أكن أفهم ما يقول، فقط رأيت رجاله يتخطون رقاب المصلين وهم ممسكون بأبي شبرين حتى بلغوا به مقام السوادي الذي بلغ به الغضب شوطاً بعيداً فأزبد فمه واتقدت عيناه وارتفع صوته، وحين سكنت كلماته كانت أصابعه مغروسة في عين أبي شبرين، ليتدفق الدم والصرخات العالية المتألمة.. كان صوته أكبر من الألم الذي انطلق من فم أبي شبرين:

ـ سوف أخلع كل عين تتطلع في وجهي!!

ساعتها أطبقت عيني بيدي وأظن أن جميع المصلين حجبوا عيونهم عن وجهي بوضع أيديهم على عيونهم. وبقي هذا المنظر يداهمني ليلاً ويخرجني من نومي حتى داهمنا هو وعبيده في تلك الليلة.

كان الخوف يهدني كلما لاح لي أن أصابع السوادي ستستقر في محجرَي أبي ودون أن أتطلع في وجهه، توسلت إليه أن يغفر لأبي، وتكفلت له بأن أحفظ عيني أبي بعيداً عن وجهه، فانفرطت منه ضحكة مرتفعة حتى كادت بغلته تعدو به.

وخرج أبي يزحف خلف آثار بغلته. كنت للتو قد تخلصت من ذلك الكساح اللعين، فركضت خلفهم وأمي من خلفي تنوح.

في منتصف الطريق أصبح الظلام سحابة كثيفة تفصلنا عن ملاحقتهم. أظن أن أبي فقد عينيه الاثنتين من جراء السحب على وجهه.. كانت أمي تنتحب بصوت مرتفع، فتركتها لدموعها وواصلت الركض خلفهم ودموعي تلهث معي وصوتي يطاردهم بتوسل واسترحام:

ـ العين لا يبهرها إلاّ ضوء القمر.. ووجهك قمرنا الذي نتطلع إليه دوماً بإعجاب.

كانت بغالهم تخب في السير قاطعة ليلاً كثيفاً فصحت بأعلى صوتي مسترحماً:

ـ. . ووه. . يا شيخنا اغفر لأبي.

فجأة توقف قلبي الصغير على صوت عيار ناري يعبر سكون الليل فتوقفت أجمع خوفي ودموعي وصوت أمي الصارخ يدوي في أعماقي:

ـ يا أهل القرية، السوادي قتل زوجي.

عندها سقطت على الأرض أمرغ جبيني في التراب بحرقة. وظلت استغاثة والدتي لا تبرحنا، فلم يخرج أحد من داره لنجدتنا. . فقط خرج إلينا الظلام من أركان القرية القرية ليسد أمامنا الطريق، فعدنا نتلمس دارنا بخطوات متعثرة ونسند بعضنا بالنحيب. استقبلتنا الجدة نوار وهي تتوكأ على عصاها:

ـ ماذا حدث؟

طفقت أمي تنتحب، فهزتها مراراً:

ـ وادية. . ماذا حدث؟

فانخرطت أمامها باكياً:

ـ جداه. . السوادي قتل أبي.

قرعتني بعصاها على هامتي:

ـ لا يستطيع. . فأنا أعرف السوادي جيداً إنه: «حنش أرقط».

في تلك الليلة هرب النوم من عيوننا مبكراً وبقيت ظلمة حالكة ننيرها بدموعنا ودعواتنا المستفيضة بأن يكسر اللّه شوكة السوادي، فلم نكن نقدر على شيء أكثر من هذا وبقيت الجدة نوار تجلس منزوية عنا تغمغم وتجفل دون أن نتبيَّن ما تقول.

في الصباح جاءت القرية تعزي في أبي. . وكانت النساء يدخلن علينا معدِّدات بصوت دام وينثرن محاسن أبي على مسامعنا. . وبقيت خارج العشة «يولولن» بدموع جافة وأصوات حادة فلم تخرج إليهن والدتي وبقيت بداخل العشة وهن في عرصة الدار يحمن بأطفالهن الرضع وقد ارتفع لغطهن على تصرف أمي المشين حيث رفضت استقبالهن، خرجت إليهن الجدة نوار وهي تتوكأ على عصاها وحين أصبحت بينهن رفعت عصاها وهشتهن:

ـ هش يا دواب.. الشاقي لم يمت.

طغت في داخلي فرحة لذيذة لهذا التأكيد المستمر الذي تطلقه الجدة نوار، ارتفع اللغط بين النسوة المعزيات والجدة نوار لا زالت تهشهن أمامها، فوقفت أمامها (خميسية) وهي تكاد تدفع الجدة بيديها بعيداً:

ـ يا غارة اللّه يا نوار أتظنيننا دواب!

وتغامز بعض النسوة:

ـ لا بدّ وأن نوار جنت.

فلوحت بعصاها بغضب:

ـ آه يا قحاب.. المجنونات أمهاتكن.. الآن جئتن للتعزية.. أين كنتن ليلة البارحة أو أن أزواجكن كانوا فوق صدوركن؟

عقب هذه الشتيمة السافرة خرجت النسوة غاضبات وقد أقسم بعضهن أن لا يدخلن لنا بيتاً بعد اليوم.

أكاد أختنق حينما أشعر أن أبي غادرنا وأننا سنستلمه جسداً بارداً ونهيل عليه التراب دون أن يستطيع الصراخ أو التوسل.

هذا الموت الذي زارني مبكراً غدا يسكن مخيلتي حينما كنت مغروساً في قبة راعي القضبة تغطي رأسي الحاسر مظلة من لهيب الشمس الحارقة فيتنامى في داخلي ظمأ الخبوت الخالية فأصرخ بسادن القبة طالباً جرعة ماء فتأتيني إجابته باردة:

ـ إصبر فالسيد يسقيك.

وأظل أكابد الجوع والعطش والتعب حتى يدنو الغروب ليأتي أهلي وينتزعوني من قبري العمودي وأنا كذبالة فانوس أصابها الاحتراق الكامل ولم يعد يرجى منها إلاّ أن تعاود الاحتراق مرة أخرى.

في ذات يوم قائظ من أيام طمري بجوار القبة جاؤوا برجل ومددوه على الأرض ـ بالقرب مني ـ كانت رقبتي تجاور جسده الذي تنزهت به حبيبات الجدري، تلك البثور المنتهية برؤوس مدببة، المحتقنة بالصديد. كان الرجل يئن بثقل وعيناه منطفئتان بداخل محجرَيه الغائرين وكان كلما تحرك تفجرت

دماملة فيسارع ذووه بردمها بتراب القبة. . كان الرجل يئن بتقطع وحينما يشتد عليه الأنين يغادر في غيبوبة طويلة. كنت ألمح نتفاً من جسده تتساقط وتذوب في رمضاء القبة وعندما يفيق يعاودون ردمه بالتراب الحارق، فيتلوى وتتعالى زفراته ويتلون وجهه حتى يغدو قطعة سوداء، وعندما غطوه كاملاً بالرمال الحارقة غادروه وأوكلونا أنا وهو للشمس كي تظهر آلامنا في حضرة راعي القضبة. كنت أسمعه يصرخ إلى أن يفقد إدراكه وعندما يعود إليه وعيه يتنهد بضيق ويردد بوهن:

ـ أخرجوني. . أريد أن أموت على «قعادتي».

وكلما سمعه سادن القبة يصيح مطالباً بإخراجه، يلكزه بعصاه وصوته:

ـ لا تتذمر وإلاّ غضب منك راعي القضبة!!

نظر إلى جمجمتي الطافية على سطح الأرض وصرخ بأعلى ما يمكن وسكت، بعدها لم يفق وعند الغروب أخرجوني وعمقوا له قبره.

الآن أشعر أنني بحاجة إلى البكاء عند قبة راعي القضبة وأن أدعوه ليجنب أبي بطش السوادي.

تركت جدتي تتبادل الشتائم مع النسوة ودخلت إلى عشتها الصغيرة وقلبت متكأها فوجدت مبلغاً ضئيلاً من النقود خطفته ومررت لسحارة أبي وتناولت مدرعته وركضت صوب السوق لأشتري تمراً وبيرقاً أبيض وحثثت الخطى صوب قبة راعي القضبة.

كان المزار يكتظ بالزوار ودماء الأضاحي تجري كنهر الموت. زاحمت المتجمهرين حول القبة وغرست بيرقي ضمن البيارق المتعددة ووضعت تمري في «الجب» المعلق على جذع خشبة كانت تجاور القبة وارتميت في الفناء. . بكيت بحرقة وابتهلت «وخمشت» من تراب القبة ونثرته على مدرعة أبي التي أحضرتها معي. وعدت إلى الدار أجر ألماً وأملاً.

في الطريق اسودّت السماء وركضت العاصفة في كل مكان ولم أعد أميّز طريقي فبكيت حين سمعت صوتاً يناديني ببحة ملأها التراب:

ـ يا ابن الشاقي. . تعال إلى هنا.

يقول الرسول ﷺ: «الساكت عن الحق شيطان أخرس»... فتعالوا نرجم الشيطان سوياً

عبد الله الشاقي

ذات صباح استيقظنا على جسده الملقى في فناء الدار. كانت عيناه سليمتين بيد أن ذبولاً فاحشاً تمطى على وجنتيه وكدمات طاغية غامقة انتشرت في أجزاء متفرقة من جسده الموحل وكأن القرية شاركت في تلوين هذه البقع الفاقعة. كانت الجدة نوار أول من رآه ثم اجتمعنا حوله ونقلناه كخرقة بالية «لشبريته» الرثة. الألم ينز من عينيه بغزارة ـ العينان اللتان كان يهرب بهما من أن تقع على أي منا ـ جلس صامتاً دون أن يئن أو أن يحرك شفتيه.. تساؤلاتنا تنصب عليه فيدفعهما أمام بصره المنطلق. حديث الجدة نوار أصاب داخله ـ لا شك ـ فانتثرت زفراته ونفرت من عينيه دمعة كبيرة أتبعهما بشهقة مكبوتة وعاد لصمته المطبق، فلكزته الجدة بعصاها:

ـ الدموع للحريم... أهون عليَّ أن أراك مجندلاً في دمك لا في دمعك.

فز من قعادته وخطف من يدها عصاها وخرج يعدو، فتحركت أنا والوالدة في أثره ونحن نصيح به ونتوسل إليه أن يعود، فأوقفتنا الجدة بحزم فعدنا إلى أماكننا ننتظر عودته ونلوم الجدة نوار لتحفيزها إياه على مواجهة السوادي.

في اليوم التالي أركبتني الجدة على الحمار ووضعت في «حذلتي» زواده وأمرتني أن أنطلق إلى «زاهيب» أبي.. كان فمي فاغراً بالدهشة ومتردداً وحين لمحتني كذلك شدت على أذني:

ـ ستجده جالساً هناك.

احتجت والدتي على تصرفها معي باستهزاء واضح:

ـ وكيف علمتي.. هل «كشحتي»(*) في الليل.

أردفت الجدة على سخرية ابنتها:

أنا أعرف الشاقي جيداً.. ستجده الآن يحوم حول زاهيبه ـ يحميها من حنش القرية.

فتوجهت صوب الحقول وأنا أجتر حديث الجدة.. عبرت تلك الأحراج التي تكتنف الوادي وقطعت مجرى السيل المتقطع صاعداً إلى الحقول الغربية، فلمحته ـ عن بعد ـ جالساً ـ.. ممسكاً بعصا الجدة نوار وعيناه تدوران في جنبات الحقول وحين رآني أقترِبُ منه، نثر ابتسامته في وجهي وأقبل نحوي، قبلني بشغف، وأجلسني بجواره وعندما أوشكت أن أغادر.. قبض على تراب الأرض ورشه على رأسي واضعاً الطين في فمي:

ـ هذه أرضك.

وأركبني وضرب مؤخرة الحمار لأنطلق عائداً لمنزلنا.

كان آخر عهده بالبيت ذلك اليوم الذي خطف فيه عصاه العجوز نوار.. كنت أزوده بالأكل والشراب وأجلس معه إلى ما قبل الغروب وأعود إلى دارنا. وبعد مضي شهر، أو أقل منه بقليل وجدته مرمياً بين قصب القمح والدماء تسيل منه وعيناه تضحكان. في ذلك اليوم غسلت جسدي كاملاً بالتراب المبارك من فناء قبة راعي القضبة وكلما أهلت التراب، شعرت أنني أقبر نفسي.. اقترب مني حارس القبة وأنا ألعن كل شيء فلكزني بعصاه:

ـ أتلعن والسيد راقد في قبره يسمعك.. ألا تستحي من مقامه؟!

فلم أحتمله ولعنته وحثوت في وجهه التراب وعدت إلى أمي.. قبلتها بحرقة وارتميت في حضنها أجهش بالبكاء، فنهرتني بعنف:

ـ من خلّف ما مات.

هزت قامتي وأنا لا أزال أنتحب:

(*) الكشح: هو الكشف عن الغيب وذلك عن طريق الحجارة أو استخدام حبات البن.

ـ ازرع نفسك في (زاهيب) أبيك.. فمن يزرع نفسه في الأرض لا يموت يا عبد اللّه.

كانوا يتناقلون جنازته وأنا أسير ذابلاً.. مطأطأ الرأس ولهيب من الخواطر يجتاحني.. سأدفن أبي وأعود حاملاً خنجري الصغير الذي أهداني إياه أبي يوم ختاني وأغرسه في كرش السوادي.

أوه.. ماذا أصنع حيال هذا الركام الهائل من الأقاويل التي نثرها حماة الحقول... يقولون:

إن أبي تجرأ على السوادي فأرسل له من يوقف نبضه.. وآخرون يقولون: إن أحد قطاع الطرق كان عائداً بغنائمه حين استوقفه أبي وأجبره على إعادة مسروقاته فما كان من الرجل إلاّ أن أطلق عياراً نارياً ومضى تاركاً خلفه جثة تتعفر في دمائها.. وأكثر الأقاويل تداولاً هي ما يحكيها حماة الحقول المجاورة لحقولنا.. يقولون: إن أبي تبادل إطلاق النار مع أحد المناملة الذين اجتازوا حقولنا.. قالعاً لزرعاتها فاستوقفه أبي بالصوت وعندما لم يستجب أطلق عليه عياراً نارياً إلاّ أن هذا الغريب كان أكثر دقة وأسرع في التصويب.

أعلم جيداً أن أبي لم يكن يحمل معه بندقية.. تلك ا لبندقية التي وضعتها أمي على عاتقي الصغير عندما جئتها باكياً، أخبرها بمقتله.... هل هذا الجثمان الذي تتلاقفه الأيدي لن أراه مرة أخرى.. صوت المشيعين يتعالى رتيباً ثقيلاً:

لا إله إلاّ اللّه.. الباقي وجه اللّه.

انعطف المشيعون بالجنازة حتى سرنا موازين لقبة راعي القضية.. ساعتها تمنيت أن أحتفظ به في هذا المكان إلاّ أن المشيعين تجاوزوا به قبة السيد ودفنوه في الخلاء بجوار ظل شجرة (عرج) قديمة يأوي إلى أعاليها الليل والبوم. واروه في التراب وعادوا. وظللت بجواره وحيداً مدة طويلة.. كنت أجلس صامتاً.. أنتظره أن يخرج.. أن يزيح من على جسده دماءه وأن يستند على عصا الجدة نوار وأن تظل عيناه تجوبان الحقول، سمعته من خلفي يستنهضني بضحكة قصيرة:

ـ يا ابن واديه. . قسي عودك.

لم أكترث به. . اقترب حتى لامست يداه كتفيّ المنحنيتين وخبطني على ظهري:

ـ لو لم نجز القصب لما أنبت مرة أخرى.

تعمدت أن لا أرد عليه. . حك رأسه كثيراً وانفجر ضاحكاً. . ظل يضحك وأنا قابع في حزني وصمتي. . استدرك ضحكته بتقطيبة عابسة وبدا صوته متهدجاً:

ـ ألم تسمع؟

وأكمل حديثه دون أن أستحثه:

ـ خميسية تدور القرية وتقول إن السوادي لم يحضر دفن أبيك لأنه مكسور الخاطر على موته!

وعاود الضحك بصوت مرتفع وكتم ضحكته بضربة على جبهته:

ـ أتعلم أن السوادي حنش سيلدغ القرية كلها؟

وعندما لم آبه بحديثه غادرني وهو يلوح بعصاه في وجه الريح ويزم فمه ويصفر ويغني بصوت أجش. . كنت أسخر منه في كل حين وأعلق على مسامعه دائماً جملتي التي سأم منها، كنت كلما لمحته، صحت به:

ـ هه يا درويش متى تحين «دفرة الوادي» المقبلة.

فيتطلع حوله ويغرس عينيه في الوجوه المحيطة به ويمضي هازاً رأسه بحسرة.

في إحدى الليالي كنت أجلس أمام جدتي نوار وهي تحكي حكاياتها الغريبة حين قاطعنا غناؤه الأجش وهو يسير بجوار «سجفنا» الوطيء قادماً ـ للتو ـ من الحقول، فصرخت به:

ـ ووه درويش. . ماذا قال لك الريح عن دفرة الوادي. . متى سوف تأتي؟!

فانقطع غناؤه فأوصلته بضحكاتي المستهجنة لتتوقف جدتي عن سرد حكايتها ـ التي كانت تسردها لنساء القرية ـ لمحت وجهها على ضوء الفانوس

المتكاسل يتقد غضباً. . نهضت من متكئها ووقفت أمامي. . أظنها بصقت بين يديها:

ـ خيرة اللّه عليك يا عبد اللّه.

قبلتها على رأسها وأنا مذهول لتصرفها المفاجئ وتسألت ببراءة:

ـ عسى اللّه خير يا جدة. . ماذا حدث؟!

فزجرتني ناهرة:

ـ اسمع. . لا يسخر بالرجال إلاّ خس الرجال.

فرددت عليها مستخفاً:

ـ هذا درويش المجنون.

قالت بحزم:

ـ «حسك عينك» تسخر من درويش.

كدت أستسمحها وأدخل إلى عشتنا حين وجدته يقف فوق رأسي بهيئته الناحلة ووجه الضارب للسمرة وشفتيه المبثوثين عن ضحكة طويلة حزينة. . انحنى وقبّل يد الجدة نوار والتفت إليَّ:

ـ أراك تسأل عن دفرة الوادي يا ابن وادية؟!

للمرة الأولى أجد نفسي عاجزاً أمامه ومتبعثراً:

ـ لماذا لا ترد؟

أخذت أنفاسي تتسابق، وهو يتمطع وجدتي ترقبنا بجمود، فخرجت عن صمتي:

ـ كنت أمازحك يا درويش.

منحني ظهره وهمَّ بالانصراف، فاستوقفته جدتي:

ـ أغضبت يا درويش؟!

كانت عيناه غارقتين في دمعة كبيرة. . مسحها بكم مدرعته الطويل وتمخط بصوت مرتفع. . أحسست به ينمو في داخلي، فاقتربت منه وخبأته في صدري. . لكزني بكوعه في خاصرتي وتملص من بين يدي وخرج. سمعته من الخارج يناديني فرفعت له صوتي:

ـ ماذا بك يا درويش؟

فجاء صوته عالياً متحدياً:
ـ أتريد أن تعرف متى دفرة الوادي؟
سكتُّ ولم أرد عليه فجاء صوته محفزاً:
ـ أخرج للكلب تراه يتبول على رأس القرية.
وعاد غناؤه الأجش يملأ الشارع وتمددت ضحكة مكبوتة في داخلي وخاطبت جدتي:
ـ اسمعي يا جدة.. ألم أقل لك إنه مجنون؟
صرخت بغضب:
ـ أرى أن جسدك يتمدد وعقلك لا يزال راكداً في مكانه.
صمتُّ للحظات وكمن ندم.
اقتربت مني ولامست شعري برفق:
ـ لا تزال صغيراً يا عبد اللّه عندما تكبر ستفهم.
وعادت للنساء المنتظرات لتكمل لهم الحكاية.
غادرت قبر أبي بعد أن غرست على قبره أشجاراً صغيرة اجتثثتها من الوادي وأحطت قبره بحجارة بيضاء.. هذا اللون الذي يذكرني بقبة أبي قضبة.. كنت في داخلي أتمنى أن أبني على قبر أبي قبة تضاهي تلك القبة الرخامية المقدسة.
عدت أجر خطاي وخواطر ملتهبة تجتاحني.. عبرت الوادي الصغير وعزمت أن أعرج على زريبة السوادي وأبقر بطون أنعامه جميعها بالطريقة نفسها التي يستخدمها مع من يقف في وجهه. وعدلت عن هذه الفكرة لكون جرحي لا زال طرياً مما يمكِّن السوادي من الاستدلال عليَّ.. في طريقي كان الرعاة يمسكون بيدي معزين:
ـ كن سيفاً مثل أبيك.
وكلما سمعت أحدهم يذكرني به أزداد قوة وقسوة وأضمر إقلاق السوادي في صحوه ومنامه.
قبل أن أدلف إلى منزلنا ـ من خلف القرية ـ لمحتها تسوط حمارها

باتجاهي.. هذه الزهرة التي تنمو في دمي.. عندما وقفت أمامي كانت عيناها السوداوان تذرفان كحلهما بصمت.. ترجلت من على حمارها فنكست رأسي وأوشكت أن أسكب حزني بين يديها.. كان صوتها مواسياً وقوياً:

ـ أبقِ رأسك ظلاً لنا لا تحنه.

فشعرت أنني أصبحت أكثر قوة وصلابة.. احتويتها بعيني وحاولت أن أبتسم لها فعجزت.

كان الحزن يقف في حنجرتي وعندما لم أستطع أن أتفوه تركتها في مكانها ومضيت.

على باب عشتنا استوقفتني أمي وضربت صدرها وأزالت من على رأسها «المصر» ونثرت شعرها وصاحت بأعلى صوت:

ـ يحرم عليَّ بحرمة أبي ـ يا عبد اللّه ـ الغسل والطيب حتى أرى قاتل أبيك لا يمشي في جنازته إلاّ الكلاب.

وازدادت حرقتها، فضربت صدرها وشقت قميصها وبصوت محروق صرخت:

ـ أبوك لم يمت يا عبد اللّه. بل قتلوه.. لم يمت.. قتلوه.

فتصايح بها النسوة الجالسات «بالركن»:

ـ لماذا تخيفين ابنك عليك يا وادية؟!

وتجمعن حولها وأدخلنها «أم ربع» وهن يتصايحن بها:

ـ أنتِ في العدة.. أنسيتي؟!

ومن بين صرخاتها المحمومة، انطلقت تولول:

ـ بعد الشاقي يحرموا الرجال.

فأقفلتُ عائداً للخارج.

* * *

في حقول السوادي وقف درويش يتصبب عرقاً وتعباً وهو يساعد السقاة على تفريغ صفائحهم الملينة بالمياه في المصب الرئيسي والذي يتفرع منه عدة فروع صغيرة تصب في الحقول المتسعة وقد ظهر خلف السقاة عبيد

السوادي الذين يسوطونهم بقوايش أدمت جلود السقاة وكلما تذمر أحدهم رُبط خلف حمار وجرجروا به إلى أن يفارق الحياة.

لا شيء قابلاً للجدال، فالقحط أكل كل شيء ومن جاوزه القحط التهمه السوادي وبقيت القرية عارية من كل شيء إلاّ الفاقة. ففي هذه الأيام شحت السماء وتقشعت الأرض واستطال الجدب وأمعن في أوردة الحقول وبات الهم يسكن الأفئدة والمحاجر.

وحينما استشعر السوادي أن محاصيله سيأكلها الجدب ويتركها على عروشها خاوية أرسل عبيده وأعوانه لالتقاط الناس من بيوتهم وأعمالهم وتسخيرهم لإحياء حقوله الميتة. وقد استيقظت القرية في أحد الصباحات على صوت المنادي ينادي بأمر السوادي يُمنع أهل القرية من ورود الماء خمسة أيام تُجدَّد كلما جفت أرضه. وقد بعث مجموعة للبحث عن الآبار البعيدة لجلب الماء وسقي الزرع المتهالك.

ولم يقف أحد أمام هذا القرار حتى إن الشريف حسين والذي يعتبر الشوكة الثانية في القرية وجد نفسه أعزلاً فانساق للنداء دون أن تنبس شفتاه.

خلال هذه الأيام الخمسة أوشك الأطفال والكبار على الهلاك عطشاً. وقد لجأ بعض السقاة ـ في غفلة من حراس السوادي ـ إلى حمل كميات من القطن يبللونها وعند عودتهم يوزعونها على الأطفال والمسنين الذين يتلمظونها بلهفة ترد لأوردتهم قليلاً من نبض الحياة.

وأمام هذه العطش الهالك خرجت مجموعات متسللة تحت جنح الظلام لترد الماء ليلاً. كان الأمر يتم في سرية تامّة بين الأهالي فلو علم السوادي بأمرهم لقبرهم أينما وجدهم. وقد اطمأنت عيون السوادي لخضوع أهل القرية لأمر سيدهم فكانوا يخلون طرقات الآبار مع غروب الشمس ويعودون إلى منازلهم.. وعندما يطمئن الأهالي إلى أن الليل هطل بغزارة يخرجون جماعات وأفراداً ويملأون قربهم ويعودون بعد أن يخمدوا ضوء كشافاتهم أو فوانيسهم بجوار الآبار.

اليوم الثالث كان مليئاً بالرعب حين انتشر في القرية خبر موت حسن إسماعيل، فقد خرج ليلاً يحمل دلوه وكانت ليلة مظلمة اختبأت فيها النجوم

تاركة الظلام يعبث في القرية كيف شاء، ولم يتمكن حسن إسماعيل من تحديد الآبار فسقط في إحداها، ويقول بعض من سايره أنهم لم يشعروا إلاّ بصرخة انتهت بارتطام جسم ثقيل في الماء وبعدها عاد السكون والظلام يمضغان كل شيء.

في ذلك الصباح أُخرجت الجثة وأمر السوادي أن تدفن بلا غسل وبلا صلاة عليها ولم يفلح تذمر أهل القرية من ثنيه عن عزمه ودفنت جثة حسن إسماعيل في الخلاء دون أن يودعها أحد، وقد ألقاه أعوان السوادي كجيفة فلم يكملوا دفن الجثة فبقيت أجزاء منها نافرة اجتمعت عليها الغربان والحِدآن وقبل أن يوغل الليل كان القبر خاوياً.

في هذا اليوم لم أتمكن من قطف الريحان ـ لصلاة الجمعة ـ من دار حسن إسماعيل، فعندما أوشكت أن أدلف لداره وقف في وجهي تزاحم النسوة على «المدرج»(*) ـ الذي يوصل ما بين بيتنا وبيته ـ وقد نشرن عويلهن عالياً حتى انني لم أسمع أذان عبده حين أذّن للغسل، وأمام الحشد الهائل من المعزيات انحدرت للجامع قبل أن تفوتني بركة الخطبة... في الجامع كانت الوجوه واجمة حسيرة، منكسة رؤوسها لا تكاد تفيق من سكونها وعلى تمايل أجسادهم وتململ أنفاسهم دخل الشيخ موسى متخطياً الصفوف حتى صعد المنبر.. ليرتفع صوت عبده أحمد مؤذناً ومع آخر قطرات صوته المبحوح النشاز نهض الشيخ موسى مطلقاً صوتاً له دوي.. فحمد اللّه وصلّى على رسوله وبدأ خطبته:

ـ ﴿وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميراً﴾.

وبعد أن تلى الآية بصوت رخيم صمت برهة وعيناه تمشطان تلك الجموع وحين رآها راكدة لا تبدو منها إلاّ عيونها الخارجة والواقفة على وجهه.. ضرب بعصاه أسفل المنبر، وشحذ صوته:

ـ أيها الناس:

(*) المدرج: هو عبارة عن فتحة توضع بين بيوت الجيران حتى تسهل عليهم الانتقال إلى بعضهم.

إن المؤمن مبتلى في ماله ودينه وأهله، فما بال قوم ابتلاهم اللّه فلم يصبروا، وأنعم عليهم فلم يشكروا، ألا إنني ذاكر لكم أخبار الأمم الخوالي التي ابتلاها اللّه فكفرت، فحاق عليهم غضبه وأنزل عليهم عذابه. إن اللّه وزع رزقه فأعطى ومنع. . فما بال العبد إذا منع جحد وإذ أعطي أعرض.

وما عمر القحط فينا إلاّ لسوء أعمالنا ولم يزدكم ذلك إلاّ غياً وتمادياً في تيهكم، حتى تطاولت الأيدي لنهب خيرات الآخرين بدل أن يضرعوا إلى بارئهم ليدرأ عنهم بلاءه، وملئت القلوب حقداً وتمنت زوال النعمة عن الآخرين. ألا إني مذكركم أن ما حاق بنا من قحط وبلاء ما هو إلاّ من صنع أيدينا، فنظفوا أيديكم وارفعوها لخالقكم واستغفروا واطلبوا منه العفو.

ألا إني مبلغكم أننا عزمنا الخروج للفلاة ضارعين متوسلين مستسقين غيثه ورحمته، فابعدوا أيديكم عن الحرام واطلبوا الحلال الطيب ليغفر اللّه لنا جميعاً، وإني أوصيكم وأوصي نفسي بمساعدة المحتاج ونصرة المظلوم وإغاثة الملهوف، فابعدوا عنكم النار ولو بشق تمرة وصلّوا وسلموا على خير الأنام سيدنا وحبيبنا محمد النبي الهاشمي.

وجلس جلسة ما بين الخطبتين لينساب لغط خفيض بين المصلين فلم يمهله لأن يتمادى فقام مستكملاً خطبته، ومفتتحاً بالبسملة وذكر اللّه عزَّ وجلَّ والثناء على رسوله ثم تساقطت كلماته:

ـ لقد جعلت الفرجة بين الخطبتين للتسبيح وذكر اللّه لا من أجل الهمز والغمز. . اذكروا اللّه يذكركم واستغفروه يغفر لكم، ولذكر اللّه أكبر واللّه يعلم ما تصنعون. أقم الصلاة.

فارتفع صوت عبده أحمد مقيماً للصلاة. فأخذت أتخطى الصفوف حتى حشرت نفسي في أول صف وما إن سلَّم حتى نهضت خطيباً ـ قبل أن يستدير الشيخ موسى بوجهه للمأمومين ـ فحمدت اللّه وأثنيت على رسوله، وقبل أن أبدأ خطبتي أحسست بالعيون تقف على لساني فبدأ حديثي مرتبكاً إلاّ أنني واصلت قولي:

ـ إن العذاب يعم والخير يخص، وإذا أراد اللّه بِأُناسٍ بلاء أصاب محسنهم ومسيئهم على السواء إلاّ أن عذابنا أصاب الضعفاء منا ولم يمسس

أغنياءنا.. فكيف يصيب الجدب أراضي وتُسقى أراض من ماء شرب أهل القرية حتى إن الصغير يموت ظمأً فلا يسقى بينما تنحدر المياه في أرض جدباء وجرداء. ويصيب المرض المواشي، فتشترى أنعام بأبخس الأثمان وتُباع بأغلى الأسعار.

على أني أقول: إن مترفيها سعوا فيها، فأفسدوا، وظلموا، وتكبروا، وتجبروا حتى ان أحدهم يأتي فيحلل حراماً ويحرم حلالاً. إلاً أن هذا هو البلاء «والساكت عن الحق شيطان أخرس»... فتعالوا نرجم الشيطان سوياً.

فارتفعت الحناجر مكبرة فلم أزد وانسللت من مكاني وعين الشيخ تكاد تحرقني وما إن عبرت قدماي عتبة المسجد حتى تناهى إلى مسمعي صوت أحد المصلين يقول لمن يجاوره:

ـ ما لنا ومال ابن وادية.

فهممت بالعودة لولا أنني شعرت بحنق وأنني سأقدم على غرز جنبيتي في كرش أي أحد يقف أمامي أو يرفع صوته.

لا أدري لماذا أحسست بالحمى تجري في عروقي وأنني على وشك الانفجار فقررت أن أسير ـ في تلك الظهيرة ـ صوب الحقول المجاورة لأبدد انفعالي الجارف. مشيت مسافات طويلة وحينما أصابني الإرهاق والتعب عدت أتلكأ في السوق وأتبضع فأخذت حزمة قات وموزاً وسمناً وتوجهت للدار. وما إن تخطيت بقدمي الشارع المؤدي إلى دارنا حتى اصطدمت عيناي بالجندي محروس ذي الهيئة الجبلية والصوت المشروخ، يبدو أنه كان ينتظرني منذ وقت مبكر، وما إن رآني حتى فز من جلسته ـ على الأرض ـ واضعاً يده في وجهي وبصوت أجش آمر خاطبني:

ـ لك «حضار»(*) من القلعة وأنا مكلف بجلبك.

(*) حضار: عادة جرت أن من يقوم بالشكوى فإن الحاكم أو القاضي يعطيه أي شيء «حجرة، غصن، ورقة» ويقول له أعطِ خصمك لكي يحضر، فيقوم المشتكي بنقلها إلى خصمه قائلاً هذا حضاري، فإذا لم يستجب الخصم لهذا الحضار فإن العقوبة تكون مضاعفة عليه.

فلم أكترث له، وقلبت بصري في الشارع وأمسكت بأحد الأطفال مناولاً إياه ما تبضعته وأوصيته بإيصاله للبيت وسرت أمام محروس ليلحقني مزمجراً، ممسكاً على معصمي بشدة وواضعاً: «الكلبشات» في يدي، فصرخت فيه:

ـ هل جننت؟!

اتسعت عيناه وبدأت ملامحه تفيض بالشراسة:

ـ إياك أن تشتمني.. فأنا أريدك منذ زمن بعيد.. أنسيت حين كنت تعيرني بحليمة؟!

لا زالت عيناه متقدتين ويده متهيئة لأن تسحقني. قادني كإحدى البهائم وانطلق متبختراً فكنت أحث خطواتي لموازاته محاولاً إخفاء تلك السلسلة الطويلة التي يجرني بها كدابة بليدة. فواسع بين خطواته وأمرني بالتراجع لأسير خلفه. كان يسير محركاً السلسلة بقوة فتنبعث منها صلصلة تنبه المارة وأصحاب الدكاكين إلى وضعي المزري.. ليرجموني بألسنتهم:

ـ لكي تترك الخطب!!

وتجمهر حولنا الناس ليفرقهم محروس بصوته الأجش:

ـ ألم تروا محبوساً من قبل.. هيا توجهوا إلى أعمالكم واطلبوا اللّه من خيره وأن لا يبليكم بالسفاهة.. كهذا.

تفرق الناس من حولنا وبقي موتان واقفاً بجسمه الصغير وصوته الصارخ:

ـ ماذا فعل عبد اللّه؟!.. ألأنه فضحكم تقودونه للحبس؟!

اغتاظ منه محروس فكور يده وألقى بها في وجه موتان لينبعث بكاؤه حاداً صاخباً.

عندها لم أشعر إلاَّ بيدي المكبلتين تهويان على رأس محروس الذي تفاداهما بعشوائية لترتطما بكتفه، فكور يده ـ مرة أخرى ـ وأطلقها في وجهي، ليتقافز الدم من فمي في سباق مع هياجه المتمدد والمتوعد:

ـ سترى سوء فعلتك عندما تصبح بين يدي بداخل القلعة.

ارتفع صوتي مغطياً على لغط المتجمهرين حولنا:

ـ لو أنت رجل خارج من ظهر رجل فكّ قيدي وسترى ماذا يحدث لك.

جذبني بشدة مفرّقاً بيده تلك المجموعة التي حاصرتنا بعيونها وأجسادها مخلفين موتان يكفكف بكاءه بنشيج متقطع وعندما منحه محروس ظهره صرخ فيه:

ـ تتابع المساجين بعناية وحليمة تتابع وليّاً بشبق.

هاج محروس وكاد يفلت السلسلة التي يجذبني بها ليركض خلف موتان الذي أصبح يبعد عنا بمسافة تكفي لأن تجعل هذا الثور يلهث طوال العمر وعندما أيقن من عجزه من اللحاق بموتان جحظت عيناه وتطاير زبد شدقيه وصاح بالمتجمهرين حولنا:

ـ اشهدوا ـ يا خلق اللّه ـ على ابن الشاقي وابن صابرة يسبون حرمتي. إشهد أنت يا عبده بن أحمد وأنت يا إبراهيم شوعي.. يا أهل السوق اشهدوا كلكم.

«يلعن أبوك من ديوث تترك زوجتك حقلاً للآخرين وتربض ككلب أهوج، مسعود أمام المساجين».

كدت أهب فيه بهذه الجملة إلاّ أنني تراجعت حين استشعرت تلك العيون التاركة آذانها على قارعة لساني.. أوه.. لو تفوهت سوف يشهد الحاضر والغائب وسيضيفون زوائد مبعثرة من الشتائم وينسبونها إليّ، ساعتها لن يقيني من القذف إلاّ أن أنحني للسوادي.

فبالرغم من معرفة أهل القرية بحليمة جيداً.. تلك المرأة التي تفيض صحة وأنوثة ويكفي أن تزم فمها بدلال حتى يخرّ لها من ليس بصدره هوى ولذلك فهي تعرف سر فتنتها فتجدها تلوك «الشونجب» بمهارة وتحرص على دفع شفتيها للأمام بإغراء مفضوح وتتثنى بأردافها في تموجات قاتلة، تاركة لعينيها البيضاوين الغارقتين في ليل طويل أن تسيل نداء.. هذه المرأة لها رغبة متدفقة لا يقف أمامها سيد الطيور. كانت تظهر أيام الحصاد فتملأ الحقول غنجاً بدلالها مما يجعل الكل يتسابق لإرضائها وإعطائها ما تشاء من «المحصول»، وقد فكّر الكثيرون في الاقتران بها إلاّ أن فتنتها كانت مقتصرة

على لحظات سريعة سرعان ما تزول أمام أصلها الغجري. . ، فالرجل يظل رجلاً ما دام يقف على رأسها وإن انثنى بحثت عن غطاء آخر.

مع أيام الحصاد يتجدد عشقها في القلوب، ويصبح الانتظار ناراً لأولئك الذين ترهقهم الشمس والانحناءات الطويلة «لحش» قصب السنابل وقطف العذوق، وما إن تظهر قوافل المناملة المتناثرة على جنبات الوادي حتى ترتفع المواويل الشجية وتتسابق أقدام الفلاحين وعيونهم للوادي لينعموا بتلك الأجساد الطرية المقذوفة هناك. فيمعنون النظر ويعودون دافعين أمامهم زفراتهم الحارة البائسة، فنساء المناملة، ودودات معك ما دمت تسيل عليهم بما في يدك وحين تصبح يدك بيضاء يدفعنك عنهن بمماطلة محببة.

في أحد مواسم الحصاد ظهرت حليمة كعذق ناضج تتوق كل الأعين لقطفه، وحينما ظهرت من «خداريش»(*) المناملة ونثرت دلالها بين الحقول لم تترك للنساء الأخريات عيوناً تتطلع إليهن. . كانت كالأرض عندما ترتوي وتغدو ربيعاً، تسدل خضرتها على تلك التربة المتفسخة المتآكلة وتبعث في النفس عشق الحقول، تاركة مساحة للمطر ليضاجعها كيف شاء. بزغت ناعمة، فوارة، غدقة بالحياة. . كانت كقصب الحنطة كلما جزت قوائمه نما وعاود النضوج والفتنة.

عندما قدمت إلى القرية مع أبويها استأجرها الحماة لحصد قصب القمح بحقول ولي المتسعة ـ ذلك الرجل الذي لا يجتمع في قلبه شيئان إلاّ امرأة وامرأة، فقط يحلم بأن يتمدد ويضم نساء الأرض إن استطاع ـ. وكان محروس أجيراً لولي ينتهي عمله مع حدود الحقول الغربية. مرت به حليمة وهو يجلس على ربوة عالية يملأ «وظنته»(**) طيناً ويلوح بها في الهواء صارخاً حتى يشق صوته المدى ـ ذاك الصوت المهترئ البالي ـ ويقذف بالطين رؤوس السنابل. . حين مرت به وهو يصرخ، كانت واضعة يدها على أذنها

(*) خداريش: أردى أنواع المساكن، والخدروش عبارة عن فروع أشجار متشابكة تغطى بأغصان الثمام وتضيق حتى لا تتسع لاثنين يجلسان سوياً.

(**) وظنته: مقلاعه.

بدلال وغنج. . فصوته المتكسر الحاد لم يعد ريّاناً كسابق عهده فقد قِيل إن عمله بالحماية خلف له مرضاً بحلقه وغاب صوته عن حنجرته لعدة أشهر وعندما عاد كان نشازاً ثقيلاً يذكرك بصوت طبل مثقوب. . وحين رآها تضع يدها على أذنها سال فمه بغباء عتيق واتسعت حدقتاه حتى لم يعد يستطيع كف يدها التي انتقلت تعيث فساداً بين الحقول. . وأمام دهشته الصامتة كانت تعاود المجيء وتقطف ما تشاء من الأعذاق بعد أن تهبه نظرة فاتنة وتمضي.

وأمام تخاذل محروس في عدم ردع هذه الفراشة عن حقول سيده قام مساعده علي يحي بالوشاية به عند ولي وتحريضه عليه فاشتاط ولي غضباً وأقسم أن يعلقه مكان «الفزاعة» لكي لا توسوس له نفسه أن يمنح نساء المناملة ما يشأن من حقول لا يملك منها إلاّ حراستها، وركب جواده وهز ميهره بيده ليلقي به على ظهر محروس عندما يراه، وهمز جواده وانطلق صوب الحقول الغربية وأنفاسه الغاضبة تسابقه. وحين بلغ المكان وجدها كفراشة الحقول ناعمة، رشيقة، ساحرة، فترجل عن جواده ولم يتمالك أمام عينيها إلاّ أن مد يده ليساعدها في جمع ما قطفت. وبعدها لم يغادر الحقل.

يقولون إنه حاول أن يجني أنوثتها إلاّ أنها تمنعت وظل يمعن في تمنياته، وعندما أوشك أن يصاب بالسعار حرض محروس أن يتقدم لخطبتها ووعده أن يتكفل بجميع لوازم العرس. وقبل ليلة العرس بأيام قلائل جاءه وهو يجلس بين السنابل وأخبره أنه خلع عليه صنيعاً إذ أوجد له عملاً بالقعلة كمسؤول عن أعتى المجرمين ليليق بالفاتنة، مشترطاً عليه أن تعمل هي في داره وتحت إمرته. . وافق محروس وهو لا يكاد يصدق أن الحياة تمنح المنسيين جزءاً من ذاكرتها. . وفي ليلة العرس جاءه ولي ـ كهادم اللذات ـ مهنئاً وطالباً منه الذهاب لاستلام عمله الجديد داخل أسوار تلك القلعة المظلمة. . وحاول محروس جاهداً أن يؤخر تنفيذ الأمر كي يحظى برؤية عروسه ومسامرتها، وثقب ورقة توتها المحترزة بها منذ طفولتها، وكان يحلم أيضاً باقتطاف غيمتيها الناضجتين أو ملامستها بوجهه المتعب إلاّ أن وليّاً زجره ونهاه من أن يفرط في مثل هذه الفرصة التي لن تتكرر فانطلق ذلك الثور يخب في ظلمة عاتية صوب القلعة تاركاً خلفه حقلاً متعطشاً للمطر الخافق. .

لا زال محروس متهيجاً يصرخ بأعلى الصوت:

ـ اشهدوا يا خلق.. اشهدوا يا أهل السوق.. يسبون حرمتي.

أعلم تماماً مقصده.. هو يريدني أن أشتمه علناً.. كي أقع تحت لوم هذه الوجوه المغلقة من كل شيء إلاَّ من الأقاويل.. يتناقلونها بكل همة ويزيدون عليها ما يروي تيبسهم الدائم حتى وإن أدى ذلك إلى عقاب وخيم لمن نسبوا إليه أقاويلهم.. ويتلذذون بعقابه... عقابان يدعوان هذه الوجوه إلى متابعتك حتى نهاية الأرض وهذان العقابان هما عقاب شرب الخمر، وقذف النساء، ففي العام الماضي وعقب خروجنا من الجامع الكبير كان «المطنقر» يضرب طبلته بنشوة وينادي:

ـ الحاضر يبلغ الغائب.. لقد شرب شبرين المنكر وسعى به بين الناس وقتل نفساً بريئة وتنفيذاً لشرع اللّه فقد حكم عليه القاضي بجلده ثمانين جلدة وتعزيره وحبسه قبل أن ينفذ فيه حكم اللّه.. الحاضر يبلغ الغائب.. لقد شرب...

ومضى يضرب طبلته رافعاً صوته ومن خلفه سار جنديان أحدهما تكفل بحمل قارورة ضخمة تفوح منها رائحة خمرية نتنة وبين الحين والحين الآخر يدلق جزءاً منها على شبرين الذي استقر فوق ظهر حمار بوضع معاكس بحيث أصبح وجهه مع مؤخرة الحمار وقد تدلت من عنقه زجاجة صغيرة بها سائل معكر لا يستقر على لون له رائحة نفاذة مشابهة لرائحة سائل تلك القارورة الضخمة التي يدلق منها على رأسه، وكان من مهمة أحد الجنديين دفع الناس عن مسار الحمار بحيث أخذ يقوده بين تعرجات السوق.. وقد أهمل هذه المهمة حين توسط الموكب تجمعات الباعة والمشترين حيث استل خيزرانة ثبتت في «الشد» وأخذ يسوط بها جسد شبرين العاري فيما كانت صرخات شبرين المستغيثة تتعالى دون أن تجد مغيثاً:

ـ يا خلق ارحموني.. بحرمة أمي ما شربته ولا طعمته.

إلاَّ أن السامعين أغلقوا آذانهم وتمادوا في إهانته والبصق عليه.

ها هي الصورة تتكرر بإهانة مصغرة.. فالوجوه تعرض عني وأخرى

تمعن التحديق في وجهي بسخرية متشفية ومحروس لا زال يؤلب الناس عليَّ بصوت حزين:

ـ ألأنني أخدمكم وحابس عمري في القلعة.. أحرس عنكم المجرمين.. تتعرضوا لأهلي والله ويمين الله إن لم تشهدوا لأتركن القلعة بما فيها حتى تجدوا المحابيس يخرجون عليكم فلا تستطيعون دفعهم عنكم.

كنت متيقناً أنه لا يستطيع أن يهرش رأسه دون أن يأذن له السوادي وأهل القرية يعلمون أن العسكر ما هم إلاَّ عصي في يد السوادي يحركها كيفما شاء. إلاَّ أن إمعانه في تهديج صوته والتمادي في الاستضعاف والظهور بمظهر الساهر على أمن القرية استمال الكثيرين إلى صفه فاسترقت له بعض الأفئدة وأخذ المتجمهرون يصبون عليَّ اللوم. فلم أرفع صوتي أو أحاول الرد عليهم خوفاً من استثارتهم وتحريضهم على موتان فهم كالكلاب ما إن تهش في وجهها حتى يتعالى نباحها. كل ما أخشاه الآن تلك الأنفس الباحثة عن رضى السوادي بأي وسيلة كانت. أخشى أن يخرج منهم شهود ليشهدوا أنني تبولت على سمعة أهل محروس.. ساعتها سيجد السوادي وسيلة كي يطبق عليَّ حد القذف أو أن أترك له هامتي مطأطئة.. وقد يلحق بموتان جلدة أو جلدتين من عصا عبده إبراهيم ويتركونه يعود صارخاً إلى داره.

كنت أقف صامتاً محاولاً قدر الإمكان ضبط تأججي ومحتملاً تلك الألسن التي تدفقت باللوم فيما كان محروس يتمادى في استمالة القلوب إلى صفه بالبكاء أو الشكوى مما جعل داخلي يغلي وهممت بلعنه ولعن كل الحاضرين إلاَّ أن خاطراً شغلني عنهم.. كنت أتساءل ـ في داخلي ـ لماذا أمر السوادي بطلبي للقلعة وليس للمركز.. أتكون الخطبة التي ألقيتها بالمسجد هي سبب الاستدعاء.. أم لأنني حرضت درويش على تمكين الأنفار من إراحة تلك القامات التي هدها العمل من الغلس حتى دخول الليل.

ليس مهماً لِمَ استدعاني.. المهم ـ الآن ـ أن أخمد أباطيل هذا الأفاك.. فلا زال يجمع الناس من حوله بصوته الحزين المتهدج.. رفعت صوتي عالياً:

ـ أيها الناس كما ترون وتسمعون لم أفتح فمي بشيء ولكن محروساً يريد إشعال الفتن.

عندها سحبني بكل قوته حتى شعرت أن زنديَّ انخلعا من مكانهما ولم أشعر إلاً وأنا أتدحرج على الأرض.. فلم أطق صبراً فشتمته وشتمت السوادي معه فجاء صوته منتشياً باللذة وكأنه ينتظر هذا منذ أمد فصرخ:

ـ هه.. أسمعتم.. أنه يسب العالم.. وكذلك أنتم..

وقبل أن يكمل جملته كان صوته قد انشرخ بصرخة متألمة لترتخي يده من على السلسلة التي تجذبني وأخذ يتلوى بحرقة حين لمحت درويش يضحك بعمق وقد استقر بيده عود أثل غليظ، كان درويش يتثنى وهو يدور حول محروس الملقى بجواري ولم يمكنه من النهوض أو استيعاب المفاجأة فقد رفع العود عالياً وأعاده بقوة على جسد محروس واستكمل ضحكته متطلعاً في المتجمهرين ورافعاً صوته:

ـ أتريد أن تخبر الناس بأنك تغضب على حليمة؟!.. إذاً سأخبرك بحكاية: لقد جاءتني حرمتك المصونة، وقالت: أنا أشتهيك يا درويش.. لكنني رفضتها.. حرمتك جيفة لا تقربها إلاً الكلاب.

نهض محروس متثاقلاً يفرك ظهره بيده التي لم تستطع اللحاق بمكان الضربة وقبل أن تستوي قامته انهال عليه درويش بعدة ضربات متلاحقة سريعة فعاد يتمرغ بالتراب ودرويش من فوقه يصب ضحكاته المجلجلة الساخرة:

ـ أظن أن أباك قد خصاك يا محروس، فأنت تضاجع القلعة، وحليمة تقطع الليل بحثاً عن تيوس يضاجعونها!!

كان محروس يخرج أنفاساً ثقيلة متألمة والغيظ يشتعل في عينيه.. شد السلسلة التي توصلني به في محاولة للنهوض فسقطت عليه مما زاد غضبه ودفعني من فوقه بضربة من راحة يده ونهض بتثاقل بعد أن سحب «سرو» جذبه من «سجف» مجاور وهمَّ أن يلقيه على رأس درويش فسحبت السلسلة ليختل توازنه ويسقط منه على مقربة من درويش في حين كان درويش متحفزاً

يمسك بعود الأثل ويده الأخرى تمسك بحجر غليظ محذراً محروس والمتجمهرين من الاقتراب منه:

ـ إياك أن تقترب واللّه لأفض رأسك وأترك الكلاب ترتوي من دمك.

شب لغط على أفواه المتجمهرين بين محرض ومهدئ حين ملأ درويش صدره بالهواء وانثنى راكضاً صوب الحقول وقد أطلق لسانه بالشتائم.

استوى محروس قائماً وأحكم السلسلة بيده وشدني إليه بعنف وفمه لا زال يحفل بالشتائم وعندما امتلأت رئتاه بالهواء القادم من حنايا السوق رمقني بحنق:

ـ ستعرف بداخل القلعة من هو محروس.. حرام وطلاق من حليم مراتي إن لم أجعلك تسف التراب سفاً حتى تترك عنجهيتك وسوف ترى.

وجذبني خلفه وسار غاضباً ولم يتبق إلاً أن نخطو عدّة خطوات حتى يصبح السوق خلفنا ليظهر السوادي قادماً باتجاهنا ممتطياً بغلته البيضاء ومتوشحاً ببندقيته الرفيعة اللامعة وقد استقرت على خاصرته جنبية انتهت بقرن مذهب، وعندما تلاقت عيوننا كان في داخل كل منا شيء ما يحتدم ويحترق.. تبسم بمكر وأومأ لمحروس بغمزة من طرف عينيه كي يتبعه، فعاد محروس يجرني خلف ذلك الثور بعكس اتجاهنا حتى بلغنا وسط السوق والسوادي يسير أمامنا ببغلته المتعافية وخببه الواسع وحين رأى المتجمهرين يزدادون حولنا التفت إلى محروس صارخاً:

ـ لماذا تقيد عبد اللّه بهذه السلسلة وتقوده خلفك وكأنه كلب مسعور؟!

وأوقف لسانه عند كلمة كلب بنبرة عالية ومسموعة حين فاضت ملامح محروس بالحيرة والارتباك ذاهلاً من هذا السؤال المباغت ولم يخرج من حيرته إلاّ حين أعاد السوادي استفساره بغضب ليتمتم بصوت متقطع:

ـ أنت الذي أمرت بذلك يا شيخنا.. أنسيت؟!

انتفض السوادي واختلطت بشرته بالحمرة وذوت عيناه وبآخر جهد تمالك غيظه:

ـ وما هو الجرم الذي أحدثه عبد اللّه حتى آمرك بجرجته على هذه الهيئة؟!

لا زال محروس يحافظ على غبائه بعناد مقيت، فلم يفهم اللعبة ونكثها برفع صوته:

ـ أنسيت يا شيخنا.. ألم تأمرني بأن أقوده بين الأزقة وأفضحه بين الناس لأنه تجرأ وخطب في المسجد!!

تمايل السوادي على دابته بعد أن غدا وجهه دهناً يتقطر ولكي يبتر هذه المهزلة التي أوقعه فيها هذا الغبي الأصيل رفع عصاه الغليظة من بين فخذيه وقرع رأس محروس:

ـ أخرفت يا محروس.. أنا قلت كذا.. هيا فكه.. فكه.. اللّه يلعنك ويلعن أباك.

كان محروس يضع يداً على رأسه والأخرى تبحث عن مفتاح الكلبشة وآهة كبيرة تسللت عبر فمه المفتوح بالدهشة وهو لا يصدق ما يحدث وفي ربكته هذه زاد له نقرة أخرى فدس يده في أسفل جيب «مدرعته» وأخرج المفاتيح وأطلق يدي وهو يرفع صوته ببطء:

ـ يا شيخنا قبل أن تتركه يمضي هكذا أنا عندي شكوى، فابن الشاقي سب حرمتي على مسامع الخلق وأنا أريدك أن تقتص لشرفي.

تمايل السوادي على ركوبته محاولاً تبديد غضبه فأخرج ضحكة قصيرة متوترة:

ـ لا بدّ وأنه كان يمازحك.

والتفت إليّ ليجد عيني مسمّرتين به، فجمع قطرات غيظه وغضبه.. ورمقني بعين متقدة ورفع صوته في اتجاه محروس:

ـ دع عبد اللّه يذهب لعمله ولا تعطله أكثر مما مضى ويكفيه ما حدث منك إن كان قد سبك.

ولكز بغلته بقوة وانطلق متجهاً صوب حصنه وتوجه محروس للقلعة والمتجمهرون يقذفونه بضحكاتهم الطويلة.

قلّة هم من يمتلكون كل شيء بطرفة عين..
وكل الشقاء أننا نحن الذين نمدهم بهذا النعيم

موتان

في طفولتي الأولى كنت أحلم أن يصبح لنا بيت واسع وحقول كثيرة وأنعام ومال كثير وحين دخلت إلى الحياة أصبحت أحلم بموت السوادي. أذكر أنني كنت آتي لأمي باكياً وأسألها بحرقة:

ـ لماذا السوادي يمتلك كل شيء والقرية لا تملك شيئاً؟!

فتضمني إلى صدرها وتمسح شعري وتسرح بعينيها بعيداً وعندما ألح عليها بسؤالي تنفث في محاولة للتخلص من أسئلتي المتلاحقة:

ـ الذي يمسك بالقلم لا يكتب اسمه في زمرة الأشقياء!!

من يومها قررت أن أتعلم وأن أختم المصحف فانتظمت في حلقة قراءة القرآن عند السيدة آمنة وكنت أحاول جاهداً أن أتفوق على أقراني إلاً أن قدوم يوم الخميس يشعرني دائماً أنني لن أمسك القلم في يدي. ففي ذلك اليوم تقف «سيدتنا» فوق رؤوسنا قبل بدء الدرس وتُطالب بـ «الخميسية»(*) ومن لم يأتِ بنقوده معه يغادر الحلقة بصمت ولا يعود إلاً بها.. وكان معظم زملائي الذين لا يقدرون على جلب الخميسية يغادرون الحلقة دون أن يتفوه أحد منهم بشيء إلاً أنا أقف أمامها متوسلاً:

ـ اكسبي ثواباً بتعليمي فنحن فقراء ليس لدينا نقود.

(*) الخميسية: هي يوم الخميس ومن كان يقرأ في الكتاب فإنه يدفع لمعلمه أو معلمته مبلغاً مالياً مع نهاية كل أسبوع والذي يوافق يوم الخميس.

كنت تدفعني كل مرة إلى خارج الحلقة وحين تكرر وقوفي أمامها اشترطت عليَّ أن أعمل عندها مقابل تعليمي فانهمرت دموعي فجأة، وأخبرتها ـ وهي تعرف ذلك ـ أنني ما إن أخرج من الحلقة حتى ألتحق بالسوق للحصول على لقمة لإخوتي المنتظرين في البيت، فتناولت عصاها الطويلة الغليظة وقرعت رأسي بشدة وأمرتني أن أغادر الحلقة، ولكنني بقيت واقفاً أنثر دموعي، وأترجمها أن تبقيني. واقترحت عليها أن أعمل عندها أثناء الدرس.. فوافقت بعد أن أمطرتني بشتائم لا قبل لي بها وكنت ما إن أنهي قراءتي حتى أخرج للتعليف برفقة من لا يقدر على دفع «الخميسية» وكان الويل لنا إن عدنا بعلف لا يكفي لبهائمها التي لا تمل من المضغ، وكان العقاب يختلف حسب أهمية أسرة كل منا، ووفق ارتباطها مع أمهاتنا.

في أحد الأيام لم أكن أرغب في التعليف فقذفت بالمحش و«الخيطية» التي أربط بها ما اعتلفته وركضت بين الحقول للإمساك بالزماميح تاركاً لزملائي تلك المهمة اليومية في إشباع دواب سيدتنا، وعندما عدنا كنت أربط زموحاً بخيط طويل من إحدى أرجله الخلفية وكنت سعيداً به وأتصور أن سيدتي ستشاركني سعادتي هذه وستزف لزملائي خبر قدوم مواسم الزماميح وستكافئني على هذا الإنجاز الذي حققته لإمساكي بأول زموح في هذا الموسم، إلاّ أنها حين رأتني بلا علف أمسكت بطرف أذني وفركتها بشدة ولم يشفها هذا العقاب فأخذت تبحث عن وسيلة أكثر إيلاماً وكنت أخشى أن تدخلني مخزن الحبوب وتغلق عليَّ الباب لكن هذا الخاطر زال عندما تذكرت قصة زميل لنا لم يسعده الحظ في جلب ما طلبت منه من علف فأدخلته إلى المخزن وأغلقت عليه باب المخزن فظل زميلنا يصرخ طويلاً بعدها همد صوته تماماً وحين أوشك الدرس على النهاية أخرجته وقد أصابها الفزع لما أحدثه ذاك الصبي من خسارة فادحة لها، فقد أتى على كيس «الجلجلان»(*) وثقب أكياس القمح ولم يكتفِ بذلك بل تبول وتبرز في أماكن مختلفة من المخزن، فاندفعت نحو الصبي كالمجنونة تضربه بأي شيء وفي أماكن متفرقة من

(*) الجلجلان: السمسم.

جسده ولم تتركه حتى تدخل بعض النسوة القريبات من بيت السيدة بعد أن سمعن صوتها وصوته المتعالين، وطردته ورفضت أن تستقبله في الدرس بالرغم من تدخل وسطاء كثيرين واشترطت إن هو عاد أن يعيد «الجلجلان» الذي التهمه وفضل أهل الصبي أن يدفعوه إلى المراعي بعيداً عن حلقة الدرس.

كانت لا أزال أصرخ ـ متألماً ـ تحت ضغطها المشتد على أذني وهي لا زالت تفكر في وسيلة أجدى لعقاب طفل لا يرجى منه فائدة.. وهداها تفكيرها إلى أن تضع يدي تحت إحدى قوائم «الشبرية» وأن تجلس مع اثنين من الصبية فوق الشبرية. ولم تخرج يدي من تحت «الركبة» حتى سكت صوتي وغبت عمن حولي طويلاً وأفقت وهي ترشني بالماء، وعندما نهضت أسكنت عصاها على ظهري وهي تصرخ:

ـ هيا عد إلى أمك وإياك أن تعود إلى هنا مرة أخرى.

ركضت من أمامها وأنا غير مصدق من نجاتي وحمدت اللّه على أنني لم أتعرض لما تعرض له ذلك الصبي الذي خرج معنا للعلف فامتدت يده لحقل السوادي وجنى بعض تولات من القطن وخبأها في «وزرته» وقبل أن يغادر الحقل لمحه السوادي فصرخ فيه، فركض بكل ما أوتي من قوة إلاً أن شقاة السوادي حاصروه من كل جانب، وأحضروه أمام السوادي الذي أودعه سجن المركز، ولم تفلح توسلاته وبكاء أهله الذين وقفوا على باب السوادي ليلتين متتاليتين ولم يخرج حويس من القلعة إلاً بعد أن أفصح للسوادي أن السيدة آمنة حرضته على ذلك، يومها عاد حويس إلى حلقة القراءة لتجد السيدة آمنة مبرراً لحصدنا جميعاً باللعن والضرب المبرح ولم تستثنِ أحداً وكان من نصيب حويس أن وضعت يده تحت الركبة ولم تتركها إلاً أن أصبحت لا تصلح لشيء.. فقد ماتت تلك اليد وأصبحت مدلاة من كتف حويس وكأنها غصن ذابل.. وعلمنا من ذوينا أن السوادي أخذ عليها معادين من الحقول الشمالية مقابل تولات القطن التي قطفها حويس. ولم ينفعها حسبها الذي تتفاخر به دوماً على بقية النساء في كونها من أصل شريف لا يمكن أن تتساوى مع الأجناس الأخرى ولم يتمكن أخوها الشريف حسين من استعادة

أرض أخته من براثن السوادي بالرغم مما كان يتمتع به من غلظة وقسوة.

كنت أحمد اللَّه على سلامة يدي وإن تبقت داخلي رغبة العودة لكي أصبح قارئاً.. وأخذت أفكر في وسيلة تعيدني إلى حلقة الدرس مع علمي أن من يغضب السيدة لا تقبل بعودته مرة أخرى.. وجميع الصبية الذين غادروا حلقتها لم تأسف عليهم ولم تلن لتوسلات أهليهم بالسماح لهم بمعاودة القراءة عندها.. ولم تحاول يوماً السعي وراء أحد خرج من حلقتها باستثناء «خديجة أمعلي» تلك الطفلة التي كانت تخدمها في البيت. ففي أحد الأيام أرسلتها معنا للتعليف فرآها أبوها وهي تجمع العشب من أماكن متفرقة فأمسك بشعرها وضربها بقسوة وصراخه يتعالى:

ـ لو كنت أريدك لهذا العمل لما سمحت لك بالذهاب إلى الكتاتيب.

وبعد هذه الحادثة غيَّرت خديجة وجهتها فبدل أن تحضر للدرس كانت تذهب للتعليف مباشرة ولكن لأهلها وليس للسيدة. وقد تنازلت السيدة في ذلك اليوم عن غطرستها فحملت «شيظرها»(*) وذهبت لأبي خديجة وحاولت معه أن يسمح لابنته بالعودة لكي تتعلم إلاَّ أنه رفض تماماً ومن يومها لم تقبل عودة من تطرده مهما كان الأمر.

ولا أدري كيف تنازلت عن قرارها الصارم هذا أمام حالتي.. ففي اليوم الذي سحبتني والدتي خلفها ودخلت على السيدة «متجورة»(**) بها لكي تعيدني للدرس وحرضتها ضدي بشكل معلن:

ـ لقد وهبته لك، فلك اللحم ولي العظم.

وكانت سيدتي تحدثها بغلظة ومن طرف أنفها:

ـ لا أريد لحمه ولا عظمه.. عليه أن يأتي بالخميسية فقط.

فحكّت أمي مؤخرة رأسها:

ـ نحن خدمك يا سيدتنا.. ولما ربنا ييسر عليَّ لك من هذا الوجه

(*) شيظرها: وهو ما تستر به المرأة عند خروجها ويشبه كثيراً غطاء المرأة الشامية وهو عادة يتكون من ثلاث قطع سوداء.

(**) متجورة: لائذة وعادة ما تقترن بالدعاء وتقبيل الأيادي.

ـ ومررت سبابتها من مفرق رأسها إلى أسفل ذقنها(*) ـ أن أقوم بتسديد ما علينا من «خميسية».

أقول لا أدري كيف تنازلت عن وعدها السابق بعدم إرجاع من طردته.. ففي اليوم التالي من ذهاب أمي إليها عدت إلى الدرس.. وبقيت خادماً لها وتلميذاً حتى استطعت أن أفكّ الحرف، يومها عدت فرحاً إلى أمي وتناولت لوح وكتبت عليه بخط عريض:

ـ موتان سعيد.

وبقيت لأيام عديدة أكتب تلك الجملة، في كل مكان أصله في الوادي، وعلى الأشجار، وفي الخلاء، وعلى التراب، وعلى الأواني التي نستخدمها، وكنت أنتظر الغنى وأمنية توسوس بداخلي علني أغدو غنياً ذا مال ووجاهة وانتظرت السعادة والمال والحقول لأيام وعندما لم يتحقق ذلك قذفت باللوح في وجه السيدة آمنة وعدت أستيقظ من الصباح الباكر وأيمم وجهي صوب السوق بحثاً عن عمل أجدى من خدمة السيدة آمنة ومن تعليمها.

تعاودني صورة الحقول كلما قفلت عائداً من السوق. فبعد أن أتدبر طعام إخوتي يتبقى أمامي إطعام بهائمنا. كان الخروج بها للمرعى يعد مخاطرة غير محمودة العواقب فقد تنفلت إحدى الغنمات صوب أحد حقول السوادي وتسرح فيها، ساعتها لا يكفي كل ما نملك سداداً لما أكلته تلك الغنمة. لذلك كان معظم الرعاة يسوقون دوابهم في اتجاه مغاير للحقول حيث يندر وجود العشب. ويعودون مع الغروب وبطون دوابهم تصرخ من الجوع أو من ألم الأشواك التي مضغتها. وكانت أجدى وسيلة أن تخرج منفرداً وتحش ما تصادفه أمامك من عشب وتعود به لأغنامك.

وكنت كلما جاعت بهائمنا المعدودة ولا أجد في حوزتي ثمن حزمة (عجور) يابس أقدمه لها... أخرج للمراعي الموازية للحقول وأعتلف

(*) تمرير السبابة من مفرق الرأس إلى الذقن تؤخذ كقسم غليظ يوجب على صاحبه تنفيذ ما أقسم به.

العشب القابع خلفها أو أمامها أو بداخلها مستغلاً انشغال عيون الحماة بملاحقة النمالية أو بانشغالهم بتخازينهم اليومية.

ذات عصرية خرجت وكنت أتحاشى التعليف من حقول السوادي وما جاورها، وقد ظللت أجوب حقولاً عديدة فلا أجد فيها إلاَّ أعجاز السنابل المحصودة أو شوك «الزغف»(*) المتناثرة في الأرض الجدباء وهممت بالعودة خالي الوفاض، إلاَّ أن نفسي راودتني بالسير بمحاذاة حقول السوادي، تلك الحقول التي تختال فيها السنابل عالياً وبخضرة دامية، وعبثاً حاولت أن أكبح رغبة حادة لازمتني في اقتحام هذه الحقول لأعتلف كيف شئت.. معللاً النفس بأن أعواد القصب كفيلة بستر جسمي الصغير وساترة عني عيون الحماة المتربصة بكل من يحاول التسلل إلى داخل الحقول. وكلما حاولت أن أثني هذه الرغبة تذكرت دوابنا التي أوشكت على النفاد فهي منذ ليال عدة، تبيت طاوية حتى إنها لجأت لمضغ لحاء أعواد «السجوف».. تمهلت قليلاً وأدرت عيني في جميع الاتجاهات وسرت بمحاذاة الحقل الشرقي حتى إذ لم يعد خلف الحقول إلاَّ أحراج تكثر بها الهوام، انعطفت قليلاً وتسللت مسرعاً إلى داخل الحقول وطفقت أعمل المحش بهمة حتى إذا امتلأ جبي علفاً مددت يدي لقطف حبات «الدجرا»(**) تكفي زواداً لثلاث وجبات، ووضعتها على العلف.. فجأة سمعت وقع أقدام بداخل الحقل فأحسست بوجفات قلبي ترتفع حتى تكاد تفضحني ولهاثي السريع المتلاحق يحيلني إلى موجات مرتعدة، وازداد هلعي عندما سمعت صراخ الحماة وأصواتهم المتعاقبة التي يطلقونها للتحذير:

ـ هيا أخرج قبل أن نأتيك ونكسر رجلك.

فألقيت بما اعتلفته على الأرض وحملت «محشي وجبي» الذي أفرغته وخرجت مذعوراً. كان أحدهم يمنحني ظهره ويردد تحذيراته فجذبته من

(*) الزغف: نوع من أنواع الأشواك ذو جذور قصيرة جداً تكون نبتته مساوية لسطح الأرض يكثر في الخبوت.

(**) الدجرا: نبتة من ذوات الفلقتين أشبه بالفاصوليا وتسمى في الحجاز باللوبيا.

مدرعته بلطف واستسمحته.. فلما رآني قال لي متسائلاً:

ـ أكنت تعتلف؟!

فهززت رأسي، فأمسك بأذني وصفعني على وجهي وبصوت غليظ خاطبني:

ـ أتريدني أن أحبسك؟!

فانفجرت عيناي بالدموع ليتناول غصناً رياناً وضربني وهو يصرخ:

ـ هيا انطلق قبل أن يراك أحد.

فركضت من أمامه بكل قوة مخلفاً محشي وجبي، وأنا غير مصدق نجاتي من الحبس، وكنت أركض وأتطلع إلى الخلف ووسواس مرعب يداخلني، وثمة صوت يتبعني ـ ربما كنت أتوهمه ـ بقوة:

ـ سوف ألحق بك وأدخلك سجن القلعة.

ضاعفت من سرعتي حتى كدت أقع مراراً حين كانت تعترضني شجرة أو «زبير» ناهيك عن الأشواك التي اقتاتت باطن قدمي بنهم.. وبعد أن قطعت الوادي وظهرت لي مشارف القرية، أحسست بقليل من الأمان، فتوقفت أجمع أنفاسي بصعوبة، وألقيت بجسدي على الأرض وأخذت أسترجع أنفاسي الهاربة وأكبح زمام وجيف قلبي المتلاحق حتى إذا هدأت قمت ونفضت ملابسي وخوفاً من أن يهاجمني أحد ممن يتبعني ـ أو كنت أتوهم أنه يتبعني ـ اقتطعت عوداً من أشجار «السرو» التي تحيط بقريتنا ـ كان عوداً يابساً ـ واتجهت إلى البيت وأنا أتلفت للخلف كثيراً حتى إذا دخلت إلى القرية كنت لا أكاد أصدق أنني نجوت.

في الطريق لمحت مجموعة من الصبية منكفئين حول رجل وهو أسفل أقدامهم يصرخ ومنظره يدعو إلى الرثاء فأقبلت نحوهم مسرعاً وفرقتهم بالعود الذي أحمله فتفرقوا وهم يتصايحون ويلعنونني، لينهض درويش دامي الوجه، فرآني أمامه وأنا لا أزال رافعاً العود ـ الذي فرقت به الصبية من حوله ـ باتجاهه، ليبادرني بلطمة على وجهي فأمسكت صدغي، وقبل أن أتفوه بكلمة كانت أيدي الصبية تقذفنا بالحجارة فانزويت به جانباً، عندها حاول أن يسترضيني فتركته وأكملت طريقي نحو البيت ولهيب الصفعة يحرق وجهي.

كانت صالحة تقف في وجهي وعندما رأتني خالي الوفاض صرخت باستنكار:

ـ أظنك ذهبت لتلعب ونسيت أن تعتلف للدواب؟!

وقبل أن أتفوه أكملت:

ـ انظر إليها إنها تموت فمنذ ثلاثة أيام لم تأكل شيئاً.

أهملتها وتحركت باتجاه الشربة ودفعتها لفمي، وأخذت أعب من الماء حتى ارتويت ليصدر مني لهاث متقطع، اقتربت صالحة مني غاضبة:

ـ ألا تسمع.. أقول لك إن دوابنا ستموت وأنت لم تجلب لها «عجور» ولم تكلف نفسك وتعتلف لها ما يؤخر موتها.

أحسست برغبة حادة في افتعال الشجار معها فرفعت صوتي عالياً وطوحت بيدي في وجهها كدت «أشرق» فقذفت بشربة الماء حتى تناثرت شظايا:

ـ نعم لم أعتلف، فأريني ماذا ستفعلين؟!

كانت لا تزال تتحسس مكان الصفعة وهي غير مصدقة، تماسكت وصرخت بي:

ـ لقد أصبحت «عويلة» لا تصلح إلاّ للبيت وتفلية نساء القرية.. ناولني المحش والجب وأنا سأذهب لأعتلف.

ساعتها تذكرت أنني تركت المحش والجب تحت قدمَي الحامي وفررت بجسدي.. عندها تهاوت رغبة الشجار في داخلي وأخبرتها بما حدث لتنكفئ ضاحكة.. أغاظتني ضحكتها فأمسكتها من جديلتها:

ـ لماذا تضحكين؟!.

كانت ضحكتها لا تزال تتدفق بشهية منفتحة حتى إذا انتهت وتبقى منها تلك الابتسامة العريضة ضمتني إلى صدرها وهي تقبلني:

ـ الحماة دائماً يصيحون هكذا بينما هم لا يرون أحداً.. فقط تسمعهم يتهددون ويتوعدون ليخيفوا من بداخل الحقول إن وجد، وأنت صدقتهم وتركت لهم محشنا وجبنا.

وارتفعت ضحكة جديدة من فمها لأشعر برغبة عارمة في إشباعها لطماً إلاَّ أنني لم أقوَ على ذلك، بل تحركت عائداً لتلك الحقول ومتسللاً لداخلها وانهمكت في التعليف تاركاً أصوات الحماة تدوي في أرجاء الحقول.

وأصبحت عادتي أن أتسلل في حقول السوادي وأملأ جبي بالعلف وأعبث بداخلها كيف شئت وقد تجرأت وأصبحت أقطف عدة عذوق ناضجة وأخبئها تحت العلف... أو أقطف حبات من قرون الدجرا اللينة الخضراء ما يكفينا ويكفي جيراننا المقربين. وكنت بعد أن أنهي تعليفي وأتزود بأي شيء أصادفه أمامي أحمل جبي على رأسي وأخرج من الجهة الجنوبية التي تنتهي عن قبة راعي القضبة ومن هناك أستدير باتجاه العين الحلوة وأدخل القرية بعد أن أغطي العلف بالطين وأتظاهر بأنني قادم من المطينية وأن حملي ثقيل.

في أول مرة قمت بهذا العمل رأتني صالحة أفرغ حمولتي أمام البهائم بفرح ففغرت فمها غير مصدقة، وعندما حضضتها أن تجهز لنا الدجرا وأن تبقي العذوق لنشوطها ونأكلها في المساء كانت الدهشة تعقد لسانها فانشغلت بجمع أعواد القصب اليابس من المطرح وجلست أصنع «طنبرا»(*) كنت أشعر أنني حققت ما لم أكن أقوى على تحقيقه، إلاَّ أن هذا الشعور أخذ في الانحسار والتراخي حين عادت والدتي من بيت الشريف حسين بعد يوم طويل من التعب والطلس وأتت إليَّ قبل أن تغتسل أو أن تغيّر ثوبها العالق به الروث والطين.

كانت غاضبة كما لم أعهدها من قبل، أمسكت كتفي وهزتني بعنف:

ـ أصحيح ما أخبرتني به صالحة؟

ـ وما هو الذي أخبرتك به؟!

ـ بأنك أصبحت سارقاً، تسرق الدجرا والعذوق.. ألا تراني أتعب وأشقى من أجل أن تأكلوا حلالاً طيباً.

كان صوتها ذاوياً، يخرج محروقاً، فلاطفتها:

(*) طنبرا: أداة موسيقية بدائية تصنع من الخيزران أو من قصب السنابل على هيئة القانون وتكون رديئة إذا صنعت بأعواد قصب القمح.

ـ ومن قال لك إننا نأكل حراماً يا أماه؟

ـ وماذا تسمّي فعلتك هذه؟

حاولت أن أكون ظريفاً للتخفيف عنها وتمثلت الشيخ موسى وهو يخطب في ردي عليها:

ـ الرجل لا يزكي عن ماله، ورأيت أن آخذ زكاتنا منه عنوة خوفاً عليه من دخول النار.

انفلتت من بين شفتيها ضحكة سرعان ما استدركتها بتقطيب حاجبيها، إلاً أن الضحكة كانت أقوى من تقطيبتها فأطلقتها رنانة وجذبتني لتضمني إلى صدرها وتعبث يدها بشعري تاركة لسانها يوجهني برفق:

ـ لو أمسك بك أعوان السوادي فلن يتركوك إلاً بداخل القلعة.

وذهب تحذيرها مع نسمات ذلك المساء المتهالك فلم يكن ـ تخويفي بالقلعة ـ كافياً لإحياء ذلك الخوف القديم الذي يجعلني موجة رعب كلما خطر ببالي بطش السوادي، وقد أدمنت التسلل إلى حقول السوادي كلما جاعت بهائمنا، وفي أوقات كثيرة أتسلل إمعاناً في إذلال الخوف الذي بداخلي، وكنت أعلف وأنا لاه عن حماة السوادي وقد يطيب لي أن أدندن بصوت خفيض لدرجة أنني أصبحت أحمل معي «الطنبرة» أداعبها إذا هدني تعب التعليف وقد أرفع صوتي بأغنية متداعية لا أفقه إلاً بعض كلماتها.

اليوم أظن أن فؤادي الصغير توقف عن النبض، فبينما كنت أعلف سمعت حفيف السنابل وهي تهتز بقوة ويتقصف بعضها تحت أقدام تسير بخطى ثابتة متمهلة، وضعت محشي في الجب والتزمت الصمت وثمة خاطر يوسوس لي بالهرب لولا تذكري أن قوائم السنابل ستعيقني عن الركض وسيستدل القادم من خلالها على وجودي.. قذفت بخاطر الهرب بعيداً وتواريت محاولاً الاختباء عكس اتجاه الأقدام القادمة وختمت على تنفسي وحركتي خشية أن تبوح بمكاني.. أوه.. الويل لي لو كان هذا هو السوادي بعينه فهو سيئ النية لا يركن في أحيان كثيرة إلى عماله في حماية الزاهيب ـ وغالباً ـ يفاجئهم بزيارته المباغتة ويتعمق بنفسه بين الحقول عله يجد أحداً

يعبث في الحقول وإذا ما وجد أحد عماله مسترخياً أو متقاعساً هوى بعصاه الغليظة على رأسه ويسرحه من خدمته. . أذكر أنني رأيت أحد عماله لابساً دمه يجوب السوق مشجوج الهامة وهو يبكي أمام الناس ويسترحمهم أن يجيروه من السوادي. . كان يجوب السوق باكياً شاكياً ما أصابه بصوت متقطع:

ـ كنت أحمي الحقول الداخلية وبينما كنت في الجهة الشرقية تسلل بعض النمالية ـ أثناء دوراني ـ «وصربوا» الحقل وقبل أن يغادروا كان السوادي يتوغل بداخل الحقول وما إن رآهم حتى أمر أنفاره بالركض خلفهم وركضنا جميعنا ولم نفلح في الإمساك بهم فقد انزرعوا بداخل الأحراج وخشينا إن نحن تبعناهم أن تكون نهايتنا هناك. . فعدنا نجر خيبتنا وهلعنا من السوادي وحين رآنا أمطرنا جميعاً «بميهره» الغليظ وعندما علم أنني المكلف بحماية هذه الناحية هوى بعصاه على رأسي وتوعدني أن يعلقني على سرو البئر لمدة يومين.

وهنا توقف عن سرد حكايته وأخذ يصرخ في كل أهل القرية كي يجيروه فلم يجد أحداً يجيبه، بعدها سمعت بهروبه إلى الخلاء.

كنت أرتعد وأنا أتذكر حكاية ذلك الرجل، خاصة وأنه لم يجد في كل القرية من يجيره من بطش السوادي. . كنت أرتعد وتلمست رأسي وغطيته بكلتا يدي خوفاً من «ميهر» غليظ يسقط على رأسي ويحيلها إلى شظايا، وكنت أضمر في داخلي إن أنا نجوت هذه المرة أن لا أعود للتعليف من حقول السوادي ما حييت، وأخذت أتلو آيات أحفظها لمثل هذه المواقف بينما كانت الأقدام تتحرك والقصب اليابس يتقصف تحتها وصوت كالدمدمة يسبق تلك الأقدام.

يقولون إن السوادي وجد ذات مرة امرأة «تنصد» في حقله فأخذ محشها من يدها وحَشّ لها أذنها.

ويقولون إنه وجد غلاماً يقطف بعض العذوق فأمسك به وربطه بحبل مجدول بحشائش الحلفا وقذف به على كومة شوك، وفي اليوم الثاني جاءه حرس القلعة واقتادوه إلى هناك ولم يخرج من سجنته تلك منذ ما يقارب عشر

سنوات مضت. وإن كان هناك من يقول إن سبب سجنه لا يعود لقطفه تلك العذوق وإنما كان لسبب آخر يرويه الكبار بتكتم عجيب ولم أفقه إلى الآن ماذا يعنون بقولهم:

ـ إذا لم يكن كذلك فلماذا لم يتزوج إلى الآن؟

ويروون أيضاً أن أحد المزارعين ربط حماره بشجرة أثل وذهب ليتبول فانفلت الحمار من رباطه وتوجه إلى أحد حقول السوادي وأخذ يلوك ما يقابله فأطلق عليه السوادي عياراً نارياً لم يمهله أن يهضم ما ابتلع وأطلق عياراً آخر على صاحبه الذي توقفت الحياة في عروقه قبل أن يجف بوله على الأرض.

حكايات مرعبة كثيرة عبرت رأسي الصغير وأنا قابع في مكاني ليزداد لهيب الخوف في أوصالي وأظل متحفزاً لأي يد تبطش بي حتى أنني أخرجت «محشّي» ووضعته في يدي وعزمت أن أبقر بطن من يحاول الإمساك بي. كانت الأقدام تقترب وقوائم السنابل تتمايل أمام تلك الأيدي التي تنحيها عن قاماتها أثناء السير، ومن خلال تمايل السنابل والفرجة التي تتركها بينها وبين ما يجاورها يمكن التخمين أن القادمين لا يتجاوزون الأربعة.

خيل إليَّ أنني سمعت صوتاً أنثوياً طاغياً فهدأ خوفي قليلاً لأنني كنت أسمع ـ عن طريق الصدفة أن المرأة العاملة في الحقول ـ عندما يحن لها زوجها يأتيها ويتعمق بداخل الزاهيب وهناك يمارسان عشقهما ويمضيان.

مرت الأقدام بجواري فاستطعت أن أميِّز وجه درويش، ذاك الوجه الكاحل السمرة، فقد كان يتقدم امرأتين إحداهما لا تزال في عمرها الغض تتثنى بدلال فائر والأخرى تقوس ظهرها وإن أبقى لها الزمن قليلاً من سلاطة اللسان.

تقافز إلى خاطري الشك.. درويش وحليمة معاً.. كيف؟! يا لهذا اللعين!

لا بدَّ أنه كسب ودها مقابل بعض العذوق أو محزم «عجور»... فودها ثمنه بخس، فهي دائماً فائرة وشبقة، يقولون إنها لا تمانع ولا تتورع عن مضاجعة الكلاب.

تحركت من مكاني بحذر وتبعتهما. . حث درويش المرأة المسنة أن تتجه لقطف ما تشاء من العذوق وأمسك بحليمة من يدها ودفعها إلى داخل الحقل بين السنابل المتسامقة.

يا له من لعين يريد أن ينفرد بهذه المرأة الفائرة بالرغبة. فتبعتهما من حيث لا يريانى. . اقترب درويش منها وأمسك بها فبدت منها حركة غنج حين كانت ملامح درويش تتصبب حزماً. . سمعتها تمد ضحكة رطبة مليئة بالنداء:

ـ ماذا بك يا درويش. . هل تريدني؟!.

لم أكن أتوقع ما حدث فقد بصق في وجهها وهدر بصوته:

ـ أريدك. .

وأطلق ضحكة جافة وأردف:

ـ أنت كالخراء، الذباب عليك من كل مكان ولا تشتهيك إلاَّ النفس المريضة.

جفلتْ وتغيَّرتْ ملامح وجهها الشهواني لتمتد يدها وتطوح بها في ذلك الوجه الناحل الذي أدهشته الصفعة فأمسك بشعرها بعنف، فأخذت تئن تحت جذبه المتواصل وكان حديثها ممتلئاً غيظاً:

ـ أنت لو رأيت «حمارة» لرغبت في ركوبها!!

لا زالت يده ممسكة بشعرها والأخرى ارتفعت عالياً وكان يهم بأن يلقيها على صدغها إلاَّ أنه أبقاها معلقة ـ من شعرها بين يديه ـ وبغيظ جذبها للأعلى وصرخ فيها:

ـ واللَّه لولا أن يقولوا ضرب «حرمة» لكنت أشبعتك ضرباً.

تراخت يده وظل ممسكاً بشعرها ومن بين تأوهاتها خرجت كلماتها مبعثرة:

ـ هه. . . ماذا تريد مني. . أنا حسبتك تريدني. . لأنك قلت لأمي اذهبي واحصدي بعيداً. .

ـ سأقول لك ماذا أريد منك. .

ـ هه . . قل . .

ـ لو لسانك نطق وأخبرت وليّاً أو أي مخلوق بأني أترك الناس يأخذون ما يريدون من الحقول . . سأقطعها لك وأرميها للكلاب ولن يمسني أحد بشيء فأنا مجنون عند الكل .

ـ لا . . لن أقول لأحد فقط اترك شعري .

تركها فأعادت خصلات شعرها للخلف وأصلحت هندامها وهي لا تزال تتمايل بغنج فاتك وتنظر إليه بتودد . . فصاح بها زاجراً :

ـ يا قليلة الأصل أمك وإخوانك ميتين من الجوع وأنت دايرة بين أحضان الرجال ابحثي عن عمل أشرف لك .

رأيتها تنفش شعرها ويزداد تمرد جسدها فتنة وإغراء .

ـ عيناك تقولان إنك تشتهيني . . وأنت تبدي النصح الكاذب . . أقول لك هيا اقترب ليس بيني وبينك إلاّ مد اليد .

وتشاغلت بفك أزرار صديريتها مادة لسانها للخارج ومسدلة عينيها بإغراء فاحش تحرك نحوها درويش مسرعاً لاهثاً رافعاً يده باتجاه صدرها . فضحكت حليمة ضحكة طرية مرتوية :

ـ ألم أقل لك إنك تريدني؟

«يا للعين كنت أظنه شهماً فإذا به يقدم على الجيفة بنهم» .

فجأة رأيت يده تتراجع ونصف حليمة الأعلى بزغ ناضجاً فائراً يصرخ للإسراع في عصره وقطفه . .

كل شيء في درويش كان صامتاً ، يداه ـ فقط ـ انشغلتا بخلع مدرعته وعندما استعصت عليه قطع خيوطها ـ تلك الخيوط التي تربط بين دفتي عيون المدرعة ـ باستعجال بينما كانت حليمة منهمكة في التعري وهي تنظر إليه بتلذذ وتشف :

ـ طيبتكم مع الحريم تريدون لها ثمناً .

قالتها وهي تقهقه بصوت ناعم مثير وواصلت حديثها الذي لم تكن تعني به إلاّ نفسها :

ـ أمري وخيرتي للّه حتى المجانين.

أخيراً تمكّن درويش من خلع مدرعته فبان صدره العريض الذي لا يتناسب مع قامته وأقبل نحوها ممسكاً بمدرعته المفرودة بين يديه فأحاطته بذراعيها وأطلقت قبلة في الهواء ليلقي عليها بمدرعته ساتراً نصفها العاري وشهق بصوت مرتفع، وقبل أن يتسلل بكاؤه إليها كان يركض خارج الحقول فتتقصف تحت قدمَيْه أعواد القصب.

«يقولون إن درويش مسكون بجنية ولا شك أنها ركبته عندما أحست به على وشك أن يخونها مع إنسية».

كان هذا الخاطر يلازمني حينما تبعته لأرى أمره.. كان مع لهاثه يصلني نحيب متقطع حتى إذا بلغ تلك المرأة المسنة وكانت منحنية تعلف بوهن وتحش العشب بمحش مثلوم.. وقف بجوارها وأخرج من «حزبه» منجله وحصد لها محزمين «عجور» وربطهما لها وحملهما للخارج وشد بغلتها وأوثق المحزمين على دفتي الشد وساعد العجوز على ركوب بغلتها ومد يده إلى «كمره» وأخرج ريال فرانصي ودفعه إليها:

ـ هه.. يا خالة.. هل أنت راضية الآن؟

كانت المرأة تنظر إليه بريبة والريال لا زال بيدها وإن تبقى فمها فاغراً ببلاهة مفاجئة:

ـ حتى أنت؟

ـ ماذا تعنين بـ «حتى أنت»؟!؟

ربطت الريال بمقلمتها بعناية ودسته تحت مظلتها وتطلعت صوب درويش وهي تضحك فلم يبدُ من مقدمة أسنانها إلاّ سنّان نافران:

ـ كأنك الليلة تريد حليم؟!

يبدو أنه لم يطق تلك الجملة فقد ضرب رأسه بكلتا يديه وهو يصرخ:

ـ أنتِ عاهرة.

لتهتز من على بغتلها بغضب:

ـ ما العاهرة إلاّ أمك.. خذ نقودك وعجورك.. حليم توزن بالذهب يا مجنون.

ورفعت صوتها منادية على ابنتها التي وصلت وهي لا تزال تصلح صديريتها وتسند نهدين جبليين وسارتا بجوار بعضهما وهما تتطلعان إلى درويش وتضحكان في حين جلس درويش يضحك باستهجان ودفع من صدره زفيراً حاداً أعقبه بصرخة مجلجلة:

ـ يا اللّه.

بعدها شعرت أن الوادي فار وانغلقت كل منافذه.

* * * *

لم يعد يروقني الذهاب إلى السوق، فظهري الصغير لا يتسع لحمل تلك القمائم والصناديق الضخمة التي أكلف بنقلها من مكان لآخر وإن ارتضيت البقاء في المقوات فسوف أفقد صوتي من طول المناداة والتحريج الممل ـ على حزم القات ـ كما أن أجري يؤخره شوعي يحيى لعدة أيام وأظل أطالبه يومياً به حتى أيأس منه.. منذ أيام راودتني فكرة الالتحاق بالقوافل المشايمة وبقيت هذه الفكرة تنز من رأسي الصغير كلما رأيت القوافل الغادية أو الآتية وكنت أخشى من مفاتحة أمي بهذه الرغبة فأضعف من تعب قلبها المتعب فهي دائماً تفاتحني وتفاتح الآخرين:

ـ ليس لي جدار أستند إليه إلاّ موتان، فهو رجل البيت وطفل البيت.

هذه المسؤولية المبكرة حتمت عليَّ أن أدب في الأرض بكل السبل كي أوفر لهم رزقهم. وأدفع عنها تعرشها اليومي في بيوت الناس فوق سقالات عالية كي تزين عششهم.

كنت أتوق لإراحتها من روائح الروث والطين.. وأن أدفع عن قلبها زفرات شظف العيش.. كنت أحس بتعبها دائماً وألمحها حين تغلق عينيها لتقفل الأبواب أمام دموع توشك على الفيضان.

لم تكن تحدثنا عن تعبها ولم نكن نعي معنى التعب.. كان نحلم فقط بتوفير كل رغباتنا.. وحين نسألها عن شيء من رغباتنا تداري وجهها

وتتشاغل بأي شيء. وحينما نهضت قليلاً من طفولتي علمت أن عليَّ أن أقوس ظهري وأساعدها على حمل بعض متاعبها. كل الأعمال التي امتهنتها لم تكن تكفي للعبور بنا من بوابات الفقر المدقع. . وأصبحت هجرة القوافل هي الحلم للخروج بآهات أمي وبكاء إخوتي إلى فضاء البحبوحة المستورة.

كانت هناك قوافل تخرج للتجارة، يشترط السوادي على أصحابها مناصفتهم في تجارتهم وإعادة العاملين فيها إلى القرية مهما كانت الأسباب، لدرجة أن بعض القوافل كانت تعود وبجثث مضى على موتها زمن طويل ولم يكن أحد لينتسب إلى هذه القوافل إلاً بتزكية من أحد كبار القرية وتخف شروطها الصارمة أيام الحج، ولم يكن مقدراً لأي حاج أن يمضي قبل أن يترك وديعة من ذويه تلزمه بالعودة، وإن مات أعيد بجسده ليقبر بجوار تلك العظام البالية بأطراف القرية.

ومن القوافل العديدة التي تنطلق صوب الشام قافلة الشريف حسين والتي تغيب لموسم كامل تجوب خلاله الشمال وتبيع الحبوب والقطن والسمسم وتعود محملة بالأقمشة والعطور. . كنت أسمع أن الأجير لديه يتقاضى حق المأكل والمشرب فقط وإن وجد فسحة من الوقت في تلك البلاد استغلها في التكسب لصالحه في أي عمل يصادفه ويشترط عليه الشريف أن يناصفه فيما اكتسب.

أخذت فكرة الهجرة تخامرني حتى بلغت مداها وقررت أن أفاتح أمي بما عزمت عليه وبما اختلج به الفؤاد منذ زمن. . وما إن حدثتها برغبتي حتى فزّت من «قعادتها» وضمتني إلى صدرها:

ـ وأهون عليك وأنا أمك.

وأردفت باكية:

ـ ونحن لمن تتركنا؟!

كدت أبكي بين ذراعيها وأمرغ طفولتي في هذه البئر الفياضة بالحنان، إلاً أن إحساسي بأنني المسؤول عنهم جعلني أكظم ما في داخلي من رغبة وبقيت في حجرها حتى تلاشت حشرجة بكائي:

ـ لن يطول سفري.. وسوف أجلب لكم عطوراً وأقمشة.. وسترتدي صالحة أجمل الملابس وكذلك جيلان..

كانت عيناها تدفعان الدموع الثقال للأمام:

ـ لكن يا موتان لا زلت صغيراً.. عندما تكبر تغرب أما الآن فأنا في حاجة إليك.

تخلصت من ذراعيها بعصبية وفردت قامتي ورفعت صوتي محاولاً أن أجعله أكثر خشونة ـ بما لا يتناسب مع عمري الصغير ـ:

ـ ألا ترينني كالحمار.. ولا زلت تصرين على أنني صغير.

كتمت ضحكة فرّت من شفيتها فجأة، وما إن أعدت عبارتي ومددت قامتي نافخاً صدري حتى أطلقت ضحكة مجلجلة:

ـ لا.. لا. أنت لست حماراً ولكنك لا تزال عفواً(*) وما دمت كذلك اذهب الآن واجلب لنا قليلاً من الماء واترك فكرة التغرب إلى أن تصبح حماراً.

وأطلقت ضحكة مرتفعة فغادرتها راكضاً، وقد أغاظتني ضحكتها وسخريتها فخرجت راكضاً صوب الشريف حسين الذي كان يجلس بجوار دكانه آمراً أحد خدمه برش الماء حول الدكان لإسكات تطاول ذلك الغبار المتطاير.. وبين يديه كمية من الريالات «الفرانصة» ينثرها من يد وتتلقفها اليد الأخرى حين يرتفع رنينها وابتسامته المتلذذة.. والمعروف عن الشريف أنه حينما يأتي موسم هجرة القوافل يقبع بجوار دكانه للصرافة ويقولون عنه إنه يرابي في كل شيء.. حتى أصبح الأهالي يطلقون عليه «قبر الشريف» فما يقع في يده من رهائن لا تعود لأصحابها إلاّ كما يعود الميت من القبر. فقد كانت مراباته غريبة الأطوار فهو لا يمانع في إعطائك ما تشاء من المال أو الأنعام بشرط أن لا يكون بينكما زمن محدد أو زيادة معيَّنة وإنما هو يتحكم في الزمن الذي يطالبك فيه بالسداد، فإن لم تعطه ما عليك من دين يحق له أن يأخذ ما يشاء منك.. حقلك أو بيتك أو تُسخّر أبناءك لخدمته مقابل دينك.. ولا يعطيك شيئاً قبل أن تبصم على عريضة طويلة هو الذي يكتبها ولا يقرأها

(*) العفو: الحمار الصغير.

عليك.. عليك فقط أن تبصم وتأخذ ما تشاء منه.

ويقولون إنه يقبل أن ترهن عنده الذهب أو الفضة أو الطعام مقابل مبلغ من المال، وإذا انقضى على «الرهنية» يومان قبل أن تسدد ما عليك يكون ما بحوزته ملكاً خالصاً له.

حين جئته كان وجهه المشرّب بالحمرة ينفث ضيقاً ما، حتى إن وجنتيه غدوتا كنار الكير ولسانه يطارد ذلك الخادم آمرة إياه بالرش، وكلما رش المكان الذي يشير إليه صرخ فيه:

ـ يا حمار.. الغبار قادم من هنا.

فيركض الخادم في الجهة الأخرى.. فيصرخ فيه:

ـ من هناك.

اقتربت منه فازداد عبوس وجهه امتلاء.. كان وجهه عابساً كـ «حنش أبو جوهرة»(*) الذي يظل رابضاً على جوهرته مانعاً أي أحد من الاستفادة منها حتى إذا مات بعيداً عنها أصبحت لسواه.. اقتربت منه فأصابني التلعثم.. وخرجت كلماتي مرتبكة واهنة:

ـ يا سيدنا... أريد منك خدمة.

لم يتطلع إليَّ وظلت عيناه تتابعان تناثر «الفرانصة» بين يديه:

ـ كأنك تريد العودة إلى الكتّاب.. أختي تقول إنك لا تدفع الخميسية. وأنا لا أستطيع أن أحدثها بعودتك وإلاّ دفعت عوضاً عنك.

ثم أردف بلا اكتراث:

(*) حنش أبو جوهرة: هي أسطورة تتداول في جنوب شبه الجزيرة العربية وتحكي هذه الأسطورة أن ثمة ثعباناً يعيش دهوراً طويلة حتى يصاب بالعمى فيطير إلى البحور السبعة، ويأتي بجوهرة يضعها بجواره ليرى بنورها ومن يقوم بتغطيتها بخرقة سوداء أو روث بقر يحصل عليها بعد سبعة أيام حيث يظل الحنش يبحث عن خصمه خلال تلك المدة وإذا لم يجده يموت وتصبح الجوهرة ملكاً لمن قام بتغطيتها أما إذا وجده الحنش فإنه يقسمه إلى قسمين وميزة تلك الجوهرة ـ وفق نص الأسطورة ـ أنها إذا وضعت في أي شيء جعلته ينمو ولا ينفد.

ـ أترك الكتّاب واعمل. العمل أجدى لك..

فكانت فرصة سانحة لأن ينطلق لساني من تخشّبه، فقلت له على عجل:

ـ من أجل هذا جئت إليك.. أنا أريد أن أنضمّ إلى قافلتك «المشايمة».

سمّر عينيه في وجهي وسالت من فمه سخرية كريهة:

ـ وماذا عساك تعمل في القافلة.. فبها من الحمير ما يكفيها.

قال جملته الأخيرة وهشني بيده ودخل إلى داخل دكانه مخلفاً إياي في انتظار خروجه إلاّ أنه نسي حتى الخروج للصلاة وبقي قابعاً بين رنين الريالات الفضية.. وهو أمام هذا الرنين ينسى حتى نفسه.

يقولون عنه إنه جلس ذات يوم يحصي أمواله لعدة أيام وعندما افتقده أهله خرجوا يبحثون عنه.. وعندما لم يجدوه عند أصدقائه طرقوا باب دكانه منادين عليه فلم يسمعهم، وعندما تأكدوا من وجوده داخل الدكان اقترح أحد الخبثاء طريقة لإخراجه فجمع ريالات من الفضة ونثرها بقوة أمام دكانه عدة مرات حتى علا رنينها فخرج الشريف من دكانه صائحاً:

ـ من هناك.. من سرق نقودي؟

وعندما علم بالوضع أرغى وأزبد وانقاد لذويه وهو يلعن ويشتم كل من في القرية.. ويتهمهم بأن عيونهم نار تأكل أمواله..

طال انتظاري لخروجه وعندما يئست من ذلك تركته وعدت أتلكأ في السوق.. عرضت نفسي دابة للحمل فأعرض عني الكثيرون، وعندما يئست إيجاد شيء أعود به إلى البيت توجهت إلى الشيخ موسى ووقفت أمامه ذليلاً:

ـ يا شيخنا شغّلني حمالاً عندك.

قبض على لحيته المسبلة وفرّت من فمه ابتسامة باهتة:

ـ وما الذي تستطيع حمله.. أنت معطوب ما دمت تساير المجنون وابن الشاقي ولا خير فيك..

ـ جربني يا شيخ.

ـ أقول لك اذهب من أمام الدكان لا تجلب لنا النحس.

حاولت جاهداً إقناعه بأنه سيجدني صابراً وسوف أتفانى في خدمته إلاّ

أنه بطش بي، ودفعني من أمام دكانه صارخاً:

ـ إذهب «تطلب» اللّه بعيداً عني.

اجتاحني الغضب فرفعت صوتي عالياً:

ـ أنت قاضي وخطيب وإمام مسجد تأمر الناس بالمعروف وتنسى نفسك.. وأين أنت حينما تقول قول اللّه «وأما السائل فلا تنهر» وإلاَّ هذه للصلاة فقط؟

استشاط غضباً وقذفني بإحدى كفتي الميزان وهمَّ باللحاق بي إلاَّ أنه تراجع على صوت محروس المرتفع:

ـ يا ناس.. يا أهل القرية.. الشاهد يبلغ الغائب.. وجدنا عند شبرين جراراً من الخمر وشهد شهود بأنه كان يشرب منها كل يوم ويبيع للغاوين والمنحرفين عن الصراط المستقيم ولم يكتفِ بهذا المنكر بل تطاول وأزهق نفساً بريئة وقد حكم عليه الشيخ موسى بالجلد والتعزير قبل أن ينفذ فيه حكم اللّه.

ومضى وهو يكرر...

ـ ووه.. يا أهل القرية.. الشاهد يبلغ الغايب....

وقبل أن يواصل مسيرته استوقفه الشيخ موسى، عندما لمحت شبرين وقد أركبوه حماراً ووجهه يطل على مؤخرة الحمار ـ في وضع خلف خلاف ـ وكان موثوقاً بوثاق عسير ومن أمامه سار ـ كبير الحرس ـ محروس والزقار الذي يضرب طبلته بإيقاعات تتناسب مع صوت محروس ومن خلفهما سار عسكريان يحملان بندقيتيهما ويفرقان الناس ويبعدانهم ويمنعانهم من الاقتراب من شبرين.. وبقي المتجمهرون يسيرون مع الموكب في خطين متوازيين يرتفع اللغط بينهم تارة وينخفض تارة أخرى.

حين اعترض الشيخ موسى سير الموكب.. صرخ في وجه محروس:

ـ كأنك تتنزه به وتريد من الناس أن تصفق لك وله.

ـ وماذا تريدني أن أصنع يا شيخنا؟

صرخ فيه محتداً:

ـ نفّذ حكم اللّه فيه.

انطلق لسان شبرين ينثر الكلام للخلف دون أن يرى الشيخ:

ـ خاف اللّه يا موسى.. أنت عارف لمن هو الخمر؟!

ـ و«عاد لك عين» تتكلم يا عدو اللّه.

ولكز محروساً بعنف:

ـ هيا نفذ حكم اللّه فيه.

استل محروس عصاه وانهال بالضرب المبرح على جسد شبرين ـ بدون عد ـ وتقدم أحد العسكر وأفرغ جرة خمر على رأس شبرين لتتسابق الأيدي في إغلاق منافذ أنوفها.. وأصواتهم ترتفع:

ـ والله خمر.. رائحته قوية!!

كان شبرين يتلوى بألم وكلما حاول أن يبدل من وضعه لتقبل تلك العصا الجامحة عجز.. فمحروس يضرب في كل المواضع وكلما ارتفعت العصا وهوت على ذلك الجسد صرخ شبرين بالمتجمهرين:

ـ يا خلق اللّه.. الخمر ليس لي.. ولم أذقه في حياتي قط.. ولي جاء به في جرار وقال لي: أبقِ هذه الجرار عندك.. وعندما سألته عما فيها قال لي:

ـ إنها جرار سمن وأنا صدقته.

وكان الشيخ موسى يسير مع الركب وكلما نطق شبرين بكلمة يزداد تحريض الشيخ لمحروس بأن يجعل الضرب شديداً:

ـ زده.. فهو يكذب ويقذف الآخرين زوراً وبهتاناً.

نز الدم من جسد شبرين واحمرت مدرعته البيضاء وتخضب وجهه بالدم المتخثر ولم يعد قادراً حتى على أن يتلوى من الألم فانبطح على الحمار فانغرست أنفه في مؤخرة الحمار ولم يعد حياً فيه إلاّ صوته الذي كان يخرج ثقيلاً بطيئاً:

ـ الخمرة لولي.. دسها عندي.. وقال جرار سمن.

ومحروس لا يسمع إلاّ صوت الشيخ موسى وهو يردد:

ـ إشهدوا يا ناس.. يقذف الغافلين من عباد اللّه وهذه عليها جلد..

بعدها يصرخ في محروس محرضاً:

ـ زده يا محروس.. ولا ترحمه.

فصرخ أحد المتجمهرين:

ـ حرام عليكم ارحموه.. الخمر حده ثمانون جلدة وليس الموت..

واندس بين الناس دون أن يشير إليه أحد وكلما ساروا في الطرقات تكاثر المسايرون للموكب وقد تركتهم وهم يتجهون بشبرين صوب القلعة... فقد انسحب خلق كثير حين لمحوا الموكب يتجه ناحية القلعة ولم يتبق منهم إلاَّ من كانت طريقه في تلك الوجهة.

عدت أتسكع في السوق محاولاً البحث عن أي شيء يملأ معدة (جيلان) الذي لم يكف عن البكاء منذ ليلة البارحة. كنت عازماً ـ إن لم أجد أجر يومي لأي عمل أؤديه ـ على السرقة.. كنت أجوب السوق متربصاً بأي عين تغفل عن بضاعتها فأسرق ما تيسر إلاَّ أن الجوع جعل الباعة يسمّرون عيونهم على المتسولين أمثالي حتى إن بائعة اللبن زجرتني بشدة حين رأتني أتربص بغلّتها وأوشكت أن تجمع عليَّ السوق وهي تنادي:

ـ السارق.. إلحقوا السارق.

غادرت عينيها قبل أن تتفوه بما يؤذيني.. وفكرت أن أمد يدي وأتسول إلاَّ أن صورة أمي الحازمة ـ والتي قفزت إلى مخيلتي ـ جعلتني أتراجع عن هذا الخاطر وأنا ألوم نفسي وأدحضها بشتائم مترادفة.

فعدت للبيت لأجد (جيلان) ما زال يبكي فأخرجته من «هندوله» وضممته إلى صدري ودمعي يوشك أن يتساقط وحشرجة مرة تعبر حنجرتي.. فهيأت النفس للنشيج ووقف وجه صالحة حائلاً دون هذه الرغبة اليانعة.. كانت تتطلع نحوي بحنق، فتحاشيت النظر إليها ورفعت (جيلان) عالياً وهششت في وجه فاستبدل قطرات عينيه بضحكة قصيرة متوترة مرتبكة بعدها عاود البكاء، فلم تطق صالحة استكمال تطلعها في وجهي الخاوي الذاوي.. سمعت صوتها يخترق أذني بحدة:

ـ لا ينقصه إلاَّ الضحك.

فأمعنت في تجاهلها وأعدت (جيلان) إلى هندوله، فأمسكت بيدي:

ـ إجلس هز الهندول وأنا سأذهب أبحث عن عمل.

أحسست بدمائي تفور في عروقي، فشققت وجهها بصرخة كبيرة وانفعال متشنج ـ حتى هممت أن أمد يدي إليها:

ـ ماذا أصنع؟! لا توجد أعمال.. والكلاب الذين يربضون على الأموال ينبحون في وجهي كلما اقتربت منهم.

كانت باردة ساكنة وهي ترد:

ـ وكأنك تريدهم أن يلقموك.. أو ينثروا في وجهك الذهب.

ـ هه.. ماذا أصنع يا «عاقلة».. فأنا أقبع على أبوابهم من الغلس.. وأتوق لأن يقذف لي أي كلب منهم بعظمة كي ألعقها.. لكنهم كلاب أنانيون.. هم يجيدون هز ذيولهم والتكشير عن أنيابهم كالكلاب المسعورة!! اقتربت مني، وهزت كتفي برفق:

ـ الذي أعرفه أن الراجل يرفس الحجر ويخرج رزقه.. يا أخي اذهب وابحث عن عمل آخر.. احتطب أو اخبط أو «ازقر» أو «اجزر»(*).

شعرت بإهانتها لي حينما عرضت عليَّ أعمال الخدم والعبيد.. فهببت فيها بتعال.. ونفخت صدري ورفعت رأسي عالياً:

ـ أخ.. أخ.. أنا ابن الجيد.. أتحسبيني «ريس»(**).

ـ كل القرية «ريسه» كلهم يزينون وجه السوادي.. ولا أحد يجرؤ على أن يقول له لا.. والريس «ولح» يتفوه بقوله لا.. الكلمة الوحيدة التي يجيد قولها.. حاضر يا سيدي.. ألا ترى كل القرية تحني هامتها وترفع صوتها.. حاضر يا سيدنا.

(*) الاحتطاب أو ضرب الدفوف أو الجزارة كانت من المهن الوضيعة والتي لا يعمل بها إلاّ الطبقة الدنيا من المجتمع وهي مقتصرة على الخدم والعبيد.

(**) ريس: هول لقب وضيع يطلق عادة على العبيد أو من يمتهن مهناً وضيعة مثل الحلاقة أو الجزارة أو دق الطبول وإن كان في الأصل يطلق على العبيد ممن يمتهنون الحلاقة والحجامة.

وبتصميم وإمعان في التحدي قلت:

ـ أنا الوحيد الذي سيقول الكلمة المحرمة لا.. وستين لا.

شعرت بها تنكسر فجأة واقتربت مني لتضمني:

ـ واه.. يا موتان.. كأنك تريد الموت.. حاسب على نفسك يا ابن أمي وأبي.. أنا كنت أمازحك فقط.. فكل إنسان حر يقول لا في كل وقت.. بس أهل القرية لا يتفوهوا بها احتراماً للسوادي ليس إلاَّ..

انفلتُّ من بين يديها وخرجت أركض صوب حقول السوادي.

* * * *

نحن هكذا.. نعلم أن الظلم يعشعش فوق هاماتنا فنحني له قاماتنا ـ صاغرين ـ ونسير العمر بطوله نحمل حدباتنا الكبيرة، وتبرمنا الخافت، ولا نكتشف وهن هذا الظلم إلاَّ عندما نفرد قاماتنا على النعش حين يكون قد تلاشى ـ فينا ـ كل شيء.. في هذه اللحظة فقد نحاول أن نهرب من الموت كي ننعم بمد قاماتنا ـ قليلاً ـ أمام الظلم وأمام تلك الكلاب المسعورة.

ترى ماذا أستطيع أن أصنع الآن؟! فكل الأبواب تظل مواربة وما إن أهم بالولوج حتى تصك على جسدي لأبقى موزعاً بين الألم والصبر.. أوه الصبر.. هذه الكلمة الوحيدة التي تتردد في هذه القرية، فكلما أصابنا وابل من المحن نمت حدبتنا وتقوست ظهورنا حتى تلامس جباهنا أقدامنا وتبقى تلك الكلمة تجوس:

ـ اصبر إن اللّه مع الصابرين.

إن اللّه أمرنا بدفع الظلم والصبر المعنى هو الصبر على ما جاء من عنده ولا نملك له دفعاً إلاَّ أن هذه القرية تأمرنا بالصبر حتى لو أراد عابر السبيل أن يصلبك عنوة أو أن يخطف بصرك هكذا بكل استسلام تقف له ليخلع عينك وإن شاء بقر بطنك.

هم يخلطون بين الصبر وبين الخنوع والذل.. فإذا جفت الأرض قالوا: اصبروا.. وإن أكلنا المرض نجدهم يقفون على رؤوس مرضانا ويتمتمون للمريض: إصبر.. إصبر ـ دون أن يقدموا أي دواء يوقف نزيف الألم ـ

وحين تداهمنا سياط أو كلاب السوادي تجدهم يتواصون:

ـ إصبروا..

وحين نجوع.. وحين.. وحين...

حياتنا كلها دعوة إلى صبر طويل مر لا نهاية له.. «إصبر» هذه الكلمة تمتد حروفها حولي وتعصرني حتى أكاد أختنق.. أصبحت أكرهها وأكره الوقوف لسماعها ومع ذلك فهي تلازمني كظلي.. لا شيء هنا غير الصبر.. لا شيء غير أن نتحرك كالشاة التي تقاد وتدفع نحو المجزرة وهي ترغي، وما إن تلمح شفرة الجزار حتى تودع الحياة بعين مفتوحة دون أن يرأف بها ـ هذا الجزار ـ ويقدم لها قليلاً من الماء تبلل به ريقها لترطب عروقها المتوترة والمتحفزة لشفرته.. هذه الشاة التي تلمح قاتلها جهاراً فلا تقوى أن تبصق سوى دمعها.. والغريب أن الموت يحقق لها رغبتها التي عاشت من أجلها فلا تموت إلاّ بعد أن ترفع رأسها.. حتى رفع الرأس لا تقوى على الإتيان به إلاّ عندما يقوم قاتلها بفصله.. أوه.. يا أيتها الشاة كما أنت بائسة وكم نحن بؤساء في هذه القرية الظالم أهلها فنحن نكاد نموت ـ أنا وإخوتي ـ ولا أحد يمد كسرة خبز إلينا. الآن أشعر بمدى الألم والحرقة التي تقاسيها أمي من أجلنا.

عندما بدأت أميِّز الوجوه كان أبي قد غادر بيتنا ولم أعد أراه ـ وإن كان يأتي بين الفينة والأخرى متخفياً ـ فبعد أن أخذت أميِّز وجهه غاب فجأة وتقول أمي بأنني لم أتمتع ـ في طفولتي المبكرة ـ بكلمة «بابا». في بداية تلك الطفولة تهجيت وجوهاً كانت تصافحني بالابتسام ثم بدأت أتلو سير هذه الوجوه على مهل.

أمي إحدى عجائب الدنيا قرضتها السنون على مهل ولا زالت تتشبث بتماسكها كنت أتململ في ـ رقدتي عند سماع صياح الديكة.. أبحث عن ثدييها فلا أجدهما وأظل أبحث عن حلمات ثدييها طوال النهار صارخاً وفي المساء أجد قطرات معدودة من اللبن أمتصه من خلاصة أنفاسها وأظل أمضغ جلدها حتى أنام وللشح ضرعها عاقبتها بأن أطلت سنين الرضع واستمريت

أمص ثديها لمدة سبع سنوات وأقلعت عن الرضاعة كرهاً ذات يوم فقد كانت قادمة للتو من عملها وانهمكت بإزالة الطين والروث من على جسدها لتتهيأ للغسل، فاقتربت منها وتعلقت بصدرها وهممت أن أقرط حلمة ثديها علّي أجد قطرات من لبن أو دم من هذه الشجرة الذاوية المتعبة.. فشعرت بالضيق مني ودفعتني بيدها وهي تصرخ:

ـ ألم يأن لك أن تكف عن الرضاع.. فمن هم في سنك فُطِموا منذ عهد بعيد.

فعدت إليها أتلمس صدرها فدفعتني عنها بقوة، فسقطت ـ على مؤخرتي ـ ليستقبلني مجمر مليئ بالجمر فأحسست بشيء من جلدي يحترق وترتفع رائحة شياط ففززت مولولاً صارخاً بحدة والألم ينز من مؤخرتي فيشعل بكائي، وبكيت بكاء لم يسبق أن بكيته من قبل، واستمر هذا البكاء ثلاث لياس متواصلة كانت المسكينة تجاورني طوال الوقت وتلعن نفسها في كل لحظة وتحضنني وتبكي وتستميحني عذراً فيزداد نحيبي.. في تلك الأيام توقفت عن العمل وبقيت معي وباعت كبشاً صغيراً لتشتري لي كرتوناً من الصلصة تضمد بها حروقي الملتهبة والتي انتشرت في جميع زوايا مؤخرتي ـ ولا زالت آثارها باقية إلى الآن ـ كنت منبطحاً على بطني عارياً من كل شيء إلاّ من دموعي.. يغطي جروحي لبد من الصلصة وأمي تهف عليَّ بمروحة خزفية كانت تجلس بجوار أنيني صامتة دامعة.. وحين يزداد توجعي تتوسل أن أتوقف عن إيلامها وكمن يشعر برغبة في تعميق آهاتها كنت أتمادى في بث تباريحي كي تمطرني بقبلاتها والإفراط في تدليلي.

انبجست دموعي فجأة وشعرت بمهانة عميقة تجتاحني وتمنيت أن أوقف انكسار هذه المرأة التي تظلّلنا بتعبها وحرقتها، حدث ذلك حينما دخل خالي لعيادتي ـ وكنت على وشك أن أنام ـ فتزحزحت تلك المسكينة من مكانها لتقبل يده.. كان يكبرها بصلفه وانتحت به جانباً.. سمعتها تحدثه بخضوع:

ـ وموتان أقعدني عن العمل.. والكبش بعته وليس معي ما أملأ به بطنه وبطون إخوته.. فأعطني سلفة حتى يفتح اللّه عليَّ بعمل وأسدد دينك.

ردَّ عليها غاضباً وبصوت حاد نابي:

ـ ما إن تريني حتى تطالبيني بسلفة.

انكسر صوتها معاتباً:

ـ هذه هي المرة الأولى التي أطلبك.

فزفر بضيق وأشاح بيده في وجهها وأكمل:

ـ هذا موسم جفاف وليس هناك محصول أنتظره وليس معي ـ أيضاً ـ ما يدفعني إلى الأمام ليومين اثنين.

وخرج لاعناً رؤيتها ورؤية أطفالها.. فأناخت قامتها بالبكاء. كانت حبال «الشبرية» تؤلمني فغرست وجهي في تلك الفرجات وسهرت «أنزح» ماء مالحاً فاض على عتبات وجهي، هي الليلة الأولى التي لم أذق فيها طعم النوم.. فقد ظللت منكفئاً على قعادتي أتأمل وجوه أمي وأختي وأخي بكثير من الحسرة وبعد أن أنهى فانوسنا رحلته الليلية مبكراً ظللت أجمع تخيلات عديدة في مخيلتي وألقيها.. كان ثمة شيء ما يجوس في خاطري وكلما حاولت إغماض عيني شب ذلك الخاطر ليفر النوم من أهدابي وأظل أهجس بهذه الوجوه.. فأنا لا زلت صغيراً على حملها وهي لا زالت متعبة بحملنا.. كانت ليلة طويلة من الهواجس والأماني وقبل أن يتنفس الصبح صاحت الديكة من أماكن متقاربة ومتباعدة، بعدها أفصح الصبح عن نفسه قليلاً، فلمحتها تهب من رقدتها.

كانت عشتنا تستنشق الهواء الجاف من بوابتين، إحداهما تطل على عرصة خالي جبريل والأخرى التصقت بالدارة وظلت تستقبل تلك الرائحة النتنة بشيء من التأفف، لمحت أمي تلملم جسدها وتنهض بتثاقل وترفع يدها اليمنى إلى ما فوق فمها ثم تهبط بها إلى ثوبها المتسخ وتعاود رفعها مرة أخرى.. في ظلام العشة بدت ـ لي ـ كجذور شجرة أثل خارجة من لبنات الطين.. انكسرت بحشرجة عميقة ثم أسندت جذعها وتمطت:

ـ يا فتّاح يا عليم يا رزاق يا كريم.

وخرجت من تلك البوابة المجهدة بالروائح التي تستقبلنا كلما ضاقت

بطوننا بما لكناه من خشاش الأرض. . انحنت يساراً لتجد حمارنا الذي أنهكه الجوع فأوى إلى لحاء خشب ساس العشة ليقتاته ويفضح سوأة عشتنا من الخلف. . لمحتها تفك رباطه. . شدته وصعدت بعد أن حملت أدوات العمل وخرجت تتسلل من بيننا بهدوء تاركة إيانا نذود سكون العشة بجوعنا المتواصل.

كانت صالحة تمسح مخاط أنفي بثوبها و«تتحزنني» على جذعها، وقد كنت فظاً أرفض أن أنخرط من على ذلك الجذع فتستسلم لرغبتي وتقضي حوائجها وأنا معلق بها كالقرد وعندما أرهقها تنزلني بدعوة حارة:

ـ ربنا يأخذك.

في أيام كثيرة تتركني أملأ بطني من طين العرصة. . لتطحن «ثمنية» من القمح الأحمر مقابل أن تحصل على «طرحة» تغطي بها رأسها المكشوف وعندما تتعب من «الطحن» تجمعه مقشوراً في «الحيسية» وتدفع به إلى من استأجرها فتكافأ بالطرد. . كان حلمها «بالطرحة» طاغياً فتنسى الإهانات وتعاود طحن الحب المقشور وهي تغني بصوت رخو حزين وأنا مقذوف بجوارها أملأ بطني بطين الأرض.

في هذا المساء جاءت أمي مبكرة على غير العادة. . لمحتها تبكي تحت قامة خالي الذي كان ثائراً ـ كثور أحمق ـ يمسك بعود ضخم من شجر الرديف ـ ويهوي به على جسد صالحة بعنف وقسوة حين كانت المسكينة تتلوى وتبكي بصوت مرتفع ولم يكن بوسعي إلاّ أن أشاركها البكاء.

كان صوت خالي ـ جبريل ـ يلعلع بعنف:

ـ من حملك على الذهاب؟

فتبدل مواضع جسدها لتتلقى الضربات في أماكن أخرى وترد بصوت يخلطه الألم والصراخ:

ـ عبده حسن قال لي. . إنه يرغب في مساعدتكم. . وأدخلني عليه.

وكلما هوت العصا على جلدها صرخت:

ـ أنا «إنجاربوك يا خال». . لن أسمع كلام أحد بعد الآن. . أتوب يا خال.

وحين مل خالي من ضربها تركها كجثة هامدة لتجلس والدتي بجوار جسدها الصغير ـ المخضب بالكدمات ـ تفرش عليه الرماد وكنت أمدها به من الموقد وألعق أناملي. انكمشت صالحة وحاصرت طفولتها بالدمع عندما سألتها أمي:

ـ صالحة... هل آذاك؟!

ـ كان يضحك يا أمي.

ـ هل مسّك يا صالحة؟

ـ عبده حسن أدخلني عليه وقال لي أجلب لك طرحة يمانية..

التصقتا بجسديهما وظلتا تبكيان لوقت طويل وظللت أتأملهما وعيناي «مغروروقتان» بالدمع.

جاءنا هذا الصباح على غير عادة فأمي لم تخرج لعملها وظلت بجوار صالحة تمسد شعرها، ودموعها تنهمر بدون صوت، اللهم إلاً شهقات حارة مرتفعة تتصاعد ـ لا أدري من أيهما تصعد ـ بين الحين الآخر، في الضحى حضرت صالحة إبراهيمية ـ مولدة أمي وسمية صالحة أختي ـ وعقب حضورها امتلأت العشة بالنساء اللائي كن يتهامسن برعب وخوف، وقد جلس في «القبل» مع درويش وعبد اللّه الشاقي وخالي جبريل.. كان الصمت يسود بيننا.. عيونهم تركض في الفراغ بلا هدي ووجه خالي كان جامداً ملقياً ببصره بين يديه وتنز منه زفرات متلاحقة. وجلس درويش يضرب بعصاه حجارة استقرت بالقرب من رِجليَ عبد اللّه الذي كان يحركهما بعصبية حتى يخيل إليك أنهما ترتعشان بينما كنت جالساً لا أعي ما يحدث وكدت أستفسر، إلاً أن الوجوم الذي كان يسكن وجوههم منعني من ذلك.. سمعت صوت أمي يناديني فاستأنست به وغادرت تلك الوجوه الواجمة.. فأشارت إليَّ باللحاق بها فغصت بين تلك الأجساد النسوية المتزاحمة بداخل عشتنا.. كانت وجوههن تتغامز وبعضهن يذرفن الدموع وأخريات تركن الفزع يسيل من بين عيونهن وشفاههن.. جذبتني ـ سميتنا ـ صالحة إبراهيمية وأمرتني بجلب بيضة من السوق بعد أن أوصتني

بالإسراع. . كدت أتجه إلى عش الدجاج لدينا وإحضار ما طلبت إلاّ أنني تذكرت أن أمي قد باعتها قبل أيام لإصلاح «سجفنا» المنهار. . فخرجت راكضاً للسوق وحينما بلغت دكان الشيخ موسى تذكرت أنني لا أحمل نقوداً ولم يزودني أحد بها. . فوقفت أمام الدكان حائراً. . تلعثمت أمامه. . رأيته يمد يده ويناولني بيضة ـ كان كريماً هذه المرة على غير عادة ـ فحملتها وعدت أركض إلى بيتنا. . فاستلمت مني إحدى النساء البيضة وألقتها في ماء يغلي. . كانت ثلة من النساء تحاصر «قعادة» صالحة وهي ممددة ونصفها الأسفل مغطى بشرشف ناصع البياض ونصفها الأعلى مغطى بدموعها وفزعها. . وكانت صالحة إبراهيمية تلعن بين حين وآخر السوادي بصوت مكبوت مخنوق. . كنت واقفاً حين نهرتني إحدى النسوة وأمرتني بالانصراف، فخرجت باكياً ليضمني درويش إلى صدره. من «القبل» كان يأتينا صوت صالحة حاداً صاخباً، فجأة هدأ صوتها وتعاقبت خلف صراخها زغاريد، تهلل لها وجه خالي الذي غادرنا دون أن ينبس بكلمة حين خرجت إلينا أمي وعيناها مليئتان بالفرح والدموع ليتلقاها درويش وعبد اللّه فارتمت على صدريهما تجهش بالبكاء علمت يومها أن السوادي وحش وأن قريتنا غابته، وأن علينا أن نقدم له الطاعة ببناتنا. . في ذلك اليوم حملت حجارة صلدة وانتظرت خروجه. . كبرت وأنا أنتظر على بابه وحجارتي ـ ما زالت ـ مخبأة في يدي إلى اليوم.

في المساء نفسه كنت أتقلب في مرقدي وأسمع نشيج أمي يصلني متقطعاً. . ففتحت عيني لأراها على ضوء الفانوس تمسح دموع وجهها وتنهض متجهة إلى سحارتها العتيقة وأخرجت خنجر أبيها ـ الذي أرتنا إياه كثيراً ـ وخرجت مستترة بالليل، فجافاني النوم. . ترى أين ذهبت في هذا الليل. . كدت أقتفي أثرها ولست أدري لماذا تراجعت. . وبقيت على «قعادتي» أقلّب فكري وجسدي. وقبل أن يقطع الليل آخر خطواته دخلت إلى العشة ودماؤها تنزف وسمعتها تبكي:

ـ سأقتله يوماً ما!!

فارتميت في حضنها ليزداد بكاؤها ونشجيها. ونمت في حضنها وهي

تمسد شعري وعيناها مثبتتان على وجه صالحة والتي كانت مستسلمة لنوم عميق.

دفنت صالحة خربشة السوادي في طفولتها ونمت شابة جميلة تستر جسدها النابض بالأنوثة بثوب والدتها. وكانت تنتظر قدومها كل مساء لتهيئ لها الماء وتقف معها حتى تغسل جسدها من آثار الطين والروث وتجلسان في مسامرة طويلة تنتهي بنوم صالحة على ركبة أمي.

بعد أن دفعتني على موقد الجمر واشتعلت مؤخرتي بالجروح لم أعد أستقبلها عند عودتها المسائية مطالباً ثدييها بقليل من اللبن.. بل أصبحت لدي عادة أخرى حيث أظل أنتظرها عند بوابة الدارة وبعد أن تغتسل أسألها:

ـ أماه هبيلي «مشبك»(*).

وعند عودتها تحتضنني وتخرج من جبها «زنبطية» و«صباع زينب» وقطعة كبيرة من المشبك فألوكها سعيداً وقد أهرب من عين صالحة وأجلس منزوياً أمضغ تلك الحلويات. هذه السيدة أغرقتني بحنانها فلم أشعر بغياب أبي.. كانت هي كل شيء وعندما يزورها مرض ما نظل نتضور جوعاً لعدة أيام حتى يغادرنا مرضها.. في مثل هذه الأيام نغدو كأعشاب برية قذفت في الخلاء لا أحد يسأل عنا ونلتف حو «قعادتها» ندعو لها بالشفاء قبل أن نموت جوعاً.. في مثل هذه الأيام الكل يهجرنا حتى إن خالي يتغيب صوته في منزله المجاور لنا وتكف قدماه عن زيارتنا. وأمام عجز أمي بمرضها وعجزي بصغري تخرج صالحة لبيت قشاقش وتكنس لها عرصة دارها وتجمع روث الدواب من «المطرح» وتقوم بتعبئته في صفائح من التنك وتحضره إلى البيت ـ لتستفيد منه الوالدة في عملها ـ بعد أن تعطيها ـ قشاقش ـ كسرة خبز وزيت وتتسلل ـ صالحة ـ إلى بيت خالي تستجدي من زوجته لبناً، فتمنحها قليلاً منه لتعود إلينا فرحة وتجلسني بجوارها ونبدأ بالأكل، وعندما تلمحنا أمي ـ المريضة ـ تنحدر دموعها وآهاتها فأشاركها البكاء وتظل صالحة تنظر إلينا وعندما تتعب ترمي بجسدها على أمي وتبكي.

(*) مشبك، زنبطية، صاع زنيب: أنواع من الحلويات تصنع محلياً.

في الصباح غادرني النوم للتو عندما جاءنا الشريف حسين يسأل عن أمي بصلف متناه حين كانت المسكينة ترقد مستسلمة للحمى، والرعشة تسري في مفاصلها. وقد توقف هذيانها منذ وقت قصير ولا زالت صالحة تجاورها ـ منذ ليلة البارحة ـ وعيناها تفيضان كبحيرتين طافحتين عجزت أهدابها الطويلة ـ الغارقة بالكحل ـ أن تمنع تدفق الدمع المنحدر منهما بغزارة. وعندما لمحت الشريف خرجت لتستقبله على عتبة العشة وترجوه أن يخفض من صوته إلاَّ أن ذلك الثور السمين أبى إلاَّ أن يخاطبها بالصراخ المتعالي:

ـ أين أمك؟!

ـ مريضة.

ـ ألم تمرض إلاَّ عند زواج ابني.

ـ لها خمسة أيام طريحة الفراش.

ـ وابني زواجه بعد يومين. . وطلاسة عشته تنتظر أمك.

لم نشعر إلاَّ وهي تقف بيننا، تربط «بمقلمتها» رأسها وتنحني لتقبل يد الشريف الذي منحها يده بتعالٍ وغطرسة. . كانت تتكئ على حزنها وتعبها وتكاد تنطفئ. . تلعثمت أمام هذا الثور:

ـ لم أكن أرغب أن أتأخر عليك إلاَّ أن المرض أخّرني.

ـ وعندما طلبتِ النقود. . لم تقولي إنك مريضة.

ـ واللّه يا شريف هدني الحفر في المطينة.

ـ دعي أحد أبنائك يجلب الطين وأنت تفرّغي للطلاسة.

وكمن مسته النار جذبتنا إلى صدرها وتساقطت أدمعها على وجنتي، أحسست بها حارقة فوددت أن أبقر بطن هذا الثور. . كان يتحدث وكأنه يحاكي جارية له وكلما ارتفع صوته انخفضت قامتها أمامه.

ـ غداً تبدئين في الطلاسة.

قال جملته بصوت آمر وخرج دون أن يتلقى الجواب. . «فتشعبطتُ»، في حلق أمي أمطرها بقبلاتي ودموعي:

ـ لا تبكي يا أماه.. ردي إليه نقوده.

لم تحتمل الوقوف فأناخت بحملها وهي تجهش ببكاء مكتوم.. أنهضناها ـ أنا وأختي ـ وأرقدناها على «شبريتها» ونحن نلح عليها:

ـ ردي له نقوده.

غمغمت وأسدلت عيونها.

كنت جائعاً فأسريت إلى صالحة التي امتدت يدها إلى مؤخرة رأسي بصفعة أحرقتني وتركتني أبكي وخرجت.. كانت أمي تتحرك في رقدتها ومن بين دموعي ألمحها تفتح عيناً واحدة وترمقني بانكسار فأزداد في البكاء فقد عودتني عندما أبكي أمامها أن تضمني وتهدهد عليَّ أما اليوم فهي تفتح عيناً وتغلق الأخرى وبينما كنا نتبادل النظرات سمعنا صوتاً يرتفع من خارج البيت:

ـ يا والداة.. والداة صابرة.

وما زال الصوت يدنو حتى وقف على رأسي.. كان درويش يحمل بين يديه عذوق قطفت للتو وكوز لبن. انحنى ووضعها تحت شبرية أمي.. رأيتها تبتسم له وتضغط على يده بحنان لينحني ويقبل يدها:

ـ الكلاب تتشابه.

فقالت له بصوت واهن:

ـ لا عليك.. كيف حالك يا درويش؟!.

ـ معطوف كذيل الكلب.

ضحكت أمي بصوت مسموع:

ـ اللَّه يهديك يا درويش.

فرد على دعوتها بضحكة مماثلة تتقطر من أواخرها حزناً صافياً:

ـ وهل تحسبينني مجنوناً يا والداة.

ـ ليت القرية مجنونة بجنونك.

اقترب مني ودغدغ وجنتي:

ـ ألا زلت تغني لأمك؟

هززت رأسي بالإيجاب، فأخذ يقلدني ضاحكاً وتناول قطعتي خشب وضربهما ببعضهما وغنى:

دقـــوا المحـــنـــا ومـــكـــادي
دق صـــابـــره.. دق صـــابـــره
واقــاذي فــي المجـنــه يــسـتــنـا
دق صـــابـــرة.. دق صـــابـــره

اغتظت منه، فلعنته.. احمرّ وجهه وسكت.. نهضت والدتي من فراشها تحاول أن تضربني فأرقدها درويش:

ـ لا يزال صغيراً.

ومسح على رأسي وقبلني، فخجلت وقبلته:

ـ أنا أريدك أن تكون رجلاً.. أمك أصابها التعب وأختك امرأة لا تقوى على شيء.. لماذا لا تنزل إلى السوق.. تبتاع وتشتري.. أو تذهب للحقول للنصد والصرب؟

تدخلت أمي بحدة:

ـ موتان لا يزال صغيراً وأريده أن يذهب للسيدة آمنة يقرأ القرآن وأفرح به عندما يختم الختمة.

ـ لكن يا ولداة أنت تعبتي من الخدمة في البيوت وموتان رجل البيت لا بدَّ أن يتحمل المسؤولية.

ـ موتان لا بدَّ أن..

لم تكمل جملتها حتى دخلت صالحة تحمل «مطبق»(*) في يدها واقتربت مني وقبّلتني:

ـ هيا «صفر» يا موتان.

حين سألتها أمي:

ـ من أين لك النقود لشراء المطبق؟

(*) مطبق: عبارة عن دقيق مخلوط بالماء والزيت ويوضع في الصاج ويتناوله أهل القرى عقب صلاة الفجر وتسمى تلك الوجبة بالصفارة.

حاولت أن تتهرب من الإجابة وهي تتطلع إلى درويش وتحك مؤخرة رأسها.. فألحت أمي عليها بالسؤال:

ـ أجيبيني يا صالحة.. درويش منا وفينا.

ـ عبدية زوجة قشري.. كانت تريد ماء.. وقد وردت لها من العين الحلوة.. فوهبتني هذا المطبق..

عندها خرج درويش دون أن يعتذر وظل صوت أمي يتبعه:

ـ درويش «صفر» معنا.

شعرت فعلاً بأنني لا بدَّ أن أخرج وأن أصنع أي شيء لكي أساعد هذه المرأة المتعبة.. كنت عقب عودتي من «الكتاب» أتجه إلى السوق بعد أن أخبئ مصحفي في المسجد المجاور للسوق وأظل أتسكع عارضاً خدماتي على الآخرين وأعود حاملاً ما تيسر من حوائج البيت وبعدها وجدت أن السيدة آمنة لا ترغب في بقائي ضمن الصبية الذين يقرأون القرآن، ويدفعون (الخميسية) بانتظام، تركتها غير آسف، وأصبحت ألجأ إلى السوق منذ وقت مبكر بحثاً عن رزق يعين والدتي على توفير ما يقينا مَدّ أيدينا للآخرين.

في جولاتي المتكررة لمحت ـ منذ أيام ـ التفاف السوق حول رجل طاعن في السن ينادي بصوت محروق:

ـ يا ملح البنات.. أين أنت؟!

كان يرددها حتى يغيب في موجة من البكاء الحار وإذا أقبل الناس يسألونه عما يبكيه يقص عليهم حكايته.. ويبدأ في سردها:

ـ لي بنت تدعى مريم المليحة.. ذات حسن وعقل ودلال.. في ذات ليلة مظلمة خطفها غراب وخبأها خلف الجبال البعيدة.. وقال لي العرافون ستجدها مسكونة بالموت عند نبع هرم.. وها أنا أسيح في بلاد اللّه وكلما زرت بلداً وسألت عنها لا أجد لسيرتها ذكراً حتى شاب حزني وقل مالي.. فهل رأيتم مريم المليحة في قريتكم..؟!

وعندما يغيب سؤاله في آذان المتجمهرين ـ دون أن يتحرك لسان ـ يعيد سرد حكايته وحينما يفيض به الحزن يظل يبكي دون انقطاع.

في البداية كان الناس يتعاطفون معه ويمنحونه صبرهم وما تجود به أنفسهم وعندما ظل باقياً في مكانه يردد حكايته أعرض عنه الكثيرون حتى أصبح وحيداً يسرد تفاصيل أخبار مريم للطرقات حتى إذا أظلمت هي الأخرى جمع دموعه وحكايته وغادر قريتنا صوب الجبال البعيدة.

بعد سنين من (القحط) والجوع الهالك جاء الغيث وارتوت الأرض وتهيأ الناس لنثر البذور وانتظار آمال صغيرة تكبر وتنمو من سيقان السنابل المطلة من الحقول.

في أيام (الجحر) كانت عروق الأرض نافرة تتطلع لغيمة يانعة وكانت السحب تعبر قريتنا دون أن تمكث في سمائها، وترحل بمائها للجبال المتوارية خلف الأفق.. تسكبه عليها وتغسل قاماتها الشاهقة في حين تظل قريتنا تتلظى في مرقدها وتحلم بغيمة أخرى. وفي صلاة الاستسقاء يجوب صوت درويش أركان الأودية كشيطان الأثل:

ـ ربنا يسقى بلاد الكفر وإلاَّ يسقى بلاد الحسد.

وتبقى الحقول خاوية تلعب فيها الرياح والغبار وتستوطنها أعجاز نخرة من مواسم منسية وتصبح الحياة شحيحة في هذه المنطقة، فالطيور تهاجر تاركة ريشها عالقاً بأشواك الأشجار اليابسة أو تخلف خلفها بيضاً فاسداً تفور منه رائحة نتنة.. وتبقى قنوات المياه تمضغ الغبار الناعم وتستلقي في تعرجاتها ببلادة، ويغادر الفلاحون إلى القرى البعيدة يحرثون ويزرعون أراضي الآخرين مقابل أن يحصلوا على النذر اليسير من تعبهم، والمقتدرون قد يدفعون مبالغ من المال مقابل استئجار تلك الأراضي لموسم واحد على أمل أن يبيعوا محصولهم في قريتنا بأضعاف ثمنه.. وغالباً ما يأتي المحصول أقل من جشعهم ونفقاتهم الباهظة، فيعودون يجرون حسراتهم وخسارتهم.

في هذه الأيام عندما هطل الغيث غزيراً خرج درويش قالباً «مدرعته» وواضعاً إياها على رأسه، كان يركض بين الماء المنهمر والمتدفق بقوة عاتية وهو يصرخ:

ـ استعدوا لدفن غصن من أغصانكم الخضراء!!

كان هناك حمار «كبير» ينهق في حلمي فأجفل من نومي، وأتحسس ما يجاورني.. فلا أجد إلاً وسادتي التي أطارحها نزقي وما تبقّى من قوتي

درويش

ليس في القرية شبر إلاً وبه لسان يلعن. . نحن هكذا ننفث أحزاننا ومشاكلنا عبر هذه الألسن المعوجة دون أن نحاول مد أيدينا لقطف أحزاننا أو من يشعلها.

نحن بليدون حد الغباء، نضع أيدينا بداخل جيوبنا وكأننا نخبئ كنزاً بها بينما الجيوب فارغة لا تطبق على شيء سوى أيدينا. . أوه كيف لو خرجت هذه الأيدي من جحورها. . هل يبقى السوادي سقفاً لهاماتنا التي ملت الانحناء؟!

مسكين أنت يا عبد اللّه. . كيف توسوس لهذه السواعد ـ المختبئة خلف الجوع والخوف أن تخرج من مخابئها. . وهل تظن أن خطبتك ـ في المسجد ـ قادرة على إخراج إصبع واحدة تنغرس في عين السوادي. . أجزم أن الخوف سيجعلهم يتبرأون منك، وأنت أيها البربري السمين هل تستطيع أن تردع شفرة تمتد لساعدك ـ في الظلام ـ وتبترها. . ساعتها ستجد نفسك تتسول على باب السوادي. . لن يقف معك أحد من هؤلاء النائمين في أحزانهم وخوفهم حتى وإن نحرت مقابل أن تمنع عنهم غي السوادي. . أراهن أنهم سيشيعون جثمانك وهم يتندرون:

ـ كان له جسم بغل وعقل سمكة!

أعلم أنك تردد دائماً:

ـ نحن أنانيون. . نرغب أن نرى سقوط الظلم وأن نرى ثمرة أعمالنا ونحن أحياء. . إنها أنانية محضة. . لماذا لا نجعل الخير يعبر فوق أجسادنا. . كل الخير أن تسقط أجسادنا لينهض العدل.

وعندما صرخت لتلك الهامات المنحنية:

ـ اشرعوا أجسادكم للموت.

تلاقفتك الحجارة فخبأتك بجنوني. لِمَ لا تكون مجنوناً ـ يا عبد اللّه ـ ولتقل ما تشاء، أعلم أن ألسنتهم ستمطرك بالرحمة:

ـ مسكين غادره عقله فهوى.

هل تعلم أن الجنون بوابة عريضة من خلالها تكتشف عالماً غارقاً في البؤس. .

عندها ترى هؤلاء الناس يتحركون كالدود الجائع الذي يقبل على الجيفة ويمضغها بنهم ويظل يلوكها حتى يصاب بالتسمم يموت بجوار مأدبته النتنة.

هؤلاء الناس لا يعلمون أنهم حمام الأرض منحهم اللّه أجنحة لتحلق بهم في أجواء الفضاء. . إنهم يألفون الأقفاص ويصبح خارجها سجناً لا يطاق. . إنهم حمام غبي يألف سجانه الذي يمدهم بقليل من الماء والسكر ويتركون ذلك الفضاء الفسيحليناموا بداخل قفص ضيق.

هذا ما علمني إياه الجنون. في البدء كان يزعجني أن أسمعهم يرجمونني بلفظة:

ـ درويش المجنون.

لعنتهم. . ضربت أبناءهم. . عطلت دوابهم. . كانوا يأتون ويقفون أمامي طويلاً ثم يبصقون عليَّ ويلعنون السوادي ـ الذي تركني هائماً في الطرقات ـ ويمضون.

وجدت أن هذا اللقب يحميني من بطش أهل القرية ـ ولا يحميني من بطش السوادي ـ كنت آتيهم وأكاشفهم بسوءاتهم فيسدلون عليَّ الاستعطاف:

ـ مسكين مجنون!

هكذا وجدت أن أحاديثي معهم يتناقلونها في مجالسهم للتندر ولرتق

تعبهم البالي «المهتك». . ذاك التعب الذي يردونه يومياً ويعبون منه حد الارتواء كل صباح ومساء. أما ذلك الحنش الأرقط ـ السوادي ـ فكلما جابهته بظلمه استل سوطه أو حذاءه وأشبعني وجعاً. . ولالتصاقي به كمئزره كنت أرى سوءاته في كل حين إلاَّ أن بطشه شديد فكنت أتحاشى الاصطدام به. . كنت أتخاذل وأضعف أمامه مراراً. . إننا جبلنا على هذا الخوار والتضاؤل. ولكن ماذا أصنع فقد كنت أشفق على نفسي من أن تتسوره وتغطي قبحه الدائم لذلك ثرت عليه كثيراً وكلما أمعنت في حنقي وثورتي عليه ازداد أنيني وكل من حولي يتأملني بغباء فج. كنت أسمعهم يقولون:

ـ لقد صنع السوادي خيراً حين ألجم جنون درويش، فالمجانين لا بدَّ وأن تقيد أرجلهم بأرجل الحمير!!

أمضيت سنيناً طوالاً وأنا أتلقى منه دروس الترويض الطويلة المتعبة والشاقة وحين مل من تنفيضي بخيزرانته ولجام بغلته. . رأى أن أجدى وسيلة أن يشكوني للناس وأن يصرخ بجنوني الذي قد أرهقه وأتعبه. . لذلك لا عزاء له إلاَّ أن يتركني للطرقات وأيدي الصبية ومتى ما هدأ جنوني أعادني تحت حذائه.

وقف ذات مرة في السوق وهو ممتطٍ بغلته المصرية وكان يقودني خلفه وأنا مربوط اليدين بحبل ينتهي بيديه ونادى بالناس حتى إذ تجمهروا أطلق قيدي وأعلن أنه غير مسؤول عمن يصيبه جنوني. فتفرقت تلك القلوب القليلة التي كانت تحملني وغدوت كفاً مبتورة بين أكف موصولة، تلك الكف التي عجزت أن أرفعها في وجه ذلك الصفيق. وعندما كنت أثرثر بمساوئه أمام الجموع المحتشدة ابتسم لي وتركني أقول ما أشاء وحين انتهيت من تعداد مساوئه التفت نحو الجموع مخاطباً:

ـ هه. . كما ترون يسبني وأنا سيده. . لقد أتعبني جنونه فهل تعلمون سيداً يداوي المجانين. . وأكبر الظن أن جنية قد تلبسته. . فهل تعلمون بسيد يريحه ويريحني؟

فبادرت تلك الألسن الغبية بالرد:

ـ هناك سيد صالح يخرج الجن ويداوي المجانين.

وأقسم أحد المتجمهرين وهو يرفع صوته:

ـ إيه واللّه.. درويش مسكون بالجن.

ها هم يتآمرون عليَّ معه، وأنا واقف أزيح الستار الذي يغطي قبح السوادي وكلما أبنت قبحه تمادوا في تآمرهم.. صرخت بهم:

ـ أيها المعتوهون.. السوادي هو الجني الوحيد الذي يسكننا.

فيفتعلون الحزن بتمتمة مجتزأة:

ـ اللّه يشفيك من بلوتك ولا يبتلينا.

وقفت مشتتاً أمام إصرارهم على جنوني ولم أجد حيلة لدفع هذه التهمة إلاّ الصراخ:

ـ يا خلق.. واللّه ليس بي جنون.. خدمت السوادي منذ طفولتي ولا أعرف أحداً سواه وقد علمت أنه يريد أن يضع قدمه على هاماتكم فأخبرتكم، فإذا بكم تنعتونني بالمجنون وأنا الآن متأكد من جنوني لأنني أتحدث مع حمقى.. فالأحمق عندما تخبره بالحقيقة يغضب.. فهنيئاً لكم حذاءه تزينون به رؤوسكم وهنيئاً لي جنوني.

أحاطوا بي وعيونهم تستدر الإشفاق:

ـ اللّه يسامحك ويشفيك.. وجزى اللّه السوادي خيراً على صبره عليك..

لم أتمالك غضبي فصرخت في وجوههم:

ـ اللّه يلعن أباكم أولاد كلاب..

اهتزت كروشهم علواً وهبوطاً وغادرت أفواههم قهقهة مرتفعة. وأصبحت لعناتي أوسمة أمنحهم إياها فيتقبلونها مسرورين.

عندها علمت أن السوادي يريد أن يجعلني كلباً مسعوراً أهاجم كل من يحاول الاقتراب مني لذلك استبدلت لعناتي بالتودد إليهم والاقتراب منهم حتى أصبح لا يبعدني عنهم إلاّ التنفس وكلما دنوت منهم زادوا بعداً عني، فأدمنت البصاق في وجوههم. عندها يتدخل السوادي بعصاه الغليظة ويلقى

بها على كاهلي، فانكسر وأظل أعوي كالكلب الكسيح يرمقه المارة بازدراء أو بشفقة قاتلة ولا يجرؤ أحد منهم أن يقدم له المساعدة خوفاً من «قضمة» مسعورة يائسة أو خوفاً من سيده الذي ينظر إليه من عل.

الصبية ـ فقط ـ يقتربون منه ويقلبون جسده كيف شاؤوا وينتشون وهم يرجمونه بالحجارة ليزداد نباحه.

من خلال هذا الانكسار العظيم تخر الكلمات من فمي بذيئة محطمة فأصرخ فيهم بيأس قاتل:

ـ يا أولاد الزنا تفرقوا.

إلاَّ أنهم كنمل مثابر يتداعون وكل منهم يعبث بجزء من هذا الجسد الكسيح، فأستسلم لهم وأمضغ حقدي على أهل هذه القرية وكل من فيها.

كدت أبكي من هؤلاء الصغار إلاَّ أنني تذكرت أن الثمرة الفاسدة تأتي من بذور فاسدة أيضاً، عندها تركتهم يصنعون بجسدي ما يشاؤون، معللاً النفس أن هؤلاء الصبية قد ينتشون بإيذائي قليلاً ويمضون. كنت كل ما أخشاه أن يكبروا وهم يحملون صفات آبائهم حيث يمدون ظهورهم كالحمير لحمل أخطاء السوادي.

لا زالوا يتكاثرون ويتصايحون حول جسدي وأنا جامد كحجر قديم أُلقي على قارعة الطريق فتعاون الجميع على قلعه:

ـ أوه.. هذا السوادي يعرف كيف يجعلك عصاً في يده أو حذاء في قدمه.

بالأمس لم يكن أحد ليجرؤ أن يمد يده إليَّ ليس لأنهم يخافون جنوني ـ كما يزعمون ـ ولكن لأنني الخادم الأول للسوادي، فكنت أبطش بهم وأحرضهم على الاعتداء عليَّ بكل الوسائل.. كي يكسروا شوكة السوادي من خلالي إلاَّ أنهم كانوا أقل من طموحي وأعجز من نبتة صغيرة أمام سياج حديدي.

أحسست بأن الصبية يتفرقون من حولي وهم يتصايحون بألم. كنت أسمع «قشطاً» حارقاً ينزل على جلود غضة وتتبعه صرخة ألم وركض حتى إذا لم يعد

يمتطيني أحد من الصبية، رفعت رأسي لأتعرف على منقذي.. دهشت.. كان صغيراً يحمل عود أثل يابس ويبتسم في وجهي، ظلت ملامحي عابسة مكفهرة.. انحدر بقامته الضئيلة وحاول أن ينتشلني من جلستي المتخدرة المستسلمة، فاستويت في جلستي، ليخرج قربة صغيرة استقرت خلف ظهره وانحنى يغسل وجهي ويسقيني وعندما استرددت أنفاسي، نهضت مزمجراً صارخاً في وجهه ورفعت يدي وهويت بها على صدغه ـ كنت أتوقع أن يحمل حجراً ويفض هامتي ويسلم رجلاه للريح ـ ابتعد عني قليلاً وتعكرت ملامح وجهه وإن ظلت عيناه صافيتين.

قلت في نفسي:

«لعله مشبع بالضرب فهذه الصفعة تنحني لها جباه الرجال».

أراه لا يبكي ولا يتقدم أو يتأخر. كان صغيراً جداً، فاقتربت منه وحملته:

ـ سوف أقذفك في بئر السباع..

فأخذ يرتعش بين يدي ونزت من فمه صرخات متتالية:

ـ عم درويش أنا «إنجاربوك» لا تقذفني في بئر السباع.. والدتي قذفت بي في «المطينة» كانت تريدني أن أغرق. ولم أغرق بسببك أنت، فقد أنقذتني يومها.

تراخت يدي وأنزلته ببطء.. هل قال عم درويش.. إنه أول صبي بل أول إنسان يمنحني لقباً غالياً.. ركعت حتى وازيت هامته:

ـ ابن من أنت؟!

ـ ابن الغريب.

«من هو هذا الغريب.. أعرف جميع رجال القرية وليس فيها اسم كهذا».

أعدت عليه السؤال:

ـ ما هو اسم أمك؟!

ـ «رعنا» ويقولون لها صابرة.

حضنته بكل قوة:

ـ أوه.. يا ابن الغالية..

وما إن أرخيت يدي عنه حتى انفلت راكضاً صوب الحقول المجاورة.. تركني قبل أن أمحو صفعتي من على وجهه.. لا شك أنه «موتان».. ففي استسلامي الدائم للصِبْية لم أعد أميِّز وجوههم ونسيت أن أتطلع لذلك الوجه الدائري الذي تفور منه رجولة غضة.

نما في داخلي ضيق متوتر، فلقد تركني قبل أن أزيل قبحي من مخيلته.

«ما أقبحك يا درويش حين تشوه النور.. تظن أنك الفانوس الوحيد في هذه القرية.. انظر.. ها هي بذرة صغيرة تغدق عليك الحب وتتسامق عنك بعيداً.. نخطىء كثيراً حينما نتوهم أننا الوحيدون الذين نحمل الخير ونضخه للناس. هذا الطفل عذق نضج مبكراً وها هي حبيباته تستوي قبل الأوان».

لا زال الضيق يتمدد بداخلي، وخطى الصغير تبتعد بعيداً، وحين خبأته أزقة القرية عن ناظري، عدت حزيناً أجر خطواتي المبعثرة وألعن قبح تصرفي مع ذلك الغلام.. يومها لم يخرج لساني للعن أحد ولم تسع يدي لتعطيل أي دابة في القرية.

بعد حادثة (موتان) كنت أسير بين الصبية أبحث عن شبيه له وفي كل يوم أتعرض لصنوف من التنكيل والسخرية إلاَّ أنني لم أيأس.

اليوم مررت بأطفال وهم يعلبون «المسحر»(*) فتراكضوا خلفي ولم أغيِّر وجهتي بل تقدمت نحوهم ليستبدلوا «دومتهم» بي وأشبعوني ضرباً بالمسحر.. كنت في داخلي أشعر أنني أدفع ديناً جراء تلك الصفعة، فبقيت مستسلماً لهم دون أن ينبس فمي بكلمة أو أن أمد يدي على أحد منهم، فلعل بينهم واحداً.. واحداً فقط كمنقذي الصغير.

رآني عبد اللّه وأنا أتلقى ضرباتهم باستسلام، فجاء مسرعاً صارخاً فيهم

(*) المسحر: هي لعبة أشبه بالغولف.. والمسحر عبارة عن عصا منحنية من أحد أطرافها على شكل حرف L وعادة ما تكون الكرة المستخدمة في اللعبة هي ثمرة الدوم.

ليتفرقوا من حولي تاركين العديد من الكدمات تخضب جسدي. اقترب مني مستنكراً ومتسائلاً:

ـ لماذا تدعهم يضربونك؟!

ـ عل بينهم فانوساً جديداً.. فأنا أبحث عن فانوس جديد.

ـ درويش.. أنا عبد اللّه.. دعن عنك الهذيان فأنا أعرفك جيداً.

ـ أنا لا أهذي.

ـ تاركاً الصبية يتقاذفونك «كالدومة» وحينما أسألك تقول أبحث عن فانوس جديد.

ـ إيه واللّه..

ـ لو سمعتك القرية لضحكوا حتى تنتفخ كروشهم ولتناقلوا حديثك في المجالس وربما يحملونك لسيد آخر.

حديث عبد اللّه ذكرني بذلك السيد ـ الملعون ـ، فقد كان لا يتورع عن سلب جيبك وعقلك إن استطاع، فكان يتاجر بتمتماته غير المعروفة في كل حين وتلك العقول السقيمة ما تفتأ تهلل له وتتبرك به.

وقد بلغ دجله حد الادعاء أنه قادر على جعل الأعمى بصيراً والأخرس فصيحاً، فتوافد عليه الناس من بطاح الأرض، وأمام عشته المرمية في الخلاء تناثر المرضى وارتفعت أناتهم عالياً، ومن طال به المقام ابتنى له ذووه «خدروشاً» يأوي إليه وهم من حوله يذودون عنه آهاته وينضحون الحمى عن جسده وقد ظل بعض المرضى منتظرين «فتش»(*) السيد المبارك حتى إن بعضهم مات قبل أن يحدث ذلك.. وكلما عجز السيد عن شفاء الوافدين إليه صرخ فيهم:

ـ اللّه غير راض عنكم.. فلن تبرأوا مما بكم.

في ذلك الخلاء تناصرت الأجساد وهي تضم أمراضها بأنين متوجع

(*) فتش: كشف، والكشف يتم من خلال قراءة الوجه أو اليدين أو بواسطة الحجارة وحبات البن.

وبعضهم غادر أنينه فأسلمه أهله للتراب ورحلوا وهم غير آسفين على ميتته.

كان السوادي قد كلف مجموعة من رجاله بحملي لهذا السيد بعد أن ترك لسان (خميسية) يتلدى في آذان الجميع:

ـ انظروا إلى رحمة السوادي.. أمر بعلاج المجنون على حسابه وكأنه ولده.

في تلك الأيام كنت مكلفاً بحماية الحقول الغربية.. ومع القيلولة كنت ممدداً في سقيفتي حينما سمعت نداء، وعندما نزلت أحاط بي مجموعة من الرجال وربطوني وانطلقوا بي مسرعين، وظللنا نسير مدة ثلاثة أيام حتى بلغنا هذا ا الخلاء المكتظ بالمرضى والمعتوهين والمصابين بالجذام والبرص و«الخنازير»(*)، كانت أحوالهم تدعو للرثاء، فقد ارتموا فوق تلك البطحاء ينتظرون دورهم وأن يرأف بهم السيد ويلقي عليهم بركته.

كان من المقرر أن يراني ـ السيد ـ بعد شهر كامل من مجيئي وخلال هذا الشهر تتكفل بك امرأة ـ من إحدى خدمه ـ في كل مساء وتريق عليك «المروخ» في موضع المرض.. وتمضي لآخرين سواك. أما المجانين فتضع على رؤوسهم عصابة وتشدها بقوة. وتزعم ـ نقلاً عن السيد ـ أن من ربط بها ينام في حينه دون أن تداهمه كوابيس الليل.. أو الأحزان المسرحة في الذاكرة.

وفي أول ليلة لوصولي قام المكلفون بي بإحضار عصابتي وشدها على رأسي، ومضى الليل كاملاً وأنا أعد أنفاسهم الثقيلة، وكلما حاولت إغماض جفني تسارعت هواجسي وزاد تهيجي، ولولا الوثاق الحديدي الذي يكبل قدمي لعدت راكضاً صوب سقيفتي المطلة على الوادي الكبير.

في الصباح الباكر قادوني إلى السيد وأوعزوا إلى خدمه بأنهم قادمون من طرف السوادي والذين نقلوا له خبري فأفسح لي المجال وقدمني على الجميع، دفعوني أمامهم بتذمر ودلفنا في عشة معتمة تناثرت بها مجامر البخور ومواقد الكي وحصيرة بائسة جلس عليها اثنان من مساعديه.. وفي نهايتها اليمنى

(*) مرض يظهر على هيئة أورام تتنقل من مكان لآخر بجسد المصاب ولا تمهله وقتاً طويلاً للحياة، وأغلب الظن أنه مرض السرطان.

كوة يتسلل منها الضوء باهتاً هزيلاً. . وثمة «قعادة» استقرت في صدر العشة يبدو أنها للسيد. . فغطاؤها نظيف تحفه مخاد مطرزة وفي أسفلها استقرت «كعدة» وإبريق ماء.

في دفعهم لي كنت ساخطاً ألعن كل من حاول الاقتراب مني. . وعندما وجدت نفسي أتوسط تلك العشة سمعت صوتاً حازماً يأمر المكلفين بي بإطلاق جسدي. . استدرت وحدقت في صاحب الصوت وانفجرت ضاحكاً حتى كادت بطني تنفجر. . كان قصيراً دميماً أعور لا أكاد أميِّز فيه إلاّ أذنيه المرتفعتين للأعلى كحمار أصيل. . أشاروا له بأنني المعني. . فهز رأسه وخطا باتجاهي وعندما وازاني، صحت في وجهه:

ـ يا ساقط ليس بي جن. .

ابتسم فبدت أسنانه المسودة المتآكلة ومد يده إلى صدري، فأبعدتها بعنف وأنا متحفز لأن ألقي في وجهه بيدي. . تراجع قليلاً وأشار لمساعديه اللذين أسرعا بالنهوض وأجبرا أطرافي المتحفزة على أن تخور تحت ضغط أيديهما المتصلبة. . لم يتبق مني منطلقاً إلاّ لساني الذي ركن لشتم كل من أستطيع أن أتذكره. . عندها أمرهم أن يسدحوني على ظهري ويشدوا وثاقي وبعد أن أنهيا مهمتهما صعد على صدري كقرد مدرب وأمسك بترقوتي، طالباً من أحد مساعديه أن يحضر له ماء. . فرشف منه حتى امتلأ وجهي بالماء المعكر بالشمة. . وتداخلت في أعماقي مشاعر مختلطة من الاستفزاز والضيق والغضب وهو لا يزال واضعاً ركبتيه على صدري ويصرخ في أذني:

ـ أخرجي يا كلبة، ألم أقل لك إن هؤلاء حرام عليك؟!

ويصمت قليلاً ويواصل صراخه وهو يمسك بأوردة رقبتي بمهارة:

ـ لئن لم تخرجي لأحرقنك بداخله.

بعدها أكد لي المكلفون بي أنهم كانوا يسمعون صوتاً متحشرجاً لامرأة يخرج من داخلي:

ـ اشتهيته يا مولانا. . ولن أخرج حتى وإن قتلتني!!

وأضافوا أنه صفعني على صدغي بحذائه وقرّب فمه من أذني صارخاً:

ـ لك مهلة سبع ليال. . الخروج أو أن أحرقك بداخله. .

وحكى لي المكلفون بي أنني أصبت بإغماءة بعدها ووعدهم ـ السيد ـ أن يخرج تلك الجنية من جسدي مهما كلفه الأمر. . فالمريض قادم من إنسان عزيز عليه.

ولكي تمضي المهلة المقررة لخروج الجنية ـ ثلاث ليال ـ ابتنوا لنا سقيفة تجاور عشة السيد. وكان دوائي خلال ليالي الانتظار عصابة تربط على رأسي ومروخاً من شجر السدر والمظ وقليلاً من الزيت. وعندما جاء الموعد المحدد حملوني إليه وكنت قد بيت النية أن أخبره بأنني قد شفيت خوفاً من تلك الصفعات المتلاحقة والإبقاء على أوردة رقبتي غضة قبل أن يصيبها الذبول تحت ضغط أنامله المتصلبة. وما إن أدخلوني عليه حتى لمحته منشرحاً يرحب ويهل. . فانتهزت الفرصة رافعاً صوتي:

ـ مبارك يا سيدنا. . الحمد للّه لقد طبت وشفيت مما كنت فيه.

فاندلقت من فمه سخرية باهتة أتبعها بهز رأسه ووجّه حديثه للقوم:

ـ هذه الجنية التي تتحدث، وليس هو!

وأمر مساعديه بشد وثاقي، ليتطاير الغضب من كل أجزائي وأخذت ألعنه وألعن كل من شارك في إخماد جسدي عن الحركة. . كان يضحك بصوت مرتفع:

ـ ألم أقل لكم إن الجنية هي التي تتحدث. . إنها خائفة من الحرق؟!!

ران الصمت على الحضور وعجزت عن التخلص من أيدي مساعديه اللذيين أحاطا جسدي بسواعدهما المفتولة. . وعندما أصبح لساني غير قادر على شيء. . سكنت وأسلمت نفسي لهذا الأفاك. . مددني على قعادة تهاوت حبالها وأشار لمساعديه بإحضار مسمار استعر بالكانون. . وعندما رأيته أصابني الفزع فأغمضت عيني فقد كان قطعة من جهنم له حمرة فاقعة تقارب اللون الأسود وسمعته يقسم للحضور بأنه تركه على نار حامية لمدة ثلاثة أيام ومن عادته ـ حسب ما يقول ـ أن لا يقوم بهذه المجهود إلاّ للأعزاء. . ولكوني مبعوثاً من السوادي فقد كرمني بهذا الاهتمام.

فتحت نصف عيني فلمحت المسمار يتدلى من الملقاط ولمحت مساعديه يكشفان عن صدري وبلذة فائقة وضع رأس المسمار في منتصف صدري لتتصاعد رائحة جلدي وصرخاتي، ولم أفق إلاً في اليوم التالي. . يقولون إنه قلبني بصعوبة ليضع الطرف الآخر من المسار في ظهري ولو لم يقم بذلك لهربت الجنية من ظهري، ولكنه أدركها قبل أن تغادر جسدي فأحرقها هناك جاعلاً من جسدي قبراً لها!! يا له من أفاق ملأ جسدي جروحاً وهو يتمتم:

ـ أخرجي واسكني حماراً آخر!!.

ولم يسعفني لساني ـ من الألم ـ كي ألعنه فأشبعته لعناً في سري. . بعدها أصبح الناس يقولون:

ـ درويش قبر الجن. .

لذا تعددت أسمائي ولم تتغيّر صورتي في أعين الناس، فأنا في نظرهم إنسان يحتمي بجنونه، وإن هتكوا هذا الحاجز توقفوا أمام غضب السوادي من أن يمس أحد خدمه بأذى. . فخدمه وقف عليه فقط.

كنت أتساءل. . لماذا يحميني السوادي من الآخرين ويسخّر جسدي منفذاً لسخطه، وعندما عجزت أن أجد الإجابة الشافية. . أمعنت في إشعال غضبه.

* * *

حسناً. حسناً. . لقد أحلت أيامي إلى كوابيس. . أنت من اليوم خادم ولي. . على أن تظل حامياً «للزاهيب» الجنوبية.

وقبل أن أنطق احتجاجاً غادراني ليكملا ضحكتهما المبتورة.

هكذا فجأة تجد نفسك كخاتم صدئ لا يصلح إلاً أن يقذف في الشوارع وبين النفايات أو أن يمنح لإصبع أخرى أدمنت الخواتم الصدئة.

بعد أن عاد من توديع ولي إلى خارج البيت وجدني ـ كما تركني ـ واقفاً حائراً وقد اكتسى وجهي ذبول فاتر. . لكزني بقدمه:

ـ هيا. . اذهب لجمع حاجياتك وتوجه لبيت ولي.

لا بأس في أن أكون خاتماً لإصبع أخرى أكثر نتانة من تلك الإصبع

القديمة وسوف أدرب لساني من الآن على لعن هذا السيد الجديد. كنت منشغلاً بحرقتي وقبل أن أغادره ابتعدت مسافة تمكنني من الانحناء.

ـ عذراً سيدي.. لم تخبرني من أي القرى سبيت أمي؟

تطاير الضيق من بين أنفاسه ودفعني زاجراً:

ـ إذهب الآن من أمامي.. وإياك إياك أن يشتكي منك ولي.. سيكون آخر يوم لك في هذه الدنيا.

يهددني بالموت.. هذا الغبي لا يعلم أنني من أمد بعيد فقدت الإحساس بالحياة.. فقدت شعور بأن أكون إنساناً يحلم ويحب.. لقد أتيت لهذه الدنيا ميتاً.. نعم ميتاً.. كل القلوب الخضراء تحرقها شمس سافرة.. ثمة أخدود نصنعه بسذاجتنا ونرتمي فيه كحيوانات صحراوية ممعنة في الغباء وحين يحرقنا نركض منه إلى هجير الصحراء وعبثاً يذهب صراخنا في المدى.

لا زلت واقفاً حينما استل سوطه وألقاه على ظهري وهو يصرخ:

ـ أخرج قبل أن أموت بغيظي منك..

تحركت وتحرك في داخلي أمل أن يموت.. وأن أطأ بقدمي عظامه اليابسة التي عجز الزمن ـ إلى الآن ـ عن تقويضها.

لا بأس بأن أحيط بإصبع أكثر نتانة من تلك الإصبع القديمة ومن الآن سوف أدرب لساني لألعن سيدي الجديد.

كررت تلك الجملة مراراً في سري علّني أهدأ وأرضى بهذا الوضع الجديد.

انتقالي هذا يعني أن «المعصرة» تغيَّرت وأن عليَّ أن أخلع عصابة وأستبدلها بأخرى وأظل أدور وأدور وحبات السمسم تنز ماءها فيأتي الزيت فواراً. هم يطالبونك بالدوران وأنت معصب العينين وإن توقفت سلخوا ظهرك بعصيهم مطالبين بزيت إضافي.

كدت أصرخ في وجهه قبل أن أغادره:

ـ من يستر الشمس يموت يا سوادي الكلب..

إلاّ أنني أحجمت عن ذلك توفيراً لهذه الشتائم كي أقلد بها سيدي

الجديد وأخذت على نفسي عهداً أن أظل وفياً بلعناتي لسيدي القديم وأمطره بها متى عنَّ لي ذلك. .

ـ أوه. . كيف يغدو هذا الكلب لو أن اللعنات تصيب؟!

بقيت عشتي كما هي وبقيت كما أنا أوزع هذا الجسد الناحل بين نباح كلبين. . وليس من أمل في إرضاء أي منهما. ومع الزمن نصبح كآنيتهما فاللعق المستمر يحيلنا إلى أوان نجسة لا يليق بها إلاَّ أن تنكسر فطهارتها لن تأتي أبداً.

هذه العشة بقيت كما هي وبقيت مهام عملي القديمة تزاحم أوامر سيدي الجديد فأنا أغادر هذه العشة قبل انقشاع الليل موجهاً وجهي لبيت (ولي) لتنظيف مطارح البهائم وسقايتها وحلبها وخض «الدبية»(*) وجلب الماء من العين الحلوة ومع الظهيرة أتجه إلى حقول السوادي وأظل أدور حولها حامياً سنابلها من الطيور وممن تسول له نفسه العبث بتلك القوائم الخضراء الناهضة من بطون الحقول وصوتي يظل يتردد بجنبات الوادي حتى أشعر أنه غادرني دون رجعة، وحينما يغص الأفق بقرص الشمس الملتهب أقفل عائداً لتفقد أحوال البهائم ومشاركتها رغاءها الممتد.

هنا ـ في بيت ولي ـ بدأت أشعر بتدفق خدر لذيذ في أرض قلبي الجدباء وأزهرت الحياة في عيني المغبرتين وتسلل إلى أعماقي طعم محبب لأن أعيش، فتخليت كثيراً عن تذمري وأخذت فرحة طفولية تداخلني وتحيلني إلى إنسان انقشع عن جلده القديم وأقبل على الحياة منتشياً غارقاً في موجة من الأحلام الدافئة.

ففي ذات ضحى كنت عائداً من البئر الحلوة وكدت أقع من شدة التعب وقبل أن أفرغ الجرار أمرني (ولي) أن أسقي الأبقار القابعة في المطرح «الجواني» فكدت ألقيها من على عاتقي، إلاَّ أنني تراجعت أخيراً أمام خطوات زهراء التي تقدمتني لتدلني على المطرح فتبعتها لاعناً هذا الحظ الرديء الذي يوقعني مع الأفاعي.

(*) الدبية: أداة تصنع من القرع يخض بها اللبن لاستخراج الزبدة.

وقبل أن تتوقف خطوات زهراء كانت عيناي تقفان على رِجل لدنة تشارك البقرة في رباطها وقد ازرقت وتحول بياضها الناصع إلى كدمات متفرقة وصاحبة هذه الرِّجل فوق أكوام القصب والروث متجهمة الوجه رثة الملبس هزيلة تكاد تتلاشى، ووجهها ذاو كعذق القمح الأبيض، وتكورت بقع سوداء أسفل عينيها مخلفة آثار سهر طويل.

كنت قد سمعت أن (ليلى ولي) أصابها مرض استوجب حجبها عن الأعين خوفاً من مضاعفته وزادت (خميسية) أن من يرى ليلى ينتقل إليه المرض، وبعدها تناست القرية حكاية ليلى التي انتشرت ذات صباح حينما قالوا إن العشق أكل فؤادها.

منظرها الرث أحزنني فطفرت الدموع من عيني فجأة فانبسط وجهها قليلاً، اقتربت منها وحللت وثاق يدها، فامتنعت في البدء، وأمام دموعي التي انسكبت غزيرة تسامحت وتركتني أحلّ وثاقها.. ليرتفع صوت زهراء مرتبكاً خائفاً:

ـ إنني أحبها كثيراً لكنني لا أستطيع فكّ وثاقها.. أذكر أنني قمت بذلك فربطنا سوياً وعندما لم يجد من يقدم له شربة ماء، أخلى سبيلي بعد أن أشبعني ركلاً وشتماً.

وأعدت المحاولة وكلما حاولت فكَّ وثاقها تأبى خوفاً عليَّ وتدفع يدي بتوسل:

ـ انجُ بنفسك ودعنا لمصيرنا.

لم أكترث لتحذيرها ودلقت قربة ماء على رأسها المليء بالروث وغسلت وجهها وبللت شعرها وخلعت مدرعتي لتجفيف وجهها فأبعدته لأتراجع بعد أن تذكرت وساخة ونتانة مدرعتي، فأسرعت زهراء بإحضار شرشف نظفت به وجهها وهي وجلة وأنفاسها تكاد تتقطع:

ـ إنه لا يزال هنا؟!

لا أدري لماذا خرجت مسرعاً ووقفت أمامه بصلف:

ـ ما ذنب ليلى أن تربط مع الأبقار؟!

فزّ من جلسته وصفعني على وجهي محذراً إياي من أن أتدخل في أمور كهذه وعندما أدمنت زيارتها بمعرفته ومن خلفه كلفني بتدبير شؤونها من مأكل ومشرب. .

ومكثت قريباً منها حتى إذا جاءت أيام الحصاد أبعدتني هذه الأيام عنها وعدت للعمل في الحقول.

* * * *

صوت الشيخ موسى المشروخ يذكرني بأنني لم أدخل المسجد منذ أمد بعيد، منذ ذلك العهد الذي دخلت فيه للصلاة فأخرجني المصلون بتحريض من الشيخ موسى الذي صرخ محتداً:

ـ المجانين لا تقبل لهم صلاة ودرويش سيخرب صلاتنا. .

فأقبلوا عليَّ يدفعونني للخارج وكأنني كلب نجس. . يومها لعنت جميع من بداخل المسجد. . في بداية زجرهم لي قلت لهم:

ـ لقد حضرت عابداً للّه وخائفاً منه. . ألم أخلق للعبادة أم أنكم ترونني خلقت عبداً للسوادي وأن مهمتي الوحيدة في الحياة أن يكون ظهري متسعاً لحمولته وجرائمه؟!

إلاّ أنهم نهروني ودفعوني للخارج وهم يتواصون:

ـ أمثال هذا سيحلون علينا العذاب.

صحت فيهم:

ـ العذاب فيكم، فأنتم تطردون عبداً أقبل على اللّه. .

فتلقيت عدة صفعات ودفعوني من على باب المسجد فوقعت على وجهي. . نفضت الغبار ولعنتهم وبقيت أمام باب المسجد دامع العين لوقت طويل، وعندما جف دمعي تحركت ولم أعد للمسجد أبداً.

كنت عائداً من الحقل حين كان الأفق يمضغ قرص الشمس. . والحقول تتهيأ لاستقبال ليل موحش فتسد منافذها بانحناءة قوائمها وتحفز الوادي في وجه الليل ليضم إلى صدره مساحاته الشاسعة ويطلق أصوات الجنادب في تلك الأركان التي لم يستطع احتضانها، في حين كانت القرية «هاجعة» إلاّ من

أصوات خفيضة تنز من وقت لآخر، وقد ارتفعت «قرعينات» العشش عالياً تذود الغربان الضالة.

سقطت إلى القرية حاملاً مسحاتي وقربة ماء فارغة وأغنية ألوكها بصوت مبحوح... حتى إذا أصبحت بموازة المسجد سمعت الشيخ موسى ينادي لصلاة العشاء فرفعت صوتي بالغناء عالياً فقطع أذانه وخرج يركض خلفي بالحجارة.

منذ ذلك اليوم الذي طردت فيه من المسجد أصبحت أشعر أنني إنسان غير مرغوب في هذه القرية وكلما تذكرت أنني ممنوع من صلاة الجماعة أصب كل لعناتي في الهواء وفي اتجاهات متعددة.. وتتوقف لعناتي كلها على سيرة الشيخ موسى الذي وقف حائلاً بيني وبين القبلة وقد أقسمت على أن أكشف أكاذيبه وأساليب دجله، وكلما أمعنت في ذلك زاد الناس يقيناً بجنوني!!.. ونبذوني خلفهم كالبيوت الخربة.

عدت للتو ـ من الحقل ـ بعد يوم طويل من التعب، بعد أن قطعت اليوم بطوله أظلل الحقول بجسدي الناحل وصوتي المجهد.. تجدني مغروساً في كل زوايا الحقول.. أزرع.. وأسير القنوات، وأحمي، وأقتلع الدود، وما إن أمد قامتي حتى تكون الشمس غائرة حائلة، فأطلق قدمي للقرية. وفي أحيان كثيرة أبقى مغروساً كأحد الجذوع الخاوية في هذا الوادي. غالباً لا أحد يزورني أو يزودني بلقمة تسند قامتي وحين يهدني التعب والعطش أتسلل بحذر ـ خوفاً من عين السوادي ـ صوب «الفنية» وأعب من مائها ثم أملأ قربتي، فقربتي تفرغ من وقت مبكر، فقد دأب النمالية والحماة على السطو على مائها حينما أكون منهمكاً في العمل بعيداً عن سقيفتي.

جاء سيدي ـ السوادي ـ راكباً بغلته المصرية ولمحني وأنا أحاول أن أقطر ما تبقى من ماء القربة في جوفي المتأجج ظمأ.. ناداني بغضب وعندما توقفت بالقرب منه رفسني وهو لا زال ممتطياً بغلته فسقطت أرضاً ونهض صوته يزأر:

ـ المستأجرون بزّوا القصب وأنت لاه عنهم؟!!

تركته يكمل لعناته وصرخاته وركضت نحو الحقول للقبض على هؤلاء «المكارين» الذين يعرّضونني للعقاب باستمرار وفي ركضي كنت أوزع بصري في كل الاتجاهات.. لم يكن هناك أحد!!

وعدت أخبره بأنني لم أجد أحداً فألقى بلجام البغلة على ظهري لينشب حديدها في لحمي وأسقط أرضاً.

من ذلك اليوم «حفشت» سقيفتي التي تطل على الحقول من الخارج ونصبتها في وسط الحقول متخذاً من شجرتي أثل وسرو أساساً لها وأصبحت سقفاً لحقول سيدي لا أغادرها إلاّ بعد الحصاد.. حتى إذا نويت أن أغفو في القيلولة أو للراحة كنت ـ قبل أن أفعل ذلك ـ أصعد لأعلى شجرة أثل وأجوب ببصري المكان وعندما لا أجد أحداً أهم بالعودة.. لسرقة قليل من الوقت في إغفاءة قصيرة، وخوفاً من أن يأتي أحدهم ويلمحني نائماً ويمد يده للسطو كنت أختار غصناً بازغاً من أغصان شجرة الأثل وألبسه مدرعتي ومظلتي وأنام.

في أيام «المذاري» وحينما تكون الزرعة لا تزال جنيناً في رحم الأرض كنت أعود في المساء للقرية.. أعود منهكاً جائعاً وبي قاذورات تحيل جسدي إلى مرتع للحشرات فلا أرتاح حتى أريق «كداً» من الماء الحلو على جسدي الموحل.

هذا «الكد» أملأه كل يوم في عودتي وأحمله على حماري والويل لي إن اغتسلت بماء الآبار التي أردها من الصباح الباكر، فهذا الماء ملك لسيدي وحده. أما الأيام التي لا يجري فيها الوادي فإنني احتفظ بقذارتي حتى يسيل الوادي أو «تجم» الآبار.

بعد أن أغتسل أجهز لنفسي عشاء بسيطاً مكوّناً من عيش «سهيد» و«سليط» و«بصل» و«بسباس» وأقبل عليه منتشياً وقبل أن أضع أولى اللقمات يرتفع صوت الشيخ موسى ـ في صلاة العشاء ـ وكأنه يترصدني:

ـ «ويل للمصلين الذين هم عن صلاتهم ساهون...».

ها هو يقرأ الآية للمرة الثانية دون أن يكملها، فقذفت بلقمتي وخرجت باتجاه المسجد وصرخت بأعلى صوتي:

ـ لماذا لا تكمل الآية.. ألأنها تفضحك تتوقف عن إكمالها؟!
صوته يتهادى ببطء:
ـ اللَّه أكبر.
ـ كل ليلة تقف هنا.. ألا تحفظ السورة؟
ـ سمع اللَّه لمن حمده.
ـ إسمع.. تكلمة الآية.. الذين هم يراؤون.
ـ اللَّه أكبر.
ـ ويمنعون الماعون.
ـ اللَّه أكبر.
ـ خيرة اللَّه عليك يا موسى.. يا تكمل الآية، يا تبطل قراءتها.. وتقرأ سورة لا تفضحك..
ـ اللَّه أكبر.
ـ البارحة رأيتك.. عندما جاءتك (زوج) علي حسن تستعير «الكدان».. قلت لها «الكدان» مكسرة وامتنعت عن إعارتها.. أوَليس «الكدان» ماعوناً؟!!
ـ اللَّه أكبر.
ـ ويوم الجمعة «تتنحوى» في الخطبة.. وعندما تراني في السوق بعد خروجك من المسجد والناس تسعى في الطرقات كالذباب تقترب مني وتهب لي نقوداً وتلحقني في البيت لتأخذها مني. أتذكر أم نسيت..
ـ اللَّه أكبر.
ـ.. حينما كنت أحمل لك حزم العجور وأنزلته على بوابة الدكان وكان عندك عبده هادي ومحمد علي وإسماعيل حسن.. وقفزت من داخل دكانك وربت على ظهري ودعيت لي بالبركة وأخرجت من كمرك ريال فرانصة ورفعته عالياً وصحت ليسمعك من بالسوق:
ـ هذا من أجلك لأنك من أهل الصدقة.. فرفعت صوتي على صوتك: هل أنت متأكد؟!

فضحك جلساؤك.

ـ سمع اللّه لمن حمده.

غضبت مني وقلت: نعم من أجلك.. فخرجت مسرعاً من أمامك لأتبضع بما أعطيتني فإذا بك خلفي تطالبني به.

ـ اللّه أكبر.

فذكرتك بأنك قد أعطيتني إياه.. فصفعتني على رقبتي وأنت تصيح بي:

ـ يا أهبل كنت أريد منك أن تشتري لي تيس، وهل جننت لأمنحك هذا المبلغ.

ـ اللّه أكبر.

ـ يا راجل يا دانق.. هذا كلام ربي لماذا تنقصه.

ـ اللّه أكبر.

كل ليلة أقول في نفسي سوف يكمل الآية وعندما تتوقف عند «ساهون» ينبئك المأمومون فتركع وكأنك لا تسمع:

ـ اللّه أكبر.

ـ والآن ألا تسمعني.. خيرة اللّه عليك يا موسى بطل.. وإلاّ واللّه لأفضحك في كل القرية.. سأخبر عن ظرف الطعام الذي خلطت حبوبه «بالدفين» وبعته في السوق.. أو سأخبرهم عن أسعار الشاهي والسكر والدقيق وكل البضائع التي تجلبها من البندر بسعر بخس وتبيعها لأهل القرية الطاق بطاقين.. أو أخبرهم أن الزاهيب الداخلية حق علي بن أحمد، والتي قلت لورثته أنك اشتريتها منه قبل موته ونقدته ثمنها وأنت سارقها لا اشتريت ولا شيء.. أو تريدني أن أخبر الناس بما يحدث بينك وبين السوادي.

ـ السلام عليكم.

ـ تستعجل على السلام.

ـ ورحمة..

ـ الآن.. لماذا؟!

ـ اللّه وبركاته.. السلام..

ـ ألا تريدني. .
ـ عليكم ورحمة. .
ـ أن أخبر الناس بقصتكما.
ـ اللّه وبركاته.
ـ خلاص خلصت. . الآن. . هي الحقني إن كنت ابن أبيك!!

على باب المسجد وقف الشيخ موسى يتميّز من الغيظ ورقبته تتلفت باتجاه الأزقة المتفرعة وعيناه خرجتا من محجريهما بجحوظ وغضب وتسمر يلعنني بكل ما أوتي من سخط عليَّ وعلى من يأويني. ومن حوله اجتمع نفر قليل كانوا يحاولون تهدئته وآخرون انسلوا من أمامه وهم يغالبون ضحكاتهم بصوت منخفض. كنت مختبئاً خلف باب المسجد ـ المشقور ـ ألمح عينيه تركضان في كل الوجوه ولسانه يتخبط بين اللعن والاستفسار، فيما حاول الذين يحيطون به أن يثنوه عما عزم عليه:

ـ يا سيدنا. . هذا رجل مجنون.
ـ واللّه وكتاب اللّه. . لا بدَّ أن أشكوه.
ـ يا شيخ هذا مجنون رفع اللّه عنه القلم.
ـ رفع عنه القلم «يزعمه يشخمط» فينا. . استحينا من السوادي لكن بدون فائدة واللّه لأحبسه في القلعة.

ارتعدت في مكاني حينما سمعته يهدد بإلقائي خلف أسوار القلعة وهممت بالخروج من مخبئي والاعتذار له وتقبيل يديه ورأسه. . فالقلعة لا أقوى على جدرانها وغرفها المظلمة والمتداعية والتي تبيت وهي تحتفل بالخفافيش وتنهض من منامها تحتضن الفئران والمليسيا، وأنات الأشقياء الأبديين. هذه القلعة ليس بها نهار ومن دخلها لا يخرج منها إلاَّ محمولاً على الأكتاف في أحسن الأحوال.

ملَّت ليلى عبدية وهي تروي حكايتها على مسامع الأطفال ـ الذين أصبحوا رجالاً ـ كانت تجلس ـ كلما فاض بها الوجد ـ في عرصة دار أبيها المهدم وتحكي لهم:

ـ كنت لا أتجاوز العاشرة من عمري حينما كان أبي يسير ماداً قامته للشمس والريح وكلما أقبل حملني بين أحضانه وقبّلني تلك القبلة التي لا زال نداها ينتشر على وجنتي.

لقد كان أبي لا تطال له شعرة وكان يكره الخنوع ويأبى أن يقاد كالبهائم. وفي ذات ليلة موحشة انتظرته طويلاً ونمت وأنا أمسك بدمعة كبيرة في محجرَي فلم يكن لي في هذه الدنيا إلاَّ هو بعد رحيل أمي.

عرفت فيما بعد أنه رفض أن ينقاد لرجال السوادي وانضم للفلاحين الذين سخرهم السوادي ـ الكبير ـ لحرث الحقول اليمانية وعندما امتنع واستعصى عليهم انهالوا عليه بعصيهم فأخرج «جنبيته» وغرسها في بطون عدة وترك دماءهم تجري ولاذ بالفرار، وقبل أن يصل مشارف القرية كان جنود السوادي يحوطونه ببنادقهم ويجرونه للقلعة. يقول من حضر الواقعة: إن أبي حاول أن يغرس جنبته في صدره إلاَّ أنهم تداركوه وأوصوا بعضهم بعضاً أن يصلوا به حياً.

أصبحت ليلى عبدية تجمع أحفادها يومياً وتذهب مع الغلس وتقف بهم غير بعيد من أماكن قضاء حاجة المساجين علّها تلمح أباها فتشير لأحفادها إليه وفي كل يوم تعود حسيرة ولا تفتأ ترفع راية بالية:

ـ علّني أراه في يوم ما!!

لا زال الشيخ موسى يتهدد ويتوعد وأنا أكاد أستحيل ماء كلما تذكرت القلعة، فحكاياتها لا تنتهي.. يقولون:

ـ إن بها أناساً دخلوها صغاراً وبلغوا من العمر عتياً لا يعرفون في الحياة إلاَّ تلك الظلمة وعندما سنحت لهم فرصة الهرب تراجعوا أمام النور وعادوا إلى قبورهم!!

ويقولون إن بعض نزلائها سكنتهم الجن ولم يعودوا بشراً حتى إن أحدهم أصبح يحكم الجن لسنوات طوال!!

ويقولون عنهم إنهم لا ينامون أبداً حتى ان عيونهم اتسعت وغدت كالفناجين ومن حاول منهم أن ينام وضع العسكر في إسته خنجراً وقذف به مع القمائم.

ويقولون عنهم إنهم يأكلون خراهم ويشربون بولهم. . حكايات مفزعة ومرعبة تدور حول هذا الحصن المهدم الذي لا يسكنه إلاَّ الأموات!!

كنت في مخبئي لا أزال أرتعد. . يبدو أن حكاية جنوني لن تطول أمام تهديدات الشيخ موسى وسوف أقذف ككلب أجرب إلى تلك الخرابة التي تسمى القلعة. . عليَّ أن أعود إلى الحقول والارتماء بين حشائش الحلفا سالكاً الدروب المؤدية إلى الأحراج المستعصية على الطالبين لطريدتهم قبل أن يحقق هذا المرائي تهديده. . كيف يتمُّ لي هذا والشيخ موسى لا زال يتقطر غضباً وتهديداً ولو حاولت الظهور والركض فسيسلط هؤلاء المجتمعين حوله ـ بصوته ـ للإمساك بي قبل أن أبلغ مشارف الوادي. . عليَّ أن أهدأ قليلاً. . قال له أحد المتجمعين حوله:

ـ إركع السنّة وبعد ذلك اذهب واشكه.

جاء صوته نافراً:

ـ سوف «أتركع» في بيتي ولكن بعد أن أحبسه. .

غادره الذين كانوا يحيطون به وظل هو واقفاً يشتاط غضباً. . وقد عاد بعضهم لداخل المسجد وانصرف البعض الآخر. وحين بقي وحيداً لمحته من شق الباب يتلفع غضبه ويتجه صوب بيت السوادي. . لأخرج منطلقاً صوب الحقول.

مساء متهالك وخوف كثيف يتصبب في الفؤاد. وأنا أسلك الطريق الضيق المؤدي إلى الوادي وأحاول جاهداً أن أكتم وجيب هذا القلب. لأول مرة يداهمني هذا الخوف المرعب. . أشعر أنني حريص على هذه الحياة أكثر من أي وقت مضى وأكثر حرصاً على العودة للعمل في بيت (ولي). . ولو من أجل عينيها.

في الماضي كنت لا أهتم بما يحدث وأمد ضحكاتي في وجه من أشاء. . الليلة أشعر أن ذلك الحلم الذي عشت من أجله أخذ يتساقط تحت قدمَيّ الراكضتين وأنفاسي اللاهثة. . أواه إن المرأة حينما تداخلك تحيلك إلى موجة ارتعاد. . أوه أخيراً نهض من هذا القلب اليابس غصن يحاول أن يخترق تربته اليابسة، ويحلم بأن يثمر، كم هو جميل أن يكون لك حلم!!

انعطفت صوب الأحراج وثمة وجيب حاد يكاد يسقطني. . أخذت قدماي تخترقان حشائش (الحلفا) بحذر وارتياب. . فيما مضى من زمن كنت أقطع هذه الأحراج دونما وجل وألعن من أشاء دون أن يهتز لي جفن لتهديداتهم بقذفي في ذلك القبر الذي يطلقون عليه القلعة.

فماذا حدث؟!. . . لماذا أنا أرتعد الآن؟!. . .

هل هذا هو الخوف الحقيقي، حتماً هو الخوف. . فحينما تجد أن أحاديثك ابتعلها الريح وبقيت لوحدك تنتظر موعداً مجهولاً غامضاً، تصاب بالفجيعة ويصبح الخوف سلاحك الوحيد الذي تحيا به وتموت به.

عندما توسطت هذه الأحراج واستأنست قليلاً ليقيني أن أحداً لا يجرؤ على اللحاق بي إلى هنا، هدأت وأخذت أفكر فيما يجب أن أفعل، إلاً أن الرعب عاودني مرة أخرى بضراوة، حيث خطر ببالي أن يلدغني ثعبان ما فأموت هنا بعيداً عن الهواء والشمس. . . بئس الموت الذي يطرقك وأنت مختبئ كجرذ. . فجأة قررت أن أخرج وليكن ما يكون.

فعدت أدراجي أقطع هذه الأحراج بحذر خوفاً من أن أنبه زواحفها، وما إن بلغت سقيفتي المعلقة على شجرتي الأثل والسرو حتى تمددت وأرسلت بصري للسماء. . جافاني النوم وراودتني أفكار قديمة وصور عتيقة وخدر لذيذ أخذ ينساب في هذا القلب البالي، وما زلت أتلظى حتى انقشع الليل ومدت الشمس خطواتها على رؤوس السنابل.

حين وجدت نفسي لا أزال حراً طليقاً أيقنت أن الشيخ موسى تناسى غضبه وأوى إلى بيته مكتفياً بما أطلقه من شتائم، فلو أنه بلّغ السوادي ما صنعت لجلبني من آخر الكون، ومن أعتى الظلمات حتى وإن عدت إلى بطن أمي!! وعندما أحسست بالأمان قرصني الجوع فهبطت من على سقيفتي أبحث عن أي شيء أسكت به نداء هذا البطن الذي لا يمل العصر. . كانت ثمة أصوات تغني غناء الحرث وجلبة طاغية، فصعدت زبيراً ولمحت أعوان السوادي يحرثون حقول عبد اللّه الشاقي. . . عندها فقط نسيت خوفي وحبي الجديد للحياة، وانطلقت ـ كالريح ـ أعبر الوديان منادياً على الشاقي.

لكي ينتهي الظلم من حياتنا
لا بد أن يحرقنا جميعاً...

عبد اللّه الشاقي

لا زلت أفكِّر فيما حدث.

لا أدري كيف عنَّ للسوادي أن يأمر محروساً بأن يسير بي في السوق مكبلاً بالحديد ثم يصفح عني.. أيريد أن يخيفني.. أوه كم كنت أتمنى أن أكون غصناً وحيداً في شجرة مضغتها الريح والشتاء القارس فتبقى غصنها ـ هذا ـ عصياً عنيداً أمام الرياح العاتية يهتز ولا ينكسر ويتجدد كلما أجهشت السماء بمائها:

ـ مصيبتنا عندما نكون مثمرين نخشى الانكسار دائماً...

الوحدة درع أمام الخوف، فإذا ما كنت وحيداً لا يعنيك شيء، تجمع ريقك وتبصق على من تشاء وتتحمل عقوبة بصاقك وأنت تضحك. كم كنت أتوق لأن أكون وحيداً لأشبع ذلك البغل ركلاً وبعدها أموت وأنا أضحك. كم كنت أتوق لذلك إلاّ أنني أجد نفسي مشدوداً بجذع أمي وجدتي وتلك الزهرة الغالية التي نبتت في داخلي وتستصرخني صباح مساء:

ـ ليس لي إلاّ أنت..

أوه.. لو كنت بعيداً عن كل هذا لأصبحت في خير.. فلو استطعت أن تعيش وحيداً لكان بمقدورك أن تقرر هل تحيا أو تموت، عندها سوف تمارس حياتك كيف شئت، وإذا لم يعجبك شيء فلا يكلفك ـ هذا ـ شيئاً سوى أن تجمع ريقك وتبصق على الدنيا وتمضي كعصفور. ترى ماذا سيحدث لو أن السوادي قذف بي بين حطام القلعة؟!.. حتماً ستموت أمي كمداً..

سينهض حزنها القديم ويهدها. . فقد رحل زوجها ـ هكذا ـ بضربة رصاصة لا نعلم من أي البنادق انطلقت. . وظلت ـ لوقت طويل ـ تقسم إنها تميز رائحة البارود الذي فجّر جسد زوجها وبقيت لزمن طويل تتشمم فوهات البنادق.

وهذه العجوز ستطلق لسانها وتهذر بكل حكاياتها القديمة وقبل أن تنهيها ـ حتماً ـ سيكون الدور قد شبع منها وتركها للتراب.

زهرة هي الوحيدة التي لن تستطيع أن تذرف الدمع وتبكيني، ستجمع كل أحزانها في قلبها وتبعثرها في عتمتها حيث ترقد كنجعة وحيدة، وستخرج للبرية فتستنطقها ذكرياتنا ولعلها تناديني بصوتها الرقيق، وعندما تيأس من سماع صوتي ستحدق في أعالي الأشجار علّني أهبط عليها كاشفاً عن صوتي المجلجل محاولاً أن أتقمص دور «العراج» بعواء حاد أخيفها وأتركها تصرخ حتى إذا أوشكت على البكاء تحولت بصوتي إلى صوت الديك أو الكلب أو الحمار فتستوقف أدمعها وتنفجر ضاحكة وقد تعاتبني فتدميني:

ـ أيرضيك دمعي وأهون عليك وأنت كل شيء لي في هذه الدنيا؟

حتماً لو حدث مثل هذا فإنها ستخرج كل صباح تعبر فناء القلعة علّها تلمحني. وأجزم أنها ستخبئ وجهها عني، فهي تكره أن تراني منكسراً مطأطئاً. . . ذات مرة كنت مختبئاً عنها فوق إحدى أشجار الأثل واختل توازني فسقطت على إحدى الأغنام المتناثرة فأتيت عليها والتوى كاحلي، وارتفع صوتي متألماً ورأيت الراعي يركض نحوي ويمسك بي بعنف ولسانه يمطرني بالشتائم حينما كنت أزيحه عني بلين ورفق وأعده أن أدفع له ثمنها وقبل أن يتركني بصق عليَّ ومضى. . فأقبلت زهراء من الطرف الآخر وقرعت ساقي الملتوية بعصاها فهممت أن أصفعها، لاذت بنفسي وأخذت تبكي بحرقة وتقسم إن لم ألحق بالراعي وأقتص منه لن تريني وجهها أبداً، وأمام إصرارها حملت عرجتي وألمي وركضت وأدركته فجذبته نحوها وأشبعته ضرباً ونقدته ثمن نعجته و«قشعته» على مؤخرته فولى هارباً وانقلبت هي ضاحكة تلم جدائلها وضحكاتها العذبة، واقتربت مني:

ـ من يفرّط في كرامته تدسْه الحمير. . .

في الطريق قطفت الأزهار ونسقتها وخطفت كوفيتي ووضعتها بها وأعادتها لرأسي. منذ ذلك اليوم لا أرضى أبداً أن أؤذي أحداً ولا أقبل أبداً أن يدوس ـ أي كائن مهما كان ـ طرف ثوب لي.

في يوم وفاة أبي غرست عينيها في وجهي ـ كانت جامدة تماماً ـ فانسكبت دموعي وأجهشت أمامها. . لم تنبس بكلمة، أدارت ظهرها وتحركت عائدة بسرعة فلحقت بها، أمسكت بها ونشتها بقوة:

ـ هذا أبي يا زهرة.

كانت أكثر برودة وحدّة:

ـ الرصاصة خرجت من «المعبر» وانتهى أبوك ولو بقيت هكذا ستلحقك رصاصة أخرى تذهب بعقلك. .

ـ تريدينني أن أموت؟

ـ أريدك رجلاً عندما يطعن ينهض بطعنته. . لا أريد الكلاب تنبح من حولك وأنت تتمرغ في دمائك.

ـ وماذا أصنع بحزني؟

ـ ادفن دموعك، يجر عدوك فيك. .

هذه الحبيبة تبدو قاسية في أحيان كثيرة، دائماً تقبر أحزانها وآهاتها وتسير منتصبة القامة. . منذ عهد بعيد وهي هكذا. . منذ أن دخلت إلى قريتنا بصحبة عمها وابنته. كانت القرية تسميهم الغرباء، فقد نزلوا في البدء أطراف القرية حين بنى لهم عمها «خدروشاً» صغيراً يأوون إليه في المساء. . ويقضون النهار بين الحقول أو بالقرب من القلعة بصحبة عمها ولي الذي لم تكن تغادر جسده تلك البزة الزيتية. . كانوا يقولون إنه عسكري هرب من المعركة بعد أن خطف هاتين الصبيتين من ذويهم. . وكان شديد التكتم على ماضيه ولا يسمح لأحد أن يحدثه أو يتباسط معه في الحديث. . وبقي يعيش وحيداً حتى ظهر ذات يوم مع السوادي في حفلة العيد الكبير، فقد كان يركب فرساً ويرتدي مصنف حضرمي ومدرعة صنعانية وكوفية خيزران وقد

استقر على ظهره بندق له طلقات «جرمن» وتوسطت خاصرته جنبية انتهت برأس فضي لامع.. من يومها عرف الناس أن اسمه ولي.. ولم يعد يقال عنه الغريب ولكن ظل الناس لا يعرفون إلاً اسمه الأول.. وغدت البنتان تلعبان معنا.. فنقول عنهما الغريبتين ولكي نميِّزهما كنا نقول «الغريبة أم العيون السود أو الغريبة أم الشعر الأصفر، وكان أهالي القرية يشددون على أبنائهم بعدم مصاحبتهما أو اللعب معهما.. كنت الوحيد الذي يتقرب منهما ويشاركهما اللعب وقد كنت أذود عنهما أقراني ومن خلال ندائي تعرف الصبية على أن أم العيون السود اسمها زهرة، أما أنا فقد عرفتها من خلال تلك الأيام التي كنت أظل فيها مسمراً في الأرض كمأدبة للطير والشمس، حينما قبعت في حفرة تجاورني. قبل مجيئها كنت أنادي زوار (أبي قضبة) كي ينتشلوني من حفرت،ي إلاً أن أحداً لا يجرؤ على إكرام أو إيذاء ضيف راعي القضبة، فكانت صرخاتي تذهب مع خطواتهم الذاهبة أو القادمة. وذات ظهيرة جاء رجل فارع الطول ذو بزة زيتية وعمق حفرة تجاورني وغرس بها طفلة ومضى دون اكتراث. وحينما غاب تماماً، ارتفع صوت تلك الطفلة باكياً.. فضحكت وحينما رأت الطيور تقف على رأسي وأنا أصرخ بفزع استبدلت بكاءها بضحكة ممتلئة.. ومنذ ذلك اليوم أنست بها وكانت عيناها الواسعتان ذات الحقل الليلي تفتنني من ذلك العهد، وكنت أظل أتطلع إليها حتى تنكس رماح أهدابها وتبتسم بعفوية طفلة مثخنة بالدلال.. حينما غادرت هي ضيافة أبي قضبة لم أطق البقاء وكنت أستحلف أمي أن تخرجني أو أن تعيد زهرة إلى جواري، فضحكت بنشوة والتفت إلى صويحباتها:

ـ عبد اللّه تعلق بالغريبة الكحلي..

ومسدت شعري، وتحدثت وضحكتها لم تغادرها بعد:

ـ بعد عدة أيام تستطيع أن تسير على قدميك وتلعب معها.. فهي تسكن بالقرب من القلعة.

وبعد شفائها ورحيلها من حفرتها أصبحت لا أطيق البقاء في حفرتي.. ولا أطيق أحداً يجاورني أو أن ينزل بحفرتها.. في ذات يوم جاءت مجموعة من النساء وتركن بجواري طفلة فانتعشت علَّ هذه تذهب بوحشتي، إلاً أن

القادمة الجديدة كانت كثيرة البكاء قبيحة المنظر لم آلفها أو تألفني، وفي اليوم التالي أخبرت أهلها أن حنشاً يسكن بالقرب من حفرة ابنتهم. . فزعوا وعادوا بها معهم خاصة بعد أن أخبرهم سادن القبة أن من يخرج له حنش في الظهيرة عليه أن يرحل بمريضه قبل أن يموت ويميت عشرة من ذويه.

وأصبحت وحيداً أسترجع أحاديث زهرة ووجهها كلما داهمتني الوحشة أو الحنين إليها. . حدثتني لاحقاً فقالت:

ـ أنا من بلد يبعد عن هذا المكان كثيراً. . بلد يلتحف النار وينام على رائحة البارود. . كانت حياتنا فيه مزيجاً من الخوف والدموع فلم يكن يفصلنا عن الموت إلاّ أنفاسنا المتصاعدة. . عندما غادرنا بلدتنا كنت لا أزال طفلة صغيرة لا أفقه كثيراً وإن كنت أتذكر دائماً تلك الليلة التي بقيت بجوار أمي دامعة محاولة أن أجد سبباً لقلقها وتعلقها بالنوافذ وكلما هممت بإشعال النور نهرتني بعنف فألوذ بدموعي لتقترب مني وتضمني، وعندما يزداد نشيجي تكتم على أنفاسي بقوة:

ـ إياك أن ترفعي صوتك!!

وعندما كنت أهمس بها:

ـ أين أبي؟

تدفعني عنها وتتعلق بالنافذة المطلة على الشارع. . حين كانت المدينة ساكنة لا ينهض فيها إلاّ أصوات الرصاص المتطاير كانت تبقى للحظات تذرع بعينيها ذلك الشارع الذي ينتهي ـ دائماً ـ برجال يتلصصون بحذر وهم يحتزمون ببنادقهم وخوزاتهم الحديدية وبصورة مفاجئة صرخت:

ـ إنهم قادمون.

وعلى عجلة من أمرها هبطت وخطفتني، ولاذت بنا إلى قبو منزو ـ كنا نضع به آلاتنا القديمة ـ وأمرتني أن أكتم أنفاسي. . كانت عيونها جاحظة بفزع، وقلبها يقرع طبوله بقسوة، تضمني إلى صدرها وتبتهل بأدعية متناثرة بأن يحرصنا اللّه، رفعت صوتي لأن أسألها عما يحدث، فأطبقت بيدها على فمي. فجأة اقتحم باب بيتنا وارتفعت أصوات مدوية، وانطلقت أقدام

تركض، ولعنات متلاطمة تتعالى وأدوات تتكسر.

وأفاق البيت من ظلمته واتضحت معالم دروبه... وأفقنا من ذعرنا وهم يقفون فوق رأسينا.. كان كبيرهم يحمل صورة لأبي ويشير إليها.. وهو يمطر أمي «برطن» بقي فمي حياله فاغراً وكذلك عيناها فتمادى في بشاعته وسحبها من جدائلها وتلقفني أحدهم وصوّب بندقيته إلى رأسي، وبعد أن يأسوا من العثور على ضالتهم غادرونا وقد تركوا أمي تسبح في دمائها. لا أدري كيف نجوت ليلتها فكل الذي أتذكره أنني بقيت بجوار جثة أمي أنتظر عودة أبي، وفي الصباح جاء بعض النسوة وغيبن جثة أمي عني وكفلني عمي الذي خرج بنا من بلادنا ذات ليلة مطيرة موحشة وعبر بنا الفيافي والقفار وكنت كلما سألته عن أبي صفعني على وجهي والشرر يتطاير من عينيه:

ـ أبوكِ سبب كل مصائبنا.. كنت أقول لأبيك هادنهم، فيبصق في وجهي.

في البدء كنت أبكي، بعدها نسيت الدموع وظللت أتذكر وجه قاتل أمي، أما أبي فيقولون إنه مات بعدها بعدة أيام وعزروا بجقته وعلقوها في منتصف المدينة.

كانت زهرة عندما تسرد حكايتها تظل جامدة الوجه لا تكاد تسرق منه أي تعبير وكأنها تتحدث عن غرباء لا تعرفهم وحينما كنت أبدي لها دهشتي تخرج كلماتها تقطر سواداً:

ـ المقبرة لا تبقي إلاً العظام.

في بعض الأحيان كنت أتأخر عن ملاقاتها لانشغالي «بالحقول» أو بالدكان فأجدها فزعة قلقة.. فأهش في وجهها باسماً:

ـ أريدك أيضاً قوية...

فتطفر الدموع من عينيها.. وتغمغم:

ـ إلا أنت.. لا أقوى على فراقك.

فأجيبها بحرارة:

ـ لن يفصل بيننا إلاّ الموت.

فيزداد هياجها ومن بين نشيجها تخرج الكلمات متقطعة:

ـ عمي يكرهك يا عبد اللّه.

فجأة سكتت ومسحت دموعها وأطلقت ضحكة عريضة:

ـ أنا سعيدة لأنه يكرهك.. دائماً يردد ابن الشاقي «شامها جيفة»(*) وأنا أريدك هكذا رافعاً خشمك للسماء كالطير.

استدركت حديثها بعد صمت قصير:

ـ هل حدثك في أمر ما هذه الأيام؟!

ـ قبل أيام جاءني وأظهر وده وخوفه عليَّ ثم فاتحني برغبة السوادي في شراء حقولنا الداخلية التي تجاور حقول السوادي من الجهة الجنوبية وأوصاني أن لا أركب رأسي.. لم أشعر إلاّ وأنا أصرخ فيه.. أخبر سيدك أن رقبة ابن الشاقي دون حفنة من تراب حقوله.. عندها لوى رقبة حماره ومضى والغضب يفور من عينيه.

تنهدت زهرة بعمق، وقالت:

ـ آه.. إذاً الحكاية هكذا!!

ـ ماذا حدث يا زهرة.. أخبريني؟!

ـ لا شيء.. البارحة جاءني عمي في الليل وتودد لي وقال إن كان ابن الشاقي يريدك زوجة فليترك أرضه مقابل فرحته بعينيك.

وعندما رآني صامتة.. صرخ في وجهي: سوف يبيع و«رجله فوق رقبته».

فصحت، وأنا ممسكاً بها:

ـ لن أبيع ولو نحروني.

كان الغروب على وشك الهبوط مفتتحاً ليلاً دامساً، فحثثتها على

(*) شامها جيفة: جملة يدلل بها على الكبر، ومعناها أنه يشم كل ما على الأرض جيفة نتنة فيترفع عن الخوض فيها.

النهوض وتحركنا ندفع أمامنا الغنم عائدين إلى القرية حتى إذا بلغنا مشارفها تنحيت عنها، وسلكت طريقاً ينحدر إلى القرية من الجهة الشرقية.

دلفت إلى عشتنا أقلب أمر السوادي في خاطري حين وجدت والدتي منشغلة بدلك زجاجة الفانوس وما إن رأتني حتى ارتمت بجوار قدمي وهي تجهش.. أصابني الرعب، فانكفأت عليها أحاول إنهاضها والخوف يعبث بي:

ـ ماذا حدث يا أماه؟

بقيت جاثية تلملم نشيجها وصوتها:

ـ «أنا نجاربوك».. لا تبع حقولك حتى وإن نحروك.

قالتها وانخرطت في موجة من البكاء الحاد.. رفعتها ـ بصعوبة ـ وضممتها إلى صدري:

ـ ومن قال لك أنني سوف أبيع..

ـ أعرفك كأبيك، قاسٍ لا تنكسر لكن السوادي ـ يا ولدي ـ حنش، وليس ثمة بيت في القرية إلاَّ ولدغه.. إنه يلدغ نفسه.. فحذاري على نفسك وعلى حقول أبيك.

أخذت تكفكف أدمعها وهمت أن تحكي لي حكاية ما، عندما سمعنا وقع عصا الجدة نوار وصوتها الذي يسبقها دائماً:

ـ وادية.. وادية.. عبد اللّه عندك؟

رفعت أمي صوتها:

ـ ماذا تريدين منه؟

وقبل أن نسمع ردها كانت تقف معنا بحدبتها ـ التي خلّفها لها الكبر ـ بداخل العشة:

ـ أنت هنا ولا ترد!!

أقبلت نحوها مبتسماً وأخذت يدها لأقبلها إلاَّ أنها سحبتها بغضب وغرست عصاها في صدري:

ـ هل عزمت حقاً على بيع حقولك للسوادي؟

أطلقت ضحكة قصيرة:

ـ هل خرفت يا جدة نوار؟

عمقت بصرها الشحيح في وجهي ولكزتني بعصاها:

ـ لا زلت أقف كالشوكة في هذه القرية.. وإن بعت حفنة واحدة من أرضك فسوف تجدني في عينك. أو أنني سأبقر بطنك.. نعم أبقر بطنك..

أزحت عصاها من على صدري وقبّلت رأسها:

ـ وهل يهون عليك قتلي؟

وأتبعت جملتي بغمزة ونغزة على خاصرتها.. كان وجهها صارماً فأبتعدت عني وهي تمطرني بعينيها الضيقتين:

ـ هذا ليس وقت المزاح.. أخبرني هل بعت أم لا؟!.. أجب فقط..

أصابني الضيق.. فصرخت فيها بانفعال:

ـ من أخبرك بأنني بعت أرضي؟

فاقتربت مني حتى وازتني وقالت:

ـ أسرت إليّ عبدية زوجة قشري.. تقول: «نشرنا»(*) بيت عبده حسن وسمعنا خميسية تحدث الجالسات هناك بأن ابن الشاقي باع أرضه للسوادي. وأظنها ستتحدث الليلة في عرس محمدية بذلك:

ـ أخبرني بصدق.. هل بعت؟!

لوحت بيدي في وجهها بضيق:

ـ هذا حديث نساء لا يسمن ولا يغني...

كانت أمي تنظر إلينا بعينين دامعتين وتهز رأسها مؤمنة على كل كلمة تتفوه بها أمها التي أردفت غاضبة:

ـ ليس هناك دخان من غير نار.. اسمع يا ابن الشاقي وضع كلامي في رأسك.. أبوك مات دون هذه الأرض وإن أردت أن تبيعها فسوف نقتلك أنا وأمك.. فهمت أم أعيد عليك؟

صحت منفعلاً:

(*) النشرة: خروج النساء عند بعضهن بعد صلاة العصر.

ـ أريد أن أسمع ما تقول خميسية.

ـ تقول بأنك أقدمت على بيع أرضك لأن السوادي وعدك أن يزوجك بزهرة مقابل أرضك..

فأمسكت بها وهززتها:

ـ وأنا يا جدة أقول لك كلمة أبقيها في هذا الرأس الأشيب.. إن كان مهر زهرة الأرض فأنا لا أريدها.. أفهمت أم أعيد؟

كانت أمي صامتة وقد ألقت «بمقلمتها» وتناثر شعرها فتزيحه عن عينيها الدامعتين بتوتر وكلما لمحت ابتسامة ولدت على شفتي تنهض من مكانها وتمسك بتلابيبي أو تضربني على صدري وهي تصرخ بانفعال:

ـ سأقتل نفسي يا عبد اللّه إن وضعت يدك في يد السوادي.. هل تسمع أم لا؟!

وتظل تنوشني وهي تجهش بالبكاء.. وحين وجدت أن حديثي يذهب كالريح تركتهما متشبثتين بخوفهما وخرجت.

كان الظلام كثيفاً فبدت عشش القرية كمردة هرمين متقوضي القامات، و«القرعينات» منكسة وكأنها تتلقى الأوامر بخشوع.. «القمائم» امتدت كطوفان مرعب.. والهوام دبت على الأرض تزن لتحيي هذا الليل الراكد.

فكرت أن أرتكب حماقة وأتجه صوب خميسية وأخنقها خلف ستار هذا الليل الكثيف تاركاً للسوادي حرية أن يختار له لساناً يروج إشاعاته بدلاً عنها. تراجعت عندما تذكرت أنني أعزل من كل شيء «فجنبيتي» خلعتها عن وسطي حينما اغتسلت ولم أعدها، و«ميهري» تركته على رحل الحمار... ولو داهمتها الآن فإن صراخها سيجمع أهل القرية على رأسي قبل أن تتمكن يدي من إخماد عروقها النافرة.. حدث هذا وأنا أدور حول بيتها للمرة الثالثة وعندما كف خاطري عن هذه الفكرة الحمقاء شعرت برغبة في التبول فانزويت وقبل أن أتركب لمحت شبحاً فداخلني الخوف من أن إحدى جنيات (الكداديف) تريد أن تسكنني فنهضت من جلستي فزعاً وأنا أذكر اللّه وأقرأ سورة (الصافات) ومضيت.. أحسست بأقدام تتبعني وكلما التفت لا ألمح

أحداً، فأضحك من هواجسي التي بدأت تعاقرني كل لحظة، وتابعت السير بحثاً عن مكان أكثر طمأنينة لأقضي حاجتي، إلاّ أن مخيلتي ظلت قابضة على سيرة الجن وخاصة سيرة الجنية ميمونة، تلك العنيدة التي تظل تتبعك وتتربص بك حتى إذا تبولت استطاعت أن تتلبسك دون أن تشعر بها.. عدلت عن التبول في الخلاء وانعطفت متجهاً لبيت الخالة (رعنا) حين سمعت قرع نعال ينتقل خلفي ببطء.. فسلكت طريقاً ضيقاً واستندت إلى سجف مائل لتعبرني تلك الأقدام مسرعة.. كانوا أربعة أو خمسة تلثموا بأطراف عمائمهم فلم أتبين ملامحهم.. أخذ هاجس الخوف يغزوني بشدة، فجمعت كل قواي وانطلقت هارباً في اتجاه معاكس.. أحسست بهم خلفي.. كان الظلام واقفاً على بصري فأتعثر مراراً وأنهض.. في آخر سقطاتي وجدت كشافاتهم تحيط بي وتستحل محجرَي، حاولت أن أحجب عيني بيدي فلم أفلح.. تحرك ثلاثة وأحاطوا بي.. تماسكت قليلاً، وخبأت خوفي الراكض في صدري بصوتي المتعالي:

ـ مَن الرجال؟!

«صنصنة» الليل جاورت صوتي، أعدت السؤال، فاقتربوا لأصبح في وسطهم تماماً، وقبل أن أزيح يدي من على عيني كانت يد أحدهم قد استقرت في أحشائي بكل عنف وقسوة، فجثوت في حين ظل أحدهم ممسكاً بشعري ـ حين سقطت عمامتي ـ وانحنى آخر ووضع جنبيته على نحري.. وأحسست بهم يأخذون إبهامي ويدخلونه في زجاجة فيلمس سائلاً ويخرجونه ليجففونه في رقاع عديدة.. ليرتفع صوت أحدهم:

ـ انتهت كل الأوراق..

وقبل أن ينهي جملته تلقيت ضربة حادة على رأسي، فسقطت وقرع نعلهم ـ كالحلم ـ يركض في اتجاه واحد ـ على ما أظن صوب القلعة ـ حملت أوجاعي وشجاً غائراً في رأسي، وأزحت عتمة الليل بكشاف تركه أحدهم حين كان منشغلاً بتكميم فمي فسرت وأنا أتوكأ على سجف متقاربة حتى بلغت دارنا. على ضوء الفانوس المتخاذل لا زالت جدتي وأمي في انتظار عودتي.. ابتعدت عن الضوء، وأسلمت جسدي لقعادة في ركن منزو عن

عشتنا. . استقبلتني جدتي بصوتها الأقرب إلى العتاب:

ـ حديثنا لم يعد يعجب. . تتركنا وتخرج. .

كان صوتي أضعف من أن يصلها فتبقت أنّته. . ليأتي صوت والدتي ملهوفاً:

ـ ماذا بك يا سيد أبي.

وكانت يدها أسرع لخطف الفانوس الذي تبعثر ضوؤه بداخل العشة. . وأوقفته على رأسي جزعة. . كانت يدي تقبض على مؤخرة رأسي وأسناني تطبق فوق شفتي خوفاً أن يغادرني الألم عبر أنات مسموعة. . قلبتني لترى الدم يتقطر على جزع رقبتي المنحنية. فرفعت الصوت ليعكر سكون ذلك الليل ويجلب جيراننا فزعين حتى إن بعضهم جاءنا أجرد لا يستر جسده إلاً مئزره. . واختلطت أصوات النساء بأصوات الرجال في سؤال مشترك:

ـ ماذا حدث يا وادية. . هل جرى لعبد اللّه مكروه. .

كان الدم المتدفق ينبئهم بحالتي، فتراكضوا وتبرع أحدهم بإحضار «المكركروم» من بيت الشيخ علي الذي هجر نومه الثقيل كي يراني ويطمئن عليَّ ـ كانت يد أمي تحضن رأسي في صدرها وتغسله بالماء وهي تولول:

ـ «يا حرقة قلبي عليك يا عبد اللّه» من فعل بك هذا؟!.

وأراقوا «المكركروم» في عمق الجرح. . فأحسست بنار تتأجج في رأسي فعضضت على شفتي حتى دميت والألم ينز يأبى أن يجف، وكنت أمسك بركبة القعادة، فأسمع طقطقتها فتتراخى يدي عنها كي لا تسلقني الألسن:

ـ من أجل شج هين تخاذل ابن الشاقي. .

فتركت لهم رأسي يعبثون فيه كيف شاؤوا، واعتصمت بتذكر وجه من غرس جنبيته في نحري ويبدو أن «المكركروم» لم يكن ليجدي لتثبيط الدم المتدفق، وقد اقترح أحدهم بأن يردم الشج ردماً لإيقاف الدم النازف ولم يجدوا خيراً من الرماد لمثل هذه الحالة، فتسارعوا جميعاً إلى مواقدهم، و«كبسوا» الجرح حتى أحسست بالرماد يخرج من الجهة الأخرى من رأسي وربطوا رأسي ربطاً محكماً وأجلسوني. . فيما كان صوت أمي يحوم بقلق،

ويدها لا تكف عن ضرب صدرها:

ـ هه... أخبرني من صنع بك هذا؟!

كانت عيون الحاضرين تقف على لساني وقد خشيت إن ذكرت الواقعة أن يتناقل الحاضرون أنني جبنت.. فحكى لساني كذبة خاوية:

ـ إنك تهولين الأمر يا أماه، فلم يحدث شيء سوى أني تعثرت وسقطت على حجر مسنن..

أظهر البعض استهجانهم من أن أسير في هذه الليالي العمياء دون أن أصطحب فانوساً أو كشافاً ينير لي عتمة الدروب الملتوية، وانسل الواحد تلو الآخر حتى إذا عدنا كما كنا.. اقتربت جدتي مني بشكوكها البازغة دوماً:

ـ أخبرني بالحقيقة.. ماذا حدث؟!

وجدت نفسي أخبرها بكل التفاصيل ليزداد ضرب أمي على صدرها:

ـ ألم أقل لك احرص على نفسك.. السوادي يريد أن يقتلك.

أما جدتي فقد حدقت فيَّ بصمت، وحملت عكازها وغادرتنا دون أن تتفوه بشيء وإن كانت زفراتها الخارجة من أعماقها تنبئ بتذمرها، وظلت تجاورني أمي التي ما فتئت تسأل بإلحاح:

ـ من يكونون؟!.. ألم تميّز ملامحهم؟!.. إلى أين اتجهوا؟!

وعندما وجدتني صامتاً ركنت إلى هواجسها.. لأركن بدوري إلى تذكر تفاصيل ما حدث.. ترى لماذا فعلوا هذا؟! مما لا شك فيه أنهم رُسل السوادي.. أظنه لم يحتمل تحريضي للمصلين لكن ما هو ذلك السائل الذي حرصوا على أن يبللوا به إبهامي، ويمسحونه في رقاع عدة؟!... أدنيت يدي من الفانوس فلمحت إبهامي لا يزال ملطخاً بذلك السائل الكحلي الغامق.. في البدء تسارع إلى مخيلتي أنه سم ولكن سرعان ما تهدم هذا الخاطر، فلو أرادوا تسميمي لسقوني كؤوساً بدلاً من أن يبللوا إبهامي، أو لطعنوني بشفرة مسمومة.. فجأة تذكرت أن إبهام أبي ـ عندما كنا نغسله ـ كانت غامقة وملبدة بمثل هذا السائل.. هل هي إشارة دنو موتي..

انطفأت هواجسي مع الفانوس وغفوت في نوم عميق، وعندما

استيقظت وجدت خلقاً كثيراً قد جاؤوا لعيادتي وازدحم البيت بالرجال والنساء واستمر الحال هكذا حتى التأم الجرح. . فقررت الخروج استعداداً لبذر الحبوب.

* * * *

انقشع الليل عن صباح هادئ منعش. . كانت ـ فيه ـ طيور «المساملة» تشقشق فوق شجرة «الثمام» التي بآخر الدار وأخذت دجاجاتنا تنقر الأرض ومن خلفها مجموعة من «الصوص» فقسوا منذ أيام مضت، والأرض ندية تشع منها رائحة عبقة وقد تمددت على «الجلة» آثار زواحف كانت تقضي الليل في هذا «القبل» المتسع، وظهرت بائعات اللبن والملوخيا بقبعاتهن الخزفية ووجوههن المكدورة، فخرجت أمي وابتاعت من إحداهن لتمضي ـ بعد ذلك ـ وهي تصيح بانشراح:

ـ «هيا يا بنات. . اللبن يا بنات». .

بعض الأطفال الصغار كانوا يعبرون «قبلنا» وهم يحملون «المطبق» أو «الزلابيا» عائدين لبيوتهم من أجل «صفارة» الصباح. . صوت جارتنا يرتفع في مثل هذا الموعد من كل صباح لتقريع ابنها:

ـ لقد ملأت الدنيا بولاً. . ألم أقل لك مراراً أن تتبول قبل أن تنام؟!

ومن المطرح تداخلت أصوات الغنم والبقر والحمير وثمة نساء بدأن أعمالهن اليومية، فإحداهن تكنس والأخرى تحض الصبايا للخروج للتحطيب قبل أن تشتد الشمس وثالثة وارت التنور وأخذت «تلبب الرهي» قبل إيداعه التنور وأخرى جلست تخض الدبية لاستخلاص الدهنة. صباح معافى بالحياة. . كل شيء ينساب بهدوء، فالرعاة يدفعون أغنامهم للأمام، والفلاحون يتمايلون من فوق ركائبهم وهم يحملون فؤوسهم متجهين صوب الحقول. وفي مثل هذا اليوم من كل أسبوع تصبح قريتنا متنفساً للقرى الأخرى حيث يؤمونها من كل القرى المجاورة للتسوق وجلب أنعامهم للبيع. في مثل هذا اليوم يصبح كل شيء أكثر بهجة من الأيام الأخرى.

ملأت رئتي بهواء هذا الصباح النقي والتهمت بعض اللقيمات واتجهت

لتجهيز حماري «بشد» جديد وحملت مساحتي، وهششت أمامي ثورين تركت عليهما المحراث معلقاً وقد تزودت بنوعين من الحبوب كي أبذر بها حقولي ومتمنياً أن تصيبنا سنة ماطرة لأعوض ما فاتنا في المواسم السابقة.. وخرجت ودعوات أمي تتبعني.

وما إن استلمت أول الطريق الضيق الموازي للمسجد حتى سمعت صوت زهرة يناديني فالتفت نحوها لألمحها تحث الخطى باتجاهي فترجلت عن حماري وأرسلت عيني في أنحاء الطريق خوفاً من عين ترصدنا، فخشيتي عليها تعكر مثل هذه اللقاءات السريعة الخاطفة، فلو علم عمها أنها تحدثني لدق عنقها فكيف إذا رآنا بداخل القرية جنباً إلى جنب.. كنا حريصين على أن ننأى بلقاءاتنا خارج القرية في مواعيد ثابتة من كل أسبوع، ففي أيام الصيف نتلاقى في «المعلاف» المهجور ـ والذي انتشرت إشاعة أنه مسكن قاطعي الطرق ـ وأظل أعلف معها ونتحدث بما نشاء حتى قبيل الغروب، وفي أيام «الجحر» نتلاقى خلف «المطينة»، أما بداخل القرية فكنا نرضى بتلك النظرات السريعة الخاطفة وهذا يحدث إن تقابلنا صدفة. كانت قدماها تسابقان أنفاسها اللاهثة حتى إذا بلغتني ظلت للحظات تلهث وبعد أن هدأت أطلقت صوتها الناعم النائم:

ـ قلبي عليك يا سيد العيون... ليتني أموت ولا تشكك الشوكة، كنت أتوق لزيارتك ولكن أنت تعرف العيون التي تحيط بي.. ولي أيام عديدة أنتظرك هنا كي تخرج.

فقلت لها مطمئناً:

ـ ليس بي شيء... ها أنا كالحصان..

وأدرت بجسدي هاماً بمغادرتها قبل أن تقع علينا عين فاستوقفتني وأحنت رأسي، وعندما رأت جرحي غائراً شهقت وتقافز الدمع من عينيها وبصوت خافت، خائف، مرتعش، أمسكت بيدي:

ـ احرص على نفسك يا عبد اللّه وتذكر ـ دائماً ـ أن ليس لي في هذه الدنيا إلاّ أنت.. احرص من كل شيء..

كانت لهجتها مرتبكة كمن يخفي أمراً ما، فسألتها مستفسراً:

ـ هل تعرفين شيئاً وتخبئينه عني؟

أسدلت عينيها بعتب وأطلقت لسانها في محاولة لجذبي لشجار تعرف نهايته بأنني سأعتذر لها، وأغدق عليها تو ددي وحبي، وعندما وجدتني أعيد السؤال مسبوقاً باعتذاري، قالت:

ـ سمعت عمي يتحدث مع السوادي بشأنك..

ـ ماذا سمعت؟

يقولان لو رفع رأسه سيجاور أبيه.

ـ وعن ماذا كانا يتحدثان؟

ولفرط ملاحقتي لها بالأسئلة خرجت كلماتها حنونة مستعطفة:

ـ لا أدري.. فقط احرص على نفسك وتذكر أن ليس لزهرة إلاً أنت..

طمأنتها، وضغطت على يدها، وحثثتها على العودة، فأبت وظلت ترصدن حتى التهمتني الطريق.

انشغلت قليلاً بالسوادي مما مكَّن دابتي أن تتلكأ بقضم الحشائش التي تصادفها في الطريق وقبل أن تتمادى في ذلك نفضت كل خواطري ولكزتها هاشاً بيدي على الثورين.

من أماكن متباينة ينسل الفلاحون صوب الوادي فتسلمنا الدروب إلى درب ينزلق لبطن الوادي ويضيق عند مؤخرته بأشجار متداخلة لا تمكن دابتين من السير جنباً إلى جنب..

بصوته الأجش وروحه الحلوة أخذ علي شوعي ينده لي:

ـ هه.. يا ابن الشاقي..

التفت إليه مبتسماً:

ـ ماذا عندك؟!

ـ هل لك رغبة أن أعمل لديك أجيراً.. أجلب لك الأنفار للحرث والبذر وما عليك إلاً أن تبقى في دكانك وتصلك «الغلة» كاملة؟!

ـ أراك «مكارياً» هذه الأيام.. ولمن تركت أرضك؟!

صرخ من بعيد ولكز حماره كي يجاورني:

ـ في هذا الزمن لا أرض إلاً للسوادي.. فهو كالمقبرة يدفن الأموات ولا يمانع من دخول الأحياء على أمل أن يقبرهم ذات يوم..

ـ ماذا حدث؟!

ـ أوَلست في القرية؟!

شد لجام حماره وهدأ خطواته ومال نحوي:

ـ في الموسم الماضي كان موعد زواج أختي وابنتي.. وكما تعلم ماتت البذور في حقولها فلم أجد إلاً السوادي كي أستدين منه لإتمام مراسم الزواج.. وبعدها بشهر واحد وصلني «حضار» من القلعة وطالبني بإعادة القرض.. أخبرته أن محاصيلي أكلها الدود ولا أستطيع السداد فأمر بسجني وكان له عبد ـ أنفه كالكوة ـ يزورني يومياً ولا يخرج إلاً وأنا جثة هامدة أتقطر خجلاً. كان يحضر معه ورقة ويطالبني أن أبصم عليها وعندما أرفض يندفع نحوي كالثور ويقلبني على ظهري ويلوطني بمتعة مقززة وبعد مضي شهر على هذا الحال خشيت أن أموت بداخل القلعة فبصمت على جميع الأوراق وخرجت!!

ـ ألم تكتب للقاضي بهذا الخصوص؟!

غمغم بحزن:

ـ القاضي هو اللّه.. وهذا الزمان قضاته في النار.

وابتعد باحثاً عمن يستأجره في حين ارتفع صوت متخوفاً من أن تكون هذه السنة (دفرة) الوادي متذكراً أن حقوله تقع في فم الوادي.. كان مؤملاً في محصول هذه السنة كي يشد الرحال إلى الحجاز لأداء فريضة الحج.. وقبل أن يواصل مد تخوفه إلى أفئدة الآخرين فنهره أحدهم بحدة:

ـ فال اللّه ولا فالك..

انعطف أحد الفلاحين عائداً للقرية فأربك سيرنا في مدخل ذلك الدرب الضيق المتداخل الأشجار حيث كنا نسير في صف متقاطر وكلما نهره أحد صرخ فيه:

ـ لقد نسيت البذور ولا بد أن أعود.

انثنيت أتحسس بذوري فاطمأننت عليها وأيقنت أنها تفيض عن حقولي.. فصرخت فيه:

ـ لا تربكنا، عد.. فلدي ما يكفي من الحبوب..

إلاَّ أن صوتي كان ضئيلاً لم يصله بسبب الجلبة التي أحدثها بنكوصه.

أوشكنا على دخول الوادي وغدت الطريق تضيق فلا تسمح لنا أن نعبرها إلاَّ واحداً واحداً ليرتفع صوت محذراً من هذا الطريق وأن به من الهوام السامة ما يكفي لأن تلامسك فقط حتى ترديك قتيلاً.. وآمن آخر بأن به ضباع وذئاب.. فصرخ فيهما واحد من آخر المجموعة:

ـ أراكما «تكشحان».. إنه نفس الطريق الذي نسلكه يومياً..

فرد عليه أحدهما بتعالٍ:

ـ ألم تسمع بالذين لدغتهم الهوام.. أو الذين عادوا ولحمهم في أفواه (العراريج).. أو تحسبها رجولة فقط.. من حذر سلم..

فجاء صوت الآخير منزعجاً:

ـ كفى.. امشي وأنت ساكت..

وما إن انزلقنا بداخل هذا الطريق حتى ارتفعت أقدامنا على شدود حميرنا بحركة لا إرادية وسرنا صامتين وكأننا نقطع هذا الطريق للمرة الأولى، وما إن عبرناه حتى فاتحنا الوادي باتساعه وصفاء رماله الفوسفورية وقد تمددت الشجيرات الخضراء المتزاحمة على ضفته بينما استلقت حقول السمسم والقمح والقطن في انتظار أن تنهض بقاماتها، وعلى حدود الحقول تناثرت أكواخ وسقائف الحماة والتي تستحيل إلى حركة دائبة في أيام الحصاد حيث تتكاثر أقدام الباعة لعرض بزهم أو حلوياتهم أو مائهم على المنكبين بين الحقول.

تناثرت المجموعة التي كانت أسايرها في اتجاهات مختلفة وهبطت الوادي موجِّهاً حماري صوب حقولي الشمالية، فلمحت على بعد شخصاً يركض منادياً بأعلى صوته:

ـ ووه عبد اللّه.. إلحق..

تبيَّنُ أنه درويش.. كان يلهث بشدة وعندما توقف لهاثه ارتفع سعاله بحدة فأمسك بلجام الحمار وأسند رأسه برأسه حتى إذا استرد أنفاسه صرخ:

ـ ثيران السوادي تحرث حقولك الشمالية..

ـ وهل يريد أن يكسب الحسنات بفعلته أم يريدني أن أسامحه.

ـ سمعت وكيله يقول إنها أصبحت ملكاً للسوادي..

أصابتني موجة غضب مفاجئة فهمزت حماري بقوة وألقيت بعصاي على ظهره فانطلق «يبرطع» وشيء ما يحترق في داخلي فتخرج مع أنفاسي رائحة ذلك الحريق وفي غمرة غضبي نسيت أن أردف درويش معي لأتركه يركض وهو يصيح بي:

ـ تصبر حتى نتدبر أمرنا.

صببت جام غضبي على ذلك الحمار دون أن ألوي على شيء وقبل أن أصل بمسافة ترجلت عن حماري ـ تاركاً إياه يواصل ركضه ـ وأخرجت خنجري من غمده.. كانت الثيران تملأ الحقول فاقتربت من أحدها وغرست خنجري في بطنه فخر في مكانه ولم يتباطأ درويش من إخراج مديته ومشاركتي بقر بطون الثيران القريبة منا، ارتاع عمال السوادي ووقفوا بمعاولهم دون البقية الباقية من الثيران.. فصرخت فيهم:

ـ هذه أرضي وسأموت دونها.. واللّه ويمين اللّه لو أن أحداً اقترب مني لأبقرن بطنه..

تراجع نفر منهم وأسقطوا فؤوسهم وآثروا السلامة وأخلوا الحقول بينما ظلت بقية منهم شاهرة فؤوسها في وجهي، فتقدم نحوهم درويش وخاطبهم:

ـ ألا تقولون بأنني مجنون وسوف أؤكد اليوم هذا.. سأبقر بطونكم واحداً واحداً ولن يجرؤ أحد على مقاضاتي وخير لكم أن تبتعدوا..

تراخت أيديهم عن فؤوسهم، وتبقى صوت الوكيل يحرضهم على إيقافنا في حين كان خنجرانا يعبثان بأمعاء الثيران.. على صياحنا اجتمع الفلاحون، وعيونهم تسيل بالفرح، وإيماءاتهم تدفعنا إلى بقر بطون تلك الثيران..

تجندلت الثيران وارتوت الأرض بدمائها، وتبقت ضحكات درويش العميقة تجوس المكان، وهو منهمك في سلخ أحد الثيران ومنادياً بالفلاحين المتجمهرين:

ـ من يريد لحماً فليقترب.. واللّه لقد دكيته قبل أن يزهق روحه وسمّيت عليه أيضاً.

كان خوفهم أكبر من جوعهم فلم يستجب لندائه أحد.. كنت حذراً من أن تمتد أيدي عمال السوادي نحوي فحملت فأساً وأشهرتها في وجوه الجميع لينهض درويش تاركاً سلخ الثور وحاملاً فأساً أخرى ليقف بجانبي، استشعر الوكيل أن دماء أنفاره ستراق، فأشار إليهم بالانسحاب ومضى وهو يتوعد.

وانشغلت ودرويش بسحب جثث الثيران من الحقل وساعدتنا مجموعة من الفلاحين بعد أن اطمأنوا أن ليس هناك عين تتربص بهم.

سويت محراثي وسرت خلف الثورين منتشياً، ودرويش يبذر الحبوب من خلفي، وهو يغني بصوته الأجش.. لم نسعد كثيراً ـ على أية حال ـ بهذه النشوة، فقبل أن نكمل الحرث كان السوادي ورجاله يطوقون حقولي شاهرين بنادقهم صوبنا.. قيدت أقدامنا وعادوا بنا يسحبونا على وجهينا بينما كان جسدانا يخطان الأرض بتعرجات عميقة وإمعاناً في إذلالنا مروا بنا على السوق حتى إذا تساقطت عيون الناس ذعراً، اتجهوا بنا نحو القلعة، ليستقبلنا محروس ضاحكاً متشفياً، وأدخلنا غرفة مظلمة وأطبق علينا بابها.

في القلعة ثور كبير اسمه الموت..

أهالي القرية

هطل الظلام بغزارة، فبدت القلعة كمارد يتحفز للانقضاض على القرية النائمة، فمع دخول الليل يفيق الخوف من أفئدة القرية ويأوي كل شيء إلى نفسه ولا يبرحها إلاَّ مع طلوع الشمس حيث يتبعها إلى الحقول ويعاود الاختلاء بنفسه سراً.

هذه القلعة شاويش يحمل كرباجاً لمن لم تروضه الليالي والعبر، تتجلى عظمتها في الليل حين تقفز القرية وتخلي أزقتها وحقولها وتطفئ فوانيسها فتظهر القلعة تعسّ بصوتها وأقدامها الثقيلة على صدور أولئك المختبئين في عششهم والمترقبين ـ من خلف العتمة ـ لأي صوت يبشرهم بموت السوادي. وفي الليل لا تأتيهم إلاَّ أصوات المساجين الذين تدوي أصواتهم كالنحل.. تأتي أصواتهم عبر ذلك الخلاء المتسع كهمهمة المحروق الذي لا يشفيه ماء ولا تراب وتظل صرخاتهم تتقلب على جمر السكون بملل ورتابة.

الليلة ثلاثة بيوت تقافزت للخلاء ولم تذق طعم النوم، خرجت تلتحف برداء الليل الحالك تسترق السمع لصراخ المساجين.. كانت عيونهم تحاول جاهدة أن تخترق فناء القلعة.. تلك الفزاعة التي نصبها السوادي في قلوب أهل القرية.

على بوابتها الكبيرة المتداعية اتكأ «محروس» يقتات حزمة قات أتى على نصفها.. كان يهز رأسه على صوت «الآنسي» المنبعث من جهاز راديو قديم ـ صادره من أحد السجناء القادمين من المدينة ـ رافعاً صوته بالغناء فوق تلك الأصوات التي تتناهى إلى مسامعه بآهات خافتة، وهي تناديه باسترحام وغضب ولعن.. فيصرخ حتى يتشقق صوته:

ـ يلعن أهلكم. . دعوني أستمتع بتخزينتي. .

كل شيء ينبئ أن الموت حلَّ نزيلاً بهذه القلعة، فحجارتها تآكلت وانهار دورها العلوي وشب التصدع في كل أركانها، وتخلَّت غرفها عن الأبواب والنوافذ، فاختلطت بالدهاليز والحمامات، ولم يتبق صامداً منها إلاَّ فناؤها المسور بجدران عالية زرع أعلاها بشظايا زجاج ليمنع كل من تسول له نفسه بالدخول أو الخروج. .

في الليل تستحيل القلعة متنفساً فسيح الأرجاء للخفافيش التي تتخطف المساجين وتمنعهم من إغفاءة قصيرة تنسيهم عذاباتهم وتظل أجفانهم منتصبة في الليل والنهار.

هذه القلعة لها تاريخ عميق من الرعب مدفون في صدور المسنين. . قليلون هم الذين تحدثوا عنها أمثال العجوز نوار وعبده راجح ـ والد ليلى عبدية ـ فقد ظلت لسنوات طويلة لا يعرف ما بداخلها، وماذا يحدث خلف تلك الجدران العالية، وغالباً لا يخرج من داخلها إلاَّ محمولاً على أكتاف العسكر والذين يتجهون به رأساً صوب المقبرة ويلقونه ـ كيفما اتفق ـ دون علم أهله أو حتى تمكينهم من طبع قبلة الوداع على جبينه، وبهذا يظل أهل السجناء معلقين بين اليأس والأمل.

ظلت القلعة زمناً طويلاً أساطير تروى وحكايات غامضة. . . ومنذ عهد قريب تناقل الناس ـ بسرية تامَّة ـ خبر غرفة بالقلعة لا تفتح أبداً وأشيع أن بها كنوز السوادي يدلفها فرحاً وحين يغادرها تكون عيناه مشتعلتين كالجمر من شدة لمعان الذهب. . وآخرون يقولون: بل يخرج باكياً ونادباً من تؤول إليه هذه الثروة. . وقد تسربت حكاية من أفواه الحراس الجبليين أن في القلعة غرفة كانت فيما مضى تقطنها أم السوادي وهذه الغرفة محرمة على الجميع لا يدخلها إلاَّ هالك، ويروون أن أحد الحراس حاول أن يكتشف ما بداخلها، وعندما علم السوادي، أمر بربطه من يديه ورجليه، وتثبيته على الأرض، وأحضر خمسة جمال وأناخها عليه تباعاً حتى خرجت الدماء من فمه ودبره!!

ويقولون: إن حليمة استدرجت «محروساً» في الحديث عن هذه الغرفة فأخبرها أن بها كرسياً واحداً تجاوره سحارة «سيسم» بنى عليها العنكبوت، وفي الجهة المقابلة مرآة مكسورة ومكحلة ومرود و«مصار» وفساتين وجديلة مقصوصة معلقة في صدر الغرفة.

وعندما حاولت أن تستزيده خرج من بيته مذعوراً، قبل أن يندلق لسانه، وذهبت محاولتها عبثاً بعد ذلك.

وظلت هذه الغرفة هاجساً إضافياً لأهل القرية..

في الصباح الباكر يخرج السجناء إلى خلاء قريب من فناء القلعة لقضاء حاجاتهم وهم يجرون سلاسلهم المطبقة على أقدامهم وأعناقهم، وفي مثل هذا الوقت يخرج بعض أهالي القرية لرؤية سجنائهم خلسة حتى لا تراهم أعين الحراس، ويبقون يتبادلون معهم الإشارات واللهفة، ويعودون قبل انتشار الحراس في طرقات العودة.

وفي عودتهم يعبرون فناء القلعة من الجهة الغربية بكل حيطة وحذر.. هذا الفناء الذي وطئته أقدامهم أيام الشوطة وأخذوا هباتهم والظنون غارقة في خواطرهم من أن السوادي نوى أن يدخل القرية كلها إلى القلعة ويطبق عليها الأبواب والأغلال.

ومن الآيام السعيدة التي تتذكرها القرية.. اليوم التالي لتوزيع الهبات، ففي ذلك اليوم غنت القرية ورقصت وتبادل أهلها التهاني على النجاة والخروج من بوابات القلعة دون أن تطبق عليهم الأبواب.

هذه الفزاعة استطاعت أن تشغل الخوف في كل الأرجاء كعجوز ساحرة تحيل الأعين لهباً ودخاناً.. حتى إن أهل القرية حفظوا أدعية يسردونها كل يوم كي تقيهم شر هذه الفزاعة ويرددونها بعمق خوفاً من أن يجدوا أنفسهم بداخل أسوارها العالية.

وبداخلها تكومت الأجساد بعضها فوق بعض راسفة في قيودها الثقال، فجدران الزنازين خربة من جوانب عدة، وحرصاً من وسوسة الأفئدة بالهرب فقد لجأ الحراس إلى تكبيل كل ثلاثة مساجين بسلسلة طويلة تنتهي بكرة

حديدية ضخمة لا ينفرد السجين بقيده إلاً في الصباح حين يمضي لقضاء الحاجة، وبقية الوقت يظل المساجين متلازمين في تلك السلسلة الطويلة التي لا تمكنهم من النوم في وقت واحد، وقد سرت العادة بينهم أن يتناوبوا في النوم، فالنائم يحتضن عظامه متكئاً والآخر يهش الخفافيش عنهم والثالث يتحمل ضغط الحركة وثقلها الناجمة عن استرخاء النائم وقفزات ذلك المنشغل بهش الخفافيش.

وقد احتاط السوادي لأي محاولة التفاف ضده تنبثق من داخل هذه الفزاعة فركن إلى جلب الحراس من المناطق الجبلية، وأوعز إلى نفر منهم أن يقوموا بخلق الفرقة فيما بينهم، وتحريضهم على كره بعضهم بعضاً ولم ينسَ ملء جيوبهم ومعدتهم، فأغدق عليهم العطايا والهبات واشترط عليهم أن يستبدلوا قلوبهم بحجارة غليظة يضعونها في صدورهم. فكانوا يتحركون كالحيوانات الضارية لا همَّ لهم إلاً إراقة الدماء وهم يصبون كل كرههم على أولئك المساجين.. يتحركون وهم يحملون «القيش» ويلقونها على أي جسد لمجرد أنهم عبروه فقط.

وكانت تعذبهم الوحدة والجفاف فلا يجدون إلاً اللهاث المتبادل فيما بينهم وما إن ينهضوا حتى يعاودوا حمل «قيشهم» وإلقاءها على أي جسد يصادفونه في طريقهم.

محروس هو الحارس الوحيد الذي جاء من القرية وله حظوة زائدة عند صاحب السوادي ـ ولي ـ لذلك فقد قلَّده السوادي منصب رئيس الحراس وقد كلفه هذا المنصب أن يُسجن مع المساجين لا يغادرهم إلاً في أوقات قليلة ونادرة.

للتو هطل الظلام بغزارة على هذه القلعة ليبدأ الموت جولته الليلية.

تسامروا ففي الحديث نوافذ من نور..

سجناء القلعة

لا يزال محروس في متكئه يجتر تخزينته منتشياً ويدندن بصوت مرتفع.. يصله صوت خفيض من داخل السجون:

ـ أريد أن أخرا..

فيتجاهله باستخفاف، ويتناول غصناً قانياً ينفضه بسبابته، ويمرر عليه يده وعيناه منشغلتان به، ويمسك بالغصن من آخره ويضرب به راحة يده اليسرى ثم يعيد سبابته لتلك الأغصان الخضراء المائلة للحمرة، ويتطلع إليها بإعجاب ولذة، وقد يقرب الغصن من ضوء فانوس أوشكت ذبالته أن تلفظ آخر أنفاسها.. يقطف تلك الأغصان التي مرت عليها سبابته مراراً ويحشو بها شدقه الأيمن.

تنبثق أغنية شجية من الراديو الذي يقبع في حجره فتحرك فيه آهة حارقة يدفعها للأمام فيضرب ساقه برفق ويدندن معها، وعندما يبلغ قمة نشوته يحرك كوفيته المخروطية الخيزرانية للأمام، ويرفع رجله اليمنى على ساقه اليسرى معتدلاً في متكئه مترنماً طروباً.. الصوت لا يزال ينساب إلى مسامعه مستعطفاً:

ـ أنا «انجاربوك».. أريد أن أخرا..

فيعكر نشوته قليلاً ويمعن في إهماله مديراً مفتاح الراديو لمحطة أخرى:

ـ يلعن والدتك.. كأن بك صنج.. أقول لك أريد أن أخرا.. سأنفجر..

تحرقه تلك اللعنة فيترك متكأه ـ غاضباً ـ حاملاً فانوسه وعصاه الغليظة

ويتجه صوب الزنازين يتطلع إليهم بكره وحقد ويهوي على تلك الأجساد المنثورة.. ليفز النائم لاعناً، ويسقط الهاش، وترتفع آهات الألم والحرقة..

يقف في وسطهم ويمد فانوسه للأعلى ويدور بعينيه في وجوههم الحائلة:

ـ من سب والدتي؟!

بزغ بقامته الناحلة وضحكته الطليقة ليبدو وجهه ـ على ضوء الفانوس ـ أكثر سمرة:

ـ وماذا تظن والدتك.. شيخة أو شريفة؟!

ضرب محروس بقدمه الأرض ولوح بعصاه:

ـ كأنك تريد أن تسبني يا درويش.

ـ ولماذا أسبك وأنت السب نفسه؟

لتنجرف موجة من الضحك تحرك سكون الليل قليلاً.. فأعاد محروس عصاه لأجسادهم وزمجر:

ـ من هذا الذي يريد أن يخرا؟!

حاول عبد اللّه النهوض فلم تمكنه السلسلة ـ التي توصله بدرويش وموتان ـ من النهوض وعندما عجز في المرة الثانية صرخ في محروس:

ـ كأنك لا تراني أتلوى!!

رفع محروس عصاه وألقاها على ظهر عبد اللّه لينحني متألماً يئن بصمت ورفع محروس صوته متشفياً:

ـ هذه من أجل أن تدع السب قليلاً..

وفار بالحكايات والتشفي:

ـ كأني بك قد نسيت سبك لي.. أنا لم أنسَ قط وهنا سوف تعلم من هو محروس؟!

ارتفع صوت درويش غاضباً:

ـ من تكون؟! كلب ابن كلب.. وإن أردت زيادة يعلن والدتك ووالدة والدتك.

امتقع وجه محروس وفتح فمه على اتساعه، وقبل أن يفيق من دهشته أمطره درويش لعناً:

ـ إن كنت شجاعاً اضربني.. ورأس أبيك ـ إن كان لك أب ـ لو خرجت من هنا لأبقرن بطنك..

حاول بعض المساجين تهدئة هذه الزوبعة إلاّ أن محروساً كان الأسبق فقد اكتفى بغرس عصاه في صدر درويش:

ـ لأنك مجنون فقط سوف أسامحك.

ـ أنا مجنون يا ابن القوادة.. وهل نسيت أمك التي كانت تبحث في الطرقات صارخة:

ـ من منكم رأى خريتي؟!

عندما لم يستطع أحد من السجناء أن يكتم ضحكته فانطلقت ضحكة جماعية مدوية ليقف محروس تائهاً أمام هذه القهقهات المرتفعة، وقبل أن يطول به المقام علق الفانوس بحيث يراهم جميعاً، وابتعد قليلاً محكماً يده على عصاه الغليظة، وانهال عليهم يميناً ويساراً.. كان لوقع عصاه على أجسادهم صوت ندف الفرش القطنية الثقيلة، فأداروا ظهورهم له، واحتموا ببعضهم وهم يتلقون الضرب صامتين.. الوحيد الذي ارتفع صوته بالبكاء (موتان)، فأمسك محروس عصاه وشد شعره بقوة:

ـ أخبر أمك.. إن رأيتها.. أنني ضربتك..

وأطلق ضحكة جافة وتحرك عائداً ليتبعه صوت درويش:

ـ لقد جف الحياء من وجهك.. قابع معنا في السجن لتحرسنا مخلفاً حقول (حليمة) اليانعة لولي يحصدها بدلاً عنك..

فنزت ضحكات متفرقة، وبلغ بمحروس الغضب حد التهور فعاد راكضاً كثور أحمق وألقى بعصاه بكل قواه على رأس درويش فتطاير الدم واللعنات، وتراجع محروس حاملاً فانوسه وقليلاً من كرامته.

غرق الكلام في أفواه المساجين وأخذوا في الظلمة يتلمسون رأس

درويش وأناته تقودهم لمنبع الدم، فجأة عاد محروس وصدره لا زال يخرج أنفاساً محروقة وكلمات متقطعة وانحنى على درويش:

ـ قبل أن تفكر في سب الناس اسأل عن أصلك يا فرخ..

وبصق عليه وغادر منتشياً بما فعل..

ليرتفع صوت درويش بالبكاء... هي المرة الأولى التي يذرف فيها دمه ودموعه معاً.

غادرنا ضوء فانوسه لتغرق وجوهنا في ظلمة حادة.. كان طرق حذائه ـ ذلك الحذاء الذي أوشك أن يعري قدميه ـ يشي بهزيمته، وصوته الهادر بالوعيد يستلقي بغمغمة منكسرة خفيضة تصلنا وكأنه منحور:

ـ ووه يا حليم تركتني معرة.

خلع أحدنا مدرعته بصعوبة، وناول درويش ليغطي بها شجه المفجور، وانحنى عبده راجح يتلو عليه آيات من القرآن حتى هدأ.

نالنا التعب وعبد اللّه لا يزال يصرخ من شدة ما يجد، فتحامل درويش على نفسه ـ ومعهما موتان ـ وتحركا إلى ركن قصي «لينبث» عبد اللّه ويفرغ ألم بطنه وعندما انتهى ضحك عالياً وصرخ في الجميع:

ـ من يشعر بالجوع فليتقدم..

فتصايح المساجين:

ـ هنيئاً لك زادك.

وعادوا يتسامرون وانشغلوا بالحكايات، وغط بعضهم في نوم عميق، وخبا صوت درويش، وبقيت عيناه تمطران دموعهما بصمت، وعندما أحس زميلاه بجسده يعلو ويهبط في محاولة لإخفاء شهقاته العسيرة انكفآ عليه وشاركاه بأدمعهما.

من بين شقوق الجدران كان القمر يسيل بضوئه المتوهج كالماء حين ينساب بين حقول القمح.. فيتحركون صوبه في غفلة من الحراس ويناغونه بآهاتهم وَوَجْدِهم العميق،، النزلاء القدماء يتأففون بضجر من طراوتنا

وتهافتنا.. كانت عيونهم تتربص بنا ونحن مستلقين نضاجع الدمع نهانا صوت صالح فجأة محذراً:

ـ أبقوا على دموعكم «لقيش» العسكر.

ليتحدث عبده راجح بهدوء المسنين ومن أحرقتهم الأيام:

ـ ابكوا كما تشاؤون فمنذ أن سجنت ـ من وقت طويل لا أذكره ـ وأنا أبكي حتى نسيت لماذا أبكي.. وأصبحت هذه القلعة سجناً وحياة..

وصمت فجأة لدندنة خفيضة آسرة حزينة ندت من (شبرين).

وما إن أخرج تأوهاته حتى ارتفعت الأصوات تطالبه أن يعيد.. استوى جالساً ونظر حوله بمرارة.. كانت وجوهنا على ضوء القمر تبدو أكثر وضوحاً وأقل فرحاً. ظل صامتاً يجوب بعينيه فينا حين اقترب منه عبد اللّه ـ ليجرنا معه ـ وتناول وجه شبرين وطبع قبلة على رأسه ـ لترتفع أيدينا المتصلة بتلك السلسلة الطويلة ـ وحاصرناه بأيدينا وأفواهنا.. فتساقطت دمعات طفيفة على وجنتيه وأخذ يغمغم:

ـ هذه القرية لا تحب إلاَّ الموت..

وأسلم حزنه لنا ولليل، ومضى يحدثنا.

غنِّ قبل أن تموت.. فالموت لا يرقى درجات الغناء

شبرين

حدثنا (شبرين) عن سيرته فقال:

منذ خمسة وعشرين عاماً غادرنا هذه القرية بعد أن دفن أبي عينه في فناء قبة راعي القضبة. يومها قيل له ستنبت لك عين وسيكون بصرك حديداً وظل ينتظر عودة عينه.. يردم فتحتها الغائرة بالكحل علها تبزغ وتنير وجهه. كان أي رمد يصيب عينه الأخرى يأتينا فرحاً:

ـ سوف تنبت عيني.. لا بدَّ وأنها ستنبت.

وإن أصابته كدمة في عينه المفقودة، وورمت يطير فرحاً، وكلما تضخم ورمها أيقن بعودتها.. كان يقول ـ وهو يتحسس انتفاخها ـ:

ـ لا بدَّ وأن حدقتي حبلى بعيني الجديدة..

وعندما ينطفئ ذلك الانتفاخ، ويتمخض عن ثقب غائر خمدت فيه الحياة يعود حزيناً بائساً ويظل ينتظر.. وقد لزم داره خوفاً من مناداته: يا أعور.

في يوم ما عدت إليه باكياً ـ فألهبت حزنه وجراحة التي بدأ يتناساها ـ حضنني برفق:

ـ أعلكم أنكم جياع.

فتماديت في بكائي، وعندما حار في دموعي، سألني بضجر:

ـ ماذا بك تتدلل كالصبايا؟!

فاستبكيت، وتمحكت به، وشكوت له ما أجد من أقراني:

ـ أقراني ينادونني (شبرين) أبو عين..

صمت صمتاً ثقيلاً ونفرت عروق صدغيه واصطكت أسنانه، وغدا

وجهه حجراً.. لم أكترث بما أضفت من كدر إليه، فانفلت من بين يديه وعدت للعب. في المساء جاء وحملني من قعادتي وغادرنا هذه القرية سراً..

كان أبي عنيداً كالأرض.. قبل أن تخلع عينه كان يمشي في السوق مباعداً بين خطواته رافعاً رأسه كالطود وصدره العريض يستنشق الهواء ويدفعه بعنف وكأنه يأنف من كل الوجوه.. يداري وداعته ورقته خلف جسده الفارع، وقسمات وجهه الصارمة، وعبثاً يحاول أن يمسك دموعه المنسكبة حين يرى الجوع مستشرياً في بيوت القرية.

في ليلة عيد الفطر عاد من السوق حاملاً كسوة العيد وقبل أن يعبر «قبلنا» سمع جارنا الصغير وهو يسأل أمه التي تدفعه عنها بصوت متهدج:

ـ لو أن أباك حي لجلب لك ما تريد.

فيصرخ فيها الصغير:

ـ الآن أبي مات لا أفرح بالعيد؟!.

عندها فقط غيَّر أبي طريقه ونادى بزوجة جاره وناولها كسوتنا ومقاضي العيد وثوبي الجديد وهو يتلعثم:

ـ قبل موت يحيى اقترضت منه «ظرف طعام» وهذا نصف الثمن.. وسوف أوفي إليك ما تبقى..

وعاد إلينا خفيفاً إلاّ من دموعه. وحينما حاولت أمي أن تصرخ فيه، نهرها بحدة وتوعد:

ـ عيدي يا حرمة..

فكفّت على الفور.. ليلتها نمت وقلبي يأكلني حنقاً عليه.. بعدها علمت أنه بيرق ناصع البياض في قرية تلونت وجوه أهلها حتى غدت «ملاوي»(*) لا يليق بها إلاّ الوحل.

وظل أبي بيرقاً.. أخبئه في قلبي وأجد في حبه..

(*) ملاوي: خروق توضع في الماء ليغطى بها فوهة التنور.. وعادة ما تكون خروقاً متسخة.

كنت أسير خلفه وهو يخب في السوق كجواد فتنه قوامه وصهيله.. ابتاع له قرفاً من القات الطري الرطيب وتأبطه وحمّلني الحوت والبقل والطماطم ودفعني أمامه ومضينا نشق الطريق عائدين حين استوقفه السوادي ـ بعنجهية ـ وهو راكب بغلته، فأبى أن يتوقف وأرسل كلماته من خلف ظهره:

ـ إذا أردت أن تحدثني فترجل عن دابتك..

لمحت السوادي يتناول «ميهره» من حجره ويقرع رأس أبي الذي قذف بتخزينته وانطلق إلى «سجف» مجاور وانتزع منه عوداً غليظاً وعاد راكضاً وألقاه على هامة السوادي الذي انحرف متحاشياً تلك الضربة لتصيب يده ودهشته.. ساعتها تقافز الحراس على أبي وألقوه أرضاً، حاولت أن أخلصه فتلقيت لطمة على وجهي، سقطت معها حوائجي ودموعي، وسحبوه أمامي وعدت أخبر أمي ونشجيبي يقاطعني قبل أن تفهم الحكاية.. وزاد ذلك ا لنشيج حينما رأيتها تولول وتضرب صدرها وتستغيث بالجيران الذين قبعوا في عرصات دورهم دون أن يواسوها بالصوت عندها خطفت «شيظرها» ويدي وانطلقت تركض في الأزقة وهي تغمغم:

ـ يا رب الطف.. نحن أناس فقراء مساكين..

يومها وقفنا على باب السوادي طويلاً وكلما مضى الوقت تداعت دعوات أمي ودموعها حتى إذا سقط الليل على هاماتنا قادنا أحد خدمه إليه.. كان يجلس في متكئه كالطاووس فانبطحت أمي أسفل قدمه و«تشعبطت» بها لتقبيلها وهي تذرف الدموع:

ـ إرحمنا يرحمك رب العباد..

كان أبي موثقاً في نفس القعادة التي يجلس عليها وحين لمح زوجته تتمرغ تحت قدم خصمه سحب القعادة فاهتز السوادي وصاح بأحد الحراس الذي لم يتوانَ عن أن يلقي على ظهر أبي بعصاه الثقيلة عندها صاح بزوجته:

ـ يا مَرَة.. لا تذليني.. أخرجي وإلاَّ أنت طالق..

لترتفع ضحكة السوادي عالياً وتهتز أضلعه:

ـ لا . . لا، أنا لا يرضيني أبغض الحلال . .

ولم يزد على هذه الجملة شيئاً، وإنما أشار إلى خدمه أن يمضوا بنا إلى غرفة أخرى من غرف الحصن الكبير وهناك شدوا وثاقنا . . ليلتها شعرت بفداحة أن تكون ضعيفاً، منكسراً لا تقوى على إخراج أنفاسك كما تشتهي حتى الآهة تستوجب أن ينزل بك العذاب . . ليلتها شعرت أن ثمة أقداماً تسير على أجسادنا . . كانت غصة مرة تعبر حنجرتي الصغيرة وأنا أسمع أمي تتضرع للّه وتبكي بحرقة وضعف . . تحسستها في ذلك الليل، قربتني إليها ووضعتني في حجرها وكلما دنت حركة مفاجئة من الخارج تكورت حولي لأسمع وجيب قلبها الذي يكاد ينفطر . . في تلك الليلة استيقظ في داخلي كل شيء: الخوف، الغضب، والرغبة في البطش، والرغبة في الاسترحام والرغبة في الموت.

مع أول خيوط الفجر لمحت وجه أمي ذابلاً منطفئاً لم يبقَ من بريقه إلاّ خطان سائحان منهمران بغزارة . . كانت تضع يدها تحت خدها وعيناها اللتان غطاهما الدمع تبحثان في وجهي عن معين، فتمنيت لو أستطيع أن أخفف عنها . . أن أقول أي شيء يزيح كآبتها وخوفها وانحناءها، وقبل أن أفاتحها دخل أحد مخدومي السوادي وقادنا أمامه لننضم إلى أبي الموثق بالحديد ودفعنا الحراس والعبيد أمامهم . . سار السوادي في المقدمة ممتطياً بغلته البيضاء، واستمر الموكب يزفنا صوب قبة راعي القضبة، فوجئت بوجود أهل القرية مجتمعين في دائرة كبيرة حول القبة وقد كسرت تلك الدائرة بفرجة ولجنا من خلالها وسحبونا أنا وأمي غير بعيد عن أبي الذي تقدموا به حتى أصبح أمام القبة مباشرة.

وقف السوادي خطيباً محتداً لم أفقه شيئاً مما قاله وإن أحسست به في أشد حالاته فوراناً فقد أرسل الكلمات شواظاً من نار فتساقطت فوق الرؤوس التي غرقت في خضوعها وأذعنت لقراره بعدة انحناءات مؤمنة على كل كلمة أطلقها بين حشودهم الحاشدة من حولنا . . أحسست بأننا منبوذون في هذه القرية والكل يكرهنا وما إن أتم خطبته حتى استند على عبدين من عبيده وترجل عن بغلته واقترب من أبي الموثق والمحاط بحرس تصلبت أيديهم

على جسده، وعندما أصبح في موازاته تماماً رفع إبهامه عالياً وغرسها في عين أبي اليمنى فتراشق الدم وأصاب وجهه ولحيته ولم يمنعه ذلك من تعميق إصبعه ليجتث تلك العين الواسعة.. كان صراخ أبي عميقاً وثقيلاً.. عندها أحسست أن الطيور حلقت عالياً وبعيداً كي لا تسمع أناته.. فجأة هدأ صوته وتلاشى وسقط مغشياً عليه واستقرت تلك العين الواسعة في يد السوادي الذي لم يتوان في رفعها عالياً في وجوه أهل القرية وقذفها أسفل قدمه وداس عليها ومضى مبتسماً!!

تفرق الجمع ولم يعد بجوار عين أبي إلاً دمها والتراب العالق بها، وأنا وأمي وجسد أبي المقذوف بجوار القبة.

كانت أمي غارقة في حيرتها تذرف الدموع وتقب جسد زوجها وتعود إلى ضمي والهنهنة، وعندما طال مكوثها في حالتها تلك، تحررت قليلاً وأطلقت اللعنات في كل الاتجاهات، وانحنت حاملة عين أبي.. في البدء أصابها الفزع فقذفتها بعيداً وهي تصرخ بجنون.. ارتمت على جثة أبي وأجهشت بكل عجزها حتى إذا سكنت عادت وحملت العين المخلوعة وركضت باتجاه الحقول وأوصتني أن لا أفارق أبي.. فجلست خائفاً وزاد هلعي بخروج سادن القبة زاجراً إياي وأمرني أن أحمل أبي، وأن أمضي به بعيداً عن السيد المبارك:

ـ إن السيد المبارك لا يقبل المذنبين ما لم يكن لديهم قربان..

وتركني وهو يزمجر وعاد إلى عشته المنصوبة خلف القبة.

جاءت والدتي بماء من الوادي وظلت تغسل العين وتبكي، صبت عليها ماء وفيراً وقلّبت أبي على ظهره وأعادتها إلى موضعها وقبل أن تعيده إلى رقدته الأولى سقطت العين كحجر بارد، لمحت فجوة عينه دامية غائرة فلم أعد أقوى على شيء سوى أن أغادر هذا الرعب، أفقت على وجه أمي الدامع وهي تمسح وجهي بالماء فشاركتها البكاء بجوار أبي الذي لا زال ملقى بلا حراك، وحينما ارتفعت الشمس إلى كبد السماء سمعنا لأبي أنيناً متوجعاً حارقاً فاقتربت منه والدتي وهي تمسح دموعه، وقد بزغت من ثنايا وجهها

الذابل أشعة ابتسامة. . قلبته وسقته ماء وحضنته وظلا يبكيان، كل هذا ولا أحد من أهل القرية بجوارنا فالسيد الخوف يتجول في الأفئدة ويحيلها إلى رايات منكسة في عوارض منكسرة.

ظللنا مستسلمين لأحزاننا وأنات أبي المتوجعة والتي تضاعفت وأصبح معها صوته مفجوراً ولم يوقفه إلاَّ انطلاق أمي إلى بيتنا وجلب «زر» و«حلف» وخلطتهما ووضعت عجينتها في ذلك التجويف الغائر الذي أشعل الألم في أبي فقفز عدة قفزات لتلحق به وتربط على عينه «بمصرها» حتى إذا هدأ كان الأصيل ينشر نسماته الباردة. عندها نهض وحمل عينه وتوجه رأساً إلى ركن منزو من القبة وقبرها هناك وعاد ليمسك بيدي ويجذبني وأمي من خلفنا تنتحب. كان يسير ولعناته تتساقط على الجميع وأقسم أن يخلع عين السوادي بالطريقة نفسها.

انتشرت إشاعة في القرية تقول إن السوادي قام بخلع عين زيلعي لأنه تطلع في وجهه بوقاحة دون أن ينحني لرؤيته ونشط (عبده حسن) على بث إشاعة أخرى مؤكداً فيها أن السوادي لم يقم بخلع عين زيلعي إلاَّ لأنه رجل علق عينه بالنساء وأن زنا العين أشد وطأة من وطء الفرج وتعزيراً به خلعت عينه، وأن السوادي كان رؤوفاً حينما ترك له عيناً ليدب بها في الأرض بحثاً عن رزقه ورزق عياله.

ولم يجرؤ أحد على سرد تلك الواقعة التي كانت السبب في خلع عين أبي، والتي كنت أظنها بسبب العراك الذي دار بينهما، وقد تكشفت لي الحقيقة فيما بعد.

كان أبي يذهب من الصباح الباكر إلى قبة راعي القضبة منتظراً أن تنبت عينه وكان يعود قبل الغروب ويظل قابعاً في عريشه لا يحدث ولا يُجالس أحداً إلاَّ أنات متتابعة تخلق على وجهه أسى محتدماً يحيل وجهه إلى قطعة ظلام عندها ينهض ويحتزم جنبيته ويحمل ميهره ويخرج. مضى على هذا وقت طويل لا يخرج إلاَّ في الليالي السوداء ويعود أكثر حزناً وألماً. . علمت فيما بعد أنه يمضي الليل يدور حول حصن السوادي علَّه يظفر به وحيداً. . سقط علينا ذات ليلة مضرجاً بالدماء، فعندما يأس من خروج السوادي وحيداً قرر أن

يتسلل إلى غرفته ويغرس جنبيته في عينه فقفز جدار الحصن متحاشياً زجاجه ـ بخيش ربطه على يديه ـ وقبل أن يتوغل بالداخل تنبه له أحد الخدم فأطلق نحوه كلباً عقوراً فعالجه بجنبيته، وبينما كان منشغلاً بالإجهاز عليه أقبل الخدم وأشبعوه ضرباً مبرحاً بكل الأدوات التي يحملونها، فأفلت من بين أيديهم بصعوبة، وقذف بنفسه للخارج ليأكله الزجاج المرصوص على جدران الحصن. . وظل راقداً في فراشه يتقلب بين الحمى والألم وبعد شهرين أخذت جروحه تبرأ رويداً رويداً.

وشاع في القرية أن أحد اللصوص حاول سرقة الحصن وتمكّن من الهرب قبل أن يتعرف عليه الخدم. . ووصفه أحدهم بأن له جسماً كالطود وصدراً عريضاً وعمامة تغطي نصف وجهه، فدارت الألسن حول أبي المختفي عن الأنظار، فبعد أن عاد وأيقنت أمي من أن كلاباً سوف تعوي خلفه قامت من حينها وبَنت له سقيفة بين الأحراج ونقلته إليها، وكانت تعوده قبل انقشاع الليل وبعد دخوله. . وعندما شفي ذهبتُ إليه باكياً شاكياً:

ـ أقراني ينادونني شبرين أبو عين. .

فصمت ولم يجب وفي الليل جاء وحملني من قعادتي وغادرنا القرية سراً.

كنت بين النائم والمستيقظ وهو يمسك بيدي ويمد خطواته وعندما وجدني أعطله بتلكئي حملني على عاتقه وأوغل في ذاك الليل. في الصباح أدركت أننا غادرنا قريتنا وأنني لن أجد رائحتها في الطرقات التي سأسير فيها وأولئك الصبية ـ سليطو الألسن ـ لن أراهم وأسعد بمشاغبتهم أو اللعب معهم بين الحقول أو عند آبار المياه. . وأدركت أن الوادي استحال بحراً يقذف السفن التي تتكوم حولها الأجساد وتحني ظهرها لنقل البضائع وتجوب الغربة بدمعة متحجرة عنيدة، وأدركت أنني استحلت في المدينة إلى حمار أنحني وأسير مئات الخطوات أشد على ظهري صندوقاً ثقيلاً وأئن تحته بصمت كصمت الموانئ حين تستقبل غريباً وتفتح له مكاناً عميقاً من الوحشة.

في تلك الصباحات ينتشر عرف الموانئ البعيدة المالحة وتخرج تلك الوجوه المختبئة في أحزانها وتجوب الأمكنة بحثاً عن شيء ينسيها ذلك الحنين

المتدفق.. هناك لا زرع ولا أشجار ولا وجوه ترغب في أن تحتضنك أو تشتاق لأن تمرغ رأسك في أحضانها.

غصصت بشهقة مكتومة حين كان أبي يوصيني ويضع عينه الوحيدة بين عيني:

ـ اعمل كي لا تموت جوعاً وإياك أن تطأطئ فالوجوه لا ترى الرقاب المكسورة.

كنت ألمح شموخه فأحوطه بحبي وأتساءل:

ـ من زحزح هذا الجبل من مكانه.. وكيف سمح لنفسه أن ينتقل بجذوره الضاربة والمتشعبة في تلك القرية للغربة والموانئ المجهولة الكئيبة.

في أحيان كثيرة يعييني الجواب فأصمت عن إطلاق تساؤلاتي على مضض.

كان يتنقل بي وكأنني عينه المخلوعة، فعقب خروجنا من القرية كان كثير الالتفات للخلف، في البدء كنت أظنه الحنين للتربة والسنابل والوادي وحينما امتنع عن السير نهاراً جزمت أنه الخوف وأن هذا الطود تهاوى ولم يعد يقوى على الشموخ.

كنا نسير في قطعة مظلمة واسعة وعينه الوحيدة تتطلع إلى النجوم وأقدامنا تتعقب نجم سهيل وإذا اشتعل النهار في وجوهنا يمم بنا صوب فيء الأشجار وضمني إلى حجره، ويده مستقرة على جنبيته فيما تكون عينه السليمة ترف مع حفيف الأشجار.. كنت أظنه لا زال يحترق بخوفه فأسنده بضحكة دائمة، علقتها على وجهي حتى إذ مضغت أقدامنا ليال عديدة بدأ يسترجع شموخه وصرامته وبأسه، ففي أول نهار سرنا فيه جذبني إليه وحدثني بلطف.. قال:

ـ حينما أقول لك لا تطأطئ فالوجوه لا ترى الرقاب المكسورة كنت أعي ذلك تماماً وأنت تعرف أن المطأطئ لا يركض بعيداً ولا يرى إلاّ فجوات الأرض وفي المقابل لا يرى السماء والنجوم والشمس.. فهل يرضيك فتات النمل بينما الطيور تحلّق عالياً؟!

وسرح بعينه الوحيدة في الخلاء الذي يضمنا وأردف:

ـ. . . ومغادرتي لوجه السوادي ليس لخوف اعتراني، فهناك فرق بين الخوف على نفسك والخوف على أحبائك، فعندما تكون أنت الهدف ولا تركض ولا تنحني يكون شموخك له معنى، أما عندما يكون الهدف سواك فالشجاعة كل الشجاعة أن تجنبه بطش ثور مجروح وذلك بتخليك عن المكان بحيث تمكِّن نفسك أن تعود حينما تصبح هدفاً بمعزل عمن تحب.

كان كثيراً ما يقذف كلماته فلا أقتنص منها إلاَّ القليل وعندما فطن إلى أنني لم أفقه ما يرمي إليه. . أعاد المحاولة مستكملاً حديثه:

ـ عقب محاولتي اغتيال السوادي وانتشار الخبر على لسان مسعودة ـ أم خميسية ـ بعد أن أضافت إليه زوائد من فجورها جاءني (عبده راجح) ساعياً في الليل وأسر إليَّ بأن السوادي قرر أن يخلع عيني الثانية وعندما لم آبه لهذا. . جذبني ـ عبده ـ إليه بقوة:

ـ عينك هذه المرة شبرين. .

أحسست عندها بضرورة أن أبعدك عن أنيابه قبل أن تصبح جرحاً عميقاً لا يندمل في صدري. . واعلم أنني سأقذفك في الغربة وسأعود إليه. . ساعتها لن أرحمه أبداً. .

وعندما ارتبت فيمن أسر إليه بهذا النبأ، ضحك في وجهي ودون أن يتركني أمعن في هذا الظن قاطعني وهو يضع رأسي في حجره فتنبعث رائحته التي لم تغادرني منذ ذاك العهد:

ـ لا ترجم الناس بالغيب فعسى أن تجد منهم حائطاً تستند إليه أو يحجبك من قذف الآخرين. . اعلم أن هذا الرجل يقتل أو يجلد بدلاً عني الآن. . إنه صنوي منذ زمن بعيد ـ فقد كنا نعمل سوياً في خدمة السوادي وعندما أغطش علينا السوادي بظلمه ورأينا ظلاله القاتمة ترين على وجوه أهل القرية، وبطشه يسيل في الحقول وعلى الأجساد هتكنا حجبه وتركناه غير آسفين والتحقنا بخدمة الشريف الكبير وعملنا في حقوله فأضمر لنا السوادي شراً وكنا نعلم أننا سندخل القلعة في يوم ما. وعزمنا أن تظل حياتنا أغصاناً

عقيمة لا ولد ولا زوجة فيها ومضت أيام طوال دون أن يمسسنا منه أذى وحين اطمأنت نفوسنا نكثنا ما عزمنا عليه، وكثعبان حقود ظل رابضاً يتربص بنا حتى هدأنا فتحرك نحونا ليغرس أنيابه.. فبعد سنوات طويلة بدأ يزحف نحونا وقد ضمن إن لم يصبنا فقد يدمي قلوبنا بكم، فبدأ بتعطيل دوابنا حيث وجدنا مائة رأس من الغنم والبقر ضروعها مبتورة كما أنه عبث بأحشاء الذكور وتركها مدلاة وتحولت مطارحنا إلى مقبرة كبيرة لتلك الدواب.

كانت القرية تقف فوق رأسينا ونحن نقبرها وهم يتقولون:

ـ عل ذئاباً هاجمت حظيرتكما...

صرخ فيهم عبده بغضب:

ـ أنت تعلمون أن في هذه القرية ذئباً واحداً فقط هو السوادي.

عندها تناثروا من حولنا وتركونا نكتوي بغضبنا.. فالكل يعلم أن السوادي هو الوحيد الذي يقدم على مثل هذه الفعلة فقد فعلها مراراً مع خصومه العديدين إلاَّ أن الأفواه ركنت إلى الحكايات التي تبعدها بعيداً عن سوط السوادي.. بعدها بعدة أيام قررنا أن نقتص لأنفسنا بالطريقة نفسها وقبل إقدامنا على ما عزمنا عليه كنا نفكِّر بأننا سنكون نزلاء القلعة الجدد ومن الخير لنا معرفة موضع أقدامنا قبل أن تمتد خطواتنا.. وكان لا بدَّ لنا من معرفة خبايا تلك القلعة الأسطورية المخيفة لنتمكن من الهرب إن نحن أُسرنا، ومع هبوط الليل على قريتنا وتأكدنا من أنفاس القرية تتردد ببطء، حملنا حبالنا وتوجهنا صوب القلعة.

كانت حبالنا تنتهي بخطاطيف ثبتناها في أعلى جدران القلعة وصعدنا حاملين حجارة غليظة ندك بها ذلك الزجاج المنتصب لأي جسد يحاول عبور أسوار القلعة، ومهدنا طريقاً ننزل من خلاله لداخل القعلة. كان الموت يجوس بها ولا شيء يتحرك سوى ضوء كشافنا المتخاذل، وحذرنا المتحفز.. لمح عبده راجع غرفة ـ في ركن مرتفع منزو ـ مضاءة، فتحركنا إليها بعد أن أطفأنا ضوء كشافنا.

كانت غرفة تختلف عن باقي الغرف المتهدمة ولم يكن في ذلك الممر الطويل أحد من الحراس وخوفاً من أن يلمحنا أحد انزوينا ودرنا حولها من

الخلف، ومددنا عنقينا من خلال نافذة محطمة.. كانت تقف بوسط الغرفة سيدة ذات حسن أخّاذ شامخة برأسها دون أن تمنح المتبرك تحت قدميها أدنى اهتمام.. لم نصدق أن السوادي بعظمته وجبروته راكعاً على ركبتيه، ويبكي كعبد مذنب يطلب العفو والرضا من سيده، وبقيت تلك الهيفاء تمعن في إذلاله.. كانت كلما سمعت نشيجه.. صرخت فيه:

ـ أين حاتم؟

فيلين ويتهدم بالبكاء:

ـ لا أريد أن أتذكر أنك كنت لرجل آخر.

ـ ولكنه طفل ولا ذنب له.

ـ سوف أرعاه كابني.. فقط ارضي عني.

ـ وهل يرضيك أن تتزوج متزوجة.

ـ لقد أخبرتك مراراً.. لم يعد له وجود.

ـ أحضر جثته هنا لتدفنني معه قبل أن تطول يدك شعرة مني..

ـ أنا لا أقوى على هجرانك فكيف بموتك.

فبصقت عليه، لينهض ثائراً:

ـ سوف أصلبك هنا حتى الموت.

ـ افعل ما تشاء..

انتزع جنبيته وخط بها على يدها فنز الدم، فغمضت عينيها، فأجهش ببكاء عنيف وتهاوى بجوار قدميها وهي لا تزال مغمضة العينين منتصبة القامة.

لا أدري كيف انزلقت قدم عبده محدثة ربكة مدوية في ذلك السكون وتنبه السوادي، ليقفز نحونا مسرعاً.. تلاقت عيني بعينه للحظات، وانزويت في الظلمة، وانطلقنا راكضين، وصوت الطلق الناري يتبع آثارنا حتى بلغنا حبالنا، وأمسكنا بها وقذفنا بجسدينا كيفما اتفق.

ليلتها لم أشعر بالزجاج الذي تخطف أضلعي، وتركني أسفح دمائي في الطرقات المظلمة.

بعدها عدلنا عن تنفيذ مشروعنا لوقت آخر. . وكنت حريصاً على أن أبتّ كرش السوادي مهما كلفني ذلك من عنت ومشقة. . وكنت كلما حرضت عبده طالبني بالتريث، ورفض أن يشاركني في ذلك قبل معرفة سر تلك السيدة. عزمت على أن أقوم بالمهمة منفرداً وقبل أن أصل إلى قلبه كانت يده تعبث في عيني. . وبهذا جعلني أكثر تشوقاً لأن أغرس خنجري في صدره، وأن أبصق عليه قبل أن يغادر هذه الحياة.

وفي تلك الليلة التي خرجت فيها لتنفيذ هذه المهمة تمكّن أحد العبيد من رؤيتي ووقف حائلاً بيني وبين مهجع السوادي الذي اتضح فيما بعد أنه لم يكن في الحصن، ففي الليلة نفسها استطاع عبده راجح أن يتسلل إلى القلعة وسمع السوادي يحدث تلك السيدة عن رغبته في قتلك فجاء وأخبرني، فرحلت بك. .

قال جملته الأخيرة وتأوه وأردف بحرقة:

ـ سأبعدك عن عينه وسأعود له حتماً.

وما إن أتمَّ حديثه حتى نزت عينه الوحيدة بالدمع وطفق يواريها عني ويبعدني عنه إذ كان يطالبني بجني حبات «الكين» من العروج المنتشرة في ذلك الخلاء الواسع كي نسكت جوعنا الملتهب والذي لازمنا منذ يومين مضيا.

مضى على ترحالنا زمن طويل حتى أيقنت أن هذا الجبل بدأ يتساقط ويتهاوى، فجروحه باحت بصديدها وفمه أطلق عصافير التوجع وعينه الوحيدة فاضت بمرارتها، فثقل جسده، وغدوت عاجزاً عن حمله أو تطبيبه، حيث كنت أركض في اتجاهات مختلفة علَّ أحداً يسعفني، وكلما عدت خالي الوفاض، وجدته ذابلاً يدفع أنفاسه الثقيلة بلعنات مستفيضة، حتى إذا أطلّت قافلة صحبني حكيمها بعد أن ذرفت لهم دموعي وتوسلاتي.

وقف عليه الحكيم. . وصفق يداً بأخرى وأخبرني أن جسمه سرى فيه العطب وأن السم آكله لا محالاة وأخرج بقايا من زجاج كان يستقر تحت خاصرته وفي أعلى جنبه الأيسر، وأوصاني أن أخضع لقضاء اللّه وقدره.

ورحلت القافلة تاركة معي هذا الطود الملقى في الخلاء يئن بهدير مفجع. . يخرج قليلاً من وجعه ويتنزه في وجهي فأفاتحه بضعفي وعجزي فيغمض عينه ويعض شفتيه. . أشار لي أن أقترب منه وعندما دنوت تمايل بصعوبة وأخرج من «كمره» أليافاً يابسة، وبصوت حاول أن يقبر أنينه فيه تمتم:

ـ هذه جذور عيني المخلوعة احفظها معك إن أنا مت. . .

فبكيت ودفنت وجهي بين راحتي. . كان ممدداً فلكزني برجله واستوى بشق الأنفس. . حاول أن يصرخ فلم يتمكن، فجاء صوته واهناً:

ـ ألم أقل لك إن الوجوه لا ترى الرقاب المكسورة. . إنهض فأنت غصن من شجرة فارعة.

مضى أسبوع وأنينه وهذيانه وحماه الطاغية تقلبه على رمضاء هذه الوهاد. . أرقدته تحت ظل شجرة سدر وأعمدت إلى أوراقها أسحقها على حجارة صلدة ـ جمعتها من أماكن متفرقة ـ وأركض في هذا الخبت بحثاً عن الماء، وعندما أجده ـ بعد عناء ـ أعود، وأغسله فينتشي قليلاً، ويعود إلى هش الألم والدود عن جسده.

قبل أن يلفظ أنفاسه الأخيرة كان يجاهد نفسه وقد حاول مراراً أن يستند بجذع شجرة السدر التي يرقد تحتها وعندما عجز استسلم لرقدته وامتدت إبهامه لجوف عينه السليمة واجتثها ـ كان منظره مرعباً ـ وعندما استقرت بين يديه تهادت منه آهة عميقة وأخذ يتلمس يدي.

كان كثور ذبح من أمد بعيد وتبقى معلقاً ورائحة نتنة تفور من جسده، كاد يغمى عليَّ وأنا أرى وجهه مظلماً إلاَّ من تجويفين أحدهما خامد والآخر يشخب بالدماء. أعاد صرخاته فاقتربت منه. . كانت يداه تتعثران في البحث عن يدي فمنحته إياها، فوضع عينه فيها وهدأ قليلاً. . وانفجر:

ـ عندما تعود ازرعها بجوار أختها كي لا ينام السوادي!!

بعدها انطفأ تماماً، واتسع الخلاء، ولم يكن يجاور جثته إلاَّ دموعي وعينه المحدقة بذلك الجسد الذي غادرته للتو. . كان منظرها وحده يكفي لأن أجن، وقبل أن أفقد صوابي سارعت بوضعها في قربة الماء وأهلت عليها

التراب.. وحفرت له حفرة لم تواري إلاّ نصفه وتركته لتتقاسمه الأرض والطير، وسرت في ركاب قافلة صادفتها بعد مسيرة يوم كامل في هذا الخلاء لتعبر بي الفيافي بعد أن دفعت إليها خاتماً فضياً كان يحيط ببنصر أبي دائماً.. وقطعت بنا بلاداً وبلاد وحطت رحالها لأجد نفسي مرتبطاً بأحد المسافرين والذي أشار إليَّ بأن ألتحق بإحدى السفن التي تجوب البحار وبدون تفكير قذفت بنفسي أجيراً في إحدى السفن التي تجوب الموانئ النائية.

أخرجت عين أبي من قربة الماء فوجدتها قد ابيضت تماماً وتبقى نونها حائلاً فدسستها في قارورة وصببت عليها خلاً وملحاً وأصبحت أنيسي في غربتي وفي أحيان كثيرة تستحيل إلى شبح يلاحقني في كل وقت وتحيل حياتي إلى كابوس أبدي.. لن أطيل في سرد ما كان يحدث لي حين أبقى معها وحيداً فذلك أمر مرعب لن تستطيع كلماتي تجسيده ولن تستطيعوا بسماعكم لي أن تتصوروا كيف كانت حالتي.

سكت لبرهة فحثثناه جميعاً:

ـ أكمل يا شبرين.

فتنهد عميقاً وأكمل سرد حكايته:

ـ.. غدوت شراعاً لا يفارق القوارب المسافرة وظللت أعمل بها ونفسي تنازعني يوماً بعد يوم في العودة وكلما فكرت جاداً في ذلك أتراجع بعد أن أوسوس لنفسي:

ـ لا زال جسدك طرياً وخبرتك ضئيلة.

فأخمد رغبتي وأواصل السعي في البحار.. انقضى زمن طويل وأنا أدخر فرحي على أمل الرجوع، كنت يومياً أمضغ الصبر حتى استحالت المدن التي أطأها إلى مرارة خانقة تحرمني متعة الاكتشاف، ولم يكن يصاحبني في هذه الغربة إلاّ حنين جارف لقريتنا وعين أبي في قارورتها ـ على طاولة تجاور سريري ـ تحذرني من الخور أو التساقط فأنتصب، وأمضي في حزني بعيداً وأجمع أحقادي على السوادي كي لا يهرب مني في هذه الغربة، وعندما أوشك الصبر أن يفرق في داخلي استحالت عين أبي جمرة متوهجة، فشددت

على وسطي ما اكتسبته من مال وحملت عين أبي وعدت.

كان الوصول إلى قريتنا شبه مستحيل، حيث تقذفك العربة بين الأحراج وتمضي لاهثة خوفاً من أن تقع في أحد المستنقعات فلا تفيق بعدها.. منحت السائق مبلغاً خيالياً كي يعبر بي هذه الأحراج فأبى، ساومته أن يدخلها من جهة الخلاء فأبى.. كل الذي فعله أن قذف بحقيبتي، وتركني أنتظر القرويين العائدين إلى داخل هذه الأحراج.

وفوجئت أن كثيراً من الذين صادفتهم لا يعرفون قريتنا ليدلوني على طريقها ـ أو يتظاهرون بذلك خوفاً من سيدها ـ وبعد أن تعبت أخبرتهم أنها مدينة الرجل المبارك وأنني راغب في زيارته والتبرك به.. حينها فقط أركبوني مع أحد المرضى المتجهين به إلى قبة راعي القضبة.

وما إن شاهدت القبة حتى خفق فؤادي، واعترتني موجة من الرغبة في البكاء، وقبل أن أستسلم لهذا باغتتني تلك الوجوه المعرضة. كنت أحاول جاهداً أن أتعرف على أحدها فلا أقوى على ذلك، فتوجهت إلى بئر القرية فوجدت صبية يردون الماء، فسألتهم عن دارنا فأنكروها حينها فقط تحرك الحاسي فجذبت الحاسي وسألته، فامتنع عن الحديث وعندما أخبرته أنني ابن زيلعي، انفرجت أسارير وجهه، وانطلق يصيح بمن حوله:

ـ لقد عاد شبرين ابن زيلعي.

وأنزل صبيين من على حماريهما وانطلق بي إلى دارنا وهو يصيح:

ـ لقد عاد شبرين..

كنت خائفاً عليه من هذه الفرحة، فطلبت منه أن يصمت لكنه واصل صياحه، ولكي أسكته قلت له:

ـ أَنَسِيَ السوادي غضبه على أبي؟

فجأة، خمد صوته وتراجع عن مسايرتي.

حين دخلت لدارنا وجدت أمي قد غادرها ضوء عينيها.. فقد قِيل لي إنها كانت تبكينا اليوم بطوله حتى جف بصرها.

كانت القرية كما تركتها متحجرة لم يتغيّر فيها شيء.. فقط الوجوه

أصبحت أكثر تعباً وتهالكاً.. تلك الوجوه التي نفرت من رؤيتي، كان كل من يلمحني، يتربص بي للحظات ثم يقلب وجهه في اتجاه آخر ويمضي. وبعد أن زفني الحاسي إلى قرب دارنا رأيت عشتنا التي لم يعد باقياً منها إلاّ أساسها فدخلت إلى «القبل» لتنهض امرأة مسنة تتشمم الهواء، وصرخت، وأقبلت باتجاهي تمد يدها أمامها وكلما دنت مني أشرقت ابتسامتها، وتهدج صوتها.. كانت تحمل عواطفاً محمومة تحتاج فقط لأن تجد منفذاً وما إن صحت بها:

ـ أماه..

حتى انفجرت باكية ضاحكة، وارتمت تحت قدمي تقبلها فانكفأت أرفعها، وأقبّل قدميها وأستسمحها لي ولأبي.. علا صراخنا وعناقنا وعندها وقفت شابة ممشوقة تتأملني بعين خالطها ليل ناضج ونهار فصيح ووجنتين صحويتين.. كانت تقف مذهولة وتجمع شعرها الطويل تحت «مقلمتها» وفمها المعقود ينفرج:

ـ من هذا يا عمة؟

كانت أمي منشغلة بحضني وتقبيلي وعندما هدأت لهفتها.. رفعت صوتها:

ـ أأنت هنا؟!

ـ من هذا يا عمة؟

ـ هذا العمر الذي ننتظر.. إنه شبرين...

طارت من وجهها عصافير الدهشة، وقفزت على وجنتيها فرحة مرتوية، فاستلقت ابتسامتها باسترخاء وفتحت ذراعيها وأرختهما، ومدت يدها نحوي، فأحسست بها ترتعش في يدي وتتسع عيناها فتحتوياني من كل الجهات.. كانت ابتسامتها تضيء وجهي وأنا أتساءل:

ـ من هذه يا أماه؟

ـ تحقق بها..

كانت فرصة لأن أجوب وجهها المشمس وهي تبسط سواحلها بدلال

كلما أمعنت في تفرس وجهها، لم يكن يعنيني أن أتذكر من هي بقدر ما كنت أتلذذ بتضاريسها الفاتنة، وحينما أطلت نهض صوت أمي:

ـ ألم تعرفها؟!

انطفأت ابتسامتها، وغادرتنا إلى عشة أخرى ـ أسست حديثاً على ما يبدو ـ راكضة:

ـ من الفتاة يا أماه؟

ـ ابنة عمك زينة.. ألم تعرفها حقاً؟!

آه.. زينة تركتها طفلة يعبث الذباب بوجهها وينز أنفها سائلاً لزجاً تكفه بزندها وقد تختصر المسافة بلسانها فيتصايح بها من حولها ناهرينها فلا تأبه بهم.. وإن تطلعت نحوك أغمضت عيناً وأطلقت الأخرى.

ها هي اليوم يقف الهدب على محياها فيحيل القلب ناراً متأججة..

ـ إننا حقول لهذا الزمن الذي يزرع فينا ويحصد!!

أمن درويش على تلك المقولة بصوت مرتفع، وأراد أن يواصل الحديث، فأسكتناه وواصل شبرين حديثه وهو يبتسم لدرويش:

ـ جذبتني والدتي وقبَّلتني فجالستها وتجاذبنا البكاء والضحك والعتاب.

ظهرت زينة تحمل «مصرفة» وضعتها أمامي كانت تحتوي طعاماً افتقدته في غربتي تلك فأقبلت عليه بنهم وجلست زينة بجوار والدتي، فغرست عيني في وجهها وندت مني ضحكة، فسارعت بالقول:

ـ ما الذي يضحكك؟!

ـ تذكرت لسانك حينما كان يسرق ما يجود به أنفك.

شعرت بالندم فجأة، فقد تعكرت ملامح وجهها، وحاولت النهوض، فأمسكت بها أمي ضاحكة:

ـ شبرين يمازحك..

واعتذرت منها فهدأت، فشاغلتها عيناي.. كانت تنكس رأسها، وتحجب ابتسامة تنضح على صفحة وجهها.. أحسست أنني لن أقوى على مغادرة عينيها.. فكنت أحدِّث أمي عن غربتي وعيناي تقفان عليها.

وتحركت لأسلم على عمي الراقد على قعادته والذي كان بصره معلقاً في الفراغ لا يفقه الأحاديث التي أطلقناها على مسامعه، وقبل أن أمد أسئلتي بعيداً انهمرت أفواج النساء المهنئات.. وخرجت لاستقبال الرجال في عريش نصب في دارتنا.. لازمني الضيق كنت أتوق لرؤيتها.. فاختلقت الأعذار الواهية فكنت أصيح بين لحظة وأخرى.. أريد ماء.. أين الدارة؟!.. أين الشاهي؟!.. كيف عمي الآن. كل هذا وأمي تجاوبني من بين النساء وهي فرحة، ورأيت بعض النساء يمددن أعناقهن نحوي، ويتفحصنني بعمق، وأقبلت العجائز منهن نحوي يتخطفنني بالأحضان والتساؤلات.. وكان سؤال واحد يتكرر:

ـ هل عرفتني؟!

وعندما أهز رأسي نافياً تعقب كل واحدة منهن:

ـ صحيح.. لقد غادرتنا صغيراً.

انتصف النهار وأنا منشغل باستقبال وتوديع المهنئين، وزينة لم تظهر، باغتني شعور مفاجئ ومزعج مصحوب بتأفف فياض، وخالطتني أمنية لو أني لم أعد ولو أني بقيت شراعاً لتلك القوارب المبحرة بلا كلل أو ملل، وانداحت الأيام الأولى لا شغل لي إلا الاستلقاء على قعادتي والترحيب بالضيوف.. في هذه الزيارات حضر عدد كبير من أقراني الذين شاركتهم لعبهم فلم أفلح في التعرف على أحد منهم. كانوا يجالسونني، ويحاصرونني بأسئلتهم الساذجة السطحية التي تملأ صدري ضيقاً وتبرماً بهم حتى إذا اعتدت عليهم انطلقت أحدثهم عن المدن البعيدة وعن أناس يعيشون خارج أنفاس السوادي.. أولئك الذين يضحكون ويتحدثون.. ويصرخون ويتحاكمون متى ما أرادوا.

كانوا يتركون آذانهم تسترق السمع وأفواههم فاغرة بدهشة وبلاهة. كنت أشعر بهم كالآبار الخاوية تلقى فيها الحجارة فلا تسمع صدى لماء أو حياة.. أمضيت أسبوعاً كاملاً أنثر الحكايات على تلك الوجوه المسرجة غباءها على الدوام، فمللتها وأصبحت أجالسهم صامتاً وأنا أكاد أحترق لرؤية

زينة. . فقد سنحت عدة فرص لأن تلتقي عيوننا فحينما تملأ جرار الماء أو تودع امرأة. . أو تطرح القصب للدواب، كنت ألمح ابتسامة خبيثة تولد على شفتيها وتنعطف وهي ترمقني بحذر وخشية. وسرعان ما أعود لضيوفي بادي الضيق والتجهم ويمضون في الحديث السمج حتى إذا دخل الليل انفضوا وعادت أمي تجاورني، فدخلت علينا زينة تحمل العشاء ويبدو أنها لمحت الضيق والضجر يتقافزان من عيني فهمست:

ـ يبدو أن شبرين لا يريدنا. . فتأففه لا ينتهي. .

فصرخت فيها بعنف:

ـ أين أنت؟! كلما أنادي عليك لا تجيبين. .

صمتت وأرخت عينيها وشيء كالفرح يداعب وجنتيها حين كانت أمي تلمسني بحنان:

ـ لا تغضب من زينة. . فهي لا تستطيع أن تجيبك أمام النساء خوفاً من أن يخبروا خطيبها «ولي»!!

باغتني شعور بأنني قد أصبحت غريباً وأن عين أبي لا زالت توسوس لي بحلمها القديم. ساد بيننا صمت المقابر. . كانت عيناها منكستين وعلى فمها ارتعاشة خفيفة وأمي تشاغلت بفك مقلمتها وإعادة ربطها، نهضت متذمراً:

ـ سأخرج فأنا مشتاق لقليل من الهواء. .

وانطلقت وبقي صوت أمي يلاحقني:

ـ الدنيا مظلمة إلى أين أنت ذاهب؟!

لم أجرؤ على سؤالهما خوفاً من أن يفر فؤادي من خلال صوتي. . كنت جاداً في السير، ودموعي تفور بداخلي والظلمة تبتلعني جسداً وروحاً لم أتبيَّن أكان شبحاً يرافقني أم خواطري المسرحة التي أمعنت في خلق صور شتى. لم أكترث بشيء سوى أن أسير وأدك هذا الخفقان. . الآن تكشفت لي بعض التصرفات. في اليوم الثاني من قدومي جاءني (ولي) ورحب بي بحرارة وترك هدايا من «فركس» وعنب، وشفلح، ومناصف، حتى إن الكثير من زائرينا كان يسيل لعابهم لرؤية هذه الفواكه مجتمعة. . وبعد أن رحب بي أصر أن

أكون ضيفه في اليوم الثالث وقد ظننت أنه فعل ذلك رغبة في أموالي فقد أشيع في القرية أنني عدت أحمل جرار الذهب والفضة وأن قافلتي التي تئن بالغالي والنفيس سوف تتبعني في الأيام المقبلة.. حاولت أن أعتذر وأتملص من وليمته ولكنه أقسم الأيمان الغليظة ورمى الطلاق على زوجاته إن لم أجب دعوته فأذعنت لرغبته، وأنا أسرُّ في نفسي ضحكة كبيرة، وأتصوره يلعن كل من أشاع تلك الكذبة عن القافلة القادمة عندما يكتشف أنها عارية من الحقيقة.

وفي يوم الضيافة نصبت (مخدرة) كبيرة تضاهي مخادر الأعراس وذبحت الخرفان ووضعت بأكملها في التنانير وجهزت (المغاش)(*) وحينما حان موعد الغداء مدت سفرة كبيرة توزع بها كل ما لذ وطاب، وبعد أن امتلأت البطون تزاحمت الأجساد في المتاكئ، وأحضرت حزم القات، وتناثرت في كل مكان، وارتفعت الضحكات والحكايات مع كركرات الشيش العدنية، كل هذا وثمة عيون تسترق النظر إلى وجهي من مكان خفي، ومع نهاية التخزين دارت قهوة القشر وتبعها الشاي ليتسلل الضيوف مغادرين المخدرة وأطفئت الأتاريك إلاً إتريكاً بقي يضيء مع ترحيب (ولي).

شكرته وهممت بالانصراف، ولكنه أمسك بي ورفض أن أغادر، وأبقاني معه بعد أن عرف أنني أهوى لعب الشطرنج.. وأخرج صندوقاً من مكان خفي وانهمكنا في اللعب بصوت منخفض خوفاً أن تطير أصواتنا للبيوت المجاورة.. فأهل القرية لا يلعبون تلك اللعبة بعد أن أفتى الشيخ موسى بأن من لعبها فقد ارتكب حراماً، وولي لا يجرؤ على لعبها إلاً مع خاصة جلسائه.

في أول دور كسبته، مد لي بقدح تفوح منه رائحة خمرية بعد أن رشف منه بلذة ومسح شاربيه ضاحكاً:

ـ كان أبي يتعاطاه في بلادنا وعندما حضرت إلى هنا استطعت أن أحضره بإتقان تام..

(*) المغاش: جمع مغش وهو عبارة عن إناء فخاري يوضع به اللحم مع بعض الخضروات.

أدنيته من فمي فأحسست برغبة في التقيؤ فأعدته إليه رافضاً.

فازدادت ضحكته اتساعاً:

ـ يبدو أن الغربة لم تعلمك الكثير!!

نعم الغربة لم تعلمني الكثير.. ولم يخطر ببالي أنني أصبحت جذعاً مبتوراً يتكئ على أرض عمياء ما هي إلاّ أيام ويتكفل الموت بمواراتها لأغدو جذعاً لا يليق به إلاّ أن يصبح مربطاً للدواب.

أعيتني ذاكرتي وأعياني التعب، وأنا لا زلت أسير في هذه الظلمة الكثيفة قفزت فكرة جنونية حتى أوشكت أن أخطف جسدي وأزور تلك القلعة التي طالما أرعبني حديث أبي عنها، كنت أمني نفسي بأن أجد تلك المرأة السجينة بداخلها وألقي برأسي في حضنها. كان بي شوق للبكاء بين يدي امرأة. لمعت عين أبي باحمرار فاقع وجلجلت في داخلي:

ـ الوجوه لا ترى الرقاب المكسورة..

فشددت على حزني بابتسامة سرعان ما أحسست بها تجلجل في داخلي ساخرة من ليونتي التي ظننت أنني مع الغربة غدوت حجراً أصماً.. واعترتني الكآبة حينما أسررت إلى نفسي:

ـ أنت غريب وطارئ على حياة الجميع ومن الغباء أن تظن أنك أساس الحياة... إن ما تفعله ما هو إلاّ تصرف أرعن.. لم يمضِ عليك سوى أسابيع وتطالب بقلب زينة، وكأن حياتك ليس فيها ما يهمَ إلاّ هذا الحب الوليد... ووخزني خاطر عنيف: أونسيت أباك بهذه السرعة؟!... ندت مني زفرة حادة وتململت.. ماذا أصنع وإلى أين أتجه؟! هل أعود إلى الدار؟! لا.. فهناك رائحة زينة وعيناها وابتسامتها الآفلة.. وأمي التي ما فتئت تسألني عن وجهي.. أما يزال كما تركتني؟!.. أما تزال وحمة الفل ظاهرة في عنقك؟! صف لي وجهك بالشارب والذقن.. ألا زلت ترفع حاجبك عند الغضب.. هيا حدثني.. وعندما لا أجيبها ترفع نشجيها وعتبها:

ـ لقد قستك الغربة.

تابعت سيري صوب الحقول وعلى جرف الوادي قضيت ليلتي. كان

القمر يسيل بضوئه فتبدو رؤس السنابل عرائس يتهيأن للزفة، ويسير الماء في الوادي متقطعاً متكاسلاً غير قادر على حمل أو دفع تلك الحصوات التي أقذفه بها، ونشطت فئران الحقول، وأخذت تقرض ما تصادفه بنهم، وسقائف الحماة تطقطق برتابة، وكلما سكن الريح استكانت أشجار الأثل والثمام والمرخ لغفوة قصيرة بانحناءة عكس اتجاه القلعة..

القرية تبدو من هنا أشبه (بكدافة) ران عليها الموت فاحتضرت فوانيسها وانتصبت قرعينات العشش كعوارض القبور القديمة.

كان ثمة شيء يتحرك في هذا الليل لا أدري كنهه. أردت أن أغفو قليلاً فوقعت عيني على عقرب يسير باتجاهي بنشاط فقمت من حيني أسير على امتداد الوادي.

وما إن أمسكت عيناي بأول خيوط الشمس حتى وجدت قدمَيّ تسيران بمحاذاة قبة أبي قضبة، فانتابتني وحشة طاغية وكدر مقلق.. تراءى لي أبي وهو يخلع عينه ويضعها في يدي:

ـ أخبره أن الدم لا ينام..

عدت أجر قدمي وفي داخلي رجل مكسور.. آه.. أبهذه السهولة والسرعة المتناهيتين أهزم؟!.. ها أنا أجوب الحقول، وأحدث الناس عن بلاد الغربة، وأعود إلى دارنا فأجد (زينة) تجاور أمي، وأحاول جاهداً أن أتجاهلها، وعندما تراني تنهض تهيئ لي الطعام وهي منكسة الرأس، محتدمة الملامح.. تضع الأكل أمامي دون أن تنبس بحرف واحد، فأتشوق لأن أهمس لسنابلها المهتزة دائماً:

ـ كم أنت جميلة!

وكلما هممت بذلك خطر في بالي ذلك الثور الهرم فأعض على لساني كي لا يبيح عشقي.

عدت ذات مساء من جولتي الليلية، وقبل أن تقدم لي الطعام اقتربت مني ولا زال رأسها منكساً وهي تذرف الكلمات للأرض:

ـ أخفتنا عليك.. أو أن العمر كله سندلقه خوفاً عليك..

ارتجفت أوصالي وتلعثمت والنفس تسر لنفسها «حذار.. إنه خوف ابنة العم على الرجل الوحيد المتبقي في الأسرة» فغمغمت بحنق ولمز:

ـ تخافين من ماذا وأنا مع خطيبك؟

قذفت بكوب كان بيدها وانطلقت راكضة صوب دارها.. لتهتف بي والدتي وتجلسني بجوارها وهي تتلمس وجهي:

ـ زينة تريدك أنت يا شبرين فلا تقس عليها..

بهت من هذه المفاجأة ورقص الفؤاد بنشوة حين أكملت والدتي حديثها:

ـ كانت معي طوال بعدكما لا تفارقني لحظة، وكانت تسمعني عقب كل صلاة أنذر إن أنت عدت لأزوجنك (زينة).. وكنت كلما حنيت لك ورأيتها ناديتها.. يا زوجة الغالي.. في البدء كنت ألمح حمرة الخجل تصطلي في خدودها، وعندما أصابني العمى كنت أحس بصوتها يرتعش لترديد اسمك، وحين أناديك في غربتك تجلس بجواري وتواسيني: سيعود وتفرحين بنا.

وننشغل كثيراً بإعادة ذكريات طفولتكما معاً بدون ملل.. وكأننا نجدد تلك الحكايات وتناسينا بأننا نرددها يومياً.. هون يا شبرين على زينة.. اللّه يكون في عونها.

أنست بحديث والدتي واستأذنتها في الخروج فهتفت بي:

ـ للقبة والعين.

فرددت معها: للقبة والعين.

مع خروجي لمحت رأس زينة الصغير ذا الوجه الناضج كحقول الأودية.. كان مدلى وقد تناثر شعرها بفوضى، وعيناها الليليتان تتقافزان نحوي، وعندم انعطفت باتجاهها اختبأت خلف عشتهم المهدمة، فمضيت وموج الفرح يتهادى على شطآن القلب.

لم تكن ثمة ألفة تربطني بأحد، لذلك كنت أنطلق دائماً صوب قبة أبي قضبة.. وأجلس مسمراً أمام قبر عين أبي التي دفنتها بنفسي، أما تلك التي دفنها أبي فلم أعد أميِّز قبرها بالتحديد.. أجلس صامتاً مفكراً بجدية في إخراجها من قبرها كي لا ينام السوادي.. وكل يوم أهم بنبش قبرها

وأتراجع.. اليوم قررت إخراجها، وقبل أن تمتد يدي لنبشها جاءني رجل رث الثياب شديد السمرة حلو الضحكة وقال لي بصوت آمر:

ـ عينه هي عينك..

ومضى، ساعتها أحجمت عن نبش قبرها، وعلمت لماذا حمّلني أبي عينه طوال هذه المدة.. أجزم أنه دفعني من خلالها للعودة ليظل السوادي يترقب عيني حينما تطل على جثته!!

كنت وحيداً وغير قادر على الرؤية أبعد من قبر عين أبي.. فجأة وجدت الرجل ذا الهيئة الرثة يجلس بجواري ويضع يده على كتفي.. التفت نحوه كان يضحك.. وقد تناهى إليَّ أنه مجنون ففزعت وهممت بالابتعاد عنه وصوته يلاحقني:

ـ إياك أن تنام عينك..

كان هذا بداية تعرفي بدرويش وقد كانت كلماته دائماً تحرجني من ترددي، فكلما تراخيت رنت كلمات درويش بأعماقي:

ـ إياك أن تنام عينك.

وبعدها لم أصل إلى قبة أبي قضبة.

وامتهنت مراقبة السوادي وأخذت أتربص به في كل مكان يخطو إليه.

الغروب يزحف ببطء نحو القرية دافعاً أمامه الفلاحين العائدين من الحقول.. سرت بمحاذاتهم فكانت أعناقهم وألسنتهم تمتد باتجاهي ليداخلني شعور بالغبطة، فثيابي البيضاء وجنبيتي المطهمة بالأحجار الكريمة وحزامي ذو الجلد الأسود اللامع الممسك بمسدس روسي متعدد الطلقات وحذائي الفريد المصنوع من جلد الماعز.. كل هذا منحني مهابة الشيوخ، وأثار في داخلي غبطة وافرة.. عند مفترق الطرق سمعت أحدهم يحدث رفيقه وهو ينظر إليَّ بحسد لا يخفيه:

ـ يحق له، لقد «خث» أموال الشام.. أفلا تريده أن يتعجرف..

فلم أكترث لهذا الاتهام، واكتفيت بأن أرسلت لوجهيهما ابتسامة قصيرة ومضيت متوجهاً للبيت، لأجدها كرديمة فل فواحة.. غنية بالسحر والفتنة

وقد استقرت بجوار والدتي تغزل كوفية بخيوط متعددة الألوان، انحنيت وقبّلت رأس أمي واقتربت منها، فأمعنت في تنكيس رأسها، حاولت أن أفتح فرجة فيما بيننا:

ـ لمن هذه الكوفية يا زينة؟

ظلت على صمتها. . استفزني هذا الصمت، فأردفت:

ـ أهي لولي؟!

جمحت بوجهها وأعادته محتداً كمن يهم في الدخول في شجار مميت، وأخذت تحدق في عيني بغضب يخالطه عتاب وانكسار. . لمحت على ضوء الفانوس ذلك الوجه الرقيق يغدو منتفخاً وتلك العينين الواسعتين بالليل يوشك أن يتقاطر ماؤها. . ارتجفت وهممت بممازحتها فلم تمهلني وخرجت مسرعة حتى أنها سقطت على بوابة العشة.

سمعت أمي تردد بأسى:

ـ اللّه يكون بعونك يا زينة.

تمدد الضيق في أضلعي ونمت آهات مباغته، فتسللت وحملت عصاي وخرجت أقرع هامة ذلك الليل العتيد. وقبل أن أبلغ منعطف دارنا سمعت نشيجاً متقطعاً ذائباً بالحرقة، انحرفت وسرت باتجاهه. . لمحتها على ضوء الكشاف الذي أحمله وهي تجاور التنور واضعة وجهها بين راحتيها وتنتفض ببكائها كعصفورة بللها المطر. غرست أصابعي في شعرها الكثيف ففزت كقطة مذعورة ولاذت بالتنور رافعة يدها ومتحفزة للخمش وعندما تبينت ملامحي تراخت يدها وزاد نشيجها:

ـ ماذا بك يا زينة. . هل أنت غاضبة مني؟!

هزت رأسها وقلّ نشجيها:

ـ ألا تريدين وليّاً؟

هزت رأسها وعاودت النحيب. . أحسست برغبة جارفة في أن أخبئها في صدري وأمطرها بقبلاتي، أو أن أجلس بجوار قدميها أناجيها. . كنت أشعر بأنني ضعيف. . ضعيف أمامها، وأن أمنياتي تقف ـ أجمعها ـ على

أهدابها. . لم يكن ثمة خوف يقعدني عما عزمت عليه سواها.

عندما كنت طفلاً كنت أخشى عليها من أولئك الصبية الذين كانوا يشاكسونها عندما ترد الماء وقد كانوا يسحبونها من جديلتها الطويلة حينما تتشاجر معهم من أجلي. . كانت تدخل معاركنا الصغيرة دفاعاً عني وعندما أقع بين أقدامهم تقذف بنفسها وتغطيني لتتلقى الركلات دوني. وعندما كنت أخرج منتصراً من مشاغباتنا الصغيرة يلجأ خصومنا إلى انتظارها حتى تسير بمفردها ويقتصون مني فيها.

كانت لا تغادرني في طفولتي. أركِّبها خلفي لتسير دابتنا «تتهكأ» بنا حتى نبلغ البئر ويدها لا تفارق خاصرتي، وإذا نهرتها تضحك بطلاقة وتشتدد مسكتها. . كانت تصغرني بسبع سنوات، منذ ذلك العهد كنت أسمع أبي وعمي يتحدثان عنا كعروسين ويطلقان أمنياتهما كلما نهض بنا الزمن. في تلك الأيام كنت أتضايق من مجيئها لبيتنا فأمي تحيطها بحبها وتمنحها ما تشاء وتلبي لها طلباتها بحبور شديد وتتركني مهملاً بعيداً عن اهتماماتها ـ كما كان يبدو لي ـ وكنت أغتنم خروج أمي للخبيز أو الطحين فأشد شعرها كما يفعل الصبية بها حينما تقف مدافعة عني لتأتي أمي على صراخها وتشبعني ضرباً، وتخرجني من عندها وتتلقفها لتحضنها وتهدهد عليها. شعرت بها يوم أودعنا أمها المقبرة التي تجاور الخلاء ـ من الجهة الشرقية لقريتنا ـ يومها كانت تسير بين المشيعين وهي تمسك بيدي وتسألني:

ـ إلى أين يذهبون بأمي؟!

وعندما لا تجد جواباً مني تظل تردد سؤالها بحسرة، وتتابع المشيعين بعينيها، وحينما أنزل النعش بداخل المقبرة، وتهيأ القبار لتعميق القبر فرت من يدي، واخترقت جموع المشيعين، وارتمت على جثمان أمها تنوشها.

ـ أمي. . كلهم رجال. . ما الذي جاء بك معهم؟!

انتزعها أبوها بقوة ـ حتى أن جزءاً من الجثة قد ظهر ـ واحتضنها واشتركا في موجة بكاء حارة، ليتناولها أبي، ويأمرني أن أعود بها قبل أن ترى التراب ينهال على أمها. . أسلمت لي يدها وعدنا.

كانت دموعها هي الوحيدة التي تقف في مخيلتي فكلما تذكرت وجهها رأيتها دامعة في كل الحالات دامعة.. في ليلة رحيلنا خرج لوداعنا أمي، وعمي وعبده راجح وزينة، كان بيننا فانوس شحيح التوهج وخوف يركض في الأفئدة. كنا نسير في الطرقات الشائكة المتعرجة حتى إذ بلغنا الخلاء سكن خوفنا قليلاً، ووقف مودعونا يلوحون بأيدهم، ويكفكفون أدمعهم.. زينة الوحيدة التي نفرت من بينهم وتعلقت بحمارنا ممسكة بي:

ـ أريد أن أركب معك يا شبرين.

فأوقف أبي دابته ـ ولحق بها المودعون ـ ونزل وقبّلها وهدهد عليها:

ـ سوف يعود شبرين.. وتركبين معه وحدك.

عندما انفجرت أمي باكية فشاركتها زينة البكاء.. استحلفت أبي أن يبقيني، فزجرني بحدة وأشار لأمي بأن تصمت.. فتدخل عمي بالحديث:

ـ إن أنت عزمت على الرحيل أبقي لنا شبرين فأنا أقوم بتربيته والاهتمام بمطالبه وكأنك موجود بيننا.

تحرك أبي صوب أخيه وحضنه:

ـ شبرين لا بدَّ أن يرحل.. أريده أن يرى دنيا اللّه وإن عاد يخبر الناس بما رأى. هو بالذات لا بدَّ أن يرحل.

لم يكن مستعجلاً في هذا الوداع إلاّ عبده راجح الذي دفعنا وهو ينهرنا بضيق، وتحفز فانطلقنا نقطع الليل وبي حشرجة مرة أسكبها خفية عن أبي الذي لكز الحمار بعنف، وأطلق تنهداته للأمام وغنى بصوت مكسور لنعبر الليل والغربة محتزمين بحلم العودة.

وها أنا أعود ولا أجد من يصدق أن هناك مدناً بيضاء وحياة أرأف وأرحم من هذه الحياة وأكثر غدقاً وأوفر حظاً.. وها هي زينة التي وعدها أبي أن تركب خلفي موثقة بقرن ثور، أوه.. هذه القرية كطفلة لم تبلغ الفطام ولا ترى أبعد من صدر السوادي.. فكيف أحثها لأن تتعلم كلمة أخرى.. وجهاً آخر.. زمناً آخر.

كانت هذه هي هواجسي، ولولاها لكنت خارج هذه القلعة.

صاح أحد المساجين بصوت ملح:

ـ دع كل شيء وأكمل حكايتك مع زينة.

ويبدو أن شبرين كانت عنده رغبة شديدة لإكمال قصته، لذلك سرعان ما واصل سرد حكايته:

كان صوتها لا يزال يجهش بالبكاء، فخاطبتها بلين:

ـ زينة.. لماذا قبلتِ به؟

وقبل أن تقطع نشيجها وتجيب لمحت شبحاً يمرق من خلفنا فهرعت زينة تتوارى بداخل عشتها.. بقيت للحظات أنتظر عودتها، وعندما لم تخرج تذكرت ذلك الشبح فانطلقت خلفه أتبعه. كان الظلام كفيلاً بإخفاء جمل وحينما يئست من تتبعه عدت أتسكع بداخل ذلك السوق الراقد بجوارنا باستسلام فاضح، هذا السوق الذي غادرته منذ أن كنت طفلاً لا يزال كما تركته ينهض على دكانين أو ثلاثة بنيت من الحجارة أما بقية الباعة فهم يبتسطون الأرض رافعين مظلاتهم التي تقيهم الشمس والمطر واضعين أمامهم بضاعتهم الرخيصة والتي صنعت بأيديهم أو ما تجود به حقولهم من فواكه وخضروات ويغادرون هذا السوق مع الغروب ليغرق بدوره في صمت رهيب يوازي صمت المقابر.. لا زال كما عهدته وعهدتموه.. سوق نجتمع فيه، ونفترق فيه، ونموت فيه.. ولا أريد أن أطيل عليكم في سرد ما تعرفونه عن هذه القرية وتخاذلها.. كنت أتلكأ في سيري، وأتساءل:

ـ أين أذهب في هذا الليل؟!

في مدن الغربة التي مضغت أيامي تجد العشرات يجاذبونك التسكع والحديث.. ذلك الخليط العجيب من اللغات والألوان يجتمعون على أرصفة الموانئ ويتشعبون بداخل المدن يدبون في الأرض كالنمل بحركة سريعة مترددة.. بعضهم كان يسألني عن موطني فأجيب بلكنة ركيكة متداعية.. إنها تقع خلف الجبال والصحاري والأنهار.. هناك في البعيد قرية تجلس لمضغ النوم والقصب. وأظل أحدثهم عن الوادي وجلب الماء، وأيام الحرث والحصاد وعن قبة الرجل الصالح وعن القلعة وعن السوادي فتتسع

محاجرهم، ويطالبونني بالمزيد وكأنهم يسمعون عن قرية تقع خارج الزمان والمكان.. يلتفون حولي وينصتون بعمق، وقد يضرب أحدهم جبهته غير مصدق لما يسمع من حكاياتنا. أحدهم رأى عين أبي فكاد يجن وأكد أن ثمة موتاً يسكن وادينا وأطلق أيماناً مشددة أن يعلمني كيف أقتص لأبي، فلازمني شهوراً عديدة حتى إذا استوثق من صلابتي أوصاني أن أنتقل إلى بلد آخر كي أتعلم وأعمل.. هناك يعلمونك كيف تحيا مرفوع الرأس. في غربتك ـ حتماً ـ تجد من يرفع قامتك إن أنت أحنيتها. في سفري الطويل تنقلت بين مدن وموانئ عديدة في كل مدينة يطيب لي العيش بها، وأعزم على البقاء فأجد عين أبي مستيقظة تحفزني للعودة. في إحدى الموانئ قال لي أحد العمال ممن غادروا بقاماتم أرضهم وزرعوا أنفسهم في الغربة:

ـ هنا ستذبل وعندما يجف الماء في عروقك لن تجد من يهيل عليك التراب.

كنت في كل يوم أتعلم شيئاً جديدا، مبهراً، فأخبئه في ذاكرتي كي أستفيد منه حين التقى بعين السوادي.

أبت قامتي أن تستجيب لأرض الغربة، فما إن يطيب لها البقاء في أرض حتى أجتثها وأغرسها في مكان آخر، ظللت هكذا حتى شعرت أنني قادر على دفن عين أبي والوقوف بعيني.. فحملت قارورة عينه وقفلت عائداً من سفر قرض سنوات طوالاً من عمري.

وها أنا أسير في طرقات هذه القرية التي خبأتها في صدري طويلاً، وكنت أهون من جزعي عليها بالصبر.. ولا أتواني في قدح كرهي كل يوم على السوادي.. وعندما وطأت ترابها قبلته وأيقنت أنني لن أنام قبل أن أرى دم السوادي يشارك السيل في جريانه، وها أنا أجد نفسي تتهيأ لضعف جديد غريب لم أجربه ولم أدخله في حساباتي.. لا زلت أقف جامداً والسوادي يتحرك ببطء باتجاهي.

ظللت أجوب السوق وحينما وجدت نفسي كشرطي الليل أقرع بقدَمَيّ الطرقات فلا تفيق اتجهت صوب دارنا. في الطريق عنَّ لي أن أعرج على

«ولي» وبي رغبة ملحة لأن أشتمه. إنه الوحيد الذي احتفل بقدومي، وأقام مأدبة كبيرة دعا إليها القاصي والداني وكنت ضيف الشرف بها. في تلك المأدبة كان يجلس إلى جوار السوادي متربعين في صدر المجلس بينما أنا الضيف أجلس في آخر الصف محشوراً بين القرويين الذين كانت ترتفع أعناقهم وتدور أعينهم ويتبعها غمز خفي، وضحكات مواربة وحينما قمنا للأكل لم يقدمني إنما دعا سيده في المقدمة، ساعتها شعرت باحتقار شديد لقبولي بمثل هذه الوليمة التي حطت من قيمتي ومن ثأري القديم، وبينما كنا نأكل مال أحدهم إليَّ وبصوت صلف حاد سأل:

ـ ألم يسمع عمك بهذه الوليمة؟

ـ بلى سمع ولكن مرضه يمنعه من الحضور.

فارتفع صوته متهكماً حاداً:

ـ مرضه فقط أو..

ولم يكمل عبارته بل استكملها بضحكة قبيحة مكَّنت الآخرين من إيصالها بالقبح نفسه.

أحسست أن ثمة شيئاً ما غامضاً وغائباً عني ولكن سرعان ما قذفت بهذا الظن بعد أن تذكرت أن عمي أصيب جسده بالضمور منذ زمن، ويرقد على قعادته كالميت.. حتى عندما رجعت ووقفت أمامه طويلاً لم تتغيَّر ملامحه بالرغم من أن زينة صرخت في أذنه مراراً:

ـ هذا شبرين.. لقد عاد.

وعندما لمحت وجهه جافاً من كل شيء إلاَّ الموت سحبت زينة وعدنا إلى أمي.

توقف الذي يجاورني عن الأكل مفسحاً لضحكاته مدى لتنثال بين الحين والآخر فشعرت بالضيق.. فهمست به:

ـ ما الذي يضحك؟

فانخرط في ضحك متواصل وقفز عدة قفزات متظاهراً أن اللقمة توقفت بحلقه حتى إن أحدهم صرخ فيه من آخر المائدة:

ـ اللّه يلعنك سوف تميتنا هكذا.

فعاد إلى مكانه مسترجعاً أنفاسه وقاطعاً تلك الضحكة القبيحة، ولكزني بجلافة:

ـ لا زلت غريباً!!

لم تشغلني تلك الحادثة كثيراً لكنها سكنت رأسي بعد ذلك وأخذت تنخره بعنف وكانت ثمة أسئلة لن يجيب عنها إلاّ ذلك الثور الهرم.. كنت أتساءل: هل من اللائق أن أذهب إليه في مثل هذه الساعة المتأخرة من الليل؟!.. وبعد إمعان من التردد قررت أن أكون أنا والصبح أول من يطرق بابه.

اتجهت إلى الدار والهواجس تشعل الرأس ظنوناً أبددها بتحريك ضوء الكشاف في اتجاهات عديدة. فجأة لمحت ذلك الشبح الذي يترصدني ويوازيني في سيره ويحتجب خلف «الكداديف» فركضت باتجاهه.. وعلى غير ما كنت أتوقع، ظل ثابتاً يرفع صوته بغناء أجش محاولاً أن يمنحه قليلاً من الطراوة:

يا زينة

وسط امعجاجة وامعشر وامرين(*)
منه بشوبك حط أسراره
قومي يا زينة خبري شبرين
حتى يواجه سود أقداره
وعاد ليلك ما يقع شهرين
ويرجمون بك خلف أسواره

كانت كلماته كفيلة بأن تجعلني أتسمر في مكاني ويزداد حريق الظنون برأسي.. ترى ماذا حدث في غيبتي؟! لا زال أهل القرية ينثرون حكاياتهم وهم يتلفتون يميناً وشمالاً ولا أحد يكاشفك بشيء، فهم يمضغون الكلام

(*) للشاعر علي الأمير.

ويبتلعونه خشية أن تسمعهم أذن فتحرك سياط السادة على جلودهم.

تنبهت إلى أن الشبح مضى خلف «الكداديف» منبهاً سكون الليل بصفير منغم، ومردداً كلماته بصوت أجش حزين، كان أبعد من أن ألحق به.. فعدت أجر هواجسي للبيت.

مع دخولي رأيت زينة تقف على «كابة» عشتها تتطلع إلى عشتنا بقلق، وتنقل بصرها في تلك الظلمات المسترخية في الطرقات، وعندما رأتني لوحت بيدها واختفت. كانت أمي تغط في نوم عميق.. هزيتها برفق، فتمايلت وبصوت نائم متضايق:

ـ ماذا بك يا زينة.. أخبرتك مراراً أنه لم يعد بعد.. استعيذي باللّه ونامي.

هزيتها مرة أخرى رافعاً صوتي:

ـ أنا شبرين يا أمي.

نهضت من منامها واستوت وهي تبحث عن وجهي بيدها وصوتها المتوتر يقرعني:

ـ ماذا بك يا شبرين.. تخوفنا عليك ليلياً وأنت تدور في هذا الليل البهيم.

ـ أماه بي غم وضيق.

ـ من ماذا يا نور عيني؟

ـ ليلياً يتابعني شبح ويغني من خلفي.

فتحركت بيدها وأطبقت على فمي، فضممتها إلى صدري:

ـ ما الذي حدث في غيبتي.. بربك يا أماه أخبريني.

حاولت أن تتهرب وأمام إلحاحي، استوت استواءة مريحة، وغطت بقايا شعرها المتهالك بمصرها الحائل وبدأت الحديث.

* * * *

حدثتني فقالت:

بعد رحيلكما بعشر سنوات هطلت علينا سنوات عجاف لم نرَ مثلها من قبل، التهمت الأخضر واليابس وعندما فرغت من الحقول والمراعي ولم تجد ما تأكله غرست أنيابها بأجساد أهل القرية فتساقط الكثيرون. في تلك الأيام كان الموتى زرافات حتى أن الميت يظل ليال ولا يجد من يدفنه، وأمام هذا الموتى الجماعي، اشتغل البعض بحفر القبور لتوفير لقمة العيش حيث لم يعد هناك أي عمل يزاوله الإنسان للكسب ويدر عليه القليل القليل من المال سوى هذه المهنة والتي أصبحت عملاً لكثيرين من أهل القري. في تلك الأيام فقدت بصري بعد أن جف دمعي من بكائي المتواصل على فراقكما. في البدء هرب مني النوم، وأصبحت أقضي الليالي والأيام دامعة علني أعيدكما بهذه الخيوط المالحة التي سمرتها بمحجري، وسالت قطراتها دون توقف ثم جفت، واشتعلت حريقاً لا ينطفئ وقد أوصاني من عادني من النساء أن أكتحل بالقرنفل بعد سحقه وخلطه بماء الليمون فداومت عليه ليحرق بصري للأبد، وبعد أن غادرني الضوء أصبحت مقعدة لا أفارق عشتي. كان عمك يخرج صباحاً ويعود ليلاً حاملاً أناته ودموعه.. وكان شطف العيش يأكلنا جميعاً والكل يصرخ من الجوع ومن نضب صراخه أسلم جسده للموت دون أدنى مقاومة. كان عمك يقف وحيداً أمام هذه الكوارث، وكلما نزلت بنا الفاقة تضعضع وأناخ.. وكنت كلما استقبلت القبلة رفعت يدي طالبة أن يرحمني اللّه بالموت فقد كنت حملاً إضافياً على كاهله. وكلما امتدت أيام القحط أكلت جزءاً منه وهو كالجذع اليابس يقف في وجهها فلا هي حركته ولا كسرته واستطال بداخله اليأس حتى تهدم.

في الليل أسمع زفرات زينة وتذمرها وحشرجتها فأصل إليها بعد أن أقع عدة مرات، فتضمني وتبكي بحرقة شاكية لأبيها ما نجد من جوع وفاقة وكان يشاركها البكاء، وضرب وجهه بحذاءه المتقطع. أمام تصدعه هذا قررت زينة أن تخرج وتسند عجزه وأسرت لي في الصباح الباكر أنها خارجة للتحطيب، ولم تفلح نصائحي معها في ثنيها عما عزمت عليه، وأمام بؤسنا لم أملك إلا أن دعوت لها وخرجت تستتر بالغلس و«بشيظر» ممزق.

كانت تخرج من «الغبش» إلى الخلاء رابطة حبلها على وسطها وتسير قاطعة قريتنا والوادي ومتجهة إلى دير «بني يحيى» وهناك تلقي بحبلها وتجمع فيه جذوع أشجار السلم والسدر، وتعود حاملة ما احتطبت على هامتها الصغيرة معرجة على السوق، وفي أيام عديدة تعود بحطبها، وتلقيه في دارتنا خشية أن يعلم أبوها بما تصنع، وقد دأبت على إيقاظه مبكراً وحثه على طلب الرزق بعيداً عن طريقها، فكانت تومئ له بالذهاب مع الجمالة أو الانضمام إلى الشقاة الذين يقطفون القات من الجبال البعيدة أو جلب «الطفى» من دير بني غالب. كانت تعمل دائماً على إبعاده عن طريقها وما إن يخرج حتى تحمل حبلها وتدب في الخلاء تجمع الحطب وتبيعه، وتعود مسرعة. في بعض الأحيان كان يصل قبل أن تأتي فيسألني عنها فأتذرع بحجة أنها «بالمطينية» أو أنها تعلف أو عند إحدى صويحباتها، فيظل ينتظرها بجزع وما إن يراها حتى يصرخ، ويطلق كلمات غاضبة ساخنة محذراً إياها من مغادرة البيت، فتهدئ من غضبه وتجهز له عشاءه، بعدها يمضي إلى «قعادته» ويسلم جسده للنوم، بينما تجلس - هي - بجواري تلبي حاجاتي وتسامرني فأسرد عليها حكايات عديدة سمعتها من نوار، وأفطن إلى أن النوم قد سرقها مني حينما أنتهي من حكاية وأهم بسرد أخرى فلا أسمع لها صوتاً، عندها أتلمسها وأوقظها لتذهب إلى «قعادتها» وتستلقي كيفما اتفق لتنهض مع الشمس مبتدئة يوماً آخر من التعب والتسكع بحطبها في القرى المجاورة.

والتقيا ذات يوم في السوق. كان عمك كدابة متهالكة يسير حاملاً بضائع ولي على ظهره وقد تقوست قامته، وكانت زينة تجلس مع الحطابين تعرض حطبها، فنهبت عينا ولي وجهها القمري ولكي يكسب رضاها ابتاع منها حزمة حطب، ونقدها ثمن أربع حزم، وأمرها أن تسير خلفه، فتحركت على أثره، فلمحت أباها يئن تحت حمولته بصمت، ذهلت وتراجعت للوراء رافضة أن تتقدم مما أغضب وليّاً وحدا به ذلك إلى أن يصرخ في عمك آمراً إياه أن يضيف على حمولته حزمة الحطب، وعندما حاول أن يجتذبها ويلقيها على عاتقه سقط وتناثرت حمولته من حوله ليتناوله ولي بسوطه، فنهض متألماً جامعاً ما تساقط منه وانكفأت زينة تساعده وحينما لمحها انكسر وغام وجهه

بالبكاء، فتركته وعادت تركض نحوي وتستجير بي منه وما هي إلاَّ لحظات حتى كان عمك يقف فوق رأسينا، وأنفاسه المتلاحقة الغاضبة تدفع الكلمات بصعوبة:

ـ سوف أكسر ظهرك بما جلبت من حطب.

كنت لا أدري كيف أتمكن من الإمساك به ولم يمهلني حتى ألقى بجسدي على زينة، فقد هوى بجذع يابس على ظهرها ولم تدفع عنها يده إلاَّ بصرخة واحدة، بعدها أغمي عليها. بعد هذه الحادثة لم تعد تقوى على رفع قامتها أو النهوض لخمسة عشر يوماً قضتها ملقاة على قعادتها جثة هامدة.

كان يجيئها ليلياً ويبكي عند قدميها:

ـ سامحيني يا ابنتي لا أريد لك المهانة.

فأسمعهما يتناجيان ويتبادلان البكاء، وفي ليال سوداء كان يشكو إليها ضعفه، ويلعن أباك دائماً لأنه فرق بينكما. كان خائفاً عليها. كنت أسمعه في ليالي مرضه الأولى، كان يبكي ويحدثها بصوت مرتعش:

ـ لو أن شبرين هنا لسقطت وأنا مطمئن.

فتصبره وتلازمه حتى إذا غفا، عادت إليَّ وارتمت في حضني باكية مرتعشة.

في السنة الأخيرة من زمن الجفاف اشتد القحط وأخذ يقتات أجسادنا بعد أن مضغ كل شيء وعندما وجدنا منتصبين كالأعواد اليابسة ارتقانا ليحصد أنفاسنا اللاهثة، المتعبة، وعندما استفحل بنا الجوع كنا نصرخ لتصل لقريتنا هبات لا أدري من أين تصل وإن كنا نسمع أن العجم بعثوا بها إلينا، وقد أفتى الشيخ موسى فيما بعد أن أكلها حرام فأعدناها إلى مستودعات السوادي ـ تلك الهبات كانت كفيلة بسد جوعنا لمدة شهر ريثما تعود الصحة إلى أوردة عمك، وقد تمَّ تسجيل أسماء كل من بالقرية إلاَّ بيتنا الذي تكفل ولي بشطبه من سجل الهبات، على أمل أن يرضخ له عمك ويمنحه زينة. ولم يعد أمام ذلك الثور الهرم إلاَّ تضييق الخناق علينا وإغلاق أبواب الرزق في وجه عمك، فمنع أصحاب الحقول من استئجاره كشاق وحرض أهل السوق

على نبذه وكلما سلك عمك طريقاً وجد ولياً يقف دونه. . وأمام جوعنا الذي لا يصمت خرج عمك ليحتطب. . كان يشعر بالمهانة، ودائماً يردد:

ـ لم يعد أمامي إلاّ أعمال النساء والخدم.

حتى الاحتطاب لم يكن بالأمر الهين، فقد كان يخرج لمسافات بعيدة يجمع أعجاز الأشجار والأعواد الغليظة اليابسة، وغالباً ما يمضي يومين يجمع خلالها حزمة واحدة ويعود إلى السوق متوسماً أن يلاقي ما يوازي تعبه وبحثه، وما إن يستقر بحزمته بين الجمالين والباعة حتى يأتيه أحد حرس السوادي ويرغمه عنوة على التخلي عن حطبه، وإن حاول منعه اقتيد للحبس. وأمام هذا التهديد كان دائماً يتخلى عن حطبه ويعود إلينا حاملاً دموعه ولعناته ويأسه. وقد امتهن أعمالاً عديدة وفي نهاية كل منها كان يجد ولياً وأعوانه يعكرون عليه الحياة.

كان مصراً على عدم تمكين ذلك الثور الهرم من زهرة قلبه وكلما أمعن ولي في مضايقته ازداد عمك صلابة حتى أنه صرخ بأعلى صوته:

ـ لو أكلنا حشائش الأرض فلن أزوجك زينة.

وأمام قرصة الجوع كانت زينة تخرج إلى الحقول الميتة، وتبحث في أرضها عن جذور بعض الأعشاب وتعود بها لتطبخها وتقدمها لنا، وتكون أكثر فرحاً إذا وجدت «ويكه» فعندها تعود سعيدة لتملأ الدنيا بصوتها الشجي، وتظل تقلبها على النار وهي تغني بصوت ملؤه الحبور، وإذا ما انتهت قدمتها لنا في أطباق طينة خصصتها للأكلات الشهية.

وفي إحدى الليالي جلست تتحدث عنك وعن أبيك، كان حديثها يائساً من عودتكما، ولم أشعر بها إلاّ وهي في حضني باكية، وعندما حاولت تهدئتها غمغمت:

ـ سأقبل بولي زوجاً يا عماه.

فأحسست بخنجر يغمد في داخلي وبكيت معها كما لم أبك إلاّ على فراقك. وقد استطاعت أن تقنع أباها بما عزمت عليه، ولا أدري كيف تمَّ كل شيء ـ بعد ذلك ـ بسرعة لم تخطر ببالي.

وغدت زينة الزهرة الرابعة التي سوف تقطف وتقذف في حضن ذلك الثور الهرم الذي ملَّ منه الدهر فتركه يانعاً للموت دون أن يصيبه العطب. وبدأ عمك يسترجع قليلاً من صحته ودر عليه العمل بحقول ولي أموالاً لا بأس بها. وبدأت الأحلام والآمال تراودنا قليلاً قليلاً.. وكان أولها بناء عشة تقينا زخات المطر وهدير الشمس الحارق، واستطعنا جلب غنمتين وبقرة، وأخذت أنفاسنا تنتظم رويداً رويداً، وكنت كلما التقيت بزينة أحسست بشرخ يتمدد بصدرها فلم تعد تتحدث عنكما إلاّ بصوت متحشرج مبحوح وخمدت جذوتها التي كانت تشعلها كلما داهمنا الحزن.. أيقنت ساعتها أننا نحتضر وأن الموت أقرب لنا من هذه الحياة التي مدت إلينا جزءاً يسيراً منها قبل أن تدفعنا لهاوية سحيقة.

وفي إحدى الليالي المظلمة جاءنا ولي معللاً مجيئه بتفقد أحوالنا بعد أن دفع عمك «الشياطه» الحبوب في قرية التغالبة، وبينما كنت أنثر الحديث سحب نفسه بهدوء وتسلل إلى عشة زينة والتي كانت قد غادرتني للتو واستسلمت للنوم وباغتها على حين غرة منها، سمعت صراخها يفجر سكون الليل:

ـ إلحقوني... إلحقوني.

كان صوتها يأتي متقطعاً وكأنها تحاول تهريب صرخاتها من بين يد أحكمت إغلاق فمها كي لا تمتد صرخاتها بعيداً. فلم أتمكن من صنع شيء سوى أن أرفع صوتي بالاستغاثة معها ليتراكض صوبنا الجيران مستفسرين فأدفعهم صوب عشة زينة.

فجأة هدأ كل شيء ومضى الجيران يطرقون بنعالهم سكون الليل مسرعين، فتلمست طريقي وبعد جهد عسير بلغت عشة زينة.. فصرخت:

ـ ماذا بك يا زينة؟

جاء صوته مراً:

ـ ما الذي جاء بك أيتها العمياء؟

ـ وماذا جاء بك إلى هنا.. ظننتك قد ذهبت.

ضحك بعمق ودفعني بكلتا يديه:

ـ أخبري أباها بأنها لم تعد تروقني.

نهضت وأنا أحاول الوصول لزينة.. وبكاؤها المحروق يشتعل باللعن والاستغفار، فبقيت بجوارها أمسد على شعرها.. ومضى الليل وكل منا يوشوش لداخله وقبل أن تصعد الشمس كان عمك بيننا.. ويبدو أن وضع زينة أثار دهشته ولم يرضه فصرخ فيها:

ـ ماذا حدث؟!!

فزاد نحيبها.. ونزلت عليها صفعات متلاحقة والسؤال لا زال قائماً:

ـ ماذا حدث.. أخبريني قبل أن أميتك.

عندها عاد صوتها مكسوراً بالفجيعة:

ـ ولي.. هتك شرفك يا أبي.

فسمعت جسداً ثقيلاً يسقط ويئن. من يومها لم يغادر عمك فراشه وقد سطا الموت على نصفه وسلب لسانه وحركته وأبقى له عيناً تنضح أحزانه المتدفقة.

وعادت زينة إلى الحقول والأسواق تعمل لملء بطوننا التي لم تتوقف عن الحركة. وبقيَت من ذلك العهد مخطوبة لثور أشاح بوجهه عنها بعد أن دهسها بقوائمه وقرنيه ولم يجرؤ أحد على الاقتران بها، ولم نجرؤ على إعلان فسخ تلك الخطوبة التي ولغ الكلب من خلالها إناءنا.

توقفت والدتي عن سرد حكايتها، فأحسست أن قلبي يكاد يطير جزعاً، وشعرت بالاختناق وبمرارة تعبر حنجرتي وقبل أن أتماسك، سمعت شخيباً وأنات عميقة تتصاعد من خلفي، التفت، فرأيتها على ضوء الفانوس تستند على «كابه» العشة تغالب دماءها وتعمق خنجراً بأحشائها، وتحركه يميناً ويساراً. قفزت صوبها فمدت لي يدها وسقطت، وأنفاسها الحارة اللاهثة تحرق وجهي.. كل صوتها أوهن من تدفق دمائها:

ـ انتظرتك طويلاً قبل أن يلعق ذلك الكلب في إنائك.. أقسم لك باللّه أنه أخذ شرفك عنوة.. قسراً وجبراً.

سقطت أمي بجواري وصوتها يلح بنا:
ـ ماذا بكما؟!
فلم أكترث بسؤالها، وأسندت رأس زينة على ساعدي.. كانت عيناها الليليتين قد استحالت إلى نهار فاضح وأنفاسها الزكية قد توقفت للأبد.
صرخت بها لتعود، فارتمى رأسها للخلف. وسدتها الأرض، وخرجت أحمل مسدسي «المعمر» عازماً أن يكون ولي أول ضحايا معركتي.
على بابه وقف حقدي القديم ووقف خنجره الذي عكّر به حياتي الجديدة.. ولم أعد أريد شيئاً سوى أن أقتله.
صرخت فيه وبقيت أردد صرخاتي حتى أطل أحد عبيده ونهرني طالباً أن أعود في وقت آخر.. وحينما رآني عازماً على اختراق الحصن واضعاً مسدسي في عينه انسحب منادياً عليه.
وقبل أن تصل إليه عيناي كان جنوده وعبيده يحيطون بي ويوثقونني وثاقاً عسيراً، وفي الصباح الباكر قادوني محملاً بجرار تفوح برائحة كريهة جلبوها من دارنا وأوقفوني على باب الشيخ موسى والذي وقف أمامي باصقاً وهو ينعتني بأبشع الصفات وقبل أن أفيق من غرابة ثورته المفاجئة كان قد أصدر فتوى بأن أُقاد إلى السوق العام راكباً حماراً بالمقلوب وأن أجلد ثمانين جلدة ويُراق عليَّ من تلك الجرار.
وقبل أن أنقاد صرخت فيه:
ـ بأي حق تقاضيني بهذا؟
رمقني شزراً ووضع يده على أنفه فخرج صوته الأخنف:
ـ بسبب الخمر الذي تروجه في القرية.
فتعالى صوت من بين الحاضرين:
ـ وأي خمر هذا الذي تتحدث عنه؟
فنادى ثلاثة ممن شاركوا في وثاقي.. وسألهم:
ـ ماذا فعل شبرين؟

فأجمعوا على أنني كنت أبيع الخمر في القرية وأن ولياً نصحني وعندما شعرت بأنه سوف يبلغ عني جئت إليه كي أقتله.

كنت أصرخ في الشيخ موسى وأقسم له بأنني بريء وأن هذه الجرار وضعها ولي في داري ـ منذ فترة بعيدة ـ وأخبرني أنها جرار سمن وعسل يريد أن يخزنها لبيعها في أسواق القرى البعيدة، إلاّ أن رائحتها النفاثة جعلتني أنكر أن تكون سمناً أو عسلاً. . فأخبرني أن بعضها جرار «شوب» خلطه بمسحوق أزهار ويريد أن يغسل بها جماله الجرباء، وحينما طالبني بالشهود على ما أقول وجدت نفسي أعزلاً إلاّ من صرخاتي التي لم تسعفني أمام تجمهرهم حولي وحملي على حمار بالمقلوب والسير بي في السوق.

وفي الظهيرة انتشر خبر موت زينة، وألصقوا موتها بي لأقاد إلى القلعة ومن يومها وأنا نزيل هذا المكان أحلم بالقتل. .

الآن لست نادماً على شيء سوى أنني تركت جثة زينة دون أن أواريها. . كنت عاشقاً خائناً تركتها صغيرة وعدت لأقتلها كبيرة.

* * * *

وعندما بلغ شبرين بحكايته هذا الحد ارتفع نشجيه فاجتمعنا من حوله ونسي كل منا تعبه وبكينا معه.

اصرخ فأنت في السجن

سجناء القلعة

مضت عشرون سنة وتسعة أشهر وعشرة أيام ونحن في هذه القلعة نتقلب على جمر آهاتنا ووجوه العسكر، تلك الوجوه الواجمة، الضامرة، المنكبة، والتي كأنها على موعد مع الموت، فجلست تنتظره بتقطيبة حادة، ولا تملك لردعه سوى تزجية الوقت بسماع آهاتنا، وذلك بابتكار وسائل خبيثة لإزهاق أرواحنا، دون أن نحظى بالموت، أو أن يأتي الموت لموعدهم ويريحنا، ويريحهم!

ثمة ثلاثة من السجناء الجدد أحالوا الزنازين إلى موجة من الغضب، وفي أول يوم لهم رفضوا أن يقيدوا معاً، وأصروا على أن يظل كل واحد منهم ينعم بسلسلة منفردة، فأنزل العسكر عليهم عصيهم، وحبالهم، وعندما وجدوا أنفسهم مقطورين في سلسلة واحدة، كانوا يرفعون أيديهم مجتمعة، ويلقونها في وجه أي جندي يقترب منهم بكرباجه. وأمام هذا الاختراق السافر لقوانين القلعة، وخوفاً من اهتزاز حرمة مكانتها في نفوس السجناء القدماء كانت «قيش» العسكر تلعق أجساد أولئك المشاغبين من بُعد، وكان نزلاء القلعة الموغلين في القدم يحذرونهم من مغبة أفعالهم، فيصرخون معاً:

ـ نحن في السجن، فماذا بعده؟

وقد تمددت عبارتهم بين أروقة القلعة لتشعل غضباً ران على الأفئدة، وفجأة استحال السجن إلى خلايا تدوي بجلجلة القيود، وأخذت كل خلية تنفرد بعسكري وتلقيه أرضاً، ولا تتركه إلاّ بعد أن تبيض عيناه في حلكة الليل البهيم.

في الصباح تسحب جثث ضحايا الليل إلى الخلاء، بعد أن تخلع بدلها الزيتية، وتمنح لمجندين جدد، ولا ينتهي الأمر عند هذا الحد بل يصطف كل المساجين في صفوف متعددة، ويتفحصهم محروس واحداً واحداً ثم يأمر طابوراً من العسكر بصب غضبهم على هؤلاء المساجين، بعد أن يحرضهم على عدم إبقاء أي سجين واقفاً على قدميه. وفي الليل ينهض هؤلاء المساجين من آلامهم ويواصلون حصد تلك البدل الزيتية، فأصيب الجنود بالرعب، وكانوا لا يسيرون فرادى، وإذا جن الليل عادوا إلى ثكناتهم دون أن يجرؤ أحد منهم على مغادرة فراشه مهما حدث، حتى إن أوامر محروس وصرخاته تذهب سدى ولا ينفذ منها شيء إذا جاءت بالليل. وفي الصباح يصب أشد أنواع التنكيل بأولئك الذي امتنعوا عن أداء واجبهم العسكري ـ ليلاً ـ، ونلمحهم ونحن سائرون لقضاء حاجتنا ممددين على الرمضاء وثمة جنود آخرون يقومون بجلدهم، وإمعاناً في تحقيرهم يتبولون عليهم. ومع ذلك استمر إغفال أي أمر يصدره محروس ليلاً، فقد انتشر بين الجنود خبر الجن التي تخرج كل ليلة لمساعدة المساجين والويل لأي جندي يتواجد في فناء القلعة، أو في الزنازين، لذلك يظل المساجين يجوبون القلعة بحرية تامّة، فما إن يتثنى النهار مفسحاً لليل مدى يبسط فيه أعضاءه حتى تسمع جلجلة القيود تجلجل بجلبة يخالطها غناء شجي، وقد ركن بعض السجناء إلى حيل عدة لاستقطاب الجنود وأخذهم على حين غرة، ومع كل جثة عسكري تسقط بين أيديهم يتبدد حلم العثور على مفاتيح تلك السلاسل التي تقودهم مقطورين، وقد فكروا في جر قدم محروس إليهم إلاّ أن كل محاولاتهم باءت بالفشل، ويبدو أنه علم بما توسوس به خواطرهم، كما علم بتخاذل رجاله ليلاً، فأصبح أكثر احترازاً، ودائم (التمنطق) ببندقيته ذات الطلقات المتعددة، ويظل يدور بين زوايا القلعة وجنباتها طوال النهار حتى إذا أطل الليل برأسه ركض كجرذ حقير إلى ملجأ يبعده عن عيون الحراس، والمساجين على السواء، فقد كان يلجأ إلى مكان خفي، ولا يغادره إلاّ مع انتشار الجنود بين أروقة القلعة، ولم يكن هذا الملجأ معروفاً لأحد حتى إن بعض من يقع في أيدي السجناء تذهب روحه دون أن يتمكن من إرشادهم، أو دلهم على مخبئه.

في تلك الأيام قويت شوكة السجناء حتى ظن البعض أن السوادي قد مات، بل شاع موته بين السجناء كحقيقة واقعة، فأخذوا يتبادلون التهاني والتبريكات لغروب هذا الوجه الذي ران على أبصارهم زمناً مديداً، وظل خبر موته شائعاً إلى أن قام ثلاثة مساجين باستجواب إحدى ضحاياهم والتي عرفوا من خلالها أن السوادي لا يزال يتمتع بالحياة، وأنه يرنو إليهم من مكان خفي، ومن سوء حظ هذا الجندي التعيس أنه أخبرهم بهذا الخبر، لذلك فقد ساموه سوء العذاب، وقدموا له أبشع ميتة يمكن أن يصادفها عسكري يخدم السوادي. ففي البدء قادوه إليهم من خلا صرخات تنبئ بأن ثلاثة من المساجين يتسللون إلى خارج القلعة في محاولة للهرب، ويبدو أن هذا العسكري كان يُمني نفسه بحظوة تقربه من محرسو، فقد انطلق يدور بكشافه في فناء القلعة، وقبل أن يتبينَّ عددهم كانت مجموعة تقف أمامه وتشير له برؤوسها في اتجاهات مختلفة، حين انقضت عليه مجموعة من الخلف ـ مكونة من ثلاثة سجناء قيدوا بقيد واحد ـ حيث ألقوه أرضاً وظلوا يضربونه بقيودهم حتى رضخ لهم وبدأ يجيبهم عن أسئلتهم، وعندما أخبرهم بخبر السوادي أمروه أن يسف التراب سفاً ولا زال يسفه حتى مات.

ولم نكن نعرف بالتحديد من وراء هذه الثورة المفاجئة، والتي تكون في أوجها ليلاً، وفي الصباح لا تعدو عن كونها خبراً لا يصدق أمام التعذيب المقيت الذي يتعرض له السجناء. ففي النهار يصبح العسكر وحوشاً كاسرة، ولا يتوانون عن القتل لطرفة عين، فقد غرس أحدهم خنجره في خاصرة أحد السجناء لمجرد أن هذا السجين كان ينظر إلى وجهه، فحذره من ذلك، فما كان من السجين إلاَّ أن تمادى بالنظر إليه، فتقدم نحوه وغرس خنجره بخاصرته وأمر الذين يشاركونه القيد السير بجثمانه، وعندما امتنعا عن ذلك أجهز عليهم جميعاً، وقد حدث أن قتل أحد السجناء فسار به زميلاه يجرانه معهما إلى زنزانتهما حتى انتفخ «وانبث» أمامهما وظلا يسيران به لمدة أسبوع كامل ولولا إشفاق أحد الحراس لذلك المنظر المستبشع لبقي ملازماً لهما في قيدهما إلى أن يأكله الدود، حيث كان منظره مرعباً ـ بحق ـ فقد «انبث» بطنه وتمرغت أمعاؤه بالتراب، وتكسرت عظام جمجمته، وتقطعت بعض أطرافه

من السحب المتواصل، ولم يعد يتضح من ملامحه شيء يذكر بأنه كان في يوماً ما إنساناً، وصاحباه كانا يسيران ويجرانه خلفهما دون أن يتمكنا من التخلص منه، وقد غدا وجهاهما مكفهرين أغبرين، يتقيآن فلا يخرج شيء، ولم يقربا طعاماً أو شراباً منذ أن قاداه قتيلاً، ويبدو أن إشفاق هذا العسكري جاء من منظرهما البائس حينما كانا يتحركان وهما يبكيان بعويل مرتفع، وعندما تصطك عظام صاحبهما بالحجارة يضحكان بجنون بالغ، ولم يكن هذا العسكري ليجرؤ على مخاطبة محروس والتوسط لديه بشأن هذا الميت لعزله عن صاحبيه، ولم يكن ليجرؤ ـ أيضاً ـ على أن يطلب المفتاح الخاص بكلبشتهما، وكان يعلم تماماً مصير من يساعد سجيناً، فقد كانت الأوامر صريحة وصارمة في هذا الشأن، وهي الموت لأي جندي يرصد متلبساً بمساعدة أحد السجناء، ويبدو أن هذا الجندي انتابته حالة ضعف وإشفاق فقرر مساعدة هذين السجينين، فقد اقترب منهما وأمرهما بالتوغل في الخلاء أثناء خروج السجناء لقضاء الحاجة، وهناك قام ببتر يد الميت ليسقط من بينهما في الخلاء لقمة سائغة للزواحف، والكلاب الضالة، ومما يؤسف له أننا لم نتمكن من معرفة هذا الجندي، فقد صرَّح أحدهما بهذه الحكاية لجار له، وبعدها أصيب بالخرس، أما الآخر فقد طار عقله، وأصبح يهذي بالموتى ويروي بأنه يجالسهم ليلياً، وهم يحدثونه عن صاحبه الذي كان يشاركه القيد، وفي إحدى المرات أمسك بدرويش وصاح به:

ـ يحدثني عنك الموتى ويقولون إنك ستموت ميتة نجسة.

فقبله، وأسرف في شتم السوادي بصوت مرتفع حتى خشينا أن تتناوله تلك البنادق المصوبة نحونا.

كانت القلعة مقبرة تلفظ موتاها للعراء، ففي الليل يكون السجناء رسل الموت، وفي النهار يصبحون الضحايا الطازجة للجِدآن، والغربان، ما يحدث ما كان ليصدق أبداً.. ولم يحدث في تاريخ القلعة أن سالت دماء بهذه الغزارة، وعندما تكاثرت البدل الزيتية المخلوعة من على أجساد ضحايا الليل، ولم يوجد من يرتديها ظهر السوادي ـ ولأول مرة يظهر لنا ـ وقد جمعونا بفناء القلعة ولم يتخلَّف منا أحد، فكنا نجر بعضنا بعضاً، وقد لفظ أحد العجزة

أنفاسه قبل أن نصل للفناء فكان رفيقاه يجرانه خلفهما وكلما تأخرا في سيرهما هوى عليهما العسكر «بقيشهم».

وعندما بلغنا المكان المقرر لنا حشرنا حشراً، ولأول مرة يتعرف بعضنا على السوادي الذي كان يمتطي بغلته ويدور بيننا خطيباً، وقد أزبد وأرعد، وأمر عسكره بتسديد طلقاتهم على من توسوس له نفسه بالاعتداء على أدنى عسكري بالقلعة، بل غالى في مد يد عسكره حين أمرهم بتصويب بنادقهم على كل من يشكون في تمرده ولو شكاً طفيفاً، ومع كل كلمة يطلقها في الفضاء كان يتبعها همهمة من السجناء سرعان ما تنطفئ ويسقط أصحابها كالأشجار المبتورة، وما إن انتهى من خطبته حتى كان الفناء نهراً يسيل بالدماء، ولم يمنحنا ظهره إلاً أن تأكد من أننا لم نعد نصلح لشيء سوى الأنين الفاجع.

ويبدو أن السوادي تنبه لتخاذل الجند ليلاً فأمر باستحداث جولات ليلية وأن يكون عقاب من لا يقوم بها الموت رمياً بالرصاص وأن تقذف جثته للكلاب التي أصبحت تتواجد بفناء القلعة بكثرة. وفي الأيام الأولى رأينا ثلاث جثث تلعقها ألسنة الكلاب، وتلعق عظامها بمهل وتريث، وبعدها أصبح الليل أيضاً يقدِّم جثثنا طازجة للزواحف، والدود الذي أصبح أوفر صحة من أعتى سجين بداخل القلعة.

وجد السجناء أنفسهم أمام فوهات البنادق، ولم يجرؤ أحد منهم على إلقاء قيوده على الجند، وقد استبدلوا جولاتهم الليلية بهمهمة طاغية تظل تردد طوال الليل ـ بين حين وآخر ـ دون أن تجد من يلبيها. . كانوا إذا خيم الليل، وذهب العسر إلى مخادعهم، نهضوا من أنينهم صارخين بصوت واحد:

ـ يا قرية الموت اخرجي لدفن موتاك.

فيتقافز الجنود من مخادعهم، ويعودون يصوبون بنادقهم على أي صوت يرتفع، ويمضي الليل في استجواب وعذاب لا ينقطعان، وأمام صمتهم وعدم ذكر أي اسم ممن كان يطلق ذلك النداء أمر السوادي أن يمنع جميع المساجين من قضاء حوائجهم في الخلاء، مما جعل النزلاء يلقون بآلام بطونهم بداخل الزنازين ليأتي في اثرهم الذباب، والدود، والمرض، وبهذا لم تعد

هناك رئة قادرة على ابتلاع ذلك الهواء الرث، ومما زاد الحال تعقيداً امتنع العسكر عن الدخول إلى الزنازين لتقديم الوجبة اليومية الوحيدة خشية الاختناق، أو انتقال عدوى الحمى التي انتشرت بين المساجين ووفرت على العسكر الرصاص الذي كانوا يطلقونه عليهم. . وأصبح المساجين أقرب للموت من الحياة مقذوفين في أماكنهم لا يقدرون على هش ذبابة تقف على عيونهم. . كان المرض. . والجوع ينخران عظامهم فيتساقطون، ويتقطعون كالخرق البالية، وبقي صوت شبرين يموج بينهم شجياً مكسوراً:

وامقهر مهما شب يماه يجي له يوم يصدى

وامنار لو وقدن يماه لها لهب كامرض يعدى

فيتماسكون قليلاً، ويرفعون عيوناً زائغة من أجساد مهلهلة.

في ذات صباح اصطف جنود بنفاء القلعة، وكانت ملامحهم تدلّ على أنهم جبالية، قادمون للتو، وكانت هيئتهم أفضل بكثير من جنود القلعة، فملابسهم نظيفة ذات لون غامق يميل إلى الاخضرار، و(مبرقشة)، قصار القامة ممتلئون كالمسامير الصلبة، بيض البشرة، تغلب عليهم الجلافة، وملامحهم صارمة، عنيفة التعابير، وقفوا في صف طويل يتفحصهم محروس بزهو، حتى إذا اطمئن إليهم، صاح بهم:

ـ أيها البواسل حان وقت العمل.

وبنبرة تحفيزية متوددة صاح بهم: هيا أخرجوا الجثث وألقوها في حفرة واحدة اختصاراً للوقت وترفيهاً عن الجنود المتعبين من حراسة هذه الكلاب المتوحشة والتي استطاع السوادي أن يعزلها كي لا تعقر أهالي القرية المطلة على الوادي الكبير.

وقد تفانى ـ هؤلاء الجنود الجدد ـ في إخفاء تلك الجثث المنتفخة، أو المبثوثة ولكي يظهروا بمظهر المتفانين، والحريصين على أداء العمل على وجهه الأكمل، مختصرين بذلك الوقت والجهد، فقد لجأوا إلى حفر القبور بداخل الزنازين وإلقاء من وافته المنية بداخلها، أو كل من يحاول رفع صوته ولو قليلاً.

مضى اليوم الخامس دون أن تعترك أمعاؤنا بأي شيء يمكن أن يقيم أود أجسادنا المهلهلة، آه كم هي قاسية هذه الأيام، فعلى مدى سجني الطويل، لا تحتفظ ذاكرتي بأيام أشد بؤساً من هذه الأيام، ففي الماضي كان أقسى وأعتى يوم يمضي علينا حينما يمنعون عنا الطعام ولم يكن ذلك يتجاوز اليومين، أو الثلاثة، كما أنه لم تكن هناك ضحايا تقدم للأرض بهذا الكم الهائل كما يحدث الآن. إننا نتناقص يومياً بالعشرات، وهذا ما يضايقني، فأنا أخشى أن نصبح تراباً قبل أن نمد أعناقنا في حقولنا التي أكلها الغبار بلا شك، وأخشى أيضاً أن نموت قبل أن نكحل عيوننا بأولئك الأحبة الذين تركناهم منذ زمن بعيد، ولا زلنا نمني أنفسنا بعناقهم. يبدو أن هذه الأيام لن تخلف أحداً خلفها. . إن أصعب أيام أتذكرها حينما جاءنا ذلك السجين الجبلي والذي استطاع أن يفر من بين أسوار هذه القلعة ـ عندما كانت قائمة ـ يومها ظننا جميعاً بأننا قادرون على الفرار وأخذ كل منا يهيئ نفسه لذلك حتى عادوا به وقتلوه أمامنا رمياً بالرصاص، عندها فقط ركنا لأغلالنا وجلسنا ننظم أمنية وحيدة وهي موت السوادي كي نخرج لرؤية الدنيا. وبعد محاولة فرار ذلك الجبلي قيدوا كل ثلاثة مساجين بسلسلة واحدة، ومنعوا عنا الطعام، وهددوا بحصدنا جميعاً، وأجزم أن تلك الأيام لم تكن غزيرة الدماء كهذه الأيام، كانت أصعب حالاتنا عندما تزورنا الحمى المصحوبة بالرعدة، والعرق الغزير، ولم تكن هذه الحمى لتأخذ منا كل هذه الأعداد التي تغادرنا يومياً نحو القبور.

بعد تمرد تلك الليلة، جمعونا بالفناء ووقف أمامنا أربعة من الجنود القساة شاهرين بنادقهم بوجوهنا، وكانوا يطالبوننا بأن نفصح عمن قام بقتل بعض الجنود الذين عثروا عليهم مجندلين في أماكن متفرقة، وعندما لم يُدلِ أحد منا بشيء منحونا مهلة قصيرة، بعدها هددوا بإطلاق رصاصهم عشوائياً ولتصب من تصيب. ومضت المهلة دون أن يتقدم أحد منا بذكر من قام بتلك المجزرة تحت جنح الليل، فانطلقت الأعيرة النارية مخترقة الصفوف ومخلفة عشرين قتيلاً، واكتفوا بهذا العدد كترهيب لمن توسوس له نفسه بإحداث شغب ما، وهشونا أمامهم كالأغنام، ومن مات له رفيق يشاركه في سلسلته طلبوا منه

البقاء كي يخلصوه من جثة رفيقه ويمنحوه رفيقاً جديداً، ولا أدري من أين أحضروا هؤلاء المساجين الجدد، وإن سمعنا فيما بعد بأنهم من قبيلة المحاسنة، وقصتهم كما نقلها أحد السجناء نقلاً عن واحد منهم، وتناقلها الآخرون أثناء التبرز بالخلاء، يقولون:

ـ قَدِم إلى قبيلة المحاسنة الجابي، وقد كانت أيامهم عابسة، ولم يزرعوا لقحط ضرب أرضهم، فأفهموا الجابي بذلك، بل وقادوه إلى أراضيهم البور، وطلبوا منه إبلاغ السوادي بذلك على أمل أن تسقى أرضهم في السنة المقبلة، ويوفون بالإتاوة، ويبدو أن هذا لم يرق السوادي فأمر رجاله بأن يقودوا كبار رجال قبيلة المحاسنة، وأن يأتوا بهم أذلة، وأن يكون ذلك على مرأى من قبيلتهم، وعندما ذهب رجال السوادي إلى هناك، وجدوا أن الأمر لم يكن هيناً كما تصوروا، أو كما صوره لهم السوادي، فقد حدثت مذبحة كبيرة ذهب ضحيتها الكثيرون من الفريقين، وما إن علم السوادي بذلك حتى هيأ مجموعة كبيرة وسلحهم، وأوصاهم أن يعودوا بكبار قوم المحاسنة سحباً، وقد تمَّ له ذلك.

كان الجنود مهيأون لحصدنا إن تقدمت جلجلة قيودنا باتجاههم وقد فطنا لذلك، فسكنت أجسادنا وأسرعنا بالجلوس كما هي العادة حين نريد إفهامهم بأننا نرضخ لأوامرهم، فتقدمت مجموعة من الجنود وأنهضوا بعضنا بكعوب بنادقهم ودفعوهم لداخل القلعة ونهضت البقية الباقية مقتفين أثر أصحابهم.

كانوا يدفعوننا أمامهم كالأغنام، وكنا نحمد اللّه على سلامتنا من تلك الطلقات الطائشة ونترحم على الذين فارقونا للتو.. أصبح سجننا برحة واسعة جداً، فمع مرور الزمن تخلت القلعة عن جبروتها الصارم وتهاوت جدرانها، وبعض أسقفها فكنا نجمع في مكان واحد، وننام فوق بعضنا لكثرة الأجساد المقذوفة بهذا السجن العتيق، وما إن بلغنا أماكننا حتى انهار أحدنا وأخذ يصيح بصوت مرتفع، ولا زلنا نهدئ عليه، وكلما فعلنا معه ذلك زاد هيجانه، وفجأة صرخ بأعلى صوته:

ـ لم يصبنا هذا العذاب إلاَّ بعد أن انضم إلينا ابن الشاقي، والمجنون، وموتان.

وتنافست الأصوات بين مؤيد، ومعارض، ولم يسكتها عن ذلك إلاّ تعبها، أو سقوط بعضها أجساداً ميتة، وكلما سحبت من بينهم جثة تطلعوا إلى بعضهم بانكسار ذاوٍ دون أن يجرؤ أي منهم على تحريك شفتيه، فسكن الصمت أفواههم، وعندما جاء الليل وغادرنا الجنود، ارتفع صوت عبده راجح قوياً وحازماً:

ـ لا تركنوا للموت تحركوا صوب الغرفة الشمالية المغلقة والتي تقع بالحصن الصغير، وإياكم أن تغادروا بابها قبل أن تنجلي غمتكم.

فتصايح المساجين:

ـ أي غرفة تعني؟

ـ تلك التي حدثتكم عنها.

ماجت الأجساد وهي تنتزع قاماتها من بين السلاسل الثقال محدثة جلبة عظيمة، جعلت محروساً يقفز من متكئه لاعناً كل شيء، تاركاً ربع ربطة قات «جحاشة» لم يمسسها بعد وحمل اتريكاً وحرض العسكر للتأهب وانطلق، ومن خلفه سار بعض نفر لم يستكملوا ارتداء ملابسهم، وحينما رأى المساجين متجهين بخطوات وئيدة صوب الغرفة الشمالية، صاح بمن معه:

ـ عمروا بنادقكم، وصيحوا بحراس الأسوار.

وأطلق صفارته فتقافز لها جميع العسكر الذين أووا إلى مخادعهم، وحينما استوثق منهم أمرهم بتشكيل صف يحول بين تقدم المساجين والغرفة، وأن يسرحوا عصيهم، و«قيشهم» بين تلك الأجساد المتراصة، الزاحفة، وكان الألم أقل من أن يوقف موجة فاض بها بحر الغضب، فاندفعت بجنون صوب شاطئ لم يبد منه إلاّ المدى. كانت تلك الأجساد تتسلق صوت شبرين المرتفع فوق جلجلة القيود، وصلصلة السلاسل، كانت أهازيجه تقرب لهم نافذة الضوء، وبينما كانت خطواتهم الوئيدة تقترب كان محروس يقف فاتحاً فمه بدهشة، وعاجزاً عن إعطاء أوامره لجنوده بإطلاق النار، فتراجعت صفوف العسكر، مفسحة مسافة إضافية لأن تتقدم تلك السلاسل، فجأة ظهر السوادي، ممتطياً بغلته البيضاء، وحاملاً رشاشاً أفرغ عبوته الأولى في ظهور

الأجساد المتقدمة، وحينما رأى البقية تحرص على التقدم زأر بصوته:

ـ وعزة الله لو لم تتوقفوا لأحصدنكم جميعاً.

فتخاذلت بعض الخطى عن مواصلة السير ودب الرعب، وتسامق الخوف القديم في الأفئدة، وحينما رأى السوادي ذلك التراجع، والصمت المطبق، وقف خطيباً بينما كان محروس يحمل «اتريكاً» أظهر من خلال ضوئه كم كان السوادي ضارياً، وقاسياً، كان وجهه شديد الحمرة، وعيناه تنضحان بغيض عظيم، وأنيابه البيضاء المسنونة تأز بالكلام أزاً، وكلماته تتساقط كالحجارة:

ـ. . . إن الشيطان ليوسوس لكم بالموت، وقد رغبت أن أراكم تتمنون الموت فلا تظفرون به، وتتمنون النور فلا ترونه، أما وأنكم قد أردتم بلوغ هذه الغرفة فإني جاعل من أجسادكم عتبة واحدة لبابها، وإني أعيذكم أنفسكم، أما والله فإني أعلمكم بمن دلكم على طريقها، وأعدكم أن تكون نهايته قبل بدايتكم.

واختتم خطبته بإطلاق عيار ناري في الهواء، واندس في الظلام مخلفاً جثثاً وأنات باردة.

في الصباح انطلق الجند يوزعون كسرات خبز ناشفة، ولبناً أفسده الماء فلم يتبق منه إلاَّ لونه، وقليل منا حظي بـ (ويكة)(*)، وكان محروس يسير رافعاً صوته بيننا:

ـ لم نقطع عنكم الطعام إلاَّ لقحط ضرب القرى أجمعها، فإياكم والتذمر.

فرفع أحد أفراد قبيلة المحاسنة صوته الذي ضاع بين تلك الهمهمات القاضمة للخبز الناشف:

ـ الآن تقولون القحط ضرب القُرى أجمعها، فأينكم حينما أخبرنا سيدكم بذلك؟!

(*) ويكة: هي نبتة تنتشر على جنبات الحقول وهي زاد المعدمين وتشبه كثيراً الرجلى.

أخذ السجناء يلتهمون ما يقدم لهم غير عابئين بأقاويل محروس التي بدت لهم أكثر فجاجة مما مضى. . لا شك أن ثمة شيئاً ما حدث، فقد قام الجنود بإخراجنا في طوابير متعددة، وقادونا نحو الخلاء لقضاء حوائجنا، وقام البعض منهم بردم الأماكن التي كنا نتبرز فيها، وهم يلعنون، ويختلقون الشتائم البذيئة لإلصاقها بالمساجين. وقد بلغ تسامحهم حداً مريباً، فقد أمر محروس بعض جنده بعزل كل سجين في سلسلة واحدة، كان هذا كفيلاً بجعل بعض المساجين يتساءلون عن سبب هذا التغير المفاجئ، صحيح أننا لم نحظ جميعنا بهذا التسامح، ولكن يكفي ما حدث لكي نشعر بقليل من الفرحة، فحينما تقدم الجند من بعضنا لعزلهم ظننا أن هناك نيَّة مبيتة لقتل هؤلاء المعزولين، ومن خبث الجنود أنهم كانوا يستشيرون السجناء، ومن طلب أن يعزل عزل ومن رفض ظلّ لصيقاً بزميليه، حدث ذلك ليلاً، وعندما تهامس بعض المساجين بأن من يعزل مصيره القتل في صبيحة تلك الليلة، هاجت تلك الأيدي التي انطلقت وحيدة، وطالبت مرة أخرى بأن تُعاد مع أصحابها في سلسلة واحدة، ولكن مطالبتهم لم تجد أذناً صاغية حيث كان العسكر يستعدون للعودة إلى مخادعهم، وعندما مضى الوقت على هذا الحال، ندم من لم يطلب سلسلة مستقلة.

يبدو أن ثمة ذعراً هائلاً يمور بداخل القرية، فقد تسربت رائحة تلك المذبحة إلى مسامع الأهالي، فخرجوا زمراً صوب الخلاء علهم يلمحون من نجا من الموت، إلاَّ أن الجنود احتشدوا عند مفترق الطريق المؤدي للقلعة ومنعوا كل من حاول التوجه أو السير بمحاذاتها، فعادوا يجرون حزنهم، وقد تمادى بعضهم وأقام سرادق للعزاء، وأقامت طائفة أخرى صلاة الغائب ترحماً على من حصدتهم بنادق العسكر ـ هذا ما سمعناه من عمر مهدي ـ، وقد تمكَّنت فئة من التسلل خفية عن أعين الحراس، وبلغت القلعة، وترقبوا خروج المساجين، ومع تقاطرهم رفعت بعض النسوة أصواتهن بنحيب حار، ليتراكض الجنود الجبالية وعمر مهدي، وقد افتعل الجندي هذا العراك لكي يطلق أيدي زملائه بإلقاء «هراواتهم» على تلك المجموعة التي تسللت إلى هنا، فسال دم غزير بين الأهالي، وانسكبوا يجرون بعضهم بعضاً حتى أن بعضهم

حمل وأنفاسه تتأرجح بين الحياة والموت، وقد حرص الجندي الجبلي على اصطحاب عمر مهدي معه إلى القلعة ليكون ضيفنا الجديد، وقد تنبه المساجين لهذه الفعلة، فعادت حمحمتهم أكثر ارتفاعاً، مما جعل محروساً يأمر الجند بتصويب البنادق إلى وجوه المساجين، وأخذ يحصي كل مجموعة على حدة، ويدفعهم بعجز بندقيته لداخل القلعة، وحينما عبره عبد اللّه الشاقي، وموتان، ودرويش، استهانت هذه المجموعة به، فلكز عبد اللّه بعقب البندقية، ليسقط على الأرض جاراً زميليه نحوه، وبقي لسانه يطلق الشتائم، ويعيره بحليمة، مما أغاظه كثيراً فتقدم نحوه، ـ وهو لا زال يحاول النهوض بمساعدة زميليه ـ ووضع حذاءه في بطنه، وفركها بقوة، فيما كان لسانه يلهث كلسان كلب عقور، وصاح مسعوراً:

ـ أستطيع أن أقتلك الآن يا وغد.

فارتفع صوت شبرين من بين المساجين:

ـ يا سيد العسكر. . أنت كريم حليم فتغاض بكرمك وحلمك عن سفاهته.

تراخت قدم محروس، وتطلع لشبرين بود:

ـ سوف أسامحه من أجلك أنت. . أنت فقط.

وزجر عبد اللّه بحدة:

ـ إذا لم توقف لسانك عن انزلاقه الدائم سأجزه لك نهائياً.

كان درويش على وشك أن يطلق لسانه، إلاّ أن شبرين قد توسطهما دافعاً درويش، وصاحبيه إلى الأمام، وملاطفاً محروس بكلمات عذبة. ولا يعلم أحد ـ بالتحديد ـ كيف استطاع شبرين اجتذاب محروس، وقد بلغ التآلف بينهما إلى الحد الذي جعل محروساً يدمن غض النظر عن أفعال كثيرة تصدر من المساجين، وحينما يهم محروس بتطبيق أشد العقوبات بأحد السجناء، يدخل عليه شبرين متوسطاً وطالباً العفو للسجين فيستجيب محروس لتلك الوساطة ويتسامح، أو يتناسى، وكأن شيئاً لم يكن. . الغريب أيضاً أن محروساً لم يعد يثور لأتفه الأسباب، أو يندفع كثور أحمق عند سماع أي شتيمة

توجه له، أو تمس زوجته، وأصبح يمازح المساجين بنكات رائقة ويتلطف معهم إلى الحد الذي جعله يحرص على تقديم الطعام في أوقات محددة، وبكميات وفيرة، لقد أصبح شخصاً أليفاً، ودوداً!!

وقد فسَّر أحد المساجين تغيُّر محروس بأنه مكيدة من مكائد السوادي، ولكن هذا التفسير لم يجد أذناً صاغية، وكان البعض يقول:

ـ الأهم أن نستمتع بهذا الانفراج قبل أن تقطع رقابنا.

والحق يقال إن شبرين هو خلف هذا التغيُّر الذي طرأ على محروس، فمما لا شك فيه أن شبرين لم يشتم محروساً طوال تواجده بالسجن بل على العكس تماماً، كان كلما أمعن محروس بالتنكيل به ازدادت ابتسامته اتساعاً، وبادله الشتمية بإسداء الألقاب الفخمة عليه، وفي إحدى المرات دفعه ببندقيته، وهو يحقره، ويذكره بجريمته التي قادته للسجن:

ـ يا لك من رعديد، نذل تستخدم قوتك لقتل امرأة، ومن هي؟.. ابنة عمك.. عرضك.. ولم تكتفِ بهذا بل قمت بالترويج لمنكر، هنا لن تستطيع مد يدك وسوف أوصي كل العسكر بأن يبصقوا عليك صباحاً ومساء لتشرب من بصاقهم خمرتك المعتقة.. يا ساقط.

وبصق في وجهه ودفعه برجله، فبكى شبرين، وتناشج ـ وهي المرة الأولى التي يخور فيها كغلام حدث ـ ثم رفع رأسه:

ـ آه يا محروس... أنت تعلم كل شيء ويكفيني أن تعذب بهذا العلم.

ومضى يجر قيوده بصمت، بينما وقف محروس مرتعداً، حتى إذا تمالك نفسه تبعه بشتائم غليظة، في حين كان شبرين يغني بحرقة.

قبل هذا التغيُّر العجيب كان محروس يثور، وتنتابه حالة من الهيجان الأرعن، فينطلق صوب من أثاره بحنق، ويضربه بأي شيء يقع في يده أثناء انطلاقته، ولم يكن أحد من السجناء يقدر على دفع هيجانه، فيتحملون قسوته، ويمنحونه شتائمهم علناً، والوحيد الذي كان يتحمل ركلاته وصفعاته بهدوء فاجع لم يكن سوى شبرين، وقد تنز منه جملة مقتضبة، أو يمدها بحنو، فمثلاً سمعته في إحدى المرات ـ بينما كان محروس يجلده بعنف

وقسوة ـ يغمض عينيه بألم، ويخرج الكلمات بهمس حاني:

ـ أعلم كم تقاسي يا صديقي.. اضرب لعل ضربنا يريحك، وتأكد بأنني لا أحقد عليك.. هيا أخرج كل حزنك في أجسادنا!!

ساعتها نشط محروس كمن يتهيأ لإنجاز عمل خارق، أو كمن ينتظر جائزة سنية لإتمام عمل مقدس حتى إذا أفرغ لهاثه، تهاوى بجوار شبرين يحدق بالفراغ ويئن بحزن، يومها لم يترك شبرين كبقية السجناء معلقاً من يديه بسارية الفناء، بل نهض ورشه بالماء وأطلق يديه، وقاده بنفسه إلى الداخل، ولم يتكلم أي منهما بشيء ومن عادة شبرين أنه كان يتلقى ركلات، أو صفعات محروس ولا يتفوه بكلمة نابية، بل يترك صوته يمتد بغناء شجي يفتت القلوب، بعد ذلك لا أحد يعرف كيف تطورت علاقتهما.

في إحدى العصارى فوجئ المساجين بمحروس وهو يحمل (قعادته) وراديو قديم «ماركوني» وقرف قات (عيباني)، ويتوسطهم، وبعد أن نشر القات بين المساجين، أصلح متكأه بحيث يكون مقابلاً لهم تماماً، وأخذ يجاذبهم الحديث، وينقل إليهم أخبار القرية.

كان حدثاً دمعت له أعين السجناء القدماء، ولم يدرك هذه النعمة حديثو الدخول إلى أسوار القلعة.. نعم نعمة أن تتصالح مع جلادك، أو أن يتغاضى هو عن جلدك وتقريبك من شدقي القبر.. تلك الليلة لم ننم فقد شغلنا أنفسنا بالحديث عن هذا التغيُّر الذي جعل حياتنا هنا أقل خطراً ـ بكثير ـ عما مضى، وعاد حلم الخروج يراود أنفسنا القديمة... صحيح أن الليل يصبح فيه العسكر ذئاباً جائعة، ولا يتوانون عن الفتك بأحدنا إن هو حاول اختراق هذه الصرامة، بما فيهم محروس نفسه، وقد فسَّر أحدنا هذا التقلب بأن السوادي يكون قريباً منهم في الليل، فقد رأى بغلته مسرحة تسير بالقرب من زنازيننا بدون «شد» في الليلة الماضية، ولم نبحث سبب تغيُّر معاملتهم لنا أثناء الليل، وأصبح كالمتفق عليه بيننا وبين العسكر بأن لنا أن نمارس ما نشاء بالنهار، وإذا جاء الليل أسلمنا أطرافنا للقيود والسلاسل. سرى هذا الاتفاق دون أن يتفوه به أحد من الطرفين.

دأب محروس على «التقويت» قريباً منا، فكان في كل عصرية يأتي حاملاً (قعادته)، وإن استطاع دبّر للبعض منا غصناً، أو غصنين، ولعدم تمكّنه من إحضار تخزينة للجميع اتفق معنا أن يشاركه تخزينته ـ في كل يوم ـ اثنان من المساجين، فكان ما إن يحلّ الأصيل حتى يتخذ متكأه، ويناشد شبرين أن يغني لنا، فيستجيب له، ويرفع صوته المتحشرج ببحة الحزن ويغني:

قدلت لك بمقلب وانته ما تشنه

شاموت يا مزينة وعند قبرك يزرعنه

ولو بشر وصى الخلايق يحشنه

ذاك دمع امعين جرى وادى والناس يغرفنه

ولو حن لك امدم حسك تكسرنه

ذا امهوى في امحشا انزرع

له يمزينة بشفرتك موتنه

توقف شبرين عن الغناء حينما لمح عين محروس تفيض بالدمع، وفمه يطلق تأوهات حارة، ويسحب كم مدرعته ليمسح قطرات مالحة تساقطت من عينيه، وفجأة فز من متكئه صارخاً بأعلى صوت:

ـ الحياة بداية الموت!!

وركض مهرولاً ومبتعداً عن المساجين. عاد في المساء ذابلاً محتزماً بندقيته، وحاملاً فانوساً أضاء جزءاً كبيراً من زنزانتنا، وجذب شبرين إلى مكان قصي منها، وجلس يجاذبه الحديث، كنا نلمح شبرين يضمه بين الحين والآخر، وهو يرتعش كعصفور ذبح للتو، وأحياناً كان يصلنا نشيجه وصوته المبحوح:

ـ لم أكن أعرف!!

فيهدهد عليه شبرين برفق، وقبل أن ينهض قال له:

ـ الحياة لا تعود مرتين، ومن الخير أن تعيش مرفوع الرأس لا أن تدفنه بين القاذورات.

وكجندي يقف أمام قائده شد محروس قامته، وتحرك بخطى واسعة

متناسقة صوب باب الزنزانة، ونادى ـ صارخاً ـ بأحد العسكر كي يناوله مفاتيح القيود، فظهرت على سحنة العسكري علامات الدهشة، والتي ازدادت مع صراخ محروس:

ـ ألم تسمع. . ناولني المفاتيح وأغلق فمك الذي يسيل بالغباء.

ناوله المفاتيح وهو لا يزال رافعاً حاجبيه، ومطلقاً دهشة من خلال فمه الفاغر.

انثنى محروس فاكاً قيودنا، وخرج منتصب القامة بعد أن أطلق ابتسامة واسعة في وجوهنا، ولأول مرة ننام دون قيد يعيق تحركاتنا الثقيلة أثناء النوم، وقد غط بعضنا في نوم ثقيل دون أن يجبره أحد من الحراس على الاستيقاظ.

والذي عرفته أنه قضى ليلته يتحدث مع شبرين حتى الشروق.

أمضينا هذا اليوم بعيداً عن صلصلة القيود، ونبت أمل أخضر في قلوب المساجين القدماء، وقد أطلق بعضهم زفراته وأمنياته في وقت واحد.

ـ آه كم هو حارق هذا السجن. . هل يمكن أن أعيش بعيداً عنه في الغد القريب!!

فصاح به رجل تقوس ظهره وذهب بصره:

ـ السجن في داخلنا متى ما خرجنا منه اكتسبنا حريتنا.

فصاح درويش:

ـ أنتم تتكلمون عن أحلام. . لا يمكن أن يصلح حالنا إلاّ بموت السوادي.

فجأة صمت الجميع مذعورين وأووا إلى أعماقهم يوسوسون لها بما يختلج في رؤوسهم وصمتوا تماماً عن أي تعليق على ما قاله درويش.

فصاح ثانية:

ـ ألستم سجناء، فلماذا صمتّم وكأنكم بلا ألسن، أتخافون الموت؟! إنه يعبركم يومياً. . فلا داعي إذاً لخوفكم. . وإذا أصررتم على هذا الوضع فلا داعي لنثر أحلامكم على مسامعنا.

ضحك عمر مهدي كثيراً وعندما أنهى ضحكته، قال:

ـ كنت أسمع عنك.. وأمسكه من (مدرعته) وهزه هزاً عنيفاً وهو يصيح:

ـ أمثالكم يعيقون تدفق الماء في مجراه.

وألقى به على الأرض، فنهض مندهشاً، وعاود الضحك، والسخرية بدرويش:

ـ أي ماء.. أتحسبنا وقوفاً على البئر (الحلوة).

وأحسسنا بأن درويشاً على وشك البكاء، فلاطفه عبده راجح، وضمه إلى صدره، وأبعدنا عنهما، وانشغل كل منا بنفسه، وقد تبادلنا افتلاء القمل من رؤوسنا، ذلك القمل الذي كان يسعى بها كحرس لا ينام، وفي هذا اليوم راجت حكاية مضحكة فقد انطلق حسن عبد الشريف ـ ولقد مضى على سجنه خمس سنوات بكاملها وذلك لأنه رأى زوجة سيده تغتسل عارية، ولم يتنبه لوجود سيده خلفه والذي قام بخصيه، إلاَّ أن العبد أدمن اختلاس النظر إلى سيدته كلما ذهبت للاغتسال، وفي إحدى المرات هجم عليها يريد مواقعتها، فعلم به الشريف وأراد قتله، ولكن ولياً أخبره بأن موته راحة لأمثاله، والأجدى أن يعذب ما تبقى له من عمر، ولكي يتذكر فعلته الخسيسة في كل وقت، وأشار عليه أن أفضل مكان يمكن أن يجد فيه العذاب الشديد هو القلعة، لذلك طلب الشريف ـ برجاء حار ـ من السوادي أن يقتص له من هذا العبد، ومن يومها وهو مقذوف هنا لا يفكر في شيء سوى الضحك ـ أقول انطلق حسن عبد الشريف صائحاً يجمع المساجين من حوله، ويحكي لهم بأنه وجد قملاً برأس حجاب أبو ذنب، وأن أصغر قملة في رأسه كـ (الزموح)(*) وأنه حينما أراد استخراج القمل من رأسه صاحت به أصغرهن إياك أن تفعل وإلاَّ مات صاحبك فهو يعيش على دمنا.

فتضاحك من كان حوله، مما أغضب حجاباً وحمله على قذف عبد الشريف بحجرة شجت هامته، ولم يكتفِ بذلك بل أتبعها بالسب، وتوعده

(*) الزموح: حشرة كبيرة جميلة الألوان تظهر في فصل الربيع.

بأن يضع عضوه في مؤخرته، معللاً قوله:

ـ المخصيون دائماً يحتاجون إلى أعضاء تسكت شبقهم وتعوضهم عما فقدوه!!

وعندما رأى تضاحك المساجين هدأت نفسه، وانضم إلى من كان يضمد جرح عبد الشريف، ولم يكتفِ بذلك بل عانقه، وعاتبه برفق:

ـ أنت السبب.

وتصالحا في الحال، وكان البقية يتبادلون الأدوار للحلاقة، وإزالة تلك الشعور التي مضى عليها زمن بعيد دون أن يمسها مقص مزين، وقد حصلوا على أمواس متثملة من أحد العسكر بعد أن وعدوه بأن يمنحوه شعورهم ليبيعها لأحد الصباغين، ولم يكن أحد من السجناء ليفرط بشعره بهذه السهولة، فقد كان من المتبع أن يربي السجين شعره حتى يجد مبلغاً مناسباً مقابل جزه، وقد كان العسكر يدفعون مبالغاً جيدة للشعر السمح، بينما يصيب الكساد تلك الشعور الكرداء، وقد يقوم أحد منهم بخدمة صاحب الشعر المرسل لسنة كاملة مقابل أن يحصل على ثمن شعره عند بيعه.

وبيع الشعر عادة قديمة توارثها السجناء منذ القِدم، ويقولون إن صاحب هذه الفكرة فريد بن شاهين أحد السجناء الأوائل، وكان أبوه تركياً هرب مع أمه في ذات ليلة، ويقولون إن أمه كانت جميلة تسرق اللب ولكنها كانت عاهرة، وقد ورّثت القرية العار، ولأمه قصة لا أعرفها بالتفصيل، ولكن تناقل السجناء أن فريداً ـ هذا ـ كان راعياً عند السوادي الكبير وكان يعيش في الخلاء ولا يدخل القرية أبداً، وشب وهو لا يعرف إلاّ الخلاء والأغنام التي يهشها، وكان شهوانياً يراكب الغنم، وكانت هناك فتاة ترعى على مقربة منه، وفي ذات يوم رأته يواقع نعجة ولم يتركها إلاّ بعد أن لفظت أنفاسها، فأصيبت بالرعب وإن أعجبها بطشه، فكانت تترك غنمها وتظل تراقب تحركاته، وتعترضه فلا يكترث بها، فأدمنت تعرضها له حتى واقعها، ولم تمضِ أيام طوال حتى انتفخ بطنها وعلم أهلها فجاؤوا إليه يريدون قتله فلم يقووا عليه، وتركوه بعد أن جندل ثلاثة منهم، ويبدو أن السوادي الكبير

علم بذلك فقاده إلى القلعة يرسف بأغلاله، وقد كان صاحب شعر مسترسل كفتاة، وقد أعجب أحد الحراس بشعره فأراد قصه، وما إن اقترب حتى هوى عليه بقيوده، فحُمِل بين الحياة والموت، وعندما عاد استرضاه منه، واتفقا على أن يدفع له مالاً مقابل شعره، ومنذ ذلك اليوم وشعورنا نبيعها للحراس الذين يبيعونها بدورهم للصباغة. . ولا أدري ماذا يفعلون بهذه الشعور؟

أنهى عدد منا حلاقة شعورهم وطلبوا الخروج إلى الخلاء للمرة الثانية، فوافق العسكر المكلفون بهذا العمل وقادوهم إلى هناك ـ بعد أن أعادوا القيود إلى أرجلهم، وأيديهم، تاركين أعناقهم تلهو كما تشاء ـ، كان يوماً خارج الوقت لم ننعم بمثله طوال أيامنا التي لا زلنا نعدها بداخل هذه القلعة.

في ذلك اليوم كان العسكر في حالة فوضى وقد أهملونا تماماً وانشغلوا باللعب، أو الاسترخاء، أو (التحنيب)(*) لبعض العصافير التي تحط بفناء القلعة، وشويها على نار أعدت لهذا الغرض.

مرَّ بنا العصر دون أن نلمح محروساً، فتيقنا من غيابه لتشاغل العسكر عنا، ولقد ندم بعضنا لأنه لم يفكر في الهرب في هذا اليوم. . وقبل أن يمد الشفق أذرعه لذاك الخلاء الموحش كان محروس يقتعد شبريته، وبيده بندقيته القديمة، يزيتها ويهز رأسه على صوت شبرين:

فاستوقفه محروس بود:

ـ يا شبرين أريدك أن تسمعني أغنية. . مالك يزينة عني رحلتي.

فاستجمع شبرين أنفاسه، وأطلق صوتاً أكثر عذوبة مما مضى:

شـــاجـــي بـــليل امـــزهـــب(**)
كـــحـــلـــة ليعـــونـــك وبـــس
واقـــطـــف فـــروع امـــســـكـــب
تـــأقـــع بـــحـــالـــك حـــرس

(*) التحنيب: صيد العصافير ويتم ذلك من خلال أداة تصنع من أغصان الأشجار بشكل معين.

(**) للشاعر علي الأمير.

واخــــضــــبــــك دم قـــلـــبــــي
واســــــهــــــرك لمفـــــلـــــس
واوســــــدك مـــــهـــــجـــتـــــي
إن ريــــت وجـــهـــك نـــعـــس

هذه المرة كانت عين محروس تهطل بالدمع، فمسح عينه بالخرقة نفسها التي كان يزيت بها بندقيته، وشد بندقيته على ظهره، وخرج من بوابة القلعة يحث الخطى.. في المساء جلسنا متجاورين، وكانت نفوسنا متقاربة، نتوق لشيء واحد.. هو الخروج من هذه القلعة، وقضينا الوقت نسرد الحكايات.. فحدثنا عبده راجح فقال:

لم يُبقِ لنا الزمن شيئاً نلهو به سوى أنفسنا.

عبده راجح

كان ليل ومطر وحرقة «صابية» بالفؤاد، ولم يكن هناك سوى الوحشة وأنين متقطع لسيدة أدمنت الألم والنشيج، وتبقى صوتها يجوب القلعة بحرقة محدثاً دوياً فاجعاً يقطع نياط القلب، فما إن يبدأ النشيج بالارتفاع حتى يتقافز الحراس إلى مخادعهم خوفاً من صاعقة تصيبهم أو من سقوط العذاب بغتة.

يقولون:

ـ إن النشيج ارتفع ذات ليلة فاهتزت الأرض، وارتجت القلعة وتساقطت الحجارة، وفرت الدواب من (مطارحها)، وتدلت من السماء خيوط حمراء تبعها رعد وبرق أغشيت له أعينهم، وسمعوا صوتاً يصرخ فيهم:

ـ من لا يرحم لا يرحم.

وبعد انقطاع الصوت ظلوا لا يسمعون شيئاً، فتراكضوا صوب مخادعهم لا يلوون على شيء وانهمك البعض منهم في الاستغفار والتسبيح، ومضوا ليلتهم ينتظرون العذاب ولم يصدقوا رؤية الصباح حتى انطلقوا يخبرون من يصادفهم عما حدث في تلك الليلة وقد أقسم البعض برؤية شيخ وضاء الجبين يتهادى صوب الغرفة الشمالية، وهو يردد:

ـ سيموت الحرث والنسل، حتى إذا جاء الموت والسيل نهضت فيكم الحياة، ساعتها تنادوا أيكم يكفل صبياً في وجه الموت.

وأكد البعض أنهم سمعوا صوتاً يتلو القرآن ويردد:

ـ انطفأت النار، وعاد النور فلك الحمد في الآخرة والأولى.

وغدت القلعة لا تتحدث إلاّ عن ذلك النشيج وأصبحوا يترقبون عذاباً يحلّ بالقلعة فأهمل الحرس كل شيء، وتسلل بعضهم هارباً إلى خارجها، وما إن بلغ ذلك السوادي حتى أمر جنده بأن يصوبوا بنادقهم على كل من حاول الفرار. في تلك الأيام قتل الكثيرون وكانت تترك جثثهم للكلاب والريح فانتشرت روائحهم النتنة وحلق حولها الغربان والحِدآن وأقسم بعض الحراس أنهم لمحوا ذلك الشيخ الوضاء يخرج من باطن الأرض ويهش عنهم الغربان والحِدآن ويطيبهم ثم يمضي مردداً:

ـ هشوا ظلمة الليلة بمصابيحكم.

وقد لجأ الحراس إلى مخادعهم حين أوى الليل وبقوا منصتين للنشيج وهم يتضرعون أن لا يصيبهم العذاب، وعندما استشعر السوادي خمول الحراس أرسل عيوناً تترقبهم، وتحصي تحركاتهم، إلاّ أن هذه الأعين كان يصيبها الذعر كلما سمعت صوت النشيج الحارق. ساعتها قرر السوادي أن يستعين برجال قدت أفئدتهم من صخر ووقع الاختيار عليَّ وعلى زيلعي واكتشفنا أنه يريدنا أن نوزع الموت على أهالي القرية فخرجنا عليه وأخذنا ننتظر أن تمتد يده إلينا وعندما مللنا انتظاره تحركنا إليه. وكنا نتسلل لداخل القلعة لنتعرف على مداخلها ومخارجها تحسباً ليوم قد نجد فيه أنفسنا بداخلها إن نحن وقعنا في شراكه، وفي إحدى المرّات اكتشف أمرنا وتعرف على زيلعي واقتص منه بأن خلع عينه وواصلت زياراتي الليلية وحيداً.

كانت رحلتي الليلية قد بدأت للتو ـ كنت فتى متهوراً لا يحسب للعواقب، كل الذي أعرفه أن قلبي لفظ الحياة وأقبل على الموت باسماً ـ وكانت البدايات الأولى لمعرفتي بتلك السيدة حدث جدير بأن أحدثكم عنه... خرجت أنا وزيلعي وكان الليل ثالثنا فتسلقنا أسوار القلعة ومضينا نتعرف على جنباتها وردهاتها، وكان الخوف يشاغلنا فيرتطم ضوء مصباحنا بتلك الجدران الحائلة المتهدمة فلا نرى إلاّ شقوقاً غائرة وطرقات ملتوية متشابهة وكنا نسير بلا هدى حتى وجدنا أنفسنا في مواجهة السوادي.. أصابنا الذعر في البدء، كان يجثو باكياً أمام سيدة لها عظمة الملوك وهيبة

الحكماء وفتنة الورود الناضجة، ولم يكن بها ضعف حيال جبروت وبطش السوادي، كان يتمرغ تحت قدميها متوسلاً:

ـ ماذا يرضيك كي ترحميني!

ساعتها قرر زيلعي أن يغرس خنجره بظهر السوادي، وقبل أن يصل إليه انزلقت قدمه وهوى على الأرض فتراكضنا قبل أن يتمكن منا، لكنه استطاع الوصول إلى ضوء عين زيلعي قبل أن نكمل مخططنا، وبعد أن رحل زيلعي بشبرين عاد حلمي أكثر خصوبة، وأكثر إصراراً على أن أتمكن من اغتيال السوادي ودأبت على زيادة القلعة وفي كل ليلة اكتشف عمق الأسى الذي نحياه فأزداد إصراراً على الموت قبل أن يأتي علينا السوادي، كنت أحمق من نملة عندما استعجلت ذلك، فبدلاً من أن أتوجه مباشرة للسوادي شغلت نفسي بأمور جانبية قادتني للفخ كطائر ترك السنابل وانقاد بغباء صوب حبيبات نثرها له قناص محترف.

لم أشعر بالخجل من نفسي إلاّ حينما قدت إلى هنا، كثير من الحماقات نرتكبها في لحظة تهور غير محسوبة العواقب. كان من الأجدر أن أعي أن المنحدرات السحيقة تحتاج لصبر وجلد وأن تكبح اندفاعك قدر المستطاع. وما دام الموت هو الوجهة الوحيدة فمن الأفضل أن يكون موتك عرساً يفتح نوافذ الفرح للآخرين كي يمدوا قاماتهم قليلاً وهم يسيرون بك صوب قبرك، ويشتاقون لاجترار سيرتك حينما تظلم الطرقات. إن الموت هو الموت فلا تموتوا كما تموت البهائم!!

قد يقول أحدكم إني أنثر المواعظ خلف العتمة.. فلا بأس، فحينما يتقدم بنا العمر نرى مساوئنا ناصعة، ساعتها لا نملك إلاّ ذرف الحكايات المملة.

قبل خمسة وعشرين عاماً اخترت الموت وعزّ اللقاء، فكلما تهيأت لملاقاته يعبرني غاض الطرف، ويمضي الانتظار عبثاً، وبقي يرمقني طوال هذا الزمن المديد وأنا مكبل في أغلالي دون أن يقبض هذه النفس.. أليس من الظلم أن تعيش ميتاً!!

ماذا يعني أن يكون لك أبناء وأحفاد لا يعرفون تفاصيل وجهك.. ولا يميّزون لونك.. ولا يشمون رائحتك.. ولا ينتظرون أن (تضوي) إليهم في المساء.. ولا يشتاقون لأن يقبلوك.. كل الذي يعرفونه أن لهم أباً أو جداً مقذوفاً خلف هذه الأسوار العالية.. لا شك أن حفيدي ـ الآن ـ يظن أن جده هو هذه القلعة!! تعساء نحن بهذه الحياة.. وأكثر تعاسة بقلوبنا التي نحملها معنا أينما اتجهنا.. أليس من الأفضل أن نعلق حجارة في صدورنا ونمضي؟.. عندها سنكون أكثر قابلية للموت، وأكثر استعداداً للقسوة، وأكثر احتمالاً لهذه الحياة.

وإلاَّ فماذا يعني أن تعيش تحت نظر جلادك ـ كل هذا الزمن ـ ويده تهوي على جسدك فلا تمل اليد، ولا ينتهي الجسد.. ماذا يعني أن تكون عالماً بخبايا الأمور ولا تستطيع أن تنقل أدناها لبعوضة.. ماذا يعني أن تمضغ حلمك القديم كل هذا الوقت وأنت لا تستطيع أن تبرح عين حارسك؟

ثمَّة أمور تسير خارج نطاق قدرتنا، وتظل تجاهد في أن تكون أو لا تكون!.. هذا الشعر الأبيض احترق هنا.. وهذا القلب المكدود تفتت هنا.. وهذا الجسد البالي تمزق هنا.. فهل كان باستطاعتي أن أختار مكاناً آخر؟.. وربما نعم.. ولكن هناك أمور تنزرع فيك.. كوجهك.. كلغتك.. كلونك.. لا تستطيع مغادرتها، وإن استطعت فأنت لست أنت.. لأنك أصبحت قادراً على الانحناء، تخفض رأسك، وتمد يدك ولسانك بتبجيل من وطأ هامتك.. شيئان لا يقبلان التغيير.. الموت والحياة.

يبدو أن حديثي يقودكم إلى تساؤل عن هذا الشيخ الهرم الذي يذرف المواعظ كيف شاء، وكأنه قد أحاط بكل شيء علماً، وقبل أن يرد شيء من ذلك إلى خواطركم أقول لكم:

إن الشجرة العتيقة أكثر دراية باتجاه الريح وقد قرض هذا الريح أيامنا ولم يعد أمامنا إلاَّ أن نحصي أوراق العمر المهدور ونعلق مصابيح كلماتنا في الطرقات، وليس مهما أن تعرف كل شيء، والأهم أن تعرف محيطك، وقد تعرفت عليه من وقت مبكر، لذلك خلعت ثوب الحياة من وقت مبكر، وحملت كفني، وتقدمت.. لكن السيد الموت كان يغيب دائماً، ويتركني على

قارعة الطريق أنتظر مجيئه، وكلما أبطأ أمعنت في ترصد السوادي. . ولأبدأ معكم من ذلك العهد البعيد:

كنت فتى غضاً، وكانت الحياة بالنسبة لي عشة، وحقل صغير، وامرأة آوي إليها، وما عدا ذلك لا يعنيني من قريب أو بعيد. في تلك الأيام كانت أمتلك جسد ثور معافى، ولكي أحقق حلمي الصغير كنت «أبرح»(*) الآبار، وكان ما يصلني من أهل القرية عبارة عن حبوب أبيعها في السوق، وأقتات جزءاً يسيراً منها، وأدخر الباقي علني أتمكن من شراء حقل صغير، فجأة شحت المياه فكنت أخرج للخلاء وأضرب بمعولي وأعمق الحفر فلا أجد الماء، فأعود حسيراً وأبيت طاوياً، وقد لجأت لمدخراتي أقتات منها. في تلك الأيام كانت عيون السوادي مبثوثة في القرية ـ كعادتها ـ وكان هدفها هذه المرة جمع الرجال الأشداء، وإلحاقهم بخدمة السوادي مقابل أجر يومي يفوق كل الأجور الموجودة في الحقول، أو الآبار، أو السوق، وعندما امتنع أهالي القرية عن الالتحاق بالخدمة ساقونا إليه قسراً وعرضونا عليه في صف طويل، سمعنا أنه يريد ذوي الأجساد الجبلية كي يعمد إليهم بالمهام الشاقة، والتي تتطلب بأساً وقوة. يومها اختارني أنا وزيلعي وكانت هذه بداية صحبتنا.

كان يعاملنا كثورين، ففي أوقات كثيرة يطلب منا أن نتصارع أمامه ليعرف أينا أكثر بأساً وقوة، في بادئ الأمر استجبنا لطلبه، وقد أمضينا في هذا الصراع العقيم وقتاً طويلاً كان يطيب للسوادي أثناءه أن يكركر حتى تمتلئ عيناه بالدمع، ويتركنا وهو لا يزال يقهقه بشدة، وقد أضمر كل منا لخصمه العداء وأخذنا نتربص ببعضنا وكل منا يحاول أن يمضغ قلب الآخر، وما إن تطأ أقدامنا حلبة الصراع حتى نبدأ البحث عن دماء بعضنا كي نرضي صيحات السوادي المتعالية. في كل يوم كنا نخرج من صراعنا والدم متلبد على قمصاننا البيضاء وما إن يغادرنا حتى نخر وليس بنا حراك. في ذات يوم كدت أموت تحت قبضة زيلعي كان يعصر رقبتي بقوة، ولم يعد يبدو مني

(*) أبرح: استخرج الماء.

سوى جحوظ عينيّ ورفسات مُرَّة أقذفها في الهواء بيأس، كان عرقه يتصبب بغزارة، وأنفاسه اللاهثة تستعجل إخماد عروقي النافرة، رأيت الحياة من خلال صوت امرأة تصرخ فيه:

ـ أتقتل رفيقك من أجل ضحكة يطوح بها السوادي في الهواء؟

تلاشت يده من على رقبتي، ونهض بتثاقل، لألمح رجال السوادي يركضون صوب تلك المرأة، ويعودون يجرونها من جديلتها، بعدها لم تفلح كل محاولاته لدفعنا في صراع قاتل، وكلما أمرنا بالنزال خر أحدنا للآخر دون مقاومة، فأقلع عن عادته السمجة، وتركنا نهيم في الأحراج، وبين الحقول لمراقبة عماله، والضرب على أيدي المتسيبين أو المتلصصين بثمار الحقول و(مطارح) البهائم، وألمح لنا إن نحن أبدينا تفانياً في ذلك فإنه سيعتمد علينا في القيام بمهام القلعة بكل شؤونها، إلاّ أن تسامحنا ووداعتنا مع المزارعين جعلته يتخلى عما عزم عليه وأخذ يبث عيوناً جديدة تبحث له عن ثورين لا يعرفان سوى أن يتناطحا. وأوكل إلينا أعمال الخدم فتضخم لدينا شعور المهانة والذل وهممنا بترك العمل وقبل أن نمعن في ذلك أمر عبيده بتصويب بنادقهم علينا إن نحن أخلينا المكان.. وأما هذا الحصار أمضينا حياتنا منتظرين أي بادرة تمكننا من رفع رأسينا. ومضى العمر ونحن نتنفس ما تجود به رئتاه.

شعرت بالخوف من أول يوم عملت لديه فقد كانت عيناه تفيضان بمكر عبوس، وكلماته تتعرج فلا تمسك منها إلاّ حلماً بعيد المنال والذي دفعني للارتماء في حضنه تلك الغبطة التي سورنا بها أهالي القرية.. كانوا يقولون:

ـ زيلعي وعبده راجح أصبحا في فيء من بطش السوادي.

فنشعر بالنشوة ونسير في القرية كالعظماء وتتسع كبرياؤنا لتلك الأقاويل التي تنثر حولنا ونزداد تيهاً كلما سمعنا بأننا أيدي إضافية للسوادي والتي تمتد في القرية لإخراج خباياها الغاربة عن عيونه المتسعة.. وكان آخرون يقسمون إننا سنصبح بعد فترة وجيزة من أعيان البلد، ولم نكن نمانع من تقرب بعض الأهالي وتزلفهم وقبول أي هدية تصلنا منهم، قلّة هم من كانوا ينظرون إلينا

بازدراء ويغيّرون سيرهم إن جمعنا الطريق، ونادراً ما يفصحون عن احتقارهم لنا ـ جهاراً ـ، وينادون علينا بالذيول التي تهش الذباب عن سيدها مقابل أن يمكنها من البقاء على الجيف، وكنت أتربص بهم واحداً واحداً ـ نوار، وزوج ابنتها الشاقي، والفرنتي، والهاشمي، وعمر فتيني، وبائع القريشي ـ وكلما هممت بالبطش بأحدهم وجدت نفسي عاجزاً أمام إصراره العتيد، فأتراجع وأمني النفس بفرصة أخرى، وأمام هذه الأفواج الكبيرة من المتزلفين لم نعر هؤلاء بالاً وإن كنا نسعى لإيذائهم كلما سنحت لنا الفرصة، وأصبحنا نتيه على الكثيرين في حين كانت حياتنا السابقة لا تساوي (قطميراً) في أعين أهل القرية، وحينما أنقذني صوت نوار من قبضة زيلعي أدركت أني ثور أخرق، وشاركني زيلعي هذا الشعور حينما سرحنا السوادي من أمام بابه، وألقى بنا بين الأحراج والحقول، ساعتها انفض المتزلفون من حولنا، وشعرنا بأننا أحصنة أصابها العطب فألقيت في حظيرة رثة تجتر عزها الغابر.

ذات ضحى كنت أسير بين الحقول، والشاقي مغروساً في أرضه تحاشيته خشية أن يسخر مني ويعاود حديثه المر، ولكنه حينما رآني نهض من جلسته، وأقبل نحوي هاشاً في وجهي، ودعاني إلى (قروعه) فنكست معه ووضعت لقمة في فمي، وأخذت ألوكها ببطء وفي داخلي حجر غليظ من الحياء وعبثاً حاولت الهروب من عينيه الواقفتين على وجهي.. سأمت، فصرخت فيه:

ـ ماذا تريد أن تقول؟

قذفت باللقمة التي كنت ألوكها ونهضت غاضباً، فأمسك بيدي:

ـ لم أقصد إهانتك فلا تسئ فهمي.

نفضت يده وانطلقت راكضاً بين الحقول الممتدة على مرمى البصر بسنابلها المهفهفة كشعر حسناء أطلقت جدائلها للريح. كنت أقفز (الزبر)(*) وحرقة عاتية تشعلني فأزداد سخطاً وتبرماً بمن حولي وظللت أركض حتى بلغت زيلعي الذي كان واجماً ساخطاً من وقوفه بين الحقول كالفزعات وقد بلغ به الحنق أن خلع ملابس إحداها وارتداها ووقف بدلاً منها فارداً يديه

(*) الزبير: الزبر جمع زبير وهي مرتفع رملي يفصل ما بين الحقول.

بينما أخذ الريح يعبث بالقماش الذي يرتديه وتلك (الظلة) الممزقة. . نسيت حنقي للحظة وشعرت برغبة في الضحك، فأطلقت قهقهات عالية، فترك مكانه وأقبل نحوي غاضباً:

ـ ها أنت تضحك من وضعي الذي كنت عليه، والناس يضحكون علينا من وضعنا الذي نحن فيه، ذلك الوضع الذي لا يختلف كثيراً عن هذا.

تدفق حزني بغزارة، فحضنت زيلعي وأجهشنا بالبكاء، وقبل أن ينضب نشيجنا قال زيلعي:

ـ الموت عندي خير من البقاء هنا.

ودون أن نفكر حملنا جسدَينا وغادرنا حقول السوادي تاركين من خلفنا أصوات العبيد تهدد بحصد جسدينا المهلهلَيْن، كانت خطواتي على وشك أن تتراجع إلاّ أن جذب زيلعي لها كان أقوى من الخوف الذي انتابني من طلقات الرصاص العابر لرأسينا الحاسرتين، شعر العبيد أننا نريد الموت، وخوفاً من مخالفة قد تودي بحياتهم انطلقوا خلفنا بالصوت:

ـ إذا لم تتوقفا سوف تموتان في أماكنكما.

ردَّ عليهم زيلعي بصوت حازم:

ـ هبونا هذه النعمة!!

وانطلقنا وأصواتهم من خلفنا تعوي:

ـ عودا. . عودا.

عدنا إلى القرية ولبثنا ننتظر العذاب واحترزنا من غدره، فكنا لا نتحرك إلاّ سوياً، وفي الليل ينام أحدنا ويظل الآخر مستيقظاً للحراسة حتى منتصف الليل ليأخذ الآخر دوره في النوم. في تلك الأيام كان لدينا بعض المال اكتسبناه من خدمتنا لدى السوادي، وخوفاً من أن يصادره قمنا ـ ليلاً ـ بدفنه تحت (كداديف)(*) القرية وتعاهدنا على عدم إخراجه حتى نرى ما يحلّ بنا من غضب السوادي. . ومن غبائنا لم نبقِ في أيدينا شيئاً يقينا فاقة الجوع، وخوفاً من اكتشاف أمرنا لم نفكر في استخراجه واكتفينا بالبحث عن عمل يقينا

(*) الكداديف: مرمى تقذف به القمائم.

سخرية أهل القرية والجوع الذي أخذ يدب في أمعائنا. كانت تلك الأيام أيام بيع المحاصيل، وقد فرغ المزارعون من «نصد» حقولهم، وسرحوا كثيراً من الأيدي العاملة تجوب الأسواق بحثاً عن عمل، وفي مثل هذه الأيام ـ من كل سنة ـ تزدحم الأسواق بالباحثين عن عمل وقد يلجأ البعض منهم إلى تسخير نفسه لحمل الأواني الخزفية وبيعها في أسواق القرى المجاورة أو الاشتغال ببيع (الدوم) و(الكين) أو الذهاب إلى (المجلاب) للتحريج على البهائم ويأنفون بترفع من الخوض في أعمال (الريسة)(*). وعندما لم نجد عملاً يقينا الحاجة سخرنا جسدينا الجبليين لحمل بضائع أصحاب الدكاكين مما جعلنا محط تندر وسخرية أهل القرية.. كانوا يقولون:

ـ الأصل وما يفرع.

وقد يمعنون في سخريتهم حد القذف، وقد شاع مَثَل أطلقه علينا الشاقي ـ في تلك الأيام ـ حين كنا نئن تحت حمولة ثقيلة، وكان قادماً من بيع محصوله الذي لم يفِ بتعبه، وأراد زيلعي أن يغمزه بذلك فقال له:

ـ من الأفضل لك أن تدع الزراعة وتحمل حبلاً وتحتطب.

ضحك الشاقي وعبرنا وفمه يتلجلج، ونهضنا بحمولتنا فسقط الصندوق الذي كان على ظهر زيلعي ليتلفت إلينا الشاقي ويصيح:

ـ (يشا يصير شيخ امعقال تور عتال).

بعدها أصبحت كل الألسن تنتظر أن تطأ أقدامنا السوق حتى تردد مقولة الشاقي، وكان زيلعي أكثر مني استجابة للغضب، فتشاجر مع الكثيرين، وكنت أنهض معه في مشاجراته، فنجد الكل يقف خصماً لنا، فيزداد يأسنا حلكة. حينما خشي أصحاب الدكاكين من استئجار عاملين فرا من خدمة السوادي، ألقوا علينا بحبالنا، وسرحونا كما تسرح البهيمة، ولم يكن أمامنا إلاَّ أن نخلق لنا مصدر رزق آخر، فقمنا بحفر بئر، وركنا إليها، نأكل مما يعطينا «الورادة»(**) ـ الذين يردون بئرنا، وفي ذات صباح وجدنا البئر قد

(*) الريسة: الخدم.

(**) الورادة: الذين يردون طلباً للماء.

ردمت بجثث كلاب، ولا ندري من ألقاها، وإن كنا متأكدين من أن أعوان السوادي هم من قاموا بهذه الفعلة كي نعود للسوادي راكعين متوسلين العودة لخدمته. قمنا بأعمال عديدة إلا أن السوادي كان يقف في أواخرها ولا يدعنا ننعم بها، وأمام هذا الحصار قررنا إخراج مالنا المدفون تحت (الكداديف) للمتاجرة به وما إن جن الليل حتى تسللنا بحذر متخفين عن عيون السوادي بملابس الرعاة وأخرجنا كيس من الريالات (الفرانسة) وعدنا أدراجنا وقلبانا مسكوبان بالطرقات.

ومع الغلس كانت أقدامنا تسير صوب (المجلاب) لنبتاع لنا... عشر بقرات، وثلاثة ثيران، وخمسين رأساً من الغنم، وحمارين، وجمل، وسقناها خلسة للخلاء، ومكثنا فترة طويلة، نرعى ونهيم في البراري حتى إذا انقضت ثلاث سنوات دون أن تمتد إلينا يد السوادي أو لسانه عدنا إلى القرية آمنين ـ بعض الشيء ـ على روحينا وأنعامنا، وطلبنا الحياة متوجسين.

كنت متشوقاً لامرأة وأطفال، فأوعزت بهذه الرغبة إلى إحدى القريبات التي استأنست، وأشارت عليَّ بـ (لولوه) ابنة الحداد حُمد وقد وصفتها بثقل الجسم والعقل وخفة الدم والضحكة والصبر على المرض والتعب، فرغبت فيها وتمَّت خطوبتي لها، وقبل الزواج بيومين اشتغل الأحباب بنصب (المخدرة)(*) وتزيينها، وقد كان زيلعي يشرف على كل شيء بنفسه، حتى إذا دخل يوم العرس كنت أكثر حرصاً من أن تواجهني رصاصة طائشة أو خنجر يندس بين الأيدي المهنئة وقد أوصيت زيلعي بالحذر، فطمأنني ومضى يصيح «بالدواشنة»(**):

ـ عبده يحب الغناء فارفعوا أصواتكم به.

فارتفعت المواويل ثقيلة رتيبة، وعدت إلى داخل العشة، ماداً قدمي لقريبتي التي تبرعت «بتحنيتي» في هذا اليوم وقد خلست الحناء من قدمي ويدي ـ وهو لا يزال أخضر ـ حينما سمعت صراخ النساء ولمحت تراكض

(*) المخدرة: رواق كبير ينصب عادة أيام الأعراس أو الختان.
(**) الدواشنة: هم المداحون وغالباً ما يكونون من العبيد أو الخدم.

الرجال صوب (الكدان)(*) و(البلابل)(*) يفرغون ماءها ويعاودون الركض وأصواتهم تستحث الآخرين في طلب الماء، وقبل أن أصل كانت (المخدرة) أعمدة من فحم وألسنة من لهب.. سمعت يومها أن أحدهم دخل بـ (الكانون) لداخل (الخدرة) بعد أن صفت (المداع)(**) ليجربها قبل أن تقدم للمقوتين وقد كانت الأرض مبللة بالقاز فسقطت منه جمرة لتشتعل (المخدرة) بما فيها وانتشر خبر مفاده أن من سيحضر زواج عبده راجح سيعاقبه السوادي بالموت وقد تطير أهل العروس ورغبوا في تأخير الزواج، فرفضت وأصررت على إتمامه أو الإقلاع عنه للأبد، وجادلني بعد الأصدقاء:

ـ لن تجد (طرحاً)(***).

ـ لا أريد.

ـ لن يحضر أحد عرسك.

ـ من يخاف في الشدة يخاف في اليسر.

ـ ربما تتعرض للموت.

ـ إن تمت ليلة عرسك خير من أن تمت ليلة هربك.

وزفت عروسي في ليلة كئيبة، فقد امتنع الكثيرون عن الحضور حتى إن (الزقارات) حملن طبالهن ودفوفهن وزغاريدهن بيعداً عنا. ليلتها كان الحزن أكثر خصوبة فهممت بالبكاء لولا أن دموع عروسي كانت غزيرة وتحتاج إلى من يجففها من عينيها.. ما أصعب أن تبدأ فرحتك بدمعة.. هكذا فاتحت عروسي والتي ضمتني إلى صدرها وأجهشت بالبكاء، فشعرت بالدنيا تظلم في وجهي وتستحيل إلى غمامة سوداء ولم يكن أمامي إلاّ الارتهان لهذا الشعور المقيت.. شعور أن تصبح هدفاً لكلب مسعور كلما تنحيت عنه طلبك وإذا هممت بقذفه عقرك.

قلت لها وهي لا تزال تغالب نشيجها:

(*) الكدان والبلابل: أدوات لحفظ الماء.

(**) المداع: الشيش.

(***) الطرح: الرفد أو ما يقدم للعريس كمساعدة من قبل الأصدقاء.

ـ لم أن أعلم أني أحمل حرائق الأرض خلفي. . فسامحيني إن أنا أحرقتك بدون قصد.

فتعلقت بعنقي. . ساعتها كان الدمع أقوى من جلدي، وأمضينا ليلتنا نمسح دموع بعضنا.

بدأت حياتي قلقة، فأيقظت حرصي ولم أترك أيامي رهينة للصدفة، كنت أنام وأستيقظ وبندقيتي مشدودة على يدي ولا أنزلق لمشادات أعوان السوادي، وإن شعرت بالغضب يهزني انطلقت إلى البرية وأفرغت طلقات بندقيتي في الهواء.

في ليلة مظلمة سمعت زيلعي يصيح بي من خارج (القبل) فتوجست خيفة ونهضت لبندقيتي وعدوت، كان ضوء الفانوس يظهر ضحكته الراقصة على فمه وما إن رآني حتى طوح بها في الهواء:

ـ يبدو أنك تآخيت مع هذه البندقة.

فرددت عليه بالمَثَل الشائع:

ـ (يلي يقبصه الحنش يخاف من امطفية).

وضربته على صدره:

ـ هل انتهى قاتك وجئت لطلب المزيد من عندي؟

ـ لا. . ولكن الشهود انتهوا من هذه البلدة!. . هيا البس (مدرعتك) أريدك شاهداً لإتمام عقد زواجي.

ظننته يمزح ولكنه استحثني وأوصاني أن لا أخبر زوجتي. في الطريق عاتبته:

ـ هكذا تتزوج بالسر. أأخذ الخوف قلبك؟

ـ ألم تقل (يلي يقبصه الحنش يخاف من امطفية).

لم يكن ـ هناك ـ في انتظارنا سوى شخصين ما إن رأيانا مقبلين حتى أسرعا بالترحيب بي وإنجاز عقد النكاح ودفعا بامرأة ـ لم تكن عليها آثار عروس ـ لزيلعي الذي لم يتوان في إركابها رديفة له على دابته وخب في السير مخترقاً تلك الظلمة بعد أن أسر لي بأنه بنى عشة صغيرة في وسط الأحراج، تقيه من عيون السوادي.

لم تمضِ سوى أسابيع معدودات حتى رأيته يقف على بابي ويطالبني أن أشاركه اقتسام دم السوادي، هالني منظره الشاحب وهامته المفضوضة كبئر قديمة فاحتضنته في صدري حتى سكب ما يفيض عن حاجته من حزن، كنت أشعر بأنفاسه الثقيلة تخترق عظامي بحدة، وجسده ينتفض بارتعادات يتموج لها هيكله الناحل، لم أشأ أن أقف بينه وبين الدموع، فتركته ينفض غبار همه دون أن أجرؤ على سؤاله عما يبكيه، انتزع جسده من حضني، وكفكف دموعه، وبصوت متهدج نثر حكايته على مسمعي:

ـ إنه يريد أن يعقرنا جميعاً، تظنه بعيداً عنك فإذا به أقرب من الهواء، كنت قادراً على العيش بين الأحراج كجرذ بري مقابل أن أكون بعيداً عن عينيه، لكنه لا يستطيع أن يبيت الليل دون سماع صرخات الألم من ضحاياه، فهو يبيت مطمئناً إذا كانت جروحنا يانعة حتى إذا هممنا بتضميدها نكأها لنبقى نلملم آهاتنا وهو يرمقنا بلذة طاغية.

بالأمس فاجأتني زوجتي بنبأ استدارة بطنها، وأخذت تتوحم بـ (ترنج)(*) فشددت حماري علني أصيب شيئاً منه في سوق الخميس وكان خروجي من بين الأحراج يتطلب مهارة تجنبني الوقوع في منزلقاتها، كانت ثمة (مساني) لبائعي الطماطم والبقوليات وثمة مساني تزرع بها فواكه في بعض الأحيان تقع في الناحية الجنوبية فراودتني فكرة التعريج عليهم علني أحوز على مبتغاي بدلاً من المخاطرة باقتحام مساحة شائعة من حشائش الحلفا الحارقة، ويبدو أنني سلكت طريقاً أعمى حين ركنت لخواطري وفرحتي بمولودي القادم، فبعد أن توغلت، وجت نفسي محاصراً بأشجار (الرديف) وأصبح من المتعذر رؤية الطريق، فكنت ممسكاً برقبة حماري وأنخسه بميسم غليظ في دبره «فيبرطع» بين تلك الأشجار بدون هدي، وكنت أسمع تقصف الأشجار من بعيد، فأصرخ:

ـ يا جماعة الخير.. أغيثوني.. أنا لا أكاد ألمح الطريق.

فارتفع صوت حاد:

(*) ترنج: نوع من أنواع الفواكهة.

ـ من هناك؟

ـ زيلعي بن حسن.

ساد صمت ثقيل وتبعه تقصف الأشجار وبزغ عدة رجال ساقوني كرهاً إلى داري وحاولوا أن يقطفوا حياء زوجتي وكلما حاولت الإفلات من بين أيديهم ضغطوا على عنقي حتى إذا أيقنوا بأنني لا أقوى على الفكاك تراجعوا وصاح بي زعيمهم:

ـ حتى لا تظن أنك بعيد عن عين السوادي!

وضربني بمقبض جنبيته بعنف ومضوا تاركين لي حرقتي ودمي المتدفق. هذه هي الحكاية ولا بد لي من إراقة دم السوادي قبل أن يفرح بإهانتي.. فهل تشاركني؟

أطلق سؤاله وصمت، وبدون أدنى تردد وجدت نفسي أعاهده على ذلك، ولكنني طلبت منه أن يتريث كي نستطيع بلوغ هدفنا قبل امتداد يده إلينا، وكان ثائراً يتلظى بجرحه، فأبى ولا زلت به أداريه وأبيِّن له أبعاد مخاطرة الإقدام على سلب أنفاس السوادي دون أن نحتاط من براثنه، فوافق على مضض واشترط البدء في تتبعه من الساعة، ولخوفنا من أن نحبس بداخل القلعة ـ لأي سبب من الأسباب قبل الوصول إليه ـ باشرنا بزيارة القلعة ليلياً لنتعرف على طرقاتها ودهاليزها، وقد حملنا مناجل حادة وسربناها إلى داخل الأسوار كي نتمكن من نشر الحديد الذي سيطبق على أقدامنا إن نحن وقعنا بيده قبل الوصول إليه، ومكثنا نتربص به زمنا طويلاً.. حتى أن زيلعي كان يقول:

ـ أنت تريد أن تقبر إهانته لي في صدري كي أنسى وأنا أقول لك لن ينسيني ما حدث إلاّ رؤية دم السوادي يشخب في الطرقات.

ثم يضرب صدري برفق:

ـ يا رجل لقد ولدت زوجتي وأنا لا زلت أقسم لها أن أقتص من السوادي لفعلته الدنيئة تلك.

فأصبره ونمضي نتربص به ويتربص بنا، ولم نقطع زياراتنا الليلية للقلعة، فما إن يطأ الليل تلك الأسوار العالية حتى نتقافز إلى داخلها مستترين

بحكايات الجن، فقد شاع أن جن القلعة تخرج ليلياً لقضاء حوائجها، والويل لمن يعترض سبيلها. . يقولون إن أحد الحراس الجبالية حاول إيقاف جني في إحدى الليالي، فمسخه كلباً له وبر غزير ويؤكدون أن هذا الكلب لا زال يعمل بداخل القلعة وكلما جاء الليل يخرج ليتقلب في فنائها طالباً العفو، ويقولون إن ثمة حارساً شعر برغبة في التبول فخرج واختار مكاناً منزوياً من القلعة وتبول وصادف أن كان هناك بعض الجن تأكل فأصابها رذاذ بوله فغضبوا منه ومسخوه حجراً لا يتزحزح من مكانه ويؤكد الحراس أن هذا الحجر يتبول ليلياً ويظل بوله يشخب في سكون الليل حتى الصباح وحينما يتجهون إلى مكانه يجدون جفل بول راكد أسفل الحجر، لذلك دأب حراس القلعة على ترك فنائها خاوياً كلما أطل الليل بظلمته، وكنا نخرج ليلياً ونتمرغ بالوحل ونرتدي ملابس سوداء ممزقة فضفاضة ونضع على رؤوسنا مظلات كبيرة ونسير بانحناءات غريبة، ففي ذلك الليل لا يجرؤ عسكري واحد على المكوث بداخل هذه الظلمة العاتية، وإن رآنا أحدهم فاض به الخوف، وانطلق متمتماً بصوت مرتفع:

ـ بسم اللّه. . بسم اللّه. . يا اللّه اجعل بيننا وبينهم سداً.

وقد يتلو آيات في سره وهو يركض مختفياً بين غرف القلعة المتهدمة.

اكتشفنا أن القلعة تقوم على ثلاثة أدوار، قد تهدَّم أعلاها وبقي الدوران السفليان ينوءان بحملهما وقد انتشر التصدع بالجدران الأمامية وانبثت الجدران الخلفية من كوات واسعة وأطلت على الأحراج الممتدة. . وقد قام هيكل القلعة على ربوة منخفضة، وبنيت من طوب محروق رص بتواز مع ذلك الطوب الذي لا يوجد منه في قرى الوادي الممتدة ـ وقد كانت الطوبة الواحدة مستطيلة، صلبة لها نتوءات متعددة نحتت من جبال لم تعرفها أرضنا. كان هذا كفيلاً بجعلنا نتيقن أن ثمة حياة أخرى خلف الوادي، ولكننا أيقنا ـ أيضاً ـ أن يد السوادي ستمتد إلينا إن حاولنا الخروج من هذه الأرض، وأنه قادر على جلبنا من أقاصي الأرض كما جلب آباؤه هذه القطع الحجرية. كان الدور السفلي يهبط بك إلى باطن الأرض حيث تنام الأفاعي والجرذان والخفافيش، كنا نمد فانوسنا للأمام فنرى الضوء يتكسر على مسافة

قصيرة وتظهر عدة منعطفات أخرى، فهممنا بالولوج ولكن خوفنا من مغبة ما قد يحدث لنا، جعلنا نتراجع، واكتفينا باكتشاف ما فوق الأرض. كان الدور الأول مكوَّن من غرف متوازية واسعة تمتد على الجانبين بينهما ممر يتسع ويمتد حتى يرتطم بجدار استقر بعيداً. كانت أبواب الغرف تطل على بعضها بحيث يستطيع من يقف في آخر الممر أن يلمحك وأنت تعبر تلك الردهات التي تحولت إلى عنابر للمساجين فصاح به عمر يحيى:

ـ أخرفت يا عبده تصف لنا مكاناً نعيش فيه من أمد.

فرد عليه ضاحكاً:

ـ أستطيع تذكر اسم أمك.

فصاح به:

ـ «بلا موغادة».

كمل.. كمل.

فقال عبده راجح:

أنسيت يا عمر أن معنا أناساً حديثي عهد بهذا السجن ومن الأفضل أن أصف سجننا كما كان فتصايح بعض السجناء:

ـ أكمل حكايتك كما تشاء.

فأصلح من جلسته واستكمل سرد حكايته:

ـ .. كانت هناك أرتال من الأجساد المقذوفة بداخل هذه العنابر تتململ في نوم قلق لا ينتهي، وفي أطرافها أغلال من الحديد المثقل بالأوزان، وبعضهم علقت في قيودهم أجراس كلما تحرك حاملها في نومه (صنصنت) بصوت يثيرنا ويحيلنا إلى موجة ارتعاد.. ومع آخر هذا الممر الطويل يقف جدار شاهق يمنع الأقدام من مواصلة سيرها تاركاً للقادم حرية الانعطاف يميناً أو العودة، انعطفنا يميناً فأسلمنا معبر ضيق لدرجات ملتوية توصل للدور الثاني من هذه القلعة. هذا الدور ذكرنا بتلك الحكاية التي تنسجها الجدات عن قصور السلاطين، فقد فرشت طرقاته بأديم لين وزينت جوانبه بلمبات القاز، وعلقت في سقفه ثريات تركية ضخمة، وكانت معظم غرفه

مغلقة الأبواب تلك الأبواب المصنوعة من شجر الصندل البراق منمنمة بأشكال وزخارف دقيقة، وكانت جدران الممر مطلية بـ (رونج)(*) أملس صقيل، وعلقت بها حراب وسيوف، وبنادق مختلفة الأشكال والأحجام، وفي الزوايا المظلمة منها ظهرت رسوم ذات نتوءات بارزة لشخوص تهم بالفرار من مواقعها، في أول مرة رأيناها أصابنا الذعر ولينا الأدبار راكضين، وكنا نتطلع خلفنا فلا نلمح أحداً في أثرنا فنقفز الأسوار ونحن نحمد اللّه على نجاتنا. وفي زيارتنا التالية تكرر المشهد نفسه وبدأنا بالركض وكلما التفتنا لا نشاهد أحداً يقتفي أثرنا، فعدنا أدراجنا، وامتدت أيدينا لتلك الرسومات لتصطدم بنتوءات الوجوه وانحناءات الأجساد، مما جعل زيلعي يطلق ضحكة مرتفعة نبهت الكلاب القابعة أسفل الممر، لنتوارى للخلف سالكين ممراً ضيقاً أسلمنا لجسر خشبي ينتهي بدرجات توصل لـ (حصن) صغير أنيق البناء كثيف الأشجار تحيط به أسوار منخفضة ومفتوحة على أماكن متعددة من القلعة وقد أطلت بوابته الرئيسية على فناء القلعة من الجهة الجنوبية واستقر خلفه فناء متسع ومن جهته الشرقية تراصت عرائش وسقائف الجند.

كان الحصن كنجمة متألقة في ليلة شديدة السواد، سرنا باتجاهه بحذر، كانت «الأتاريك» معلقة في جميع زواياه، وكانت خطواتنا المبعثرة تسير في ردهة واسعة زُيِّنت بكل ما هو نفيس. كانت ثمة غرفة تشي بتفردها من بين غرف الحصن، فبابها قُدَّ من خشب العود ومزاليجها لها لمعة الذهب، وفاحت منها روائح العنبر والبخور الجاوي، ارتقينا درجتين فأصبحت عيوننا تفضح ما بداخل الغرفة ـ من خلال كوة مستطيلة ـ ذات طلاء بديع، فرشت أرضيتها بقماش متوازي الألوان يمتد إلى خارجها، وفي ركن استقرت (قعادة) مرتفعة غطيت بفراش حريري وعلى جوانبه رصت مخدات ذات نقوش ورسوم زاهية وقد غطيت بقفص من التل يمنع الناموس من الوصول إلى المضطجع عليها وقد تدلت منها عكرات وكلف متعددة الألوان، وفي ركن آخر استقرت عدَّة سحارات (سيسم) مطهمة بفصوص ذهبية كان ضوء «الأتريك» ينعكس عليها

(*) الرونج: البويا.

فتبدو كالنجوم اللامعة، وأمام مرآة عريضة مذهبة أذهلنا منظر لم يكن ليخطر على بالنا البتة حتى إننا أسلمنا قاماتنا لانحناءة وجلة تاركين عيوننا تسرق ذلك المنظر بدهشة عظيمة.. كانت هناك سيدة لها حسن حورية هبطت للتو، تقف بشموخ الجبال ورقة الماء وكان السوادي راكعاً أمامها يذرف الدمع ويسكب قلبه وكلما أمعن في خضوعه تسامقت في كبريائها.. عندها قرر زيلعي أن يغمد مديته بظهر السوادي، وفي وثبته انزلقت قدمه فسقط محدثاً جلبة نبهت السوادي فأفاق من ركوعه وركض باتجاهنا. حذرت زيلعي من مغبة أن نركض سوياً وتواصينا بأن يركض كل منا باتجاه، وحينما انطلق زيلعي لمحت السوادي يشهر (جنبيته) ويقتفي أثر ذلك الشبح الذي كان يعدو بعرجة واضحة بالقرب من سقائف الجند، فأسرعت بدوري وسلكت طريقاً مغايراً جمعني بزيلعي أمام تلك الحبال التي تدلت من فوق أسوار القلعة وقفزنا إلى خارجها غير مصدقين ما حدث. وخوفاً من اقتفاء السوادي وأعوانه لنا فقد لجأنا لأقرب بيت يمكن أن يأوينا إذ كان هناك من يطلبنا. ولم يكن أقرب بيت لنا إلاّ بيت الشاقي.. فصرخنا فيه وعلمنا أنه يقضي ليلته بين حقوله حارساً... فاستأذنا أم زوجته ـ نوار التي توفي زوجها على يد أحد أعوان السوادي بعد أن وقف في وجهه ومنعه من تغيير مجرى الوادي عن أرضه وبعد شجار ملتهب انفلت عمر هادي من بين الأيادي الحاضرة وألقى بفأسه على هامة جبران تاركاً الماء يقبره بعيداً عن عين زوجته ـ استأذناها في المكوث عندهم حتى يبزغ النهار فأذنت لنا بعد أن علمت أننا مطاردين من السوادي وأعوانه، وما إن هدأت أنفاسنا المتلاحقة حتى ارتفع أنين زيلعي فقد التوت قدمه وانتفخ كاحله، فتبرعت نوار بـ (غمزها)، ولفها بعصابة وضعت بها ملحاً وحمراً، وشدت عليها برباط وحين فاتحناها بما حدث، فتحت عينيها ولم تزد إلاّ بغمغمة خفيفة:

ـ اللّه يستر.

في تلك الليلة نام كل شيء إلاّ خوفنا، فقد بقي كالعسس يجوس بأفئدتنا بهمة ونشاط، وكلما غفا قليلاً أيقظه أنين زيلعي الذي أخذ يتلوى من شدة الألم، وبقيت عين نوار ترقب الطرقات حتى إذا تنادت الديكة وتفسخ

الليل قليلاً غادرناها وهي توصينا بالحذر. كان زيلعي يتوكأ عليَّ وكان من المتعذر أن أعبر به الأحراج على هذه الحالة فطلبت منه المكوث عندي حتى تتحسن حالته لكنه أبى وأصر على التوجه إلى داره.

بقيت حبيس عشتي لعدة أيام وكلما ارتفع صوت ظننته السوادي جاء ليزهق أنفاسي، وعندما استشعرت الأمان قليلاً خرجت لقضاء حوائج أهلي.

كنت أتوق لمعرفة أخبار زيلعي وكنت كلما هممت بزيارته أتراجع، فمن الحماقة أن تقذف بنفسك بين (هوام) الأحراج دون معرفة بخباياها، واكتفيت بالخروج إلى السوق علني أراه. وفي إحدى الظهيرات القائظة سمعت صوته يلعلع من الخارج:

ـ يبدو أن لزوجتك ملاحة تكفيك عن رؤية أصحابك!

فخرجت إليه ضاحكاً واحتويته بصدري، دفعني عنه بلين:

ـ ألا تسأل.. ألم يكن من الممكن أن أكون جثة مقذوفة في الخلاء، ونهباً للسباع؟

وعندما حاولت الاعتذار لكزني بعصا كان يحملها:

ـ هل صدقت.. أنا أمازحك.. على كل حال لقد سئمت المكوث بين الأحراج وحيداً، وقد ابتنيت عشة بجوار والد زوجتي.. يمكنك زيارتي إن أحببت.

قالها، وودعني والضحكة تتقطر من فمه فسحبته إلى الداخل لكنه تمنع وأشار إلى ابنه الذي كان ينتظره على ظهر الحمار:

ـ انظر لقد كبر بسرعة وكلما تطلعت إلى عينيه تذكرت أن السوادي ينتظره ليشبعه وجعاً ولقد مضى زمن طويل على وعدنا بأن نقطف أنفاسه والذي أخشاه أن نورثه لأبنائنا كالمرض!!

وسحب لجام حماره وخب في السير باتجاه السوق، فتبعته بالصوت:

ـ حذاري يا زيلعي من أن تتهور!

مضى دون أن يعول على ما قلت وبقيت أتطلع إليه حتى التهمته الطرقات. كنت واثقاً أنه سيعود، فأوصيت زوجتي بذبح كبش وتزيين الغداء

«بخضير»(*) لحب زيلعي له، ومضى الوقت وأنا أنتظر عودته، لكنه لم يأتِ، فتغديت مع أذان العصر، وخرجت للمقوات علني أجد قاتاً طرياً، فسمعت أهل السوق يتحدثون عن زيلعي، وأن رجال السوادي قادوه للقلعة، ولم أدرِ ماذا أصنع.. سرت حتى وازيت القلعة ثم تراجعت، كنت حائراً.. يائساً.. أقلب جمر الأسئلة في ذهني.. ترى ماذا حدث؟.. على عرف السوادي زائر القلعة؟.. ماذا سيحدث لي؟.. وهل سيخبره زيلعي بمن كان معه؟.. وماذا سيكون عقاب زيلعي؟.. وكيف يمكن إنقاذه؟.

وزاد من روعي ذلك الخبر الذي تسرب بين أهل القرية.. من أن السوادي اعتقل زوجة زيلعي وابنه.. ليلتها لم أذق طعماً للنوم، ووسوست لي نفسي بزيارة القلعة لكنني جبنت، وبقيت متحرزاً وخائفاً من أن يدخل رجال السوادي ويقتادوني إليه.. كان رعباً شرساً يجري في دمي، واستسلمت له.. أحقاً أنا هكذا.. أحرص على الموت وأسير إليه، فإذا التقينا، أصابني الخور وانطلقت راكضاً، أحصن نفسي من أذاه.. كنت أتمنى تلك الجسارة التي تعتريني كلما مضيت مع زيلعي صوب القلعة.. هل كانت شجاعتي غطاء لتوقد زيلعي؟.. وبينما كنت أمضغ هواجسي داخلني صوت (الزقار) وهو ينادي أهل القرية، ويأمرهم، بأمر السوادي:

ـ الحاضر يبلِّغ الغائب.. على جميع أهل القرية التواجد عند (راعي القضبة) صباح الغد.. الحاضر يبلغ الغائب..

ومضى يقود صوته، وصوت طبلته الضخم.. تلك الليلة خرجت كلمات كثيرة من أفواه أهل القرية، ونسجت حكايات وحكايات، ولم تجتمع مجموعة على ضوء فانوس إلاّ كان حديثهم عن موعد الغد.. كان ثمة ترقب تخالطه دهشة حائرة لهذا النداء.. فالتجمع عند قبة السيد معناه أن أمراً جللاً قد حدث.. ومع صياح الديكة خرجت القرية تذود نعاسها المتقطر من الأهداب، وتجر أقدامها وفضولها صوب قبة (راعي القضبة) وكانت الألسن تتسكع مع (الغبش) بأقاويل مختلفة، وعندما وجدوا أن أحاديثهم مظلمة،

(*) الخضير: أكلة تصنع من القمح وهو لا يزال طرياً.

لجأوا للأسئلة. . ترى ماذا حدث؟؟. . ولماذا الاجتماع عند القبة؟؟. . وماذا يعد لنا السوادي هذه المرة؟؟

ولا زالت أسئلتهم تتوالد حتى بلغوا القبة. . وما هي إلاّ لحظات حتى أقبل عبيد السوادي يقودون زيلعي في حين كان ابنه وزوجته ينتحبان من خلفه، وظهر السوادي محتزماً بعدة الحرب وهدر بخطبة قاسية، وقبل أن ينهيها كانت يده تعبث بعين زيلعي. . وقد جاءت خطبته كتلك الخطب التي لا نعي منها سوى أنه غاضب، ولا تبيِّن سبباً واضحاً لغضبه، والويل لمن يجرؤ على الاستفسار أو التعليق.

يومها لم أستطع أن أقدم لصديق العمر سوى الدموع ـ والتي كنت أخبئها عن عيون السوادي المنتشرة بين أهل القرية ـ. . كل الذي استطعت عمله أن أعتصم بحقدي على السوادي.

بعد أن خلعت عين زيلعي هشنا الجنود والعبيد، فانجرفنا عائدين لداخل القرية. . كان الناس يتساءلون بحيرة. . ماذا صنع زيلعي حتى تخلع عينه؟؟. . ودون أن ينتظروا جواباً انطلقوا مسرعين لشؤونهم وهم يتواصون بالصمت، فالعيون كانت تتربص بالنملة السوداء في الليلة السوداء، وتؤول ما ترى كيفما تشاء حينما تنقل أخبارها لآذان السوادي، والذي لا يتوانى من إزهاق الأرواح.

سمعت ـ فيما بعد ـ أن زيلعي ظل مقذوفاً بجوار القبة إلى ما بعد الغروب، ولقد تحاشيت الذهاب لرؤيته خوفاً من أن أجد أعوان السوادي، فيعطلون ما أضمرت فعله ـ وإن كنت في أوقات كثيرة أرجع ترددي لخوفي على بيتي ونفسي ولأكن صادقاً معكم وأنا أروي لكم الحكاية ـ، وبقيت غائباً عنه وعن سيرته حتى سمعت من نوار أنه انتقل من بيت عمه وعاد إلى الأحراج سراً دون أن يعلم به أحد.

يومها كانت القرية تموج بشائعة يرددونها للخلص منهم حيث يقولون:

ـ قبل ليال حاول مجهول اغتيال السوادي، لكنه فشل بعد أن اكتشفته إحدى الجن العلامات بالحصن، وأوعزت إلى العبيد بمكانه فبطشوا به كقطعة لحم ألقيت لسباع جائعة، وتملص منهم بصعوبة، قافزاً سور الحصن وهو

يعوي ككلب مسعور.. لا أدري لماذا أيقنت بأنه زيلعي، وأحسست برغبة جامحة لرؤيته، فنفضت كل ترددي، انتظرت الليل، وخرجت ملتحفاً بظلمته، ومقتفياً أثر دليلي نوار، وعلى ضوء كشافها الذي كان لا ينير إلاً لماً، اخترقت بنا تلك الأحراج بمهارة.. هناك وجدته منكساً رأسه، ومؤتزراً بـ (حوك) غطى جزءاً من نصفه الأسفل تاركاً العراء يجفف أنفاسه الثقيلة الرتيبة، وقد لفت زوجته (مصراً) جديداً على عينه، وجلست تحت قدميه دامعة تستلهم شهقاتها باستمرار، وعلى ضوء الفانوس لمحت جسده غائراً بالفجوات التي ينز منها الدم، فيغطي بشرته البيضاء بلون أحمر، لزج لامع، كانت الجروح لا تزال دبقة تنز ببطء وغلظة، وكانت يد زوجته تكوم قطعاً كبيرة من القطن، وتمررها على ذلك النهر المنبثق من عيون عدة في جسده، وفي أحد أركان العشة نام شبرين كيفما اتفق.. كان زيلعي يئن بمرارة، فتنز أنفاسه بصعوبة، فيجاهد أناته كي لا تنفذ من فمه المعقود بالصمت والسكون، وعندما رآني أقف فوق رأسه نهض رافعاً قامته بشموخ، وحياني بالعناق، وأجلسني بجواره، ولاطف نوار، وحاول جاهداً أن يستجلب ضحكة من فمه:

ـ ألا زلنا ثورين يا نورا؟

ـ ثوران بلا قرون فقد استطاع انتزاعها!

وأطلقت ضحكة رجولية عميقة وتابعت:

ـ ألا ترى أن عبده لا يغادر عشته، وأنت لا تغادر هذه الأحراج؟

غصت في داخلي ولم أستطع دفع لمز نوار، ولقد كان زيلعي أقدر مني على معرفة خبايا أحاديثها، ففاجأها قبل جفاف ضحكتها:

ـ وأنت ماذا فعلت منذ موت زوجك؟

ـ ليتني كنت رجلاً كي أجيبك وعلى أية حال لا زال هناك متسع.. ودعنا من هذا الآن فلم نقطع الأحراج كي نشبع بعضنا جروحاً.

وتشاغلت زوجة زيلعي ونوار في أحاديث عن القرية وأحوالها ليجذبني زيلعي للخارج حيث كان الليل حالكاً وعواء رتيب متقطع يصلنا، وأمضينا

وقتاً طويلاً في الحديث، وحينما انصرفنا وقف من خلفنا مودعاً بنصائحه.

وأثناء العودة كان ثمة شيء ـ في داخلي ـ ينازعني، وما إن بلغنا مشارف القرية حتى تركت نوار تكمل طريقها، وعرجت على القلعة، قافزاً أسوارها، وتوجهت عمودياً صوب غرفة تلك السيدة، فوجدته راكعاً، كان يقسم لها إنه سيقتل كل من يراها معللاً أن جمالها خلق لعينيه فقط، وسرد لها حكاية زيلعي:

ـ لم أكن متأكداً أنه هو بعينه ومع ذلك فقأت له عيناً، وسأميته عاجلاً بقتل نور حياته.. لن أمكّنه من التناسل، فابنه سيكون طعماً لشدق الأرض، وسأجعله يندم بقية العمر لأنه رآك ـ إن كان هو الذي تجاسر على قفز أسوار القلعة ـ، وسوف أميته قبل أن ينطق لسانه بجمالك إن حاول ذلك.

رقّت له، واسترحمته بلسان رطب أن يترك الغلام لأبيه وأمه، فتفتحت أسارير وجهه:

ـ حسناً سأجعل كلمتك بوابتي التي أطل من خلالها على الدنيا بشرط أن تطيعيني.

فعادت إلى وجومها، فهزها مراراً:

ـ هه ماذا تقولين؟؟

فنهضت وهي تجر ثوبها الأنيق الفاخر:

ـ يبدو أن حريتي تعبر من خلال لهاثك، وهذا لن يكون أبداً.

تعكرت ملامح وجهه، فصفعها لتسقط بعيداً عنه وهي تصيح:

ـ لن أكون كما تشتهي أبداً حتى وإن قطعتني قطعاً صغيرة.

أناخ بجوارها وأخذ بالبكاء:

ـ أستطيع أن أفعل بك ما أريد ولكنني أريدك بقلبك أتسمعين.. بقلبك.

فبصقت في وجهه، لينهال عليها ضرباً وعندما أصبحت لا تقوى على دفع ركلاته وصفعاته، نهض وهو يغالب نشيجه:

ـ لن تبرحي هذا المكان وسوف أقتل كل من يصل إليك أو يراك.

ودفع باب غرفتها لأسمع صوت المزلاج يصطك من الخارج ومفتاح يدار بصعوبة بقفل كبير، وأخذت قدماه تتخبطان بثقل، وصوته يعوي كذئب جرح للتو، فأسرعت بالانزواء، واختفيت بركن منزو، كاتماً أنفاسي المتلاحقة حتى إذا عبرني انطلقت من جهة أخرى، وتسلقت أسوار القلعة للخارج، وأخذت أسابق النهار كي أصل لزيلعي دافعاً إياه إلى الهرب بابنه.. فأيقظ أهل بيته وعاد إلى القرية تاركاً زوجته أمانة بعنق أخيه، ومضى بابنه قاطعاً قطعة مظلمة من الاحتمالات.

بعد رحيل زيلعي أصبحت أمام لسان السوادي الذي أمهلني قليلاً كي أنفذ جزءاً مما أضمرت له قبل أن يلدغني. وقد أصبحت عادتي الليلية، الخروج خفية والقفز من على أسوار القلعة، وتسمير عيني على تلك السيدة.. يأتيها السوادي فتعرض عنه، ويظل يهذي بجانبها حتى يبلغ حدود الجنون، فيغادرها ساخطاً، لاعناً كل شيء، وفي إحدى الليالي أخرج جنبيته، وأوشك أن يبقر بطنها وهو يزعق بغضب متوهج:

ـ هذه البذرة التي تحملينها لن تنسيك ذلك الرجل الحقير ولا بدَّ من اجتثاثها.

وعندما رآها ساكنة مطمئنة تهاوى بجوار قدميها:

ـ أستطيع امتلاكك كأي بقرة في حظيرتي الواسعة.. ولكني أريد قلبك قبل كل شيء.

وكلما دنى منها ازدادت نفوراً وذعراً، فيتركها لاعناً، ساخطاً.

وفي أول مرة رأتني فيها أصابها الذعر وأوشكت أن تمد صوتها بصرخة عريضة، وهي تتراجع للخلف وتغطي وجهها براحتيها، فبسطت وجهي لها، وأخذت أتودد إليها:

ـ لا تخافي فقد جئت لمساعدتك.

فتزايد خوفها ورعبها، لأسحب وجهي من تلك النافذة التي تطل عليها، وأوصيتها أن لا تخبر أحداً بزيارتي، ومع تكرارها أنست إليَّ، وزال خوفها، وبقيت آتيها كلما غادرها السوادي، واكتشفت أن غرفتها بمزلاجين ضخمين أغلق أحدهما بقفل ولم يغلق الآخر، فكنت أتطلع إليها من خلال

النافذة وأواسيها، واعداً إياها أنني سأتمكن ذات يوم من تهريبها خارج هذه الأسوار، فتنهض ضحكة حلوة من وجهها القمري، ويتقافز من عينيها نور طفولي مشع. وفي ذات ليلة حدثتني بحكايتها ويستحسن أن أرويها لكم لكي تعرفوا مقدار ظلم هذا الرجل ولا زالت ذاكرتي الهرمة تحتفظ بتفاصيل تلك الحكاية كما روتها بتمام دون زيادة أو نقصان.. ففي تلك الليلة علمت أن السوادي خارج القرية فأخبرتها بذلك فاطمأنت وأخذت تروي لي حكايتها بالتفصيل حيث قالت:

ـ أنا من بني غالب، كنت زينة صبايا القرية، وقد نصب كل شبابها أحلامهم على هامتي، وكان أبي يدللني (بملح البنات)، وإخوتي يحيطونني بحبهم، فأنا البنت في أسرة مكونة من خمسة رجال، وقد جئت في آخر موسم لأبي الذي لم يرزق بعدي بأحد فادخر لي حباً عظيماً، وكان يوصي إخوتي بي:

ـ حافظوا على مرآتكم من دنس الكلاب!

وعندما أصبحت صبية يافعة تفهمت سر تلك العيون التي تطاردني وتتربص بي كلما خطوت بين الحقول أو المراعي أو ذهبت لجلب الماء من الآبار، وعندها أصبحت أتلمس الاتزان في كل تصرفاتي، وأعتصم بالصمت أمام تلك الكلمات التي تعبر مسامعي، وتشعلني خجلاً، ونشوة، وحينما تفتحت ينابيع الأنوثة من جسدي أصبحت العيون أكثر شبقاً، ومطاردة، فكنت عندما أخرج مع الصبايا للتعليف، ويسمعن تلك الكلمات الطائرة حول رأسي، تدك قلوبهن، وقد يخبئن حسدهن في ضحكة فاترة، أو في لكزة على خاصرتي، وقد تمادت غيرتهن وانقلبت إلى حقد دفين، وقد صرحت إحداهن بذلك. ففي ذات صباح كنا نحتطب، وتشاجرنا على جذع سدرة يابسة، كنت قد وجدته قبلها، واشتد الشجار فيما بيننا، لتترك للسانها حرية أن يدلق ما يشاء من السباب، متهمة إياي بالسعي لإغواء الرجال، وأن لي من المغامرات ما لا ينتهي بين الحقول، وفي المراعي، وذهبت استغاثاتي ـ بصويحباتها ـ لكف لسانها عبثاً، فقد كنت ألمحهن يهززن رؤوسهن مؤمنات على كل ما يذرب لسانها من قاذورات، وهن متشفيات. بعدها أصبحت

أقضي شؤوني بمفردي، فأذهب للخلاء، أو لورادة الماء أو التعليف، أو الاحتطاب، دون أن تعكّر عليَّ ألسنتهن المدلاة في سيرتي، وكان يصلني بعض ما يقلن، فأغمض أذنيّ، وأمعن في دك قلوبهن بجمالي!.. وقد أشعلت تلك الفتنة حادثة مررت بها، فقد كنت أحتطب في مكان يبعد عن القرية فراسخ عدة حيث كان الحطب وفيراً، ويابساً، وبينما كنت منهمكة في جمع أعواد وجذوع متناثرة من بين أشجار الأثل، والسدر، والنيم، إذا بمجموعة من الخيالة يتقدمون نحوي.. كان في مقدمتهم رجل يمتطي فرساً شهباء، أدعج العينين، مديد القامة، ضخم الجثة، قاسي القسمات، عنيد الجبهة، حاد الصوت، عبثي المزاج، ذو أنفة طاغية.. وكانت عيناه تبثان خليطاً من الرهبة، والنفور، والهيبة، والرثاء.. ترجل عن فرسه، واقترب مني فانتقبت بخماري، ليستحلفني أن أميط اللثام، فأغلظت له القول، فاحترقت بشرته البيضاء بحمار فاقع وطفرت عروقه، وظلت عيناه تدوران في وجوه مرافقيه ـ الصامتين كالموت ـ بقسوة، فجأة قذف بضحكة صاخبة، وتقدم نازعاً لثامي، وقهقهته تعربد في الفضاء، وطوى لثامي بيده وهو يتلمظ متلذذاً، رافعاً صوته بعنجهية:

ـ ما أظنك إلاّ حورية ولن تفلتي من يدي.. فترقبيني!!

ومضى وضحكته البشعة تملأ الفراغ.. كان ثمة مزارعون عائدون من حقولهم فرأوا ما فعل صاحب الفرس الشهباء، فصحت بهم:

ـ يا غارة اللّه.. أليس فيكم من رجل يمنع هذا الغريب عني!!

فصاح أحدهم:

ـ وما يدرينا ما بينكم.. فلا أحد يقدم على ما فعل الغريب إلاّ برضى منك.

ومضوا ينشرون إشاعتهم في قريتنا بزوائد أخرى لم تحدث البتة. بعدها منعني أبي من مغادرة الدار، وضرب عليَّ حجاباً كثيفاً من الأوامر الصارمة. وفي ذات ليلة وبينما كنت في عرصة الدار أتفقد الأغنام رأيت شخصاً يتسلل من بين (السجوف) قافزاً إلى فناء دارنا، فشعرت بريبة، وقبل أن أتحرك كان

يقف في وجهي، ويتقدم صوبي بخطى واثقة، جريئة، تاركاً على شفتيه ابتسامة غريبة، مفزعة، ومطلقاً لسانه:

ـ غاب عن قريتنا القمر، فجئت لاستعيرك لها.

وفتح ذراعيه ليطوق خاصرتي، ذهلت، وأصابني الخدر، والتبلد، وحينما أحسست بأنفاسه المعطرة تلامس خدي، صرخت بأعلى صوت، ليتقافز إخوتي من مراقدهم، وينهالون عليه بالعصي، وقد غرس أخي الأكبر جنبيته بترقوته هاماً بنحره كثور ضخم، وقبل أن يجهز عليه كان أبي يقف بيننا، مانعاً، وحائلاً بين إخوتي وإزهاق روحه، فتوقفوا غير بعيد وهم ينتفضون غضباً، وذلك الغريب يتقلب في رمضاء الألم، وبين لحظة وأخرى تتساقط من فمه شتائم قذرة، وتهديد مرير.

أشار أبي لإخوتي أن يوثقوه، ويجروه سحباً إلى (مطارح) البهائم، وهناك ربطوه بمربط حمار نفق من أيام قلائل، وتركوه يشارك الأغنام ثغاءها الممتد، دون أن يضمدوا له جرحاً، أو يردون على شتائمه المتلاحقة.. حتى إذا ظهر الصباح لم نجد له أثراً، وكأن الأرض انشقت وابتلعت جثته الضخمة، وتهديده المرير.

مضت أيام طوال قبل أن أراه مرة أخرى.. فبعد تلك الواقعة انتقل ثلاثة من إخوتي إلى عشتي، وأصبحوا لا ينامون إلاً وبنادقهم تحت رؤوسهم «معمرة»، وكنت هلعة فلا أغادر عشتي مستبقية من يحرسني أثناء الليل والنهار، حتى إذا مضت الليالي دون أي معاودة لذلك الغريب، عدت إلى سيرتي الأولى، أخرج للحقول للتعليف، وأحتطب من الخلاء، وأقود أغنامي إلى المراعي.. كان ابن عمي قد دخل قلبي منذ وقت قصير، فكنت أراه في أوقات متفرقة فيتساقط كل ما بداخلي، وأظل كعصفورة فقدت حرية التحليق، كان كاحل السمرة، ذا عينين ساحرتين، وشديد الولع بالأرض، يظل مغروساً بين قصب القمح من الصباح إلى المساء، وله سيرة يانعة خضراء.. وكنت كلما رأيته شعرت بأنني غير قادرة على السير، وتتداخل ملامحي، ويتعثر لساني إن حاولت مبادلته التحية، فأرتبك وأعبث بجديلتي، تاركة فرحة متدفقة تعبر صدري بلذة، كان هذا هو حالي كلما رأيته من قريب

أو من بعيد، ولم يعد هناك ما يشغلني سوى البحث عن عينيه.. كنت سعيدة بهذا الشعور الغامض الذي يعتريني كلما لمحته أو خطر ببالي، حتى جاءت قارئة البخت ذات صباح تحمل رملها وحجارتها، فدعوتها وجلست أمامها لتقرأ لي (بختي) فبسطت رملها ونشرت حجارتها، وخطت بعود أخرجته من زنبيلها الصغير، كنت أرى عينيها الضيقتين تموجان بالحيرة، والتردد، استحثثتها مراراً أن تحدثني بأخبار حجارتها، فتهملني وتعاود قذفها، وأمام توسلاتي المتلاحقة، أعادت رمي حجارتها، وبصوت يجوس بالمواربة بدأت حديثها:

ـ سيتحقق لك أول الحلم.

وتوقفت، مشيرة إلى حجر أسود له بياض ناصع بطرفه الأمامي، وأمسكته، ورفعته بوجهي، وتابعت:

ـ هذا الحجر سينغص أحلامك، لتنبع الدموع من كل جسدك.. وتموتين غريبة، وحيدة، حزينة، بعد أن تتركي ثمرة تخضر بها الأرض، فاصبري وصابري كي تكوني من القانتات!!

وحملت حجارتها بعد أن محت خطوطها، وغادرتني دون أن تأخذ شيئاً مني.

وظلت كلماتها تطرق فؤادي، وتوقظني من عز النوم، فأهجس بها، وعندما علم أبي بذلك ضحك حتى استلقى على ظهره، وحدثني عن إحدى (الكاشحات)(*) من اللاتي قابلهن في شبابه فقال:

ـ كنت فتى مغرماً بمعرفة أسرار الغيب، وكنت لا أضيع فرصة تقربني من هذه الحجب، فكنت أسلم كفي لأي قارئ بخت، وأتابع أخبار ناثري الودع، وما إن أسمع بأحدهم حتى أصله وإن كان في آخر الدنيا، كان كل واحد منهم يسمعني ما يستريح له الخاطر، فأدفع إليه بهدية أو أمنحه مالاً وأغادره، وأنا جازما أن تنبؤاته سوف تتحقق، ومضت السنون دون أن

(*) الكاشحة: ضاربة الودع وبجنوب الجزيرة العربية تستخدم ضاربة الودع البن أو الحجارة.

يتحقق شيئاً مما نثره أولئك العرافون على مسامعي، ومن أغرب ما سمعت ما قالته إحدى (الكاشحات)، وقد ارتفع صيتها بين القُرى، واكتسبت شهرة واسعة، على مقدرتها في هتك الحجب، فما كان مني إلاّ أن شددت حماري، وتوجهت صوب قريتها، وقبل أن (تفتش)(*) لي اشترطت ذبح جدي أبيض في جبينه رقعة سوداء، كهدية للجن الذين يخدمونها، ويأتمرون بأمرها، وقد ابتعته من حظيرة تقع خلف عشتها، وقام أحد خدمها بذبحه، وإراقة دمه على ملابسي، وتركني في الشمس حتى إذا جفت ملابسي، قادني إليها، فأجلستني أمامها ونثرت حجارتها، وعبست، وأمرت خدمها بإخراجي من عشتها، وهي تصيح:

ـ بغبور.. ثبور.. قعبور.. في الليل ما يبور.

وأمرت خدمها أن يعرضوني عليها في صبيحة اليوم التالي، واشترطت هذه المرة أن أذبح ثوراً بقرن واحد، وأن آكل لسانه نيئاً، وقبل ذلك عليّ أن أتمدد مع الثور وأن يضع جزار مديته على رقبتي ليقطع لي شرياناً ثم يعمق مديته بنحر الثور، وقبل طلوع الشمس كان دم الثور يشخب على الأرض، وفي مفرق رأسي، وعندما جلست أمام حجارتها.. قالت:

ـ لم أرَ أعجب من غدك!!.. ستدور الأرض بنصف قلب، تنوح، فتبكي الشجر، والحجر، ولن يكون ذلك قبل أن ترزق بثلاث صبايا، ستكون أصغرهن هدياً للسماء كي يتقطر الماء، وستكون لها ملاحة الحور، وفتنة الغاويات، وطهارة القانتات، وسيقودها عبد آبق، في ليل بهيم، لينحرها على جذع نخلة يابسة، ويجري دمها في مناكب الأرض، فتهتز، وترتج، وتلقي بخيراتها كي تجفف دماءها الزكية، وسيقولون لك قطفت حياءها، وباعت عرق جسدها، فتنبذها، حتى إذا ازدانت لك الحياة بدونها جاءك غراب ينعق بموتها، وستعرف أنها ماتت غريبة، حزينة، طاهرة، وستخرج للسهول، والوديان، والفيافي تبحث عن ملح الحياة، وسيشيب حزنك وأنت تبحث عن بذرتها، حتى إذا ابيضت عيناك، ووهن عظمك،

(*) الفتش: الاستهلال بقذف الحجارة أو البن أو الصنب وهو نوع من أنواع الأصداف.

وتناثرت سيرتك، التقمك الحوت في بلاد العجم.

وما إن أنهت حديثها حتى تصاعد دخان من بين حجارتها، فعادت تصرخ، وتطالب بإخراجي قبل أن تحترق. وخرجت من عندها، وأنا أرتعد، ورفضت الزواج، وبقيت دهراً لا أرغب في النساء، وعشت رحَّالاً بين القُرى، لا يطيب لي مأكل ولا مشرب، وقد برزت عظامي، واعتورني الضمور، وغدوت كسدرة هرمة، ألقيت في فلاة شحيحة، وزارني الموت مراراً، دون أن يقبرني تحت ثراه، تاركاً لي ظنوناً شابة تطارحني الهوى، فأوغل في الوحدة، والجنون، ولا زلت على هذا الحال هائماً بين البراري والقفار، مستوحشاً، حتى إذا مرَّ بي رجل له نور الصالحين، وهيبة الحكماء وعرف حكايتي فلازمني وقتاً كان خلاله ينكث تلك النبوءة، ويقربني إليه، وجلس يحدثني عن حكايته فقال:

ـ افترق أبي وأمي من وقت مبكر، فعشت كاليتيم، وكفلتني امرأة ـ لها قرابة بأمي ـ ولا زلت معها حتى إذا شببت تزوجتني، فكنت لا أقربها، وإذا ضاجعتها بكيت، فتحار معي ومني، وطرقت بي أبواب السادة، والمنجمين، فيقولون لها:

ـ في اللوح قدر لا نقرأه!!

فتعود كاسفة، ولا زالت تتجمل، وتتطيب حتى واقعتها ذات ليلة، وما إن انتهيت حتى لمحت شهاباً حارقاً يوشك أن يسقط على هامتي، وأخذ يتربص بي، أثناء الليل، فلا يغمض لي جفن، وأصابني الهزال، وخف عقلي، فحملتني زوجتي إلى (يختل)(*) فقيل لها.. بينكما لبن، وسيولد لكما ابن له رأس حية، وحوافر نعجة، وسيقتل أبوه وهو في المهد.. وعدنا إلى قريتنا ننتظر العذاب، وقد اختفى ذلك الشهاب الراصد، وما هي إلاَّ أيام معدودات ـ مضت على عودتنا ـ حتى ظهرت عليها آثار (الوحم) ولشدة خوفها عليَّ كانت تفكر في إبعادي عنها، فأصر على البقاء، فيما كان بطنها يستدير يوماً بعد يوم، حتى إذا أطلقت صاحت بها مطالبة أن أكون بجوارها،

(*) يختل: موقع باليمن يسافر إليه المرضى للمداواة.

وما إن أطلق أول صرخاته حتى أطبقت على أنفاسه، فمات قبل أن نقطع له (حبل السرة)، ولهول ما رأيناه ارتفع نحيبنا صاخباً، فقد كان مولودنا أنثى، لها طلعة البدر فأصابني الجزع، وقبل أن أفيق من هذا الهم، كانت قد خرجت بها وقذفتها للسيل، وعادت كمن تخلص من إثم فادح، ليلتها عاد الشهاب يطاردني، فلم أطق البقاء، خرجت هائماً على وجهي، حتى إذا بلغت مجمع البحرين، لمحت ابنتي من بين زبد البحر تنادي:

ـ لتغدو حياتك ملحاً يا أبي!!

وكلما دنوت منها سافر بها الموج للمدى، فأتبعها، ولا زلت مبحراً حتى إذا قذفني البحر إلى إحدى الجزر البعيدة، جلست أنتظر زفة الموج لها، وإذا بصبية تخرج من الماء، وتحوطني بذراعيها، وتقبلني، فاستجبت لها، فاستحالت إلى حية، فتعاركنا وقتاً طويلاً، تمكّنت من اجتزاز رأسها، فتحول رأسها إلى طائر عظيم، أخذ ينقر هامتي حتى أغمي عليَّ، وعندما أفقت كان البحر صحراء ممتدة، ووجدت شيخاً مسناً يرعى غنيماته، ويقرأ القرآن وكلما أمعن في التلاوة نفقت نعجة حتى إذا أتى بهم مات حيث كان، فارتفع نحيب حاد من جنبات الصحراء، وظل يتردد بضراوة وعنف، فانطلقت لا ألوي على شيء، ومن يومها لم أتوقف عن تلاوة القرآن، ولا زلت أقرأه حتى زال كربي، وانفرج همي، وعلمت أن الشهاب الثاقب كان يتربص بالشيطان بداخلي، حتى إذا استقمت ونسيت حياتي الأولى بعد أن تحللت من دم ابنتي، انطلقت في الخلاء علني أصيب الآخرة، وأنا طاهر من هذا الوحل، فإياك وتصديق المنجمين، وعد لأهلك، وتنعم بحياتك قبل أن تستحيل إلى كومة تراب تتقاذفك الرياح.

ولا زال يوصيني، ويترفق بي حتى عدت إلى أهلي وقريتي التي أشاعت حكايات لا تنتهي عن غربتي، فقد قِيل أن جنية سكنتني ورحلت بي إلى المغارات المهجورة، وهناك من قال: إنني خرجت للخلاء علني أصيب علم النجوم، وآخرون يقولون: بل فتن بإحدى بنات الرحل، ولذلك فهو لا يطيق امرأة سواها.. وظلت سيرتي مرعى خصباً لأقاويلهم لفترة من الزمن، كان جدك خلالها يصر على تزويجي، ليسكت تلك الأفواه التي تقذف

الحكايات، فتصيبه بأذى، فاستجبت له كرهاً، وكلما تذكرت تنبؤات (الكاشحة) انقبض صدري، وتراجعت، حتى إنني هربت من ثلاث عرائس في ليلة (دخلتي) مما مكّن أهل القرية أن يعاودوا مضغ سيرتي، وقد أضاف البعض منهم بأنني فاقد الهمة، مما أغاظ جدك، ودفعه لأن يزفني على أمك، والبنادق مصوبة على رأسي، ولم يكتفِ بهذا بل انتظر أمام عشتي حتى «انتصرت» على زوجتي، وحمل آثار الدم، ووضعها على فوهة بندقيته، وطاف القرية، وهو يتبختر، ويصيح:

ـ من لديه مهرة عقيم، فليأتِ بها إلينا، فلدينا فحل ضارب!!

وما إن استدار بطن أمك، حتى عادت هواجسي أكثر صخباً، كنت أهم ليلياً ببقر بطنها، وأتراجع كلما تذكرت حكاية ذلك الرجل الصالح الذي نذر نفسه للضياع بعد أن تساهل بقتل ابنته، فأحجم عما نويت، حتى إذا وضعت زوجتي، وكان مولودي ذكراً، انهار كل همي، ولعنت كل (الكاشحات)، وتعاقب إخوتك فازداد يقيني من كذب المنجمين، ولم أعد أطرق باباً لأحدهم.. وها أنت ترين لم أرزق بأنثى سواك، فلا تسلمي أمرك لهؤلاء النسوة، وتيقني من قضاء الله وقدره.

وقبّلني في مفرق رأسي، ومضى صوب الحقول. تبدد خوفي قليلاً، وإن بقي حديث تلك السيدة العجوز يزورني ليلياً دون أن أستطيع له دفعاً. وقد هدأت هواجسي قليلاً حينما تقدم ابن عمي خاطباً، واشترط أن أزف إليه مع الحصاد، وقد كان مهري (معادين) من القمح الرازقي، و(طالب الشر) وثلاثة (دباليل) و(لبة) و(سحارة سيسم)، وقبل أيام الحصاد امتنعت عن الخروج، وأصبحت لا أغادر دارنا، وقد تكفلت عمتي بتجهيز (الظفر) و(الخضاب) و(المشاقر)، وأوكلت إلى بائع «القريشي» بإحضار (العزاني) و(الكاذي)، واشتغل إخوتي بنصب (المخدرة)، وزكن أبي على مورد القات بإحضار مائة قرف وقد ذهب صيت زواجي بعيداً، وأصبحنا نترقب المدعوين من كل حدب وصوب، وقبل ليلة الدخلة بليلتين، وبينما كنت أكنس عرصتنا من بقايا (زعقا) و(حب العزيز) خلّفتها النساء اللائي كن (يطبعن) ويزغردن، ويرفعن أصواتهن الرخيمة بالغناء استبشاراً بدنو دخلتي، وبينما أنا

أكنس استشعرت بحركة غير مألوفة تشبه زحف الأفاعي، فرفعت الفانوس باتجاه (السجف)، كان الضوء كسولاً، فلم ألمح إلاّ بقعاً من ظلمات عاتية استكانت بزوايا دارتنا باسترخاء ممل، كنت أظن أن هواجسي تمازحني، فتشاغلت عنها بالكنس، وأخذت أشعل وساوس صدري بدندنة أغنية مبتورة، حينما سمعت سقوط شيء ثقيل، يرتطم بالأرض بونة خافتة فسلّطت فانوسي صوبها، كان ثمة رجل ينفض مئزره بعناية، ويفرد قامته المديدة، ويتصبب باتجاهي، كان يسير بثقة عمياء.. إنه هو بعينيه الطافحتين بالقسوة، واللذة، فخشيت إن أنا رفعت صوتي أن تنتهك سمعتي جهاراً، فسكنت بمكاني، وخطواته الواثقة تسير بلا احتراس، وقف في مواجهتي مباشرة، وتناول الفانوس من يدي، ورفعه في وجهي:

ـ سمعت بأنك سوف تزفين إلى ابن عمك.

شعرت بالغيظ: وماذا يعنيك؟؟.. وأنصحك أن تعود من حيث أتيت قبل أن تدفن في مكانك.

طفحت على وجهه ابتسامة كريهة:

ـ الذي أريده أن أدفن تحت قدميك.

وأطلق ضحكة جافة، باردة، فانقبض صدري، وخشيت أن يتطور الأمر إلى ما أكره، فتناولت الفانوس، وطلبت منه انتظاري خلف مطرح البهائم، مظهرة له اللين، والرغبة في الحديث معه، فتحرك وهو يهدد إن كنت أضمر شيئاً غير ذلك، فدفعته وأنا أطمئنه، فمضى يجر كبرياءه وطيبه بأنفة، ومضيت بعجلة صوب مرقد إخوتي، ونشتهم، فجاؤوا كالكواكب المكبة، وأحاطوا به، ونزلوا عليه بعصيهم، وحبالهم، وأوثقوه، وشدوا وثاقه.. كان كالحادثة السابقة يلعن، ويشتم، ويتوعد، فسحبوه، وربطوه في وتد غليظ.. كان أبي ساخطاً يسومه برباط البقر، وهو ثابت بجلد، قال أبي ثائراً:

ـ في المرة السابقة حلت بينك وبين سيوف أبنائي، ولكن خستك أبت أن تتجمل بهذا الكرم.

زحر بأنفاسه الثقيلة:

ـ ليس لأحد أن يتكرم عليَّ، والذي أريده يجب أن ينفذ، وابنتك ستكون جاريتي شئت أم أبيت!!

فتلقاه أحد إخوتي بصفعة من حذائه، ليزأر بشدة:

ـ أيها الكلب لو تعلم أن اليد التي تمتد للسوادي لا تعود لمكانها لما فعلت فعلتك.

فجأة تحول إخوتي وأبي إلى موج لين، سهل، أمام شتائمه، ولعناته.. وحلوا وثاقه، وأركبوه حماراً معافى، وقادوه مبطوحاً على ظهر الحمار، حتى أوصلوه إلى الضفة الأخرى من الوادي، وألقوه هناك، وعادوا مسرعين.

كانت هي المرة الأولى التي أسمع فيها بهذا الاسم، وكانت دهشة عظيمة تتلبسني مما فعل أبي وإخوتي مع من أراد أن يدنس شرفهم، فانتظرتهم حتى أقبلوا، وهممت بقص ضفيرتي، وأنا أصيح بهم:

ـ سأكون عائلكم، أحمي شرفكم فضعوا الخمار على وجوهكم، وتنفسوا مع الحريم!!

كاد أخي الأكبر يضع جنبيته في خاصرتي لولا أن تداركه أبي معنفاً:

ـ ماذا تريدها أن تفعل، وهي ترانا نخلي سبيل من أراد هتك عفتها؟

فنكس إخوتي رؤوسهم، ودخلوا إلى داخل الدار يتناشجون.. أمسكت أبي ونشته، ودموعي تتساقط:

ـ كيف سمحت لك نخوتك أن تتركه يمضي بدمه؟

فارتفع بكاؤه، وجذبني من يدي إلى داخل عشتي، وأجلسني بجواره، وحدثني:

ـ هذا هو الموت.. لا أحد يجرؤ على الوقوف بوجهه، يقولون إن أمه حينما ولدته، سقط على رداء بنت سلطان الجن، وكانت على وشك أن تزف لعريسها، وحينما رأت هذا المولود، استبشرت به، وأقسمت أمام الملأ، بأنها ستكون أماً له، وعاهدت شعبها على طاعته، فعاهدوها، وقام بتحنيكه أبوها، وهمس بأذنه:

ـ عش أبداً.. ولا يقف بوجهك أحد.. ولك الدنيا بما حملت مدداً.

ولا زال يبطش بمن يشاء دون أن يصيبه أذى، ويروون أن سيوفاً تكسرت على جسده، دون أن تريق له قطرة دم، وأن السم يعافيه، وأنه إذا تمنى طيراً، سقط الطير من عليائه مشوياً، ويروون أن له عيناً تقرأ وساوس القلب، فيعرف من يحبه، ومن هو على غير ذلك، فيظفر بأعدائه، ويبيدهم من طريقه، أو أنه يخلع عيونهم، ويتركهم لحقدهم يمضغهم حتى الموت، كان يقول بأنه يحبنا فنصرخ في أعماقنا:

ـ الويل لنا من حبه.

وارتعش جسده، لنشيجه المكتوم، فشعرت برغبة في احتوائه بين ضلوعي، ولكنه سرعان ما نهض واستدعى إخوتي، وانطلقوا إلى حيث لا أعلم.

في يوم عرسي كان الجو متوتراً، وقد اصطف كل أقاربي حول (المخدرة) حاملين بنادقهم في الهواء، ومتحفزين لأي طارئ، وقد استأجر أبي بعض الأنفار كي يحموا دارنا، وأوصاهم أن يمسكوا بأي غريب يحوم حوله، وطلب من أهل القرية أن يكون (الهوب) صامتاً كأن لم يكن، وانتقلت إلى بيت زوجي، وهناك عادت إليَّ هواجسي، وتنبؤات تلك العجوز، فكنت أستحلف زوجي بأن لا يتركني وحيدة، فكان كالماء رقيقاً معي، يظل طوال الوقت بجواري، حتى إن بعض رجال قريتنا أخذوا يعيرونه.. بقولهم:

ـ هل حجبتك مريم؟

ويمضون، وضحكاتهم تحيلني إلى موجة من الغضب العاتي أكثر من أن تهز هدوءه العاصف، وكلما أمعنوا في سخريتهم، أمعن بدوره في تدليلي، فكان يلازمني كظلي، وإذا خرج لبعض شؤونه الضرورية، كان يصطحبني لدار أبي، وزاد التصاقاً بي حينما تنفست وهمست بأذنه:

ـ نفسي طاحت في المناصف.

وكانِ موسم البلح لم يأن أوانه بعد، بحث عنه في كل أسواق القُرى

المحيطة بنا، وعندما لم يجد، جلب تمراً يابساً وأكّلني إياه ليلاً، وعندما اكتشفت خدعته ضمني بين ذراعيه ضاحكاً:

ـ ماذا أصنع لابن لا يشتهي إلاّ العدم.

وعندما ثقل بطني شق عليه الانتقال بي إلى دار أبي كلما همّ الخروج، فذهب إلى أحد السادة، فكتب لي حرزاً يتدلى من عنقي ليحميني من العين، والخوف، واطمأن زوجي لهذا الحرز فكان يخرج لأبقى أمضغ خوفي وهواجسي حتى يعود.

بعد مضي سبعة أشهر من زواجي، انتقل أهل القرية إلى الحقول، وانشغل زوجي بأرضه، ولم يغفلني، كان يذهب صباحاً ويعود قبل المغرب، وعندما يلمح محجري مخضبين بكحلهما، يضمني إلى صدره، ويسألني عما يخيفني، فألوذ بصدره بلهفة:

ـ لا شيء.. فقط وأنت بعيد تصبح الحياة موحشة.

فيلثمني في أماكن متفرقة من وجهي، ويخبئني بصدره تماماً، لأنام في الحال، ومع خروجه في كل صباح ينبت في قلبي رعب مميت.

في ذات صباح عاصف امتطى مهرته، وخرج مسرعاً لتفقد حقوله البعيدة، وما هي إلاّ لحظات حتى استحالت العاصفة إلى لجة من غضب، فاقتلعت الأشجار، وحفشت العشش، وانطلق صفيرها يزمجر في المدى بوحشة.

وبينما كنت أعتصم بخوفي، سمعت اسمي يتردد بوهن.. كانت ثمَّة امرأة مسنة، لها هيئة الرمل، تقف على (كابة) عشتي مرتدية (كرتة) ممزقة فاقعة الألوان و(ظلة) منكسة على عينها اليسرى تحجب عوراً قديماً، كانت تتهلهل كبقايا ريح مضى للتو، وحينما وقفت أمام عينها الوحيدة، نثرت صراخها على مسمعي، فأحسست بقلبي يهوي إلى أسفل، شدتني من يدي، وصوتها ينعق كضفدعة يابسة:

ـ إلحقي.. لقد سقط إبراهيم من على فلوته ويرغب أن يراك قبل أن تفارقه الحياة!!

وركضت أمامي، فتبعتها صارخة، فيما كان صوت جاراتي يحاول إيقافي، وتهدئتي:

ـ انتظري حتى يعود به الرجال إلى هنا.

كان جزعي أكبر من أسمع أو أرى، قد انطلقت في أثر تلك المرأة، والتي كانت تداري وجهها من الرمال المتطايرة بظلتها وتستحثني على الإسراع، وإزاء تلك الرياح العاتية، والتي تقتلع كل ما يقع أمامها، دافعة إياه في اتجاهات مختلفة، أمسكت بها خوفاً من ضياع أثرها، وسرنا بمحاذاة أشجار الأراك متقيتين بها هبوب الرياح، ولم يكن بمقدوري رؤية الطريق، فبقيت أتلمس معها مشوارنا، واستفساراتي المحمومة عن زوجي ينثرها الريح بعيداً عن مسامعها، فأنحني صاخرة:

ـ لقد طال بنا الطريق. . فأين زوجي؟

فتشدني من يدي:

ـ المكان ليس ببعيد، ولكن العاصفة تمنعنا من الإسراع، فاصبري ولا تكوني عجولة.

كان سيرنا يعبر منعطفات ملتوية، أفضت بنا إلى أحراج في أسفل الوادي، عندها شعرت بأنني خائفة، وغير قادرة على السير، فتوقفت، لتجذبني بشدة:

ـ لم يتبق إلاَّ القليل.

وعندما أحرنت، وأمتنعت عن السير، حامت حولي بحيرة، ومدت صوتها مستغيثة بأي عابر سبيل، فخرج صوتها هزيلاً، دفعه الريح أمامه بلا اكتراث، كانت عيناها الضيقتان تبحثان عن شيء ما تنتظره، وحينما كَلّ صوتها من النداء، هرولت بين الأشجار منادية لشخص بعينه. فجأة انتصب أمامنا وجه له عينان تنبئان بالموت. . ها هو يعود مرة أخرى، بقامته المديدة ووجهه الكسيف. . شهقت، ولذت بظهر تلك العجوز، والتي لم تتوان في دفعي نحوه، وهي تضحك بقبح متناهٍ:

ـ حققت لك ما تريد، فحقق لي ما أريد.

فدفع إليها بكيس له صلصلة ريالات (الفرانسة)، لتخبئه بجيب كرتتها،

ومضت تاركة لي ضحكتها القبيحة. وقبل أن أرفع صوتي مستغيثة، كانت يده قد أطبقت على فمي، وانطلق يسحبني بين الأحراج.. حتى إذا ظهرنا من الجهة الأخرى للوادي ـ بعد مسيرة يومين ـ وأصبحنا نسلك طريقاً مطروقاً، كمم فمي، وأردفني خلفه، وانطلق شمالاً في حين كانت السماء تتهيأ لبكاء مرّ.

وظل يحوم بي حول هذه القرية، دون أن يجرؤ على اقتحام السيل، ولم نتمكن من الدخول إلاّ في اليوم الرابع، ومن يومها وأنا أسكن هذه الغرفة من القلعة، لا أرى أحداً من البشر سواه.

أنهت قصتها هنا وأخذت تجهش بالبكاء.

وما إن وصل عبده راجح بالحديث إلى هنا حتى أطلق آهة عميقة لم يمهلها سامعوه أن تنتهي فصاحوا به:

ـ وماذا حدث بعد ذلك؟!

حاول أن يماطل لكنهم استحلفوه أن يكمل، فأصلح جلسته وانطلق ينثر الكلمات بتلك الآذان المنصتة له:

مضت عدة ليال، وأنا أسامرها ـ من خلف تلك الكوة ـ دون أن أشير لها بإمكانية أن أساعدها، في حين كان ثمة شعور خفي ينام بأعماقي، ويؤجل مفاتحتي لها بذلك، وإن كنت أكثر استغراباً من تماسكها، وملازمتها لهدوئها المهيب، وطمأنينتها الفارعة، كانت كعابدة مجزمة بأن ما حدث لم يكن ليخطئها، وما سوف يحدث لن تقوى على دفعه، كانت تجلس في هذه الغرفة كفانوس يشتعل في ظلمة عاتية، وليس هناك من أحد، وعندما رأتني لم تحاول أن تلمح لي بمساعدتها على الخروج من هذه القلعة الخربة، ولم تحاول أن تمد خاطرها فوق هذه الأسوار المهدمة، لتعرف ماذا يحدث هناك، ولم أكن أعلم كيف تقضي الساعات الطوال داخل هذه الغرفة البائسة، لا أدري كيف استأنست ببقائها هنا، هل دخلت إلى صدري في غفلة مني؟؟ لا أدري.. كل الذي كنت أعرفه في ذلك الوقت، أن أخرج ليلياً لملاقاتها غير عابئ بما سوف يحدث، هي مرة واحدة، أخبرتها فيها بأنني صديق، وأرغب في مساعدتها للخروج من عتمة هذه الأسوار، حينما رأتني أول مرة، ولم أعرض

مساعدتي إلاَّ لإخماد خوفها، بعدها أدمنت زياراتي لها دون أن أقدم على شيء، وهي لم تذكرني بما وعدتها به، حتى ذات ليلة، وفي إحدى مسامراتي لها، قفز على لساني سؤال لم أكن أود أن ألقيه:

ـ لماذا لا تطلبين مساعدتي للهرب من هذا السجن؟

خرت برأسها، واكتسى وجهها بشحوب يائس:

ـ من أراد أن يساعد لا يحتاج إلاَّ للإقدام، كما أنني لا أريد أن يموت أحد بإشارة مني أو إيماءة.

وتنهدت بعمق، وهي تشيح بوجهها، وتقطف دمعات يانعة نضجت بأهدابها، وأكملت حديثها ببحة عذبة:

ـ من يرد الموت يتقدم بدون ثرثرة.

واستأذنت للذهاب للنوم، وتحركت ببطء شديد، وقد تقعرت، مظهرة بشائر الولادة، فغادرتها، وكلماتها تجز أعماقي جزاً، ليلتها أحسست أنني أحقر من السوادي نفسه، ولم يغمض لي جفن، فبقيت أتقلب في مرقدي حتى إذا تنفس الصبح، وهممت بالرحيل صوب القرى المحفة بالوادي علني أهتدي إلى أهلها، إلاَّ أنه انتابني ذلك الشعور المبهم، وغالبت نفسي بحجة عدم معرفتي بشيء عنها سوى اسمها، وأسكنت تحفزي، وتأنيب الضمير بمعاودة زيارتها، واستدراجها للحديث عن أهلها من حيث لا تعلم، ودون أن أشعرها بأنني متوجه لنجدتها.

كانت حقارة ما تسكنني، وأمعن في تغطيتها بحجج واهية، الآن أجزم أن من رآها سيختلق العراقيل لتظل أمام عينه، ويستدفئ بضعفها وحاجتها إليه، وأجزم ـ أيضاً ـ بأنها لم تكن كالنساء، كانت طرية جارحة، ضعيفة لا تكسر، كانت امرأة كالحلم تمعن فيها حتى تظن أنك دمها، وفجأة تكتشف بأنك غير قادر على الإمساك بخيوطها، وأنك كنت ضحيتها بعفوية متناهية القسوة.

ككل ليلة جلست أنتظر عبور النهار بهجيره، ووحشته، وأتلهى بتقطيع خشب البوص، فقد اعترتني رغبة حارة، بصناعة ناي علني أفلح بالتزمير حينما يداهمني ذلك الشوق المبهم، وأظل أدور بداخل سقيفتي مستبطئاً النهار

بشمسه الحارقة، وعرقه الذي لا ينضب، وما إن يتمدد الليل، مسترخياً في رقدته، حتى أعبره باتجاه القلعة، متخطياً أسوارها، ومتسللاً إلى غرفتها، ومن على بعد سمعت زحيراً وصوتاً يجيش بالألم، كانت مستلقية على أريكتها، ساترة جذعها الأسفل، وممسكة، بكلتا يديها سارية الأريكة، وتنوش جسدها بقوة، وعنف، كانت تعالج الطلق بمرارة، وأمام جحوظ عينيها، وضيقها، عدت أركض باتجاه القرية.. ولا أدري لماذا خطرت ببالي نوار بالتحديد، والتي ما إن همست في أذنها حتى خرجت تسابقني في تلك الظلمة.

وظلت أدفعها لأعلى السور، وهي ممسكة بالحبل، وبعد جهد تمكَّنت من التسلق للداخل، وعندما وصلنا إليها، تبيَّن لنا استحالة الدخول إليها من خلال تلك النافذة الضيقة، فما كان من نوار إلاً أن صعدت على قامتي، وأخذت ترشد مريم إلى ما يمكنها أن تفعله:

ـ ضعي المخدة أسفل منك، وتعلقي بهذه السلسلة المدلاة من السقف، وباعدي بين ساقيك، وازحري بكل ما تستطيعين من قوة.. هيا.. قولي يا رب، اكتمي نفسك وادفعيه للأسفل.. هه.. إذا أحسست برأسه قد نفذ قاربي بينك وبين الأرض، عبده اثبت لا تتمايل، قولي يا رب.. اللّه يلعن أبو السوادي ويومه، هه.. إزحري.. بقوة.. أنزلي على المخدة..

وبعد صرخات عديدة قاسية موجعة، نهضت صرخة وليد، لم يمهلها صوت نوار فقد غطى عليها بتهليلة مباركة:

ـ الحمد للّه.. امسحي وجهه، وإياك أن يصل (الحدا)(*) لعينه، إن وصل إليها فسوف يصاب بالعمى، والآن تحاملي على نفسك واقطعي حبل السرة.. لا.. لا.. ليس هكذا، اربطيه من جهة بطنه بمقدار شبر، ربطاً هيناً، وتناولي جمرة من الموقد واكوي الحبل نفسه، واربطي المشيمة بفخذك.. لا تدخل في بطنك لو حدث تقتلك... (عفارم عليك).. لا تنزعجي،.. استريحي.

(*) الحدا: هو الخلاص أو الماء الذي يخرج بعد الولادة مباشرة.

تمايلت فوق قامتي وهي توصيني بالثبات وتناولت من زنبيلها خرقاً، وبخوراً وقذفته باتجاهها:

ـ ضمي ولدك بهذه الخروق، وتبخري لتطهري نفسك من الوسخ، أوه.. أنت بحاجة إلى لبن، أو شربة ساخنة، يلعن أبو السوادي.. ألا يوجد هنا من يخدمك؟؟.. امسحي الأوساخ من على عينيه، اللّه يحفظه، جميل القسمات، لكنه شديد السمرة.

جاء صوت مريم واهناً، هزيلاً:

ـ له سمرة أجداده.

وظلت نوار تلاطفها وتحادثها بود:

ـ هه. ماذا تودين تسميته؟

صمتت، وحينما عاودت نوار السؤال، نهض صوتها الشجي، الواهن:

ـ كانت أسمع طارقاً يطرق منامي ليلياً، وكلما أفقت، وجدت العتمة تجاورني.. وفي إحدى المرات سمعت الطارِق يواصل السير، فلم أنهض، واستمررت في منامي، فلمحت شيخاً جليلاً، ذا عمامة خضراء كالزبرجد، ورداء أبيض كالزبد، وطلعة بهية كالقمر.. مد لي الشيخ بكوفية، فرأيت بداخلها بيضة ناصعة البياض، تركها بجواري، ومضى دون أن يحدثني، واكتفى بتمرير يده بين خصلات شعري، وما إن عبرني حتى أحسست بالطلق يمزق أحشائي، وكلما زحرت سمعت طرقاً ينبعث من داخل البيضة، وعندما تنفست صعداء الوضع، تقت لرؤية وليدي، فنظرت للأسفل، لكن لا أثر له، ورأيت ديكاً أسود يخرج من البيضة، ويحط على صدري، فأنست به، وأخذت ألاعبه، وأقربه من ثديي، إلاّ أن يداً امتدت، وخطفته، فلم أعد أراه... فكنت أتحسر كلما ذكرته، وطارق الليل يعبر الأمكنة مغنياً:

ديــك الــوقــت ديــكــنــا(*)
مــن امــســحــابــه ديــكــنــا
ديــك الــفــجــر ديــكــنــا

(*) للشاعر علي الأمير.

مـــن امــهـــاجـــع ديـــكـــنـــا
انـــفـــض غـــبـــارك بـــيـــنـــنـــا
واخـــــــرج بـــــــنـــــــا
مـــن امـــغـــارة كـــلـــنـــا
يـــا ديـــكـــنـــا . . يـــا ديـــكـــنـــا

وكنت أركض خلفه صارخة، فلا أصله، ولا ينقطع الغناء، من يومها نذرت إن رزقت بمولود لأسمينه ديكا.

وقبل أن يعسعس الفجر بأهدابه، منبهاً حراس القلعة، انطلقنا عائدين للقرية، بعد أن غطت مريم في نوم عميق لم يفلح صوت نوار في إيقاظه.

في الليلة التالية كانت ثمة فكرة قد اختمرت برأسي، ولم يتبق إلاّ تنفيذها. . وكالعادة ما إن خيم الليل حتى قفزت سور القلعة، واستترت بالظلمة شاقاً طريقي صوب غرفة السيدة مريم، كانت ثمة حركة غير طبيعية، لم آلفها من قبل، حارس يمسك بـ (أتاريك) وينتظر أمام الباب الرئيسي، وبجواره انهمك آخرون في سلخ كبش علق بسارية الغرفة، وكان باب الغرفة موارباً، واستشعرت أقداماً تحث الخطى باتجاهي، فأسرعت بالعودة، ولم أتمكن من رؤية السيدة مريم إلاّ بعد مرور شهرين. . كانت مستلقية على القعادة تبكي بحرقة، وصدرها يعلو، ويهبط بضيق، وقد أينع شحوبها، وتخاذلت مفاصلها. . وعلمت أن السوادي خيرها بين وليدها، وبين أن تمكّنه من نفسها، فأبت، وأمعنت في إصرارها، ولكي يذلها سلب منها وليدها، وغادر به القلعة، وقد مضت ثلاث ليال دون أن تراه أو تضمه إلى صدرها والذي تورم، وتفتق لبنها ألماً آخر يذكّرها بطفلها المسروق، هي المرة الأولى التي أراها تستلحفني، وتتوسل إليَّ أن أساعدها لمعرفة أخبار ابنها، كنت أتفتت كمداً عليها، فطيبت خاطرها، ووعدتها أنني لن أعود إلاّ وابنها معي.

وعندما قفزت السور، وجدت أنني وحيد، وأنني لن أتمكن من الوقوف بمفردي أمام السوادي، وعادت إليَّ فكرة الاستنجاد بأهلها، فأسررت بما أنوي للشاقي، فعزز همتي، ووعدني أن يقف معي في أي عمل يسعى

للقضاء على جبروت السوادي، ودفعني باستبشار مفرح، وقبل أن أغادره، رجوت عمته نوار أن تتشمم عن الوليد عند مرضعات القرية علّها تجده.

فعلمت أن ديار بني غالب بعيدة، وتقع أسفل الوادي في منحدر عميق، والوصول إليها يتطلب الحذر من السباع التي تمشط الطريق المؤدي إليها، أو من الأشجار الكثيفة المتداخلة، والتي نبتت على رؤوسها الحيات الطائرة، وروى لي أحد القرويين أن قُطاع الطرق يأوون إلى منعطفات تلك الأشجار تربصاً بأي قادم. وبعد سماعي لكل هذا، راودتني نفسي بعدم الذهاب إلى هناك، وعندما علم الشاقي بترددي، انتدب نفسه لإتمام المهمة بدلاً مني، فشعرت بالخزي، وأنني أتآكل بجبني ودناءتي، فأبيت وأصررت على الذهاب مهما كلفني ذلك، فقد كنت أتوق لتطهير أعماقي من وساوس رانت عليها منذ القدم. وقبل التوجه صوب ديار بني غالب عنَّ لي أن أعبث بحظيرة السوادي، فحملت عدة شفرات ذات نصل رهيف، وتوجهت إلى حظيرته التي تقبع خلف الحصن، متسللاً من خلال فجوة بالسقف، وهبطت بحذر كي لا أنبه الحراس.. كان الليل كثيفاً، والخوف غزيراً، وقبل أن أفيق من جراءتي كنت محاصراً بحظائر عديدة لخيول، وأبقار، وأغنام، وبغال، وإبل، تعتلف عشباً أخضر طرياً، وبلا شعور توجهت عمودياً إلى حظائر الأغنام، والأبقار، وجززت ذروعها، وأطلقت خنجري ببطون الأحصنة، كنت أسير برعب على ثغاء، ونهيق، وصهيل منبثق من تلك الضحايا التي أخلفها خلفي، وبجنون أمعنت في مواصلة إسقاط كل ما أراه واقفاً، أو نائماً، وقبل أن آتي على حظائر الحمير، كان رجال السوادي يحاصرونني شاهرين بنادقهم وعصيهم في وجهي، ولم أتوقف إلاَّ بعد أن تلقيت ضربة على هامتي بـ (صميل) قاسٍ، ليحملونني جثة إلى حصن السوادي.. كان ينام مثلنا.. رأيته يهش عن أهدابه نوماً ثقيلاً، واستكمل خادمه وشوشته بهيبة، فاستفتحني ببصقة، وصفعة مدوية على صدغي، وأخرج جنبيته، وثبتها بخاصرتي، دافعاً إياها ببطء، فأحسست بأحشائي تتمزق، وألم حاد ينبثق من بطني، ورفعها لعنقي، وشطب أحد عروقي النافرة، لينهمر الدم على جسدي.. قام بكل ذلك دون أن يتكلم، تاركاً لضحكاته العنان، فجأة

اعترته عاصفة من السباب، وفتح فمي وبصق بداخله، وأطبقه، وعاود الضحك المر.

في الصباح الباكر كنت بين جثث تلك الأنعام، أجمعها، وألقيها بحفرة كبيرة أعددتها لهذا الغرض، ومن خلفي خمسة عبيد أشداء يسوطونني بـ «قيش» كلما تراخيت، أو آنيت، حتى إذا أنهيت دفنها ـ مع الغروب ـ، وضع بعنقي وقدمي سلاسل ثقال، وترحلت إلى القلعة، ومنذ ذلك العهد، وأنا قابع هنا، لم أبرح مكاني، ولم أعرف ماذا حدث لمريم وابنها.. آه لقد أصبحت نسياً منسياً.

* * * *

الليل غادرنا للتو، وهو يجر تلك الحكايات، ويتركنا معلقين بأنفاس عبده راجح، الذي كان واجماً، حزيناً ينفث آهاته، ويهز قيوده بأسى:

ـ ما فائدة أن تعيش سجيناً؟!

ثم التفت إلينا دامع العين:

ـ إياكم أن تستسلموا لهذا القيد.. أعلم أن أعماركم الصغيرة ستخلق لكم وهماً كبيراً اسمه الغد.. ليس هناك غد، فلا تركنوا لمثل هذا الوهم، فالموت أقرب إلى السجن من الحياة.

فقال أحدنا:

ـ ألم تحاول الهروب يا عم عبده؟

فزفر بحرقة، ومرر عينيه على القيود التي تجمعه بصاحبيه، فخرج صوته أكثر ثقلاً مما مضى:

ـ كيف لي بالهروب وأنا معلق باثنين، وإن نحن اتفقنا ثلاثتنا على ذلك فكيف لنا أن نعبر هؤلاء العسكر المدججين بالسلاح والقسوة، لو كان وضع السجناء كما سبق لاستطعنا أن نتقافز من هذا الجحيم.. فقد حدثني سليمان أبو عاصي وهو أحد السجناء القدماء ومن الذين فروا ذات يوم وجربوا تلك المغامرة، فقد روى لي قصة هروبه قبل أن يقتل فقال:

ـ لقد كان السجين يسلسل وحيداً، وفي ذات يوم اغتنمت غفلة الحراس

ومتابعتهم لقوافل الغجر القادمة ودسست نفسي بكومة تراب، ومن هناك تسللت إلى أحد المزارعين واستجرت به وقام بتهريبي مع أحد الجمالة الجبناء والذي خاف من افتضاح أمره فعاد بي بعد أن قطعنا مشواراً طويلاً، وأخبر أعوان السوادي، والذين لم يتوانوا عن جز رأسه والعودة بي إلى هنا ومن يومها أدخل أمر جديد بأن يقيد كل ثلاثة في سلسلة واحدة وأن يلحق بها كرة من حديد..

ولقد مات سليمان أبو عاصي ذات ليلة بعد أن خرج لملاقاة رجل تركي، فقبل أن يخرج ودع جميع زملائه بصوته:

ـ قد تكون هذه آخر حياتي فإذا سمعتم طلق نار فاعلموا أنني قضيت نحبي، والذي أريده منكم أن تترحموا عليَّ وأن لا تركنوا لهذا البغاء.. ولا تخافوا من السوادي فما هو إلاَّ عصا لينة بيد غليظة.

وخرج وتبعته طلقة نارية مدوية، انطلقت بعدها صرخات المساجين وبكاؤهم، والذي زادته قيش العسكر المحاولين إسكات تلك العاصفة من النحيب.. ليلتها لم ننم، وفي الصباح كان جثمان أبو عاصي يسير فوق أكتاف الجنود ويلقى بداخل قفص سيارة حملته وحملت معه ذلك التركي اللعين وبعدها أصبحت أفكِّر في الجملة الأخيرة من وصية أبو عاصي:

ـ من هي تلك اليد التي تمسك بالسوادي؟!

ولا زلت أفكِّر إلى الآن.. هل يكون ذلك الأبرص الذي قدم مع المعونات التي دخلت إلى قريتنا..

فصاح أحد المساجين به:

ـ لا داعي للتفكير الآن وأكمل لنا القصة؟

فعقب عليه عبده راجح وأمن على مقولته، وتهدج صوته بانطفاء:

ولا أذكر محاولة للهرب من القلعة كتب لها النجاح وكثيرة هي المحاولات التي لم تتعدَّ أسوار القلعة وأطرفها أن ثلاثة من السجناء تربطهم سلسلة واحدة اتفقوا فيما بينهم على الهرب. وفي إحدى الليالي صرخ اثنان منهم في الحراس بأن يسمحوا لهم بالتبرز فقادهم عسكري إلى الخلاء ولا

أدري كيف لفوا سلسلتهم بحلقه، وعندما حاولوا الهرب وجدوا أن إحدى حلقات السلسلة غاصت بترقوة الحارس فزادهم على ثقلهم ثقلاً، وعندما تأخروا خرج في أثرهم اثنان من الحرس واكتشفا تلك المحاولة البائسة فعادوا بهم وهم يحملون جريمتهم ولم يخلصوا جثة الحارس من تلك السلسلة إلاّ في اليوم التالي عندما أحضروا حداداً قام بكسر الحلقة الغارقة بجسد ذلك التعيس، وتمّ دفنهم مع ضحيتهم وهم أحياء.. ومنذ تلك الحادثة منع التبرز بالخلاء إلى وقت قريب، وإن لزم الأمر عاد الحراس إلى تطبيق أمر التبرز بداخل الزنزانة.

كانت خيوط الشمس الأولى تعبرنا من خلال فجوات زنزانتنا، فبانت وجوهنا وأوضاعنا. كان درويش نائماً بشكل يدعو للرثاء، فقد انطوى كحية هرمة، ماداً أطرافه لمن يشاركه القيد، ومسنداً مقعدته على الأرض، ومرخياً هامته بين ركبتيه، ولم يفق من هذا الوضع إلاّ عندما تحركنا صوب الخلاء لقضاء حوائجنا، فيما كان شبرين يتطلع بقلق من خلال فجوات القلعة صوب الطريق القادم من هامة القرية، وكلما ابيضت خيوط الشمس زاد قلقه حتى إذا لمح شبحاً قادماً يتهادى من على بعد، متكئاً على بندقيته، وصفير مفرح يتقدمه، تراجع عن الفرجة، واستكان بمجلسه، فيما كان الصفير يقترب منا، فاضحاً عن محروس الذي كان على غير عادته يدندن بغبطة:

ـ (واه حليم مالك عني رحلتي).

لنراه واقفاً بيننا، حاثاً إيانا على الخروج للخلاء لقضاء حوائجنا، والهرب إن شئنا، فظننا أنه يسخر بنا حتى وإن صدقنا دعوته فثمة حرس لا يأتمرون بأمره، فهؤلاء يرتبطون بالسوادي مباشرة، لذلك تقبلنا فكرة الهرب بشيء من التندر.. اقترب محروس من شبرين، ورفع صوته:

ـ اليوم غسلت وجهي.

فلم نفهم ما يرمي إليه، وازدادت دهشتنا حينما التقى مع شبرين في عناق حار، ليخرج شبرين حاملاً قيوده بنشوة، ومستقبلاً هذا الصباح الندي بأغانيه الشجية.

الحياة أفضل وسيلة للموت

شبرين

هطل ليل كثيف على القرية. . . وارتفعت أصوات الجنادب (تصنصن) من الحقول المجاورة، ومشت ريح حفيفة بين العشش المنكبة على أصحابها تغطيهم من لذعة برد أخذت تجوس الأمكنة. وقد استسلمت تلك الإجساد لنوم عميق في انتظار يوم آخر من الوقوف والانحناء الطويلين بين الحقول، ولم يبقَ مستيقظاً إلاً أنفاس رتيبة متتابعة، تجد بلهاث محموم.

في هذه الهجعة الليلية انطلقت أربعة عيارات نارية بحدة، مخترقة ذلك الصمت الرهيب، ليجفل هدوء الليل للحظات، ثم يعود ساكناً، جاثماً على منحدرات القرية، ثمّة ألم ينبت مورقاً في هذا السكون المنداح باستغاثة ذابلة حتى إذا تقطرت منه آخر الأنفاس صمت تاركاً أصوات الجنادب تلاحق رجلاً، أفرغ بندقيته للتو بجسدين متلاصقين.

كان وحيداً يسير في هذا الليل، وصوته الأجش يكسر أغنية جميلة، وعلى ضوء كشاف صغير تهتز أمامه الطرقات، فيشد بساعده على بندقيته، ويتطلع للوراء، وحينما لا يلمح وراءه إلاً الليل والصمت، يأخذ نفساً عميقاً، ويطلق ضحكة عريضة مفزعة. في طريقه إلى القلعة كان يعلق يديه على بندقيته، ويرفع رأسه للسماء عاداً نجومها القليلة، والمتباعدة، فيحصيها ويضحك بعمق:

ـ يا اللّه لم أكن محتاجاً إلاً لعدة طلقات كي أضحك!!

خرج من القلعة بعد همسات خافتة أسر بها في أذن شبرين، فبعد عن نكب تخزينته العيبانية، وتناول قهوته التي حمص قشرها بيده، وتمايل على غناء

شبرين حتى قلب كوفيته للأمام، وأخذته النشوة، فرقص كأنه لن يرقص بعدها، وجذب بندقيته، وبلل قطعة شاش بخزان فانوسه حتى ارتوت، ومررها بين مفاصل بندقيته، وعمرها بطلقات جرمن، ومضى مخترقاً الطرقات، والأهازيج تملأ شدقيه. سار حتى مدخل القرية، فتريث، وأخرج من مدرعته كشافاً، وعدة طلقات إضافية، وهز بندقيته، حتى إذا اطمأن إليها، اقتحم أروقة القرية واثقاً، واتجه دون انحناءات لعشة نصبت بالقرب من المساني، اقترب كثيراً من مردام العشة، فتناهى إلى مسامعه صوت أنثوي يلهث بقوة وعنف، يتبعه خوار ضخم حتى إذا ناخ كل بلذته سمع قبلة تطرقع في الظلمة، وصوت رجل يحث من معه على معاودة الكرة. ظل ثابتاً حتى ارتفع اللهاث مرة أخرى، فمد قدمه لداخل العشة، وأضاء بكشافه عتمتها، فتقافزت أربع عيون من محاجرها، وصرخ الرجل بهلع:

ـ أنت.. ما الذي جاء بك؟

فضحك القادم حتى أوشك أن يسقط بندقيته من يديه، وقبل أن يتحرك أحد من مكانه شد بندقيته على ساعده، وأطلق أربعة عيارات مدوية، لتخترق جسدين عاريين لم تجف رغبتهما بعد، وخرج يصفر بفمه متجهاً للقلعة.

في الصباح الباكر فاح خبر موت حليمة بالقرية.. بعدها لم يعد محروس حارساً للقلعة بل سجيناً، انضم إلى قافلة السجناء الذين يجرون أغلالهم، وغلهم، وينتظرون أن تتحرك القرية لنجدتهم.

أما ولي فقد خرج من العشة يجر جسده الضخم، وعيار بث صدره، وترك الحياة تتسرب منه على مهل، فتجاسر على الاستغاثة قبل أن تنضب أنفاسه، وعندما سقطت استغاثته الذابلة، تحرك بصعوبة نحو داره، وهو يئن بثقل، وهناك أسلم صدره لحجام القرية، يعبث به كما يشاء ليلحق برصاصة أبطأت كثيراً قبل أن تصل إلى قلبه الصلد، وبقي يهف على جروحه بأنين ريان، واستلقى على (قعادته) ينتظر الغد أيضاً.

من وُلِد عارياً فليستتر بالناس

العجوز نوار

لأول مرة يحدث هذا الحدث في تاريخ القلعة.

ولم يكن مصدقاً ما حدث، كان كحلم أخذ الكثيرون يشككون فيه، وحينما تيقنوا منه، لم يجرؤوا على إطلاق زغاريدهم ولو همساً، وظلت الألسن تحيك أقاويلها، وأسئلتها في الخفاء:

ـ لماذا هؤلاء بالذات؟

ـ يقولون إن أبا قضبة شفع لهم.

ـ لا.. لا بدّ وأنه على فراش الموت، وخشي أن يلاقي به بكل هذه الآثام.

ـ وماذا عن الآخرين؟

ـ يقولون.. ليس هناك من يدفع ثمن أكلهم بداخل القلعة.

ـ لم أسمع بأن أحداً خرج من هناك منذ أن كنت طفلاً.

ـ يمكن أن يكون قد رق قلبه لعبده، وذلك الصغير، ولكن ماذا عن ابن الشاقي؟

ـ سمعت أنهم فتحوا عيون المساجين.

ـ يقولون إن السوادي يحلم بهم ليلياً، وهم يغرسون شفارهم بجسده.

ـ تقول خميسية.. لقد نوى السوادي إخلاء القلعة، وهذا أول الغيث.

ـ سمعت أن ابن الشاقي شارك في قتل حليمة.

ـ ويقولون إن جنية درويش أحرقت القلعة.

ـ يقولون بأن موتان ملأ القلعة خريان.

ـ سمعت أن الشيخ موسى أفتى برفع القلم عنهم.

ـ سبحان مغيِّر الأحوال يغيِّر ولا يتغيَّر.. من كان يظن أن تخرج هذه القلعة أناساً أحياء، ياللّه انكتب لهم عمر جديد، ولا بدَّ أن يفدوا أنفسهم بكم كبش.

ـ كل القرية سجن، ولا فرق بين داخل، أو خارج القلعة.

ـ استغفر اللّه.. استغفر اللّه.. يقولون بأن رئيس الحرس الجديد وصل إلى بطن صابرة.

تقول خميسية.. نذر السوادي لو شفي ولي من الترصيص فإنه سيفديه بعشرة رؤوس، وقد وفى بنذره.

ـ يقولون لم يطلق سراحهم بل هربوا، والويل لمن تستر عليهم.

ـ سمعت أن السوادي يحب رعنا، ومن أجل عينيها أخلى سبيلهم.

يقولون إن ابن الشاقي اعترف بأن أباه باع حقوله للسوادي.

لم يكن ثمة أحد يعرف سرَّ ما حدث، وظلت أحاديثهم تتراوح بين يقولون وسمعنا، كانت هناك قلوب أكثر بشراً بما حدث، فقد انطلقوا من فناء القلعة، وهم غير مصدقين، حتى إنهم أخذوا يتلمسون بعضهم، ويصرخون:

ـ آه لا زلنا أحياء، لم نمت داخل هذه المقبرة الكبيرة. ولم يكن لديهم الوقت ليسألوا ذلك الجندي الذي قادهم سوياً، وألقى بهم خارج الفناء، فاكاً عن أيديهم وأرجلهم تلك الأثقال الحديدية، وصرخ فيهم:

ـ انطلقوا إلى ذويكم.

وعلى غير المتوقع انطلق درويش إلى داخل القلعة، وعيناه تفيضان بالدمع، وانكب يقبِّل محروساً، ويضمه إلى صدره، ويقبل رأس عبده راجح، كان يود تقبيل كل المساجين إلاَّ أن الحراس أمسكوا به، وقذفوه للخارج، فانطلق للخلاء، حين كان عبد اللّه وموتان يتبعانه بالصوت:

ـ درويش إلى أين تركض.. تعال معنا.

كان لكل منهم قلب يأويه، ولم يكن لديه إلاَّ حزن يطارده أينما رحل.

كنت أنقش الحياة...
وحين فرغت وجدت أن الجدار أعمى

صابرة (رعنا)

أحمل له كل حقد الأرض، ولن يشفيني منه إلاً قتله.

أحمل له كرهي القديم، وجروحاً زرعها في حياتي، لن يهرب مني، وإن استطاع، فسوف أتبعه حتى داخل القبر. . نعم سأقتله، وأمضغ أحشاه، كي أشفى من حزني. . لا. . لا. . لا بدَّ من شنقه لأترك بطنه ينتفخ كدابة نفقت وهي ترغي بألم، وسوف أبقر بطنه ليشم أهل القرية نتانته، ويوقنوا أنه كان بوسعهم قتل هذا الثعبان الأبدي، وحينما يشمون رائحته تعكر الهواء سيجزمون أن كابوسهم قد مات، لن تكذبهم أنوفهم، وعيونهم هذه المرة، ففي كل مرة كنا نشم رائحة نتنة، نفرح، ونطلق الزغاريد، ظانين أنه قد عبر صدورنا، وما إن نتهيأ لقبره حتى يتضح لنا أن كلباً، أو حماراً مات بدلاً منه. . فنترك الجثمان للجِدآن التي تتخطفه، وتزيح عن أنوفنا نتناً قادماً من جسده.

نعم سأقتله، وأجزم أن فعلتي هذه سوف أثاب من اللّه لاقترافها، فهذا الثعبان عاش حتى ملَّ منه الدهر، فمنحه جناحين يطير بهما خارج حدوده، وأصبح وكأنه (حنش أبو جوهرة). إنه الشيطان الذي منح العمر كي يمضي بنا للهلاك، وهذه القرية تستعيذ منه كل صباح ومساء، وتمضي دعواتها هباء، دون أن يغرب وجهه عنا، وقد جبلت ـ هذه القرية ـ على الاستعاذة منه سراً. كنت مثلهم أتمتم بالدعوات حتى إذا أحرق حياتي لم أعد أحتمل رؤيته يضحك من آلامي. . سأتجاوز عادة التعوذ منه سراً ـ هذه العادة العاجزة ـ وأقدم على قتله. فإبادته رحمة لتلك القلوب التي تخفق بشدة، أو تتوقف لذكر

اسمه فقط.. ونهايته تعني خروج تلك القامات من انحناءتها الطويلة، المحنطة، لفضاء الله، ستمكّنها من مد رؤوسها للأعلى.

إن في قتله فوائد جمة للأرض، والزرع، والأنعام.. إنه السم الذي يجري في كل الأوردة.. يختلط بالهواء فتموت الثمار، وتغور المياه، إنه إحدى معجزات إبليس، فقد أوكله في الأرض بدلاً منه، وتفرغ للنوم ليترك له مهمة الإغواء، وإثارة القلاقل، وصب النار على أجسادنا، وفي هذه القرية التي أصبحت لا تحلم بشيء سوى تنفيذ أوامره والاستظلال بظل حذائه.. يتسابقون أيهم يكسب شرف أن يضع السوادي قدمه على هامته، هم معذورون، فالحياة قاسية، أليمة، وهو يمسك بالماء، والغذاء.. يمسك بالرقاب يثبتها، أو يزيلها.. هؤلاء الناس أدمنوا الخوف منه، وأصبح الخروج عليه كالخروج من الحياة، وليصبح السيد المطاع الذي يكفي أن يرمش بعينيه، كي تسقط الأفئدة إلى أسفل صدورها، تضج بالدعوات أن يرضى عنهم هذا الشيطان.. أجزم لو نجحت في قتله، سيخرجون في أثري مطالبين بدمي، فمن أين لهم ظل كظل حذائه!!.. لقد تأصل فيهم الخنوع.. سيشعرون فجأة أنهم أحرار يفكرون، ويأكلون، ويغنون كما يشاؤون، وهذا أمر لا تقوى عليه القرية، فقد وجدت نفسها مؤرجحة، يؤرجحها كيف شاء، وموته يعني فقدانهم لحالة التأرجح، فالتوازن بالنسبة لهم أن يبقوا معلقين في الهواء، ورؤوسهم تدور بالتعب، والقيء.. إنها عادة جبلوا عليها من أمد طويل، ومن يخرجهم منها لا بد من إراقة دمه.. هم كالنحل يركضون خلف أمهم لقتلها، ويسخرون أعمارهم للغير.. يصيغون لهم العسل، باذلين حياتهم لأناس لا يعرفونهم، وهم لا يطيقون أن يروا أمهم بينهم، تلك النحلة الحكيمة التي لو بقيت على قيد الحياة لأمعن أبناؤها الحمقى في إهدار أعمارهم من أجل أناس يستلذون بسجنهم، وإخراج ما في بطونهم.

وهذا الثعبان لا أدري كي استطاع أن يسخر من هذه القامات لكي يعبرها، وهي منحنية.. قليلون رفضوا أن تنحني جباههم لحذائه، فبقوا في ناره يسوطهم بأسوأ العذاب. يعقر أنعامهم، ويعاقر نساءهم، ويضع يده على حقولهم، ويزج بهم في ظلمات القلعة. هذا اللعين كان في ذات يوم يحلم

ببطني وكراً لنسله السام، فتسامقت أمام رغبته، ورفضت أن أكون مخزناً لرغباته، فأقسم أن يطاردني مدى الدهر، ومنذ أمد طويل، وهو يزحف لبطني، وعندما عجز من ذلك انحنى لذريتي، لمحت آثاره على صدر صالحة.. حين كان جبريل يستنطقها، كنت مع كل عصا تهوي على جسدها، تنمو في داخلي رغبة حادة لقتله، وجبريل يمعن في ضرب ابنتي، وأنا أبكي في داخلي بحقد غليظ، وأستصرخه أن يرحمها.. ألم يكن من الأولى أن توجه هذه السياط لذلك الثعبان الذي يسير بجسده الناعم ليلتف حول أعناق الجميع.

حين كان جبريل يهوي بعصاه على جسد صالحة، وهي تتلوى في محاولة لتغيير مواضع تلقي العصا، كنت أتمنى أن أتركها تموت تحت تلك العصا، وأخرج حاملة منجلي، وأتجه صوب حصنه، لأبقر بطنه، ومرة أخرى أتمنى أن أحمل منجلي وأبقر به بطون أهل هذه القرية الذين تجمعوا مبتهجين بفضيحتنا. في أوقات كثيرة أبرئ السوادي، وأجد له العذر في كل ما يصنع بنا، وأتهم هذه العيون المنكسرة، والقامات المتصببة للأسفل، فالسوادي وجد رجالاً كالحمير تقدم له ظهورها، وترخي رؤوسها بتلذذ.. إنّ عجز الرجال يولد نمروداً يسعى في الأرض، ويملأها خراباً، هذا النمرود سيفكر كثيراً قبل أن يقدم على شيء، إن كان هناك من يقف من وجهه، ويمسك يده، فاليد التي لا تجد من يردعها تصبح يداً طليقة تضرب الرقاب، وتسرق الأموال، وتقود المنحنيين إلى الهاوية.

أجزم أن عجز رجال القرية هو الذي نصَّب فينا هذا الموت، ودفعه للإمعان في جرائمه، ليصبح من غير اللائق أن يأمر فلا يُطاع، وأن يشتهي فلا يتلذذ بشهوته، وأن يبصق فلا نتبرك ببصاقه، لقد انقلبنا إلى حيوانات أليفة ليس لها من هم سوى المضغ، والرغاء الممتد.

في أوقات كثيرة أتخيَّل السوادي يسير على أجساد النساء بعد أن أمر رجال القرية بتغطية عيونهم بأيديهم، وعندما ينتهي من لهاثه.. تنفض النسوة شعورهن، وملابسهن، وينهضن باكيات، ليهزوا تلك القامات الشاهدة على جراحهن:

ـ كيف تركتموه يعبث بحقولكم؟

فيتأتئون ببله:

ـ لقد أمرنا بذلك، ولكننا ضحكنا عليه، ولم ننفذ ما أمر!!

فتتساءل النسوة بغيظ:

ـ وكيف ذلك وقد امتطانا كركوبة مستباحة؟

وتكون إجاباتهم سقيمة، مضحكة، تشعل ما تبقى من صبر في صدور النسوة.

ـ لقد وضعنا أيدينا على عيوننا ـ كما أمر ـ إلاَّ أننا فرجنا ما بين الأصابع، ورأينا كل شيء.. أنتن نساء حرائر!!

وألمح كل منهم يحاول الاقتراب من وليفته، فتنفضه عنها بتذمر، وهن يرددن جملة واحدة:

ـ تفو عليكم رجال.

هذه هي أقرب صورة يمكن أن أرويها لسيرة هذا الثعبان بيننا، حتى في استمتاعه بملذاته لا يحتجب، بل يزداد عهراً كلما وجد طريقاً لتحقيرنا.. وأمام خوف الرجال على رقابهم المتدلية على صدورهم، والتي تستمتع بانحنائها، وتغمض أجفانها إذا رأت ما يكدر خاطره، لذلك أصبحت القرية فراشاً وثيراً لهذا الكلب، وينقلون على لسانه قوله:

ـ لماذا أتزوج وكل النساء لي.. لي لوحدي فقط.

لقد استطاع أن يجعلهم يهابونه، هيبة راجفة.. إنهم يسوقون أنفسهم لحبه، فهم يخافون أن يفكروا بكرهه، فيعرف ذلك.. أنهم يخشون على رقابهم أن تنفصل فلا يلتقون بها أبداً، فقد دأب على دفن الأجساد وحيدة، تاركاً تلك الرؤوس معلقة على أبواب الجامع تنظر للقرية حتى تتيبس عيونها، وتتعرى من جلدها.

لذلك حق له أن ينبح، فتموت الأصوات، ويتمطى، فتهتز الأيدي بالمراوح الخزفية لتبعد عنه الكوابيس، ولينعم بنوم هانئ، وإن ولغ في إناء أحدهم كان له شرف استخدامه بعده دون أن يطهره من دنسه. كل شيء هنا

متهالك إلاَّ صوت السوادي، إنه الموت الهارب من الزمن. . يركض فينا كلما آثرناه بعافيتنا حتى إذا أصابنا وباؤه، ابتعد عنا، وتلذذ بآهاتنا، وتركنا نسقط كطائر أصابه الهرم بداخل قفص محكم، فبعد أن قرضه وجه سجَّانه أمداً طويلاً حتى أصبح لا يعرف وجهاً في الحياة إلاَّ وجه سجَّانه، فتح له الباب فسقط ميتاً قبل أن يغادر سجنه. ونحن مسجونون داخل أجسادنا، وظل أوفياء لخوفنا منه حتى إذا قرع الموت أرواحنا فوجئنا بأن في الحياة موتان.

قد نتناغى بأحزاننا سراً، ولكن سرعان ما يعلم بما نحيكه في نومنا، فيصيبنا الأذى منه، وننحدر صوب شقوق الأرض نبحث لنا عن قبور تواري أجسادنا عن عيون كلابه الشبقة، المنتشرة، والواقفة بقوائمها على الجيف، وعلى أنفاسنا. . يبدو أننا ثمار خسئة تتساقط من أدنى دودة تعبرها، فها هو الزمن يدوس أجسادنا، ويتسلل إلى أوردتنا ـ دون أدنى مقاومة ـ لنستسلم له باسترخاء حتى إذا امتص رحيق حياتنا، وأفرغه في جوفه ترك أعمارنا تتساقط مخلفة رائحة نتنة.

هو الوحيد ـ على ما يبدو ـ الذي هرب من الزمن، واحتمى بجبروته، وظل يراقب تساقطنا كأعجاز النخل المغتال، وحين يفرغ منا منجل الزمن، يجيؤنا مخفوراً بكبريائه، ونحن مصلوبون بتراب التعب، والموت، فيقلم هاماتنا، ويصفنا تحت ركايته ليبصق علينا كلما استدارت وجنتيه بالقات، وها نحن لا زلنا نستقبل بصاقه باسترخاء جامد، وها هو عجزنا يتسامق بأعماقنا، وعبثاً نزفره مع آهاتنا المتلاحقة.

هذا الثعبان استطاع أن يتسلل إلى دواخلنا، ويربض ساقياً لشجرة الخوف، التي تنمو في أوصالنا مثمرة، وحين نأوي إلى مراقدنا يسابقنا إليها، ويعكِّر أحلامنا، فنستيقظ نحصي الأنواء، ونقرأ البروج، فتنهمر علينا كسفاً سوداء، وليلاً طويلاً، فننفض النوم عن أهدابنا، ونلهب أجسادنا بالركض بين الحقول.

أصبحنا نعيش تحت خيزرانته اللينة، الحارقة وغدا هو الحياة التي أجمل ما فيها نومه. . وحينما تغفو عيناه قليلاً نعود نسابق أنفاسه القصيرة إلى

مراقدنا، نبعثر أحلامنا، ونخرجه منها لبعض الوقت ونتنفس.

لا أحد يعرف عنه شيئاً البتة. اللَّهُمَّ إلاَّ أقاويل تتناقلها الألسن بتكتم شديد، وخوف أشد.

يُقال: إنه لم يكن طفلاً في يوم من الأيام.. فقد وجه السوادي الكبير في الخلاء يتنزه، ممسكاً بعصاه يسوط بها الأشجار، والرمال، ويقتلع النباتات البرية، وحين يداهمه العطش يمد رئتيه، ويعب من الهواء حتى يرتوي، وقد وجد في صفاته ما يروقه، فقربه من قلبه، وتبناه، وأوصاه أن يقتلع الهامات بدلاً من النباتات، وأن يسوط الأجساد بدلاً من التراب المتطاير.

وآخرون يقولون: إنه وُجِد ملفوفاً بخرق بالية في فناء راعي القضبة.. ولم تستطع أي امرأة أن تكفله أو ترضعه، فقد أمات عدة نساء منذ طفولته. في البدء أشفقت عليه إحدى جواري السوادي الكبير، وطلبت من سيدها كفالته، وما إن مدت له بثديها حتى قرط حلمتها، تاركاً صدرها يفور بالدم، وقضت نحبها حيث كانت، وتوالت الجواري على إرضاعه، ولم يكن نصيبهن خيراً ممن سبقهن، يومها قيل لا بدَّ وأنه سيد، والسادة لا يشربون لبن الجواري، وأتوا له بحرة من بيت الأشراف، وما إن مدت ثديها حتى قضت من قبل أن تفطم ابنها. فلم يكن أمامهم إلاَّ أن أعادوه لفناء القبة، ومكث، مقذوفاً بها قرابة عام كامل، بعدها لمحوه يزيح لفافته، ويخطو صوب القبة، ويقسم من حضر الواقعة، أن الطفل كان مختوناً، ولم يقترب منه أحد منذ إعادته للقبة، ويؤكد الأولون أن الطفل من نسل راعي القضبة، وقد أخطأت والدته، فعاقبها اللَّه بابن يحمل قلب ثعبان، يلدغ القريب والبعيد.

وتنحرف الرواية قليلاً في بعض القرى المجاورة، فيروون أنه عندما أزاح لفافته، توجه إلى القبة، فانفرج قبر (راعي القبة)، وخرج مرحباً به، ومكثا يتحدثان لوقت قصير، وسرعان ما ارتفع صوت الطفل، محقراً السيد، فعاد إلى قبره، ودعا عليه، بأن يباعد اللَّه بينه وبين الموت، وأن يبعد عنه كل القلوب، ليظل وحيداً، لا أحد يشعر به، حتى إذا اشتاق للموت لا يجده.

وأكثر الروايات جرأة، واقتحاماً لسيرته، هي تلك الرواية التي ذهب

صاحبها قبل أن يكملها، فقد روى: أن السوادي الكبير كان عقيماً، بارد الهمة، وكانت زوجته امرأة شبقة، لم ترضخ لقدرها، فكانت تأتي العبيد، وتمنحهم لذة الحياة، حتى إذا تكور بطنها، وجاءها الطلق لجأت إلى راعي القضبة، ووضعته هناك. وشاع خبر الطفل في القرية، فطلبت أمه من السوادي الكبير أن يتبناه، فاستجاب لرغبتها، وما إن قربته من صدرها حتى فاضت روحها.

وقد أكمل النسوة هذه الحكاية بزوائد لا أعرف مدى صحتها، فهن يتسامرن بها قبل أن يذهبن إلى مراقدهن.. وتقول بقية الرواية:

بعد أن علم السوادي الكبير بأن هذا الطفل ابن حرام خرج من بطن زوجته، قرر قتله، فرؤيته تذكِّره بخيانة زوجته له، فأخذه وسار به في جوف الخلاء، وهناك أخرج مديته، وأجهز عليه، فرأى فمه فاتراً بابتسامة ساخرة، ليزداد غيظه، ويقبل على تقطيعه أوصالاً متناثرة، ودفنه، وعروقه لا تزال تنبض، ومضى ساخطاً. وبعد أيام قليلة هطل مطر غزير، فارتوت الأرض، وأنبتت غلاماً، وجد في الخلاء يسوط التراب، ويشرب الهواء.

في تلك الأيام داهمت السوادي الكبير كوابيس أرقت مرقده، ولم يهنأ بغمضة جفن، كان يحلم بثعبان يلتف حول عنقه، وكلما بتر جزءاً منه نبت ثعبان آخر، فيئس من قتله، ورغب في الموت، فقرب فمه من فم الثعبان، فاستحال إلى معزف طرب له السوادي الكبير... فاستيقظ فزعاً، وقد أول له المؤولون أن عداء الطفل سيخلق له متاعب جمة، وأوصوه أن يضمه إلى صدره إن أراد أن يبقى سيداً لهذه القرية، فخرج للخلاء، وعاد به إلى حضنه، وأصبح يناديه بلقب يا ولدي.

ويقولون: إن السوادي الكبير، وربيبه لم يعد يراهما أي مخلوق، فقد أوصاهما المنجم بالاحتجاب عن الناظرة، وفي مواسم الأمطار يخرجان إلى البرية، ويتجردان من ملابسهما، متعرضين لزخات المطر، حتى إذا أوحلت الأرض، تمرغا بها، وفي عودتهما إلى حصنهما، يعرجان على القبة ويفصدان دمهما، ويتدهنان به، وبهذا ينجوان من الموت.

ويقولون: إن السوادي الكبير لم تأتِهِ المنية مطلقاً، وكل ما حدث أنه نسي أن يتدهن بدمه في إحدى المرات، فابتلعته الأرض، وهو الآن يحكم أهل الأرض السفلى.

ظل السوادي أحجية بعيدة المنال عنا، فالبعض ـ أيضاً ـ يؤكد أنه حينما كان طفلاً صغيراً خرجت أمه لحضور زفاف إحدى صديقاتها، فأصابه بلل البول، فبكى وجفّ حلقه من البكاء دون أن تفيق خادمته، وأصبح صراخه صريراً يجرح سكون الليل، وكانت ثمة جنية قد طابت نفسها لنوم وليدها المريض، إلاّ أن صراخ السوادي أقلق نومه، فأفاق يئن، مما أزعج أمه، ودعاها للخروج لإسكات ذلك الصرير، فنوت مسخه، وحين وقفت فوق رأسه، انتابتها رغبة في إخماد أنفاسه، فكممت فمه، وهمت بما نوت، لولا أن رأت شارات لخبثه، فقد أطلق أسارير وجهه، وتكورت قدماه، واحتضن وجهها بيديه، وناغاها بجمل مبهمة، أضحكت سنها، فتراجعت عما عزمت عليه، وأرضعته، فاستطاب، وسكت.

ويقسم أهل القرية بأنه يحكم الجن، والإنس، فقد مس جوفه لبن سادة الجان، وسادة البشر، وقد زوده الجن بأجنحة يطير بها إلى حيث يشاء، ويدللون على ذلك بمقدرته الفائقة على الانتقال بين قرى الوادي بلمح البصر، وأن أعداءه لا يقدرون على الوصول إليه، فالبنادق، و (الجنابي) لا تخترق جسده المتلبس بمارد ذي جلد حديدي.

فقد روى أحد أعوانه أن رجلاً من بني سيف أراد قتله، وظل يترقبه حتى وجده وحيداً، فغافله بطعنة في صدره، وكاد الرجل يغمى عليه حينما رأى جنبيته ترتد إليه معوجة، ولم يتمالك نفسه من الذعر، فغرس جنبيته المعوجة بصدره، إلاّ أن السوادي أمر جنه بالوقوف ما بين صدر الرجل وضرباته، لتذهب محاولاته سدى، ومات مرعوباً من ضحكات السوادي المتواصلة.

ويقولون: إن الجن خيَّرته بينها وبين من يحب فاختارها دون أهله وخلانه، ولكي لا ينازعه أحد فيما هو فيه، وليظل قلبه فارغاً منهم دعاهم لوليمة، وسقاهم لبناً مسموماً، فنفقوا في الحال، وأمام هذه الفعلة خرت له

الجن جميعها، وأصبح بهم يرى، ويسمع، ولم يرضَ بذلك، حتى اطلع على خباياهم، وأسرارهم فتمكن من علومهم، ولم يعد لهم من خيار سوى خياره، فسخَّرهم، وأذلهم، حتى إنهم ضاقوا به ذرعاً، ولم يجدوا سبيلاً للخلاص منه، وظلوا يحيكون أمنية موته سراً، خوفاً من أن يعلم بما يسرون فيصيبهم بسوء.

وقد أخبرني جدي عنه فقال:

ـ إنه يقف على بركة من الدماء، فقد صنع بطشه من ضعفنا، ومد قامته بانحناءاتنا، وعرف كيف يسوقنا فسادنا، وامتطانا ركوبة ذليلة، ولكي تظل العصا بيده، يسوطنا متى شاء، بتر كلّ قامة حاولت النهوض، وقد داخلني الشك في أنه يستسقي الأخبار من الجان، فهو يعرف العين التي ترف منه، أو ترف عليه، إنه العذاب الذي ابتلينا به إلى أن تقوم الساعة، وكلما مضى دهر قلنا سيقضي فإذا به يشب في أوردتنا ناراً لا تنطفئ، وكلما خمد في أنفسنا، وهممنا بنفضه، عاد كالنوم الهالك، فنستسلم له بخدر، ونمضي مع كوابيسه كيفما شاء.. منذ زمن ـ وفي يوم واحد ـ قتل خيرة أهل الوادي.. فقد نادى مناديه بالناس ـ على طول الوادي، وعرضه ـ أن الجن سوف تخطف كل من لا يجدون بهامته (رونج)، فأقدم أهل القرى على وضع (الرونج) بغرة وجوههم، وفي اليوم التالي من النداء، أمر السوادي عبيده، وعساكره بتفتيش كل أنحاء الوادي، وجلب كل من ليس بهامته (رونج)، وقد اجتمع له خلق كثيرون، فنادى بسيافه، وأطلق يده في جز كل تلك الرؤوس، دون استثناء.. ويقول جدي بأن السوادي دأب كل سنة على تمحيص المحيطين به، وفي القرى فإن رأى شخصاً بدا عقله ينشط، بتر له هامته قبل أن يمدها في وجهه، وما (الرونج) إلاّ اختبار ليعرف تلك العقول التي كفرت بما يقول، ليكون جزاؤها الموت الزعاف، فليس من اللائق أن تبقى منتصبة أمام وجهه، فسقف البطش لا يتسع لهامتين.

وكان يعمد إلى أعوانه ببث الإشاعات، وينتظر ليرى ماذا يصنع أهل القرية، فإن أحس بدمدمتهم وتبرمهم، خرج خطيباً بالجامع، ونادى بالناس أن يعينوه على من يريد شق عصا الجماعة، ويضع جملاً مكافأة لمن أمسك

بقوال، عندها تجد أن الكثيرين قد أصبحوا أصحاب جمال، وأن العزاء منتشر بكثير من البيوت.

لقد استطاع أن يحيل نفسه إلى مارد تهابه كل القرى، فلا أحد يعرف ـ بالتحديد ـ إن كان هناك شخص على وجه البسيطة يرتبط معه بنسب، فقد ظل يركض فينا وحيداً كالموت، والكبار منا يروون أن قبيلته جرفها السيل عندما كانت تقطن على رأس الوادي، وأعوانه يقولون إن السوادي من نسل السادة، وإن هذا الفرع لا يتبقى منه إلاّ فرد واحد يعمر، ويعيش في كل الأزمان، وقلّة هم الذين يعرفون السر وراء اندثار أسرة السوادي، فيقولون إن أباه أوصاه بأن لا يُبقِ أحداً منهم في وجهه.

فقد قال له:

ـ يا بني إن الدم قاتل.. إن لم يقتلك بسيفه قتلك بحبه، أو ضعفه، فلا تبقِ في حياتك إلاّ دمك.

وتروي هذه القِلّة أنه قام من حينه، وأمر مناديه بأن ينادي في كل القرى بجمع من له صلة قرابة به، وأوصاه بترديد جملة:

ـ من له فينا قرابة له في خيرنا الإحسان.

فاجتمع له خلق كثيرون منهم من كان على حق، ومنهم من أراد الإحسان، حتى إذا اجتمعوا له، نادى بسيافه فجز رؤوسهم، وأسال الدم في مناكب الأرض يروي جدبها، وقد سموا تلك السنة، بسنة سيل الدم.

وجماعة أخرى تقول بأن السوادي لن يموت حتى يظهر شخص قد رأى السيد في منامه وعلمه كلمة تميت السوادي في الحال، ومن علامات هذا الشخص عرق نافر يمتد بصدره، ولا يزال ينكمش حتى يتحول إلى كلمة بلسان صاحبها، فيطلقها بوجه السوادي ليموت في الحال ويعود الخير على الوادي وأهله، ولا زال الناس ينتظرون هذا الشخص، ويبدو أن السوادي قد سمع بهذه المقولة فكان يجمع الناس في العيد الكبير وفي الخلاء المقابل للقلعة، ويقيم عروضاً للرقص، وركوب الخيل، والعدو، وصيد الحمام النافر بالبنادق، وفي نهاية العرض يمرون عليه كاشفين عن صدورهم ليطيبهم

بعطر العود، ومن وجد بصدره جرح غمز لأحد أعوانه لكي يطلبه للمبارزة، فيعود معه إلى المضمار كارهاً ولا يمكن أن يعود من هناك حتى وإن انتصر، فأعوان السوادي كثر كلهم يطلبون الثأر لزميلهم الذي مات على يد المنتصر، ومن ظهرت هذه العلامة على صدره في القرى الأخرى قيد إلى القلعة وقتل بداخلها دون أن يسمع به أحد.

وهكذا ظل السوادي شبحاً لم نتمكن من الإمساك به، وبقينا نرقبه وهو يعبث بحياتنا كما يحلو له.

* * * *

حين تقرع طرقات الخوف أبواب قلبك مراراً تصبح أكثر صلابة وقوة مع الأيام، وتتخلص نفسك من جزعها، فتقدم على الموت دونما وجل.

وقد امتهنت الخوف من وقت مبكر من طفولتي، فهو قريني الذي لا يفارقني أبداً، وإن تركني للحظة شعرت بأن الموت أصبح يدب مفاصلي. منذ الصغر جالست الخوف، وعرفت كيف أنتصر عليه. أذكر أنني عندما كنت نبتة صغيرة في منزلنا كنت رهينة الفزع، والكوابيس الطاحنة. كان يعاودني ذلك الحلم الذي لم يغادر ذاكرتي بعد، بالرغم من مرور سنوات عجاف مضغتني، وتركته يشب بمخيلتي فتياً، عنيداً. كنت أحلم أن السماء تنشق، وتتدلى منها حبال حمراء تهطل بالدم، وتتصبب على وجهي، وقد جلس من حولي خلق كثيرون يتضاحكون، ويتغامزون، وأنا أحاول إزاحة الدم المتلبد بوجهي لا تساعدني يداي اللتان مشى فوقهما عنكبوت ضخم وغزل أصابعهما بخيوط مسمارية شلت حركتهما، فأصرخ بتوسل:

ـ يا منجي من المهالك.

وكلما ارتفعت استغاثتي أسرع العنكبوت بإحكام غزله وعندما انتهى سار على جسدي، وتبول بفمي، ومد أذرعته وغزل أفواه المتجمهرين الذين انقلبوا إلى ديدان متناهية الصغر، وأقبلت على جسدي الملقى تنهشه بنهم. كانت عيني هي الوحيدة التي تتحرك، هذه العين التي استقرت على صدري لتحرس ديكاً، وعصفوراً، ودجاجة، وأمام عجزي المتخاذل تنهض تلك

الطيور لالتقام الدود الذي (ينغش) بجسدي، فيتحرك صوبها ذلك العنكبوت، ليقطع رجل الدجاجة، وعندما انتصب له الديك ونقمه، انحرف إليه، ولدغه ليسقط فوق صدري يرفس، حتى إذا جفت أوردته من الحياة قبره بصدري، لينشق قلبي عن حبال تهطل بالدم.. كانت الدموع تملأ محجري، وصوتي يمشي واهناً، متوسلاً:

ـ يا منجي من المهالك نجنا.

وعندما رأى العنكبوت عجزي المفرط، همَّ بقصف رأس العصفور، فهبيت من عجزي أقرط أقدامه، المشوكة، فتكسرت أسناني، وهو يتشبث بمهل برقبة العصفور، فصرخت، ونهضت، وصدري يعلو ويهبط، وعرق بارد يتصبب من كل جسدي، لأجد أمي بجواري تهدهد عليَّ:

ـ حرزتك بعين اللّه، وحوطك بستره.

ورفعتني لحجرها، ومسحت دموعي وضربت خدي برفق:

ـ ماذا بك يا رعنا.

فارتميت بحضنها وبكيت. كان يأتني هذا الحلم بهذه الصورة ليلياً، يسور هامتي كلما أويت لمخدعي، حتى إن صديقات أمي جزمن أن عيناً وقعت بي، أو أو ريحاً خبيثاً مسني.

في ذات صباح وحين اجتمعت جاراتنا حول (القروع) أدارت أمي سيرة الحلم الذي يداهمني، وضربت على صدرها خوفاً عليَّ، فربتت على ظهرها خالة مرضية، وأسرت إليها:

ـ ربما تكون رعنا مزورة.. فاذهبي بها إلى شوعية بنت مرجان فتمرخها وتغمزها.

ولم تنسَ أمي هذه الوصية. ففي اليوم التالي، أيقظتني مبكراً، وجرّت خلفنا كبشاً أسود، واتجهت بي إلى شوعية، وأوصتني بأن أقبِّل رأسها عندما نصل، وزجرتني بحدة حينما قلت لها:

ـ لم يتبق إلاَّ تقبيل رأس الجواري.. أنسيتي بأنني حرة.

فاغتاظت، وضربتني على رأسي:

ـ (يا خبلى) هذه التي تحتقرينها لها أسياد من الجن، وهي التي (لقطنك). . (حسك عينك) تخالفي ما أوصيتك به.

وسحبتني من يدي، وهي تطلق تمتماتها، وتطيرها في الفضاء، وقبل أن تكمل خطواتها على عرصة عشة شوعية، استلت شفرة حادة، ونحرت بها الكبش المصاحب لنا، فانطلق دمه يشخب، لتتلقفه بآنية جلبتها معها حتى إذا امتلأت من ذلك الدم القاني، صبته على هامتي، ووقفنا ننتظر الإذن بالدخول. . تخاذلت شوعية بجلستها طويلاً، وحين أوشكت أمي أن تضع التراب على رأسي، تململت، ونهضت باتجاهنا، وهي تحك مؤخرة رأسها بارتباك، وتقسم بأنها لم تداخلني بعينها. . عندها تقدمت نحوها والدم يتسرب إلى ظهري، وصدري فأشعر برغبة في التخلص من ملابسي. تقدمت نحوها، وحاولت جاهدة الوصول إلى تقبيل رأسها الذي لم ينحنِ لقصر قامتي. . كنت أرى أمي تتودد إليها، وتستلطفها بصوت أقرب إلى التوسل:

ـ (نجار بوك تغمزيها) ابنتي ستموت.

وابتلعت ريقها وواصلت استعطافها:

ـ اجعليها في منزل ابنتك خميسية. . هل ترضين لخميسية الأذى؟!

كانت شوعية بنت مرجان تمانع، وتقسم مراراً بأن عينها لم تداخلني، أو تمسسني بسوء، وكلما أقسمت تمادت أمي بتوسلاتها المقاربة للبكاء، وأمام هذا الإلحاح الممض استجابت، وأدخلتني عشتها، وأرقدتني على (شبرية)، وسقت جسدي بزيت سمسم مخلوط بزعفران، وأعشاب برية ـ لم أتمكن من معرفتها ـ ودهنت جميع مفاصلي، وألقتني على ظهري، ومررت يديها تهمزني بسرعة، وخفة دقيقة، حين كانت شفتاها تتوالدان بتمتمات غريبة، تنتهي بشنشنة معقدة، تنفثها بكأس ماء وضعته بجوارها، وبعد أن مررت أصابعها بين أركان، ومخابئ جسدي (بخت) وجهي بالماء الآسن بتمتماتها. . وقبل أن نغادرها كانت يد أمي تتسلل إلى صدر شوعية وتستبقي به مبلغاً من المال، وخرجت تقودني بسرور، بعد أن بقرت بطن كبشنا المذبوح، واستأصلت قلبه، وجزت شعراً من غرته، وعندما بلغنا بيتنا أمرتني بمضغ القلب نيئاً، وبخرتني بالشعر، ووسدتني قعادتي وهي تجزم بأنني لن أهرب من نومي

بصرخاتي المجهدة الليلية، وما إن أطبقت أهدابي حتى عاد الكابوس ضاحكاً، ومبدياً كل تفاصيله السابقة، لأنهض من فراشي أدور بين السادة وشفرات الكي، أذرف كابوسي، وتوجعي. ولم يتوقف هذا إلاّ بمجيء امرأة مسنة ـ من النمالية ـ كانت تقلّب الودع، وتعرف الأسرار من خلال (الكشح). . يومها استقبلتها أمي بالتهليل، والترحاب، وأجلستها بمجلس أبي، وجهزت لها غداء فاخراً، وجلست تقص عليها تفاصيل كابوسي الليلي الذي أتعبنا جميعاً، والعجوز تأكل بنهم، وتهز رأسها بثقل، وبعد أن شبعت، تنفست بتكريعة لها رائحة البقول، وغطتها بفنجان قهوة (محوج)، ثم استوت بجلستها، وفكت عقدة بمصرها، وأخرجت حبات من البن، فردتها براحتها اليمنى، وأطبقت عليها، وقربتها من فمها، نافثة إياها، ثم أخذت في (الكشح). . ظلت صامتة، وعيناها الضيقتان مسمرتان بوجهي الصغير، وفي كل مرة ترفع حبات البن وتستقبلها بيدها، فتتناثر الحبات على راحتها في أشكال مختلفة، متباعدة، ومتقاربة، بعدها نهضت، وقبَّلتني في رأسي، وقالت:

ـ الليلة سوف تنامين.

وخرجت، وتبعتها أمي. . لمحتهما تتهامسان، كانت عين أمي جاحظة بجزع، وتضرب صدرها بيدها، وصوتها يولول بانخفاض، وعادت لتحضنني، وتجهش بالكباء، وعبثاً ذهبت استفساراتي عن ما قالته تلك العجوز، وكنت كلما أسألها تغيِّر مجرى الحديث دون أن أصل إلى تلك الهمسات الخافتة، وظلت هكذا حتى رحلت، ونسيت ذلك الحلم، وما همست به تلك العجوز.

بالأمس عاد إلى مرقدي الحلم نفسه. . هذه المرة كنت شجاعة أكثر مما سبق، فقد امتدت يدي ـ بعد أن تمصلت من خيوط العنكبوت ـ إلى حجر غليظ وهممت بسحق العنكبوت الذي استشعر الخطر، فلاذ محتمياً بظهر الديك، لتتراخى يدي تاركة الحجر بجواري، عندها سقط الديك ميتاً يزفر بصوت رخو.

استيقظت فزعة فإذا أذان الفجر يتصاعد ندياً. . فقمت، وتوضأت،

وصلَّيت، ولبست لباس (الطلاسة)، وجهزت حماري، وامتطيته، وتوجهت إلى المطينة، وملأت صفيحتين بالطين، وانحدرت إلى (مطرح) كبير جامعة روث الأبقار، وتوجهت إلى بيت عبده حسن، لتلبيس عشته الجديدة. كنت قد شرعت في العمل بها منذ يومين مضيا، حيث وضعت شبرية كبيرة بوسط العشة، ونصبت فوقها عدة شباري تصغر كلما ارتفعت للأعلى، وأحكمت تثبيتها بحبال موضونة من سعف الدوم، وكلما هممت بصعودها تأكدت من رباطها خوفاً من السقوط، وزيادة في الحرص كنت أشد على وسطي حبلاً متيناً، وأربطه بأعلى العشة. كان يرهقني مكوثي الطويل فوقها، وأنا أعلِّق بصري في استدارتها العلوية التي لم تتحقق كما أردت لها.. في هذه الأيام انتابتني نوبة من الدوار، أحالت وقوفي إلى ارتعاشة تنبئ تنبئ بسقوطي في كل حين، وأحالت كل شيء أمامي إلى بقع فاقعة الاصفرار، ومع ذلك لم أستطع التوقف عن العمل خوفاً من مطالبتي بسداد الأجر الذي تقاضيته من عبده حسن مقدماً بعد توسلات مريرة، ذلك الأجر الذي أنفقته على إصلاح (سجفنا) المتهدم.

ولكي أنجز عملي هذا كان يتوجب عليَّ أن أظل معلقة فوق خمس (شباري) يغطي جسدي الروث، والأصباغ، والتعب، أتعلق من شروق الشمس، ولا أعود إلى داري وأبنائي إلاَّ مع الغروب، بعد أن يتغلغل التعب إلى كل مفاصلي، فألقي بجسدي كيفما اتفق، وأغط في نوم عميق. وفي الصباح تنتابني حسرة حادة لتلك القلوب الصغيرة التي لم أتفقدها عند عودتي، فما إن أصل إليهم حتى يجتمعون حولي بصمت، وكأنهم يتواصون بذلك، وتمتد أياديهم الصغيرة إلى أطرافي يهمزونها برفق ولين، فأغادرهم، وعيونهم تقطر شوقاً للحديث معي.

لم يكن أمامي أن أتراجع عن التعب، وأظل معهم ألاعبهم، وأحكي لهم الحكايات، ليحفظوها، ويرددوها على مسامع أترابهم، ويسردوها وهم فرحين بادئين: قالت لنا أمنا... كان عليَّ أن أنكسر يومياً، لينهضوا في مواجهة الشمس المتدنية من رؤوسهم، ويقاوموا آفة الجوع التي تنخر أمعاءهم.

من الصباح الباكر أعلق جثتي فوق تلك (الشباري)، بعد حمل كل أدواتي كي لا أضطر إلى الصعود، والهبوط، وأظل أهش التعب، والجوع، والدوار.
في بداية عملي كطلاسة لعشش القرية، كنت ما إن أصعد فوق (الشباري) المتراكبة حتى أصاب برجفة، ودوار عنيف، فأغمض عيني وقتاً طويلاً، ورعب السقوط يتضخم بداخلي، ويمنعني من إنجاز عملي في وقت قصير، حتى إن بعض الأهالي تناقلوا تقاعسي، فلم يعد أحد يستدعيني للعمل عنده، واحتجت إلى زمن آخر كي أستعيد ثقتهم، وإن ظل شبح السقوط يلازمني، فالسقوط يعني أن تدق عنقي، أو أن تتفتت عظامي كما حدث مع جبرانة التي سقطت، فانكسرت رجلها، وبقي الكسر يتداح بآلامه المضنية، يذيقها أصناف العذاب، وظلت تصرخ حتى جاءها الحجام وبتر ساقها، لتتسع حدود جراحها، ولم تتمكن أناتها الطويلة من الخروج بها من تلك الآلام، ليشيعها الناس، وهم يضعون أيديهم على أنوفهم من نتانة جسدها.

وكعادتي صعدت ـ اليوم ـ بعد أن أوثقت نفسي بحبال تقيني السقوط، وخلطت الطين (بالضفاع)، وطلست جنبات العشة، رادمة الفجوات التي تتخلل (الصرب) اليابس (بالكر)، بإزالة أقصى الجهد كي تصبح ملساء، ومن خلال معاودتي المتكررة، رأيت الأرض تدور وتدور، وبقعاً صفراء تتسع، وأحسست بأنني أنزلق لهاوية سحيقة، فأمسكت بوتد غرس بأعلى العشة، وأطلقت كربي عبر أدعية واهنة، بعد أن أغمضت عيني، مستسلمة لذلك الدوار حتى هدأت نفسي، فتنهدت، وجلست بحوض القعادة، كطفل تركته أمه يواجه السقوط وحيداً، كنت خائفة من أن أرمى بداخل البيت (كظلة ممزقة لم تعد كفيلة بخلق الظل لمن يضعها على رأسه.

بينما كنت على هذا الحال دخلت ليلى زوجة عبده حسن فارتبكت، ونهضت مستعجلة، حتى كدت أقع مرة أخرى، خالجني النفور من دخلتها المصطنعة، فقد خلعت تجهمها، وتأففها، وتعاليها، وألصقت بوجهها الغاني ابتسامة باردة، وعجزت عن الإتيان بضحكة عميقة، ريانة، فتركتها تخرج جافة، متهدمة، ولم يكن لينها أحسن حظاً من ضحكتها، وكان حديثها أقرب إلى الأمر:

ـ انزلي يا رعنا. . لتأكلي لقمة تسد جوعك.

وأمام إصرارها، أبديت الزهد، مظهرة الرغبة في إنجاز عملي، لأعود لأبنائي:

ـ المغرب على الأبواب، وسوف (أتهرش) في بيتي مع أولادي.

ـ أقول لك انزلي. . انزلي أريد أن أتحدث معك.

لا يروقني الحديث مع هذه السيدة التي تغزل الحديث بخيوط الحرير، وتلوك الكلمة كما تلوك (الشونجب)، مبقية على تعاليها بنظراتها التي تطأ وجهك بلا اكتراث، وكأنها تنظر إلى بهيمة سائبة. . . محاولتها المتكررة لاستدراجي في الحديث معها بعثت بداخلي ترقب كارثة ما، فاستفسرت بذعر:

ـ هل هناك كارثة تودين إخباري بها؟

ـ وه. . يا غارة اللّه. . ماذا بك. . ليس هناك شيء فقط أريد الحديث معك. . انزلي.

وجدت نفسي أشد الحبل على وسطي، وأهبط محدثة طقطقة، وارتجاجاً بين تلك الشباري المتراصة، لتتخلى عن ليونتها، وتعود السيدة الآمرة:

ـ انتبهي أن تسقطي القعايد فوقنا.

شعرت بغصة مرة، فخرجت مرارتي بسؤال حارق:

ـ أتخافين على القعايد، ولا تخافين على إنسان؟

تضاحكت، وملأت وجهها بود زائف:

ـ تفداك كل القعايد.

وعندما استقرت رجلاي على الأرض دفعتني برفق:

ـ اغسلي وجهك، ويديك، وتعالي نتحدث.

ـ ليلى. . أنت على غير العادة. . أسألك باللّه ماذا حدث؟

مطت فمها بضحكة قصيرة، مقتضبة وخبطتني على صدري مازحة:

ـ لا شيء. . أنت هوالة في كل شيء.

كانت عيناها يخالجهما حذر طافح، ولكي لا تقسي ليونتها كانت تغدق عليها من شفتيها المندلقتين ضحكات مرة. . ركدت بداخلي غصة، وجف ريقي، وتناثر الخو بمخيلتي زارعاً احتمالات السواد. . اقتربت منها، وقبلت مفرق رأسها، واستحلفتها عما تخفيه، فتحركت للخارج، وخلفتني أجمع احتمالاتي وأرويها، وأبعثر ارتعاداتي، وأفرط أدعيتي مستندة إلى سحارة قديمة قذفت بجوار مدخل العشة. . عادت تحمل آنية مملؤءة بالماء، وقرَّبت وجهي بين راحتيها، وهمت بغسله، فلم أمهلها، وطوحت بيدها بعيداً عني، وتركت لخوفي أن يصرخ:

ـ هل مات لي أحد. . من الذي مات؟!

أينعت شفتاها المتلئتان بضحكة مستهجنة، وتطاولت يدها لخدي بقرصة خفيفة:

ـ ألم أقل بأنك (هوالة). . موت. . يعني لو حدث ألن تسمعي (امقاوى)؟!

ـ هه. . مه.

كانت ملامحها غارقة بالحذر، وترددها يفيض من بين شفتيها، فيفضح عينيها الراكضتين، سألتها بأسماء اللّه، فتململت قليلاً، وأخرجت لسانها ينثر الكلمات بتوجس:

ـ هوني عليك ليس هناك شيء، فقط كان عبده عائداً من بيت السوادي فرأى صالحة وثيابها ممزقة، وعندما رأته جرت باكية.

لسعتني جمرة الخوف، فأمسكت بها، ونشتها بقوة:

ـ ماذا حدث لها؟

لتصرخ في وجهي، متملصة من بين يديّ، ومذكرة إياي بأنني قد تجاوزت الحد وأنني أجيرتها:

ـ أراك قد جننت؟

فجأة تداركت صوتها الغاضب بضحكة قصيرة، فاترة، وعقبت:

ـ قال لي عبده إنه أمسك بها وسألها عمن مزق ثيابها، فأشارت له إلى بيت السوادي.

ـ والله، وكتاب الله، لأقطع يده إن كان قد ضربها.

اقتربت مني، وغرست فمها بأذني:

ـ ابنتك لم تعد بنتاً!!

صرخت بجنون، ولعنت كل شيء بحقد طافح، وانطلقت في القرية أذرف أدمعي بصمت.. كنت موزعة الخاطر بين حرقتي وخوفي، بين عجزي وكرهي، بين ضعفي وقوته، وكنت أخشى أن ينتشر خبرها، عندها ستدفن كبهيمة أصابها الانتفاخ، وتبددت نتانتها في الأمكنة:

ـ يا رب سترك.. لمن ألجأ؟

وأخذت أركض في الأزقة على غير هدى.

هي المرأة تحيلك إلى وردة أو جرح

السوادي

نعم أحبها. . .

كل شيء وجدته بيدي إلاَّ هي!!

هذه السنبلة الحنطية الجميلة ذات الردفين المثقلين والعينين القمريتين ذات الهدب الليلي الدامس، والثغر الممتلئ كحبات عذق ناضج، والطافح بثمرته الداكنة.

يبدو أنها تسكنني كجنية الأثل، عبثاً تستطب منها، وعبثاً تسلم جسدك لشفرات الكي، فكلما أحرقت جسدك بحثاً عنها، تغلغلت إلى عظامك، وتركت بلجدك آثاراً لا تمحى. . وتظل تواري جسدك عن العيون الشبقة كي لا تعرف بأنك مصاب بداء لا برء منه. . جنون ما يحدث، فلو تجاسرت وأسررت لأحد بما أجد لفتح فمه كبهيمة سمجة. أوه. . حتى هذه النعمة لا أستطيع البوح بها. . أليس جنوناً ما يحدث؟؟. . أنا بكل هذه العظمة لا أقوى على فعل هذا. . تغدو الحياة في أوقات مملة، كئيبة، مع ذلك نضعها على ظهورنا وندور. . هذا الدوران الذي مللته منذ أمد بعيد، وتمنيت أن أتوقف. هذا التوقف يأبى أيضاً أن يتحقق. . أليس عبثاً ما يحدث؟

دأبت منذ صغري على أن أحب بعنف، وأن أقطف ما أحب كما أشتهي، وكل الأغصان تدنو بقطوفها، فلم تنأ هذه كلما دنوت. . ، حينما تعجز عن الوصول إلى قلب من تحب، عليك أن تغرس خنجرك في قلبك، وقلب من تحب على السواء. هكذا أرى حبي لها. . محاولة مستمرة لتدميرها، وتدمير هذا القلب المولع بها.

هذه القرى الممتدة تعيش تحت ظل حذائي، بسادتها، وعبيدها، كل هذا ولم أستطع أن أطلق فرحة صغيرة إلى هذا القلب المثخن بها، يكفي أن أتفرس في أي وجه حتى يتحول إلى ماء مالح من الرعب.. هذه الهيبة تغدو أمامها خرقة بالية متسخة.. تلك العينان الجميلتان تطارداني بأهدابها الليلة في كل حين، فأنهض، لأتحرش بها، فازداد بعداً عن ذلك الثغر الممتلئ بحبات عذق ناضج.

كثيراً ما كنت أتساءل ما هو الحب؟؟.. فلا أجد جواباً شافياً.. نعم ما هو الحب؟؟.

لم يعد أمامي إلاّ التوغل في جرح من أحب.. أن أمله، وأن أظل داخل قلبه، وذاكرته.. أن تكون خارج الحب، أو الكره فأنت ميت.. نعم أنت ميت.. ماذا يعني أن تكون حجراً مثلاً لا أحد يميل إليك، ولا أحد يبغضك هكذا مخلوق من المخلوقات، لا دور له إلاّ أن يقع في بصرك فتلقيه بلا اكتراث، إذا الخير كله أن تكون محبوباً، أو عدواً.. وإذا لم يحبني من أحببت فلا بأس من البقاء بداخله عدواً، كشبح مرعب يفيض بالبشاعة، بالخسة بأي شيء، فهناك كلمات كثيرة نرددها، ولا نعي ما تعنيه.. والذي أعلمه جيداً أن الحب يأتي بعد دمار كبير، فلأحدث هذا الدمار علّها تريحني، وتدنو قليلاً.

ها أنا أملك كل شيء ومع هذا أجلس وحيداً أتلفت في الليل القادم، أخشى أن يخبئ لي تحت جناحه خنجراً ممن يحبوني، هذا إذا افترضت أن هناك من يحبني، حتى ولو كان هناك من يحبني لا بدَّ وأن يقتلني، فالحياة دودة أكولة، شرهة، ولا ترضى بأحد حبيباً لها.

أجزم أن الحب والكره ليسا إلاّ مشاعر واهية لا تصنع الحياة، لكي تعيش لا بدَّ أن تكون السيد، الآمر، الناهي، أصنع أي شيء لتكون كذلك، هذا هو الدرس الذي لم أنسه من يوم أن فطمني أبي.. حين ورث لي أبي شهوة السلطة كنت لا أزال غراً، مغروراً أحسب أنني أستطيع الولوج إلى قلوب هذه القرية بمفتاح صدئ هو الحب، وأخبئهم بصدري، وأغدق عليهم من دمي، كان درساً قاسياً تلقيته، لا يجتمع ضعف وجاه.. في صغري كنت

وديعاً، أتجاوز عن زلات عبيدنا عندما يتركونني وحيداً، وينشغلون بأنفسهم لبعض الوقت، أو أمنح فرسي لأول من يطلبها. . كنت أحب رؤية النساء العائدات من الحقول، وهن يغنين فوق دوابهن، أو من خلف أغنامهن، وأنادي عليهن بأن يعمدن إلى حقولنا أثناء الحصاد، فقد كنت أتوق لامرأة أناديها بأمي، وأن تحملني على حوضها، وتدور بي في مجالس النساء، وهي تدللني، أو أن أتربع أمامها على قعادة لتحنيني في عيد (المولد). . في ذلك العهد طلبت من أبي إحضار امرأة لأناديها: يا أمي. . فأحضر جارية لنا ـ كنت أراها في الحقول البعيدة ـ وأوصاها بتدليلي، فبقيت معي جامدة، تنتظر أن أشير لها بالشيء حتى تفعله، وهي تردد:

ـ حاضر يا سيدي. . على أمرك يا سيدي.

وعندما شكوت لأبي، صفعها فسقطت مغشياً عليها ولم تعد إلى حصننا أبداً. . قلت له:

ـ أريد أمّاً بيضاء، وليست جارية.

فأحضر امرأة قدت من فضة، وعندما جالستها وجدتها بعيدة، لم أدخل إليها، ولم تدخل إلى قلبي، فتركتها قبل أن (تحني) رجلي الأخرى. . بعدها احتقرت كل من ينادي على امرأة بلفظة أمي، وأدمنت السير مع أبي فتشربت منه كيف يمكن أن تساس البغال. كان إذا رأى مني ليناً على بعض حاشيته، يصمت حتى إذا انفرد بي، عنفني بتقريع بذيء، وإن رأى أدمعي، زادت حدته، ويظل يصرخ مردداً:

ـ الشوك اللين، لا يوخز، ولا ينكسر، وأنا أريدك شوكة سوداء. . إن وخزت سممت.

كنت أشرب منه قليلاً قليلاً حتى غدا الناس يترحمون عى سيرة أبي. . وكلما رآني أجد في إثره قرَّبني إليه وهتك لي الحجب. . كان يخاف عليَّ من شيء واحد، لذلك كان يردد دائماً على مسامعي:

ـ المرأة جمرة هالكة، إياك أن تضعها بقلبك. . تدفأ بها وأعبر طريقك.

جمرتان وضعتا بهذا القلب، وتغلغلتا حتى شاطت رائحته، إحداهما

خبت واضمحلت، وأبقت رمادها بحوض العمر تذروه رياح الذاكرة، ويهيجني الحنين فلا أقوى على إبعاده إلاّ بنشيج متهدم.. وقد بقيت هذه الجمرة التي كلما مضى عليها الزمن تأججت، واتسعت جروحها، وأنا أصرف الأيام لإطفائها.

منذ أن رأيتها شعرت بأن جيدها المسترسل في الفضاء سيستحيل إلى عنق أفعى يشبعني لدغاً دون أن يودي بي، نحن نسير نحو أقدارنا بغباء فاحش، فبالرغم من ذلك الإحساس انقدت إليها، ورأيت فيها الحياة، وأنها جديرة بأن أعذب، وأقبر تحدت أهدابها المسترسلة بالظلام.. حين كانت في حقل أبيها تشارك مجموعة من النساء حصد قمح شاحبي، كانت بينهن متفردة في التفاتتها، ونظرتها، وابتسامتها، كانت كزهرة قرمزية تتمايل بغصنها الطري، وأردافها الثقال، وتمد عنقها للفضاء بفتنة.. راقت خاطري، فوجهت ركبي صوبها غير عابئ بما تخلفه أقدام الخيل من ضرر بالحقول، وحين رأت السنابل تتساقط، حملت (منجلها)، وركضت لتوقف خيلي، ورجالي، فاستقبلتها قافزاً من على فرسي، ومددت يدي لقطفها، فتناولتني بمنجلها ليبدأ الدم بالهطول. منذ تلك الحادثة ودمي يسيل، ولم يتوقف بعد.. هذه الثمرة أخرجتني من جبروتي ما تبقى من الدهر، كنت أظن أنه لا يفصلني عنها إلاّ مسافة مد أناملي لقطف تولتها، وتصبح نتفة قطن أنظف بها أذنيّ كلما اتسخت، فاستعصت، واستقرت جمرة في الصدر. منذ العهد البعيد، وهي تأكل هذا القلب. وكلما أحرقتني، سعيت لإشعالها، أحرقت حياتها بالجوع، والخوف، عبثت بأبنائها، فتسامقت دوني، وكلما أمعنت في إذلالي، مد لها القلب أطرافه لتطأها.

لم تتقدم نحوي إلاّ مرة واحدة، كان ذلك حين حملت خنجرها وجاءت مختبئة بالليل تحمل جروحي، وأحمل جروحها، كنت أنتظر هذه الزيارة منذ وقت بعيد، أنتظر أن تغرس خنجرها بصدري لتعرف كما أحببتها، ولتعرف بأنها قاتلتي منذ أن عدت بمنجلها نحوي، وجعلتني أسكب دمي ودمعي تقرباً لرضاها، آه مضى زمن طويل من الصبر، والألم، والانتظار.. في تلك الليلة تطيبت، ووضعت كفني بجواري، واستلقيت بفرحة خضراء، معلّقاً

كلمة واحدة على شفتي حتى إذا غرست خنجرها أسمعتها تلك الكلمة: سوف أكون سعيداً عندما أموت بيدك وأنا أردد حبك، كان بمقدوري جلبها كمملوكة، وأن أذيقها ويلات الرق، لكن تلك الحادثة القديمة علمتني درساً لن أنساه. . كان الليل يعبر بثقل، وأنا أنتظر بكفني وكلمتي، والقاتلة لم تجيء، وكلما مضى الليل أقول: لقد نفذ الموت هذه المرة أيضاً.

ظللت الليل بأجمعه أنصب ابتسامة بيضاء لعينيها حتى إذا قطفتني كنت يانعاً بها ولها. . ما أتعس هذا الليل لقد خبأني من الموت هذه المرة أيضاً.

في الصباح علمت أن ذلك الأحمق أوقفها، وأعادها إلى بيتها، ساعتها كدت أقتله، لم يكن يكلفني ذلك إلاً معبراً واحداً يخترق رأسه الصلب.

وطنت النفس على التنبؤ بهذا الموت الذي أحياه بعيداً عن الأعين، وكم كان يحزنني هذا. في أوقات كثيرة كنت أشتاق لأن ألفظ حبي، وهيامي بها إلى أذن تسمعني، وتطيِّب خاطري، وتخفف عليَّ مما أجد، وقبل أن أبث لوعتي أجد من الحماقة أن أظهر بهذا التخاذل، وهي الصلبة التي تسير مرفوعة القامة، والجراح تنتشر بحياتها. . عندما أطوي هذه الرغبة، وأقدم على إحراق حياتها علَّها تطلب الرحمة، وترتمي في حضني.

حين أخذها ذلك الغراب اللعين من فمي كان دم أبيها يفور بالحقول، وهي تزف بعين تسيل بالدفء لذلك الغريب، والأخرى تترصد دم أبيها الرطب، يومها كنت على وشك أن أضع جنبيتي تحت خاصرتي، وأنام بهدوء بجوار جثة أبيها، نضجت في خاطري وهي تسير على أدمعي، فأفقت من هواجسي، وأضمرت أن تسير بقية عمرها على دموعها. . ذلك العجوز الأحدب الذي يذكِّرك بالجمال الحقودة، كان يقف في طريقي كلما اقتربت منها يبذل دمه دونها، كان يموت ليراني راكعاً. عبثاً حاولت استرضاءه، أو استمالته، أو تهديده، لقد أصرَّ على أن تزف يوم مقتل أبيها، وكان خطأ فادحاً حين جعلت الرصاصة تخترق جسد أبيها، ألم يكن من الأجدر أن تنطلق تلك الرصاصة لتميت ذلك الثعبان العجوز. .؟؟

آه وآه من تلك العينين. ظننت أن هذا القلب دفن وانتهى لكنني أفقت

لحريق يشعل أيامي دون أن أستطيع إخماده، أو تناسيه، فبعد مريم ظننت أنني لن أعشق، لذلك نذرت حياتي للوحدة، وأقفلت أبواب قلبي دون النساء، وعملت بنصيحة أبي، فكنت أستدفئ بهن وأعبرهن كجثث نتنة، إلاّ أنها اخترقت هذه الحواجز وطعنتني ومضت تاركة عذاباً يصطلي بهذا الفؤاد.

يبدو أن قدري أن أعذب من قبل هؤلاء الضعيفات، فمريم كانت تشبعني ألماً، وأشبعها قسوة. . كنت قاسياً حينما أبعدت وليدها عنها وتركتها للحمى تسرقها ليلياً حتى إذا جئتها آخر ليلة وجدتها قد اختارت الموت دوني. . لماذا إذا غربت النساء من حياتنا أصبحنا وحوشاً كاسرة؟؟. . كنت أظن أنني قادر على العيش داخل جبروتي مطهماً بالسعادة، ويكفي أن تتحرك إصبعي الصغرى لتنحني كل الرقاب. . هذه الإصبع القادرة على جعل الأفئدة تتوقف عن نبضها عجزت عن إهابتها وخلق الذعر لها، نظرة واحدة من عينيها كفيلة بإيقاف الماء بعروقي وإحالتي إلى جثة متحركة، يبدو أن دعوة مريم أصابت هذه المرة. . . يا للسخرية!!

نحن تمتطينا شهوات عديدة وباستطاعتنا تحقيق اليسير منها لكننا نجنح للبعيد، والمستعصى، أكان لا بدَّ أن أعشق تلك العينين؟؟

ها هي حياتي مليئة بكل ما أشتهي إلا هي. . فلماذا أركض خلفها، وأموت كمداً؟؟ نحن نخلق أحزاننا بغباء، ونمعن في تضخيمها لتحيل حياتنا إلى كابوس مريع. . يبدو أن كل شيء ميسر وممكن في حين أن قلب امرأة لم يكن بالمقدور جذبه لهذا العالم، فبعد أن أحرقتني مريم بصدها. . ظننت أن خطف وليدها سيجعلها تركع، وتسلم قلبها، وجسدها، لكن تلك العنيدة تركت حمى النفساء تقرضها، وتأكلها قبل أن تنحني. . جئتها قبل موتها، وأنخت بكل جبروتي، وقبَّلت قدمها، كان العشق قد نخر عظمي، ولم أكن أرغب إلاّ أن تضمني بعينيها وتطفئ لهفتي المتأججة بكلمة واحدة أسمعها منها، وبعدها أموت قرير العين. . . كنت كلما انحنيت لها تسامقت، وأوغلت في النفور كلبوة لا تروضها إلاّ رصاصة صغيرة (تخشخش) بعظام رأسها الصلدة، وقد هممت بغرز خنجري في خاصرتها، وخاصرتي، ولننهي هذا العذاب المشترك. . . في لحظة ضعف عميقة أوشكت على تنفيذ هذا

الموت الموحد، منهياً ضعفي المستبد، هذا الضعف الذي استفحل في داخلي وأحالني إلى أرض رخوة لا تحمل إلاّ ضعفها، ولزوجتها. إننا حين نعشق نغدو نهباً لهذا الضعف المقيت.. كم كرهت نفسي، إذ كلما أجيئها أخلع هيبتي وأغدو عبداً ذليلاً.. في آخر زياراتي لها، وجدتها ممددة متخشبة، والنتانة تفور من جسدها، فلم أقوَ على رؤيتها جثة هامدة، فجثوت أمام جثمانها أولول كالنساء المكسورات...، حضنتها، وبكيت كأن لم أبك من قبل، كنت أحاول استعادتها من الموت بيد أنه قد رحل بها بعيداً، وتركني أنتظرها على شواطئه، حتى إذا جاءت رعنا أمسكت بفؤادي وسارت بي في سهول النار لأحترق ببطء، وأشتهي الموت فلا أجده.

الآن أشعر بفداحة أن أدخل هذا القلب في معركة تدعى المرأة.. فقد أقحمته في معركتين خاسرتين، انتهت أولاهما ولا زالت الأخرى تكويني بويلاتها.. فها هو جبروتي العتيد يسقط كغصن واه أمامها، وها هي كالسيل الجارف تقذف بي عن يمينها وشمالها، وتمضي بعيداً عني.. عبثاً ذهب تماسكي، وعبثاً ذهب إذلالي لها، فكلما أوغرت صدرها بجرح فتحت في قلبي جراحاً.. يقلقني صبرها، وبأسها، يقلقني تماسكها، كنت أظنها كعشتها المتهدمة الآيلة للسقوط والتي تبحث عن من يقيم تداعيها، أنها كبئر يشح ماؤها حتى يكاد الغبار يطمرها، فتفاجئه و(تجم)، وينز ماؤها ويعاود التدفق.. من أين جاءت بهذا الجلد؟؟.. إني لأخالها إحدى جنيات هذا الوادي، لا يحرقها إلاّ نسيانها بأنها في دمك.

أعلم أن من شيم القوي أن يطأ من هو دونه بقصد، أو بغير قصد، ويمضي في الحياة غافلاً عن بقعة الموت التي خلفها خلفه، وأعلم أني تركت خلفي بقعاً لا تحصى من الموت، تلك البقع التي كنت أتركها ضاحكاً دونما أدنى اكتراث. وماذا بعد ذلك، لقد مللت كل شيء، المال، الجاه، والقوة، والعمر المديد، كنت فيما مضى أصاب بالهلع إن دنا خاطر الموت مني، وأتصور أنني سأجد نفسي جثة نتنة، ولن أجد أحداً يوصلني للقبر، وأن تلك الرؤوس التي تطل عليَّ صباح مساء، وتنحني انحناءة طويلة لتقبيل يدي ستتركني مجندلاً، وتتخطاني وهي تلعن سيرتي.. أصابني انقباض لهذا

الخاطر فألنت بطشي، إلاّ أن الكلاب طمعوا بي فعدت أسومهم سوء العذاب، وها هو لم ينقض أي شيء فلا زال كل شيء ينمو، المال، والجاه، والقوة، والعمر المديد، فمتى أموت.. أريد هذا الموت الذي يتحدثون عنه.. ما باله يعوفني كلما رمت وصله.. أيذلني بهذا البقاء الصامت، لقد أفرغت شهواتي بكل الطرقات، ولم أعد أجد أشهى من لذة رؤية الموت.. كنت أقول: لا ترمِ حذاءك القديم كي تصفع به عدوك، وقد نفد كل الأعداء، وظلت أحذَيتي في ازدياد، وكنت أقول: حين تشعل حريقاً عليك أن تحمل دول ماء لإطفاء الحريق كي لا يُقال إنك الجاني، وأحرقت بيوتاً وأجساداً أمام أعين الجميع ولم يجرؤ أحد على التفوه معترضاً على ما أصنع، وكنت أقول: عندما تصبح هدفاً للجميع اعمل على تشابك تلك الأيدي كي ترفعك عالياً، وقد رفعوني عالياً حتى لم يعد يعلو هامتي بشيء.. فماذا بعد ذلك؟!.. لقد مللت العيش بقلب متفحم.. أريد أن أموت.. يا للغباء، الكل يخاف من هذا البيت الخرب!!

الموت يمر من هنا
فمن يجرؤ على الابتسام علانية

موتان

ـ لا إله إلاَّ اللَّه. . الباقي وجه اللَّه.

كنت ممسكاً بسعف دوم وأغصان ريحان فاحت رائحتها، وأركض خلف الجنازة، ولا يستر جسدي الضئيل إلاَّ ثوب تناثرت به الرقع بأماكن عدة تعبت يد والدتي، وهي تتابعها بالرتق بقماش مغاير للونه الكحلي المقلم فغدا ثوباً متعدد الألوان، فبالرغم من حرص والدتي على نشر البعيثران داخل سحارتنا العتيقة، إلاَّ أن الأرضة و(الجدجد) عرفت كيف تأتي على ملابسنا القليلة الباهتة، وتتركها تعاني من فجوات واسعة منمنمة لا تسدها إلاَّ خرق كبيرة كانت تجلبها أمي من بيت الخياطة فاطمة يحيى لتستر تلك الثقوب الواسعة، وإذا حدث وأحدثت ثقباً جديداً بثوبي المرقع تمسكني بقسوة، وتمد يدها إلى أقرب مكان تصله بجسدي وتنتشه بأظافرها، وتجلسني لتخيطه، وهي تتمتم بغضب:

ـ ليس لنا من أحد «بالشام»(*) كي يرسل لك ثوباً جديداً، فحافظ عليه أكثر من محافظتك على نفسك. . أفهمت.

وتختم هذه النصيحة بضربة على رأسي كلما أحدثت ثقباً جديداً.

كان المشيعون يركضون، وأنا أتبعهم محاولاً تناول النعش، ومع كل محاولة ينهرني أحد المشيعين، فأبتعد قليلاً وأتبعهم على جانب الطريق. . كان

(*) الشام: يقصد به الحجاز.

طريق المقبرة خلاء موحشاً مليء «بالزغف»(*) والشجيرات الصغيرة المتنامية ببطء، وقد استقرت المقبرة خلف منعطفات مهدتها الأقدام فتضيق تارة، وتتسع تارة أخرى، وقد ترامت على مسافات بعيدة ـ منحدرة صوب الأحراج ـ أشجار الرديف، والسلاح، والمرخ، والرين، وأشجار السدر تاركة بقعة الموت تتمرغ بهذا الخلاء الصامت، هنا رقدت الأجساد بقباب ترابية منخفضة تكاد تتساوى بالأرض وقد بقرت بعضها متخلية عن عظام يابسة، نخرة، استكانت بحضن الخلاء تحرسه، ويحرسها.

كنت أسير حافي القدمين، فتتسلل أشواك صغيرة إلى باطن قدمي، فتشبعني ألماً، فأنحني لإزالتها.. أزيل واحدة، وأترك أربعاً، وألعن السوادي كلما سرت عليها، وعندما لمحني خالي على هذه الحالة نهرني بشدة وأمرني بالعودة:

ـ عد قبل أن يصيبك ما أصاب ابن الشاقي.

فأعرضت عن نصيحته وتبعتهم غير بعيد وكلما ابتعدوا ركضت خلفهم وحشرت جسدي بين جموع المشيعين. كان الحزن يعصف بداخلي ولم أعد أميِّز الفرق بين أن تحيا، أو تموت، فكل شيء أمامي أصبح قابلاً للتصدع والانكسار، فهذا العمر القصير الذي عشته أراني الخوف، والجوع، وأثقل كاهلي بأمور تتجاوز مقدرتي، ولو كنت أعلم بأن الحياة شمطاء لأبيت الخروج إليها، فمنذ أن خرجت وأنا معلق بثديها أبتلع دماءها وصديدها حتى أولئك الذين يزينونها، ويفجرون الينابيع بأوصالها ها هي تقبرهم وترقص لمأتمهم.. فيا لها من حياة بائسة!

ـ أحقاً ما يحدث الآن؟

ها أنا أسير في وداع ذلك الكبش السمين بشعور غريب، فأنا غير قادر على البكاء، وغير قادر عى تصديق أن هذا الحقل الأخضر لن أتنزه في وجهه الطليق بالبشارات بعد اليوم. كان يراودني هذا الخاطر بإلحاح، وأنا أتابع جنازته:

(*) الزغف: نوع من أنواع الشوك ينبت في الخلاء بكثرة.

ـ هل حقاً لن أرى عبد اللّه بعد اليوم؟

بشعور ممعن في الغموض أتجاهل تلك الجنازة التي تتقاذفها الأيدي، وأعود إليه.. آه.. كان يلاعبني كل صباح بمزاحه اللذيذ فبينما أكون منهمكاً بتقليب المطبق وغمسه بزيت الصاج المغلي والباعث للتذمر من رذاذه الحارق، وكلما لامس الزيت المتقافز أطرافي لعنت كل شيء في سري وأخمدت تذمري بعبوس مقتضب، وواصلت تقليب (الزلابيا) والتفريق بين حبات المطبق كي لا تلتصق وتدعو مستأجري إلى الزهد في خدمتي ويقذفني للتسكع بين دهاليز السوق باحثاً عن عمل جديد. كان يأتي مع ذلك الصباح ويصيح:

ـ (وه بن رعنا مطبقك حالي والا عبص).

فأقذف الصنارة من يدي، وأتناول حجاراً مدببة وأظل أرميه حتى يتوارى خلف دكان الشيخ موسى. كان يفاتحني كل صباح بشجاره اللذيذ حتى إذا ألفته حننت لندائه الصباحي، وأصبحت أتلقاه بالبشر، وأصبح صوته عادة صباحية إذا انقطعت انتابني الضيق وتقافزت عيناي في الدروب التي تسكب وجهه الأملح، وإذا عبرني ونسي مناداتي باسم أمي أصيح به:

ـ يابن وادية، اعلم أن والدتك تسمن لحمتك لعيد الأضحى، فتعال لتأكل قليلاً من (الزلابيا) ليكون لي فيك نصيب.

فيتسع وجهه بضحكة صافية، ويتقدم نحوي، ويجالسني قليلاً، ثم يمضي إلى حقله.

وزاد حبي له حين جمعنا قيد واحد بداخل القلعة، كان صلباً تنكسر العيون عند عتبة نظراته الصارمة، لقد تحول خلال فترة زمنية إلى رجل قُدَّ قلبه من صخر، لم أره بداخل القلعة متهاوياً.

اليوم رأيته عارياً من كل شيء، حتى من ابتسامته الواسعة، فجسده نوافذ من المفاجآت، وقد أغمض عيناً وتر الأخرى بازغة تستقبل شيئاً ما لم يمهلها لأن تسترد عافيتها، وكانت العين المغمضة مطبقة على وحل غدق.. حينما انتشلوه من الوادي كانت يداه تمسكان بأغصان أشجار وحجارة، وفمه مشرعاً باستغاثة داهمها الماء قبل أن يكملها.

بئس الوادي وادينا، يظل شحيحاً مقتراً حتى إذا أمن الناس للجوع واستكانوا على جنباته أطل عليهم صاخباً، وجرف أمامه كل شيء ومضى. فمنذ أعوام لم ينبض له عرق، فتلحفت الأرض بترابها المتيبس وكشفت عن صلادتها وعقورها مضفية على ذاتها شقوقاً واسعة عميقة، وأمام هذا الموت خرجنا أياماً وليالي ـ أفواجاً أفواجاً ـ نستسقي فلا نسقى، وكان درويش يتبع القوم عند خروجهم لصلات الاستسقاء، وما إن يكبِّروا حتى يصرخ بأعلى صوته:

ـ ربنا يسقي بلاد الكفر ولا يسقي بلاد الحسد.

على امتداد تلك الأيام العتيقة كانت دوابنا تخرج بحثاً عما تلوكه فتقطع الوادي ذهاباً وإياباً دون أن تجد ما تلوكه فتمد خطواتها للقرى المجاورة تعبث بـ (سجوفها) ولبنات عششها وتقضي نحبها على أيدي أهل تلك القرى بالضرب أو بالنحر، وثمة دواب تلوك الأشواك على جنبات الوادي حتى إذا ملَّ منها الجوع خلفها للطيور جثثاً سرعان ما تنتفخ بطونها وتبقرها الغربان، والجِدآن مفسحة لتلك الروائح النتنة أن تعبر أنوفنا قهراً فنمسي بلا هواء، وبلا زاد. عتق هذا القحط حقولنا فاستطالت فينا الفاقة، ودبت الأمراض في أوصالنا فاقتاتنا السل، والجدري، والجذام، لدرجة أن عيسى مهدي تساقطت أصابعه في ذات ليلة ولم يجد من يقبرها له فرمى بها للقطط التي تجاوره، ولم يكن غريباً أن تجد إصبعاً، أو رِجلاً، أو يداً مقذوفة بجنبات الطريق، أو بين قمائم القرية، أو أن تجد مريضاً أكل الجذام أطرافه فمشى وأجزاء من جسده تتساقط كما تتساقط أوراق شجرة خريفية. أما الجدري فقد حصد القرية على بكرة أبيها، فكانت تخرج الجنازات ولا تجد من يشيعها، أو يواريها الثرى، وقد ظلت جنازة بيت محمد عايض بأكملها في العراء، فقد حجبهم أهل القرية في (خدروشة)(*) نائية وعندما قرضهم الجدري، وعاف أجسادهم المنتنة ترك للريح مهمة أن يقبرهم بمهل، وبعد شهور من انقضاء الشوطة، وجدوا عظاماً بالية، وثمان جماجم سكن بها العنكبوت، والدود. أما السل

(*) الخدروش: عشة صغيرة.

فقد تركنا (ندسع) دماءنا فلا يتبقى سوى حلم الموت، الذي يزورنا عبر سعال دموي طويل، لم يكن هناك سوى موت جشع يلمنا بكل أطرافه، ولا يمل من مضغنا.

في تلك الأيام الموبوءة هوت الهامات جوعاً، أو مرضاً، وانطلقت حناجرنا باستغاثة مدوية ثقبت جوف المعمورة لتصلنا إمدادات من الحبوب والدقيق والسمن من بلاد العجم، لقد أصبنا بمسبغة طاحنة أودت بحياتنا إلى الموت أو الاستلقاء أمام بيوت السادة طمعاً في أن تتنازل أنفتهم عن أي شيء يسد فاقتنا. ففي تلك الأيام من وجد في بيته صاع بر انكب عليه العشرات يتمرغون تحت زجره ونهيه أملاً بحبة قمح، وقد نجا من هذه الشوطة السوادي وأعوانه، وهب كريح عابساً يضعضع أيامنا الرديئة، وينهبنا حقولنا التي نتفيأ بظلالها، فقد رهنت القرية حقولها لديه مقابل صاع بر، بعدها لم تعد تلك الحقول إلى أصحابها، فقد ادعى أنه اشترى ولم يرتهن وعبثاً ذهبت مطالبة واستجداء أهالي القرية له.

كنت في الخامسة عشرة من عمري تكبرني أختي بستة محاصيل من القمح الأبيض، وأخ بزغ في يوم الجوع فوجد ضرع أمه غير قادر على أن يمده بقليل من اللبن فأعلن البكاء المتواصل. كانت صالحة تداعبه كلما أعلن بكاءه في محاولة لإسكاته، وكان يطيب لها أن تناديه بموتان لشدة الشبه الذي يجمعنا حتى إننا تناسينا اسمه وأصبحنا نناديه بموتان الصغير، كانت (لبنته) اليومية همي الأساسي، فكنت أسعى لجلبها له بأي شكل وعلى أي صورة حتى أنني في إحدى المرات كدت أموت مقابل (مغرد) لبن ملأته من إحدى بقرات السوادي العائدة من المراعي، فبينما كنت أستدر ضرع البقرة، ظهر الرعاة، ورأوني (أشغط) ضرع البقرة بسرعة وقلق، فأنزلوا سياطهم وأقدامهم على جسدي الصغير، ولم ينقذني منهم ألاّ صوت عبد اللّه الشاقي حين رفع بندقيته باتجاههم، فتركوني أتوجع، وخلفوا خلفهم تهديداتهم ولعناتهم، وأذكر أنني كنت أذهب من الصباح الباكر مع الجدة نوار إلى الحقول المجاورة لأعلف لدوابنا التي داهمها الجوع وأوشكت على الهلاك، وكنت أقسّم ما اعتلفته قسمين، قسم أخصصه لدوابنا، والقسم الآخر أقايض به لبناً لموتان الصغير،

فولعي به يزداد كلما كبر ونضجت ملامحه، تلك الملامح التي تقاسمني في كل شيء، فهذا الصغير عندما خرج لم يجد من الوجوه إلاَّ وجهي كي يتقمصه، فشفتاه المتلئتان، والمكتنزتان تمنحان أمي الراحة أثناء (تغريده) باللبن، وعيناه الصافيتان ذات السواد الغامق يتقافز منهما فرح طفولي أرعن. . . :

ـ اذكروا اللّه.

هذه الجملة ذكّرت المشيعين أنهم يسيرون صامتين، واجمين، فتعالت الأصوات من أمكان متفرقة.

ـ لا إله إلاَّ اللّه. . ما يدوم إلاَّ اللّه. . .

قذفت بما تبقى من حزني، وتحذيرات خالي، واقتربت من النعش المحمول، ورفعت يدي في محاولة للوصول لسارية النعش. . كانت الأيدي التي تتناقله كثيرة، فخشيت أن يترك جانباً من النعش لي فلا أقوى على حمله، فيسقط عبد اللّه الشاقي:

ـ كيف لو سقطت الآن يا ابن وادية؟

لامست شيئاً من جسده، لا زالت خاصرته تفيض ببقية السيل، ورأسه تتحرك ببطء:

ـ أتودع برأسك يا عبد اللّه؟

ها هي مسيرتك كضحكتك سريعة، خفيفة لها صوت يدوي كنحلة تبحث عن زهرة في أرض خراب.

صرخ أحد المشيعين:

ـ رباط الكفن انحل.

فتوقف المشيعون، وأنزلوا النعش من على أكتافهم، فحشرت جسدي وتطلعت، فانفرج الكفن. . لا زالت عينه مشرعة لاستقبال ضيف لم يمنحها مزيداً من الوقت لتحتضنه. . للمرة الأولى أراه عارياً، فلمحت ما كان يحرص عبد اللّه على ستره في حياته، لمحت ما يشبه حبات العنب تحت سرته فلقد توحمت والدته بعنب رازقي في وحمها به، وكان العنب غالياً، فظلت تشتهيه،

وتتوق لمذاقه دون أن تتمكن من الحصول عليه، وعندما أنجبت ابنها كان عنقود من العنب الأسود يمتد تحت سرته، هذا ما سمعت به وهم يتحدثون ساعة غسله. ركضت عيناي بذلك الجسد المسجى.. لم يعد سميناً كما كنت أراه.. أثناء غسله كانت بطنه منتفخة كقبة المسجد، وكان المغسل يضغطها برفق فيتسرب الماء، والوحل من فمه، ودبره، ومع ذلك ظل محافظاً على سمنته.. الآن يبدو منزوياً، ضامراً، أأعلم جسده بأن ديدان الأرض تنتظره فتخلى عن سمنته للمحتاجين؟؟ فمه لا زال فاغراً وكأنه يود البوح بشيء ما، دنوت منه حتى لاصقت أذناي فمه وكانت أصوات المشيعين تنهرني فسمعته يهمس:

ـ يابن رعنا هذا عيد الخروج.. هيا نتزامل!!

شدني أحد المشيعين بقوة، فأمسكت بالنعش، ليجذبني خالي من مدرعتي بعنف، ويصفعني على مؤخرة رأسي:

ـ ألم أقل لك عد للبيت.. أم تريدنا أن نحملك معه؟

انكمشت في ثيابي لأحافظ على بقايا جسدي من هذا التهديد.. اختلطت بالمشيعين، وتتبعتهم من بعد، فبعد أن شدوا وثاق الكفن، عادوا لحمله من جديد.. في مؤخرة المشيعين سمعت أحدهم يسر لجاره:

ـ ألم يجدوا له كفناً غير هذا الكفن؟

رد عليه صاحبه باقتضاب:

ـ أتوجد شروط معيَّنة للكفن؟

ـ لا، ولكن هذا الكفن مصفر، متآكل، ألا ترى أنه أخذ يتمزق قبل أن يصل إلى التراب.. فهذا الكفن قد ادخره السوادي لنفسه منذ مائة سنة، حمله معه عندما ذهب للحج، وعندما عاد ظل كفنه مدفوناً، وهو كإبليس يحيا بالفتن.

ردَّ عليهما شخص ثالث بحذر:

ـ سمعت بأنهم بحثوا له عن كفن عند جبران البزاز فلم يجدوا وخشوا عليه أن يتعفن قبل أن يصل الكفن من المدينة، فدفعوا للسوادي آخر حقولهم ثمناً لهذا الكفن.

كانت أسير بآخر الجنازة حين لمحني، فبسط لي ابتسامته التي تبدي نواجذه المدببة الصفراء، وحملني في قهقهة مرتفعة قست لها عضلات وجهه، وصرخ:

ـ بلاد الحسد مرآة لا ترى إلاً من يبحلق فيها.

كانت الجدة نوار تناديه بديك القلعة، وكانت هي الوحيدة التي تحنو عليه وتهيل على رأسه المديح، وتزيل ما يعلق بجسده من كدمات السوادي... ها هو يسير في الجنازة ووجهه مقبرة من التساؤلات الموحشة، وقامته توازي غربته.. صوته المشروخ دندنة خفيضة.. وحزنه الريان نبت على أهدابه، وعلى بوابة فمه تعسرت ولادة ابتسامة ناضجة، فظلت تحاول الخروج في كل لحظة، وعندما يعجز في استكمالها يخرجها قهقهة جافة تذود عبوس وجهه... نما في أرض السوادي غريباً.. كانت طفولته ـ كما سمعتها من الجدة نوار ـ خليطاً من البكاء والوحشة.. عاش عبداً، وعندما امتلأ عقله، وابيضت أفعاله اسودت حريته.. وليس ثمة من يسند قلبه، أو يضحك سنه، يأوي لبيت معلق بين شجرتين تطلان على حقول سيده، يأوي إليه في المساء، وعندما يحن للبكاء يمتطي بغلته العرجاء، ويتجه صوب بئر الثعالب، يملأ الدلو بالحجارة، ويتركه يندفع لقاع البئر بقوة حتى يسمع ارتطامه بالماء، فيترك (الرشاء) وينحني على فوهة البئر باصقاً، ويتمتم بأحزانه ودموعه، ثم يجر بغلته، ويمضي عائداً.

ها هو اليوم يشيع جنازة عبد اللّه ضاحكاً.. تعودت أن أناديه بعم درويش.. اقتربت منه وأمسكت بعصاه التي فلقت عشرين رأساً حتى الآن، فرفعني بقهقهة منخفضة:

ـ العصا لا تفلق رأس من تحب.

ـ ابن وادية كان يحبك.

ـ عندما تضحك تمنح الحزن متسعاً أرحب لأن يداهمك ببطء!!

ـ عبد اللّه كان يحبك.

ـ حصان المعركة لا يتذكره التاريخ.. بالأمس رأيت السيل يجرفه نحو

المزارع.. عبد اللّه طمى لهذه الأرض القاسية.. تركت السيل يجرفه ليمنحها قليلاً من الحب.

ورفع ضحكته، وانطلق يركض أمام الجنازة.

في المقبرة كل شيء مهيأ لأن يفاتحك بالصمت، ويحث عينيك للبحث عن بقايا الإنسان، والذي لم يتبق منه إلاّ عظام نخرة تحدق بك باشتهاء، فتهرب منها من خلال دعاء مرتبك، وتنفث الخوف من رئتيك بوجل، وتعتصم بوحشة عارمة شبت بداخلك بغتة.. كانت كوات القبور القديمة قد لفظت ما بأحشائها على إثر فيضان السيل الفائت، فتجندلت الجماجم، والسيقان، وبرزت عظام الصدور التي تناقلتها كلاب المقبرة إلى أماكن متفرقة، حرصت على أن لا أنظر إلى هذه البقايا التي مضغت الحياة بملل، وجاءت لترقد هنا تاركة أجسادها للتراب، والدود، والكلاب الهاربة.

لن أزورك يا عبد اللّه فبيتك اليوم مطلي بالعظام.. في الماضي كنت ترعبني بكلب السوادي، وعندما أشتاق إلى رؤيتك أحمل عصا خالي ـ التي غالباً ما تسكن تمرد جسدي الثائر ـ وآتيك مازحاً:

ـ أين نصيبنا منك، فقد مضى العيد الكبير، وأنت لا تزال بعيداً عن شفرة النحر.

آه.. ها نحن نقتسمك اليوم حزناً إضافياً.. نقتسم بعدك.. وموتك.. وسيرتك.. هكذا فجأة انطفأت ابتسامتك، وأصبحت جرحاً في قلوبنا.. كلما أطللت في أحاديثنا استرجعناك بأسى.. كيف ألقاك، وتلك العصا (السلمونية) لا تقوى ـ اليوم ـ على إخفاء هذا الخوف الذي انبث في داخلي من مرقدك الأخير. ليتك تعلم يا عبد الله هذه المفارقة.. ففي جنازتك يسير درويش ضاحكاً، والسوادي دفع إليك بكفنه مبدياً أسفاً على رحيلك، وبعث معاونيه ليزرعوا جسدك الطري في بطون الديدان، والعدم، وظل درويش يحكي بضحكته الرغدة لتلك الجماجم ـ الناهضة احتفاء بمقدمك ـ بأنك صديقه.. أليس غريباً ما يحدث.. ها أنت تموت غرقاً، وأنت سيد البرك، حين كنت تنزل إلى عمق الآبار، وتنسل ما بين الطين ولا يمسك بك الماء.. هل حقاً اغتالك الوادي؟

وكيف تجرأ على سلب أنفاسك وهو يعلم أنك ماء الأرض.. ها أنت تغدو نائياً، ويغدو مسكنك موحشاً.. عذراً يا عبد اللّه فلقد استلقيت بين الدمع والقهقهة، وتبعتك علني أراك وقد أغمضت عينيك الفزعة فما وجدتك إلاً سمنة ذاوية، فرغبت عنك، ولن تراني، فللحود رهبة الموت.

حتى الآن أشعر أن هذه الأيدي تحمل هيكلاً غريباً قذف به الوادي كبقايا تلك الأشجار التي يدفعها السيل أمامه لتنبئ القُرى بقدرته على اقتلاع كل شيء من جذوره.. تلك الأشجار التي نأخذها من جنبات الوادي عندما يهدأ ويتراخى موجه حين نذهب ونحمل بعض الجذور الخضراء التي طوح بها السيل لنؤسس بها منازلنا فتنبت من جديد ضفائر لعششنا المتداعية:

ـ (غداً سأخرج من هذا القبو لأضيء).

(أوه يا ابن وادية.. ماذا تقول؟.. أتبكي نساء القرية، وتحمل رجالها بسمنتك كل هذا الوقت لا لشيء إلاً لتدفن ثم تضيء.. كفاك مزاحاً أيها الكبش المعافى.. هيا بنا نعود للحقول، والأراضي الخضراء).

أغلق القبار وجهه بتقطيبة غريبة، وحمل (قدومه)، ومضى يذرع القبور بحثاً عن مكان يستقبل هذا القادم، كانت القبور متعانقة، وكلما استماح الأرض مكاناً ضيقاً لهذا القادم أبت، وقاربت بين موتاها حتى لم يعد ثمة خرق نحشر به هذا الكبش السمين، فسار المشيعون، وعبد اللّه يتأرجح بين أياديهم، ويرفرف غطاؤه اليماني كاشفاً عن كفن مصفر متآكل، وكلما أمعنا في السير زاد نعشه من تذمره بطقطقة رتيبة.. كل المقبرة تنضح ضيقاً بالأجساد الميتة، ولم تعد أرضها قادرة على ابتلاع جسد كجسد عبد اللّه. عندما غادر القبار المقبرة ليوسع حدود الموت، ولا زالت (قدومه) تتدلى من عاتقه، وتحرث ظهره كلما خب في السير، والمشيعون يديرون رأس عبد اللّه لتقتفي أثر القبار.. توقف الحفار عند تجمع السيل، وهوى بـ (قدومه)، فتقافزت الأصوات:

ـ هذا مجرى السيل.. ألاً يكفيه أن مات غريقاً؟.. أو أنك ترغب في رؤيته كلما جرى الوادي؟

ـ هل جننت؟ . . أوترغب أن يجرفه السيل نحو البئر فنحتسيه مع الماء الذي نشربه؟

ـ ادفنه بجانب أشجار السدر، فحياته كانت شوكاً مثلها.

ـ لا، لا . . عد بنا إلى المقبرة ولينزل ضيفاً على أبي.

ـ عودوا به إلى موطن الموت، وإذا لم تجدوا له مكاناً، فليدفن في عرصة دارهم.

ـ اقذفوه للوادي ليتكفل بدفنه.

كانت أصواتهم تتخاصم بينما توقف القبار عن الحفر وظل يحدق فيهم وهم يتشاورون عن المكان المناسب لدفن عبد اللّه عندما صرخ فيهم درويش بصوت مرتفع حانق:

ـ لنتقاسمه، وليدفن كل منا حصته كيف شاء، وأريد أن تكون حصتي قلبه، لأصبح عبد اللّه، ودرويش، وكل الأرض!!

نهره أحدهم بغلظة:

ـ كف عن جنونك، فليس الآن وقتك.

تداخل صوتي الناحل بين تلك الأصوات وضجيجها:

ـ سيروا به مائة عام على الأعناق علّنا نجد قبره.

تبسم أحد أعوان السوادي لمقولتي، حينها لكزني درويش مشيراً عليَّ بالصمت:

ـ (انهض عبد اللّه، وازح عنك غلالة الماء، وابحث لك عن أرض جديدة. . أتتذكر ـ يا ابن وادية ـ قولك: هذه الحياة تظل تدور فيها باحثاً عن الجهات الأربع، وتدور. . وتدور وعندما تموت تمنح الآخرين حق توجيهك، عندها لا تعرف إلى أين يسيرون بك. . أتعلم الآن إلى أين يسيرون بك؟).

لا زال اللغط مرتفعاً، ولا زال النعش عالياً فوق الأعناق، وبعد أن سكت الجميع عن ذكر اللّه، واشتغلوا بلغطهم. . قال قاتل منهم:

ـ لنعد به للقرية، وهناك نتدبر أمرنا.

فعاد صوت درويش أكثر صخباً:

ـ أكُلّ هذا الخلاء لا يوجد به قبر، أم أنكم تحتفظون بأنعم السوادي!!

أهملوه، وعادوا بالجثمان نحو القرية، فاستقبلتهم النادبات على مخارج البيوت، وعويلهن يمزق تلك الوحشة الصابية في القلوب، وعندما علمن بأن الميت لا يزال محمولاً على الأعناق، تعالت صرخاتهن بعويل حارق:

(حسرى عليك حسرى
تاك الجنة برا
بموتك فتح امعمي)

ومن بين النساء ظهرت وادية ممسكة بشعرها الذي بدأت بحصده من ليلة البارحة، وتعلقت بالنعش، وهي تنتحب:

ـ وه يا عبد اللّه لك يومان تسير عارياً، وقد زعموا أن لا أرض تحملك، فانزل لأمك.. عد إلى بطني لأحملك أينما سرت.

وسقطت في مكانها بلا حراك، فتسارع إليها بعض النسوة، يرششن بالماء على رأسها، ويضربن خديها بكفوفهن الخشنة، وحملنها إلى داخل العشة بينما أنزل المشيعون النعش، فتهافتت النسوة ليتباركن بالميت، وأصرت امرأة عجوز ـ يُقال إنها مولدته ـ على حل الكفن لكي تقبله في مفرق الشعر.. حشرت رأسي بين الرؤوس المبحلقة، كان قد أطبق عينه الخائفة، واستبدلها بالعين الأخرى بنصف إغماضة، ويده اليمنى الثابتة على صدره تزحزحت، وتسللت لتستر عنقوداً من العنب الرازقي تمدد تحت سرته:

ـ (أوه يا عبد اللّه.. ها هي كل العيون تقتحمك اليوم عنوة).

تهادت تلك العجوز، ودموعك تنثال بغزارة، وارتمت عليه تنتحب، وأخرجت ثدياً بالياً، وألقمته إياه، وهي تحرضه:

ـ اشرب فهذا الثدي رواك صغيراً، وها أنت تغادره في شرخ الشباب، فمص دمه علّه يسري بأوردتك.

ازداد سخطي على الشيخ موسى حينما دفعها بعنف، وزجرها:

ـ يا امرأة خافي اللّه، وادعي له بالمغفرة.

فضربته على ظهره، وهي تتهاوى:

ـ إني لأخافه في السر والعلن، وإنكم لتخافونه في العلن، واللّه لو لم يأكله الماء، لأكلتموه نيئاً.

وضاع صوتها بين همهمات الرجال، المتزاحمين على الجنازة، والذين انتهوا للتو من إعادة ربط الكفن بإحكام، وانحنى القبار (بقدومه) على عرصة الدار ليحفر قبراً لعبد اللّه، عندها ارتفعت صرخة متوحشة ـ من درويش ـ حلّت على القوم كالصاعقة:

ـ إذا لم تدفنوا عبد اللّه في المجنة فسوف أحطم قبة راعي القضبة، وأدفنه مكان السيد.

قذف القبار بقدومه وران الصمت على الحضور، وتحركت الأيدي رافعة النعش، ونهض صوت المشيعين خافتاً:

ـ لا إله إلاّ اللّه.. ما يدوم إلاّ اللّه.

ثم أخذ بالارتفاع حتى أني سمعت الترديد من كل جنبات القرية، وتوجهت الأقدام عمودياً صوب المقبرة. هناك تعاون الجميع على اجتثاث شجرة (عشر) وحفروا له قبراً قصيراً مكانها، وحشروه، وأهالوا عليه التراب، ودلقوا عليه بصفيحتين من الماء، ووضعوا حجراً أمرد بمحاذاة رأسه، وقليلاً من الريحان بجواره، وقفلوا عائدين يحملون نعشه بالمقلوب، ولم يعد بجوار قبره إلاّ أنا، وبعض الشجيرات المتناثرة بالمقبرة. كان الغروب قد انتهى من نحر شمسه للتو، فتطاير دمها القاني في الفضاء محدثاً وحشة عارمة، وتمدد سكوناً ثقيلاً بين تلك الأجساد النخرة، ملتحفاً بليل أغطش الجهات الأربع، ولم يعد بمقدوري أن أتحرك وسط هذه القبور المترامية الأطراف.. كان خوف ثقيل يسكن الفؤاد، وحزن طاغ يعبث بالنفس، وأحسست باستغاثة جارحة تخرج من فمي، فتملأ هذا السكون بعويل متكسر، متهالك، فتتموج، وتعود إليَّ خاسئة، وتستكين بجواري ريحانة ذابلة، وبعد أن وهن صوتي، لذت بقبر عبد اللّه، أتلو بعض الآيات التي حفظتها من عند السيدة مريم حتى إذا استكان فؤادي، وألفت وحشة القبور، نبت بداخلي هاجس الموت، فأخذت ألوكه لوقت طويل، وعيناي تتقلبان في

السماء، وثمة نجم يدنو من عليائه، ويدنو حتى شارك عبد اللّه في قبره بعد أن بث وهجا ساطعاً ذهب بنور بصري، بعدها عاد إليّ بصري فرأيت رجلاً منير الوجه، لبني البشرة له لحية كثة خليط من ليل ونهار، متناسقة الأطراف، غزيرة المنبت، ويرتدي جبة خضراء، ورداء أبيض، مربوع القامة، ناعم الأطراف، شحيح العبوس، أيقظ عبد اللّه، وقادنا إلى ردهة فسيحة الأركان ذات أشجار غنية بالثمار، وقربني من عبد اللّه، وناولني كأس لبن ساخن، فشربته عن آخره، وعزمت على المضي، فأمسك بيدي:

ـ ألا ترغب في البقاء مع صديقك؟

استمحته في الانصراف، وركضت بكل قواي، وقدماي تدوسان عظاماً يابسة، وأخرى طرية، فأسمع صياحهم، وتعوذهم مني حتى إذا عبرتهم جميعاً وجدت ذلك الرجل أمامي يفتح قبراً، ويريني عبد اللّه الذي بدا واجماً:

ـ لقد ذهب الجميع، أفلا تؤنس وحدتي قليلاً.

فانتابني خجل مرّ، ودنوت من قبره، ولا زال ذلك الرجل يضحك من خوفي. نزلت إلى قبر عبد اللّه، وتمددت بجواره، ليهيل علينا ذلك الشيخ التراب، وهو يردد:

ـ لا إله إلاّ اللّه. . ما يدوم إلاّ اللّه.

فرأيت نهراً من نار يصهرنا، فصرخت بهلع، ونهضت مفزوعاً لأجد الشمس تأكل من جسدي الذي تكشف، وأنا مسند رأسي على قبر عبد اللّه الملبد بالتراب المرشوش بالماء، وقد ذبل الريحان، فنهضت نافضاً التراب العالق بي وعدت إلى البيت.

كان الخوف قد عبث بأمي وأختي لتغيبي ليلة البارحة، فقد بحثتا عني في كل مكان تتوقعان تواجدي به، في السوق، وبين الحقول، وعند درويش، وفي بيت الشاقي، وقد ظنتا أنني عدت إلى القلعة، فقد ذهبت والدتي إلى حصن السوادي تسأل عني، وأكد لها يحيى عبده بأنني لست هناك، فعادت بين مصدقة، ومكذبة، فلم تستطع النوم، فأخبرت خالي الذي نهرها وعاب تدليلها لنا، وأعاد غطاءه على رأسه ونام. . وعندما رأتني

أمسكت بي وأخذت تعنفني حتى إذا هدأ خاطرها حضنتني ببكاء متوتر:

ـ أين كنت؟

ـ في المجنة.

فشدت ضمتها، وأباحت لنفسها إفراط دموعها، فيما كانت صالحة من خلفها تعاتبني:

ـ حرام عليك لم نذق طعماً للنوم، ولم يدخل إلى قلوبنا إلاً الخوف والجزع.

كانت صالحة تكبرني سناً ولكنها تخافني لأني رجل البيت وفي أوقات تتعامل معي كأخ يصغرها فتمد لسانها، ويدها، وفي أحيان كثيرة تؤنبني دون أن أقدر على الرد عليها لقربها من قلبي، بعد أن اطمأنت والدتي على سلامتي، شدت دابتها، وامتطتها متوجهة إلى عملها بعد أن جمعت روث الأبقار، وكر الجمال من دمن القرية، وتبقيت مع صالحة، وموتان الصغير، فليس ثمة عمل أقوم به بعد أن طردت من عند حسن نجار في آخر مهنة التحقت بها، فقد كسرت سن (الفارة) عندما نجرت بها أحد الأبواب والذي كان عالقاً به قضيب حديدي ما كان منه إلاً أن سحب يدي ودفعني لخارج المنجرة دون أن يتكلم، ودون أن أحاول الدفاع عن نفسي.

شعرت بخمول يعتري أطرافي، وتثاؤب طويل يقطع شدقيَّ، وثمة رعدة خفيفة تتموج ببدني وتختفي، وثقل طفيف يميل برأسي، ولا أدري لماذا عنَّ لي أن أدعو صالحة لمساعدتي على حمل قعادتي وتوجيهها للقبلة، والاستلقاء عليها بعد أن طلبت من أختي تغطيتي برداء أبيض، كانت تقوم بكل ما أطلبه منها وهي فاغرة تسيل منها دهشة متدفقة، وتمددت واضعاً يدي فوق صدري، وأسدلت الغطاء فوق رأسي، وتلفظت بالشهادتين، عندها خبطتني على صدري، وهي تصيح:

ـ اترك هذه (الخذيلة).

لم أستجب لها، فتناولت المكنسة وأنزلتها على جسدي، فخرجت من تحت اللحاف راكضاً صوب السوق علني أظفر بأي عمل، فتسكعت بدهاليزه

ووقفت بأبواب كثيرة دون الظفر بمن يستأجرني، فتمددت بجوار بائعات السمن واللبن، وانهمكت بمضغ (سكر قندة) منحني إحدى قصباتها عبده الأعوص، كنت أشعر بتراخ حاد بأوصالي وليست لي رغبة في أي شيء، فـ (لجحت) ما كنت أمضغه، وتحركت باتجاه المقوات، لأتذكر في أنني لم أقم بالعزاء للخالة وادية في موت الغالي، فتحركت إلى هناك، وقبل وصولي إلى بيت الشاقي رأيت بغلة عبد اللّه محلولة الرباط تسير في الأزقة وحيدة، فأحسست بناغز يفتق حزني، فعدت أدراجي إلى البيت.

مع حلول صلاة العصر أصابتني رعشة حادة، وأحسست بدبيب الحمى يسير بين مفاصلي، فتمطيت، وشعرت برغبة ملحة في الاستلقاء على قعادتي، واجتاحتني موجة برد خلفتني كومة من ارتعادات راعشة، وبوهن ناديت صالحة لتغطيني، لكنها أمعنت في إهمالي، وظلت تطحن الطحين وصوتها يصلني متذمراً:

ـ (إلا خيرة اللّه عليك من ذا الفال).

لم أعد قادراً على تحمل هذه الرعشة، فتحركت بصعوبة وجذبت بطانية متهالكة ـ حصلنا عليها منذ زمن طويل مقابل شاة دفعنا بها لعلي محمد ـ وتلحفت بها، وأسناني تصطك بقوة، وعندما انتهت صالحة من طحينها ووجدتني على وضعي هذا، أوشكت على قذفي (بكعة) كانت تحملها، ولم يوقفها عن ذلك إلاّ عيناي الغائرتان، واصطكاك أسناني، وعندما وضعت يدها على رأسي فزعت، وخرجت تركض منادية على أمي من بيت أحمد يوسف حيث كانت تردم له عشته.

لقد تمكّن مني الموت ـ على ما يبدو ـ ففي اليوم الثاني من رقدتي أصبت بإغمائة طويلة تخللها هذيان مستمر عن المقبرة، وعبد اللّه، وذلك الرجل صاحب الجبة الخضراء.. كنت أسمع صوت أمي المولول الدامع وهو يشارك النسوة المجتمعات على قعادتي كحلم بعيد دون أن أفقه حديثهن، وكانت تتردد كلمة (الحجابة) ويتبعها عويل متقطع.. وفي إفاقتي القصيرة لم أعد أرى إلاّ أمي، وأختي، ومولدتي اللائي يحضرن الطعام لأتقيأه قبل وصوله إلى جوفي.

كانت توجد بصدر عشتنا جلالة نقشت عليها آية (الكرسي) يغطيها زجاج هش رقيق، تعكس ظل القادم، وكانت عيناي معلقتين بها، فألمح ـ من خلالها ـ امرأة شمطاء تدلي من فمها سن مدبب، ومتشحة بالسواد، وتغطي رأسها بمظلة ممزقة، وتحمل (زنبيلا) بيدها اليسرى، تخرج منه رأس عبد اللّه وتضحك بقبح، فأرفع صراخي ودموعي لتأتيني أمي، وأختي، ومرضعتي أو إحداهن يسابقن صرخاتي مستفسرات عما بي، وعندما أخبرهن بما أرى، يهدئن من روعي، ويستعذن من الشيطان، ويحرزونني بأسماء اللّه، وينصرفن مهمومات، ولا زالت هذه العجوز تزورني حتى لم يعد يخيفني منظرها، وغالباً ما كنت أغرق في الحمى، وأنا ممسك بوجهها.. أفقت ذات صباح على الشيخ موسى وهو يقرأ القرآن فوق رأسي، وكانت بي رغبة في طرده، ولكنني عجزت عن ذلك، ورحت في إغماءة أقتات فيها وجه تلك العجوز الشمطاء تارة، وتارة أسعد بوجه عبد اللّه، أو الرجل ذي الجبة الخضراء. في الأيام التالية كانت الحمى تجتاحني في فترات متلاحقة فأغدو تنوراً ملتهباً لا تنطفئ حرارته، فيحشرون أقراص الأسبرين، والكالمين بفمي فأنضح عرقاً غزيراً حتى تتبلل ملابسي، وأصبح كطائر رش بماء بارد، وما هي إلاّ لحظات، وأنفض ذاك العرق، وأشتمل بلهيب الحمى.. كنت أسمع أمي تشتكي للنساء:

ـ كل الطرق لم تفلح في إخراجه مما هو فيه.

أصبحت أتنفس رائحة الأسبرين، والكالمين، هذه الأقراص التي بلعت منها حداً يفوق الوصف، وبدأت أحس بأنني غير قادر على السيطرة على نفسي، وأصبحت كل منافذي تسيل مما مكّن الذباب من الاستيطان على جسدي، وافتراشه كما يشتهي دون أن أتمكّن من هشه، أو إزاحته من على وجهي.. كان آخر عهدي بأمي حين لفظت دماً، لتضرب صدرها بعنف، وتصيح:

ـ شلّت يميني يا موتان.

وبصوت واهن طلبت منها مرآة، فقد كنت مشتاقاً لرؤية وجهي، وحينما حدقت فيه كان الموت قد اقتاته، فأسقطت المرآة وصوتي:

ـ مرحباً يا وجه الموت.

فصرحت أمي بأعلى صوتها، وأحسست بحركة تهب بجوار قعادتي، وأصوات النساء تتعالى، فغمغمت:

ـ الموت حق.. لا إله إلاّ اللّه محمد رسول اللّه.

ارتمت أمي وأختي على صدري:

ـ اذكري اللّه يا والداة، فلو كانت الدنيا باقية لأهلها لكان رسول اللّه حياً باقياً، احمدي اللّه، واشكري فضله.

أظن أنني أقذف بالكلمات في ذاكرتي، وهي لا تسمعني.. تهزني بقوة، وصوتها يستحثني على الحديث، وقبل أن أعاود الحديث ذهبت في إغفاءة طويلة، وثقيلة، ولم أعد أعي شيئاً سوى أنني مُقْدِم على أمر جلل.

لم يعد في القرية طائر نغني له...
فلنخلق طائراً من خيالاتنا

من أقوال العجوز نوار

يعسعس الليل بسكون طاغ على القرية، وتنتشر رائحة الوادي ندية خمرية، وثمة وحشة تسكن هذا المساء الملبد بالغيوم، والمنذر بوابل من المطر.. كان المزارعون قد خرجوا من وقت مبكر انتظاراً للماء لسقي حقولهم الميتة، ومضى النهار بطوله دون أن تقطر السماء، ومع الغروب تخضب المدى بسحب قاتمة، ورعد يبعث بروقاً لامعة، وما هي إلاً لحظات حتى انسكبت العتمة والماء وأغرقت كل شيء، ولم يعد مستيقظاً في هذا الليل إلاً هدير الوادي الذي استعان بمد جبروته من تلك الشعاب المنحدرة بغزارة، واندفاع متصبباً، وقد خرج الأهالي إلى مشارف القرية ممسكين بفوانيسهم، ومنتظرين العائدين من الحقول، ولفحة هواء باردة تلسع تلك الوجوه المتناثرة على طول الوادي، وقد سكبت النساء عيونهن عى امتداد الطريق المؤدي للوادي بتوجس، وقلق.. كل الأشياء تبدو صامتة حزينة، وكأن الموت يمر من هنا.. قبل لحظات اندفع الوادي معربداً عاصفاً، ومقتلعاً القامات، والأشجار، والصخور من جذورها، وخبأها بين زبده ومضى.

الفوانيس تبدو مع حلكة الليل كنجوم هبطت من سمائها، واستقرت على الأرض، لا شيء يسمع إلاً هدير المياه المتدفقة، وتقصف الأشجار، وأصوات (المغورين) وهي تنادي بالأسماء، والكنية.. كل الأسماء ردت على النداء إلاً هو مضى وترك خلفه صوت أمه يقرع سكون، وظلمة هذا الليل بحرقة:

ـ إنه العذاب.

بعد صمت طويل عبست السحب حتى إذا امتلأت غيظاً رمت بشررها، وجرى الماء عاصفاً طائشاً يقلع، ويدفع كل ما ألقي أمامه، جاء من المرتفعات البعيدة متصبباً حارقاً يمضغ الأجساد والحجارة، لم يكن في يوم بمثل هذه القسوة، ولم يكن عاتياً شبقاً كما هو اليوم، فذاكرة المسنين تقسم إنها لم تره بمثل هذه القسوة من قبل حتى أن سنة (الدفرة) كانت أكثر رحمة، أما اليوم فقد حاق العذاب.

ثمّة رجل يركض على امتداد الوادي يلاحق السيل صارخاً باكياً:

ـ أيها الماء توقف.. أيها الموت توقف.. توقف،، مرّ على تلك الجباه العاصية التي نخرها الدود وهي لا زالت تقتات أنفسانا أما هذا فلا.. توقف.

كان يجهش بالبكاء، ويتابع بعينيه جسداً هشّمته الصخور فاستسلم لها ومضى مع زبد السيل كشجرة قطفت قبل أوانها، كان يصرخ فيه:

ـ أيها الغالي.. ألن نلتقي؟.. سامحني كنت أريدك شرارة لهذا الليل.

وزاد نحيبه حينما رأى يداً موثقة تجابه الموت وحيدة، فتتعرش بهامة السيل، ليجذبها للقاع ويلقي بها من عل بين الصخور وأعجاز الأشجار، وكلما ابتعد بها السيل جمع أطرافه في ركض مجنون ونادى بالسيل:

ـ أيها الموت توقف.

وحين أوغل ذلك الجسد في إبحاره سقط يجهش بحرقة متعالية:

ـ توقف لا زال الموت الأكبر يسكن أفئدتنا.

كان جاثياً حينما رأى فوانيس (المغورين) قادمة تشق ظلمة الليل بتخاذل، فنهض راكضاً صوبهم، وأخذ يمسك بهم الواحد تلو الآخر.

تركوه يهذي خلفهم وانتشروا عى امتداد الوادي.

في يوم الدفن أقسم إنه رأى حورية شقت عتمة الليل بحسنها، وانكفأت عليه تحل وثاقه، وتسند رأسه براحتيها، حتى إذا أفاق أسلمها يده، وسار بجوارها تحفهما نساء خرجن من جنبات الوادي وهن يزغردن وينثرن

الأغاني فوق رأسيهما وأخذا يصعدان بهما حتى التهمتهما سحابة شفافة.

وقال المُغسِّل الذي تكفل بغسل جسده:

ـ لم أرَ في حياتي ميتاً كهذا، فكلما قلبته فاحت رائحة المسك من زوايا جسده، فاكتفيت بتلك الرائحة ولم أطيبه طيب الموتى، وما أظنه قد مات، فالموتى يتيبسون وميتكم يتثنى كغصن رطيب، وينفث أنفاساً حارة دافئة.

أما موتان الذي ظل يسامره بقبره فقد عاد محموماً، وكان يهذي:

ـ أريد أن ألحق بعبد اللّه، فقد رأيته كالقمر تحف به النجوم.

أما مرضعته التي قبّلت مفرق رأسه إبان عودته من المقبرة محمولاً على الأكتاف فقد قالت: شممت رائحة فذة ليس لها مثيل، تخرج مع أنفاسه ببطء، ولا زالت عالقة بأنفي إلى الآن، وقد تراءى لي بأنه يهمس بأذني: سأعود وأشعل هذه العتمة بالنور وقبل أن أرد عليه جذبني الشيخ موسى فلمحته يبصق عليه، فصرخت في المشيعين أن يخلوا بيني وبينه ولكنهم زجروني ومضوا به بعيداً.

رأيت فيما يرى النائم:
غرساً جديداً يشق وجه الجفاف، والضوء
ينمو في عشتنا البعيدة

عبد اللّه الشاقي

ـ اللّه يحرمك من شبابك.

هذه اللعنة أخذت تطاردني من وقت مبكر، فحينما كنت طفلاً صغيراً لا أعرف معنى للزرع، أو القلع، وعقب هطول الأمطار تنبت زرعات أليفة ضعيفة بـ (قبلنا) الواسع كنت أتربص بها وأقتطفها وألقي بها كيفما اتفق وأخرج باحثاً عنها في بيوت الجيران، أو في الأزقة المجاورة لبيتنا. وعندما رأتني أمي مدمناً على هذه العادة اقتربت مني وفركت أذني دون سبب وجيه ـ حسب ظني ـ وكنت طفلاً عنيداً ذا لسان تبرأ منه كثير من الأقارب، وما إن امتدت يدها لأذني حتى انخرطت باكياً، ومجادلاً:

ـ من سلطك على ضربي.. ولماذا؟

ـ تقليعك للزرع، إذا لم تتركه.. سوف أقص يدك.. ألن تترك هذه العادة؟..

فألوذ بالصمت، لتعود تهيجها صارخة:

ـ أتسمع؟!

فيندلق لساني بالأسئلة والاعتراض:

ـ ولماذا.. وهل أنت التي قمت بزرعه؟.. أم ربنا الذي أنزل المطر وقال له انبت، فنبت؟!

وعندما رأت عنادي وانزلاق لساني في أمور طويلة قد تعجز عن الرد عليها، أو مجاراتها حضنت رأسي ـ الذي بلغ أسفل فخذها، وأخذت يدها

تسرح شعر غرتي وخاطبتني بلين محاولة تقريب ما تود قوله:

ـ عندما تقطف زرعة تغضب، وتدعو عليك، قائلة: (اللّه يحرمك من شبابك كما حرمتني من شبابي)... أتريدهم أن يدعو عليك؟!

ـ من هم؟

ـ الزرع.

ـ هه.. وهل يتحدثون مثلنا؟

هزت رأسها بالإيجاب وحذرتني من اقتراف عمل لا يليق بابن مزارع وعائلة من الفلاحين القدماء، فأذعنت لرغبتها ولم أعد لتلك العادة ليس طاعة لها ولكن لخوف عشعش بداخلي، فكنت كلما هممت باقتلاع زرعة، أو بقطف وردة، تذكرت تلك الدعوة فأقلع عما نويت في الحال وأسمع كل الزرعات تطاردني بلعنتها:

ـ (اللّه يحرمك من شبابك كما حرمتني من شبابي).

فيتموج بدني بارتعاشة خوف مفاجئة تتكفل بجعلي أركض مسافات طويلة وأنا أقسم على أن أحمي كل زرعة أراها.

فأصبحت راعياً وحانياً على كل زرعة، فكنت أراقب جذور الزرع في كل مكان أمر به، فالزرعة التي أجد أن الأرض همت بلفظ جذورها أقوم بغرسها وتعميق جذورها في الأعماق، وكذلك الزرع الحارق أقوم بريه، وأداوم على ملاحظة وتشذيب ما احترق منه وفي داخلي رجاء غريب بأن يسامحني الزرع على ما اقترفت سابقاً، وقد أهمس لزرعة رويتها بأن تدعو لي، وقد يصل الأمر حد التلقين:

ـ اللّه يمتع شبابك كما متعت شبابي.

وحينما أصبت بحمى استحالت إلى كساح، وأصبحت أدفن لترقوتي ـ صباح كل يوم ـ بجوار قبة راعي القضبة، كنت أتخيل تلك الزرعات التي كنت أرعاها تدعو بأن يمتعني اللّه في شبابي كما متعتها في شبابها.

وعندما كنت داخل السجن، أرى الموت يومياً من خلال تلك الطلقات الطائشة التي تنطلق من بنادق العسكر لتحصد من بطريقها وليس مهماً من يكون، في تلك الأيام كنت أسمع ذلك النداء:

ـ اللّه يحرمك من شبابك كما حرمتني من شبابي.

ومع نهاية القصف كنت أبحث عن أي شجرة تلمحها عيني لأطلب منها أن تسامحني، ولا أهدأ حتى ألمح أغصانها تتهادى بلين ورفق، عندها أطمئن نفسي بأن الزرع قد تغاضى عن ذنبي.

كان ثمة يقين ينبت بداخلي بأن هذا العمر لن يبتعد أبعد من ظلي، وكلما رأيت صحتي تتمادى في عنفوانها أنفض خاطر الموت من داخلي، وأواصل التنفس برئة مترددة خائرة.. وعندما كان موتان يصرخ فيَّ:

ـ أمك تسمنك للعيد القادم.

يعود إليَّ ذلك الخاطر يانعاً وجارفاً، فألقى على عتبة وجهه ضحكة طويلة، وبداخلي تسامق يقين بأنني سأغدو كبشاً للعيد القادم، وبالرغم من هذا الخاطر لم أكن أخشى الموت، وإن كنت أرغب في أمنية واحدة قبل أن يلتهم أنفاسي.. تلك الأمنية التي يشاركني فيها معظم أهالي القرية وإن لم يفصحوا عنها بقول صريح.. وهي السير في جنازة السوادي، هذا الظل الذي أبى أن يسقط، أو يخور أمام تلك الرغبات العديدة.. وا أسفاه، ها أنا أموت وهذا الظل يسير بجنازتي شامخاً كالموت نفسه.. أظنه سيسير في جنازة كل القرى ليدفنها على بكرة أبيها ويظل شاهداً على موتها وضعفها حيال قوته وبطشه.. لقد قرض أيامنا بالانتظار.. انتظار أن يسقط.. انتظار أن يغفو.. انتظار أن يبتسم.. انتظار أن يرفع أنفه عن هوائنا.. انتظار.... والحياة أقصر من لحظة انتظار متوسمين ضحكة تتمدد في أرجاء القرية.

كان الموت أقرب شيء لنا، وإن بدا بعيداً نائياً إلاً أنه بإشارة يأتي مسرعاً، وجارفاً، فلا يبقى أمامك سوى أن تتذكر وجه قاتلك كي لا يهرب منك حتى في الممات.

كانت لحظة قصيرة، وعسيرة حينما رأيت وجهه.. كان فظاً، بشعاً، قاسياً، عنيفاً، لم يترك لي فرصة أن أتدارك هجمته ببصقة على جبهته على الأقل.

كنت أظن أنني اكتسبت عداءه يوم وقفت خطيباً ضده في المسجد، ولكن الحقيقة المؤكدة بأن العداء إرث متأصل ومتجذر من تلك الأيام التي

نهض جدي ـ لأمي ـ في وجهه إبان هروب أحد مساجين القلعة، والذي كان محولاً من المدينة، وقد قام بتحويله أحد كبار رجال الترك، وقد بعثه مطوقاً بفرقة عساكر وأوصى بأن يوضع بالقلعة، وأن لا يرى النور مهما كانت الدوافع والأسباب وشدد على الحرص على حياته، وأكد في وصيته. . إن هرب هذا السجين فالموت من نصيب كل العاملين بها، وقد استطاع ذلك السجين ـ ويدعى سلمان أبو عاصي ـ الهرب أثناء قضاء الحاجة، ويقولون إنه دس جسده بين الكثبان الرملية وعندما جاء الحرس قادوا المساجين دون أن يحصوهم واكتشفوا هروبه أثناء إدخال المساجين إلى زنازينهم، فخرج الكل يبحث عنه، وقد حبا السجين بقيوده حتى بلغ أقرب حقل ورمى بنفسه هناك، واستجار بصاحب الحقل الذي أجاره بقسم غليظ بأن لا تصل إليه يد إلاّ إذا مرت على دمه، وأخفاه عن الأعين، وعندما علم السوادي بأن جدي يجير السجين جاء به، وأصلت السيف على عنقه فما تحرك له جفن، فسلك معه طريق الترغيب بأن منحه عشرين (جلبة)(*) مقابل تسليم الهارب، فلم يزده ذلك إلاّ إصراراً على إجارة السجين، فجاء بابنته نوار ووضع سيفه بخاصرتها، فلم يزد على قوله:

ـ واللّه لو قطعتها قطعاً ما أوصلتك لمبتغاك.

فغضب السوادي، وأمر أحد عبيده بكسر شرفها، فأبى ذلك العبد فقتله السوادي في الحال، ساعتها تحركت القرية لشرف نوار وخشي السوادي انفلات الزمام من يده، فأخرجها هي وأباها، وزجر أهل القرية بعنف، وخطب فيهم:

ـ . . . أرى أنكم فقدتم مروءتكم، لقد أراد هذا العبد أن يهتك شرف نوار، فلم أجد أفضل من قتله، وأراكم تخرجون لنجدة عبد أذنب فلقي جزاءه.

فقاطعه أحد رجال القرية:

ـ ولكن الذي سمعناه عكس هذا تماماً.

(*) الجلبة: حقل.

فرد عليه بغضب:

ـ أنتم تسلمون آذانكم لأدنى كلمة عابرة، وهذا ليس ذنبي ولكنه ذنبكم.. عودوا من حيث أتيتم، أو لأجعلن الأرض تشرب من دمائكم لأنكم خرجتم لمناصرة مذنب!!

وأخذ يتربص بجدي الذي استطاع بأعجوبة أن يهرب مجيره من القرية وذلك بوضعه بداخل هودج أحد الجمالة بعد أن فرَّغ الهودج ووضع السجين بجهة ووازنه بالحجارة ومنح الجمال ثلاثين (جلبة) مقابل إخراج السجين إلى خارج البلدة، حتى إذا أدرك السوادي أن السجين أصبح في مأمن منه أمر بأن يساق جدي إلى القلعة، وقد استطاع أن يفلت قبل وصول العساكر إليه والتحق بالنمالية وتسلل مع قوافلهم. بعد ذلك سمعنا بذهابه إلى المدينة ناشراً فضائح السوادي ومحرضاً بعض ذوي النفوذ هناك على السعي لإزالته وانتهت أخباره ولم نعد نسمع به. وآخرون يقولون بل وُجِد غارقاً بدمائه بجوار حقوله اليمانية، وأن السوادي أراد أن يُفْهِم الجميع بأن لا أحد يستطيع الهرب منه حتى وإن بلغ آخر الدنيا، وهذه الحكاية لم تأكدها جدتي، وظلت معتصمة بالصمت حيال موت أبيها.

بعد هذه الحادثة وقف أبي في وجهه، وكذلك جدتي نوار، وأخيراً وقفت أنا. في كل تلك الحالات كان قادراً على أن يربض (كحنش في برمة) وحنيما أينعت الأسرة بخروجي حان موعد قطاف حقده المرير لهذه الأسرة، واختارني دون سواي، في البدء استمالني إليه وحينما عجز عن الإتيان بقلبي إلى جواره، تربص بي وابتدع أساليب عديدة لإرهابي، ومحاولاً بشتى الوسائل غرس بذرة الخوف بداخلي، في هذه المحاولات كلها نسي بأنني نمَوْت، وتغذيت على كرهه، كان لا يمضي يوم إلاَّ وأشحذ بكراهيته، وعندما كبرت ظننت أن ما بيننا وبينه يعود لعداء أسري قديم، وحاولت إصلاح ذات البين ولكنني اكتشفت عفنه الذي سرى بدماء أهل القرية، وسعيه الحثيث لإحالة الأحرار عبيداً وبالسخرة، وأنه يعمل على تغطية الشمس، وإبقائنا في ظلمات جبروته، عندها عنَّ لي أن أغني حاملاً مديتي لأهتك جبهته العريضة.

استطاع هذا الثعبان أن يلدغني قبل أن أتمكّن من اقتلاع أنيابه، وتركه

هامة تزحف بوداعة واستسلام إن لم يكن محاولة مستميتة للاختباء عن أنظار الناس بين القمائم والجحور كي لا تلقي عليه بنعلها، أو حجارتها انتقاماً لما أحدثه من ضرر سابق، لكنه سبقني قبل إلحاق هذا الضرر به.

أجزم الآن أنني استحققت تلك اللعنة، وحرمت من شبابي مبكراً لكثرة ما قطفت من زرع عندما كنت لا أزال صغيراً، وأظن بأنني كنت أحيا وأنا استنشق الموت ببطء، وها هو يداهمني، ويتغلغل بجسدي، وينتزع روحي ببطء مقيت حتى أنني لا أقوى على الاستنجاد، أو رفع صوتي بالمشيعين، استصرخهم بأنني لا أزال أحيا.. فهل يجرؤون على دفني حياً؟!.. أشعر بهم يسيرون بجسدي مستبشرين، وكل منهم يطلب البشارة من ذلك الثعبان اللعين.. ها أنا أسقط بعد أن استويت سنبلة ناضجة.. دفعني باتجاه السيل، فوقفت صامداً تاركاً لصوتي العنان ليغادرني صوب قريتي، تلك النداءات التي ابتلعها الريح، وهدير الوادي، وبقيت في مواجهة السيل موثقاً، أرفع جسداً ثقيلاً، وصوتا خائراً، جاء جنوده وأخمدوا صرخاتي المتهالكة، ومنعوها أن تغادر فمي، ليجتثني السيل قبل رحيل قوافلي لقريتي النائمة.. كان يقودني وأنا أنازعه البقاء، لمحني درويش، فجثا، فلم أتمكن من الصراخ فيه، ومن بين الماء رفعت له يدي كنت ألمحه يركض خلف جسدي الذي يتقاذفه السيل وثمة كلمات تندلق من بين شدقيه.

تدحرجت حتى بلغت مصب البحر، كنت عذباً برمل الأرض، فرفض البحر استقبالي، وأغلق منافذه دوني، ودفعني في موجة عائدة حين تلاشى السيل المعربد، ولم يتبق منه إلاَّ خيوط ماء واهية وغير قادرة على إعادتي، هممت بحمل جسدي والعودة. كان جسدي ميتاً وأنا أحاول إنهاضه، أزحت عنه الحجارة، والأشجار، والأوحال وبصعوبة كنت أحاول أن أنهض فلا أستطيع وقبل أن تكتمل تلك المحاولات جاءت المصابيح تبحث عني، لقد جاؤوا ليعيدوا له الجسد كي يتمعن فيه، ويخمد ظنونه بموتي.

كنت أود أن لا أعود محمولاً على الأكتاف لأظل وسواساً ينخر هامته حتى يسقط.. ها هو الماء يتوقف بي بين أيديهم حتى أنني أسمع رسوب أقدامهم حول جسدي الملقى بين الصخور، والأشجار، والجثث التي دفعها

السيل أمامه في رحلته الطويلة، الشاقة، ولتلهفهم على الإتيان بجسدي ولعجزي عن النهوض لم يعد من شيء سوى اجترار الحكايات ولعن هذه القرية النائمة.

وطأت أقدامهم ذلك الجسد الميت، ولا زالت عين واحدة مطبقة على نصف وجه قاتلي، انتشلوني من الماء، فتقت لأن تسري الحياة بعروقي للحظة، إلاّ أن ذلك الخدر ظل جاثماً بين مفاصلي، فحملوني عارياً، منتفخ البطن، وجسدي غني بالندوب، ووضع أكبرهم يده على أنفاسي التي لم تعد تتردد كما عهدها وأشرق وجهه بالبشر، وأوصى من معه بجفوة:

ـ قولوا أغرقه السيل.

قال قائل منهم:

ـ لقد رآنا دوريش.

فرد عليه بغلظة:

ـ ومن يصدق مجنوناً!

كانوا يسيرون بي، وأنا مدلى، أترجرج من بين أيديهم.. أعلم أن الطريق لبيتنا طويل، فلنتسامر بحكاية الجدة نوار:

* * * *

كان يا ما كان في قديم الزمان وفي سالف العصر والأوان كان هناك شيخ بندر التجار غني المال غناءً فاحشاً، فقير العقل فقراً مدقعاً، ضروب الفؤاد كالريح، سهل الانقياد كجمل، وقد رزقه اللّه بثلاث صبايا من أجمل بنات المعمورة، وكانت أصغرهن ذات جمال آخاذ، ولسان دوار، وعقل بعيد القرار، وكانت محط أفئدة الناظرين، غنية الجمال، وافرة الحجة، فارعة العفة، مائية الفؤاد، دبقة المحيا، كان اسمها أغصان الروح، ولفرط حنانها لقبت بمرحمة، وقيل إنها خرجت من بطن أمها وعلى جيدها ثعبان عاقر، فما كان من مولِّدة أمها إلاَّ أن صرخت، وركضت مستجيرة منها، ومخلفة إياها معلقة بالرحم، والأم تزحر في محاولة مستميتة للخروج من هذا الألم الممض، فما كان من الطفلة إلاَّ أن انزلقت، وحلَّت نفسها، وقطعت (السر) وعندها هم الثعبان بلدغها فابتسمت له، فمات!!

ويُقال إن لها ابتسامة تطفئ غضب النفس، وتنزع الحقد من الصدور، وإن لها عينين من رآهما خرَّ صريعاً، مولعاً، هائماً، ولا يرد له عقل ولا يهدأ له بال، فيظل هائماً في البراري والسهول يحلم بنظرة أخرى وتتغمده الأرض قبل أن ينال مراده، وكانت النساء تدعى إلى الرجال برؤية عيون مرحمة.

وفي طفولتها مرَّ بها سيد من السادة فقال لها:

ـ لا تشربي ماء عكرته أقدام البغال، ولا تسيري خلف قاتل فتورثي أبناءك الذل، وإياك من الأحمر النجس فإنه لو رآك لسباك كما تسبى الجواري.. وعلامته حلو الوجه مرّ الفؤاد، مقطوع النسب، به عرق عبد آبق، يزور بالليل كالضباع، ويسفك دماء الناس ليضحك من زفرة الموت.. وإذا سباك لا تسلِّميه نفسك، ولا ترحمي دموعه.. حذاري حذاري أن يطأك، فإن فعل فاعلمي أنه نجا من الموت.. أقول هذا لأنك شبيهة بالمرأة التي تعذبه طول الدهر، ولا ينعم بعدها بشيء سوى الحزن، وأتمنى أن لا تكوني أنتِ، ورحمة اللّه على تلك المرأة التي كتب لها أن تكون معذبته، وضحيته، وإذا كنت أنت الموعودة فسوف تعرفينه إذا وقف على بيتك غراب ينعق لثلاث ليال عندها هيئي نفسك لحياة الشهداء، وسوف تعيشين غريبة، سجينة، لا ترين إلاّ الليل، فلا تيأسي، وجاهدي، وساعدي على قتله وسيكون لك هذا إذا حملت من يحيطون به على فضحه لمن ترين من البشر.. وحذاري أن يمسك ما حييتِ فإنه إن فعل فقد نجا من الموت.

وختم قوله بأن قبّلها في مفرق رأسها ومضى.

شبت مرحمة طيعة، وقد ازدانت عن أختيها برجاحة العقل، وحلاوة الحديث وكان أبوها يحبها حباً جماً، فبنى لها قصراً وأسكنها مع أختيها فيه، وقد جلب أمهر البنائين لبناء هذا القصر، فشيدوا قصراً لا تضاهيه قصور السلاطين، حيث شقوا فيه الأنهار والعيون، وقام المزارعون بزرع ما أنبتت الأرض، وفرش حجره وطرقاته بفرش جلبه من بلاد العجم، وجلب العبيد من الأمصار، وقد كانت كل بنت له تحتكم على ألف عبد، وألف جارية، وكان لا يدخل هذا القصر إنسان إلاّ تمنى أن يمضي ما تبقى له من العمر بداخله، فهناك الطيور التي تناغيك وتحدثك، وبعضها يغني بصوت شجي

يسرق اللب، وهناك السباع التي تنقاد لك بيسر وسهولة وتعيش مع المخلوقات الأخرى دون أن تمس شيئاً بأذى، وهناك عصافير ترفرف بأجنحتها فترشك بطيب لا يُفارق هندامك ما حييت.

وعاش بنات شيخ بندر التجار بداخل هذا القصر ينعمن بالسعادة والمتعة، وكان ما ينغص راحتهن عدم تمكنهن من رؤية أناس آخرين غير العبيد، أو أبيهن حينما يأتي لزيارتهن في الجمع والأعياد، وفي إحدى زياراته أخبرهن بأنه نوى الذهاب إلى الحج، وأخذ يدخلهن عليه واحدة واحدة، فكان يمازح كل منهن ويسألها سؤالاً محدداً:

ـ كمه حبك لي.

ردت عليه كبرى بناته:

ـ أحبك كالعسل.

فراقه جوابها، وقبَّلها وقال لها:

ـ ماذا تريدين أن أجلب لك من الحجاز؟

ـ فقالت: بخوراً حجازياً.

فوعدها، وقبَّلت يده وانصرفت، وعندما قدمت ابنته الوسطى، رحب بها، وأدناها منه، وسألها:

ـ كمه حبك لي.

فقالت: كالثريد بالسمن.

فأعجبه جوابها، وقبَّلها، وقال لها:

ـ ماذا تريدين أن أجلب لك من الحجاز؟

فقالت: أريد شربة زمزم.

فوعدها، وقبَّلت يده وانصرفت، وعندما قدمت مرحمة قام من مكانه واستقبلها فرحاً، ولثم خدها، وأدناها منه كثيراً وسألها:

ـ كمه حبك لي.

فأجابته: أحبك كالملح.

فغضب غضباً شديداً، وطردها من عنده.

وفي يوم رحيله إلى الحجاز، خرجت المدينة لوداعه، فركب بغلته وأعطى ابنته الكبرى ثلاث مرايا وقال لها:

ـ هذه ثلاث مرايا لكل واحدة منكن مرآة، ومن اسودت مرآتها عرفت أنها فقدت شرفها وسوف يكون الموت من نصيبها.

وقبّلها مودعاً، ونادى على الوسطى وفعل معها كما فعل مع الكبرى، ولم يودع مرحمة في حين كانت تنظر إليه، ودموعها تجري على خدودها فلم يكترث بها، وسارت قافلته متجهة إلى الحجاز وقد أوصى عليهم عبداً يكون رهن أيديهن ويدير شؤون القصر في غيابه، وفي الليل استشعرت الكبرى بما تشعر به المرأة من حاجة إلى الرجل، وتحسرت كثيراً عندما تذكرت أن عبيدهن تمَّ خصيهم قبل دخولهم إلى القصر، فطلبت العبد الوصي عليهن، وأمرته بتجهيز بركة دافئة لتغتسل، فجهزها لها ونزلت بها، ولم تأمره بالانصراف، فظل ينظر إليها بشهوة جامحة، وتوتر عضوه، ففرحت فرحاً عظيماً عندما رأته منتصباً، ودعته إليها، فوقع بها، ولمعرفتها بأختها الوسطى دعته لمضاجعتها، وأصبحتا تلهوان معه كل ليلة فسئم منهما وبدأ يتطلع إلى مرحمة، وحاول معها بكل الطرق والحيل، كانت تدفعه عنها بشرف، ولا زال يمني نفسه بها حتى نادى المنادي بقرب وصول شيخ بندر التجار، عندها تذكرت البنت الكبرى تلك المرآة التي أعطاها إياها أبوها، فأخرجتها فإذا هي سوداء، فأصابها الذعر، وذهبت إلى أختها الوسطى لترى مرآتها، ولم تكن مرآة أختها أحسن حالاً من مرآتها، فأخذهما الهلع والذعر، وذهبتا للعبد وعندما علم بحكاية المرايا خاف على رأسه من أن تطير في الهواء، وفكَّر بمرآة مرحمة، واتفق مع الأختين على سرقتها، واستبدال مرآتها بإحدى المرآتين السوداوين، وقد تسللت الأخت الكبرى إلى مخدع مرحمة واستبدلت مرآتها، وخرجت مسرعة، وعندما قدم الأب طلب رؤية بناته، فدخلت عليه الكبرى وأرته مرآة مرحمة، وعندما رآها لامعة براقة، قبَّل ابنته الكبرى وقدَّم لها بخوراً حجازياً، فقبَّلته بدورها وانصرفت، ومنحت أختها الوسطى المرآة والتي تنتظرها عند مدخل مجلس أبيها، ودخلت عليه وقبّلته وناولته المرآة، وعندما رآها كمرآة أختها قبّلها ومنحها ما طلبت، فقبّلته بدورها وانصرفت،

وعندما جاء دور مرحمة سحبت مرآتها من تحت مخدتها، ولم تتطلع فيها، ودخلت لتسلم على أبيها الذي صعق عندما رأى مرآتها سوداء، فصاح بعبده الذي أوصاه عليهن وأمره بقطع رأسها في الحال وقذفها ببئر السباع. . . .

* * * *

غالباً كنت أتوقف هنا في سماع حكاية، مرحمة تلك الحكاية التي لا تمل جدتي من ترديدها كل ليلة في مجلسها السامر. . ولا تقبل أن يقاطعها أحد في هذه الحكاية، بل تصبح سليطة اللسان إن تجرأ أحد سمارها وحاول أن يسكتها بالقول أو الفعل، وتصل أحياناً إلى طرد من يقاطعها وحرمانه من مجلسها، الوحيد الذي كان يجرؤ على ذلك درويش. . هذا الدرويش الذي كانت جدتي لا تطيق أن تراني أسخر منه بتاتاً، وقد أحبته حباً عظيما جعلني في حيرة من أمري لدرجة أني وسوست بهما شراً، فإذا جاء أغرقت عينيها في وجهه لساعة، وضحكت بعمق، وداعبته بضحكة واسعة:

ـ هلا بالديك.

فتلعب بي الوساوس والظنون، حتى إذا نظفت داخلي من وساوسه القبيحة، كان يطيب لي أن أقلّدها وأناديه بالديك. . ساعتها كانت تغضب، ويزداد غضبها إذا ناديته بهذا الاسم أمام عجائز القرية.

ها أنا أرى جدتي تقف أمامي مرة أخرى. . كيف هذا؟!. . هل أنا أحلم؟!. . لا يمكن فأنا لا زلت أحس بأنني أتدلى من بين أيديهم، وأنفاس حارة متعبة تتأوه من تحتي. . تسير بي في منعطفات الحقول التي جرفها السيل فغدت أرضاً موحلة، يبدو أن ثقلي أتعبهم كثيراً، مما حمل كبيرهم على القول:

ـ هلا قذفنا به ثانية وعدنا؟

قال من سمعتهم يغبطونه على الجائزة التي تنتظره:

ـ بين جسده والتراب تبقت خطوة نكملها فلا تنبت له بعدها أغصان!!

ها هي جدتي تقف أمامي ثانية وتستحثني:

ـ ألا ترغب في استكمال حكاية مرحمة؟

كانت تردد هذا السؤال على مسامعي دائماً في حين أكون عازفاً عن

ذلك، وفي آخر حياتها رددته على مسامعي، فتركت صوتها خلفي حين كنت في عجلة من أمري:

ـ عندما أعود سوف أسمعك، أما الآن فدرويش ينتظرني لكي نرد الماء.

فتبعني صوتها حانياً محذراً:

ـ تذكر دائماً أن البئر حاسرة الرأس.. فلا يغرنكما صفاء مائها، ولا يغرنكما بنفسيكما الغرور، فتهلكا.

هذه الجدة بلغت من العمر عتياً، تختزن في سنواتها التي عاشتها أخباراً وحقائق لا تحصى، فما إن تعصرها حتى تنصب حكايات لا تنتهي.

في آخر عهدها امتهنت تقليب الودع، فتحدثت عنها النسوة بأنها لم تعد صالحة لشيء سوى التخريف، وقد روت خديج موسية أنها رأتها تقلِّب ودعها وتبكي بحرقة، وفي لحظات تستجمع دموعها وتصيح بأعلى صوت:

ـ كل شيء هالك.. هالك.

ثم تنكفئ تقبِّل حجراً أبيض كان يسقط دائماً من يدها أثناء قذفها للحصى..

قالت خديج موسية:

ـ حيرني أمرها وكدت أنصرف، لكنني لمحتها تقوم وتحل (وزرتها) وتتبول واقفة فلا تقطر لها قطرة وتعاود الكرة مرة وأخرى، فأخذ العجب مني حداً لم أقوَ على الفكاك منه، وظللت أتربص بها.. كانت تجلس في (القبل) وتوشوش حجارتها وتقذف بها في الهواء فيسقط الحجر الأبيض، وتتقلب الحجارة في أوضاع مختلفة، فتعاود تقبيل ذلك الحجر وتصيح:

ـ كل شيء هالك.. هالك.

وعندما رأيت بكاءها يزداد دخلت عليها وقبَّلتها في رأسها، فأبعدتني عنها بضيق فلم أغضب، وسألتها عن سر تقبيلها لذلك الحجر، فحدقت بي ملياً، وصاحت فجأة:

ـ يخبرك أبوك.

ـ وما دخل أبي في الحجارة.

فضحكت حتى بان حنكها الأدرد، وفي آخر ضحكتها بصقت بالقرب مني:

ـ وماذا عن أبي قضبة لماذا لا يفهم الناس بأن التقرب إليه حرام، أو أن (أبا قضبة) ليس حجراً؟!

ولم تكتفِ بذلك بل نهضت وقادتني من يدي وطردتني، بتهديد ووعيد:

ـ لو تخطت قدمك عتبة الباب مرة أخرى سأكسرها.

سمعت هذه الرواية حين كانت خديج موسية تشتكي لأمي بما صنعت معها الجدة نوار، وأخذت تتناشج بحرقة:

ـ وما دخلي أنا بما يفعل أبي.. لو لها حاجة عند أبي تذهب وتطلبها منه مباشرة.

فاسترضتها أمي، ولاطفتها وطلبت لجدتي العذر، وكاد ينتهي كل شيء هنا، لولا أن دخلت الجدة نوار ورأت خديج موسية، فصاحت بها:

ـ ألم أقل لك سأكسر رجلك إن تخطت عتبة البيت.

وقذفتها بعكازها فأصابتها في صدرها، مما جعل خديج تصيح صياحاً مستغيثاً فتقافز الجيران متسائلين عما حدث، وكانت خديج تضع يدها على صدرها وتبكي، وتستنجد بكل من رآها، وارتمت على الأرض، مفتعلة آلاماً أعمق مما تحس به، أو تجده مما جعل أمي في حرج وخوف على خديج موسية، فتشاجرت مع أمي، في حين انكبت النساء الحاضرات يرششن خديج بالماء ويدلكن لها صدرها بماء الورد، وقد مضت هذه الحادثة بعد استسماح خديج، وأخذ خاطر أبيها بذبح عجل وأولمنا عليه، كما أن هذه الحادثة رسخت عند الكثيرات ممن حضرن الواقعة بأن الجدة نوار أصابها الخرف، فكانت إذا سمعتهن يتهامسن فيما بينهن عن تخريفها، تبتسم وتغمغم:

ـ لم يعد في القرية طائر نغني له، فلنخلق طائراً من خيالاتنا.

فيزداد من يسمعها يقيناً بتخريفها، وقد اختلقت جيرانة حكايات عديدة عن تخريف الجدة نوار، وفي ذات يوم سمعت بإحدى هذه الحكايات،

فحملت عكازها ومضت إليها في بيتها، وعادت تحكي لأمي ما حدث فقالت:

ـ أحرقني كلامها فحملت عليها. . عندما دخلت عليها كانت تفلي غرة ابنها الصغير، وعندما رأتني دفعته من أمامها وأرادت أن ترحب بي، فقلت لها: لا أريد (لا أهلا ولا سهلا). . لا أريد منك شيء سوى أن ترحميني من لسانك. . فنقل الكلام نهايته أن تُرمى في بئر مهجورة مثل خميسية. . وسوف يقولون لقد سقطت هكذا وتموتين. . وأنصحك. . السوادي لا يحب التقول إلاّ إذا أراد هو، فإذا كان هو الذي حرضك فبلغيه عني، وقولي له: تقول لك نوار لا تفتح باب الكلام لأنها عندها الكثير لم تقله بعد.

فحاولت أن تعتذر، وأخذت تبكي وتقسم بأنها لم تقل شيئاً، وطالبتني بمعرفة من نقل إليَّ كلامها، فلم أمهلها وخرجت من عندها دون أن أشرب فنجان القهوة الذي صبته لي ابنتها.

غضبت والدتي من الجدة وقالت لها:

ـ لماذا ذهبت أصلاً فهذه لا يصلح معها العتاب.

فردت جدتي بتحرق:

ـ أحرقني كلام تلك الديوثة.

بعدها بثلاث ليال كانت جبرانة تحكي قصة موت الجدة نوار، وتقول:

ـ لقد نصرني اللّه عليها، لأنني دعوته في ساعة كربة بأن يأخذ الظالم منا.

ولم ترد أمي على كلام جبرانة. . أظن الآن أنها تقسم أيضاً بأن نصرها أصاب ذرية نوارة أيضاً.

في أوقات كثيرة لا أفقه ما تود أن تقوله هذه العجوز، فبالرغم من حذقها، وسعة معرفتها بأيام وحروب، وأنساب قريتنا والقرى المجاورة إلاّ أنها في أحاديثها تعشق التلميح ولا تفصح إلاّ نادراً. . حدثتني يوماً عن قريتنا فقالت:

ـ خرجت قريتنا إلى الدنيا بمحض الصدفة، فلم تكن بها قبيلة متجذرة، وإنما نمت على أكتاف غرباء مهاجرين من بقاع الأرض، في أول الأمر

اصطلح على تسميتها بقرية دير بني مشعوف فهم أول من قطنها من الغرباء، وقد كانت خليطاً من القبائل اجتمعت حول قبر السيد وعندها أصبح لهذا السيد من البركات الشهرة الواسعة، توافد الناس إلى هذا المكان ونصبوا (خداريشهم) في فناء القبة طالبين الشفاء لمرضاهم، ثم تكاثروا مكوِّنين هذه القرية.

ويقولون إن القبر كان مقذوفاً في الخلاء وكادت الرياح تطمس حدبته، حتى جاء رجل تركي كان يحكم هذا الجزء من قِبل حكومة الأتراك، وعلم بما آل إليه القبر فاهتم به أيما اهتمام، لدرجة أن تبرع من ماله الخاص بتسوير القبر وبناء قبته الكبرى، وظل معتنياً به، راعياً له، وقد وضع بداخل القبة جوهرة ثمينة فسرقت ذات ليلة قبل أن يصل الزوار إلى المزار فغضب الحاكم وبعث أناساً يتلمسون خبر الجوهرة، فلم يعثروا لها على أثر، عندها عين سادناً للقبة يحمي السيد وما يقدم له من أضاحي، وهبات، وآخرون يؤكدون بأن هذا السادن كان خادماً للسيد في حياته وظل راعياً لمعروفه حتى بعد موته ولم يفارق قبره أبداً بل هو الذي حفر القبر للسيد، وعندما سرقت الجوهرة كان نائماً، وعندما علم الحاكم التركي بهذه الأقاويل عن الرجل عيّنه رسمياً ليكون سادناً للقبر.

وفي تلك الأيام كان هناك رجال أتراك جاؤوا لمساعدة الحاكم على تسيير شؤون القرية، وكان من بينهما رجل مليح الوجه واللسان يدعى شاهين أفندي قد اختلط بأهل القرية اختلاطاً عجيباً، وأصبح قريباً من قلوب جميع الأهالي صغيرهم وكبيرهم، ولم يذهب إليه أحد في حاجة وعاد خائباً أبداً مهما كلفه ذلك، وقد أقسم الكثيرون على أنه لا ينتمي للأتراك، فأولئك غليظو الأفئدة، شديدو البطش والقسوة، وقد دخل هذا التركي قلوبهم وبيوتهم وأغدقوا عليه الحفاوة والحب، وفي ذات ليلة استيقظت القرية على خبر لم يسمعه أحد إلا وشك في صحته.. وقد انتشر الخبر سريعاً بين بيوت القرية، وتناقلته الألسن:

ـ (شاهين أفندي هرب بفاطمة بنت حسين جبلي).

ولا زال الخبر يتردد حتى وصل القرية المجاورة، وغاب حسين جبلي

عن الأنظار وأصبح يتوارى عن الناس، ويقول الناس إنه حمل بندقيته وخرج يتبعهما علّه يلحق بهما ويغسل عاره، هذا العار الذي شمل القرية كلها وأصبحت عيرتنا ـ فيما بعد ـ بين القُرى الأخرى:

ـ (شاهين شل بنتنا).

ومن يومها أصبح الغرباء مصدر خوف للجميع، وفي ذات ضحى عاد حسين جبلي حاملاً رأس أنثى بيده وقذف به لكلاب المجزرة، وهو يصيح:

ـ غسلت عاري بيدي.

فتجمهر عليه الناس، وتصايحت النساء اللائي كن بالقرب من المجزرة، مما جعل حراس الحاكم يتجهون إلى هناك. في البدء ظنوا أنه رأس صاحبهم فشدوا بنادقهم على سواعدهم وهموا بالتصويب عليه، أو هكذا تظاهروا، فلم يمكنهم الجبلي من الانتظار طويلاً، فقد غرس جنبيته بصدره، وسقط بجوار الكلاب الناهشة لذلك الرأس الأنثوي. وبعد مرور أسبوع من هذا الحادث الذي تناقله الناس بفزع جاءت مجموعة من خيالة قبيلة دخنة يسألون عن حسين جبلي، وعن قصته وعندما علموا بالواقعة طلبوا رؤية الرأس التي قدمت للكلاب وعندما رأوها عمروا بنادقهم واقتحموا السوق، وأعملوا خناجرهم وبنادقهم في النساء اللاتي كن يبعن (الخياطي) وجرار الماء.. يومها حدثت مذبحة عظيمة، ولم ينقض النهار إلاّ على أجسادهم، وفي الغروب، تحدث آخر رجل فيهم وهو يلفظ أنفاسه الأخيرة:

ـ لقد قام صاحبك بجز رأس إحدى بنات قبيلتنا وهي في المرعى، قد تقصينا أثره وعلمنا أنه من أحد رجال قرى الوادي، وذلك من موضع قدمه ولا زلنا نبحث بين القُرى عن صفة صاحبنا طلباً لثأرنا حتى سمعنا بقصة حسين جبلي، وعنما رأينا الرأس عرفنا صاحبتنا من نابها المكسور، فثأرنا لبنت قبيلتنا.. وتأكدوا أن دماءنا لن تيبس قبل أن تأتيكم قبيلتنا لتعقر شيبكم وشبابكم.

ولا زالوا ينزلون علينا يسرقون أي شيء تقع عليه أيديهم من مال وحلال ورجال ونساء، واستمر ذلك لخمس سنوات متعاقبة، بعدها عادت فاطمة حسين إلى قريتها وروت لكل من رآها حكايتها:

ـ كان أبي يعيش في الجبال وقد أحب ابنة عمه كثيراً ولكنها فضلت عليه شخصاً آخر، ورحلت معه ليلاً، وقد خرج يبحث عنها طويلاً حتى أخبره أحد معارفه بأن زوجها أصابه الطاعون وخرجت به تطببه عند سيد القضبة، فشد رحاله إلى هنا، وعثر عليها بين الزوار تبكي زوجها الذي مات منذ ليال، وقد تغيَّر لونها وزال جمالها وهم بقتلها لأنها فضلت عليه شخصاً ناقصاً كما يرى، ولكن قلبه لم يطاوعه، فرقّ لها وظل معها زمناً طويلاً يسهر على راحتها، ويساعدها لتخرج من حزنها، فأحبته وتزوجا، ولم يغادرا القرية، خوفاً على أمي من أهلها، ولكي يضمن أن عشيرته لن تبحث عنه، أو عن ابنة عمه عاد إلى الجبال وأخبر عمه بأنه عثر عليها واقتص منها بقتلها فرضيت عليه القبيلة، وأكرموه وظل معهم فترة قصيرة ثم أخبرهم بأنه يرغب في الرحيل، لضيق اعترى قلبه، فسمحوا له، وعاد إلى زوجته بقرية أبي قضبة، وابتنى عشة بين أهل القرية وسكن. وبعد مرور خمس سنوات جاء أحد أفراد قبيلته إلى القبة زائراً فلمح أبي، ونادى عليه، وعبثاً ذهب تحاشي أبي له، التقيا ولم يجد بداً من استضافته في بيته، وهناك لمح أمي العليلة، تنوش الحياة بسعال مجروح، وكان قد بدأ السل ينهش صدرها بوحشية قاتلة، وطلب منه أبي أن يستره فوعده بكتمان أمره، ومضى يخبر قبيلته بما رأى، حيث لم يمضِ يومان إلاّ وجدي ـ لأمي ـ يأتي ومعه نفر حضروا معه لغسل العار الذي ما زال عالقاً بهم، وعندما طرقوا بابنا كان أبي نوح على زوجته التي قرضها السل بسرعة متناهية، فغادروه دون أن يعزوه أو يسكتوا بكاء ابنته الذي أخذ ينبه ظلمة تلك الليلة. . قال لي بأنه دفنها وهمّ بدفني معها، وقتل نفسه (بجنبيته) لينتهي حزنه على فراق حبيبته، ولكنه تراجع حين رأى وجهي الذي يذكره بها تماماً وعاش يدثرني بحبه الكبير، وعندما كبرت كرهت حرصه الزائد، وغيرته العمياء عليَّ، فكان يحاسبني على كل شيء، ويمنعني من الذهاب إلى البئر، أو الاحتطاب، أو التعليف، وبقيت حبيسة الدار، ولا زال يمانع في زواجي لزمن طويل، ولم أكن أكترث لذلك، حتى تعرفت على شاهين، كنت قد سمعت به من فلانة ـ اللّه يستر عليها ـ فقد وصفته، وأطنبت في ذلك وأسرت إليَّ بأمنية الاقتران به، وظل حديثها يشاغلني لفترة

من الزمن وكدت أنسى ذلك، إلاَّ أن أبي ذكره بخير في إحدى جلساتي معه، وقد وصفه بأنه رجل في زمن انعدمت فيه الرجال، وقد كان يجالسه ويمازحه، ويخزنان سوياً، وأصبحا صديقين حميمين ومع ذلك يتهرب أبي من استضافته عندنا، وقد دأب أبي على ذلك منذ زمن مبكر حتى عرف في القرية بذلك، ومع عودته يجلس يحدثني عن ما قال شاهين أو فعل شاهين، وإن نسي استدرجته في الحديث عنه بطريقة لا تشعره بما يختلج في داخلي وأصبح شغلي الشاغل، وبدأ شاهين يسكن أعماقي في غفلة مني، وتمكّنت في إحدى المرات من رؤيته وهو يجلس ببيت أحد جيراننا وقد هالني منظره، وحسن طالعه، وأصبح يوم عيدي حينما أراه. وفي إحدى المرات اغتنمت فرصة غياب أبي فلبست (شيظري) وتوجهت إلى بيت شاهين وقلبي يكاد يخلع صدري حتى إذا وصلت صحت بأبي، مع علمي بأنه غير موجود هناك، فخرج إليَّ، تلعثمت وكدت أبكي، ولم أعد أدري أين أنا.. فأحس بارتباكي، فأخذ يلاطفني حتى ذهب ما بي من ارتباك، وسار بجواري بعد أن أخبرني أن أبي ليس عنده.. كنت أود أن يطول الطريق، فجأة تذكرت أبي، والناس، فرجوته أن يبتعد عني.. يبدو أنه أحس بلوعتي ولهفتي عليه، فابتعد بعد أن رجوته أن لا يخبر أبي بأنني سألت عنه.. ولا أدري كيف أقنع أبي بالدخول إلى بيتنا، وأصبحت أراه كل يوم، وألمح عينيه الواسعتين تلتهمني فأذوب شوقاً إليه.

فوجئت في إحدى العصارى بأن أبي يحمل تخزينته، ويغادر البيت، فكدت أجن، وكنت أنتظر عودته لأسأله ماذا عن شاهين، ومضى الوقت وأنا أفكر كيف أطرح عليه السؤال، وعندما جاء لم أجد طريقة سوى أن أسأله مباشرة، وما إن سمع السؤال حتى ثار وأزبد، وأقسم أن ليس هناك إنسان إلاَّ ويبحث عن مصلحته، ويسلك كل الطرق الشريفة، والدنيئة لتحقيقها، ولم يمهلني لأستفسر منه فقد صرخ بحدة:

ـ هذا الكلب التركي كان يتقرب مني لكي يتزوجك.. ولا يعرف أن ظفرك برقبته.

ولا أدري لماذا رفعت صوتي في وجهه ولأول مرة:

ـ وماذا في ذلك؟

بهت للحظات، ثم أطلق يده في وجهي، وخرج يتعل غضبه والظلام، كنت أتناشج بحرقة حين سمعت طرق نعل حذر يقترب من عشتنا، فظننته أبي، وكنت أريد أن أستعطفه ببكائي، فدفنت رأسي بين ركبتيّ وأجهشت بالبكاء، وكان الطرق يقترب رويداً رويداً، ويدٌ تلامسني بحذر، وتنوش رأسي الصغير، كاد يُغشى عليَّ حين سمعت صوته:

ـ أحبك أيتها الجبلية المتوحشة.

فتعلقت به، فأخذ يلثم كل رأسي بفرح، وأطلق في رأسي رصاصته:

ـ أريدك زوجة فهل تهربين معي؟

وبدون أن أفكر نهضت، وطبقت (كرتي) في بقشة صغيرة، وأسلمته يدي وارتحلنا وفي إحدى القرى عقدنا نكاحنا وواصلنا السير. كان الوصول إلى بلده يتطلب سفراً طويلاً، لذلك كان سفرنا يتم على مراحل، فكنا نمكث في كل مرة عدة أشهر حتى نتزود بالمال، حيث كان شاهين يعمل أجيراً لعدة أشهر وإذا أحس بأن ما حصل عليه يكفينا لبلوغ المرحلة القادمة حزمنا حاجياتنا البسيطة وارتحلنا. أثناء هذا الارتحال الطويل أنجبت ولداً جميل الطلعة كأبيه وأقسم إنه سيكون سيد قومه لو كتب لنا الوصول إلى هضاب الأناضول كما سمعته يقول.. كان زوجاً نادراً، مات ونحن نستعد لركوب باخرة تعبر بنا البحر باتجاه الشمال، حيث وصف أن هذه الوصلة بأنها آخر الصعاب التي ستواجهنا، فبعدها سوف يصبح الانتقال يسيراً حيث إن له أهلاً يقطنون بلاد الشام.. لكن انتظارنا طال فقد داهمه المرض فرقد على الفراش لأيام طوال وحينما أحس بأن الحمى تمضغه، وضع رأسه في حضني وأوصاني بالعودة إلى أبي وأن أطلب العفو له، كان يهذي بالليل:

ـ كيف أقابل الجبلي؟

وحين يعود إليه رشده، يقربني أنا وابني ويضمنا ويبكي بحرقة، في آخر أنفاسه، توسّلني بأن أعود إلى أبي، وقلل من خوفي.

ـ عندما يرى حفيده لن يفكر بقتلك.. أرجوك أن تعودي.

ولم أقوَ على مخالفة وصيته، وقد عدت طالبة عفو أبي.

كانت تهذي بكل حكايتها على من جاء يعزيها في أبيها، وإن كانت القرية في الأصل تريد أن تشبع من لحمها لأنها ورثت لهم الدم مع قبيلة دخنة.

ولم يطل بقاؤها في القرية فقد قدمها الحاكم التركي إلى قبيلة دخنة ليقتصوا منها مقابل ابنتهم التي قتلها حسين جبلي وخلف ابنها راعياً لمواشيه، وبالرغم مما تحس القرية به من كمد على موتها إلاّ أنها لم تكن لترضى بما حدث، وقد حاول الكثيرون الاعتراض على ذلك لكنهم لم يستطيعوا الوقوف في مواجهة الحاكم الذي رأى في هذه المبادلة حقناً للدماء.. وقد أكد الكثيرون أن صاحب هذه الفكرة كان السوادي الكبير والذي بدأ صيته في البزوغ، فبعد أن عيَّنه الحاكم التركي سادناً للقبة أصبح له من النفوذ والمال الشيء الكثير، وأخذ يستميل الناس إليه، فقويت شوكته، وزاد هيبة وإجلالاً عند الحاكم بهذه الفكرة والتي رأى الحاكم بأنها سوف تقضي على العداء بين قريتنا وقبيلة الدخنة، ومن ساعتها أصبح السوادي الكبير القريب الأثير لدى الحاكم.

ولكن السوادي كان بئراً بعيدة القرار، فقد كان يحلم بجعل كل الرقاب تنظر إلى حذائه ولا تجرؤ على التحديق في وجهه.

وفي ذات ليلة دبر كميناً محكماً للحاكم التركي وحصده هو ورجاله، وجلس مكانه، وظل يراسل الأتراك على أنه الساعد الأيمن لحاكمهم الذي أصيب بـ (الخنصور) ولم يسأل أحد عنه بعد ذلك بل أطلقوا له يده في القرية والقُرى المجاورة، وقد ظل محافظاً على القبر مهتماً بشؤونه، موصياً ابنه من بعده بذلك، بل إن السوادي الكبير عظم القبر وأضفى عليه من الهيبة الشيء الكثير، وقد شغل الناس به كي لا يشتغلوا بالحديث عن ظلمه وعمن الأحق بالحكم، وقد خصص للقبر عيداً، ففي اليوم السابع والعشرين من شهر رجب كان يريق الدماء غزيرة، لتصبح الأضاحي ممددة في كل مكان من القبر، وحلا للفقراء والمساكين في هذا اليوم، ولأي إنسان حرية أن يأخذ ما يشاء من أي مكان ما لم يكن صاحب الشيء موجوداً، وقد اختلق حكاية

غريبة لهذا اليوم، فبالإضافة لمولد السيد، روى حوادث عديدة حدثت في مثل هذا اليوم للسيد منها:

ـ أن سلطاناً من السلاطين كان جباراً يسفك الدماء لأدنى سبب ويأخذ من خيرات شعبه ما يريد دون أن يجرؤ أحد على مساءلته، وفي ذات يوم قال له المنجمون سيخرج صبياً يتحلل بمالك كله دون أن تجرؤ على ردعه، فجهز مركباً كبيراً ووضع به كل ما يملك، ودفع به إلى بحارة يأتمنهم على حياته، وقد أبقى لنفسه القليل من المال وأخذ ينتظر ظهور الصبي الذي حدثه المنجمون عنه، وأبحر البحارة بالمركب ليبعدوه عن أيدي الطامعين، وبينما كان المركب مبحراً في عرض البحر تعرى البحر فجأة، وأخرج طينه فرسب المركب، ولم يستطع بحارته إخراجه من هذه القطعة الموحلة بعرض البحر، فمات السلطان وبه حسرة على ممتلكاته التي ابتلعها البحر، ونسي الناس المركب وما به، وفي يوم موت السلطان وُلِد السيد، وقد بانت كراماته منذ نعومة أظفاره فقد كان لا تصيبه النار بسوء، ويرضع يده فيخرج منها لبناً خالصاً، وبعد عام من مولده أصيبت الأرض بالقحط ولم يعد هناك من أحد يمضغ حبة قمح بين فكيه، وأصيب الناس بمسبغة طاحنة.. في اليوم نفسه قالت أمه لجاراتها إن لابني كرامة لا أحد يعرفها فدعوني أطلب منه أن يدعو لنا ربه يزيح عنا هذه الغمة، وجاءته وناغته بما نوت، فأحست بصدرها ينشرح، ويقف على صورة محددة انقشعت في رأسها، فحملته بين ذراعيها، ونادت بالناس أن يتبعوها هي ووليدها، فتقاطر خلفها الناس بالمئات حتى إذا وصلت إلى شاطئ البحر وأجلست ابنها، وناغته بما نوت كالسابق، فضرب برجله الأرض وصاح:

ـ أنا أبو القضب نازع المركب.

وما إن أنهى جملته حتى لمحوا شيئاً عظيماً يتهادى نحوهم حتى إذا استقر بجوارهم عرفوا أنه مركب السلطان، فتهافتوا عليه يحملون من خيراته، ولا زال يأخذ منه الناس حتى لم يعد هناك جائع، أو محتاج.

وروى أيضاً أنه في مثل هذا اليوم انتصر السيد على عدوه الساحر الأكبر.. فقد كان بالبلاد رجل عرف السحر الأسود، وعرف من أين تصب

عين ماء الحياة، وقد شرب منها فخلد، ولا يميته إلاَّ كلمة واحدة عجز الناس عن معرفتها، وكان هذا الساحر يترصد المارة ويأخذ ممتلكاتهم، وإن أراد أحد أن يقاتله لا يقدر على ذلك، فقد كان الساحر يتفوه بكلمة واحدة فقط ليموت من يقف أمامه في الحال قبل أن يجرد سيفه، أو رمحه. . فقد كان يتعرض للجمَّالة ويصيح بهم:

يا جمَّال جملك مات.

فيموت كل من سمعه في لحظات. . ولا زال يعيث في الأرض خراباً حتى مرَّ به السيد، وقد منحه اللَّه علم الدنيا أجمع. . فصاح الساحر به:

ـ يا جمَّال جملك مات.

فرد عليه بسرعة فائقة:

ـ مت أنت.

فمات الساحر في الحال، وقد كان هناك من يسمع ما دار بين الساحر والسيد، فعلموا فضله، وبركاته، ولا زالوا معه حتى ماتوا، وقد كان السيد يسيح في أرض اللَّه متقشفاً زاهداً بالدنيا، يحمل على عاتقه رمحاً أخضر العود حتى إذا يبس عرف دنو أجله فقذف به ودفن نفسه بالمكان الذي سقط به الرمح.

ولم يكن يتوانى السوادي الكبير في تعظيم هذا القبر أبداً، وقد كان يرى فيه منفذاً لإشغال الناس عنه، وعن بطشه الجائر، ولم يكن يتوانى عن جز أي رأس تهتز لتعكير ما هو فيه.

قبل أن يأتي الأتراك إلى هذه الناحية كان بنو جابر يبسطون نفوذهم عليها، وعندما تخلص السوادي من مبعوث الأتراك بدأت رؤوسهم ترتفع لاستعادة تلك القرى المنبسطة على الوادي، وفطن السوادي الكبير لهم فبعث إليهم مبعوثاً يفهمهم بأنه لم يقتل الحاكم التركي إلاَّ ليفتح أمامهم الطريق، فأمنوا جانبه، واختبروا كلامه، بأن طالبوه بالخراج فدفع إليهم بمال كثير، فاطمأنوا له، وغضوا الطرف عنه، فداهمهم بالليل، وقت رجالهم وسبى نساءهم، وتحلل مالهم، وبين ليلة وضحاها أصبح مرهوب الجانب، وكل من بالوادي يخشى بطشه، وتحدثت القرى بأنه الابن الذي تحدث عنه الرجل

الصالح، وزاد هذا اليقين حين رأوا أنه حيثما اتجه كان الموت.

وتقول جدتي: إنه بعد أن بنى الحاكم التركي قبة القبر أضحى المكان استراحة يفد إليها الناس أثناء التبضع، ولم تلبث أن أصبحت مكاناً يدر الأموال للدجالين والمحتالين، فقد انتشرت مجوعة من المنجمين والمتطببين باسم السيد، وكان المكان لا يخلو من الناس فأقيمت سوق بالقرب من القبة في أحد أيام شهر رجب عندما كان الناس يتهيأون للاحتفال بيوم مولد السيد.. ويقولون بأن القبر كان استراحة منذ عهد قديم حين كان المسافرون يقطعون الفيافي والقفار دون أن يجدوا مكاناً يلوذون به من حرَّ الشمس المحرقة، وظمأ الطرق الطويلة... ويروي الأقدمون أن هذه القرية كانت ـ في يوم من الأيام ـ أرضاً قاحلة لا يوجد بها قطرة ماء حتى مرَّ بها الرجل الصالح واستوطنها، واتخذ منها معتكفاً يعتكف فيه، فسالت على يديه الأودية الثلاثة، وعاش بها وحيداً وإذا مرَّ به مسافر وطلب الجوار رحب به ومنحه الأرض والمأوى، وقد تكاثر الناس حوله وكوّنوا هذه القرية، ويقولون إنه مات في يوم مولده بعد أن تيبس رمح كان يحمله معه أينما رحل، وعندما أصاب الرمح التيبس قذف به ليعرف أين يكون قبره فرمي به فلم يقع وظل معلقاً في الهواء وهو يسير خلفه لمسيرة يوم كامل حتى وقع بين قضب كثير فوضع كفنه واغتسل بماء كان يحمله معه بقربته ثم حفر قبره والتفّ بكفنه، واندس بقبره.. وفي إحدى السنوات هبت عاصفة عاتية اجتثت كل الأشجار ولم يُبقِ إلاَّ على شجرة قضب واحدة كانا تظلل قبر السيد ومن يومها عرفت القرية باسم قرية (راعي القضبة).. ويروون أن السيد لم يمت بل قتل بالليل على يد خادمه السوادي الكبير، والذي بات ظلاً على القرية منذ ذلك العهد.

ويروي الأقدمون ـ أيضاً ـ أن مقتل راعي القضبة جاء قصاصاً لذنب ارتكبه بحق أخيه وقد كتب عليه أن يجوب الأرض حزيناً ويموت غريباً بعيداً عن أهله وأرضه، فقد عاش في منطقة يُقال لها حيران، وكان ميالاً إلى العزلة لقبح متناهٍ تلبس وجهه، وكان يوهم الناس بأنه عازف عن الدنيا، لذلك كان الناس ينظرون إليه بإجلال ويغضون طرفهم عن قبحه، فاستشعر الدفء لهذه المعاملة.ووطَّن نفسه بأن يستعيض عما فقد من جمال الوجه بجمال اللسان

حتى غدا مضرب المثل للطيبة، وصفاء النفس، وكان له أخ وسيم فذ الرجولة، مالت إليه امرأة كان يحبها السيد ويمني نفسه بالزواج منها، فأصابه الحقد وأصبح لا يبيت الليل كمداً وحسرة. وفي ذات ليلة ألقى بفأسه على رأس أخيه النائم بجواره، وحينما رأى دم أخيه جارياً تنبه لهول ما جنت يداه، فخرج هائماً في البراري والقفار طالباً العفو، وكلما نزل بمكان رأى أخاه يطارده، ويرد إليه فأسه، فلا يهدأ له بال حتى يغادر المكان. ولا زال سائحاً في بلاد اللّه حتى مرَّ بهذا الوادي، وأستأنس المقام به، فأنشأ استراحة تدر عليه بالمال، واتخذ جزءاً منها معبداً له، ولكي لا يعرفه أحد كان يضع عمامته على عينه اليسرى فتزيد من بشاعته، وادعى بأن عينه قلعت عندما كان يحتطب حيث كان يكسر جذعاً مستعيناً بصدره فتكسر الجذع واستقر بعينه فرع حاد، وعندما وجد أن الكثيرين غير مصدقين لهذه الحكاية استبدلها بحكاية أخرى أكثر بلادة من سابقتها، فقد روى لهم بأن أحد أبناء عمومته هرب فخرج ليبحث عنه، واستلقى بأرض مقفرة، فضربته جرادة على عينه، فذهبت ببصره.

وقد كانت الاستراحة بمثابة محطة يتزود منها المارة بما يحتاجون إليه من أمور لا يجدونها بقراهم، وكانت هذه الاستراحة ـ في البداية ـ عبارة من مربط للحمير التي يتركها أصحابها ويولون وجوههم صوب الحقول (الجوانية)، وكان يجاور المربط عريش صغير اقتعد به السيد لبيع (المشبك) و(الزنبطيا) و(صباع زينب)، إضافة إلى بيع القاز والكباريت، والسكر، والشاي، وكان إذا مرَّ به مريض داواه فيبرأ من مرضه في الحال، أو مظلوماً فيدعو له، فينتصر، وفجأة افتقده الناس. فقد كان يترك خادمه في العريش ويذهب للتعبد كما كان يزعم، ولكن الحقيقة أنه خشي من افتضاح أمره، فعندما أصبحت الأنفاس تتحرك في الاستراحة بكثافة تخوف من أن يتعرف عليه أحد العابرين فيخبر عنه، لذلك اعتزل الاستراحة وأبقى خادمه فيها، وقطن الأحراج المجاورة للوادي، وأصبح لا يرى إلاَّ ليلاً وهو يستر وجهه بضوء فانوسه الذي لا يفارق يده، وفي أكثر من مرة شوهد وهو يسير عارياً صارخاً بكلام لا يفقهه أحد حتى إذا بلغ الاستراحة تبول بعرصتها، وبعد أن

ينهي وطره يغمس يده بالبول ويمسح به وجهه ويمضي.

بعدها انتشر خبر أن بوله أعاد له عينه المخلوعة، ليتوافد الناس من كل حدب وصوب يحملون مرضاهم طلباً لقطرة من بوله الشافي، فكانوا ينتظرونه ليلياً ليخرج من الأحراج، ويتبعونه ـ دون أن يشعر بهم ـ وهو يتمتم، ويدمدم بكلام غريب ويظل على هذه الحال حتى يصل الاستراحة، فيتبول، ويغادر المكان، فيأتون بمرضاهم، ويدهنونهم بزبد البول المقدس، ويغادرون وبقلوبهم رجاء بشفاء عاجل. وإذا اعتل مريضهم، وتفاقم سقمه يتهامسون:

ـ لا شك أننا لم نحصل على جفل البول.

فيعودون بمرضاهم، ويدفنون قاماتهم إلى الترقوة، ويغطون رؤوسهم بنبات الحلفا كي لا يراهم السيد، بعد أن يوصوهم بعدم الأنين أو التحدث كي لا يستشعر وجودهم فلا يبول، ويبتعدون عنهم، وهم يتناجون:

ـ علّ طشاش البول يصيب مريضنا.

في تلك الأيام انتشرت حكاية غريبة، وترسخت في أذهان الكثيرين، وأخذوا يروونها كالتالي:

يقولون: إن ثمة امرأة زنت فحكم عليها بتقطيع أطرافها، وقذفها لماء السيل، وبعد أن تمَّ تنفيذ الحكم فيها، رموها بالسيل الذي قذف بها بجوار الاستراحة، جثة هامة، وفي الليل تعرضت لبول السيد، فنبتت أطرافها، وقد شق على الشيخ أن يراها مقذوفة بالخلاء، فتبناها، إلاّ أنها كانت مسكونة بالبغاء، فسرعان ما اقترنت بعشيق كان يأتيها في (سهوة) تقع بجوار عريش السيد، ويضاجعها وهي تئن بشبق، ولهفة، فكان يصل صوتها للشيخ وهو غارق في تعبده فتقضي على خشوعه. في البدء كان يظن أنها تعالج نفسها بنفسها، فيهمل الصوت وينكب على عبادته، ولكن عشيقها عندما أناخ بلذته أصدر خواراً تنبه له السيد، فحمل فانوسه، وخرج ليرى ما يحدث بقربه، وكانت المفاجأة التي أحزنته ما تبقى له من عمر، وعندما همَّ بالإمساك بعشيقها دفعه عنه، وانهال عليه بالضرب، وقيده بوتد حمار دق خلف السهوة وحرضها على جمع حاجياتها، وهربا في ليل بهيم بعد أن خلفا خلفهما ابناً

لهما، كانت أمه قد وكّلت به إحدى النساء العاكفات على الدعاء بذرية تزيل وحشتها الطويلة، ومضت تخب السهول مع ذلك الرجل الذي قِيل إنه من قريتنا، وظل السيد بقيده ليومين متتالين يصرخ في رجال القرية العابرين بعريشه فلا يردون عليه حتى مرَّ به خادمه وفكَّ قيده، وقد غضب السيد على القرية، ودعى عليها بأن يعشعش فيها الظلم الأسود حتى ترتفع الأيدي طالبة من اللّه العفو فلا يغفر لها، ومن يومها عرفت بقرية السوداء.. ويقولون إنه دعى ـ أيضاً ـ على ربيبته بأن يفرق الله بينها وبين أبنائها، وتظل كالكلبة تلد ويربي أبناءها الناس، أو يظلون هائمين في الطرقات، ينبحون فلا يرد عليهم أحد.

وقد عجز أهل القرية عن معرفة هذه المرأة، أو الرجل الذي هرب معها ليلاً، ولكن يُقال إن ابنها يشبه الموت، فهو يعيش في كل الأزمان، وإن من سار خلفه مات.

ويقولون: إن (أبا قضبة) قضى حياته معتزلاً الناس، ومعتكفاً بين الأحراج لا يُرى إلاً في الليل حين يخرج هائماً في الخلاء يحمل مرآة سوداء، ويظل ينوح، ويصرخ بأعلى صوته:

ـ أنت ملح الحياة.

من هي تلك المرأة؟.. لا أحد يعرف فهناك من يقول بأنها حبيبته التي قتل أخاه من أجلها، وآخرون يجزمون بأنها ربيبته التي استحقت اللعنة لحرقها فؤاد الشيخ المبارك، الذي فتن بها وهمَّ بالزواج منها، فقد كانت تشبه حبيبته إلى حد بعيد، وقد فتن بها وأراد أن يفاتحها بالزواج قبل معرفته بما تمنحه لذلك الرجل الذي كان يأتيها في (سهوتها) ويسكت شبقها.

وآخرون يقولون إن اسم قرية السوداء جاء من اسم السوادي الأكبر فبعد أن هربت ربيبة السيد، دعا أن يسلِّط اللّه على هذه القرية رجلاً له قلب حنش، يعيش على دماء رجال القرية الذين خذلوه حين كان ينادي بهم، وعندما فكَّ قيده خادمه تطلع في وجهه وقال له:

ـ ما رأيك لو دعوت لك بالجاه والخلود بشرط أن تعقرهم، وتسومهم أسوأ العذاب أبداً.

فوافق خادمه، فدعا له، واختتم بأن يكون قلبه ليلاً مظلماً، بعدها خرج إلى من اجتمع باستراحته، وقال لهم:

ـ ولى عليكم سواد أعظم من الظلم.

فمن يومها سمي خادمه بالسوادي، وسميت القرية باسمه.. ويقولون إنه الجد الخامس للسوادي الذي بيننا الآن وقد توارثوا دعوة السيد إلى يوم القيامة.. وهم يرحلون من مكان إلى آخر ولا يموتون، لذلك فالأهالي يتوصون بالبقاء هنا وعدم مغادرة القرية لأن كل مكان في الأرض يوجد به واحد منهم والويل لمن عثروا عليه هارباً من أحدهم!!

ويقولون: إن حكاية أبي قضبة تتكرر مع مرور كل مائة عام، فمع حلول كل قرن يظهر رجل يجوب الأسواق باكياً باحثاً عن ابنة له، ويظل يسيح بالأرض دون أن تلتفت إليه الأفئدة بينما يملأ الدنيا أنيناً وهو يصيح بصوت حارق منادياً على ملح الحياة.

أذكر الآن أنني رأيت رجلاً في السوق كان يسير دامعاً ويبكي بصوت مجروح مكلوم منادياً على ابنته التي خطفها طائر ليس له شبيه، ومضى بها خلف الجبال المتوارية في الأفق.

الآن أذكر هذه الحادثة، وبدأت أتذكر كثيراً من حكايات الجدة نوار ـ تلك الحكايات المتداخلة والمتشابهة والتي كانت تعمد في أحيان كثيرة إلى التلميح بها أو إدخالها ضمن حكايتها.. آه.. ها هي بروحها اللطيفة، وقسماتها الدقيقة، تنتصب أمامي وتسأل بإلحاح:

ـ ألا ترغب في استكمال حكاية مرحمة؟!

* * * *

يبدو أن السيل قذف بي بعيداً، فها هم يسيرون بجسدي منذ وقت دون أن تطل عشش قريتنا.. ويبدو أن السيل كان فظيعاً، مروعاً، فـ (الزبر) مدكوكة، والماء يركض في حقول ليس بها سنبلة واحدة منتصبة، ولم يبق في طريقه سوى تلك الأشجار التي استعصت على الزمن، أما العشش فقد جرفها (كالقشاميش) اليابسة، وثمة أجساد، وحيوانات كانت تركض معي في السيل، وها هو الماء يغدو عذاباً أيضاً.

هذه الحياة حلم فاشل، كان الكثيرون يتوقعون أن أصبح شيئاً ما.. كأن أكون قاضياً مثلاً، أو أعيد سيرة جدي الذي وقف في وجه السوادي بصلابة وتحدي ويضيفون بأنني أكثر جسارة منه، وأنني لن أنهزم ذات ليلة كما فعل هو.. كنت قريباً من قلوبهم، ويوم أن قدت إلى السجن همّ الكثيرون بعقر أملاك السوادي كي يذعن ويطلق سراحي، ويبدو أنهم فعلوا ذلك، ولا يوجد تفسير لإخراجي من القلعة إلاّ هذا.. وعندما خرجت من القلعة تساءل الكثيرون:

ـ هل حقاً تنازلت عن أرض آبائك للسوادي؟

كان جوابي الوحيد، والذي أردده دائماً:

ـ لن أتنازل عنها حتى تسير الجياد على جسدي.

فيزدادون تعلقاً بي، وأزداد إصراراً على مجابهة السوادي، وأقسمت مراراً إن عيني لن تغمض عنه، وإنني سأعرف كيف أحمي حقولي منه، كنت أعلم تماماً أن هذه المقولات التي أطلقها لستر عجزي ستجلب لي مصائب جمة، ومع ذلك كنت أتمادى في إطلاقها كي لا تبتعد عني هذه القلوب التي تظن أنني سأستطيع أن أخلق لها ظلاً ذات يوم.. وها أنا أغادرهم بصورة بائسة قلما تحدث لإنسان غاص كثيراً بين البرك، و(المطينات) ذات المياه الموحلة، في أوقات كثيرة تصبح بعض الأشياء ضرباً من العبث، جدي، وأبي وأنا نموت بطريقة واحدة، وبتحريض من شخص واحد، ولا يتنبه أي منا لهذا المصير.. كنا نعرف تماماً بأنه يسعى لقبرنا، ومع ذلك لم نقدم على قبره واكتفينا بترديد الكلمات فيما كان يصمت حيالها، ويظهر للناس تسامحه معنا، وتغاضيه عن تهديداتنا، كنا كالتيوس التي تناطح ثوراً.. ما الذي تجدي به الحسرة؟.. كلما عدت لذاكرتي أجدها مترعة بالحكايات وليس هناك من عمل يرفع الرأس عالياً، فعندما قمت بنحر ثيرانه التي كانت تحرث حقولي، كنت مدفوعاً بتحريض من درويش، وبعدها دخلت القلعة وبداخلها كنت أظهر الصرامة والقوة، وعندما خرجت أطلقت غضبي بكلمات مضت في الهواء وأشعلته غضباً عليَّ، وجلست أنتظره حتى دفعني للسيل.. أكان لا بدَّ أن أكون بيرقاً لهذه القرية؟.. بئس الحياة تلك التي عشتها!!

نعم كان لا بدّ أن أكون أكثر إقداماً مما كنت عليه، منذ تلك الطفولة المبكرة كان أبي وأمي يعداني لأن أكون شيئاً ما. . شيء أشبه بالحلم الذي أخذ يراود هذه العائلة وأخذت تنتظر أن يحققه أحد من صلبها، في كل حياتي الماضية كنت أشعر بأن أبي يهيئني لشيء ما وإن لم يفصح عنه. . كان ذلك فيما مضى من طفولتي حيث كان يكلفني بأعمال شاقة، وعندما أنهيها يطالبني بأخرى، لم أكن أعلم بأنه يربي بداخلي الصلابة التي يتطلبها واحد مقدم على منازلة السوادي. . كنت غراً لم أفقه الدرس إلاّ عندما مضى بي السيل بعيداً.

ففيما مضى كانت حقولنا يانعة تنبئ بمحصول جيد، فقد نهضت السنابل قوية يافعة، ومدت رؤوسها للأعلى دونما وجل من الدودة التي قرضت محصول العام الماضي، أو من شح المياه الذي عاقر أرضنا لسنوات طوال، وكان أبي يوشوش والدتي ليلياً بأن محصول هذا العام سيمكنه من الوقوف أمام دائني القرية بعز وسخاء، وكنت أغفو قبل أن ينهي حديثه المفعم بالتفاؤل، وأستيقظ فلا أجده في فراشه، فأخرج إليه بزوادته مع القيلولة، فأجده مغروساً بين قوائم سنابل القمح يحميها بالصوت، وبالنظر. كان صوته حازماً حينما يصيح بالنفر الذين معه، ويحثهم على قذف المقاليع في كل الاتجاهات، وحينما يراني أتمايل فوق حماري، يقفز (الزبير) وينزلني، ويجلسني بجواره تحت ظلال إحدى الأشجار المنتشرة بين الحقول حتى إذا أنهى طعامه، لاعبني قليلاً، وأمرني بالعودة.

كنت حدثاً عندما سارت الخيول على جسده بين تلك السنابل اليافعة والتي أمضى حياته يسقيها، وكان آخر عهده بها أن رواها بدمه.

كان يسكنها من الغسق إلى ما قبل الغروب بلحظات، وكنت كلما جلبت له زوادته أقعدني بجواره، ودعاني لمشاركته الطعام، وقبل أن أمد يدي يأخذها، ويغرسها في الطمي ثم يأمرني بالأكل، وعندما يرى ترددي يمسح على رأسي:

ـ حب الأرض يمنحك صلابة الجبال وعلو هامتها.

فأظل كافاً يدي عن الطعام، وهو يواصل الحديث عن الأرض بعشق

مضني، يومها لم تكن تعني لي سوى التعب القسري، وكنت أكره المكوث بين الحقول، ففي أيام الحرث أظل قابعاً فوق ظهر الثور، والمحراث يشق الأرض ذهاباً وإياباً، بينما أقوم بإلقاء البذور من زنبيل علق بجانبي، وكلما حاولت أن أتملص من هذه المهمة أجد عينيه تتابعانني رادعتين أي هاجس ينمو بالبال للركض بعيداً عن هذا الحقل الصغير الذي وهبه لي. . هذه الهبة التي أصبحت جحيمي الذي لا يطاق، فقد وهبني هذا الحقل قطعة جرداء، وأغلظ لي القول، وتوعدني بتهديد مرّ إن لم يرَ سنابله تهفهف، وتنصد في الموسم القادم، وكنت كلما أنهيت عملاً ظننت أنها النهاية فإذا بها سلسلة طويلة من الأعمال المرهقة المضنية، فما إن ينتهي الحرث والبذر حتى تأتي السقاية، فقد كنت أتوجه معه من الغسق، وأظل أسير ماء الوادي في قنوات تسللت حقولنا أجمعها حتى تصل إلى حقلي المقذوف خلفها. كان ذلك عملاً شاقاً يتطلب قدراً كبيراً من القوة والجلد، وكلما تقاعست وجدت (ميهره) متلصقاً بجسدي. . كانت الأدوار تتناسل وكأنها في عناد مستميت معي، فبعد دور السقاية يأتي دور مراقبة الأرض، وتهويتها، وإبعاد الحشرات الصغيرة التي تعيش على البدايات الأولى للزرعة، وعندما تصبح (جهيشاً) كان عليَّ أن أصنع مقلاعاً وأظل طوال اليوم أحميها من تلك الطيور التي تعرف جيداً كيف تنقم حبات القمح وتترك العذق خاوياً. فيما مضى كنت أحب طيور (المساملة) والتي كنت أصعد لشجرة تجاور عشتنا لآخذ صغارها وألعب بها، وكنت أجد متعة عظيمة في ذلك، وحين أصبحت حامياً لحقلي اكتشفت أن هذه الطيور تجرد السنابل من قمحها وتتركها قاعاً صفصفاً، يقول أبي:

ـ إن الذي يكبر ولا يتعلم شيئاً جديداً يظل صغيراً.

وكنت في هذا الحقل أتعلم كل يوم شيئاً جديداً، وإن كنت أشعر بالملل من تلك الأعمال المتلاحقة والتي لا تنقضي، ففي أيام الحصاد أقوم بأعمال عديدة بمفردي، من حصد، وصرب، و(شياطة)، وتعبئة الحبوب بأكياس صنعت من سعف الدوم، وما إن أفرغ من كل ذلك حتى أكون منهكاً تماماً، وأجلس منتظراً تهنئة أبي على هذا الإنجاز، وما إن يراني مسترخياً حتى يصيح بي بتهكم:

ـ أأحضر لك حزمة قات؟!

وعندما أقف مستغرباً هذا التهكم أمرني بغلظة أن أجمع أعواد القصب في (محازم) وأجلبها للمجلاب لبيعها (عجوراً)، وإذا لم أتمكن من بيعها أعود بها وأقيمها (مشاوين) على رابية الحقل.

في البدء كنت أشعر بأنه يعاقبني لا لشيء وإنما لمجرد أنه يراني أمام ناظريه، وكنت أشعر بأنه لا يريدني أن أشارك أترابي اللعب بين منعطفات القرية، فأشعر بغبن، وأتمنى لو أنني قادر على الركض بعيداً عن هذا الحقل ومشاركة الفتيان اللعب داخل القرية، ولكن بعدما قمت ببيع محصولي، ووضعت ثمنه في (كمري) شعرت بقامتي ترتفع عالياً، وأن صوتي غدا خشناً كالرجال الذين يستطيعون جلب أرزاقهم من تحت الحجارة الميتة.. كان هذا هو أول مبلغ يدخل جيبي لعمل قمت به، ولم أفرح بمال قط كفرحتي بهذا المال.. أذكر أنني حصلت على مبلغ يفوق هذا بكثير حينما ختمت حفظ الختمة ولكنني لم أسعد بذاك المال، وقد حدث ذلك بعد أن أجازت السيدة آمنة ختمي للقرآن فعدت فرحاً أخبر أمي بذلك، عندها ألبستني أفخر الثياب، وحملتني صينية كبيرة، ودفعتني للذهاب وإخبار الجيران بما حققت، وقد اجتمع خلفي عدد كبير من الصبيان الذين كانوا يتبعونني أينما ذهبت، وكنت أنادي على أصحاب البيت، وأسمعهم آيات من أي جزء من أجزاء القرآن وقبل أن أنهي تكون يد قد امتدت ووضعت هللات في تلك الصينية التي أحملها، لأغادرهم إلى بيت آخر.

كنت أسعر بالذل، وأنني لا أختلف عن أبناء (الريسة) الذين يجوبون القرية وهم يحملون صيانيهم ليتصدق عليهم أهل القرية، وها أنا أتسول بما حفظت من القرآن، وإن كان الفرق بيني وبينهم أنني أستقبل بالزغاريد، وقد تجذبني امرأة ما لكي أقرأ على نيَّة ميت لها، وعندما تفاقم هذا الشعور في أعماقي عدت أدراجي إلى البيت قبل أن أكمل دورتي على بيوت أهل القرية، لقيتني أمي بتذمر، وحاولت معي مراراً إلاً أن عنادي قد استطال، فخلعت ملابسي وقذفتها بعيداً، وهممت بالبكاء، فضمتني إلى صدرها:

ـ سوف تصبح فقيهاً، ولا بدَّ أن يعرف الجميع أنك ختمت القرآن.

ـ ولكن الصبية يقولون: أنت «تتطلب».

فردت عليَّ برفق:

ـ لأنهم لم يختموا مثلك لذلك فهم يحسدونك، والآن أصبحت قارئاً، وأمانتك القرآن لا تنسه فهو نورك في الدنيا والآخرة.

وعادت فألبستني ملابسي، وناولتني الصينية، وعدت إلى بيوت القرية أقرأ على مضض، والنقود تتساقط بالصينية، وصورتها لا تفارقني حينما كنت أذهب للسيدة آمنة حاملاً ختمتي، فتودعني بـ (ترجيحتها) التي تضفي عليها كثيراً من اللوعة بصوتها الرخو الحاني:

وبـــنـــى ســـرح يـــقـــرا(*)
ســـرح بـــعـــبـــده قـــبـــلـــه
ويـا مـعـلـم عـلـم بـنـى وهـجـه
ولـــو غـــوى فـــي امحـــرف
لا تـضـرب بـنـى اضـرب عـبـده

ومع الغروب تشع الفانوس، وتقرب ختمتي، وتحثني على القراءة، فأتناول ختمتي، وأبدأ في ترتيل الآيات على مسامعها، وعندما أنتهي وأغادرها أسمعها (تدره) بصوت مرتفع شجي وكأنها تسمع الجيران:

وأنـــا فـــديـــت لـــبـــنـــي(*)
وأنـــا فـــديـــت لـــلـــقـــاري
قـــاري وصـــوتـــه عـــالى
ولـــو قـــرا فـــي امخـــلي
كـــالـــرعـــد فـــي الجـــبـــال
ولـــو قـــرا فـــي بـــيـــتـــي
اســـمـــعـــوا يـــا جـــواري
ولـــو قـــرا فـــي امـــســـجـــد
خـــجـــل بـــكـــل قـــاري

(*) المقطع من الموروث الشعبي.

جـــاب بـــن الـــســـلـــطـــان
قـــال بـــن مـــين ذا الـــقـــاري
شـــازوجـــه بـــمـــحـــمـــلية
وشـــاصـــحـــلـــه بـــنـــصـــف مـــالي
جاوبه قال ما لي بمالك حاجة وأنا بسدة حالي
مخـــازني مـــلى مـــا تـــرهـــا إلاً اقـــفـــالي
وإن شيت بنت عمي وإن شيت بنت خالي
وان شيت بنات امجيران هم مغضين لالي

وغالباً ما كنت أنام على ذلك الصوت الذي يتهدج ويصبح عذباً ينساب برقة ويفتح لي باباً نحو حلم كبير.

في ذلك اليوم عدت من بيوت القرية أحمل الهدايا الكثيرة، ومبلغاً كبيراً من المال، ولم أسعد به بقدر سعادتي ببيع محصول حقلي الصغير، ومنذ ذلك العهد بقيت مزارعاً لأرض متقلبة، وكلما قست تربتها زاد حبي لها، وكنت في أيام القحط ألجأ لدكاني أبيع وأشتري، وكلي لهفة لتعود العافية للأرض كي أعود للزرع والحصد.

وعندما سارت الخيول على جسد أبي جئتها باكياً:

ـ الطمي التهم أبي.

فأجلستني أمي بحضنها وهي دامعة، ومن حول (امربع) تجمعت النساء معزيات فلم تكترث به وهي تحدثني:

ـ الوحل ليس طمياً يا عبد اللّه.

لم يكن مستساغاً أن يدخل أي كان على المرأة المعتدة، وحين رأتني الجدة نوار قابعاً في حضنها أذرف الدموع سحبتني من أذني، ودفعت بي للخارج، ونهرتني بعنف:

ـ لا تبكِ فدم أبيك ليس في حاجة إلى دموعك، وإنما ليديك حينما تعرف كيف تمسك بالبندقية.

كانت صارمة، عنيفة في أوقات كثيرة، لا تتحمل البكاء العاجز حتى

إنها في يوم موت زوجها خرجت تزغرد على جثمانه الذي حمله الرجال بعيداً عنها فقد أرادت أن تزيح الكفن، وتزين الميت بـ (الوالة)(*)، وقد تبعتهم إلى المقبرة وزغاريدها تتعالى حتى بلغت منتصف الطريق ورأت السوادي سائراً نحو حصنه فاقتربت منه، وبصقت باتجاهه ورفعت زغرودتها عالياً.

كان عليَّ أن أغادر بيتنا لعدة أيام حتى تتفرق زحمة النساء القادمات للتعزية، ولم يكن أمامي إلاّ بيت خالتي الذي أكرهه تماماً ولا أطيق المكوث فيه للحظات وذلك لوجود زوج خالتي ذي الوجه العابس على الدوام، والذي لا أذكر أبداً أنني رأيته مبتسماً إلاّ في يوم واحد حينما عبرت السماء إحدى الحِدآن القادمة من مجزرة قريبة من بيته، وأسقطت عليه قطعة لحم طازجة يبدو أنها أفلتت من بين مخالبها، ساعتها ناول زوجته تلك القطعة لتشويها له بالميفى وقد أوصى أن ينام كل من في البيت بالرغم من أننا في عز الظهيرة، وعندما لم تفلح هذه النصيحة انزوى بعيداً وأخذ يلوكها ومن وجهه تتقافز ابتسامة مقززة.. كان بخيلاً لدرجة أنه لو علم بأنك تقاسمه الهواء لسد جميع منافذ تنفسك كي لا تأخذ من بيته هذا الهواء.. وعندما نزلت ضيفاً على خالتي بدا التذمر واضحاً على سحنته الرملية، وأخذ يسب اليوم الذي جمعه بخالتي التي لا تعرف كم يتحمل من العناء في سبيل توفير لقمة لها ولعيالها، ولمعرفة خالتي بأنه رجل ضنين فقد أغرته بحديث مختلق:

ـ أخبرتني وادية بأنها سوف تقدم لنا مبلغاً كبيراً من المال لرعايتنا عبد اللّه بعد أن تنتهي من عدتها.

ساعتها فقط رضي أن أمكث بينهم حتى وإن طال العمر.

في الأيام الأولى من وفاة أبي كنت أتسحب من بيت خالتي، وأخرج إلى قبره، وأجلس بجواره دامع العين.. عدة مرات طرأ بخاطري نبش القبر، وتقبيل وجهه الذي غاب منذ ليلتين.. حين كانوا يهيئونه للدفن، وأثناء الغسل أبعدوني من البيت فلم أستطع تقبيله، ولا زالت هذه الرغبة تلازمني بحدة.. كان آخر عهدي به حينما ذهبت إليه بـ (زوادته) فوجدته يشارك الماء

(*) الوالة: هي نبتة زهرية عادة تستخدم في أيام الأفراح.

افتراش الحقول، وقد أمسك بإحدى نبتات السنابل بيده اليمنى، وكانت (مدرعته) و(حوكه) ممزقة وقد بدت عورته على استحياء، وثمة ندوب غائرة تملأ جسده، فلم أعرف ماذا أفعل، ولم أشعر إلاً وأنا أقف أمام أمي دامعاً، فلم ترفع صوتها بالنحيب، بل ناشتني بعنف، وناولتني بذوراً لقمح ناضج ودفعتني للخارج:

ـ عد وألقِ بها على جسد أبيك لينبت من جديد!

وظللت ألقي بالبذور يومياً، وانتظرت مواسم عديدة، وأبي لم ينبت بعد، فعدت إليها معاتباً، وباكياً:

ـ لم ينبت مع السنابل كما أخبرتني!

هزتني مراراً، وضربت رأسي براحة يدها:

ـ إن الرجال تنبت رجالاً، فعد إلى حقولك وظل منتصباً بها.

حتى الرجال تنصد قوائمها وهي واقفة، ما لم يكن هناك نار تقلب هذا الماء الراكد في حوض أيامنا.. كل شيء فينا راكد حتى أحلامنا لا تجرؤ أن تغادر بعيداً عن مراقدنا، ولا أحد يجرؤ على الابتسام علانية في هذه القرية.

وقفت جدتي أمام وجهي الحائل بزرقة الموت، ورفعت صوتها بإلحاح:

ـ ألا ترغب في استكمال حكاية مرحمة؟

وصوت درويش ينمو في هذه العتمة ويلاحقني بمرارة:

ـ أخرج قبل أن تصبح مأدبة للتراب.. لم أكن أعلم بأني أحبك لهذه الدرجة.

كنت أسير بجوار قلبه اللاهث، وهو يحدثني باكياً بعد يوم ماطر جرت فيه الأودية الصغيرة وانصبت في حضن الوادي الكبير، وقد تشاءمت إحدى عجائز القرية من تدفق السيل، وقالت:

ـ يبدو أن الليلة ستكون عرساً للموت.

كانت المياه تسيل مزمجرة، محدثة دوياً هائلاً، وتصل إلى حالة من الغضب فتقذف بنفسها صوب جرف الوادي بعنف، موسعة حدودها وراكضة صوب القرية، وقد انفجر أكثر من (عقم) وقد تصايح الحماة بالمزارعين

للخروج إلى حقولهم وحمايتها من بطش هذا الماء المندفع برعونة، وكنت فيمن خرج، وقد التقيت بدرويش على جرف الوادي، وهو يتطلع للمياه المندفعة بحسرة، وحين رآني حدثني بصوت واهن:

ـ ها هي (دفرة) الوادي يا ابن وادية!

شعرت بكلمته تخترق عظامي، وتصيبني برعدة، ويعتلي بداخلي ذعر مفاجئ، فوضعت يدي على كتفيه وسرنا على امتداد الوادي علنا نجد منفذاً نعبر منه للضفة الأخرى حيث كان السيل يعربد بتلك السنابل التي نهضت منذ وقت قريب، ولم يعد منتصباً منها شيء، فقد استسلمت لهذا السيل وبقيت حقولها مجرىً لمائه، حتى إن الحقول كانت تموج وتتماسك ببعضها خوفاً من أن يدفعها أمامها!!

بينما كنا سائرين كانت ثمّة أعين تتبعنا، ووميض من برق باهت أخذ يشحذ نصليه بالأفق، وبقيت المساء داكنة متوعدة بوابل من غضب لم يجف.. فجأة سمعت نشيج درويش، وكفكف دموعه، وأمرني بأن أشحذ (شفرتي):

ـ الليلة ليلة حصاد يا عبد اللّه.

لم أفقه ما يعنيه كان جاثياً ضعيفاً لم أره من قبل متهاوياً في وضع كهذا الوضع الذي هو فيه، تحامل على نفسه، ونهض وانطلق مسرعاً صوب الأشجار الكثيفة والتي بقيت جاثمة على خصر الوادي منذ أمد بعيد مما مكّنها من أن تظل في منأى من السيل، وتبقيت أنا والماء وتلك العيون التي كانت تتربص بي، وكان الوادي مستسلماً لطيش ذلك الماء المندفع بتهور، والمتصبب بقوة وغزارة.. كنت أقف على حافة الوادي، وعيناي على الضفة الأخرى، حيث ترقد حقولي التي جردها الماء من سنابلها وتركها أرضاً صفصفاً.. فيما بدأت السحب تتجمع وتتكثف من جديد فوق هامة القرية لدرجة أن الكثير من المزارعين تراجعوا، وعادوا إلى بيوتهم وهم يتصايحون:

ـ ستكون ليلة عمياء لا يسلم منها إلا ناج.

تأكدت من أن خروجي كان عقيماً، فأمام هذا الماء لا أستطيع أن أقدم شيئاً لحقولي التي باتت تمخر فيها المياه، فتراجعت باحثاً عن درويش، في

البدء صرخت فيه فلم يظهر، فخفت عليه من تلك (الهيج) التي لا يأمن مكرها في مثل هذا الجو الطافح بالوحشة، وبينما كنت أدور منادياً عليه، بزغ من بين (الهيج) مجموعة من الرجال الملثمين، كانوا مشهرين خناجرهم وبعد أن أحاطوا بي إحاطة السوار بالمعصم، تقدم أحدهم ورفسني بين مفترق رجلي فسقطت أئن بألم، فأوثقوا يدي وقذفوني للسيل، فسقطت كحجر غليظ، وحاولت تخليص يدي وكنت أدفع بقدمي للأعلى، وأصيح بدرويش الذي ظهر على جرف الوادي، فصرخت فيه:

ـ أنقذني يا درويش قبل أن يجرفني السيل.

وكلما ارتفعت جذبني الماء للأسفل، ودفعني للأمام بكل قوة، ووحشية، فأرتطم بالصخور والأشجار المجروفة بهذا المجرى الهادر، وأخذ كل شيء يدور من حولي. في آخر لحظة لمحت درويش يركض مع السيل الذي بدأ يجرفني أمامه، ويوغل بي في متاهات الوادي، ولم أكن وحيداً كانت هناك أجساد كثيرة قد أسلمت قاماتها لهذا السيل ورضيت أن يختار لها قبراً بعيداً عن أعين من أحبوهم، وكان معنا في هذه الرحلة أبقار، وأغنام، وحمير، كنا جميعنا نرسب ونطفو فوق وجه الماء كسيقان أشجار بائسة، ولا زلنا مبحرين مع هذا السيل حتى هدأ، وقذف بنا في اتجاهات مختلفة، كان بعضنا مترسباً بين الوحل، والبعض الآخر مهتك الأجساد، وثمة بطون تشي بانفجار قريب، فقد أخذت تلك البطون تنتفخ بسرعة وهناك شيء ما يتحرك فيها بطلاقة.. كل ما كنت أخشاه أن أنفجر كدابة نفقت، وقذفت بعيداً لتكون طعماً للكلاب الضالة، يكفي فضلاً لهؤلاء (المغورين) إن عادوا بجسدي كي تقنع أمي بأن جسدي لن ينهض مرة أخرى.

كلنا نموت بينما بقي السوادي واقفاً على قبورنا
كقبة راعي القضبة، وكأنه يحرس أجسادنا
خوفاً من أن تزيح التراب وتمعن في الهرب!!

درويش

ليل وغربة.

للتو اغتسلت الأرض حتى ارتوت عروقها الضامرة، وجرى في مناكبها الماء يتلوى ويشتعل غضباً، يهدر في الحقول، ويزبد، ويدك تلك القلاع الرملية التي أحاطت بالحقول لتعصمها من غضبه، ففجرها وعاث بالأرض فساداً.. عاقر السنابل، واجتث أشجاراً بقيت مستعصية على الموت منذ عهد قديم، فجرفها وكأنها قشة وأخذ يطوح بها يميناً ويساراً، في جريانه دفع حياة كاملة أمامه ومضى يقهقه غير عابئ بصرخات ودموع المستغيثين.

حين دفعوه أمامي ـ لمجرى السيل بعد أن كبلوه ـ شعرت بأنني خسيس، وأنني أشاركهم في نحره، ولم يعد ذلك الأمل ـ من مقتله ـ ذا جدوى، فالقرية نائمة وحياتها حلم طويل تتململ في رقدتها وتأبى أن تنفض كوابيسها وكأنها تستلذ بهذا الرعب الذي تحياه.

أحاط خاصرتي بيديه، وضمني إليه، خبأني في صدره وتركني أفرغ نشيجي الطويل، كان حزني كعادته ينزف، وكان ـ هو ـ كعادته يعبر كل شيء ويولد من جديد.. هل غادر جسده ليورق في السماء؟!

لم يكن يخيل إليَّ أن تكون ميتته هكذا... كنت أراه ميتاً يومياً في صور متعددة.. كان يقتل أمام حشد من الناس بعد تدبير تهمة لقتله، أو أن يأمر السوادي أحد أعوانه بأن يتربص به وهو عائد من حقله فيغرس في ظهره

خنجراً مسموماً، أو أن يقدم ولي على قتله بحجة أنه نال من عرضه، صور عديدة كنت أراه فيها ذبيحاً، ودمه يتصبب بغزارة، وهو غارق فيه يتخبط، ويمسك الحياة بعينه.

من يجرؤ على الابتسام لرؤية هذا الكبش السمين مذبوحاً؟!.. لقد كانت ميتته تلك ميتة لي. كان عليَّ أن أدرك تماماً أن السوادي سيقتله خفية، وسيترك دمه يلبد الخلاء دون أن تشير إليه الظنون.. أي حماقات كنت أرتكب؟!.. وأي حلم يمكن له أن يزهر بعد فراق الأحبة.. كنت دنيئاً، واليوم أجد نفسي أعجز من (برمية)(*) أخذت تتتلس بين (الكداديف) بخوف، وببطء.. أكان لا بدَّ أن أشارك في إراقة هذه الدماء كي أوهم نفسي بأنني سأرقص قريباً في جنازة السوادي؟!.. ها هو باق فوق رؤوسنا التي انخفضت هاماتها وتساوت بحدبات القبور، وأنا ذلك المنشار الذي قطع تلك الدعامات التي كانت تقاوم ضغطه، بئس الحلم، وبئس الحالم.. لقد شيعت القرية أحبتها دون أن تهتز لها طرفة من غضب، وكنت أظن أنها ستخرج من شقوقها لتقرض من دفن أحبتها.. أي وهم أحمق لازمني كل هذه السنوات؟!.. وماذا بعد؟!.. لقد قمت بكل ما كنت أخطط له دونما أثر يسكت هذا الجزع الذي ينتابني الآن.. وغدوت جزعاً، عاجزاً، فلم أعد أقوى على إيقاظ هذه الرؤوس من نومها.. من رأى عبد اللّه ميتاً سيموت حتماً.

ذلك الكبش السمين رقصت له الأرض، وفرشت له الماء وزفته، كنت ألمحه مستسلماً لزفة الموت، ولباس الزبد يحاصره، وهو مستلقٍ على وجهه، كل شيء فيه ساكن، فجأة تناهى إلى مسامعي أصوات (زغاريد)، وضرب طار، ونساء يزفونه مع امرأة لها وجه قمري، وظللن يزفونهما حتى عبرا غيمة شفافة.

قبل استسلامه بصق في وجوههم المخبأة خلف عمائمهم وصرخ:

(*) البرمية: نوع من الزواحف، غالباً ما تكون بليدة وتخاف من كل شيء تختبئ بين القمائم وتعرف في الحجاز بأم صالح.

ـ لن يفصل بيننا الموت. . ستجدونني في أحلامكم، وفي دمكم، وفي عيون المتعبين منكم. . بلغوه عني هذا.

كانوا يغمغون في الليل البهيم، وكانت العتمة تسرق وجوههم من عيني. . صوت عبد اللّه نبّه الحلم القديم. . ستكون كل القرية عبد اللّه، وما إن رأيته ممدداً على الماء حتى استيقظت من حلمي الآسن، وركضت خلف الموت أستوقفه.

اليوم أيقنت أنه ـ كان ـ يسكنني حلم شحيح. . يا اللّه هكذا يرحل الأقربون ويتمادون في الغيب، وأنا كالأرض البور، أفتح وجهي كل يوم لريح جديدة، أو غيمة يانعة تغتال هذا الجفاف، أو أذن تسمع وجيب هذا القلب. . ويمضي كل شيء، وأبقى أرضاً خراباً ليس فيها إلاّ زفرات بوم هده التنبؤ بالموت فمات. !!

ها هي الطرق العابسة ضمرت بها قدماي، ولم يتبق إلاّ ردم هذه القامة الناحلة التي ما فتئت تحلم حتى تواطأت مع الشيطان، وتمادت في غيها، وأخمدت أنفاس من تحب من أجل أن تعيش داخل حلم. . حلم ضيق لا يكفي لإدخال خيط إبرة، ولا يقوى على رتق أحزانك العظام. . يا اللّه. . هل نظل هكذا نفترش أعمارنا، ونتوهم أن فرحتنا ستأتي عبر تلك الوجوه الغائبة بينما الزمن يلف أعمارنا ويقذفها خلفه، ويمضي تاركاً لنا حسرة أن نحيا.

أجزم أننا نتوهم كثيراً حينما نظن أن هذه الحياة ستمد لنا جوفها لنركض فيه طويلاً، ما هي إلاّ بضع سنين نقضيها في جمع الأحلام، ونتساقط فجأة ونحن لم نبلغ أقصر أحلامنا.

حياة سقيمة نعيشها ونظل ندفعها بأوهامنا حتى إذا جاء طوفان الموت دفعنا أمامه كالأشجار اليابسة النخرة. . أعلم تماماً أن هذه الحياة كان يمكن أن تكون أروع لو لم يكن بها وجه يسد بينك وبين الجهات الأربع، ويسلبك هواءك الذي تتنفسه مبقياً لك ما تجود به رئتاه كي تعيش بزفيره، ليس هذا فحسب بل ويمنّ عليك حتى في هذا!!. . ويمضي عمرك وأنت تجاهد أن

تهرب من الموت. . إنه قادر على جعل كل شيء موبوءاً، وهذه القرية النائمة تحرضه على العيش فوق هاماتنا. . إنها قرية قد جرى الموت في مناكبها منذ أن ولدت، ولم يكن صوتي ليجدي في إحياء الموتى، كنت أصرخ فيهم فلا يزيدهم صوتي إلاً استكباراً، وإمعاناً في الاستمتاع بهذا الموت!!

نعم الموت يسكن أجسادنا منذ وقت طويل وقد اعتدنا ذلك وأصبح خلاف هذا الوضع هو الوضع الشاذ، فماتت فينا الحياة، ولم نعد ننتظر سوى عبورها لأنفاسنا في زمن يسير، ونتعهد بأن لا نتفوه بأدنى كلمة. . هذا الموت تتجدد لقاءاتنا به، وفي كل مرة يأتينا حاملاً وجهاً جديداً، وفي كل مرة ـ أيضاً ـ نستقبله باللهفة، ونمد له أجسادنا كي يسويها بالأرض التي أتعبتنا بشحها، وعبوسها.

في إحدى سنوات القحط أقدم البعض على أكل موتاهم، وانتشر خبر أن مفتي قبائل بني جابر أفتى بجواز أكل لحم الآدميين، فخرج أفراد قبيلته يتصيدون الناس على امتداد الوادي، ويأكلون من يقع تحت أيديهم. وقد قَدِمَ أحد الأنفار ـ العاملين بجمع الخراج ـ بعد أن خلف رفيقه لحماً مشوياً تتلذذ به تلك السباع.

دخل إلى القرية زائغ البصر، وقد اعترته حمى، اهتزت لها كل مفاصله، وظل يهذي لثلاث ليال، وأهل بيته في كرب مما يجدون منه، فقد كان يتبول في منامه، وينهض صارخاً، ويطلق نحيباً مراً، وإذا رأى ناراً زاد تهيجه، واصفر لونه، وأغشي عليه، وقد زاره أحد السادة، وقرأ عليه فعاد له هدوؤه، وقد روى لمن حوله هذه الحكاية:

ـ طرقنا قرى كثيرة لجمع الخراج، وكانت كل قرية أبئس من أختها، ولم نكن نرى إلاً الفاقة، وأجساداً ممزقة من الجوع، ولا زلنا نعبر قُرى الوادي ونمني أنفسنا بأن نجد من نأخذ منهم، وكنا ما إن نصل قرية حتى يبادر إلينا أهلها زحفاً، وهم يتضورون جوعاً، ويستجدون أي شيء لكي يسكتوا به قسوة وشبق ذلك الجوع الضارب، فكنا نغادرهم دون أن نجرؤ على ذكر الخراج، وقررنا العودة وإخبار السوادي بما رأينا، وكنت معترضاً على العودة خوفاً من أن تجز رأسانا لمخالفة أمر السوادي، ولا زال رفيقي يحثني على

العودة، وأنا أزداد إصراراً على المضي للقرى الأخرى حتى إذا نفق زادنا ولو يعد هناك من يقدم لنا كسرة خبز شعرت بعجزنا فوافقت على العودة والتزود من أطراف القرية، والعودة مرة أخرى، ولا زلنا نسير حتى دخلنا الوادي، وبينما كنا نتفيأ هلّ علينا قوم لسحنتهم هيئة الوحوش الضارية، وأحاطوا بنا، وأوثقونا بأشجار يابسة تاركين معنا أحدهم، وبعد أن مضوا عرفنا من حارسنا بأننا سنكون عشاءهم، أو غداءهم، وذلك يتوقف على وفرة صيدهم، ولا زلت أجاهد في فك وثاقي حتى تمكّنت من الإفلات منه، وركضت بعيداً مخلفاً رفيقي طعماً لهم، ولم يكن بإمكاني نجدته، فقد بتر حارسنا إبهامه وأخذ يشويها على نار ملتهبة، بينما أغمي على صاحبي، وأحسب أنهم الآن خلف (الهيج) اليمانية.

وقد كان لهؤلاء الصيادين عتقاء يعرفون من إبهاماتهم المبتورة، وقد كانت إبهام يدي اليمنى واليسرى مبتورتين وذلك عندما وشي بي ولي لدى السوادي بأنني أهدد بهدم قبة راعي القضبة، فقام ببتر إبهامي اليمنى واليسرى في أوقات متفرقة، وعندما عرفت بهذه الشارة لعتقاء أولئك الصيادين كانت أتجول في أطراف الوادي بلا وجل، وإن كانت قد حدثت لي حادثة قبل معرفتي بهذه الشارة كادت تذهب بحياتي، فمع تناقل الناس لأخبار هؤلاء الصيادين، تموج الخوف بقلوب الجميع وامتنع الكثيرون عن مغادرة منازلهم، وكان لا بد أن أخرج (للورادة) وفي إحدى خرجاتي أحاط بي نفر وهم يشهرون خناجرهم فأسلمت قدمي للريح. كان الوهن قد دب بمفاصلهم فلم يحاولوا اقتفاء أثري، واكتفوا بأن أنزلوا (شفارهم) بحماري، وتخاطفوه في لمح البصر، ولو كنت أعلم أن جريمة السوادي ستقربني منهم لكوني أحد عتقائهم لما هربت، وقد دأبت على البحث عنهم علني أستطيع أن أوجههم للسوادي، ولكن بحثي ذهب سدى.. وفي إحدى الليالي نودي للصلاة الجامعة، وعرفنا أن المقبرة أصبحت مأدبة لأولئك الذين ضيق الجوع عليهم الخناق فلم يجدوا سوى الموتى يمدون بهم أنفاسهم، وقد أقسم رجل من بني يوسف إنه رأى جماعة تدخل إلى المقبرة وتبحث عن الموتى الجدد، ليقوموا بنبش القبر واقتسام لحمه. في تلك الأيام كانت الحياة والموت أردى من

بعضهما، فالحياة تعني أن يمد الآخرون أعمارهم بجزء منك، والموت يعني أن تكون مأدبة دسمة لأفواه تلتهم الجيف والعفن، ولا شك أن يقتسموك وأنت ميت خير من أن يقتسموك وأنت تصرخ مستنجداً منهم وبهم، وهم ينهشون لحمك الطري بلا هوادة أو تقزز، وقد أقسم بعض القادمين من الجبال إن أحد رجالها مات ولده فقطعه قطعاً صغيرة ووزعه على أهل قريته دون أن تذرف له عين، ويقول آخرون إن شيخ قبيلة العجالية أمر بأن تقطع آذان، وأصابع كل عشرة من أفراد قبيلته لتقدم يومياً طعاماً لمن شارف على الموت جوعاً، وقد قامت قبيلة بالغيث باجتزاز قطعاً من أرداف نسائهم المقعرات لتكون طعاماً لمن لم يجد ما يأكله، لذلك أصبحت عيرتهم بين القرى (قبيلة أبو ذنب) ومنهم حجاب أبو ذنب الذي تزاملت معه بالقلعة، وقد قيد للسجن بعد أن قتل زوجته التي رفضت تقديم جزء يسير من أردافها لضيوف نزلوا عليه، فقلتها و(حندها) وقدَّم لحمها لضيوفه!! . . وكاد يمضي موتها دون ذكر لولا أن أباها كان عاملاً للسوادي في تلك القبيلة، فما إن علم بما حدث لابنته حتى همَّ بقتله، فتدخل أهله وحموه منه، وفضلوا أن يقاد للقلعة على أن يموت ويطفح دم الثأر بين رجال القبيلة.

وكان هناك من لا يحبذ أكل لحم الميت، ولكن إذا مات لهم ميت قايضوا بجسده، فيأخذوه بدلاً عنه جراداً مجففاً، أو روث بقر طازج، أو كراعين ماعز، أو أرجل دجاج ميت، وقد فطن الجبالية لذلك فكانوا يتربصون بمقابر القرى وينبشون قبورها ويتاجرون بلحم الميت، وقد وصل بهم الحد أن يتصيدوا العابرين، ويقتلوهم، ويقايضوا بهم حقولاً جرداء، أو يدفعوا بهم مهراً لمن سالت عليها رغباتهم.

أثناء هذه الشوطة العظيمة لم تصل قريتنا حد نبش القبور، أو أكل موتاها، فقد أخرج السوادي حبوباً مدفونة بالأرض، واشترى حقول أهل القرية مقابل إطعامهم، وكان يشتري الحقل الواحد مقابل إشباع يوم كامل. . ومع ذلك ظلت قريتنا محطة للمتكسبين من جثث الموتى، لذلك كان يخرج أهل الميت لحراسة فقيدهم بالبنادق، ويظلون يحرسون قبره لعشر ليال تحرزاً ممن توسوس له نفسه بمداهمة مقابرنا التي لا زال نازلوها يتمتعون برقدتهم

بعيداً عن تلك الأنياب التي تلوك (العفن). وفي تلك الأيام أكل الناس الجرذان و(العجالية) و(الورر)، و(البرامي) وحفروا الأرض بحثاً عن حبة قمح، وقد بحث البعض الآخر عن القمح في روث البهائم حيث كانوا يجففونه تماماً ويبحثون فيه عن حبات قمح لم تهضمها تلك المعدات الخاوية.. كانت مسبغة عظيمة، لم ينج منها إلاّ القليل، ولم تأتِ الهبات إلاّ بعد أن نفق منا الكثيرون، تلك الهبات التي ذهبت إلى مخازن السوادي، ولم تكف لسد رمق أهل القرى المحيطين بالوادي الميت. في تلك الأيام رهن يحيى عبد اللّه ابنه مقابل صاع بر، وحنما عجز عن سداد قيمة الصاع فقد ابنه لمدة سنة كاملة، واختار الكثيرون أن تطأ قدم السوادي على أعناقهم من أن يطأهم الموت دفعة واحدة.

ففي تلك الأيام حاولت استنهاض الهمم كي تزيل السوادي عن رؤوسها لكن الجوع كان مهلكاً، يحرق البطون، وكان السوادي قادراً على إخماده لهم، لذلك دانوا له ومدوا أجسادهم لوقع قدمه، وكنت أجاهد للإيقاع فيما بينه وبين المحيطين به، وفي كل مرة تنطفئ حرائقي قبل أن تبدأ، وحاولت تأليب المظلومين فكانوا أكثر غباء وانغلاقاً، فكنت كلما حدثتهم عن حقوقهم استلقوا على ظهورهم ضاحكين، وقد يمعنون في غبائهم ويزجرونني:

ـ ماذا تقول أيها المجنون؟

يبدو أنني حقير في هذه القرية كباقي تلك الكلاب الممددة بداخل المجزرة، والتي تقضي يومها في استرخاء وتثاؤب، لا نفعل شيئاً سوى لعق الدماء، والنباح بصوت رخو ذليل، وقد تهز ذيولها مطالبة الجزار بأن يقذف لها شيئاً من العظم، وهي تتطلع بحسرة للحِدآن التي تتخطف الفضلات وتحلِّق بعيداً، وكانت تتضاعف قيمتنا كلما قل نباحنا، وبقينا جاثمين خافضين أبصارنا، وهازين ذيولنا للجزار، ومتمحكين بركبتيه العاليتين كلما استشعرنا غضبه.

سامحك اللّه أيها العجوز الطيبة كنت دائماً تقذفيننا بأقوال لم نفتأ نؤمن بها حتى ردمنا الموت.. أخبرتنا أن الطيبين والشرفاء هم العظماء، وهم الذين

يجابهون الظلم، لذلك فهم يعيشون غرباء، ومنبوذين ممن حولهم، وكلما سار الزمن تعاظمت قيمتهم، واستدل الناس على عظمتهم.. ألا ترين أن هذا القول ضرب من أحلام تسكن أوجاعنا، لتساعدنا على عبور هذه الحياة القاسية ونحن نتوهم تلك العظمة الزائفة، فأي فائدة تلك التي نرجوها من أناس لا نعرفهم حين يرفعون أسماءنا في حين أننا نكون في أحشاء الدود، أو قد أصبحنا تراباً يدوسه المارة بلا لكتراث، وماذا يعني أن نعيش والحريق يشتعل في أفئدتنا، وأولئك الذين يطأطئون رؤوسهم ينعمون بما لذ وطاب، ويشاركون في ردمنا، لذلك من البؤس أن تمضي حياتك معلقاً بكلمة واهية، تكتشف فداحة ما حدث حينما تسلم جسدك للموت.. تكتشف فجأة أن كل شيء خلق ليلتهم شيئاً آخر، ولا ينتهي هذا الالتهام، وتظل هناك سلسلة معقودة الجانبين.. آه.. الحياة والموت التهام، ففي حياتك تلتهمك الغمزات، والأفواه ذات الوجوه الصفيقة، والأيدي الواثقة من خضوعك لها، والأسواط، والقيود، والفاقة، والمرض، وحين تعبر هذه العذابات المتسلسلة، وتركن لقبرك يسعى الدود بين عظامك، وهو واثق من أنك لا تقوى على أن تهشه بعيداً عنك، وهذا الدود يطعمنا لمخلوقات أخرى، وتظل أجسادنا تلوكها مخلوقات عديدة حتى تصل إلى معدتنا مرة أخرى.. إننا نلوك أنفسنا!!

فليسقط اسمي كلما مضى الزمن فلم أعد أعبأ بشيء، فلكلب السوادي إجلال يفوق إجلال الكثيرين منا، ويتمتع بنعيم الحياة أكثر مما يتمتع به شيخ من شيوخ هذه القرى المتناثرة على امتداد الوادي، وهذا الكلب لا يؤدي عملاً سوى هز الذيل والعواء بصوت رخو ذليل كلما أقبل سيدي وسيده!

بعد أن رأى جنائزهم، وبعد أن اصطادهم واحداً واحداً كان يمر بي، ويضحك بوجهي:

ـ أنت الآن تتمتع بعقل راجح، ومشكلتك أن لا أحد يعرف هذه الحقيقة سواي.

في كل مرة كنت أود أن أغرس خنجري الصغير في أحشائي وأتوقف عن السير، ولا أستسلم لهذا الالتهام الأبدي.

إن الذئاب حينما تجد أن كلاب الراعي تساعدها على اقتناص الأغنام منفردة تعقد معها صلة ود، وهذا الذئب يغمزني الآن بخياناتي المتكررة، ها هو يكسوني حلَّة جديدة ويعيدني لخدمته، ويعاملني ككلبه الأثير.

منذ زمن بعيد وعيت أن الكلب نجس مهما أرقنا عليه من ماء لا يتطهر، كان ذلك في وقت مبكر، وذلك حينما كنت بين الحقول أقوم بتتبع وسحق الحشرات العالقة بأعواد القصب، إذ مرَّ بي الشاقي وطلب مني ماء، فركضت إلى (البلبلة) وغطست آنية كنت أشرِّب فيها كلب السوادي، وقبل أن يتناولها سألني عن الآنية، فأخبرته بخبرها، فآمرني بغسلها سبعاً إحداهن بالتراب، ومن يومها علمت أن للكلب نجاسة لا يزيلها إلاً التراب، وأجد الآن أن التراب هو الحل الوحيد لطهارتي، لا بد من حفر قبري، فلم يعد هناك شيء يدعو للحياة، فكل الذين أحببتهم شاركت في ردم التراب عليهم، وأنا فاتح شدقي بضحكة عريضة، وممنياً النفس بدنو موعد الحلم إلاً أن الحلم ظل نائياً، ولم تتحرك قامة واحدة لمقتل من أحبوا وأحببت، كنت أظن أن الحب هو الوسيلة الوحيدة القادرة على تحريك هذا الركود، وحث تلك القامات المنحنية على المطالبة بدماء من أحبوا. . من العبث أن تظن أن من أحبوك سوف يطلبون الموت من أجلك. . يجب أن أكون جسوراً بما فيه الكفاية وأن أحتمل دفن نفسي، دون تباك أو إتعاب حلقي بابتلاع حسرة كسيحة. . نعم لماذا أحيا بعد أن ردمت تلك القامات التي كانت تسعى لهد جبل تعبت صدورنا من حمله. . نعم لا زال السوادي يبسط ظلمه القاتم ويصبح ليلنا ونهارنا، وهذه القرية اللعينة تساعده على أن يمتد ظلمه حتى يبلغ قلوبنا، ويصرف أنفاسنا!!

أحاديث الجدة نوار تداخلني في كل حين، فهي تؤمن أن الذين يعمرون الأرض يرحلون منها مبكرين، وأنا هل حاولت فعلاً أن أمد أعمار من أحببت أم اختصرتها، وخلقت مناحة على رحيلهم، وهل ما قمت به هو محاولة لتعمير الأرض بوقود كان يمكن أن يؤدي دوراً أفضل من الدور الذي ساهمت به. . هل كنت أود بمقتلهم أن تمتد بقية الأعمار؟!. . لا أظن، ها هي القرية لا زالت تذهب للمزار، وتؤمن بجن السوادي، وتتناقل

الحكايات بسرية، وتنتظر مواسم الحصاد النائية، وتشتاق للنمالية، وتخاف من الانتقال لأماكن أخرى خوفاً من أن يراها السوادي هناك. . لم يتغيَّر شيء، وها أنا أقف على عظامهم وهم يتمادون في الغيب، تاركين بقلبي ندوباً غائرة لا تندمل، ولم تعد الحياة قادرة على ردمها، ولم أعد قادراً على مواجهة الحياة ـ هكذا ـ أعزل من كل القلوب التي ظللتني.

العجوز نوار لم أستطع كتمان سرها فسمموها قبل أن يصل صوتها للسر المكنون، فقد تناقل الناس أن هناك شخصاً ما يعرف كلمة تميت السوادي في الحال، فقد ظهر له السيد في المنام وأخبره بخبرها، وأوصاه أن لا يقولها إلاّ إذا أحس بأن الدنيا أظلمت ولم يعد هناك من يقوى على قول الحق. . . ويقولون بأن علاماته شج غائر في أسفل الصدر، ومن يراه يظنه جرحاً وما هو بجرح، ولكنه حروف قبرت بجلده حتى إذا أراد اللّه لها أن تتجمع وتغدو كلمة على لسان صاحبها يطلقها في وجه السوادي فيموت، ولا زال الناس يتوهمون ظهور هذا الشخص مع مطلع كل عام وليس هناك من رجل إلاّ وقد كشف عن صدره، ومن وجد بصدره أي جرح ممتد قتل في الحال، وأتذكر بأنني رأيت جراحاً غائرة تمتد بطول صدر العجوز نوار حينما أرضعتني ذات مرة. . هل كانت هي الشخص الموعود؟ . . وهل كانت تمسك بالسر المكنون؟ . . أذكر أيضاً أنها قبل موتها كانت قد وعدتني بدنو أجل السوادي، وضمتني إلى صدرها:

ـ سنقشعه قريباً من على جلودنا بهذه الحكايات.

قالت هذا حينما قلت لها:

ـ وهل يموت السوادي بحكاياتك؟

فهل تراني شاركتهم في إغلاق فمها للأبد. . أذكر ليلة موتها بأنني كنت أسير بجوار عشتها حينما لمحت ولياً يتربص بفانوسها المختنق حتى إذا أحرقه الظلام وغدت عشتها ليلاً أمرد، مد خطوته لداخل عشتها حاملاً (كوزاً) صغيراً، وغاب للحظات، وخرج يحمل (كوزاً) مغايراً للذي دخل به، كان غائباً عن ذهني أن يقدم السوداي على قتلها بهذه الطريقة، وأين؟!. . في داخل بيتها.

في الصباح فقط سمعت بوفاتها. من يومها داهمني هاجس أن يموت كل من تحبه القرية كي تتحرك للأخذ بثأره، كنت ساذجاً بهذا الظن، اكتشفت هذه الحقيقة متأخراً، كان ذلك في آخر جنازة أشيعها لمن أحب، حين قال أحد المشيعين:

ـ قطفت كل أزهار القرية مع ذلك لا نستطيع إلاَّ العيش بدونهم.

فيما كان نعش موتان تتناقله الأيدي بلا اكتراث.

ومات ذلك العذق الذي قطفته مبكراً، أو شاركت في قطفه فالأمر سيان، ففي النهاية موت كل الأحبة، وبقاء هذه القرية تلوك هواجسها في ظلمة عاتية، وفي خفية من أنفسها!!

كنت قادراً على التسلل إليه في مخدعه، وبقر بطنه بشفرتي الصغيرة دون أن يشعر بي حراسه العتاة.. كنت قادراً على فعل ذلك، وكنت كل ما أخشاه أن يظهر سوادي آخر، لذلك فضلت أن تقوم كل القرية لغرس خناجرها في بطنه حتى إذا ظهر سوادي آخر فكَّر مراراً قبل أن تمتد يده لأحد منا، لقد صدقت العجوز نوار حين قالت:

ـ إن القامة التي لا تنهض لكي تزيل الروث من على هامتها لا تستحق إلاَّ الردم.

وهذه القرية تستحق أن تبقى تحت ظل السوادي حتى لا يبقى نفس واحد يصعد للسماء.

آه.. أيتها الجدة الحبيبة لا زلت معلقاً بكل أحاديثك، معلقاً بكل شيء فيك، وها هي السنون، والموت، والجدب، والمرض، والسيل تقف بيننا، وها أنت تخرجين من قبرك شجرة خضراء، وأنا أسير محترقاً بهذه الحياة لم أعد أقوى على رفع صوتي، أو قامتي أمام كلب السوادي، وأصبحت أكثر ترويضاً من حماره الأعرج، أسير في خط واحد لا أحيد عنه، والويل لي إن خطت عرجتي خطى مبعثرة.. كنت تقولين:

ـ لا أحد يقدر على ترويض الإنسان.

أخبرك أن الكل هنا أصبحوا كالديكة يصعدون إلى مناماتهم وهم

يذكرون نِعم السوادي عليهم، وينبهون الليل باسمه.. فهل تريدين ترويضاً أكثر من هذا؟!

أنبئك أيتها السيدة العظيمة بأنه آن لهذا القلب أن يكف عن خفقانه، وأن ينام كسيراً حزيناً على النوم يخطف منه هذه الحرقة الطافحة.. سأسكت وجيبه بخنجري الصغير، وأدع دمه يتدفق في هذه الأرض الجرداء علّها تنبت قلوباً أخرى قادرة على الركض في هجير هذا الظلم وعبوره.. أما أنا فقد أصابني التعب قبل أن أخرج من هذه النار، وأخفقت من استجلاب الهمم لإخمادها، لذلك قررت أن أموت.. سيجدني المزارعون البله غارقاً في دمائي، وسيقلبون جسدي بأفواه فاغرة، وسيمضون.. وسيقولون عاش مجنوناً ومات كافراً.. ولن يبكيني أحد حتى ليلى التي ظننتها ظلي الأخير لن تتباكى عليَّ، وقد تمط شفتيها بإشفاق على مجنون تعلق ذات يوم بها، أو قد تضحك باسترخاء فاتر كعادتها وهي تقلِّب يدها لهذا العاشق الذي ـ قد تظنه ـ مات لكونها رفضت الاقتران به.. أوه من ليلى لقد أضافت إلى قلبي جروحاً غائرة، كنت سأغدو أكثر احتمالاً لو منحتني حبها، يبدو أنها أشفقت على رجل تتقاذفه الألسن والأقدام، ومن حماقتي ظننته حباً:

ـ إنه الجنون أن تظن أن ثمّة امرأة تحبك يا درويش!!

كنت أهتف لنفسي بهذه العبارة كلما حاولت أن أضعف أمام امرأة ما، فبعد خضرا أغلقت نوافذ قلبي وعشت بعيداً عن ماء المرأة.. هذا الماء الذي كنت أحتاج إليه في أوقات كثيرة.. كانت خضرا فتاة نزقة، طافحة بالحياة، فجسمها يشتكي من ظمأ مبكر، ونظراتها دعوة متوحشة، تقذفها بالوجوه بصفاقة، وتنأى بعيداً عمن يلاحقها، ويكفي أن تتحدث حتى تثير غرائزك، وتدفعك لمطاردتها أينما اتجهت، وهي كفرس برية لا تمل الركض، ولا تمل من (الحرحمة).. كانت خليطاً عجيباً من التناقضات، تدعو وتصد، تقدم وتبعد، رقيقة وجارحة، نائية وقريبة.. وقفت فوق رأسي حينما كان (برمي) يداوي إبهامي المبتورة، وغرست عينيها بوجهي ومضت.. كانت تلك هي الشرارة الأولى التي جعلتني أتعلق بأهدابها، وأركض خلفها لدرجة أنني في أحد المواسم تركت حقول السوادي وتتبعت خطاها، وعندما عبرت قافلتهم

حدود قريتنا، هممت بالمضي خلفها، لولا أن لسانها السليط أعادني. . فقد تناقلت نساء النمالية هيامي بها، وكن يغمزنها بهذا العاشق الذي لا يمل من مطاردتها وتعقب خطواتها، فكانت تبدي عدم الاكتراث، وتعلق على أحاديثهن:

ـ ليس في النمالية امرأة كخضرا فلا غرابة من ملاحقة العيون لها.

وفي ذات يوم حملت إلى أبيها (ظرف) طعام، وأربعة محازم (عجور)، وخرطت جملي بالقرب من (خدروشهم)، فتقدم أبوها معلقاً ابتسامة عريضة على محياه، وغمزني:

ـ أدخل إليها ستجدها ممددة في (شبريتها).

تقدمت وقلبي يخفق، وخطواتي تتراقص، كانت منبطحة على بطنها وقد ارتفع ردفاها كجبلين صغيرين ينسابان لخصر كالسهل المرتوي ينتهي بعنق ممتد، كعنق سنبلة (شاحبي) تسمرت في مكاني حين رفعت رأسها باتجاهي، واكتفت بأن جمعت شعرها المتطاير وعادت تعذب مرقدها بنهديها النافرين، ظللت واقفاً دون أن أسمع منها أي شيء، فشعرت بالذل، وتسللت خارجاً، ليصادفني أبوها:

ـ هل روت ظمأك؟

انطلقت أعدو تاركاً جملي، والشتائم تندلق من فمي بغزارة، واكتفيت بأن ألمحها وهي تعبر الحقول، متثنية أمام المزارعين بجسدها الفائر. في ذات يوم وجدتها تقف فوق رأسي:

ـ هل مللت من خضرا؟

كدت أنهض وأضمها بين أحضاني وأبكي على صدرها، لكنها لم تمهلني كثيراً فبعد أن أطلقت سؤالها تركتني معلقاً ومضت. . فعدت أطاردها، وأقف في وجه من يترصدها. . ففي إحدى المرات وبينما كان (الناصدون) ينصدون الحقول اليمانية جاءت تحمل زنبيلها وتعرض نفسها لكي تقوم بجمع السنابل، فزجرها أحد المزارعين، فأطالت لسانها عليه، ليتقدم نحوها ويلقي بيده على وجهها، لم أشعر إلاً وأنا أحمل (ميهري) وألقي به على ظهر ذلك

المزارع الذي سقط يئن بصوت ثقيل، وقد تصايح المزارعون وأحاطوا بي في حين كنت أهم بأن أواصل ضرب غريمي، فحالوا بيني وبينه، وكاد الأمر يصل للسوادي لولا أن المزارع أيقن من جنوني وخوفاً من أن أتمادى في إيذائه فقد تناسى ما حدث، وتحامل على نفسه ومضى صوب إحدى الاستراحات ليئن بمهل. بعد تلك الحادثة أصبحت قريباً من خضرا، وغدت تصطفيني من بين تلك القامات التي تمد أعناقها لردفيها النافرين كلما عبرت الحقول. وفي ذات ليلة باردة ممطرة، وجدتها تقف فوق رأسي بداخل عريشي النائي عن الحماة، وقد كانت أكثر أنوثة ووحشية، وكانت تحمل فانوساً منطفئاً، مدته إليَّ بإغراء فاحش:

ـ لم نجد في براميلنا نقطة قاز وبنا برد، فهلا أصيب بعض الدفء بقازك.

كنت فرحاً وحائراً، فقفزت إلى برميل القاز وملأت لها صفيحة بأكملها، فانثنت عليها لتحملها، وتقاعست لبعض الوقت حين كنت هائماً بتلك العينين الجارحتين، وعندما رأت ارتباكي وحيرتي، فرت إلى صدري، وصاحت بافتعال قاتل:

ـ البرد قارس. احضني بكل قوة.

فملأت بها صدري، وأجهشت بالبكاء، وظللت ملتصقاً بها أنضح بكاءً يابساً ران بداخلي، لتنفرط في ضحكة شبقة ريانة، واختلست من بين ذراعي، وضربت صدرها بدهشة:

ـ أخبرني يا درويش.. هل أنت عنين؟

ساعتها شعرت أن هذه الفتاة لم تعرف الحب، وأن الرجل لا يبحث إلاَّ عن لهاثها المحموم، ما إن ينتهي منها حتى تغدو بالنسبة له تجربة يود معاودتها أو الإقلاع عنها بعد أن يمنحها شيئاً لقاء تلك المتعة العابرة التي منحته إياها.. كنت لا أزال مرتبكاً، وهي تتمطع أمام وتغمض عينيها نصف إغماضة، وعندما وجدتني ثابتاً أعلق عيني بها بولع دون أن أتقدم صوبها، تهادت بداخل العريش وغمزتني بلسانها مرة أخرى:

ـ أنا لا أحب الرجل البارد.

فاندفعت نحوها غاضباً، ودفعتها للخارج، باصقاً إياها، ولاعناً كل النساء اللاتي لا يعرفن إلاً اللهاث، فلم تقاوم دفعاتي لها، واكتفت بأن مطت شفتيها باستغراب، وشدت على جسدها الناري استعداداً لمواجهة المطر بالخارج:

ـ إن الرجل حينما ينكشف أمام المرأة يفعل أكثر من هذا.

بعدها قررت في داخلي أن أكف عن مطاردتها، أو البحث عن عينيها الشهوانيتين، وأصبحت غالباً ما أقضي وقتي بداخل القرية، وأمر على العاملين بالحقول في أوقات متفاوتة، وقد ساعدني على هذا التغيب، رحيل السوادي إلى قرية بني عياش وذلك لحضور زواج ابن شيخ القرية، وقد سمعت من إحدى عشيقاته بأنه ذهب لرؤية ابنة الشيخ فقد طار خبر جمالها بين القُرى، وقد اغتنمت غيابه ولم أقف فوق رأس العمال مما جعل محصول تلك السنة متدنياً، فقد استغل بعض العاملين غيابي وتلاعبوا في المحصول، وأبقوا كثيراً من العذقة بدون (خبط)(*) وقد ألقوها في (الجرن)(**) وتقاسموها فيما بينهم، عرفت هذا من أحد المزارعين الذين كان يطمع في هبة من السوادي، وأن ينال حظوة عنده، وعندما أبلغني حذرته من إخبار السوادي بهذا وإلاً احتسبه شريكاً لهم، فمضى يلعن حظه ويتمنى لو أنه شاركهم في فعلتهم، كما أن غياب السوادي مكنني من حمل (ظرف) من القمح الشاحبي، ومحازم العجور لأبي خضرا.

بعد انتهاء موسم الحصاد بدأت قوافل الرحل تعبر قريتنا عائدة من حيث أتت، فداخلتني رغبة جارفة في أن أراها قبل رحيلها، وأمضيت وقتاً طويلاً أجاهد هذه الرغبة حتى إذا مرَّ بي أحد المزارعين متسائلاً:

ـ ما الذي يبقيك هنا وكل من بالحقول قد خرجوا لرؤية وداع النمالية.

فلم أشعر إلاً وأنا أطفر (الزبر)، وأركض باتجاه مواقعهم.. كانت

(*) الخبط: دراسة الذرة.

(**) الجرن أو المجران: البيدر أو مكان جمع محصول الحبوب.

قافلتهم قد تهيأت للرحيل، فالجمال تقف بهوادجها، والبعض منها كان يحمل (قعايدهم) وأوانيهم، وكانت الحمير مشدودة وعليها (خروج) مليئة بما اكتسبوه من قمح، أو سمسم، أو قطن، وعدد قليل من الحمير حملت (كدانهم)، وكان بعض الرجال منهمكاً في (حفش) الخداريش لتحميل صربها، وثمامها معهم، وثمة رجال منهم كانوا يحزمون العجور ويسوونه على شدود حميرهم، وبعض من نسائهم كن يجمعن حاجياتهم الصغيرة المترامية على امتداد الأرض التي قطنوها منذ شهور قلائل. . وكانت خضرا بينهم تقفز كمهرة لم تروض تتهادى بدلال جامح بين صبايا النمالية، وتتعمد فضح مفاتنها كلما انحنت لالتقاط فنجان، أو (كعدة) أو أي شيء تصادفه في طريقها، وكانت بمشيتها تلك تدك قلوب من حضروا لوداع حبيباتهم، أو التمتع بمشاهدة رحيل النمالية الذين دأبوا على توديع موسم الحصاد عند رحيلهم بالأغاني والأهازيج، وقد انبرت نساؤهم للرقص على دقات طبول متوحشة، وتقدم بعض المودعين من حبيباتهم مقدمين لهن الهدايا، فتمسك كل واحدة منهن بحبيبها وتراقصه لبعض الوقت ليعود إلى صف المودعين، وبعد أن استكمل الرجال حمل أدواتهم، كانت النساء قد نثرن آخر أغانيهن، وقد ارتقى التعب إلى مفاصلهن التي رقصت حتى غادرت مواقعها، فنادى مناد منهم بأنه حان موعد الرحيل، فتلونت العيون بالحمرة والدموع بين المودعين، وأطلقت إحداهن صوتها بغناء حزين، بعدها دفعوا أغنامهم وأبقارهم، وساروا في خط مستقيم هابطين الوادي، ومتجهين شمالاً، وقد توقف المودعون على جرف الوادي وهم يعلقون عيونهم بهذا السرب المغادر، وأملهم أن تنطوي السنة سريعاً لكي يروهم مع بداية أيام الحصاد، ولم أطق أن أعود دون أن أتمكن من التحدث مع خضرا، فكنت أسير خلف القافلة ببطء، وثمة لوعة مضنية تعبر فؤادي، فتنبهت القافلة لهذا الظل الذي يتبعها، فتوقفت، لأواصل سيري باتجاههم، وعندما رآني (برمي) ترجل من على ظهر حماره وأقبل نحوي متسائلاً:

ـ أبك جرح جديد أضمده لك؟

ـ لا تستطيع تضميد جرحي هذه المرة يا صاحبي.

وقبل أن يستفسر عن ما أقصد، تصايحت النساء:

ـ عاشق خضرا.. عاشق خضرا.

فانبرت من بينهم، لتوغل نصلها بصدري:

ـ إنه عنين لا يقدر على دجاجة، وخضرا فرس لا يروضها إلاً خيل أصيل.

كان منظري يثير الرثاء والنساء يتضاحكن من قولها، ولم أجد ملاذاً سوى الركض صوب القرية.. ليلتها تعمدت إغضاب السوادي، كنت في حاجة للضرب، في حاجة لأن أنزل غضباً، وازدراء كثيفاً عشعش بداخلي، ولكن هذا الثور تغاضى عني لأقضي ليلة سوداء، وكم حاولت تناسيها حتى إذا ذبلت بداخلي، عاد موسم الحصاد وعادت لتطل على الوادي بفتنة طاغية، وتشعل حريقاً بهذا القلب، فحينما رأيتها لأول مرة بعد تلك الحادثة دمعت عيني، فعبرتني كما تعبر (زبيراً) متهدماً. كنت أشعر بالذل كلما رأيتها، فأكسر لوعتي وأشغل نفسي بأمور تنسيني هذه المهرة لا يليق ظهرها إلاً للسادة، أولئك الذين يدفعون أو يمتلكون. في أوقات كثيرة كنت أسأل نفسي:

ـ ماذا تريد منها؟.. جسدها منحتك إياه ذات ليلة ماطرة فرفضت.. هل تبحث عن قلبها؟.. إن فتيات النمالية يعشقن مائة رجل في ساعة.

تلاقينا بداخل الحقول، وفعلت معي كما فعلت حليمة لاحقاً، وعندما سترتها بمدرعتي، أجهشت بالبكاء، وكفكفت دموعها وأنا لا أزال مطأطئاً برأسي أمامها:

ـ ماذا تريد؟

ـ قلبك.

فخرجت من بين الزرع وعادت إلى (خداريشهم) دون أن تنبس بكلمة، وأصبحت أكثر لطفاً مما مضى، فكلما رأتني اقتربت مني، وأشبعت أذنيها بحريق قلبي، وتركتني أتبعها بالنظر والأماني. وفي ذات غروب وبعد أن أنهى (الخباطون) خبط العذقة عبرتني، ولكزتني بمرفقها، وتثنت:

ـ ألا تجد عملاً آخر غير إسماعي لهيب الحب. . ألا تريدني زوجة لك؟

فاجأتني بهذا الحديث، ولم يكن يخطر ببالي أن أصبح في ذات يوم عريساً، ووجدت نفسي أردد:

ـ قريباً سوف أطلبك.

فقفزت من أمامي وهي تتمايل، وترميني بنظرات حارقة، وفي اليوم التالي تحدثت مع (برمي) بهذا الخصوص، فتعجب من طلبي، وأفهمني أن نساء النمالية قلما يبقين عند رجل واحد، فرجوته أن يكون وسيط خير بيني وبين أبيها، فأفهمني بأن ليس هناك ما يدعوني للإرجاء فباستطاعتي مداخلة أي امرأة من النمالية بدون وساطة ما دام هناك استلطاف فيما بيني وبين غريمتي، ولكنني أصررت عليه، فطلب مني الحضور في المساء، عدت جذلاً أمني النفس بحلم الاقتران بامرأة. . هذا الجنس الذي لم يكن لي به صلة قط، وأخذت أتهيأ لذلك، ورأيت أنه من العيب أن أمضي إليهم بمفردي، ولم أجد أحداً أحدثه بهذا سوى عبد اللّه الشاقي الذي سرعان ما أخبر جدته التي وقفت في وجهي ورفضت أن أتقدم لخطبة خضرا، ولأول مرة أغلظ لها في القول وأجابها بكلام لا تحبه، عندها فقط تركتني وهي تلعن النمالية، ونساءهم، وقد رفض عبد اللّه الذهاب معي، وعندما أصرَّ على ذلك طلبت منه أن يعيرني (حوكا) و(مدرعة) وكوفية مقصبة، وقد تركت عشة الخدم من وقت مبكر، وأوصيت أحد الخدم بإخبار السوادي بأنني سأكون بين الحقول لحماية سنابلها من المتسللين بالليل، ومضيت بعد أن دلقت على جسدي (بلبلة) من الماء العذب، وارتديت ملابس عبد اللّه، ووضعت على خاصرتي جنبية حضرمية سرقتها من بين جنابي السوادي، ومضيت صوب (خداريش) النمالية، فوجدت (برمي) في انتظاري وذهبنا سوياً إلى أبي خضرا، وقد فاجأه طلبي، ولم يزد على قوله:

ـ كم يدفع؟ فخضرا كنز لا يقدر بثمن.

ولا أدري كيف انطلق لساني فجأة:

ـ محصول ثلاث (جلب).

وشعرت بفداحة مقالتي بعد أن انطلقت من لساني، فأنا لا أملك في هذه الدنيا سوى جسدي الناحل حتى هذا الجسد يعده الناس ملكاً من أملاك السوادي، وقبل أن يعلن أبوها موافقته، خرجت إلينا وهي أكثر فتنة مما مضى، ووجهت حديثها نحوي:

ـ سمعت بأنك مجنون ولكن هذا لا يهمني، الذي يهمني أن توافق على شرطي.

ـ وما هو شرطك؟

ـ أن لا تمنعني من أحد، فأنا ملك للجميع!!

ـ أوتظنين بأنني مجنون بالفعل؟

ـ هذا هو شرطي.. إذا أردت فمرحباً، وإذا لم ترد كف عن مطاردتي.

كانت عيناي تركضان بين أبيها وبرمي، علَّ أحدهما يبقر بطنها، أو ينهرها بجفوة، ولكنني لم أجد في سحنتيهما أي تعبير، فانطلقت عائداً إلى عريشي، وقررت في داخلي أن أنساها تماماً.. وبعد سنوات من هذه الحادثة سمعت بأنها ماتت على إثر لدغة أفعى، كانت قد نامت على نجاسة، فصعدت إليها أفعى ولدغتها فماتت بعد ألم مضني. وتروي نساء النمالية أن الأفعى استكانت بفرجها حتى إذا ناشها شبقها فزعت الأفعى ولدغتها، لذلك لم يفلح معها كي، ويقولون بأن الأفعى كانت عبارة عن مارد من الجان فتن بها، وكان يأتيها ليلاً، فتشعر بلذة طاغية، وعلمت بأمره، وعاهدته أن لا يطأ فرجها سواه، واستمرت معه فترة طويلة، وفي تلك الليلة حنت لعشيق لها كانت قد انقطعت عنه منذ زمن، واغتنمت فرصة غياب المارد وذهبت إلى عشيقها السابق، وعندما عادت لم تجد ماء لتغتسل، فنامت على جنابة، وجاء المارد وأراد أن يتقمصها فلم يستطع، وعلم بأنها خانت عهده، فاستحال إلى أفعى، وتسلل إلى فرجها، ولدغها، وعندما قام بفعلته تلك ندم، ولم يستطع إنس ولا جان أن يشفيها، واستشرى السم بجسدها يمضغه بنهم، فظلت تتألم وتقاوم تلك الآلام المبرحة حتى غدت لا تقوى على البكاء، فقد تساقط لحمها وتفتت.. وروت لي شجرة ابنة برمي أن خضرا

ندمت ندماً شديداً لعدم اقترانها بي، وأقسمت بأنها سمعتها قبل أن تزفر آخر أنفاسها تقول لمن عندها:

ـ إذا بلغتم قرية أبو قضبة اطلبوا من درويش أن يسامحني.

عندما بلغني خبرها بكيتها كثيراً، وأقسمت بأنني في يوم ما سأزور قبرها، ومضت الأيام وأصبحت خضرا أثراً لجرح عميق اندمل، وبقي ليذكرني بأول امرأة في حياتي ودفنتها في داخلي ونسيت المرأة تماماً، حتى إذا انتقلت لخدمة ولي أعادت ليلى ما قد قررت أن أنساه، وقد تغلغلت إلى داخلي في غفلة مني، فحينما انتقلت للعمل بدار أبيها، كانت ـ هي ـ محط شماتة أهل القرية، فقد تناقلت النساء أحاديث مطولة عن فجورها، ويقولون بأنها كانت تسرب عشيقها إلى مخدعها بعد أن ينام كل من بالدار وتمنحه لذة لا تمنحها امرأة لزوجها، وقد انتشر خبر فقدانها لبكارتها من وقت مبكر، ويقولون إن عشيقها بعد أن نال وطره منها هرب خوفاً من أن يقتله أبوها، وخلف لها عشقاً يأكل الفؤاد، ومضى بعيداً، وآخرون يبرئونها من كل ذلك ويقولون:

ـ لقد أصابتها عين فحجبت.

والغريب في الأمر أن أول من نشر حكاية عشقها، كانت خميسية، وهي ـ أيضاً ـ التي خرجت لأهل القرية بحكاية مرضها.. كانت الألسن تقتاتها صباح مساء، ولم أكن أعبأ بها، وعندما انتقلت إلى دارهم راعني منظرها، فقد ربطت مع إحدى الأبقار رجلاً برجل، وكانت متجهمة الوجه، رثة الملابس، غائرة العينين، هزيلة تكاد تتلاشى، ووجهها ذاوٍ كعذق القمح الأبيض أو كـ (جزة) قديمة، وقد استقرت أسفل عينيها خطوط سوداء تشي بأنها صاحبتها لم تنم منذ وقت طويل، ومن أول وهلة شعرت بأن عينيها تعدان لي شركاً لا فكاك منه، هذا الشرك الذي أحسست بداخله بخدر لذيذ يتدفق بأرض قلبي الجدباء، فتخليت كثيراً عن تذمري، وأخذت فرحة طفولية تعبر أوردتي، وتحيلني إلى إنسان جديد في كل شيء، فلأول مرة أهتم بهندامي، وانظر في المرآة بين حين وآخر، في خلسة من العيون.. كان ثمة حلم غض ينمو بداخلي، في أول مرة رأيتها مربوطة مع إحدى الأبقار،

تجرأت وفككت قيدها، يومها ثار (ولي) وصفعني على وجهي، ولكنني لم أرتدع وواصلت عنايتي بها، فأوكل إليَّ تدبير شؤونها. كانت رقيقة لدرجة أنها خلقت بداخلي وهماً كبيراً، اسمه الحب. . كانت تجالسني وتسمع أشواقي التي كنت أدلقها على مسامعها، وهي راضية، وقد تطلق ابتسامة ناضجة، حينما أتحدث عن أمنيتي في الاقتران بها. . وقد شجعتني هي على ذلك، كان ذلك عقب رحيل حسن عيسى، فقد أحبته بكل خلجة من كيانها، وكان فتىً وسيماً، مغرماً بنفسه، وقد أخبرتني بأنها كانت تلتقي به عند (طاحونة الهواء) المحاذية للقلعة من الجهة الشرقية، وإذا تعذر عليهما اللقاء كان يمر ليلاً من جوار دارها ويصفر بحدة، حتى إذا رأى حجراً يقذف من فوق «سجفهم» رضي وعاد إلى داره مطمئناً عليها. . كان حسن من خيرة شباب القرية ولم يكن يعيبه إلاّ فقر مدقع حتى إنه كان يبادل أباه في ملابسه، وكان أحدهما يخرج نهاراً والآخر يخرج ليلاً، وكان حسن رجل مطوال تضيق عليه ملابس أبيه، فكان يحشر جسده الفارع بـ (مدرعة) أبيه فيبدو كأحد الشحاذين العتاة حيث يظل صدره العريض مكشوفاً، ويصل (الحوك) إلى فوق الركبة بقليل، مع هذا لم يكن يخجل من هذا الفقر، ويقولون إن جده كان من ذوي الأملاك، وقد باعها جميعها لسداد دية عليه، فقد قتل شيخ بني جابر بالخطأ حيث انفلت منه زمام جواده، وأخذ يعدو بقوة، فاعترضه شيخ بني جابر فعاثت أقدام جواده بأمعاء الشيخ، وقد طلب فيه أهله دية باهظة كلفته غالياً، باع جميع ما يملك سداداً لهذه الدية، ومات كمداً حينما وجد نفسه معدماً، لتعيش عائلته من بعده في فقر مدقع، وقد قام ابنه عيسى بالعمل جمَّالاً يحضر الأثل والثمام من الخلاء ويبيعه لأهل القرية، وقد باع بيت أبيه الذي كان يأوي أسرته لكي يشتري ذلك الجمل، وابتنى لأسرته خدروشاً في أطراف القرية، وقد أخرج ابنه من الكتاب لكي يساعده في تقطيع الأشجار، وفي بعض الأحيان يركبه على الجمل ويدفع به إلى السوق لبيع حمولته هناك، وقد ارتبط حسن بليلى منذ كان يدرس معها في الكتاب، فقد كان يجاورها في المقعد وفي أوقات كثيرة يوكل إليه السيد عبده تحفيظها القرآن، وقد كانت تغضب منه حينما يخبر المعلم بعدم تمكنها من حفظ السور الواجب حفظها،

وفي إحدى المرات أخبرت أباها بما يصنع معها فما كان من (ولي) إلاَّ أن جاءه وسحبه من بين زملائه وأمر أحد عبيده بجلده، وخاب ظنها فقد كانت تمني نفسها أن تراه باكياً، فبعد أن تلقى عشر «قشعات» من عبد أبيها عاد إلى مكانه وكان شيئاً لم يكن، ولكنه امتنع عن تحفيظها فيما بعد، وأصبح يقتعد آخر مكان في الكتاب، ولم تطق ليلى هذه المعاملة فعادت إليه تسترضيه، ومن يومها أصبحا متعلقين ببعضهما. فجأة اختفى وحيرها باختفائه المفاجئ، وتجرأت وأخذت تسأل عنه فلا تجد جواباً شافياً فظلت تتلظى بعشقها بصمت. وفي ذات يوم كان ثمة جمَّال يقوم بـ (تخريط) أثل لعشتهم المهدمة، ولم يكن هذا الجمال يبرح مكانه حتى ينادي بأهل الدار طلباً لشربة ماء، فيلبي له الخدم ما يشتهي ولكنه كان يمعن في طلباته حتى إذا خرجت عليه وجدته كما عهدته من قبل. . دقيق الملامح غني الملاحة وافر الابتسام، ارتبكت لرؤيته، وبعد أن تمالكت نفسها أمرت الخدم بالانصراف وعرفت منه أن أباه حملهم في الليل وغادر القرية خوفاً من الثأر فقد قتل واحداً من بني النجار، حين اعتركا على (هيجة) كان كل منهما يزعم بأنه يحتطب منها، فما كان من أبي عيسى إلاَّ أن هوى بـ (ميهره) على رأس ابن النجار ففلقه، وتركه جثة هامدة، وغادر القرية ليلاً إلى إحدى القرى القابعة أسفل الوادي، وقد أقسم بنو النجار أن يقتصوا منه، ومن ذريته، وقد أعلمها في تلك الزيارة أنه جاء مودعاً، وقد ذرفت دموعاً غزيرة لكي تثنيه عما عزم عليه، ولكنه تركها بعد أن تخلص من يدها المتشبثة به، وغادرها بعد أن خلف لها جرحاً كبيراً، وقد صرحت على مسمع من إحدى بنات القرية لتقوم تلك الفتاة بنشره بين النساء، وعندما علم أبوها بذلك أمر بأن تربط مع الأبقار وأن يمنع عنها الزاد، وأقسم بأن يزوجها لأقرب رجل يطلب يدها حتى وإن كان زبالاً.

في البدء أشفقت عليها، فكنت أخرج أجوب القرى الواقعة أسفل الوادي علّني أجد حسن وأقنعه بحملها معه حتى وإن رفض أبوها ولكن بحثي ذهب سدى إذ لم أعثر عليه في أي مكان من تلك القرى.

في إحدى العصاري وبينما كانت عائداً من الحقول وشوشت لي في أذني:

ـ كم أحبك يا درويش.

ساعتها شعرت بأنني غدوت جميلاً، وأن قامتي غدت جبلاً ضخماً، ففردت صدري وملأته بالهواء المشبع برائحة الفل المنبثق من جيدها المتعالي، وثمة فرح عارم يخترق كياني، ولم أكن لأجرؤ على التحديق بعينيها واكتفيت بالنظر إلى البعيد حتى إذا أعادت جملتها على مسامعي لم أعرف بماذا أرد عليها، ولم أجد نفسي إلاّ وأنا انطلق راكضاً دون أن أعلم إلى أين تحملني قدماي.. كانت جميلة في تلك الساعة كما لم تكن من قبل، فقد كانت مخضبة بعفص يماني، وقد تدلى من عنقها فل فاتش، وتراخت غرتها على مفرق رأسها مبدية جبيناً بلورياً ناصعاً، وقد ضفرت جديلتها حتى بلغت أسفل ظهرها، وربطت على رأسها (مصراً) أخضر.. كانت منتشية، ومقبلة على الحياة بنزق العذارى اللاتي أفقن من خدر الخجل الطويل، ولم يكن ليحدث هذا لولا تلك الحكاية التي حكيتها لها، وانطلت عليها بعد أن برهنت لها على كل كلمة تفوهت بها على مسامعها، كان يحزنني، ويكدر خاطري كلما جئتها ووجدتها تبكي حبيبها الذي رحل، وكنت أشعر بالغيرة تحرق داخلي وتحيلني إلى فحم أعيد للتنور لكي يشعل ناراً جديدة فلا يخرج منه إلاّ دخان كثيف. وبينما كنت أبحث عن حسن بين القرى الواقعة أسفل الوادي، خطرت ببالي حكاية عجيبة، فقررت أن أرويها لها عسى أن أحرق هذا الحبيب الذي ينازعني فيمن أحبها، وكما هي العادة ما إن خطوت بقدمي داخل الدار حتى وجدتها منتصبة، تتلقفني بتلهف:

ـ هه بشر.. هل من أخبار عن حسن؟

فتصنعت الحزن العميق، وظللت واجماً وبعد أن ناشتني مراراً، أخبرتها بأن أهل قريته وجدوه مقتولاً بين (الهيج) فشهقت شهقة ظننت أنها فارقت الحياة بعدها، ولا زلت بها حتى عادت إلى رشدها، فأكملت حكايتي.. ويقول أهل قريته:

ـ بأنه كان فتىً مغرماً بنفسه، لا يقيم حرمة، ولا يحافظ على عرض، وقد عجلت خصاله هذه بدنو أجله.. فقد كان زير نساء، كل ليلة يرقد في حضن امرأة، وقد قادته الظروف لامرأة أحد العطارين الذين يجوبون الأسواق

المتناثرة على امتداد الوادي، فما إن يغادر زوجها القرية حتى يتسلل حسن إلى مخدعها ويقضي ليلته بين أحضانها. وفي ذات ليلة كان العطار في سوق بالقرب من قريته، فمال إلى أهله، وقبل أن يدخل داره لمح جملاً يبرك بعرصة الدار، وعندما مدَّ خطوته لداخل عشته وجد زوجته بحضن حسن، والذي تمكّن من الإفلات منه، وانطلق يركض مخلفاً جمله، مما مكّن العطار من أن يسأل عن صاحب الجمل حتى تعرف على غريمه، وظل يترصده حتى تمكّن منه في إحدى المرات، فأخرج جنبيته التي نقعها بداخل إناء مليء بالسم، وما إن دسها بظهر حسن حتى أسلم الروح في الحال.

كنت وأنا أسرد حكايتي أختلس النظر إلى وجهها المتقع، وقد ذبل فيها كل شيء إلاَّ دموعها المنسكبة، وبعد أن أتممت حكايتي، غرقت في موجة بكاء حادة لم أعرف معها كيف أسكتها، فبقيت واقفاً أمامها وهي تستمطر دموعها بنحيب فاجع، فشعرت بكره عميق لحسن، وتمنيت لو أنني أعثر عليه لأميته ميتة لا تخطر بخاطر أعتى المجرمين، وبينما كنت على هذا الخاطر صرخت فيَّ:

ـ هذه ليست طبائع حسن.

وطالبتني أن أقسم على صدق تلك الرواية فلم أجد بداً من الحلف، ولكنها لم تقنع فكظمت غيظي، وبصوت مرتفع حاولت جاهداً أن يكون حازماً:

ـ لقد مات وعليك أن تقتنعي بذلك.

ـ حسناً.. متى قتل؟

ارتبكت وبدون تفكير قلت:

ـ قبل خمسة أيام وقد غادرت قريته وهم يغسلونه.

ـ لحسن خال كبير بأذنه اليسرى، ولن أصدق ما تقول حتى أرى هذه الشارة.

ـ ولكنه مات.

ـ تستطيع نبش قبره!

فجأة وجدت نفسي أمام تحدٍّ كبير، ولكي أصل إليها لا بدَّ من قتل غريمي بقلبها، حتى إذا سلته وجدتني بجوارها. فوافقتها على ما أرادت، وخرجت أجوب الأسواق القريبة والبيعدة عن القرية، وكنت خلال بحثي المحموم أتأمل آذان الرجال، كان منظري وسؤالي عن رجل له شامة بأذنه اليسرى يؤكد جنوني، ولا زلت أجوب الأسواق حتى عثرت على رجل له أذن بشامة، فظللت أتربص به، ولكنه لم يكن متسوقاً بل بائعاً فقد افترش أرضية السوق وجلس خلف بضاعته ذات الروائح المختلفة والنفاذة، ومن المصادفات أن هذا الرجل كان عطاراً، يترك قريته بالأيام وهو يتنقل بين الأسواق المقامة بالقرى الواقعة على امتداد الوادي، وعندما رأيته لا يبرح بضاعته، ويجلس خلفها بصمت تاركاً عينيه تتابعان المتسوقين بلا اكتراث، فأخذت أسأل عنه، وبعد جده جهيد علمت بأنه يقطن بأعلى مناطق الوادي ارتفاعاً، وكان الطريق المؤدي إلى القرى المرتفعة طريقاً واحداً يسلكه كل من أراد الصعود لتلك القرى، فتركته بالسوق، وتوجهت إلى ذلك الطريق أنتظر مجيئه، وقد طال انتظاري حتى يئست من مقدمه، وفقدت الأمل من إطلالته، فانحدرت وأنا ألوم نفسي على التفريط بمراقبة الرجل وتتبعه إلى حيث يذهب، وقد جزمت بأنه انتقل ببضاعته إلى قرية أخرى استعداداً لسوق جديد، وأخذت أفكر إلى أي الأسواق يمكن أن يتجه، وبينما كانت (أتصبب) من تلك المرتفعات الخفيضة رأيت دابة تصعد ربوة بصعوبة وتقاعس، وقد استقر على ظهرها من فقدت الأمل في مجيئه.. فلبدت بين أشجار (الرين) حتى إذا عبرني قفزت عليه، وغرست خنجري بظهره، فأرديته قتيلاً، ودفعته إلى أسفل الربوة بين أشجار كانت تحف بالطريق وتتداخل ببعضها لتنتهي بـ (مساني) الباميا والملوخية. هناك جززت له أذنه، وانطلقت راكضاً، وبعد أن قطعت مسافة قصيرة، تطلعت للأذن التي بين يدي فرأيتها خالية من الإشارة التي طلبتها ليلى، وقد ظننت أنني أخطأت الرجل، فلعنت هذا الحظ المعاكس، وهممت بمواصلة السير ولكن شيئاً ما حفزني للعودة وتفقد من قتلته قبل لحظات، فعدت أدراجي إلى هناك ولكن بحذر شديد، وكنت أسير محفوفاً بأشجار (الرين) وحشائش الحلفا، وعندما

بلغت ضحيتي وجدته كما تركته منقعاً في دمائه، لم يعتري هيئته أي تبديل سوى أن ملامحه أصبحت أكثر تقطيباً عما تركتها عليه، ففمه مزموماً عن صرخة لم يكتب لها مغادرة ذلك الفم الضيق، وعيناه أطبقتا على ألم حاد باتر، كان بكمره مال كثير فلم تمتد إليه يدي، وبعد تقليبه اكتشفت بأنني قطعت له أذنه اليمنى، فأسرعت بتلمس وتفحص أذنه اليسرى فلمحت تلك الشامة المسترخية بترف في تجويف أذنه، فمددت يدي إلى خنجري وقطفت أذنه، وانطلقت عائداً إلى ليلى. . في الطريق تنبهت لحماقة كادت توقعني وتفضح ما قمت به، فقد كان عليّ أن أتغيب ليلتين أو ليلة بنهارها على أقل تقدير لكي أكون صادقاً عندما أخبرها بأنني قادم من القرى الواقعة بأسفل الوادي، وكان لا بدَّ وأن تكون الأذن أذن ميت كأن تكون مهروسة وعليها آثار دفن وروائح موتى، أو أن تكون متفسخة تبث نتانة القبور، فتريثت وقطعت قطعة من (حوكى) وملأتها بالتراب ودفنت الأذن بها وربطتها جيداً، غرزتها بكمري، وقررت أن أقضي تلك الليلة بين (المساني) خاصة وأنا أشعر بالجوع فملت إلى (مسنى) للبطيخ وانتزعت من أرضيته (فرقوصاً) ومسحت خنجري من آثار الدماء العالقة به، وقطعت (الفرقوص) وجلست آكله بهدوء. فجأة قفز إلى خاطري إمكانية أن يعثر عليَّ أهل القتيل ويجدوا أذن صاحبهم معي ساعتها لن أقدر على النجاة، فنفضت مؤخرتي وانطلقت مبتعداً عن موقع جريمتي، وقد قضيت الليلة بالقرب من قريتنا، حتى إذا هطلت الشمس بأشعتها الحارقة انطلقت إلى إحدى (المطينات) القريبة من الوادي ونزلت أغتسل، وأخذت ألهو من مكان لآخر وعندما حان وقت صلاة العصر دخلت إلى القرية، ونثرت ما بـ (حوكي) أمامها، فتناولت تلك الأذن وأخذت تقلبها بمهل، حتى إذا استوثقت منها صرخت بأعلى صوتها، وأخذت تنتحب بحرقة، فتقافز الجيران لهذه الصرخة، وكل منهم يسأل:

ـ ماذا حدث. . هل مات لكم أحد؟

فاستقبلتهم زهرا، ومنعت فضولهم من أن يمتد بعيداً، فقالت لهم:

ـ ليس هناك من شيء سوى أن ليلى مريضة، وتحتاج إلى سيد كي يقرأ عليها.

ومن حسن الحظ أن ولياً كان متغيباً، فقد انتدبه السوادي ليقوم بذرع الأراضي المتنازع عليها بين قبيلتي الحجاورة وبني عمر. . كانت ليلى في حالة يرثى لها، وقد تكومت حولها النساء، يقلبنها ويسألنها عما تشتكي منه، فلم ترد عليهن، مما جعل إحداهن تهمس لجارتها:

ـ هذا ليس بكاء مرض بل بكاء عشق.

ويبدو أن تلك الجملة وصلت لليلى، التي لم تتوان في قذف جميع الحاضرات بأبشع النعوت، وتطلب منهن مغادرتها، فخرجن من عندها وهن يلمن أنفسهن ولم تفلح اعتذارات زهرا في التخفيف عنهن، والحقيقة أن ليلى بدت فظة لا تطاق، فبالإضافة إلى شتائمها المتكررة فقد اتهمتهن بدس أنوفهن فيما لا يعنيهن، وتجاسرت ولطمت إحدى السيدات عندما أرادت أن تغسل لها وجهها، ويبدو أن كبرياءها وصلفها ساعدا تلك الألسن على أن تمضغ سيرتها بما تكره.

في الليلة نفسها أقدمت ليلى على عمل متهور كاد يودي بحياتها، وكدت أعترف لها بكذبتي، ففي تلك اللحظة لم أكن مهتماً بشيء قدر اهتمامي بأن تظل ليلى على قيد الحياة، فبعد انسحاب الجيران من حولها بقينا ـ أنا وزهرا ـ بجوارها وكل منا يطلق كلمة مواساة، فيما كانت صامتة من كل شيء إلاً من دموعها التي كانت تنحدر بغزارة، فتكفكفها بنشيج متقطع، وقد مكثت معهما لوقت طويل حتى أمرتني زهرا بأن أتوجه إلى عشتي لأخذ قسط من الراحة، فغادرتهما وأنا أوصيها بليلى خيراً، وقد كان منظري ـ وقتها ـ مثيراً للضحك، فودعتني زهرا وهي تذكرني بنفسها:

ـ أنسيت أنها ابنة عمي وأختي التي ليس لي في هذه الدنيا سواها؟

فتركتهما ومضيت لعشة الخدم، وتوسدت (شبريتي)، وحاولت إغلاق عيني المفتوحتين، كنت أتململ في مرقدي بضيق، وثلة من الخواطر الموحشة تعبر مخيلتي بلا هوادة. . لا أدري كم مضى من الوقت وأنا على هذه الحال، فقد تنبهت لخطوات تقصد عشة الخدم بحذر، وتدور في أطرافها بحثاً عن شيء ما، تنتقل من مكان لآخر بقلق وتوتر، فقفزت من مرقدي لتلتقي

أعيننا . . كانت عيناها منتفختين، وصوتها مبحوحاً، وعندما رأتني أتطلع إليها باستغراب صرخت في وجهي بصلف:

ـ أين تضعون الكبريت؟

فمددت يدي خلف (المركن) وناولتها كبريتاً، فاختطفته بعجلة، وخرجت مسرعة، فتبعتها.

كانت تفوح منها رائحة نفاذة لقاز صب للتو، وعلى ضوء الفانوس لمحت رأسها، وملابسها مبللة، فتبعتها بحذر، فيما كان القمر يتوسط السماء بتوهج فاضح، مما مكنني من متابعتها ورصد تحركاتها بوضوح . . كانت تسير بتخاذل واستسلام، وعندما بلغت عرصة دارهم أخرجت عود ثقاب و(شخطت) فلم يشتعل . . (حجبت) بيدها الهواء وأعادت الكرة، فانبثقت منه شرارة لم تستكمل نموها وانطفأت في الحال، وقبل أن تكرر محاولتها الثالثة كنت أحيط بها وأمنعها من مواصلة المحاولة، فأشبعتني لعناً وتهديداً، وحمدت اللّه على مجيء زهرا التي تمكّنت بعد جهد أن تخمد غضبها، ولا زلنا بها حتى تراجعت عما عزمت عليه . . في الأيام التالية كانت تجلس صامتة، وإذا داهمها حزنها انفرطت بـ (تجيح) يقطع نياط القلب، وتظل على هذه الحال لوقت طويل دون أن تثنيها تحذيرات زهرا من أبيها الذي قد يسمع بها ويعيدها إلى مربط البقر. وفي تلك الأيام تركت كل شيء وجلست بجوارها أحدثها وأسلي عنها، وكانت في كل مرة تطلب مني أن أصف لها قبر حسن، وكيف طاوعتني نفسي للدخول إلى قبره وانتزاع أذنه، وفي إحدى تهيجاتها قذفتني بفنجان القهوة فشجت هامتي، ونز دم أسود أخذ يتقطر ببطء، وعندما رأتني ساكناً أمسح دمي ودموعي، اقتربت مني تتفحص جرحي، وقامت بإحضار بن وردمت ذلك الجرح، ومن يومها وهي تعاملني معاملة حسنة حتى نفرت من لساني عواطفي، فاستلقت ضاحكة ولم تنهرني فكنت في كل يوم أزداد جشعاً وأتمادى في نثر هيامي على مسامعها وعندما استطال حلمي، وأصبحت أمني النفس بغد جميل، أيقظتني منه فجأة، لأتأكد بأنني خلقت لكي يتلهى بي الآخرون وقت احتياجهم إلى من يسري عنهم هماً لحق بأفئدتهم، عندما قالت:

ـ كم أحبك يا درويش.

لم أصدق أذني حتى إذا أعادتها انطلقت للخلاء أوشوش الأزهار، وألاحق الفراشات، كنت أشعر بأن جناحاً يحملني ويطير بي للبعيد. . كان غباءً فادحاً حينما ظننت أنها بالفعل تعشقني، عرفت بعد عودتي. . وبعد أن دفعت بعبد اللّه للسيل، كنت عائداً وثمة فرحة عنيفة تهز قلبي، سوف تخرج القرية للأخذ بثأر عبد اللّه، وسوف ينكسر ولي وآخذ ليلى التي أحبتني. . كنت أسير وأحلام حمقى تختال برأسي الفارغة، كانت الصدمة عندما رأيت النساء يزغردن بحبور، إلى تلك اللحظة وأنا لا زلت متوهماً بأن ليلى قطفت من فم أبيها الموافقة لكي تقترن بي، فانطلقت مسرعاً للداخل لتمنعني بعض النسوة:

ـ ألا تستحي هناك نساء. . تراجع.

وحدثتني نفسي:

ـ أنت العريس. . لا بدَّ وأن تظهر متزناً.

وعندما رأيت وسخ الحقول لا زال عالقاً بي، دخلت إلى الدارة ودلقت (بلبلة) على رأسي، والزغاريد تعبث بداخلي وتحيلني إلى فارس ليس له مثيل، فخرجت وأصلحت هندامي، وتناولت عصا هشيت بها أمامي وتبخترت. في طريقي كانت النساء بين غاديات. ومقبلات، وفي تبختري كدت أصطدم بإحداهن التي صكت على وجهها، وتمايلت بدلال وحدثت التي تجاورها في مشيتها:

ـ يبدو نظيفاً اليوم!!

فردت عليها جارتها في الخطوة:

ـ أليست العروس ابنة عمه!!

فشعرت بقلبي يسقط للأسفل، وبعد ذلك اتضح لي بأن كل حياتي كنت أسير بها في اتجاه معكوس. . علمت بأن علياً بن الشريف تقدم لخطبتها، وقد أقسم ولي أن يكون عقد قران، وليس خطبة، وفي لحظة أصبحت في العراء، كنت أعزي نفسي:

ـ النساء كالشجيرات الصغيرة. . مهما عانقت الأرض فهي تعشق الاستظلال بشجرة كبيرة تقيها من أشعة الشمس المحرقة.

وقد أوهمت نفسي طويلاً بأن ليلى زفت لعلي غصباً عنها، ولم تكن بي رغبة في أن أصدم في هذا الخاطر أيضاً، فتركت دارهم وبقيت حارساً على حقول ميتة، ولم يعد لي من حلم سوى أن أمشي بجنازة السوادي.

* * * *

كم أنا وحيد، أطلقتني الحياة نطفة واحدة، وأخذت تلهو بي، تمدني حتى تبلغ بي. حدود الموت، وتعاود جمعي في حفنة تراب، وأنا ـ في الحالتين ـ أبحث عن التوحد. . أبحث عن من ومع من؟!. . ليتني كنت قادراً على قهر هذا الظلام. . يخيل إليَّ أنني لو استطعت عبور هذا الظلام سأكون سعيداً بتلك الأحداث التي عايشتها، وسأكون فخوراً بهذه الجروح التي يحملها جسدي، وقلبي.

ما يعذبني هو شعوري بالوحدة، فأنا أحلم وحيداً بالخلاص من براثن هذا الكلب العقور. فيما سبق عملت على تحريض كل من أصادفه كي يعينني على الخروج من تحت بساط السوادي، فلم أكن أجد منهم إلاّ الإعراض، والخوف من أن يعلم سيدهم بما وسوست لهم، وكانت الغالبية منهم تتجاسر وتخبر أعوان السوادي بما أسررت لهم، فيبلغوه بما سمعوا، ولا أدري لماذا كان يتغاضى عن جز هامتي التي ملت الصراخ بهؤلاء النائمين، وقد أمعن في ترسيخ جنوني لدى الأهالي حتى غدت كلماتي مثار تندر، وسخرية. . طوال السنوات الماضية كنت أبحث عمّن يشاركني هذا الحلم، في السجن وجدت أناساً كثيرين يحلمون بما أحلم، ولكن حلمهم كان يقف عند أمنية أن يأتي الموت مختاراً لقطف أنفاس السوادي، هذه الأمنية التي تتعارض مع حلمي. . فحلمي يسعى إلى جعل الناس تخرج وتجز هامته دونما وجل كي لا يخرج علينا متسلط آخر، وهذا ما كان يجعلني أخوض الخصومات مع أولئك الحالمين الذي ينتظرون حلماً بائساً، شاب في داخلهم، وظلوا يتذكرون أيام شبابه بحسرة، ولم يملوا الانتظار علّها تحدث

المعجزة. . كان شبرين أكثر مقدرة على التعامل مع ما حوله، عندما عاد إلى القرية كنت أسير خلفه أينما اتجه، ولم أكن أعرف عنه شيئاً، وكان في داخلي خاطر بأن أستغل هذا الغريب كي يثأر لابنة عمه، وكنت أسعى إلى تغيير وجهته نحو السوادي، وتيقنت من غبائه حينما قيد إلى القلعة بتهمة قتل ابنه عمه وبث المنكر بداخل القرية، يومها ندمت على تلك الأيام التي قضيتها خلفه، وأحسست بالكره نحوه، وعندما تقابلنا بداخل القلعة كنت أكثر حقداً عليه حينما كان يخضع ويتذلل لمحروس، ويسمعه أجمل النعوت، وكدت أن أمرر قيدي على حلقه أثناء نومه محتجاً بتلك النوبات التي كنت أختلقها للهرب من عذاب السوادي، وكنت على وشك أن أفعل ذلك لولا أنني كنت أخشى أن يعيقني عبد اللّه وموتان اللذان يشاركانني سلسلتي، ومع ذلك كنت أبحث عن وسيلة تريحنا من هذا المتخاذل حتى بداخل القلعة. وفي إحدى المرات كانت رأسه تترجرج بالقرب مني فقد كان يغط في نوم عميق، فيما كان زميلاه يهشان الخفافيش عنه، وصادف أن كان دوري في الاسترخاء، وفكرت بالتقاط حجر غليظ لأهشم رأسه مقنعاً نفسي بأنه لن يراني أحد في تلك الظلمة العاتية، وقد هممت بفعلتي تلك، وأخذت يدي تبحث عن حجر يمكن أن يسكته في الحال دون الحاجة إلى ضربات متعددة، وكنت كلما ابتعدت بيدي باحثاً عن ذلك الحجر، سحبت يديّ عبد اللّه، وموتان، ومحدثاً صلصلة تنبه هذا المرائي ـ هكذا كنت أظنه في البدء ـ، أمسكت بحجر ثقيل، وتأكدت أنه قادر على جعل مخه يتناثر بيننا قبل أن يستطيع أحد جمع دمائه الشاخبة، وقبل أن أهوي على رأسه بذلك الحجر، نهض من رقدته، مفسحاً لأحد زميليه بأن (يهجع) قليلا، فكظمت غيظي، وأقسمت على قتله مهما كلفني ذلك. . وفي إحدى المرات تمكّن أحد المساجين من قتل عقرب كان يسير على جسد صاحبه، فأخذت منه ذلك العقرب، ووضعته في ثنية (حوكي)، وقد قررت أن أنقعه في شراب شبرين، وقد تمّ لي ما أردت. فبينما كان منشغلاً بالحديث مع الشاقي، تصنعت الظمأ، وتناولت (طاسة) كان يهم بالشرب منها، ووضعت بها ذلك العقرب الذي فركته جيداً، ولكنه ترك لنا (طاسته) ولم يشرب شيئاً، فناديته

مذكراً إياه بـ (طاسته) فابتسم في وجهي، وقد أغاظتني جملته حينما قال:

ـ أستطيع أن أتحمل الظمأ فاتركوها لكم، وخاصة موتان الذي لا يزال صغيراً على هذا العذاب.

وكاد يموت في هذه المحاولة أحد السجناء حين امتدت يده لكي يطفئ ظمأه، ولم أتنبه له إلاَّ وهو يعب عباً، فصحت به أن يتقيأ ما شرب، فظل ينظر إليَّ بدهشة، وكلما صرخت فيه اتسعت دهشته، وتنبه شبرين لصرخاتي، فتقدم من ذلك السجين، وأدخل إصبعه في حلقه وأخذ يعمقها، ويحركها يميناً، وشمالاً، حتى استفرغ كل ما بداخله، وأسرع وأخرج من بين حاجياته ملحاً، وأذابه في ماء وسقى به ذلك السجين الذي ظل محموماً لعدة ليالٍ. . في الليلة الثالثة اقترب منا شبرين، غرس عينيه اللامعتين بوجوهنا، ومص شفتيه بندم، وترك صوته المحروق يخرج منغماً:

ـ من الجبن أن نقتل بعضنا هكذا. . إذا أردت أن تقتلني فأخبرني كي أتهيأ للموت. قال تلك الجملة وصمت برهة وتنهد بحرقة وأكمل.

سمعت هذه العبارة من أحد الأصدقاء، ولا زالت ترن في أذني كلما رفض قلبي شخص ما، إن الرجولة أن تفصح عن كرهك ليحتاط منك عدوك.

وكتم بحة أوشكت أن تظهر جروح قلبه، وظل صامتاً لفترة، ثم رفع رأسه باتجاه عبد اللّه وأخذ يتحدث عما مضى من سيرته:

ـ قذفتني الغربة على أحد الموانئ، وكنت جائعا ومفلساً، ولم أجد ملاذاً من أن أسخِّر جسدي لنقل البضائع من السفن وإلى مخازن ذلك الميناء، وقد انعقدت بيني وبين أحد البحارة صلة ود، فكان كلما مرَّ بهذا الميناء، ينزل للسلام عليَّ، والسؤال عن أحوالي، وكنت أظهر الضيق والتذمر من هذا العمل المضني، وأشتكي من آلام مبرحة استكانت بأسفل ظهري، ولم تعد تمكنني من أداء عملي بيسر، فكنت أئن تحت حمولتي حتى أوشك أن ألفظ آخر أنفاسي، وقد اقترح عليَّ ـ أكثر من مرة ـ أن أصحبه إلى مدينة (عصب)، وأوضح لي بأن هناك أعمالاً عديدة يمكنني الانخراط في أحدها

دونما تعب، فكنت أمانع، وأصر على البقاء بهذا الميناء، وفي آخر زيارة لمحت وجهه يكفح كمداً، وعيناه تشتكيان من سهر طويل، وعندما التقينا، ارتمى على صدري وأجهش ببكاء مرّ، وأصر أن أصحبه، ولم يتركني حتى حملت أشيائي وتبعته فركبت معه وسرنا، ولم أكن أدري إلى أين نحن متجهون، وعلى ظهر السفينة، وجدت أناساً كثيرين تمّ جمعهم من أرصفة الميناء للعمل على ظهر هذه السفينة، ومع الشروق انطلقت صفارة مدوية تعلن انسحاب سفينتنا نحو أعماق البحر. . . كان قبطاننا يكره صاحبي كرهاً بغيضاً، ويوكل إليه بالأعمال الشاقة، ويعنفه لأتفه الأسباب، وقد حدثني صاحبي عن هذا القبطان فقال:

ـ وجدوه مزروعاً بميناء (مصوع)، ولم يكن له من عمل سوى حمل ابنه على كتفه، والدوران بين استراحات البحارة، منادياً بهم وجامعاً لهم أمام حركات ابنه السريعة، والخفيفة. في بادئ الأمر كسب الكثير حتى إذا أَلِف البحارة تلك الحركات أعرضوا عنه، وعن ابنه، ولكي يستعيد ثقتهم، دفع بابنه لممارسة أعمال خطرة، وكانت إحدى هذه الألعاب أن يقفز ذلك الصبي من خلال طوق بزغت من حوضه سكاكين ذات نصال حادة رهيفة، وفي إحدى قفزاته، اختلت يد الأب، لتنغرز السكاكين ببطن الصبي، ويسقط أرضاً وأمعائه تتدلى من بطنه، وقد فجع الأب لرؤية ابنه على هذه الحال، ولم يعرف ماذا يصنع سوى العويل، فأسرع أحد البحارة وأعاد الأمعاء إلى بطن الصبي، وأخذ تراباً ناعماً وسد تلك الفجوات المنهمرة بالدم، وصادف أن كان بإحدى الاستراحات حكيم إنكليزي كان متوجهاً إلى ميناء عدن، وقد كان ضمن المشاهدين لذلك المنظر، فأسرع وطلب نقل الصبي إلى داخل أحد أكشاك التفتيش، وأخرج أدوات عدة، وأمر بإخراج المتجمهرين حول الصبي بمن فيهم أبوه، وأبقى معه اثنين من مساعديه، وظل لفترة طويلة لا أحد يعلم ما يحدث بالداخل، وإن كانت ثمة أعناق تتدلى من فجوات الكشك لترى ما يحدث، فيما كانت دموع الأب لا تهدأ. بعد ذلك خرج الحكيم راسماً على وجهه ابتسامة الرضى، وداوم على علاج الصبي لعدة أيام متواصلة، كان الأب خلالها يحوم بين البحارة فيمنحونه ما تجود به أيديهم،

وقد رق له قلب أحد التجار، واستخدمه عاملاً لديه، وقد أوكل إليه بحمل البضائع، وقد كان ملتوياً في عمله، يقوم باختلاسات متعددة، ومتنوعة، وفطن له رب العمل وأقاله من عنده، وعندما همَّ بأن (يسرح) بابنه كالسابق، وجد بأن الابن لم يعد قادراً على شيء فإحدى يديه لا يقدر على تحريكها، فقد انقطع عصبها، ولم يعد الصبي يسيطر على تحركات يده اليمنى وأصبحت مدلاة من كتفه كحجر ثقيل، فعاد الأب يتجول في الميناء ويعرض نفسه حمَّالاً، فكان يعمل يوماً، وأياماً يظل ينقب في النفايات بحثاً عن لقمة يسد بها جوعاً عاصفاً يعبر معدته ومعدة ابنه، وكنت في إحدى المرات حارساً على سفينتنا الراسية بالميناء، وعندما انتصف الليل استرخيت قليلاً، وكدت أنام فإذا بي أسمع (خرفشة) صادرة من جهة مخزن التموين، فتحركت بحذر، وعندما بلغت إلى المخزن وجدت رجلاً يجمع بعض المعلبات ويقذف بها لصبي أسفل السفينة، فيما كان الصبي يتحرك جامعاً العلب المقذوفة بيد واحدة، ويده الأخرى لا تتحرك كحجر ثقيل، فأمسكت به، وأطلقت صفارتي ليجتمع علينا بعض البحارة، وقدناه لمخفر الشرطة، وبعدها لم ألتقِ به إلاَّ على هذا المركب بعد أن أصبحت أعمل به كغواص، فقد غرق مركبنا السابق في إحدى الرحلات حينما واجهتنا عاصفة هوجاء أخذت تلقي به فوق الشعب المرجانية بلا هوادة، وبعد أن انتهت العاصفة لم يتبق من قاربنا إلاَّ شبحاً يكاد ينسل في ظلمات البحر مقدماً أجسادنا لقمة صائغة للقروش التي تقعرت تحت قاربنا وظلت أفواهها فاغرة عن أسنان صغيرة مدببة حادة، وكان يمكن أن نواصل رحلتنا هكذا مع الحرص الشديد على موازنة المركب، ولكن هلع البعض منا مكَّن الماء من اختراق تلك الفجوات التي سددناها بأكياس ناعمة لا يخترقها الماء، وفجأة ابتلع البحر نصف قاربنا، فألقينا كل ما بداخل القارب وهو لا يزال يهوي، وقد قام البعض منا بنضح الماء بجرادل كبيرة، وقد فكَّر الكثيرون منا بإلقاء أنفسهم بعرض البحر إلاَّ أن هذا الخاطر كان سرعان ما يموت عند رؤية تلك القروش المنتظرة بهدوء وثقة، فنادى بنا القبطان إلى القرعة، ومن تأتي عليه يلقي بنفسه بالبحر تخفيفاً عن المركب، ولكي لا نتراجع كان هو دائماً أحد طرفي القرعة، وفي أول قرعة قذف أحد

البحارة بنفسه وارتفع مرة واحدة وبعدها انتشر الدم على مساحة واسعة فيما كان سطح البحر يتموج بشراسة، وكانت تلك البقعة الدموية كفيلة بجلب قروش إضافية، وكلما ارتفعت القرعة سقط أحد البحارة في أفواه القروش دون أدنى مقاومة، وعندما سقط البحار العاشر، همست لجاري:

ـ ألا تلاحظ أن القبطان كان طرفاً في كل القرعات الماضية ولم تأتِ عليه قط.

فأجابني بهمس لا يكاد يسمع:

ـ يقولون بأن لديه خاتم سليمان عثر عليه في إحدى الجزر النائية.

ـ لو كان لديه ما تقول لكان أمر أحد المردة بحمل قاربنا لليابسة، ويبدو أننا سنكون طُعماً للقروش قبل أن نصلها.

ونهضت من مكاني وصحت بالبحارة:

ـ أيها الإخوان لنتوقف عن هذه القرعة فكلنا يسقط ولا زال القارب يغوص بنا، وخير لنا أن نموت مجتمعين لا واحداً واحداً.

وقد وافق الجميع إلاَّ القبطان الذي قال:

ـ لا بدَّ أن يموت بعضنا ليعيش الآخرون.

عندها نادى عليَّ لكي تكون القرعة فيما بيني وبينه، فتقدمت وقدمت له عملة نقدية أخرجتها من جيبي، فرفض، وأصرَّ بأن يكمل القرعة بالعملة التي معه، فساورني الشك، ولكنني وافقت، وما إن رفعها حتى اختطفتها من الهواء قبل أن تستقر على لوح خشبي، وهالني ما رأيت.. كانت عملة ذات وجه واحد، فصحت بالبحارة معلناً عليهم نبأ تلك العملة، ولم يستطع القبطان الفكاك من أيدي البحارة الذين أحاطوا به، واكتشفوا أنه يحمل عملتين، واحدة منهما لها وجها كتابة، والأخرى تحمل وجهَيْ طرة، وكان يطلب من كل بحار يتقدم للاقتراع معه أن يختار الوجه الذي يريده، فإذا طلب الكتابة، أخرج عملة الكتابة، وهكذا لم تقع عليه القرعة أبداً، فكبلوه في الحال، وتصايحوا بأن يقذف بالبحر لتأكله القروش كما فعلت بأصحابهم لكن بحاراً قديماً قال:

ـ ليس من العدل أن يموت ميتة شريفة كتلك التي لقيها أصحابنا واقترح أن نقطعه قطعاً صغيرة حتى يموت.

فارتفعت الأصوات مؤيدة لهذا الحكم، وقبل أن ننفذ حكمنا صفعتنا موجة عالية وأفرغت بعضاً منها بداخل مركبنا، ليترجرج متيحاً للبحر فرصة أن يبتلع جزءاً إضافياً من مركبنا، فتركنا القبطان مكبلاً، وانشغلنا بمركبنا الذي أخذ يهوي بسرعة، وعندما أيقنا بعدم جدوى نضح الماء البالغ أنصاف سيقاننا، أخرج كل منا خوصه، واتجه صوب القبطان، وأخذ جزء منه وقذف بنفسه للماء، ولتلك القروش المنتظرة بهدوء، وثقة، وكان من نصيبي أذنه اليمنى، وقد اقتطع بحار حبشي قلبه وكان يهم بمضغه، ولكنه أصيب بالهلع لمنظره الشبيه برأس قرش، فقذفه للبحر، وفجأة تقافزت الأسماء من تحتنا، وفوقنا، وتخاطفته القروش، ومضت لجوف البحر كأنها كانت تنتظره دون سواه. . كان منظراً فريداً، لو لم أحضره لشككت في صحته، عندها تنبهنا إلى أنه لم يعد بداخل المركب إلاّ ثلاثة من مجموع خمسين بحاراً. وقد التهم الماء قاربنا بأكمله وقد استطعنا جذب لوح من قعر المركب وقذفنا به، وتعلق ثلاثتنا بذلك اللوح وأخذنا نجدف بأيدينا، فأصابنا نصب عظيم، وكلما جدفنا باتجه محدد جاءت موجة وغيَّرت مسارنا لنعود من جديد، خارت قوانا مع ظهر اليوم التالي، كانت جهنم تسكن أجسادنا، وكانت الأمنية الوحيدة التي نهجس بها قطرة ماء عذب، وقد تشققت جلودنا، وأصيب أكبرنا بالتهاب حاد في عينيه، فلم يعد قادراً على التجديف، أو مسح رذاذ الماء المتطاير إلى عينيه، فأخذ يشتم ويلعن، وفي العصر صاح بفزع:

ـ لم أعد أرى شيئاً.

وحشرج بكلمات كثيرة، لم نسمع منها إلاّ قوله:

ـ كان يجب أن أموت منذ وقت مبكر.

وأخذ يئن بألم مثقل، ولم نشعر به إلاّ وهو يهوي كحجر ثقيل لأعماق البحر دون أن ينبس بكلمة، أو يحاول رفع جسده للأعلى، ولم يحاول أحد منا إنقاذه، فقد كنا منهارين تماماً، فواصلنا تجديفنا وبعد دقائق حانت منا التفاتة، فرأينا جسداً مشرعاً على سطح الماء، وقد أسلم ناصيته للموج يوجهه حيث

شاء.. لم يحدث أحدنا الآخر، فيما كنت أفكر في هذا الذي تركناه خلفنا للتو.. أيمكن أن يكون لفظه البحر بهذه السرعة أم أنه لا زال حياً.. أحياناً كثيرة تقودك الحياة لأن تكون جباناً خسيساً.. وقبل أن أستطرد في خواطري سمعت هنهنة، فتنبهت لرفيقي الذي توقف عن التجديف وألقى برأسه على اللوح، وأجهش بالبكاء، ولم تكن بي رغبة في الحديث معه، فتركته ينثر دموعه كيف يشاء.. كان الموت لا يخيفني كثيراً ولم يعد يعنيني أي شيء، فقد هجرت قريتي منذ زمن بعيد، وليس لي من أحد أحن إليه، أو ينتظر عودتي، وكان خاطر الموت إذا داهمني لا يثير في نفسي تلك القشعريرة التي ينقبض لها القلب ويتراقص هلعاً، لذلك فقد أسلمت نفسي للقدر، وليكن ما يكون، بينما كان صاحبي جزعاً على فراق عروسه التي لم يتمتع معها سوى أشهر معدودات، وقد أخبرته ذات صباح بأن بطنها يحمل أول بذرة له في الحياة فقرر أن يخرج ليعود له بمال يبعده عن شبح الجوع، ولا زال في البحر يجمع المال ويكنزه ليعود إلى موطنه، وقد كنت أسمع منه بأنه مل البحر واشتاق لرؤية ابنه الذي تجاوز العشر سنوات بلا شك فكان ينثر الأدعية بإخلاص، ويتعهد بنذور عدة فقط أن ينجو من هذه المحنة.. كنا مقذوفين في خلاء هذا الماء كشجيرات يابسة، وليس هناك من أمل لأن تواصل سيقاننا الصمود لليلة الثالثة.. انتصف نهار اليوم الثاني ولم نعد نلمح شيئاً، فقد تقيحت مآقينا، وانتفخت جفوننا ليصبح المدى دموعنا التي كانت تهطل بغزارة، وكان حلمنا الوحيد في تلك اللحظة أن تمتد أيدينا لتهرش أو تمسح تلك الدموع المنهمرة.. كان ثمة هدير يصلنا فيزداد رعبنا من أن تكون موجة، أو عاصفة مقبلة، ولا زال الهدير يقترب، وثمة حركة لقارب، وأصوات، وأحسست بأيد تمسك بجسدي المتهاوي، لأسقط بحوض قارب صغير وبعدها أفقنا بداخل سفينة ضخمة متجهة لعدن، وقد خيرنا قبطانها بين النزول في أقرب ميناء، أو العمل ضمن طاقم السفينة، وقد اختار صاحبي النزول في أقرب ميناء نصل إليه، واخترت أن أصبح عاملاً بداخل هذه السفينة التي كانت تقوم بجلب اللؤلؤ، وبيعه في الموانئ الكبيرة، ونقل البضائع من مكان لآخر.

وقد كان العمل بها مدراً للمال، فقد كان عملي مقتصراً على الغوص وجمع المحارات، ومضى زمن وأنا أعمل على ظهر هذه السفينة، وفي إحدى المرات ارتطمت سفينتنا بإحدى الصخور المرجانية فأصيبت مقدمتها بأضرار بليغة، استوجب علينا التوقف بأول ميناء يصادفنا، ورسينا بميناء (مصوع)، وظلت باخرتنا راسية لمدة أسبوعين كاملين لإصلاح تلفها، وانتهزت فرصة تواجدي بهذا الميناء فقمت بجولات لأماكن عديدة، وزيارات لبعض الأصدقاء الذين تربطني بهم صلة ود، وخلال جولاتي صادفت ذلك العتال الذي لم ينسَ وجهي، وعندما رآني بصق في وجهي فلم أتذكره، وظننت بأنه رجل معتوه فتجاوزت عنه، إلاّ أن أحد أصدقائي ذكرني به، وأخبرني بأنه رجل لا يؤمن جانبه، وأوصاني بالحذر منه، خاصة بعد أن أصبح له رجال يأتمرون بأمره، وعرفت بأنه أصبح قواداً محترفاً، فأهملت نصائح صديقي وتناسيت أمره، وعندما عدت إلى باخرتنا بعد غيبة خمسة أيام، وجدته يجالس قبطاننا، ويتحدث معه بلا كلفة، فعلمت بأنه استطاع التقرب من قبطاننا من خلال صبايا لهن لون البن، وحلاوة الماء العذب، وقد تبرع بأن يحصي أنفاس بحارته، ويأتي له بأخبارهم، وقد اختلق حكايات كثيرة، جعلت القبطان منتفخاً كجثة قديمة، ولم يفقه البحارة سبب هذا التغيُّر، وقد استطاع بدهاء أن يوقع فيما بيننا وبين القبطان، وقد اتخذه القبطان نديماً له، وانتشله من ميناء (مصوع) وأسند إليه مهمة التموين بسفينته، وقد ادعى ـ هذا العتال ـ بأنه ابن قبطان قديم ابتلعه البحر في إحدى ثورات غضبه، فما كان من القبطان إلاّ أن رفعه وجعله مساعده الخاص، وقد وعده بأن يعرض ابنه على أحد حكماء الإفرنج المشهورين حينما تصل بنا باخرتنا لميناء عدن أو لإحدى المدن المتقدمة إذا أبحرنا شمالاً لأي سبب من الأسباب، وظل هذا العتال ينخر علاقات البحارة أجمعها، ويوهم كل واحد منهم بأنه صديقه المخلص، وقد استمال إليه أغلب من بالباخرة، وحاول الأمر معي، وتجاهل تماماً تلك الحادثة التي بصق من أجلها في وجهي منذ أيام قلائل، ولا أدري ما الذي يدفعه لكل هذه الدسائس ويبدو أنه كان ذا نفس خبيثة، يبحث عن مجد من خلال النفاق، والدسيسة، فكان يصوِّر للبحارة بشاعة وخساسة

قبطانهم، وبحذاقة متناهية ألب جميع البحارة على قائدهم دون أن يخسر صداقة القبطان، ويبدو أنه كان يلعب دوراً خسيساً مزدوجاً على البحارة والقبطان. ولم يمضِ وقت طويل حتى أصبح هو الآمر الناهي بتلك السفينة، وفي إحى رحلاتِ البحث عن اللؤلؤ، وقد احتفلنا بهذه المناسبة، ووزع القبطان علينا أجوراً مضاعفة، ووعد بأن يكون لنا نصيب إضافي من ثمن اللؤلؤ، وعندما انتصف الليل غادرنا القبطان لكبينته، وهنا انفلت ذلك العتال يحرض البحارة بطريقة ملتوية، فقد جمعهم جميعاً، وقال:

ـ هيا نتسلى.. أقول لكم حكاية وتخبرونني عن الحكم فيها.

فوافق البحارة، وتصايحوا:

ـ وما هو نصيب من يأتي بالجواب؟

فرد عليهم العتال:

ـ أمنحه أجر ثلاثة أيام.

فتصايحوا، وتراكموا حوله.

فبدأ بسرد حكايته:

ـ خرج صيادان للصيد، فكان أحدهما يجدف، والآخر يشير له باتجاه المكان المراد الذهاب إليه، وعندما بلغا المكان قام الرجل الذي كان يجدف بإلقاء (الشوار) في البحر، وفي الصباح قام بجمعه، ووضعه بداخل القارب بينما كان صاحبه لا يعمل شيئاً سوء إلقاء الأوامر، وبعد أن اجتمع لهما حوت كثير قفلا عائدين حتى إذا بلغا الشاطئ، قام الذي كان يجدف باقتسام الحوت بالنصف، لكن رفيقه أبى وأصر على أن يكون نصيبه كل الحوت، ووعد صاحبه بأن يمنحه قشور السمك..

ـ فماذا تقولون في هذا الرفيق؟!

فتصايح البحارة:

ـ إن هذا الصديق خسيس، ويستحق الموت.

فوقف عند هذه الجملة، وقال:

ـ صدقتم إن أمثال هؤلاء يستحقون الموت.

وصاح بافتعال:

ـ ولكن قبطاننا لا ينوي أن يفعل معنا كما فعل ذلك الخسيس.

فسرت همهمة بين البحارة، وفهموا ما يرمي إليه لدرجة أن أحدهم صاح:

ـ لن نرضى بالقشور وسوف نتقاسم اللؤلؤ.

فصاح مفتعلاً، ومعترضاً بأنه لم يضرب هذا المثل لإثارة البلبلة حول صديقه الذي يوقن من صدقه، وأقسم إن كان كذلك ليكونن في صفهم، وأوصاهم بالتريث حتى يسبر أغوار نيته، فأسلموا له آذانهم، ووعدوه بأن لا يفعلوا شيئاً إلاّ بأمره، وظلوا ينتظرون الإشارة منه.

أما هو فقد انسل من بيننا وابتسامته تتألق على شفتيه بمرح.

ويبدو أنه قد ذهب إلى القبطان وأخبره بأن رجاله يعدون العدة للانقضاض عليه، وللثقة التي يتمتع بها هذا العتال عند القبطان، فقد أخذ كلامه حقيقة لا تقبل البحث، أو التريث، فقام من حينه، وأخرج كل اللؤلؤ الذي قاموا بجلبه، ونثره أمام بحارته، ثم أعاده في كيس، وصاح ببحارته:

ـ لو اقتسمنا هذا اللؤلؤ فلن يصيب الواحد منا مبتغاه، وقد رأيت أن نجعله من نصيب القادر على الغوص لمسافات عميقة، وسوف أقذفه ومن يجده يكون ملكاً له.

فتصايح البحارة بين مؤيد ومعارض، وقبل أن يطول لغطهم قذف القبطان بكيس اللؤلؤ بعد أن ربطه بكتلة حديد، فتقافز البحار خلف الكيس، ولم يتبق ألاّ القليل، وقد فاجأهم صوت القبطان:

ـ لنتحرك في الحال.

وتحركنا قبل أن يرفع البحارة رؤوسهم من أعماق البحر.

تبقّى بداخل السفينة عدد قليل من البحارة، والذين كانوا ناقمين على القبطان وكارهين له لما فعل بزملائهم، ولم يستطع أحد منهم الاعتراض لأن القبطان أشهر في وجوههم مسدساً مرفوع الزناد ومهيأ للانطلاق في أي لحظة، ولاستشعاره بعداوة البحارة فقد أوكل إلى من يثق بهم بحراسة كبينته.

وعدم السماح لأي من البحارة بالاقتراب منه، وكنت ممّن أوكل إليه حراسة ممرات السفينة، والطريق المؤدي لكبينته، وكنت حاسماً لا أقبل الجدل فالذي أراه يحوم بدهاليز السفينة أجبره على التوقف والصعود إلى الأعلى. وفي اليوم التالي من إبحارنا رأيت العتال يهبط الدرج وبيده كأس مليء بشراب لا أدري كنهه، فأوقفته فالتزم، ووضع يده على ظهري وحدثني بود:

ـ أرجوك أريد رؤية صديقي.

ـ ولكنه أمر بعدم اقتراب أي أحد من كبينته.

ـ حسناً إذاً أرجوك أن تحمل إليه هذا الدواء، فقد علمت بأنه يعاني من أرق، وصداع، وهذا المشروب به الشفاء لعدة علل، ومهدئ للدم، وأرجوك رجاء خاصاً أن تخبره بمن جلب له هذا الدواء كي يشعر بأن هناك الكثيرين ممن يقف معه.

وسلمني الكأس ومضى مبالغاً في تحيتي، ولم أفقه سبب هذا التغيّر، فقبل أيام قليلة، وقبل أن نترك زملاءنا يواجهون الموت غرقاً أو نهشاً على أسنان أسماك القرش، وقف أمامي، بينما كانت أسنانه تقضم شفتيه بقسوة:

ـ لا تظن أنني نسيت تلك الليلة التي قضيتها في (مخفر) ميناء (مصوع) بسببك.

ومضى يشد على أسنانه بغيظ.

فأحسست بأن الرجل قد بيَّت نية سوداء، ولكنني كنت ساذجاً بما فيه الكفاية، ولم أعلق أهمية على ما قال، وعندما حدثني بود ورجاني إيصال ذلك الدواء للقبطان تناسيت تهديده الذي لم يجف من أذني، بعد، وتوجهت إلى كبينة القبطان لكي أعطيه ذلك الدواء، وفي الممر وجدت ابن العتال يتلوى من الألم، ويصيح من وجع يمضغ أمعائه، فأسرعت وسقيته من دواء أبيه الذي حملني إياه لإيصاله للقبطان، وما إن استقر ببطنه حتى أطلق صيحة، نهضت لها الأمواج، ورفرفت لها طيور البحر، وتقافز باتجاهها البحارة، ليقفوا على صاحبها جثة هامدة.. يومها كاد العتال يجن، وقد حمل جثة ابنه بين يديه، وظل يبكي بحرقة دون أن يجرؤ على مخاطبتي بشأنه، وظل محتفظاً

به لأسبوع كامل حتى تساقط لحمه، وفاحت نتانته، وكلما حاولنا قذفه في البحر أقسم بأن يقذف نفسه خلفه. وفي إحدى الليالي وبعد أن سرق النوم أهدابه، تسللت مع القبطان إلى كبينته، وسحبنا الجثة وقذفنا بها إلى البحر، وفي الصباح تفقد جثة ابنه وعندما لم يجدها صرخ صرخة حسبنا بعدها أن البحر سيثور، وقد أقسم بأن يقذف كل من بهذه السفينة طعماً لأسماك القرش، ولا زال القبطان يواسيه، ويتفقد أحواله، ويداوي حزنه، ولم أشأ أن أخبر القبطان بأن السم الذي مات به الصبي كان معداً له هو بالذات، وقد أمضى وقتاً طويلاً يعاني من اختلال في تصرفاته، ولكنه كان حريصاً على أن يبدو أمام البحارة الجدد بأن له اليد الطولى بداخل السفينة، وبعد مرور سنة من كارثة ابنه، عاد أكثر خبثاً ودهاء، وأول عمل قام به هو حصوله على موافقة القبطان بأن يصبح الآمر الناهي على السفينة أثناء الإبحار، فقد أقنع القبطان بأن ثمة متمردين على ظهر السفينة وقد دبروا مؤامرة للانقضاض عليه أثناء تواجده بداخل كبينة القيادة، وقد أوهمه بأنه لا يعرفهم بالتحديد وإن كان قد سمعهم يتهامسون بذلك في الليلة الماضية، وما إن أعطاه القبطان تلك الصلاحية حتى أمر أعوانه الخلص بالانقضاض على القبطان وجلبه مكبلاً أمام البحارة، ومكمماً فمه، وقد خطب يومها خطبة سرت في داخلي ونبهتني إلى أن الدور القادم سأكون أنا.

ـ أيها البحارة العظماء، إن هذا القبطان قد قتل بحارته قبل سنة من الآن لأنهم رفضوا أن يسيروا معه إلى أرض الموت، فهو يتاجر بالعبيد، ويريد أن يدفع بكم إلى التهلكة وإن رفضتم فسيكون مصيركم كمصيرهم، فهو قد نوى أن يقذف بكم إلى أرض تموج بالعبيد وسيأمركم باصطيادهم واحداً واحداً، وكما تعلمون فإن القوانين تمنع هذه التجارة، كما أن العبيد ما إن يرون سفينة تقترب من شواطئهم حتى يقتلوا كل من بها، وقد نهيته عن ذلك فلم ينته، ورأيت أن من الحكمة أن يموت واحداً منا بدلاً من أن نموت جميعاً.. فماذا ترون؟

فتصايح البحارة:

ـ الموت له.

وغطت تلك الصيحات المجنونة على حمحمة القبطان الذي كان يحاول أن ينهض بصوته، وخشيت إن أنا اعترضت عليه أن يكون مصيري ما حلَّ بالقبطان، قد تقدم منه ذلك العتال، وجز يده اليمنى وقذف بها صوب البحر وهو يضحك:

ـ لا بد أن ندعو كل القروش لهذه الوليمة، فالذي سنقذفه ليس هيناً، ولا بدَّ من إكرامه حتى عند الموت!!

ولا زال يقطع أوصاله قطعة قطعة حتى أصبحت القروش تضرب السفينة بزعانفها، وتتخاطف كل وصلة تصلها، عندها أعطى الأوامر بإن يقذف القبطان، وفي لمح البصر كان أشلاء ممزقة بين أسنان حادة مدببة.. ومن يومها وهو قبطان هذه السفينة، وقد علم بأنني أحد الرجال الذين ساعدوا القبطان على قذف ابنه للبحر، ولم ينسَ سابقة إدخاله السجن بميناء (مصوع)، ولكي يربطني بداخل هذه السفينة أوكل اثنين من البحارة العتاة بمتابعتي أينما اتجهت، فهما يزاملاني في مرقدي وفي خطوتي، وأظنهما يشتركان معي في ظلي، وتنفسي. في السابق أخذ كل مدخراتي، وعندما يئست من استرجاعها قررت أن أنفذ بنفسي قبل أن أموت، ولكنه استطاع أن يمنعني من الفرار، وقد فشلت جميع محاولاتي في الهرب، وكذلك فشلت كل محاولاتي في الموت، وها أنا الآن أسير تحت نظره لا أقدر على شيء سوى انتظار الموت الذي لم يتفضل به عليَّ إلى الآن. وعندما حانت فرصة استقدام عمال جدد فرحت كثيراً عندما رسونا بميناء (مصوع) واخترتك من دون البشر لكي أأتمنك على نفسي، وكل الذي أرجوه منك، أن تحرسني أثناء النوم فأنا لا أريد أن أموت على غفلة، ولا أريد أن يشوهوا جسدي قبل الموت.. هذه وصيتي.

توقف شبرين عن سرد حكايته وتنفس بعمق ليتصايح المساجين أكمل.. أكمل.. وعندما أنهى صديقي حكايته وجدت نفسي أقف ضد هذا القبطان الأفاك، فكنت أحرسه ليلياً، وفي الصباح أعمل مع مجموعة من البحارة في مد حبال الغوص وجذبها، وتفريغ ما تحمله، ونمضي معظم الوقت في فتح المحارات واستخراج اللؤلؤ، وقد وقف فوق رؤوسنا ثلة من البحارة

المدججين بالأسلحة خوفاً من أن يتجاسر أحدنا ويقوم بإخفاء ما يستخرجه من تلك المحارات.

وبينما كنا مبحرين باتجاه شواطئ الساحل الأفريقي نشب شجار عنيف فيما بين البحارة، استخدموا فيه السكاكين والحراب، وقد سقط خمسة من البحارة وتـمَّ قذفهم في البحر بعد أن فض الاشتباك، وقد كان السبب وراء هذا الشجار أن مدخرات بعض البحارة تـمَّت سرقتها دون أن يترك السارق أثراً لفعلته، وعندما بلغ الخبر للقبطان العتال، أمر بتفتيش جميع حاجيات البحارة، ولم يعثروا على شيء، عند ذلك أمر بخلع ملابس جميع البحارة وتفتيشهم وقد ظللنا لوقت طويل عراة بينما كان رجاله يقومون بتفتيش تلك الملابس المهلهلة، وأثناءها تمت مصادرة كل فلس وجد عند أحدنا ووعد أن تُعاد حينما توجد المسروقات، وفي الحقيقة لم يكن ممكناً أن توجد، فعندما كنت ساهراً على صاحبي، تسلل أحد أعوان القبطان ودس صرة في صندوق صاحبي، فيما تظاهرت بالنوم، وما إن عاد من حيث أتى حتى قفزت وأخرجت تلك الصرة وقذفت بها للبحر دون أن أتبين ما بداخلها، وبعد أن لبسنا ملابسنا، أسررت لبعض البحارة بأن من قام بالسرقة هم أعوان القبطان، الذين لم يتم تفتيشهم وفي سرعة متناهية نشب الشجار الذي كانت حصيلته أربعة من البحارة وواحد من أعوان القبطان، وفي تطور سريع أمر القبطان بأن يمنع الأكل عن خمسة عشر بحاراً، ويقذف باثنين إلى البحر تطهيراً لروح شيطان البحر كما زعم، وبات يلف على صاحبي والذي كان يحيرني أنه لم يقدم على قتله كل هذا الوقت وقد عرفت مؤخراً بأن يريد أن يميته بالانتظار، وكم هو صعب أن تكون في حالة ترقب دائمة، وفي ذات ليلة سرقني النوم ولم أستيقظ إلاَّ والقبطان يغرز خنجره بخاصرة صاحبي الذي نزت منه صرخة ألم حادة وتابعها بكلمات لم أستطع الإمساك إلاَّ بهذه الجملة:

ـ إن من الجبن أن نقتل بعضنا هكذا.. إذا أردت أن تقتلني فأخبرني كي أتهيأ للموت!!

وذهب صاحبي وبقيت كلمته عالقة في ذاكرتي، لأتعلم أن الرجولة هي أن تواجه الآخرين بما في داخلك، وإذا أردت أن تقدم على قتل عدوك لا بد

أن يكون على علم لا أن تأخذه على حين غرة كما يفعل اللصوص، وقطاعو الطرق.

نهض شبرين من عندنا بعد أن كرر هذه العبارة مراراً، دون أن يتهم أحدنا، وكان عبد اللّه يلعن الخسيس الذي قام بتلك الفعلة، وقد أكد لشبرين ـ فيما بعد ـ أن أحد الحراس قام بتلك الفعلة ليقضي علينا فرداً فرداً، إلاَّ أن شبرين نقض هذا التأكيد بقوله:

ـ لو أرادنا أحد الحراس لحصدنا ببندقيته دون أن يحتاج لكل هذا التخطيط، ولربما فاخر بين الحرس بأنه قتل ببندقيته حثالة من نزلاء هذه القلعة.

بتلك الفعلة خلق توجس فيما بين السجناء، وأصبحوا يرتابون فيما بينهم، وفي ليلتها لم يقم السجناء بجولتهم الليلية، وقد انتشر خبر بين السجناء يقول بأن ثمة خائناً يسير، ويأكل بينهم، وقد تناقل السجناء بأن الموت نصيب كل من يحاول الوشاية بأي عمل يحدث من قبلهم، لذلك لم يجرؤ أحد من السجناء على أن يشي بأي عمل يحدث ضد العسكر، وعرفت بطريق الصدفة أن شبرين هو الذي يقوم بتحريض السجناء على قتل العسكر، فقد جمعنا مرقدنا بالقرب منه، وسمعته يوشوش جاراً له بأن ليلة الغد ستكون دامية، وأوصاه بإبلاغ من يجاوره من زملائه، وهكذا كانت تتم كل عملية قتل، تتناقلها كل مجموعة ممن تجاورها من المجموعات الأخرى ولم نكن نعرف من هو صاحب هذه الأوامر حتى تلك الليلة، حينما همس شبرين لأحد السجناء بتلك الجملة:

ـ ليلة الغد ستكون دامية.

وعندما حاول السجين الاعتراض، زجره بحدة:

ـ انقل ما قلته لك فقط، ولكي تطمئن، فليلة الغد سيكون السوادي خارج القرية.

ـ ومن الذي أعلمك؟

ـ لكل فم مغلق شرخ يسرب الهواء، فقد حذرهم بعدم قتل من يتوسمون فيهم خيراً.

ـ وكيف لنا أن نعرف ذلك.

ـ لقد أبلغت أحد الأصدقاء من العسكر أن يشيع بين زملائه.. أن من يتحاشى مسيرتنا فلن نصيبه بالسوء، ومن تجدوه يبتعد عن طريقكم إياكم أن تقتربوا منه.

ساعتها تندمت كثيراً، وهممت بأن أنهض وأقبل رأس شبرين، ولكن لا أعرف لماذا تراجعت، وانكفأت على وجهي أجهش ببكاء مكتوم.

الآن فقط أجزم بأن شبرين لو لم يدخل إلى القلعة لأراحني من كل هذه الحماقات التي ارتكبتها في سبيل الوصول إلى أنفاس السوادي.

* * * *

الوحدة تعلمك أن تكون صلباً قاسياً، ومنذ أن خرجت إلى هذه الدنيا وأنا أسير وحيداً كالموت، لا أحد يسأل عني، أو يشتاق لرؤية وجهي، أو يحزن لحزني، فلا عجب أن تقسي قلوب من تقتاتهم الوحدة.. كان يمكن أن أكون سوياً لو أن امرأة أدخلتني قلبها وأحبتني بعمق، ولا أظن أن هناك امرأة تفعل ذلك سوى الأم.. هذا الظل الذي حرمت منه منذ نعومة أظفاري، وقد تلظى فؤادي بالوحدة حتى لم تعد تحرقه. في وقت متأخر حاولت العجوز نوار أن تكون أماً لي، ولكن بعد أن أصحبتُ أفعى، بعد أن أصبحت أغرس أنيابي في القريب وأختفي كأن لم أفعل شيئاً.. كانت تخرج لنا ثديها وتدعونا كباراً لأن نرضع، وتدخل ضرعها بأفواهنا وهي تصرخ:

ـ أريد أبناء كثيرين حتى إذا سقط أحدكم نهض الآخرون.

كان رجال القرية يضحكون من فعلتها، وهي منشغلة بإخراج ثدييها المهترئين، ويدها تحاول أن تقيم ما أفسده الزمن.. أذكر أننا كنا ثلاثة نتلمظ ذلك الضرع الجاف: عبد الله، وموتان، وأنا، وحين حضنتني وغرست ثديها بفمي بكيت ـ كالأطفال ـ وتسارع نشيجي كمن أراد أن يضع حملاً ثقيلاً كان جاثماً على صدره، ونمت ليلتها في حضنها.. هي الليلة الأولى ـ من حياتي ـ التي نمت فيها مطمئناً، وقبلها، وبعدها لم أنم!!.. ففي طفولتي المبكرة لا أذكر بأنني نمت في حضن امرأة قط، وأبعد ما تصل إليه ذاكرتي من تلك

الطفولة أنني كنت ألمح أقراني يتدلون من جذوع أمهاتهم وأنا أتدلى من على ظهر حمار السوادي ذاهباً إلى حقول التعب أو عائداً منها. . لا أدري كيف عشت تلك الطفولة بعيداً عن قلب امرأة حتى أن الخادمات ببيت السوادي بلا قلوب وأجزم بأنه نزع من صدورهن قلوبهن، وتركهن يسرن كالدواب لا تستطيع أن تعبر عما بداخلها إلاً بالرغاء المستمر. . وفي كل الحالات كنت أحن لامرأة ما. . امرأة تحضنني أنا. . تركض لسقوطي. . وتحضنني كلما سالت دموعي. . وتسري عني كرب أيامي القاحلة. . كانت تكفي رؤية امرأة لكي تجعلني سعيداً.

في ذلك العهد لم يكن يجاور هذا القلب أي إنسان، كانت سلوتي الوحيدة البكاء، بكيت كثيراً، وكانت دموعي تذهب للتراب دون أن تحرك قلباً واحداً لأي امرأة كانت، كنت أنتهز تواجدهن في الحقول، أو في الأسواق، أو في عشة الخدم وأبكي، فقد كنت أحتاج إلى أي منهن أن تحضنني لصدرها ولو للحظات، ولم أحظ ـ في طفولتي كلها ـ بهذا الحنان، وعندما أيقنت بأن لا فائدة من ذرف الدموع نسيتها، فتيبست في داخلي واستحالت مع الأيام إلى ظلال وخفافيش في قلب خرب. . وأقلعت عن تلك العادة التي يمارسها الأطفال. . فقد كانوا يعبرون عن غضبهم أو احتياجهم إلى أمهاتهم بتمحيك مؤخراتهم بالأرض ويرفسون بأرجلهم رفسات متكررة وعنيفة فتسارع إليهم أمهاتهم ويزلن غضبهم بقبلة تطبعها الأم على جبين ابنها، وتدلله حتى يرضى، وكنت أقوم بتلك الفعلة حتى تجرحت مؤخرتي دون أن تتقدم إليّ أي امرأة، وقد انبثت جروح مؤخرتي ولم أعد أجلس عليها حتى تجاوزت سن السادسة، وقد استعضت عن حك مؤخرتي بالأرض بقضم شفتي، فكلما شعرت بألم أطبقت أسناني عليها حتى أدميها، ومع الأيام أصبحت عادة تلازمني.

كانت تجمعني عشة مع خادمتين، وخادم عجوز، وكان كل منا منشغل بنضح أحزانه دون الالتفات للآخر حتى إن الخادم العجوز ظل ينازع ليومين متتاليين ولم نكترث به، بينما كانت أنفاسه المنزوعة تطالب بشربة ماء وقد ذهب دون أن يحصل عليها، وعندما مات ـ وكانت هذه أول مرة أتعرف على

الموت ـ حملته الخادمتان في قعادته لخارج العشة، وواصلتا عملهما كأن شيئاً لم يكن، ولولا أن رائحته أنتنت وتأذى منها بقية الخدم لما دفن.

هذا الخادم مات بحسرته، فقد أخطأ ذات يوم ولم يسرج للسوادي حصانه الأشهب، وقد كان في عجلة من أمره لاستيقاظه المتأخر فأسرع وأسرج له جواده الأسود، وجزاء هذه الغلطة قام السوادي بتفريق شمل أسرته، فقد أهدى زوجته لشيخ قبيلة بني إبراهيم، وسخّر أبناءه للعمل في القرى الواقعة بين الأحراج، وقد مات واحد منهم بلدغة أفعى، وجز رأس أكبرهم عندما حاول أن يزور أباه، ولم تصله سيرة البقية، ورحل وفي نفسه حلم الالتقاء بأسرته الصغيرة.. أما الخادمتان فكانت إحداهما خرساء، فقد كتب عليها الخرس في لحظة غضب نزقة، ففي إحدى الليالي جاءت إحدى عشيقات السوادي، وفي غفلة منه أخذت تتشمم عن أخباره، وقادت الظروف هذه الخادمة لكي تكون محط استفسارات هذه العشيقة، فاندلق لسانه يخبرها عن النساء اللاتي يأتين إليه، ويبدو أنها عاتبته عتاباً مراً ـ لكونها الأثيرة لديه ـ وعندما علم بأمر تلك الخادمة التي سكبت أخباره على مسامع عشيقته، نادى عليها وأمرها أن تخرج لسانها وعندما فعلت ذلك جز لها لسانها، وتركها تنزف وتمضي بقية أيامها تسمع فقط، ولك يكتفِ بهذا بل رفض تزويجها لتقضي عمرها وحيدة، وعندما تشاغلها رغبتها تسكتها بنفسها، وكنت في بعض الليالي أسمع صرير (قعادتها) من تحتها وهي تلهث بقسوة، وتنيخ بألم مدوي.. أما الخادمة الأخرى فلا أعرف عنها شيئاً سوى أنها يتيمة منذ طفولتها، وليس لها من أحد سوى أخ كان يخدم عند الشريف، وتطاولت رغبته على سيدته فألقي به في سجن القلعة.

من تلك العشة كنت أخرج، وأعود دون أن ألتفت، أو يلتفت إليَّ.. وفي أيام مرضي أظل أئن بصوت متهاو ذابل حتى أطرد مرضي بهذا الصوت.. في إحدى المرات أصبت بالحمى، وبقيت خمسة عشر يوماً أطبب نفسي في الليل، وأقضي حوائجي في النهار، ولم أكن لأستطيع الذهاب إلى الحقول وكنت أكتفي بالعمل بداخل الدار، أو الذهاب إلى (البئر) لجلب الماء، وعندما يأتي الليل أكون قد غدوت جمرة تتلظى، فأتكوم في (قعادتي) أهذي،

وأرتعد، وأبكي، ولا أحد يقف فوق رأسي ولو قليلاً، وعندما ملّت الحمى جسدي الواهن غادرتني آسفة على مكوثها بأرض ميتة.. يومها خرجت لأجد السوادي ينتظرني بلجام فرسه الذي ألقاه على ظهري، وعنفني على ترك الحقول بدون حماية، فعدت في الحال لكي ألازم فراشي لثلاثة أيام أخرى، كنت خلالها أحاول أن أزيح ألم اللجام الذي انغرست حدائده بظهري.

وفي ليالي الشتاء كنت أعود من بين الحقول مبلل الهندام، والهواء البارد يسكن عظامي، فأستحيل إلى كومة عظام ترتعد وعبثاً أحاول أن أستدفئ بمرقدي الرث الذي لا يوجد به غطاء يذود عني لفحة الهواء الباردة، وقد كنت أجلب معي أغصاناً كثيفة من أشجار الوادي وأتغطى بها، ولكن البرد يحيل هذه الأشجار إلى مسامير تنخر عظمي، فأهرب إلى مطارح البهائم. ففي إحدى المرات لمحت بقرة تحضن ابنها وتغطيه برأسها فأزحته قليلاً، ونمت بجواره، ولكنها سرعان ما نهضت وهرست قدمي بقوائمها الغليظة، كان البرد أقوى من أي ألم، فانطلقت إلى دارة الغنم أتلمس الدفء بين الأغنام أجمعها في ركن الدارة، وأندس بينها، وقد أسلم عيني للنوم جالساً حتى هذه النعمة لم أكن لأستمتع بها كثيراً، فكثير من الأغنام يطيب لها أن تتبول وتنثر بعرها على جسدي فور شعورها بوجودي بينها.

في ليلة من ليالي جماد الباردة كنت عائداً من الخلاء متعباً وجائعاً، وكانت الريح تدق عظامي الطرية فأتصافق، ومن على بعد ألمح قريتنا تغوص في بئر الظلام، وأنا كدلو ألقى عشوائياً فظل يتخبط بجنبات البئر دون أن يصل للماء، أو أن ينقطع به الحبل.. أظن أنني كنت يومها ابن السابعة، ففي تلك الليلة كانت الريح باردة جافة تلهو بطيش، وتخترق جلدي، لأرتعد، وأتكوم على ظهر حماري طلباً للدفء، وقد سرت مطرقاً أنصت بحذر وتأهب لأصوات متداخلة في مزيج من عواء وطنين، ونباح، وزمجرة ريح.. عندها تكثفت بداخلي حكاية (النباش)، وارتسمت صورته البشعة أمام ناظري حتى غدا الظلام نباشاً ينبش داخلي، وصوته الأجش يتردد في أعماقي:

ـ (حلالتي بك، وبعقب عقبك).

ليصيبني مساء من الخوف، فأمطر حماري ضرباً، وبغير هوادة، لينطلق بغير هدي متثنياً بين أشجار السلام، والرديف، والعشرق حتى إذا لم يعد قادراً على تحمل لسعات الخيزران (عنفل) وقذفني في الليل ومضى.

وجدت نفسي ملقى بين أشجار الرديف، في أول لحظة تخيلت تلك الأغصان أيادي (النباش)، فنهضت مذعوراً أقلب بصري في تلك الظلمة الحالكة، وأبصرت نفسي وحيداً، خائفاً، ومحاصراً، وصغيراً أيضاً، فرفعت صوتي، ليضج بجنبات الوادي، فخيل إليّ أن ثمة أحداً يرد على استغاثاتي، فركضت باتجاه الصدى، وكلما ركضت لمحت أمامي رجلاً ضخماً يقف كأشجار الأثل، فأغير مساري، لأجده أمامي، وتراءى لي أنه على وشك أن يسقط على قامتي الصغيرة، وفي كل مرة أغير فيها اتجاهي أجده أمامي، فأصرخ بفزع، وأركض باكياً مستجيراً بأسماء الله التي أعرفها، كان جسدي قد أصبح ممزقاً ففي ركضي كانت الأشواك تمضغ قدمي وأغصان الأشجار الملتفة على الطريق تجرح أي جزء تطاله.. وكانت أضواء قريتنا تغويني فساعة ألمحها عن يميني وأخرى عن شمالي، وأوقات لا أراها أبداً.. وكنت أواصل ركضي بين الحقول، والأحراج، وأنا أجمع دمعي، ودمي، وخوفي في ركضي المتواصل.. فجأة توقفت بعد أن أطلقت صرخة مدوية، فقد كنت أركض بأرض (حصدت) للتو وتبقت (جنازيتها) نافرة تخترق أي قدم تطأها، ومع ركضي المحموم وقعت قدمي على أحدها فأحسست به يخترق راحة قدمي لينفذ من أعلاها، وجلست أحاول تخليص قدمي من ذلك (الجنزي) وبعد ألم مضنٍ استطعت سحبها، وارتميت على رابية أتحسس دمائي المنسكبة بغزارة، وأنا على هذه الحال عادت إلى مخيلتي صورة (النباش) وهو يتشمم دمي، فنهضت بعجلة وانطلقت أحجل بين حشائش الحلفا المتداخلة الحارقة.. فجأة سمعت أصواتاً، ووجوهاً مظلمة تخرج عليّ من جميع زوايا الوادي، فانهرت، وتكورت مرتعشاً، أحسست بشيء يلامس رأسي ـ أظنه الآن كان غصن إحدى الأشجار ـ فصرخت، ولم أفق من تلك الصرخة إلاّ مع خيوط الشمس الأولى، لأجد نفسي كحزمة قصب متيبسة، ودمي يملأ المكان بلبد دبق، وعلى بعد خطوات مني كانت هناك كلبة قد رقدت

باسترخاء، وجراؤها يتلمظون ضروعها، ويرتشفون وجبتهم الصباحية بخدر متكاسل، ولا أدري لماذا شعرت بحاجة إلى البكاء، فذرفت أدمعي، واقتربت منها وارتميت على أحد ضروعها ـ تركه أحد جرائها بعد أن شبع ـ، فنهضت من رقدتها تنبح بشراسة وأخذت تعدو بعد أن أمنت جراءها أمامها، ليخترقني شعور بالمهانة، وطفقت نفسي الصغيرة تعري نفسها:

ـ حتى الكلاب لا تريدني ابناً لها!!

لم يكن لذلك الصباح المختال برائحة الوادي، وهسهسة السنابل أي معنى، فحينما تجد نفسك وحيداً إلاَّ من عذاباتك تصبح الحياة أكثر سخافة، ولا شيء فيها يستحق أن تمضي لمطالعته.. آه لقد مضت ليلة مميتة كان الأجدر بها أن تسرق هذا الصبي المقذوف كبهيمة ليس لها من صاحب والمنبوذ كمجدور، أو كالمجذوم الذي تساقط جلده، إنني أتساءل لماذا لم تلتهم الحياة صبياً كان يقف في تعرجاتها وحيداً، كان يمكن لها أن تسدي له خدمة جليلة بإزالته من الوجود فالطفولة بئر تحمل كل ما يلقى بها وتشربك إياه عندما تكبر.. كان يمكن لذلك الصبي أن يموت في لحظتها دون أن يعيث في الأرض فساداً عندما يعرف أنه ترك وحيداً أيام عجزه.. آه كم تمنيت ليلتها أن لي أبوين لم يناما الليل وهما يبحثان عني، وحينما يرياني على حالتي تلك يبكيان حتى يتفطر قلبانهما، ويضمانني إلى صدريهما، وينثران الأدعية، والحمد على نجاتي.. آه كم كنت أتمنى ذلك.. إن الأمنيات هي البلسم الذي يخرجنا من جروحنا، كما أن النسيان هو النعمة الوحيدة التي تدفعنا لعيش هذه الحياة الضنينة.

كنت أتساءل بحرقة.. كل أترابي لهم أمهات طيبات يحملن أطفالهن أينما اتجهن، فأين أمي؟.. ولهم آباء غلاظ يظلون مغروسين بين الحقول، ويعودون في المساء فتصبح وجوههم صافية كالماء، وهم يقبلون أبناءهم.. أين أبي؟.. ولم يكن يقابل سؤالي إلاَّ وجهه الصارم المتيبس كحذاء عتيق، فيبصق على وجهي ويمضي ـ هو أول من علمني الكره، وغرس بداخلي كره كل شيء ـ.. كنت كلما رأيته تمنيت أن أغدو رجلاً لأرفعه عالياً وأهوي به على الأرض.. يومياً كنت أجلده في مخيلتي، وهو يجلدني بسوطه فأتمرغ

بالأرض أحاول مسح حرقة الخيزران بالتراب، وأتقلب هادراً كجمل أجرب يتمحك بالأشجار أو يتمرغ بالتراب، ولم يتركني يوماً أتمتع بهذا التمرغ، فكان ينزل عليَّ بلجام فرسه، أو بحذائه، أو بحجر يلتقطه من الأرض، أو بأي شيء يؤجج به رماد جسدي المحترق حتى غدا هذا الجسد ميقاتاً لتغيُّر وتقلب الأيام، فمع اندثار كل جرح أتعرف على زمن جديد، وكما مضى زمن احتفلت باندثار جرح جديد.

من ذلك العهد بحثت عمّن يعينني على كسره.. كان جذعه كشجرة تين موغلة في القدم والصلابة تمد جذورها إلى أعناق أهالي القرية، وحين أهمس لهم بظلمه أجده قد سمع همسي، وكان لا يعمل شيئاً سوى الجلوس على سريره الفخم فتأتيه الأخبار ـ عن كل شاردة وواردة ـ وهي صاغرة، وكأن أهل القرى مردة أوفياء لجبروته.. بعدها وزعت حقدي عليه في كل ذرة من قلبي، وظللت أرويه ببطشه، وحين ظهرت العجوز نوار ـ تلك الكوة التي رأيت من خلالها النور ـ رأيت في عمرها الضارب في تربة الزمن عوناً ليَّ على أن نقلم جذوره ونجتثه.. أحببتها واعتدت الذهاب إلى مجلسها الليلي، والاستماع لحكاياتها الغريبة الفريدة، ومعها بدأت الحياة تنفرج قليلاً، وتتسع من خلال تلك القلوب التي وضعتني بداخلها: الجدة نوار، وعبد اللّه، ووادية، وصابرة، وموتان، وأخيراً شبرين، وعبده راجح، ومحروس، وبتلك القلوب بدأت أتحمل تعبي على أمل أن ألقيه في ذات يوم عن كاهلي.. في أول مرة تعرفت على الجدة نوار كانت بالحقول اليمانية، حين كنت أحاول أن أدفع بيدي الصغيرتين خيزرانة السوادي، فقد نسيت أن أرد الماء للبيت، وقد توجهت من رقدتي إلى الحقول مباشرة، وعندما رآني أمسكني من أذني، وهو يصيح:

ـ لماذا لم ترد الماء؟

وقبل أن أجيبه كانت خيزرانته تسعى في جسدي، ولم تفلح يداي في دفع خيزرانته، فأخذت أتلوى وأستجير بكل من أراه، ولا أحد يجيرني، وفكرت بالهرب إلاً أن معرفتي بالعاقبة الوخيمة التي تنتظرني حالت دون ذلك، فبصوته فقط سيجعل كل هؤلاء العبيد المتواجدين بداخل الحقول

يركضون خلفي ويعودون بي لخيزرانته، وربما للجام فرسه، فهو لكل حالة من حالات غضبه أداة يعاقب بها، فمرة بالخيزران، ومرة بالقايش، ومرة باللجام، وأهون أداة يجازي بها هي حذاؤه ينزله على رأس من يغضبه حتى يرأف.. وبينما كنت أصرخ وأتلوى تحت لسعات خيزرانته ظهرت الجدة نوار من بين الحقول وهي تقود حمارها الذي استقرت على دفتي شدّه حزمتا علف، وقد تبقى (منجلها) في يدها، وبادرت السوادي بصوت مرتفع:

ـ اتق اللّه في الأمانة.

فتوقف عن ضربي، وتطلع إليها بحقد:

ـ حسك عينك تزيدين.

كان صوتها ممتلئاً، ومنجلها يهتز بيدها:

ـ وحسك عينك تزيد!!

ـ خيرة اللّه عليك يا نوار.. ما يكفيك إنك تعلفين من حقولي ولا أحد يمنعك.

ـ أوكأن الأرض كلها لك.. أونسيت أن عدة أشبار ستكون من نصيبك.

تركها واقفة، ومضى، وهو يرعد، ويتوعد، وينفض يداً بيد:

ـ حريم ناقصات عقل ودين.

واقتربت مني، وحضنتني، وأزاحت (مدرعتي) عن صدري، وسحبت مقلمتها من على رأسها، وبللتها بماء شربتها المعلقة في الجهة اليمنى من شد حمارها، وأخذت تكمد الضربات التي استقرت على جسدي، ومن يومها عرفت أن هناك صوتاً يقف في وجهه، فبدأت أحبها.

قالت لي في إحدى المرات:

ـ كل الكلاب حينما ترجمها بحجر تجري أو تقف بعيدة وهي تنبح، أما السوادي فهو كلب قلما يقف أو يركض بعيداً عنك.. إنه كلب خلق لغرز أنيابه في الغادي والقاعد، وهذا النوع من الكلاب يحتاج إلى أن تغرز شفرتك في بطنه حينما يهم بتنبيك أو النباح عليك.

حينما ماتت شعرت بشيء ما يتصدع بداخلي، شيء ما له وحشة القبور الصامتة، وكان موتها صامتاً لم يحرق أي قلب، ولم يصب أحد بالفجيعة حتى ابنتها، وحفيدها تقبّلا موتها برضى وكأنهما كانا ينتظران موتها منذ الأزل، أعلم بأنهما يحبانها حباً عظيماً إلاّ أن موتها عبر حياتهما كنسمة هادئة لم تثر أدنى فجيعة. لم أحضر مجلسها ليلة موتها، وقد كنت أنوي زيارتها عندما (يهجع) الناس، فثمة سؤال ملح كان يضايقني، وكنت أظن أن لا أحد يقدر على فتح مغاليفه سواها، فخرجت أستند بالعتمة كي لا يراني أحد وأنا أتسلل إلى عشتها، وكان ثمة كشاف صغير أحمله بيدي، وأنيره في أوقات متباعدة، لكي أتجنب (الكداديف) التي تقف في وجهي، وحينما أصبحت عشتها لا تبعد عني كثيراً تريثت، وتطلعت إلى كل الجهات لأتأكد أن ليس هناك من أحد، فلمحت (ولياً) يقف على باب عشتها بحذر، وبيده كوز، وبلمح البصر دخل إلى عشتها وخرج يحمل كوزه بيده ـ ويبدو أنه غيّر لها كوزها بكوز مليء بلبن مسموم ـ. كنت أدرك أنهم يريدون قتلها، لذلك كنت حريصاً على أن أسمع منها جواباً عما يختلج في داخلي إلاّ أنهم كانوا أسرع من تفكيري.. في صباح اليوم التالي لمقتلها انتشر خبر ـ انطلق من فم خميسية ـ بأن المجنون قتل العجوز نوار.. وقد ذهبت كل محاولاتي سدى حينما أردت أن أفهم الناس بأن ولياً قتل نوار بتحريض من السوادي.

أذكر جيداً ما قالته العجوز نوار:

ـ احرص من السوادي فهو قاتلك لا محالة، إن لم تبادر إلى قتله.

وتمتمت:

ـ نعم ستقتله إن صدقَت.

وعندما سألتها:

ـ من هي التي صدقَت؟

تهربت من الإجابة، وعرفت بطريق الصدفة أن ثمة امرأة كانت تقلِّب الودع، وقالت لها:

ـ إن لم يقتله ربيبه، فلن يموت، وسوف يطلب الموت فلا يجده.

ومضى العمر وهو يقتلني يومياً، ولم أجرؤ يوماً واحداً على حمل شفرتي لبث كرشه المنتفخ، وها أنا أتهيأ اليوم لقبر نفسي دون أن تصل نبوءة تلك المرأة لأبعد من لسانها، ويبدو أنه سيعيش دهراً آخر.

* * * *

سمعت حكاية من الحاجة عائشة يوسفية لم تروِها إلاّ عندما أصبحت قريبة من القبر، ولم يعد لها في الأرض من أحد سوى بقرة ذات ضروع يابسة، وكانت تعيش في بيتها الكبير الذي غادره زوجها وأبناؤها إلى مقبرة واحدة، وظلت تعتني بها ليلى عبدية، فتقدم لها الأكل المهروس، وتقضي لها شؤونها الضرورية، وتطل عليها في الليالي تتفقدها، وقد سمعت تلك الحكاية عقب خروجي من القلعة، فقد ذهبت إلى ليلى أبلغها تحيات أبيها، وجلست عندها لوقت طويل أحدثها عنه، وعن صورته التي نسيتها تماماً، وقد جمعت حولي أبناءها وأحفادها كي يسمعوا نتفاً من سيرة جدهم الذي غيبته عنهم أسوار القلعة، وظللت أحكي لهم عنه إلى منتصف الليل، وقد حكيت لهم عن شبرين، ومحروس، والغرفة التي تقع بالحصن الصغير، والتي فاتني سماع قصتها كاملة عندما سرقني النوم وعبده راجح يحكيها، وقد وعدني أن يعيد لي سرد قصة السيدة التي كانت تقطنها، ولكننا خرجنا من تلك القلعة قبل أن أسمعها، ولا أدري لماذا قصصت عليهم قصة السجينين اللذين جنّا بعد أن سارا برفيقهما ميتاً لليلتين متتاليتين وكيف أمسك بي أحدهما دون كل المساجين، وصاح بوجهي:

ـ يحدثني عنك الموتى، ويقولون بأنك ستموت ميتة نجسة!!

وتنبهت إلى أنني ظللت أثرثر لوقت طويل، فاستأذنت لأنصرف إلاّ أن ليلى عبدية رفضت، وأقسمت أن أنام عندهم، فنمت، ومع صياح الديكة أيقظتني، وطلبت مني أن أشتري لبناً لعائشة يوسفية لأنها لم تأكل شيئاً بعد أن فرغ فمها من أي سن يمكن أن يساعدها على قضم اللقم، ومازحتني ضاحكة:

ـ لقد عادت طفلة تعيش على اللبن، وسوف أكبرها لأزوجك إياها.

وأوصتني بالإسراع لأنها نسيتها ليلة البارحة، وهي جالسة تستمع لحكاياتي، فانطلقت إلى السوق، وعدت أحمل كوزاً من لبن الأبقار، وناولتها إياه وهممت بالانصراف، لكنها جذبتني من يدي، وأدخلتني عليها، فاستقبلتنا بعتاب حار.

يا غارة اللّه يا ليلى سأموت من الجوع ولا أحد يسأل عني.

فأنهضتها وسقتها اللبن، وقربتني منها:

ـ هل تعرفين هذا؟

وأشارت باتجاهي، فأخذت عائشة تحدِّق بي بعينين ضيقتين، ورفعت صوتاً ضعيفاً:

ـ أظنه درويش.

فعقبت عليها ليلى ضاحكة:

ـ كنت أظن أن الخرف أكل ذاكرتك.. نعم هو درويش.

فأبدت عائشة يوسفية شيئاً من التذمر، وحاولت أن تنهض بعظامها البالية، لكنها تراجعت، واتكأت وهي تذرف كلمات غير مسموعة، فاعتذرت لها ليلى وغمزتها:

ـ جاء لخطبتك!!

فأطلقت ابتسامة عارية أبانت حنكها الأعلى، والأسفل، ودعتني لأن أجلس بجوارها، وبدون أن أفاتحها للحديث انطلق لسانها يدلق حكايات قديمة، ولم تكن تكمل واحدة حتى تبدأ بحكاية أخرى، وكانت أحاديثها تبهت تارة وتتوهج تارة، فقد تحدثت عن أيام شبابها، وكيف أنها كانت جميلة ومحط أماني شباب القرية ـ بينما وجهها ينبئ أن زوجها عاش سنوات طوال يندب حظه لهذا النصيب الأعمى، وتحدثت عن أيام القحط، وعن سنة سيل الدم، تلك السنة التي أباد فيها السوادي كل من ادعى أن له صلة نسب به، وروت كيف أن أباها كان يحلم بأن يصبح مرهوب الجانب من قبل أهل القرية الذين كانوا يستهزئون به، فكان من ضمن من ادعى بأن له علاقة رحم بالسوادي من جهة جدته، فقطع رأسه مع من قطع، وتحدثت أنها ورثت

حقولاً عديدة من والدتها إلاً أن أخوالها استولوا عليها وتركوها تستجدي لقمة تسد جوعها خاصة بعد موت زوجها وأبنائها، وقد روت أن ابنها الأكبر مات على يد أحد النمالية عندما حاول أن يسلبه زوجته بالقوة، وعندما جاءت سيرة زوجها ترقرقت عيناها، ودفعت زفرات حارة وروت كيف أنه رفض العمل مع السوادي بعد مقتل عمه فسحبوه من بيته حتى أوصلوه للحصن وأوقفوه كرهاً أمام السوادي الذي لم يتوان عن صفعه فما كان منه إلاً أن بصق على لحية السوادي فانطلقت رصاصة من أحد عبيده لتخترق رأسه وبعدها تركوا جثته مكانها وهددوا أن من يحملها سيموت قبل أن تمتد يده إليها، فلم يجرؤ أحد على زحزحته من مكانه حتى إذا غرب النهار تحرك أبناؤه إليه، وقبل أن تمتد أيديهم لرفع جثة أبيهم كانوا يجاورونه فقد انطلقت الأعيرة النارية من كل مكان، كانت عيناها الضيقتان تسفحان الدموع وصوتها يتحشرج وهي تذكر كيف أنها ذهبت للسوادي وقبلت قدمه لكي يسمح لها بدفن زوجها وأبنائها فوافق مشترطاً أن لا يساعدها أحد في ذلك، وقامت بسحبهم واحداً واحداً إلى المقبرة، وقد استغرق دفنهم ثلاثة أيام. . وبعد أن أنهت حكاية مقتل زوجها وأبنائه دخلت في حالة من الصمت المطبق، ولم أعلق على ما تقول طوال حديثها، وقد هممت بالانصراف لولا أن ليلى عبدية أوصتني بالبقاء معها للحظات حتى تحلب بقرتها، فجلست بجوارها ولم أشأ أن أنكأ جروحها باستفساراتي التي تحوم بداخلي، فجأة التفتت إليَّ وقالت:

ـ سوف أخبرك بحكاية لم يسمعها أحد قبلك بشرط.

ـ وما هو الشرط؟

ـ أن تقتل السوادي!!

تلعثمت كثيراً، فأردفت كمن يريد أملاً أخيراً يعيش عليه:

ـ هه هل تفعل؟

كنت أضحك في أعماقي بمرارة، وكمن لا يريد أن يفقد ذلك الأمل انطلقت تحدثني:

ـ كانت نوار ـ اللّه يرحمها رحمة واسعة ويسكنها فسيح جناته ـ في شبابها

امرأة مسترجلة، وفي تلك الأيام كان الجدري مشتعلاً في أجساد الكثيرين، وكان زوجها وأبوها يرقدان منعزلين في إحدى العشش ومغطيان بحبيبات الجدري التي تقشرت وأوشكت على الاضمحلال، وقد نفذ زادهم وأصبحت عائلتهما لا تجد ما تلوكه، فقررت الخروج وخوفاً من أن يعتب عليها الناس لترك أبيها وزوجها للمرض فقد تنكرت بزي رجل، فلبست لباس زوجها، وجمعت شعرها وغطته بمظلة وأسدلت العمامة على صدرها، وخرجت (تصرب) في الحقول، وكان طريقها يمر بقصر السوادي الكبير، وفي غدوتها ومراحها تلمح زوجة السوادي عند باب الحصن تمشط شعرها، وترسل رغبتها المتأججة عبر نظرات جريئة، ولقد لفت انتباهها هذا الفلاح الوسيم الذي لم يكن سوى نوار، وقد حاولت إغراءه مراراً، فكانت نوار تعبرها دون أن تكترث لها، ويبدو أن فعل نوار قد أثار غضب زوجة السوادي، فأمرت أحد عبيدها بجلب هذا المزارع العنيد الذي يرفض إغراءات سيدة المنطقة بأسرها، وتحت هذا الضغط استجابت نوار لهذا النداء ودخلت على زوجة السوادي الكبير، وعرفت ماذا تريد فأخذت تداعبها حتى ارتفع لهاثها فنهضت من فوقها متعللة بالخوف من مقدم السوادي الكبير، ولكن الرغبة الجامحة لتلك المرأة الشهوانية لم تهدأ بعد فجذبت نوار إليها بشدة لتسقط العمامة وتكتشف بأنها امرأة مثلها، وقبل أن تفيق من دهشتها كانت نوار قد عبرت الحصن للخارج وهي تحمل (صديرية) زوجة السوادي، وقامت من حينها بنشر الحكاية بين نساء القرية، فتناقلتها النساء في مجالسهن ووصل خبر تلك الأقاويل إلى زوجة السوادي التي تبرأت منها وتباكت أمام زوجها، وطالبت برأسها، فقام من حينه باستدعاء أبيها وزوجها ـ اللذين كانا لا يزالان يعانيان من بقايا مرض الجدري ـ وقد جلبهما العبيد محمولين وقذفوا بهما أسفل قدم السوادي الذي بصق عليهما، وأقسم على قتلهما وقطع ذريتهما من على الوجود إن لم يقطعا لسان نوار من ترديد إفكها، وفجأة كانت نوار تقف أمام السوادي وتقذف له بصديرية زوجته وهي تقول:

ـ هذا برهاني على صدق قولي فما هو برهان زوجتك؟

فكتم السوادي غيظه ودفع بها وبزوجها وأبيها إلى الخارج، وهو يتوعد

إن سمع شيئاً يمس سيرة زوجته بأن لا يُبقي أحداً منهم على الوجود.. وتقول عائشة يوسفية إن السوادي الذي بيننا هو ابن لتلك المرأة الشبقة ولا يُعرف أبوه بالتحديد فقد كان يتناوب عليها أملح المزارعين من كل القرى، ويجزم الكثيرون أنه خرج من بطنها ولكن آباءه لا حصر لهم!!

هذه الحكاية أرضتني كثيراً، فليس وحدي المشكوك في نسبي حتى سيدي لا يعرف مَنْ هو الذي دفق بمائه ليخرجه للوجود.. وقد نثرت تلك الحكاية على مسامع الكثيرين، فكانوا يهشوني كذبابة حقيرة:

ـ خيرة اللّه عليك يا درويش.. أتريد أن تهلكنا؟

قد يئست تماماً من هذه الأنفس اليابسة كأشجار الخريف، وكان عليَّ أن أنهي حياتي بأي شكل، فماذا أصنع بعد أن دنت تلك الأنفس الخضراء والتي كانت آخرها نفس مضيئة، ومتوهجة.. موتان هذا العذق الصغير الذي قطفته قبل الأوان، فقد أصيب بالحمى وكان يمكن أن يهرب من لظاها بعد أيام قلائل، ولكنني أسرعت بدفعه لمنزلق النهاية بغباء قاتل، فلقد كنت أزود أمه بدواء فاسد وأخبرها بأن سيدي يحتفظ به في خزينته لأي مرض طارئ، ولقد وجدت ذلك الدواء في ساس عشة الخدم، فبعد أن تهاوت تلك العشة وتعرى (صربها) وجدت الدواء الذي سرقته في ذات يوم لأقدمه لخضرا، وقد حملته لموتان الذي كان يبتلعه ويمعن في رحلة الموت.

لم يعد أمامي أي احتمال لكي أحفز هذه القرية لأن تخرج من تحت ظل السوادي، وقد مضى عهد طويل وأنا أحلم بأن أحمل على عاتقي جنازة السوادي، وها أنا أراه كسقف ثقيل غرز قاماتنا ودفنها، وهو لا يزال باقياً على رؤوسنا.. سأختصر هذا الحلم الذي استحال إلى كابوس مروع.. وخير لي أن أحمل (قدومي) وأتخير المكان الذي سأقبر فيه.. يقولون:

ـ إن من يقبر بجوار قبة راعي القضبة يبعث معه يوم القيامة.. فهل أختار قبري هناك؟!.. وماذا سوف أجني ببعثي معه.. ساعتها سيكون مذنباً مثلي وسوف يظل يرتعد ويتبرأ من كل من تمسح أو تبرك به، وأظن أنه من القذارة بمكان أن أترك جسدي يرتوي يومياً بهذه الدماء الغزيرة التي تسفك

بجوار هذه القبة، إني أفضل أن أموت وتتخطفني الطير لتبعد رائحتي عن هذه الأرض التي لا تعرف سوى الثغاء، آه كم من حماقات نرتكبها بحق أنفسنا وبحق من نحب، هل حقاً أريد أن أتطهر أم أنني أبحث عن الموت كي أهرب من هذه الحياة البائسة والتي لم تمنحني مكاناً فيها كي أعيش.. ليكن ما يكون فليس أدعى للموت من أن تعيش في الموت نفسه.. هذه الحياة التي نستنشقها فنموت بها.. يراودني سؤال دائم هل الحياة هي بداية الموت.. إذا كان كذلك فما فائدة أن نحلم.. ما فائدة أن نصل إلى أحلامنا ثم تقطف أنفاسنا ونوارى في لحد ضيق.. وما فائدة أن تعيش تحت جبروت إنسان يحيل الحياة إلى كابوس دائم لا تجرؤ على التنفس إلاً بإذنه ويصبح الاستئذان ذلاً إضافياً.. ما بال هؤلاء يحرصون على الحياة في حين أنها تتسرب من بين أيديهم وأصواتهم.. ما بالهم لا يمنحوننا فرصة أن نعيش بعيداً عن صراخهم الذي لا ينتهي.. هل أصبحت خاوياً لدرجة أن أتملص من هذه الحياة بوأد نفسي.. أم أنني أقوم بعمل جليل حين أقبر نفساً تريد أن تقتل كل من لا يقف في وجه الظلم، وبذلك تدفع كثير من الأنفس نحو هاوية سحيقة لا يريدونها ولم يقدموا عليها.. هل أنا الوحيد الذي أرى هذا الظلم وإذا كان كذلك فما هو ذنب من يريد أن يعيش وكفى.. وهذه حماقة أخرى حينما نقف كأوصياء على الناس ندفعهم لأمر لم يخطر ببالهم.. يبدو أنني استملحت هذه الخواطر كي أجبن عن الإقدام على دفن هذه النفس.. عفواً هل قلت دفن.. وماذا أسمي الحياة التي عشتها.. ألم أكن مدفوناً، أبصر الحياة من خلال حزني الذي لم ينفطر في يوم من الأيام، لأترك هذه الخواطر العقيمة وأقدم على ما عزمت بنفس راضية.. هل أجرؤ على أن أدفن جسدي وألمح أنفاسي تخمد رويداً رويداً.. كل ما أخشاه أن أجبن وأهرب من الموت كما هي العادة، ولا بدَّ من طريقة تنهي أنفاسي قبل أن أشعر أو أن أمد صرختي في استغاثة بلهاء.. ترى أي الطرق أفضل.. آه لو كنت السوادي لما احتجت لمثل هذا التفكير، إنه قادر على إخماد أي نفس بطرق عديدة ومتنوعة.. ولكن الموت السهل كالحياة السهلة، وليس جديراً بي وأنا الذي عشت حياة شحيحة أن أموت كما يموت عصفور غض، لا بدَّ أن

أطهر نفسي من كل دنسها ولا يتأتى ذلك إلاً بالدفن.. سوف أموت كما لم يمت إنسان من قبل حتى إن الدفن وحده لا يكفي لتطهير كل الحماقات التي عشتها باسم أنني حي ربما أنني كنت أحن للدماء فلا بدَّ أن أخرجها من جسدي.. نعم ليس هناك أفضل من تلك الفكرة التي خطرت ببالي وجزعت حينما تخيلت نفسي معلقاً من قدمي ورأسي تصب دماً بداخل بئر مهجورة وأنا أقرع به حواف البئر، ورضيت عنها حينما داهمني خاطر أن يتوقف الناس أمام جثتي ويقلبونها ويجزمون أن ثمة يداً شريرة قطفت أنفاسي، وكنت كلما تخيلت هذه الميتة وأنها سوف تحقق لي هدفاً آخر.. حينما يتقولون بأن السوادي هو الذي دبر تلك الميتة البشعة.. ولا زال هذا الخاطر يراودني بإلحاح حتى إنني أخذت أنثر كثيراً من التخيلات التي ترضي وهمي الأزلي.. والآن أيقنت بأن الناس عندما لا يستطيعون أن يفعلوا شيئاً يصبح الكلام له طعم آخر، طعم كطعم اللحم المنتن يستملحونه، ويلوكونه بنهم، وقد ينثرون زوائد القول ويسبغون البطولات على من مات بالنيابة عنهم.. حتى هذه اللحظة لا زلت أنانياً وأحلم ببطولات تتوج سيرتي المجنونة والتي أفزعت الناس في أوقات كثيرة، وهذه من الحماقات الإضافية فماذا يعني أن تكون بطلاً تحت الثرى؟.. أخال أن من غرس مثل هذا الوهم عند الناس أحد اثنين إما أحد الجبناء ليدفع الآخرين للموت بدلاً عنه، أو أنه أوهم الضعفاء الذين يستلذون بسرد مثل هذه الحكايات الساذجة بالمجد الزائف، أو لكونه صاحب طموح عرف كيف يدفع الآخرين للموت لكي يهنأ بحلمه بعيداً عن تلك الجماجم التي تساقطت أمام بيت العنكبوت.. إن الحياة لحظة صدق خالصة، وأظنني الآن أقف في هذه اللحظة.. فماذا يعني أن توجد وتموت دون أن تشعر، فالحياة عندما تسرق منك سواء بإراقة دمك أو بتسخيرك عبداً لرغبات السادة تكون الحياة ذلاً يجب أن تدفعها عنك بآخر وريد من حياتك.. آه ها أنا أواصل ثرثرتي العقيمة، وخير لي أن أموت بيدي قبل أن تهرسني قدم السوادي، أو أي قدم تسير بعشوائية.. إنني أمارس الهذيان.. أعلم ذلك فكل حياتي كانت سلسلة من الثرثرة والهذيان ولم أتمكن طوال هذه السنوات من معرفة ما أريد.. وما دمت كذلك فلا ضير في إنهاء هذه

الوساوس، وذلك بشنق هذه الرأس الخربة التي ربت أصواتاً تعسة ولم تفلح في إطلاقها في القرية كي تأتي برأسه قبل أن تطوح بالآخرين. . كانت قراءتي البسيطة التي تعلمتها بالكتاب غير كفيلة بأن تجعلني أستوعب ذلك الكتاب الذي كان يتلوه شبرين أثناء الليل والنهار، فقد كنت أقرأه بسرية، وعندما اكتشفني شبرين فرح كثيراً وساعدني بشرح بعض ما فيه ولكن رأسي كان قد تيبس وأطلق نعيقه حول من يحب. من ذلك الكتاب عرفت أن ثمَّة أناساً يعملون على إسقاط كل الرؤوس الهائمة في الفضاء بينما أقدامهم تدوس عظام البسطاء، ولم أفهم سر تلك الهبات التي اندلقت إلى قريتنا إلاَّ من شبرين الذي كان يقول:

ـ هناك دول أكثر ظلماً من السوادي تريد أن تعبد أجسادكم لتسير عليها.

في أحيان كثيرة نظن أن هاماتنا هي أروع ما في الوجود، وأننا من خلالها نقدم المعجزة الإلهية في أبهى صورها، ويأخذنا الغرور إلى خرابة لا نجد بها إلاَّ أصواتنا الناعقة بقبح معدننا ونتهاوى أمام حقيقتنا ولا نريد بعد تلك اللحظة سوى المحافظة على هاماتنا من أن ينخرها الدود فتسقط. . آن لهذه الرأس أن تقبر وساوسها بصمت وتغادر هذه الحياة كما يليق بعقرب بائس لم يجد سوى نفسه كي يلدغها ويبادلها الموت، ولم يعد أمامي الآن إلاَّ إزالته، وأرى أنه من الحكمة أن لا يزال كي لا تتطاير وساوسه وتأتي بآخرين، فقد قررت أن أدفن جميع وساوسه بداخله وأن تكون إحدى الآبار قبراً لي وله.

إن الموت هو الجنة التي نهرب إليها من بطش تلك الوجوه الممسكة برقابنا وكأننا أنعام سائبة حلَّ تذكيتها. . نعم سأهرب إلى نقطة أنتظر فيها وجوه عليها غبرة الظلم ودماء البؤساء حينما أكون أكثر مقدرة على وخزها بما صنعت. . لا هذا ليس حلماً إضافياً ولكنها الحقيقة الوحيدة التي أنتظرها بعد اليوم.

سوف تموت ميتة نجسة

نبوءة أحد سجناء القلعة

للتو وقف بعض أهل القرية على جثة أنتنت، فيما كان حاسي البئر يبرحها بجهد، كانت كل الأعين في حالة ترقب انتظاراً لمعرفة صاحب هذه النتانة التي أقسم أحد القرويين بأنه لم يشم مثلها بداخل القبور، وعندما وجد الحاسي صعوبة في جذب تلك الجثة صاح بضيق:

ـ يبدو أن أحد الحمير سقط بصاحبه في ليلة عمياء، أو أن ثوراً وقع وهو يبحث عمن ينافحه لهائه.

وقد انبرى نفر قليل لمساعدته على سحب تلك الحمولة التي عجز الحاسي من سحبها، وعندما ظهرت كانت مفاجأة للجميع حيث وجدوا جثة موثقة القدمين وقد انفض رأسها في أماكن متعددة، وربطت يداها وكمم فمها بقطعة من مدرعة حائلة اللون، فيما كانت مدلاة من قدميها الموثقتين بـ (الرشاء) وكان ثمة دم متيبس على كل أجزاء تلك الجثة التي لم يعرف صاحبها بسبب ندوب غائرة بالوجه وكذلك الدماء المتيبسة، وكاد ينطلق بعض الحاضرين إلى منجّم علّه يتعرف عليها، وهمّ آخرون بإبلاغ أعوان السوادي بهذه الواقعة إلاّ أنهم خشوا أن يتقدموا في هذا الخاطر خوفاً من أن يكونوا هم أصحاب هذه الفعلة، وبينما هم في (خجة ورجة) صاح أحدهم:

ـ انظروا إلى يديه، فهو بلا إبهامين:

عندها تصايح الجميع:

ـ إنه درويش عبد السوادي.

فألقوه جانباً وغطوه بمدارعهم، وانطلقوا يخبرون السوادي بما آل إليه درويش، وظل من بجوار الجثة يرتعد خوفاً من بطش السوادي، وقد أقسم

أحدهم بأن دم القرية سوف يسيل حتى يعرف من قتل ربيب السوادي، وقد فرَّ الكثيرون هرباً من تهمة طائشة قد تلحق بهم، والذين يتمتعون بالذكاء بقوا في أماكنهم لأن الهرب هو إثبات لفعلة ما، أو معرفة من وراء تلك الحادثة المشينة، وقد ظلت الجثة ملقية إلى ما بعد الظهر تصليها الشمس وتزيد من تشوهاتها، وعندما عاد المخبرون كانوا يسيرون ببطء وتثاقل، وحملوا مدارعهم من فوق الجثة وهم يلعنون المتوفى لعنات سافرة، وقد استغرب من بقي بجوارها من تصرف هؤلاء وعدم خوفهم من عاقبة ذلك التصرف، فرفع أحد المنتظرين احتجاجه:

ـ ألا تعلمون بأنه تابع للسوادي والويل كل الويل لمن يتجرأ على أعوانه.

فنفضه أحدهم بضيق:

ـ ولو تعلم ماذا صنع بنا السوادي عندما أخبرناه بموت درويش؟

فتصايح الحاضرون:

ـ وماذا فعل؟

لتنفتح شهية المتحدث:

ـ لقد جلدنا جميعاً، في البدء ظننا بأنه حزن على الميت ولكن مع آخر جلدة سكنت أجسادنا صاح بنا بقسوة.. وماذا يعنيني من موت درويش حتى تقلقون هجعتي بمثل هذا الخبر.. ولماذا كل هذا الفزع لموت أحد الكلاب الضالة.

وقبل أن يكمل حكايته تقدم أحد المنتظرين وبصق على الجثة، وكاد يركلها، ولكنه تراجع عن ذلك، وصاح بالحاضرين:

ـ واللّه لن أشارككم دفنه أبداً.

وترك المتجمهرين حول الجثة ومضى يصيح:

ـ لقد أخَّر علينا حضور السوق ولا بد أن كل شيء قد نفذ الآن.

وعندما سمعوا سيرة السوق تراكضوا صوب حميرهم وكأنهم تذكروا شيئاً عزيزاً كاد يفوتهم، ساعتها تقدم منه أحد القرويين، وشق صدره وانتزع مضغة ذاوية أخذ يلوكها بنهم وما إن تباعد عن الجثة حتى كانت الحِدآن تتخطف لحم تلك الجثة والكلاب الضالة تنبح بشدة لتبعدها عما تبقى من نصيبها.

يقول كبار السن:
إن السعادة كانت تسكن هنا، وعندما جاء السوادي رحلت، وهي تمسح دموعها الغزيرة.. فمن ابتغى تلك السعادة فليرحل بحثاً عنها

أهالي قرية السوداء

الليل ساتر.

ودفعت ابنتها أمامها، وأمرتها بحزم كل ما يحتاجون إليه في رحلة طويلة، وانسلت من بيت جبريل، والغضب يملأ قلبها، وقد اكتسى وجهها بغيظ متوتر.. وفي الحال هشت أمامها دوابها: حمار، وبقرة، وثلاث نعاج، وخمسة كباشة، وتيسين وخرجت إلى المجلاب، وربطتهم في عصا ووقفت متكئة عليها، يغطي رأسها مظلة انكفأت فغطت جزءاً كبيراً من وجهها، وأخذت تنتظر المشترين، كان المجلاب مزدحماً بالمتسوقين، وقد تناثر الباعة في كل مكان يعرضون بضاعتهم، وثمة جمَّالة قد أناخوا جمالهم وجلسوا (يغرسونها) بـ(عجور) غض، بينما تركوا حمولتهم جانباً وقد تنوعت فبعضهم كان يعرض صرباً، والآخر ثماماً أو أثلاً، أو عجوراً، وبائعات السمن اقتربن كثيراً من المقوات تاركات المجلاب لخوار الأبقار، وثغاء الأغنام، أو أنهن فضلن الابتعاد عن نهيق الحمير المتعالي، أما بائعو الأدوات الفخارية فقد افترشوا جوانب المجلاب خوفاً من أن تكسر تلك البهائم (كدانهم) أو (شواطرهم) أو (حياسيهم)، وقد استغل الصباغون مساحة من ركن السوق وعرضوا بزهم المصبوغ واضعين أمامهم جرادل المياه لإقناع الزبائن بجودة

الصباغة، وفي خطوط مستقيمة رفعت عليها مظلات خزفية اصطف بائعو الخضروات، والموز، والمناصف، والشفلح، والمشاقر، والعزاني، والقريشي، والكاذي، وثمّة صفوف أخرى جلست خلف بضائعها تبيع الخياطي، ويجوارهم افترش الأرض بائعو الهيل والمستكي، والزر، واللباب. كان السوق مزدحماً، والجو خانقاً وقد انتصف النهار، وهي لا زالت تتوكأ على تلك العصا تنتظر من يشتري بهائمها، التي نقصت ببيع البقرة بثمن أدنى من سعرها كثيراً، وقد اشتراها أحد القبليين، بعد مجادلة طويلة، وكاد يتركها عندما رأى أسنانها التي تبديها أكبر من سنها الحقيقية وقد فوتت عليه تلك الفرصة عندما عرض سعراً متدنياً فوافقت عليه دون تردد، وقد سحبها من أمامها بتذمر وكاد يعيدها إلاً أنها رفضت ذلك وأصرت على أن البيع قد تمَّ.. وهكذا حدث مع بقية البهائم فقد دفعت بها إلى المشترين بأثمان زهيدة، وربطت تلك النقود بـ (مصرها) وخرجت من المجلاب تجر حمارها بعد أن أيقنت بحاجتها إليه في سفرها ولكي لا تلفت الأنظار لسفرها المرتقب فقد ادعت بأنها تنوي شراء حقل يطل على الوادي، وفي أثناء عودتها سمعت خبراً أكد لها أن لا فائدة من المكوث بهذه القرية.. فقد تناقل الناس خبر موت درويش ببرود تام ولم يعلق أحد عليه سوى أن الحاسي أقسم بأنه رأى ثعابين تخرج من رأسه بينما كان مدلى في فوهة البئر، وثمة رائحة نتنة كانت تخرج من البئر مما جعل أهل القرية يلعنونه بشدة فقد قال أحدهم:

ـ ... حتى في موته لم يرحنا.

كانت تسمع خبر موته أينما اتجهت، فذرفت عليه دموعاً طفيفة وترحمت عليه في سرها، ومضت بعد أن شتمت أحد القرويين الذي تجرأ واجتز قلبه حينما نصحه أحد المطببين بمضغ قلب مجنون كي يبرأ من صرعه.. فقد (برحه) الحاسي وقذف بجثته في الخلاء دون أن يتقدم أحد لدفنه، ساعتها فقط تحرك صوبه هذا القروي وجز قلبه ومضغه بعفنه، وترك الكلاب والحِدآن تقتات منه.

عادت إلى بيتها، وجمعت حاجياتها البسيطة وانتظرت الغروب، وحينما

هطل الليل احتضنت جيلان ودفعت بصالحة أمامها وانطلقت تستتر بالعتمة وخوف مرعب يعبر فؤادها، وقد سلكت طريق الأحراج وهي تردد:

ـ لو وقف في طريقي لن أتوانى في قتله أبداً.

وقبضت على خنجر ـ اشترته قريباً ـ بشدة وتوتر فيما كان جيلان يبكي فوق الحمار الذي كان يتكبب بين الأحراج المنحدرة بعمق، وصالحة تحاول بيدها إخماد ذلك البكاء المر.

... إياك أن تترك الحزن يقتات حياتك
ما دام بروحك نفس

من وصايا العجوز نوار

لم يعد أمامي شيء سوى الخروج. . كان بشعاً تلك الليلة ـ كعادته ـ وكنت متخاذلة كعصفورة وقعت بي مخالب قط عنيد، فحينما كان يراودني عن نفسي كنت أراوده في إطلاق سراح كل من بالقلعة، وكنت أظن بأنني قادرة على ذلك أمام هذا الحيوان الذي تبدأ الحياة عنده من شهوته وتنتهي إليها، فبعد وصول خبر سجن موتان لم أعد أدري ماذا أصنع، كنت مستعدة لتقديم أي شيء مقابل خروجه من خلف تلك الأسوار التي ما من أحد يدخلها إلاّ وفقد الأمل في الخروج مرة أخرى ليتنفس بيننا. . كان هلعي طافياً، ولم أدرك نفسي إلاّ وأنا أقف على باب حصنه، فخرج عليَّ ويده لا تزال منشغلة بإصلاح عروة حوكه وتثبيته على خاصرته:

ـ حينما قال لي العبد بأنك تقفين على الباب لم أصدق.

لدغني استقباله هذا، ووجدت نفسي أتحرق شوقاً لبقر بطنه، إلاّ أن مصير موتان كان يتوقف بين أنيابه المدببة والتي لا تفتح إلاّ من أجل نفث سمه الأسود وإن كان يحاول أن يبدي للآخرين بأنه لا ينطق إلاّ حقاً، فبعد أن خابت كل محاولاتي لإخراج موتان من القلعة فطنت لما يرمي إليه، وكان بقاء موتان حياً هو الخيط الوحيد الذي يربطني بالحياة، فقد وسطت عليه الشريف حسين، وولياً إلاّ أن شفاعتهما لم ترقه، ولم يكن أمامي إلاّ أمران محددان هما: تناسي موتان، أو أن آتيه راكعة وأطلب منه العفو لحملي شرفي الناصع بعيداً عن لهاثه كل هذا الوقت، وعندما رأيت الأيام والشهور تتسابق لطمر موتان بداخل القلعة قررت أن آتيه طائعة.

بدأت الحكاية منذ ذلك اليوم الذي وقف أمامي وشدني من خصري إلى صدره، منذ ذلك اليوم شربت كرهي له، ومنذ ذلك اليوم وضعني في رأسه، كان يريد أن يقطف كبريائي مهما كلفه ذلك من صبر وانتظار، وكنت أظن أن السنوات الطويلة قد أنسته تلك الحادثة إلاَّ أنه كجمل حقود يخزن كل حقده في سنامه ويجتره على مهل، وعندما تبصرك عيناه تصبح الحياة عنده هي موتك، لم أعلم بحقده الدفين إلاَّ حينما أراد أن يفجعني في صالحة، وقد غمزني بذلك حينما التقينا صدفة عند الحقول الشامية حيث كان يتفقد حرث تلك الحقول، فقد جمعنا الطريق، كان مقبلاً وأنا عائدة، وعندما رأيته وثبت من فوق حماري، وحملت حجراً ثقيلاً ووقفت متهيئة لقذفه، وحينما وازاني، جذب لجام بغلته، وأفرط في سخريته، كانت عيناه تبحثان عن عيني الهاربتين من سطوته، وحينما ترجل عن بغلته استعددت لقذفه:

ـ لو تقدمت خطوة واحدة سوف أجعل هذا الحجر يشرب من دمك السام.

فأطلق ضحكة مجلجلة، وتقدم بحزم:

ـ ما هي أخبار صالحة؟

ـ سوف أقتلك في المرة القادمة إن أنت اقتربت منها.

زم فمه طويلاً، ورق صوته:

ـ تقتلينني. . أنا ميت منذ زمن بعيد.

ـ أعلم ذلك، والذي أريده أن أواري نتانتك.

أشاح بوجهه، وهو يقضم على شفتيه بقسوة، ثم استدار نحوي وأطلق شتائم عديدة، حتى إذا عاد إليه هدوؤه، عاد يتحدث بتودد:

ـ اعلم أن صالحة محرمة عليَّ لأنني أريد الوصول إليك، وما فعلته لم يكن إلاَّ لأعلمك بأن بمقدوري الوصول إليك متى أردت، وما صبري الطويل إلاَّ لكي تأتي راضية.

ـ أَوَلا زلت تمني نفسك. . سأعيد لك العبارة نفسها التي سمعتها منذ عشرين عاماً. . لو لم يعد في الأرض رجل سواك لما نظرت في وجهك.

ـ الصبر يقرب البعيد مهما امتد الزمن، وسنرى.

وأطلق ضحكته المقززة، وجذب بغلته ومضى يسمها بميسم حاد، قذفت بالحجر الذي بيدي، وعدت وهو يقف في مخيلتي كمارد الأثل، وسؤال حاد ينخر ذاكرتي.. ما هي خطوته القادمة؟.. وفي اليوم نفسه اقتيد موتان إلى القلعة مع الشاقي ودرويش، وكان من الغباء أن تسأل عن تهمة أي شخص يقاد إلى داخل أسوار القلعة، وكان متعارفاً بين أهل القرية أن من يقاد إلى هناك لا بد وأنه أحدث شيئاً عظيماً حمل السوادي على دفعه إلى تلك الغياهب التي لا يعلم أحد عنها شيئاً إلاً نتفاً قديمة يتناقلها الناس من خلال العسكر الذين ينزلون إلى السوق ليبتاعوا حوائجهم، كنت أتساءل ما الذي أحدثه موتان حتى يقاد إلى هناك، وقد علمت من بعض المزارعين أن الشاقي ودرويش بقرا بطون (ثيرة)(*) السوادي، وأكدوا أن موتان لم يكن معهم، وقد كنت أعمل يومها في بيت ولي فدخلت على ليلى أرجوها أن تجعل أباها يتوسط لدى السوادي لإخراج موتان، ولا أدري هل فعل أم لا فقد أخبرتني ليلى بأنه حدثه بشأن موتان فقال له:

ـ أطلب كل شيء إلاً هذا.

وارتميت تحت قدم الشريف حسين، وطلبت منه أن يرقق قلب السوادي ويخلي سبيل ابني، وقد استبشرت خيراً حينما رأيت الغضب يتطاير من عينيه، وهو ينظر إليَّ وأنا أقبِّل قدميه:

ـ أجن السوادي حينما يدفع بفتى في مثل هذا العمر إلى داخل القلعة؟!

ومضى شهر كامل وأنا أطرق باب الشريف يومياً، وفي آخر مرة قال:

ـ لقد أتى ابنك شيئاً منكراً، ولا أستطيع أن أتوسط في مثل هذه الحالات.

وكلما استفسرته عما أحدثه ابني، قال:

ـ لا أحد يجرؤ على الحديث عما فعله هذا الفتى!!

(*) ثيرة: جمع ثور باللهجة ذاتها.

ولم يعد أمامي سوى السوادي نفسه، فتزينت وأغرقت عيني بالكحل، وتسللت إلى حصنه ليلاً، وطلبت من خادمه أن يخبره بمقدمي، فخرج وهو يصلح عروة (حوكه) على خاصرته، وتحاشيت أن أكون قاسية معه، واستسلمت لجذبه إياي إلى داخل الحصن، وفي غرفته، فاتحته بالأمر:

ـ ماذا تريد ثمناً لإخراج موتان.

تقعر في ضحكة طويلة كدت معها أدفع الباب وأعود راكضة، اقترب مني ومسح دموعي:

ـ هل أنتِ نادمة على مجيئك إلى هنا؟

ـ أنت تعرف بأنه لم يعد لي في هذه الدنيا سوى موتان وأنا على استعداد أن أفديه بأي شيء.

ـ حتى عفتك؟

فصمت ولم أجب، حمل وجهي بين يديه، ورق حديثه حتى أشفقت على نفسي منه، وعندما حاول احتضاني، تملصت من بين يديه:

ـ ليس الآن.

ـ متى إذاً؟

ـ حينما أرى جميع من بداخل القلعة خارجها.

فضحك حتى ظننت أنه سيقبض في تلك اللحظة، واستعاد أنفاسه بعد جهد وكركرة متواصلة، وصرخ في وجهي:

ـ جئت من أجل موتان أم من أجل الجميع؟

فلم أرد عليه، فثار وأخذ يضرب كل شيء يجاوره، فأحسست أنني سوف أخسر الهدف الذي جئت من أجله، فأبديت دلالاً مفتعلاً:

ـ أولا أستحق هذا المهر؟!

قفزت عيناه من محجريها، وابتسم ابتسامة خفيفة ـ لأول مرة ألاحظ جمالها ـ:

ـ أوتقولين الجد؟

ـ نعم وماذا يمنع. . آه لو تعلمين بأني أنتظرك منذ ذلك الزمان البعيد، وأعدك أن أكون خاتماً في يدك.

ـ إذاً مهري القلعة.

ـ لا أستطيع بهذه السرعة ولكن امنحيني بعض الوقت فعندي سجناء من المدينة، ويجب أن أسوي أمري.

أولست الشاير والمايل في هذه الناحية.

ـ بلى ولكن هؤلاء السجناء يجب أن لا يروا النور، فهم من أخطر المجرمين.

ـ ولماذا؟

ـ هؤلاء ريدون إسقاط الحاكم.

ـ عن أي حاكم تتحدث. . فنحن لا نعرف سواك!!

ارتبك قليلاً، وثبت حوكه:

ـ هذه أمور لا تعرفونها أنتم، ولا تشغلي بالك بها، لك أن يخرج موتان هذه الليلة.

ـ أريد معه درويش والشاقي.

ـ الشاقي لا.

ـ بل أريدك أن تجبر ولياً على تزويجه من زهرا.

ـ أنت تتعمدين تعجيزي.

وهل مثلك يعجز؟

ـ لا. . أبداً، ولكن الشاقي يفتح تلك العيون ويجعلها تنظر في وجهي. . ويقودهم لمعرفة أشياء لا أود أن يعرفها أحد.

ـ لك أن لا يتكلم كلمة واحدة بعد الآن.

ـ لن أدعه يتكلم سأقتله قبل أن يفعل ذلك.

ـ ألم تشبع من الدماء. . أنا لا أريد رجلاً يأتيني في الليل ويده مبللة بالخطايا.

ـ حسناً لك ما تريدين. . ولكن إياك أن تكون خدعة. . ساعتها لن أبقي أحداً على وجه الأرض.

ـ ما دمت تريدني على سنة اللّه ورسوله فلن تكون خدعة.

ـ اتفقنا.

واقترب مني يريد تقبيلي، فابتعدت عنه:

ـ لن يكون لك ذلك الآن.

وخرجت وهو يتبعني بنظره، كانت خطواتي تسير بتلعثم، وحالة من الغثيان تجثم على صدري، وبي رغبة في التخلص من تلك الخواطر المتدفقة والتي تنعق في مخيلتي:

ـ أيتها الساقطة.

وسيل من الصور تقف أمام ناظري. . ذلك الجواد الكريه وهو يبصق في وجهي، وجدي يشيح بوجهه عني، وأبي الغارق في دمائه، والنساء وهن يقفن على عفة ابنتي، والعجوز نوار وهي تحذر منه:

ـ السوادي حنش «أبو جوهرة»(*) لا يعطيك نوره إلاً ليميتك.

كنت حائرة في هذا الوعد الذي قطعته على نفسي، ولم أكره نفسي قط كما أكرهها الآن، ولم يغمض لي جفن طوال الليل حتى إذا رأيت موتان نسيت كل شيء، لكنه لم ينسَ، ففي اليوم التالي بعث خادمته لتذكرني بالوعد الذي قطعته على نفسي، وأحسست أنني لن أستطيع الفكاك منه هذه المرة، وتذكرت بقية الاتفاق فاشترطت زواج الشاقي على زهرا، ولم يمضِ يومان إلاً والشاقي تحمله الأيدي على الأعناق، يومها تناقلت القرية حكاية الشاقي بوله، فقد قيل إن رجال ولي كانوا يتربصون به منذ أيام، وقد وجدوا في تدفق السيل فرصة سانحة لقتله وقذفه في الماء حيث أصبح الشاقي أثيراً لدى السوادي حتى إنه أصرَّ على ولي أن يزوجه زهرا.

(*) أبو جوهرة: إشارة إلى أسطورة مؤداها أن الحنش عندما يعمر طويلاً يمتلك جوهرة يخرجها من جوفه في الليل في الأماكن الخالية ليقضي ليلته يصطاد بجوارها وحين يحس بالخطر يبتلعها وقد سبق ذكر هذه الأسطورة.

وروى درويش أن عبد اللّه كان عازماً على قتل السوادي، وكان هو الرجل الموعود لتنفيذ هذه المهمة وعندما علم السوادي به حاول أن يجذبه إليه وأبدى حسن النية بأن طلب من ولي تزويج الشاقي بزهرا، حتى إذا أمن عبد اللّه مكر السوادي، أرسل إليه رجاله وأوثقوه وقذفوا به طعماً للسيل، وكأي حدث جلل ذهب موت الشاقي غامضاً ومكللاً بالأقاويل، وفي لمح البصر كان موتان يتبع خطوات الشاقي ويتسرب من بين يدي دون أن أستطيع أن أفديه من الموت، لذلك فقد أعرت أذني لكل نصيحة، وأخذت أطببه بالأعشاب، والأدوية التي كانت آخذها من السوادي بالطلب والتوسل، أو من خلال درويش الذي كان يقوم بسرقتها من حصن السوادي، ولجأت إلى الكي والحجامة حتى أصبح جسد ولدي ليس به شبر إلاّ وبه كية، أو ميسم لحجام، وعندما مات موتان أسرّ لي درويش بأن السوادي كان خلف هذا الموت حيث أرسل حجامه وأوصاه أن يضع سماً بطيئاً في ميسمه، عندها شعرت بأنني غير قادرة على قتل هذا الثعبان أو الاقتراب منه، فقررت أن أرحل إلى بلاد اللّه الواسعة وأن أدفن أحزاني مع موتان، وأن أعيش لصالحة وجيلان، فبعت كل ما أملك وتسللت ليلاً أقطع الدروب والقفار هرباً منه، وكنت كل ما أخشاه أن أجده أمامي، حيث قال كبار السن:

ـ إن السوادي له مائة نفس موزعة على جميع المعمورة ومن يهرب منه سيجده أمامه.

خرجت أنا وأبنائي وفمي يرتعد بالدعوات بأن ينجينا اللّه من هذا الموت ونذرت إن نحن نجونا لأبترن إصبع جيلان.. وها أنا أعبر البقاع وأتلفت خلفي، لم يبقَ إلاّ القليل وأوفي بنذري.

هذا الكتاب

«... إن الإنسان الذي يستطيع أن يعذبك هذا العذاب كله، أن يشقيك هذا الشقاء كله عبر رواية... مجرد رواية... لا بد أن يكون روائياً موهوباً... تحبه لموهبته... وتكرهه لأنه يذكرك بالمأساة الإنسانية...»

د. غازي القصيبي